# نظرات في بعض الملامح العامة *

## للحياة الروحية والفكرية في المغرب

بقلم : الدكتور حبيب القيسي
الاستاذ المساعد في قسم اللغة العربية

لم يعد من المنطق في شيء ان نضع خارطة اقليمية تحدد الثقافة الفكرية والروحية للامة العربية ، موضوعا وتاريخا ، فقد غدا واضحا جدا أن عملية لرصد ثقافة أمة من الامم لتحديد آفاقها ومسح أبعادها عبر مسيرتها التاريخية لا يمكن أن تخضع لمبدأ التجزئة • ويصدق ذلك تماما على امة العرب ، وثقافتها ، تلك الثقافة التي كانت وما زالت ، وستبقى ، القاعدة التي يرتكز عليها وجود هذه الامة ، وعليها يتحرك تاريخه ، وفيه ترتسم قسماته وملامحه[1] •

ان مساحات واسعة من التاريخ الثقافي للامة العربية لما يتهيأ لها أن تحظى بعناية ذات قيمة من جانبنا ـ أبناء هذه الامة ـ ونرانا في المناسبات ـ وهي كثيرة ـ نتحسس جوانب النقص هذه فنشير اليها ـ مسهبين أو موجزين ـ فنتنادى ونتواصى ، بكل خير فينعقد الاجماع ، ويبلغ الحماس ذروته ، ولكن ، كما يظهر ، يتلاشى كل شيء ، بانتهاء المناسبة • وانه لمن غير المجدي ، بل ليس علميا أن ننشغل بالاجتهاد في تحديد جهة معينة ، ونلقي عليها

---

(*) محاضرة القيت في المركز العام لجمعية المؤلفين والكتاب العراقيين في بغداد بتاريخ ١٩٧٢/١/٧ •

(١) انظر : ساطع الحصري ، دفاع عن العروبة ـ نشر دار العلم للملايين ، بيروت ـ الطبعة الاولى ١٩٥٦ المقدمة (ص ١ـ١٢) •

مسؤولية هذا التقصير ، بقدر ما ينبغي علينا ـ نحن المتخصصين بمختلف فروع المعرفة ـ من التحرك ـ أو البدء في التحرك ، لتغطية هذا النقص في موقفنا نحو تراثنا الثقافي تأريخاً ، ونقدا ، وتعريفا ، وتخفيفا من عقدة الذنب التي لا إغالي اذا ما قلت انها اصبحت امرا نتحسسه بمرارة ونحن نرى هذا السيل المتصل من الأبحاث والدراسات التي يقوم بها باحثون من غير هذه الامة ، مستشرقين ومستعربين عن تاريخنا الفكري والحضاري • ولسنا الآن بصدد تقويم هذه الدراسات والابحاث ، أو التعرض للمناهج أتبعت فيها ، لان لهذا الامر مجالا آخر •

ان بحثنا في هذا الموضوع يؤكد أمرين :

الاول : هو الانسجام مع مقتضى الشعور العربي العام بضرورة التصدي لمقومات الحضارة الفكرية لامتنا العربية ، وتسليط الضوء على تضاعيف التاريخ الحافل لهذه الامة في هذا المضمار ، محاولة لتقويم الخطى التي كانت لها على درب الانسانية الطويل • ولا أظن ان الحرص على ذلك يقتضي تبريرا يدفع تهمة ، أو يرد تقوّلا ، فقد اصبح من المسلم به أن اقامة مثل هذه الدراسات الانسانية مسؤولية كل الباحثين ، شرقيين كانوا أو غربيين ، حيث ان كل ما ينجز في هذه المجالات انما هو تراث انساني عام ، وليس خاصا بأمة من الامم ، وحري بنا ـ نحن العرب ـ أن يكون في مقدمة اهتماماتنا دراسة تراثنا الفكري في أقطار العروبة كافة • ويبدو لي أن حديثنا ـ نحن المشارقة ـ عن اخواننا المغاربة أمر هو من الاهمية بمكان ، انطلاقا من حقيقة أن العربي في المشرق أريد له ان يكون عارفا للاقل من القليل عن أخيه في المغرب ، ولا أبالغ اذا ما قلت ان ذلك يصدق في الوقت الراهن ، كما كان يقال فيما مضى من زمان •

والامر الثاني هو التأكيد على ضرورة التواصل الفكري بين جناحي العروبة ، تلك الضرورة التي تحتمها المرحلة التاريخية التي تمر بها أمتنا

العربية ، تركيزا على وحدة النضال العربى ضد معوقات التشكل الجديد لامتنا فى خضم الاحداث الخطيرة التى اصبحت اعظم التحديات لوجودها فى الوقت الراهن • وان مثل هذه الدراسات يبلور مقومات حقيقية للضمير العربى ، ويشكل منطلقا صحيحا يفرض نفسه من خلال الممارسات الجماهيرية على صعيد الوطن العربى الواحد ، كرافد من روافد الثورة العربية الواحدة •

حديثنا فى هذا الموضوع يعكس اطيافا تاريخية شتى عبر نفحات ، ولفحات نحسها بين سطور بعض المراجع ، كما نتذوقها ونلمسها فى معطيات هذه الارض الطيبة ، بأبعادها المادية والروحية ••• ولا ابالغ اذا ما قلت ان من يتصل بهذه الارض يتذوق لهوائها طعما ، كما يحس لاجوائها نكهة •

وتناول هذا الموضوع فى محاضرة واحدة أمر فيه من الصعوبة الشىء الكثير ، ومصدر تلك الصعوبة هو ان لهذا الموضوع جذورا ضاربة فى اعماق التاريخ ، ومعالجته لابد من ان تعتمد المسح الشامل لابعاده الدقيقة ، المتشعبة ، التي بدأت حركة تشكلت سطورها الاولى منذ آلاف السنين ، متفاعلة مع الظروف الزمانية والمكانية بتدافع الموجات البشرية الى هذه الارض قادمة اليها من شرقنا العربى تحمل معها النور والخير ، والحياة •

الباحث فى هذا المجال يتعين عليه ان يبذل قصارى جهده فى معرفة السبل الموصلة الى تلك الجذور ، فيتلمس تشعباتها فى اعماق التربة الفكرية فى تلك الارض ، متتبعا مختلف المظاهر للارتقاء الفكرى والروحى مستقرئا ومستنتجا ، محللا للظواهر ، حتى تكتمل الصورة الواضحة للواقع التاريخى لهذا الامتداد البشرى لامة العرب فكرا وروحا • لذلك لا أرى أن محاضرة واحدة يمكن لها ان تتسع لهذا كله • ولكن ما لايدرك كله لا يترك جله ، كما يقال • ومحاولتنا اذن سوف لا تتعدى كونها بسطا للخطوط العريضة للجانب الروحى والفكرى فى حياة المغرب •

**الجانب الروحي :**

لا نعدو الحقيقة اذا قلنا ان الاتجاه الروحي في هذا القطر كان ، ولا يزال ، يمثل صفحة ذات اهمية خاصة في تاريخه العام ، فالتصوف في المغرب قد اتخذ له سبيلا واضحاً الى جميع مرافق الحياة ، وأمكن له أن يستقطب الاهتمامات الفكرية في الوسط الاجتماعي ، ينعكس ذلك في حركة التأليف في مختلف صنوف المعرفة ، الفقهية والتاريخية ، وحتى الجغرافية حيث جاءت كل هذه حافلة بالصوفيات ، وهذا ما لم نجد له مثيلا في المشرق العربي على الرغم من أن حركة التصوف في المغرب كانت قد تفاعلت بقوة مع التصوف المشرقي باعتبارها جانبا حيا من جوانب التصوف كظاهرة عامة شملت الدين الاسلامي بمختلف امصاره ، واقطاره .

ان اطلالة عابرة على ما بين ايدينا من مصادر التاريخ المغربي تكشف لنا خطورة الدور الذي كان يلعبه التصوف في ميدان السياسة ، فالسلطة الروحية المتمثلة في بعض اشخاص الصوفية انسحبت على مجموع طبقات الشعب بمستوى ملكت معه في يدها زمام المبادرة في صوغ قوانين العرف السياسي والاداري في هذا البلد ، مما اضطر بعض العائلات المالكة الى ممالأة الصوفية للحفاظ على عرشها ، كما تهيأ لبعض آخر من الاسر المغربية أن تصل الى سدة الحكم بوساطة علاقاتها وروابطها مع الصوفية بل كانت هناك حركات صوفية كالحركة الدلائية استغلت نفوذها الروحي فاحتفظت بمقاليد السلطة السياسية لنفسها[٢] .

لقد كان للعزلة القاسية التي ضربت على المغرب لعوامل تاريخية شتى ، الأثر الكبير في خلق نظام اجتماعي خاص كان وسطا صالحا لنمو بعض

---

(٢) انظر : روم لاندو ـ تاريخ المغرب في القرن العشرين ، ترجمة ، د . نقولا زيادة ، الطبعة الاولى ـ الفصل الرابع .
و ـ عبدالعزيز بن عبدالله ـ الفكر الصوفي والانتحالية في المغرب . مجلة البيّنة الاعداد ٤ ، ٦ ـ ٧ لسنة ١٩٦٢ .

التقاليد ذات الصفة الروحية • يذكر انه عرف في المغرب منذ ايام السلطان مولاى اسماعيل ( فى القرن الثامن عشر ) نوع من هذه التقاليد ، فحواه : « أن يستدعي السلطان عند اعتلائه العرش كبير الاسرة الوزانية ، ويطلب اليه أن يقوم بالمراسيم التى بدونها لا يعتبر الملك ملكاً شرعياً • وهذه المراسيم تقوم على رمز بسيط ، وهو ان يمسك الرئيس الوزاني بركاب الجواد عندما يعتليه السلطان ، وهذه العادة يرجع اصلها الى عالم السحر الذى طبع الكثير من رمزية البشرية وطقوسها بطابعه »[٣] • ويضيف الاستاذ لاندو الذى اورد ذلك : « ان للمغرب تراثا من السحر يمتد الى وقت قصير »[٤] •

هـذه ظاهرة تضبط تاريخيا بكونها من صميم الاعراف والتقاليد المتوارثة ، ولها جذور تاريخية لا تبعد معها عن ان تكون تقاليد روحية لها منطلق دينى ، الا ان تفسير مثل هذه الظواهر فى ضوء السحر مسألة مبنية على استنتاج متكلف وغير واقعى ، فان تقلد منصب السلطنة ، وهو اخطر منصب في الدولة له بعد ان : روحى وسياسى ، وأن وجود بعض التقاليد التى يمارسها رجال يعدون انفسهم سدنة للقيم الدينية ، كالمتصوفة ، مسألة لا يصعب تفسيرها ، فهى ـ فى نظرى ـ لا تعدو أن تكون ضمن مراسيم تقام فى اهم مناسبة وهى تولى منصب رئاسة الدولة ، ولابد من أن يبرز فيها الطابع الديني على سبيل التبرك والتيمن • وقد اعتدنا ان نسمع ونقرا الكثير عن مراسيم غريبة وطقوس معقدة تلتزم حرفيا ، وحتى اليوم فى البلاط الانكليزى ، وأبلطة ملكية اوربية اخرى ، اصبح من المعروف ان لها منطلقا دينيا ، لذا يحافظ عليها بكل دقة •

---

(٣) انظر : روم لاندو ـ تاريخ المغرب فى القرن العشرين ، ترجمة د• نقولا زيادة • الطبعة الاولى ، ص ١٣٦ •

(٤) انظر : المصدر السابق نفسه •

**من تاريخ الحركة الصوفية فى المغرب :(٥)**

ان ذرى الجبال المغربية الشماء كانت قد شهدت ميلاد حركة التصوف قبل غيرها من مناطق هذا القطر ، وبقى امرها فى الجبال اقوى منه المناطق الحضرية ، عدا بعض المدن الساحلية التى كانت مهبطا للنازحين من صوفية الاندلس مثل سبته ، آسفى ، وسلا ، وكذلك بعض المدن الاخرى التى عرفت تاريخيا بكونها مراكز للاشعاع الفكرى مثل مراكش وفاس(٦) . ويبدو ان السبب فى ذلك هو ملاءمة الاجواء المطبوعة بالبساطة لمثل هذه الحركات الدينية .

ومعلوم لدى كل المغاربة ان الذين وضعوا اللبنات الاولى فى بناء الصوفية فى المغرب كانوا من الاولياء الذين يتمتعون باحترام الناس بسبب سمات التقوى والورع التى كانت تميزهم ، وكان منهم من ضرب اروع الامثلة فى التعبير عن التصوف كحركة روحية اصلاحية ، وبخاصة فى مراحلها الاولى ، حين كانت هذه الحركة قد انطلقت من اساس روحى خالص فيه الكثير من القيم والمثل . وقد كانت الفكرة الصوفية فى بداية امرها قد ظهرت فى افريقيا الشمالية على شكل مزارات مقدسة لاجداث الصحابة والتابعين الذين رافقوا ( عقبة بن نافع ) فى فتوحاته ، ويذكر أن أول مزارة من هذا النوع قبور هؤلاء الذين استشهدوا فى الفتوحات الاسلامية وقد بنيت بالجص ، واتخذ عليها بعدئذ مسجد عرف بمسجد عقبة . هذا فى القسم الذى يقع ضمن اراضى الجمهورية التونسية حاليا ، ( أى فى

---

(٥) ان من أهم المصادر التى تبحث فى تاريخ المغرب الاقصى من الناحية الدينية هو كتاب : « التشوّف الى رجال التصوف » لابي يعقوب بن يوسف بن يحيى بن عيسى بن عبدالرحمن التادلي المعروف بابن الزيات (٦٢٧ هـ/١٢٢٩-١٢٣٠ م ) ، وقد عني بنشره وتصحيحه ادولف فور ، الاستاذ بمعهد الابحاث المغربية ، وطبع فى الرباط سنة ١٩٥٨ .

(٦) انظر : مجلة « البينة » المغربية - العدد الرابع/السنة الاولى ( آب ١٩٦٢ ) ص ٤٩ .

المغرب الادنى ) ، أما في المغرب الاقصى ، فيرجح أن يكون الرباط المسمى برباط شاكر أول مزارة عرفت فى هذا القطر ، وشاكر هذا هو الآخر من اصحاب عقبة[٧] .

وقد كان للرباطات الصوفية مهمة مزدوجة ، فهى مجمع لطلبة القرآن وقرائه ، ينقطع اليها المتصوفة لتعليم كتاب الله ، الى جانب مظهر آخر هو التعبدات بالادعية والاذكار .

كان هذا امر حركة التصوف فى بدايتها : انطلاقة روحية خالصة بيد أن بعض زعماء هذه الحركة قد انحرفوا بها عن خطها الروحى الاصيل بعد أن عانت تشبعات سياسية شتى أدت بها الى ان تفقد مضمونها ، فأضلت أهدافها ، كما التوت سبلها ، وكان ذلك فى القرن الثامن الهجرى ( الرابع عشر الميلادى ) ، وتجلى ذلك باستغلال الادعية والاذكار من قبل بعض مدعى التصوف لتضليل العامة ، والوصول الى اهداف مختلفة كلها بعيدة عن الدين ، وبرزت اسماء طوائف من هؤلاء ، كالطائفة اليوسفية التى لقبت باللعونة ، وطائفة العكاكزة التى وصفت بالكفر والفسوق[٨] .

وكان نتيجة ذلك ان انحدرت هذه الحركة الى حضيض الماديات ، واصبحت مشاعة للعوام ، مما دفع المؤرخ والناقد الاجتماعى ابن خلدون الى ان يتحدث عن خصائص المتصوفة الحقيقيين ، وفرزهم من المدعين ، واضعا بذلك اساسا علميا فى نقد هذه الحركة وتقويمها . وتبعه بعد ذلك فى هذا السبيل الامام الشيخ زروق بكتابه « عدة المريد الصادق من اسباب المقت فى بيان الطريق وذكر حوادث الوقت » ، وقد سلط العلامة الشيخ زروق الضوء على الاسباب التى أدت الى ادعاء التصوف ، وانحداره الى

---

(٧) انظر : المصدر السابق نفسه .
(٨) المصدر السابق نفسه .

المستوى الذى اشرنا اليه ، وقد اوضح نقطة اساسية فى مبادى التصوف ، هى العصمة ، فأكد عدم عصمة المتصوفة الحقيقيين ، تزكية لهذه الحركة كموقف ديني خالص ينبع من المفهوم الاصيل للدين ، ويقيم جسرا متيناً بينه وبين الحياة .

ولعل من المفيد أن نشير الى بعض الطرق الدينية التى ظهرت في المغرب ، وكان لها دورها فى دفع حركة التصوف الى مهاوى الضلال ... من هذه الطرق : العيساوية ، نسبة الى مؤسسها محمد بن عيسى فى القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) ، فقد كان ابن عيسى قد رسم هذا الطريق ، ولا ينكر انه كان خالص النية ، صحيح الاتجاه الا ان اتباعه ، وكان جلهم من الفقراء ، اندفعوا الى اعتناق هذا الاتجاه شكلا لا روحا ، مما ادى الى ان يكون هذا الاتجاه لديهم عبارة عن ممارسات لاساليب متخلفة كالتى توصف باساليب الدرويش ، مثل الرقص ، واقامة حلقات الالعاب الخارقة ، انتهاء الى فقد الاحساس والخروج عن الطور ، وهذا انحراف يبتعد عن الاتجاه الصوفي الاصيل .

من هذه الطرق ايضا تلك المسماة بالدرقاوية التى ظهرت في القرن الثانى عشر الهجرى ( الثامن عشر الميلادى ) ، وكانت تتمتع بنفوذ واسع وسلطة قوية على الصعيدين الشعبى والرسمى ، الا انها لم يكن حظها من التردى فى متاهات الضلال باقل من حظ سابقتها .

وهناك طريقة ثالثة تدعى بالتيجانية ، ظهرت فى هذه الفترة نفسها ، كانت قد عرفت بالحرص على الدين تنظيما وغاية ، وهذه الطريقة لا تزال متبعة في السنيغال ، وبعض اقطار افريقيا المسلمة ( المدعوة بالسوداء )[٩] .

---

(٩) انظر : روم لاندو ـ تاريخ المغرب فى القرن العشرين ( ترجمة نقولا زيادة ) الطبعة الاولى ـ ص ١٣٨ .

**بين التصوف والسياسة في المغرب :**

اشرنا قبل قليل الى ان السلطة في المغرب كانت روحية الى جانب كونها زمنية ، أو سياسية • ولما كان التصوف واجهة لحركة روحية منطلقة من قاعدة الدين ، وقد وجدت سبيلها الواسع الى قلوب جماهير الشعب ، فقد كان لملوك المغرب علاقة بهذه الحركة ، اتخذت صفة الايجاب حينا ، وصفة السلب احيانا ، وكل ذلك في ضوء المبادىء التي طرحتها هذه الطرق الدينية وممارساتها التي كان لها آثارها في الحياة الاجتماعية العامة ، والسياسية على وجه الخصوص ، باعتبارها نقطة الاحتكاك بين السلطة وهؤلاء • لذا كان من الطبيعي أن يميل ملوك المغرب عموما الى المتصوفة ميلا مبدئياً ، الا انهم لا يترددون في التضييق على أدعياء التصوف ، ومحاربتهم حين تبرز هذه الطائفة في مجالات الحياة وكأنها تريد فرض نفوذها على الجميع ، واجبار السلطات الحاكمة على السير وفق ما تشاء •

ويرى بعض الباحثين ان سوء العلاقة بين السلاطين المغاربة والمتصوفة كان يعزى الى سببين •

اولهما : تضخم حجم هذه الحركات بحيث اصبح متعذرا أن يفرز الدعي ويشخص الاصيل •

وثانيهما : سعة نفوذ المتصوفة ، واستقطابهم لجماهير الشعب المغربي ، ذلك الشعب الذي كان مدفوعا ـ بحسن النية ـ الى تعضيد الدين ، واعلاء شأنه بالتفافه حول هؤلاء الذين كان من اليسير عليهم آنذاك جذب الآخرين اليهم ، أو حتى فرض هيمنتهم الروحية عليهم • وكان نتيجة ذلك اثارة مخاوف بعض الملوك من مناورات يقوم بها هؤلاء ، تستهدف قلب انظمة الحكم ، أو تهيئة الفرص لمنح هذا الحكم الى هذه العائلة أو حجبه عن تلك • ويشار في هذا الخصوص الى ما كان لنفوذ الصوفية من الاثر البالغ

في اعتلاء عائلة السعديين سدة العرش ، كما سيأتي ذكر هذا بعد قليل[١٠] .

يذكر ان ملوك المرينيين في بادىء أمرهم ، لم يكونوا يخشون الصوفية ونفوذهم ، لان دولتهم كانت قوية الجانب ، لذا كانت علاقتهم بالصوفية يسودها جو من الهدوء ، بيد ان هذه العلاقة قد تكدر صفاؤها حين اعتقل بعض هؤلاء المتصوفة في مدينة فاس ، وكان ذلك ايذانا بتدهور علاقتهم بملوك بني مرين ، اضافة الى ما ذكر عن بعض امراء المرينيين والوطاسيين من ميل الى التحرر الديني الذى اتخذ صفة الانحلال احيانا ، مما دفع المتصوفة الى السعي لازالة هؤلاء من الحكم . وبدأت الدعوة لذلك في منطقة سوس حين قام متصوفاها عبدالله بن عمر المدغرى ، وعبدالعزيز القسطيني بالتمهيد لدولة محمد الشيخ السعدى ، فاندلعت شرارة الثورة السعدية في سوس وعمت البلاد فالتهمت ما تبقى للوطاسيين من نفوذ .

والغريب في الامر انه لم تكن لهؤلاء المتصوفة على الرغم من كل ما عملوه علاقة طيبة بالسعديين ، فقد انقلب مؤسس الدولة السعدية محمد الشيخ السعدى على الصوفية ، فامتحن ارباب الزوايا ، ونكل بهم بحجة اتهامهم بحفظ ودائع بني مرين ، وأعاد فرض الضرائب عليهم بعد أن كانوا اعفوا منها قبلا .

ولما ضعف امر السعديين على ايام زيدان استقل المجاهد العياشي الصوفي بالامر في كثير من نواحي المغرب ، وكانت شوكة الصوفية آنذاك قوية ، فقد بلغت الزاوية الدلائية عنفوانها فتحفظ زيدان في سياسته تجنبا لاثارة ارباب الزوايا ضده . لكن حدث ما هو متوقع في مثل هذه الظروف التي تتميز بالضعف السياسي ، فقد قام شغب سياسي كبير ، قاده ضد زيدان احد

---

(١٠) انظر : مجلة « البينة » المغربية ـ العدد السابع ( نوفمبر ١٩٦٢ ) ص ٩٠ـ١٠٢ .

الادعياء وهو احمد بن ابى محلى الذى دعا لنفسه وجمع حوله اعدادا ضخمة من الناس ، وتمكن من ايقاع الهزيمة بوالى السعديين بسجلماسة واحتل درعة ، وطارد السعديين الى مراكش ، فأخرج منها زيدان ، ولكن هـذا الاخير استنجد بأهل سوس فقاموا ضد ابن ابى محلى وقتلوه[١١] .

ولما استقل الملوك العلويون بالنفوذ فى المغرب قضى مولاى رشيد على زاية الدلاء بعد معركة دارت بينه وبين اهلها فى ( بطن الرمان ) اوائـل المحرم عام ١٠٧٩ هـ .

وقد سخط المولى اسماعيل ، كذلك ، على اهل الزوايا وشدد عليهم ، واستقدم كثيرا منهم لامتحانهم ، ومنهم مولاى التهامى الوزانى . وأمر المولى اسماعيل بسجن احمد ابن عبدالقادر بن محمد بن مبارك التستاونى بفاس عـام ١١٠٤ هـ .

وهكذا نلاحظ ان الصوفية لم تحافظ على علاقات طيبة مـع ملـوك المغرب فترة من الزمن الا وسرعان ما تسوء طيلة هذه الحقب التاريخيـة نتيجة التصادم الذى يحصل بينها وبين الحكام لسبب أو لاخر .

والتاريخ الحديث كذلك يشهد على غيرة ملوك المغرب على الحنيفيـة السمحة وخوفهم من تسرب البدع الى الدين عن طريق اهل الدعاوى من المغرضين ، والذى نعلمه هو أن الملك الراحل محمد الخامس رحمه الله كان قد اصدر ظهائر(*) ملكية يمنع بها هذه الامور منعا باتا[١١] .

وذلك يفسر ، تاريخيا ، الرسالة التى ارسلها الامام ابو بكر الطرطوشى من الاسكندرية الى سلطان المغرب ، التى اشار فيها الى ان اهل المغـرب هم المشار اليهم فى الحديث النبوى : « لا يزال اهل المغرب ظاهرين عـلى الحق حتى تقوم الساعة » لما كانوا يتحلون به فى العصور الاولى من تاريخهم

---

(١١) انظر : المصدر السابق نفسه .

* الظهائر : جمع ظهير ، وهو اصطلاح مغربى يعنى المرسوم .

الاسلامى من تمسك باهداب الدين ، وابتعادهم عن البدع ، تلك التى عصفت اذ ذاك في كيان الشرق الاسلامي عن طريق الطوائف الضالة ونظرياتها الشاذة ، التى نبعت من أرض غير عربية ، وحملتها قلوب غلف ، بيتت ، وترصدت ، فأوقعت حينا ، وغلبت احيانا •

**الصوفية والوجود الاجنبي في المغرب :**

ثمة جانب خطير من جوانب حركة التصوف فى المغرب ينبغى التعرض له ، ولو بشيء من الايجاز ، ذلك هو موقفها من محاولات الغزو الاجنبى فى بدايته ، وتأييده حينما وقع ، وتذبذب هذا الموقف بعد ذلك عبر الظروف التاريخية التى مر بها هذا القطر ، فقد كان موقف المتصوفة وطنيا خالصا فى بادىء الامر حين قاوم محاولات الاحتلال الاجنبى ، ولكنه انقلب الى مهادنة ، فدعوة للاستسلام والتعايش مع الاجانب المحتلين اخيرا •

من الثابت فى تاريخ المغرب ان زوايا الصوفية ، بالاضافة الى كونها مراكز للنشاط الدينى ، كانت نقط الالتقاء الرئيسة للحياة الوطنية والمقاومة ضد محاولات الاسبان والبرتغاليين للسيطرة على المغرب ، وكانت تصف هؤلاء الاجانب بكونهم اعداء كفارا • ولكن هذا الموقف قد شهد تحولا فهادن هؤلاء الغزاة ، واستسلموا لدعاواهم ، بل سعوا الى التحالف معهم على مرور الزمن استجابة لاساليب المستعمرين الذين ادركوا أن اخصر الطرق واجداها لتثبيت وجودهم فى المغرب لابد من ان يمر من هذه الطرق الدينية، واستمالوهم الى جانبهم وفازوا ، فأقبلوا على التعاون مع الادارة الفرنسية وتجلى هذا التعاون بصورة واضحة سنة ١٩٥٣ عندما خلع الملك محمد الخامس عن عرشه ونفى الى خارج البلاد ونصب مكانه احد صنائع الفرنسيين •

ان هذه الحقبة مثلت منعطفا تاريخيا بارزا جدا فى صوغ نمط الحياة التى عاشها المغرب والمستقبل الذى ارهص له بهذا التحول الكبير الذى

شهدته هذه البلاد التى فتحت ابوابها امام الاستمار بعون وتأييد من الداخل، يذكر ان شيوخ الطرق الدينية الذين شكلوا أقوى مرتكزات الاحتلال الاجنبى استغلوا جهل اتباعهم من الناس فاقنعوهم بان واقع الانتصارات الاولى التى حققها الفرنسيون فى المغرب ، لم تكن انتصارات جاءت عن طريق التفوق العسكرى المادى ، بل كانت نتيجة قوى خارقة للطبيعة امتاز بها هذا الشعب الغازى ، وكأن له دورا تاريخياً ، عليه ان يلعبه فى ادارة بعض الشعوب الاخرى الضعيفة لمساعدتها على التمدن والتحضر • وهذا اعظم انتصار يمكن ان يحققه الاستعمار فى البلاد التى يغزوها ••• لذلك لا يعود غريبا علينا فهم ما جنته هذه السياسة الاستعمارية من تعميق جذورها فى شتى مظاهر الحياة المادية والمعنوية لبلد هذه بيئته الاجتماعية وظروفه الفكرية العامة •

لقد كانت المواقف المحزنة التى وقفتها الطرق الدينية حيال الاستعمار لا تنحصر عند حدود ، فقد تورط بعض رجال هذه الطرق فى مواقف سياسية خطيرة ، فان شيخ الدرقاوية «مولاي عبدالرحمن» أوصى بالطاعة والتسليم للسلطات الفرنسية سنة ١٩١٢، كما كان لشيخ الوزانية «مولاى عبدالسلام الوزاني» • سنة ١٨٨٣ تأثير كبير على اتباعه تجلى فى حملهم على ان يقدموا للفرنسيين خدمات جلى ، فأيدو الغزو الفرنسى فى الصحراء الكبرى أولا ، ثم فى المغرب ثانيا ••• وذهبوا الى ابعد من ذلك بقيامهم بالدور الكبير فى استسلام الزعيم الريفى الامير عبدالكريم الخطابى سنة ١٩٢٦ ، فاستحقوا لعنة التاريخ •

اما الكتّانية ، وشيخها عبدالحي الكتّاني ، فقد كانت ، وكان ، خير ما يصوّران كيف تستطيع طريقة دينية أن تتخلى عن غاياتها الدينية فى سبيل التوصل الى مكاسب سياسية ، مادية • والكتاني يعدّ بحق من أبرز الرجالات المغربية التي يمكن وصفها بالولي المحترف • كان عظيم الولاء لفرنسا ،

ومن أكبر الدعاة ضد القضية الوطنية الى درجة انه ساهم سنة ١٩٥٣ مع التهامي الجلاوي ( الجلاوي باشا ) فى الحملة ضد السلطان محمد الخامس واغتصاب الملك منه ونفيه الى خارج بلاده كما أشرنا قبل قليل .

ولكن ... على الرغم من كل ما قلنا ، تعود الدرقاوية التي سبق ذكرها ، والتي ارتبطت بفرنسا ارتباطا مصيريا وثيقا ، تعود هذه الطريقة لتناقض نفسها فى تأييدها لالمانيا الهتلرية عند نشوب الحرب العالمية الثانية . ويذكر ان شيخ هذه الطريقة كتب بضع رسائل شخصية الى هتلر ، كما ان اتباعه اجتمعوا فى الزوايا المتعددة يشكرون الله لانه ألهم هتلر محاربة الفرنسيين وأمده بعون منه ، ونصر(١٢) .

وعن تذبذب موقف الطرق الدينية من الاستعمار الفرنسي هذا يورد المؤرخ روم لاندو تعليلا هو : « ان شيوخ الطرق يميلون الى المال والنفوذ . وهم يعرفون انهم إن قاوموا الدولة الحامية ، فأنهم لم يحصلوا على أي منهما »(١٣) .

وهذا الرأي لاحد المختصين بشؤون الطرق الدينية فى شمال افريقيا كما يذكر لاندو ، ويضيف اليه : « ومع ذلك لم تعلن الطرق الدينية كلها تكاتفها مع الفرنسيين صراحة ، فأن البعض الآخر منها ، بالرغم من انه كان يقبل الهدايا و « الخدمات » التي كان الفرنسيون يقدمونها الى الطرق ظل يتأرجح فى موقفه ، إما لانه لم يكن واثقاً من أن سيطرتهم على الاعضاء والاتباع لم تكن سيطرة تامة ، أو لانهم كانوا يرون فى هذا التأرجح ما قد يزيد فى قدر المكافأة التي كان الفرنسيون يمنحونها . والقلة التي كانت حقا طرقا دينية صرفا جرّبت أن تظل بمعزل عن المشاكل السياسية »(١٤) .

---

(١٢) و (١٣) : انظر : روم لاندو ـ تاريخ المغرب فى القرن العشرين ص ١٤٠ .

(١٤) المصدر السابق ص ١٤٠ـ١٤١ .

ويعلّل المؤرخ لاندو انسياق هذه الطرق الدينية في سبيل تأييد الاستعمار الفرنسي قائلا : « ان الطرق الدينية كانت تتعلق بأوهى الاسباب لتحول دون فنائها المحقق باعتبارها هيئات تناقض الحياة وتعيش على هامشها • فانعزالها عن التيارات الحديثة ، وجهلها بوجودها ، خلق حولها جواً يسّر لها النمو وأتاح لها فرصة البقاء • وقد كان مجيء الفرنسيين كفيلا بالقضاء حتماً على سلطتها المهلهلة فرأى زعماؤها ان خير ما يمكن أن يعملوه هو ان ينضموا الى القافلة بدل ان تدوسهم الاقدام التي لا تقاوم »[١٥] •

هذه نظرة النقاد الغربيين في تحليل احدى الظواهر الاجتماعية في بلد اسلامي عاش فترة تاريخية فيها الكثير من الملابسات السياسية التي كان الوجود الغربي أساسا في خلقها وتصاعدها • وأكاد أتبين بكل وضوح ان هذه التحليلات فيها من النيل والتجريح والنقد اللاذع للدين الاسلامي اكثر مما فيها من هدوء النظرة العلمية ذات الوضوح والنزاهة الموضوعية •

أكاد لا أفهم كيف يكون الانعزال عن التيارات الحديثة ، والجهل بالوجود ـ لوحدهما ـ دون تواجدهما في مناخ اجتماعي ـ سياسي خاص ، كيف يكونان عاملين رئيسين لخلق الجو الذي ييسر النمو ويتيح البقاء لحركة دينية ـ كما رأى المؤرخ لاندو ـ • الذي يسهل فهمه هو ان الطرق الدينية ، في مراحلها كافة ، وبخاصة في تصاعدها وانحدارها لا تنفك تتجه دوما الى تأصيل تيارها وتعميق مجراها في أوساط المجتمع الذي تعيش فيه توصلا لاهدافها ، مهما كانت تلك الاهداف • وهذا لا يمنع من أن تسقط تلك الطرق في انحرافات ، يسيرة أو حادة عن أهدافها الحقيقية • وقد شهدت فعلا حقب تاريخية مثل هذه الانحرافات ، الاّ أن قيمة هذه الحركة الدينية بمفهومها الصحيح وتأثيرها الاجتماعي ، مع ذلك ، يبقيان أمرا غير

---

(١٥) المصدر السابق ص ١٤٠ـ١٤١ •

قابل للنقاش ، وبخاصة فى مجتمع كالمجتمع المغربي كان ، وما يزال ، عبر تاريخه الطويل متشبثا ، والى حد التزمت أحيانا ، بكل ما يتصل بالدين من بعيد أو قريب ، حتى أصبح ذلك تقليدا طبع هذا الشعب على امتداد تاريخه •

هذه الطرق الدينية ، كما أرى ، لم تفقد تأثيرها الاجتماعي فى كل أدوار التاريخ المغربي ، كما ان أصحابها كانوا ينشدون العون والتأييد لها من كل جانب ، ولا يناقشون كثيرا نوايا من يؤيدهم ، أخذا للامور بالبساطة التي يعتمدونها أساسا فى تعاليمهم كما انهم من جهة ثانية لا يتورعون عن مناصبة من يتصدى لهم العداء ، يرمونه بالضلال والزيغ ، وتنكّب جـــادة الحق سواء كانوا مصيبين فى ذلك أم غير مصيبين •

هذا فى حالة تصورنا للحركة فى خطها الاصيل • اما انحرافها عن أهدافها الدينية الحقة ، فان ذلك يشكل عوامل هي من طبيعة اخرى فى تفسير هذا التأرجح فى موقف الطرقيين تجاه الاستعمار الفرنسي للمغرب •

خلاصة الامر : ان رأي الاستاذ روم لاندو لا يوضح هذه الظاهرة ، ولا يحللها الى عناصرها بصورة علمية • وعندي ان هذه العلاقة بين الاستعمار الفرنسي للمغرب من جهة ، وبين أصحاب الطرق الدينية من جهة اخرى ، بكل ما ظهرت فيه تلك العلاقة من صور ، كانت النتيجة الطبيعية التي خلفتها ظروف المغرب وهو يرزح تحت هذا الاستعمار الذي كان يغذّيه ويقوّي ركائزه ذهنيات فرنسية بارعة من الاوساط الاكاديمية والجامعيـــة كـــانت الجحافل القوية التي مهدت للاستعمار الاستيطاني فى عموم أقطار أفريقيا وبخاصة أقطار المغرب العربي • وهذه العلاقة الجدلية بين الطرق الدينيـــة والاستعمار الفرنسي هي التي يمكن اعتمادها منطلقا لتفسير شمولي لهـــذه الظاهرة •

ان هذه الطرق الدينية وما رافقها من ملابسات سياسية ودينية فى

مجتمع تتحكم فى حياة الغالبية العظمى منه نزعة روحية قوية قد ارهصت لحركة مضادة كرد فعل اتخذ شكل حركة اصلاحية جذرية منطلقة من مدينة فاس ، مؤمنة بأن لا سبيل الى تجديد الحياة الطبيعية الا بوساطة روح جديد يجب أن يولد ، أي ان الخلاص لابد من أن يكون متأتيا عن طريق الروح • وكان من أبرز قادة هذه الحركة الاستاذ علال الفاسي ، وركزت هذه الحركة هجومها على الكتانية وزعيمها عبدالحي الكتاني الذى اتّهم بالتشهير بالاسلام عن طريق تأييد الخرافات التي كان أمرها شائعا بين الناس •

كان لهذه الحركة التصحيحية فى مجال الدين نشاط كبير ، وقد استهدفت الطرق الدينية عموما ، فتبلورت هذه الحركة بحزب الاستقلال ، وقيمه الروحية ، وسميت بالحركة السلفية التي لا زال لها أتباع وأنصار فى الوقت الراهن ، ولها تراث قيّم(١٦) •

وحين أحس زعماء هذه الحركة السلفية بضرورة الانطلاق بالعمل المنظّم ، سمّوا حركتهم بـ ( حركة الاصلاح الديني ) التي انطلقت من جامعة القرويين ، فقد كان أول داعية لها الشيخ عبدالله السنوسي أحد علماء هذه الجامعة ، وكذلك تلميذه الشيخ محمد بن العربي العلوي ، وأبو شعيب الدكالي ، وقد تمكن هؤلاء من أن يستقطبوا نخبة من الطبقة المثقفة التي كان لها دور كبير فى نشر مبادىء هذه الحركة •

ومما هو جدير بالذكر ان هذه الحركة السلفية كانت أفادت من المدرستين السلفيتين اللتين كانتا معروفتين آنذاك فى بلاد الهند ، وفى مصر والعالم العربي ، فكان لها طابع سلفية الهند ، الاجتماعي ، والطابع السياسي الذي كان يميز السلفية العربية •

---

(١٦) انظر : علال الفاسى ــ « حديث المغرب فى المشرق » طبعة مصر، سنة ١٩٥٦ • وبصورة خاصة محاضرته فى ص ٣ــ٢٩ بعنوان : « الحركة السلفية فى المغرب » والتى القاها فى الجامع الازهر •

وكان أول صدام بين هذه الحركة والسياسة الفرنسية فى المغرب قد حدث بعد استسلام الزعيم الريفي الامير عبدالكريم الخطابي وانتهاء الحرب الريفية ، حين أصبح العداء سافرا بين حركة الاصلاح الديني هذه ، وبين الفرنسيين ، الذين أخذوا يعملون على مقاومة الدين الاسلامي ، وفرضوا المناهج الرسمية لفرنسة المغرب عن طريق تمسيحه بصورة اكراهية وعلنية ، وصدر الظهير البربري فى (١٦) مايس ١٩٣٠ ، فكان ذلك بدء العمل الكفاحي لجنود هذه الحركة وأعوانها مندفعين فى سبيل ذلك دينيا وسياسيا ، فامتد ذلك الكفاح الى الجوانب الادبية والثقافية والاجتماعية التي يتطلبها انشاء كيان خاص بطائفة اسلامية تؤمن بالله ، وبالتقدم ، وبالحرية ، كما أعلنوا(١٧) .

وتعتبر الفترة التاريخية التي قادت هذه الحركة خلالها معارك ضارية ضد الاحتلال الاجنبي ، وقد ناهزت ربع القرن من الزمان ، هي الفترة التي استطاعت هذه الحركة أن تخلق فيها مواقع وطنية للنضال ، وأن تسعى حثيثا فى سبيل تعزيز هذه المواقع فى جبهات الثقافة والفكر والاجتماع ، فهيأت بذلك السلاح الفعال ، والضروري لاجبار سلطات الاحتلال على الرحيل من هذه الارض المحتلة .

ومما حققته هذه الحركة السلفية التجديد فى اسلوب الوعظ والخطابة الدينية ، فأفادت اللغة العربية من هذا تنشيطا وتجديدا ، واندفعت النفوس توّاقة الى ما هو نقي صحيح يخاطب العقل وينسجم مع المنطق ليحل كل ذلك محل الخرافات والاوهام التي كان الوعاظ ، والخطباء يضللون بها عن قصد ، أو ربما عن غير ما قصد .

كذلك يذكر للسلفية فضل آخر ، هو من الخطورة بمكان عظيم ،

---

(١٧) المصدر السابق .

ذلك هو تجديد أساليب التعليم ، فأسست فى مدينتي فاس والرباط المراكز الانموذجية الاولى للمدارس القرآنية المجدّدة ، كما أسست مدارس حرة تقوم على تطبيق برامج عصرية متضمنة التعليم الديني • كذلك قامت بتجديد أساليب التدريس فى جامعة القرويين ، والمعاهد الدينية ، وطالبت بتنظيمها وتطعيمها بالعلوم العصرية المتطورة • وتوجت تلك المطالبة باصدار مرسوم ملكي بتنظيم القرويين وتقسيم التعليم فيها الى قسمين : قسم الآداب ، وقسم العلوم الدينية ، كما أحدث فرع نسائي للتعليم فى جامعة القرويين للحصول على شهادة العالمية تمشيا مع الروح الديني الاسلامي الذي لا يفرق بين الرجل والمرأة فى طلب العلم •

ان فرنسا التي كانت قد شجعت الطرقية فى عهد المقاومة المسلحة المغربية ، وكانت تجد فى أغلب المشايخ الطرقية تأييدا وعونا ، قلبت لهؤلاء ظهر المجن ، ولم يعد يهمها من أمرهم شيء بعد أن تمّ لها الاحتلال العسكري الكامل للمغرب سنة ١٩٣٤ ، ولم تبق ( لها الا علاقة بعبد الحي الكتاني ، والحبيب الفيلالي ، اللذين لم يتأخرا عن بذل أي مجهود فى سبيل تأييدها ، ولكن حتى هذان لم تجد فيهما غناء حينما حلت الحرب العالمية الثانية ، فاضطرت الى أن تخلق من جديد مشايخ يستكتبون لها المتطوعين فى الجيش لتأييد حكومة ( فيشي ) ، فأسست طريقة دينية أسمتها ( الطريقة العالية ) نسبة الى شخص اسمه ( عبدالعالي ) أمدته بكل ما أراد من مال لبناء زاويتين كبيرتين فى كل من الرباط والدار البيضاء ، فما كان من السلفية الا أن تتصدى لهذا الاجراء واستطاعت أن تكشف الامر للشعب ، فأصدر الملك أوامره للمحكمة الشرعية فى الرباط لتنظر فى هذا الشأن ، فصدر القرار باقفال هذه الزاوية ، ثم أصدر الملك مرسوما يقضي بمنع تأسيس أية طريقة دينية جديدة بغير اذن مسبق منه ، وعدم جواز اعطاء هذا الاذن الا بشروط تدخل فى اطار ما اشترطه علماء هذه الحركة

السلفية • وقد أدى صدور هذا المرسوم سنة ١٩٤٦ الى قيام أزمة حادة بين المقيم العام الفرنسي ، والقصر الملكي[١٨] •

يتضح مما تقدم أن اساليب الاستعمار ، أي استعمار ، واحدة ، وان اختلفت اسماؤها وأشكالها ، فقد حلّت هذه الطرق الدينية التي اصطنعها الاستعمار الفرنسي ، أو أوجدها ، في المغرب العربي ، محل الشركات والمؤسسات التجارية التي انشأها الاستعمار البريطاني في المشرق العربي ، في هذه الفترة التاريخية ، للاغراض الاستعمارية نفسها •

**الجانب الفكرى والثقافى فى تاريخ المغرب :**

الحديث عن هذا الجانب في المغرب لا يختلف كثيرا عنه في أي بلد آخر من بلاد العروبة ، في الخطوط العامة مع اختلافات بسيطة في بعض الجزئيات •

يؤكد الباحثون ان المغرب قد بقي ، والى عهد قريب جدا ، معزولا عن العالم شرقيّه وغربيّه ، بكل ما فيه من تيارات التجدد الفكرية والثقافية خلافا لما رأيناه في الاقطار الشرقية من العالم العربي ، فعزلة المغرب هذه قد بدأت منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر حتى أوائل القرن العشرين ، قبيل الحرب العالمية الاولى ، وكان مظهر عزلته عن الشرق غيابه عن المشاركة في التحرك لمقاومة الحكم العثماني الذي كان يبسط نفوذه على هذا الجناح من العروبة ، وقد زاد هذه العزلة استحواذ فرنسا على الجزائر سنة ١٨٣٠ ، وكان من الطبيعي ان لا يبقى المغرب بنجوة من الاستعمار الفرنسي ، وفعلا بدأت فرنسا بالاغارة على هذا البلد ، واشتبكت مع قواته في معركة ايسلي سنة ١٢٦٠هـ/١٨٤٤م وكان ذلك بدء السياسة العدوانية لفرنسا ضد المغرب ، كما ان اسبانيا أعلنت هي الاخرى الحرب على المغرب سنة

---

(١٨) المصدر السابق •

١٢٧٦/١٨٦٠ هـ واحتلت تطوان ... وتتابعت الاحداث فى المغرب سريعة حتى انتهى الامر بارغام المغرب على توقيع معاهدة الحماية فى ٣٠ مارس ١٩١٢ .

وموقف المغاربة من هذا الاحتلال ، كان موقف الشعب الجريح الذي لم يتخاذل فنشط مناضلا ، مجاهدا قوى الشر التي تكالبت عليه من كل جانب ، فضرب أمثلة بطولية رائعة فى سبيل ارجاع المغرب الى عروبته واسلامه ، ولا يزال يجاهد فى سبيل تنقية مسيرته من تركات الماضي الثقيلة منذ أن انتزع استقلاله سنة ١٩٥٦[١٩] .

هذا هو الماضي القريب الذي عاشه المغرب قبل الاستقلال ، أما فيما بعده وهي فترة قصيرة فأن محاولة رصد الحياة الفكرية والثقافية بصورة دقيقة قد يكون امرا شائكا ، بسبب قصر الفترة هذه ، ولكن مع هذا قامت محاولات نقدية لواقع الفكر والثقافة فى المغرب ، وقد تجاذبها نوعان من الاتجاهات : الاول ـ اتجاه واقع تحت وطأة التشاؤم ، لا يتعدى حدوده الضيقة ، ولا يتجاوز سلبياته ، والآخر يمكن أن يدعى بالاتجاه الواقعي الايجابي . فهو يعتمد النظرة الموضوعية منطلقا ، والايجابية هدفا .

ان هذه الاقلام قد اتخذت من الصحافة اليومية والمجلات الدورية مجالا ، ومن المنتديات الثقافية وسطا ومنبرا ، فقد تعالت صيحات المثقفين فى أوائل الستينات تشكو سلبية الواقع الفكري ، متبرمة ، وتدعو بحماس كبير الى ضرورة تنشيط هذا الواقع ، والارتفاع به الى مستوى مسؤوليته في هذا العصر . وأخذ هؤلاء المثقفون ، على تعدد مناهلهم الثقافية ومختلف منازعهم الفكرية يلحون على ضرورة تحقيق رابطة ثقافية وخلق تواصل فكري يساعد على انتشال واقعهم الحضاري من وهدة التخبط فى متاهات الضياع التي وجد

---

(١٩) انظر عبدالله كنون ـ احاديث عن الادب المغربى الحديث . طبعة معهد الدراسات العربية العالية ـ القاهرة سنة ١٩٦٤ ص ٩ـ١٨ .

المغاربة أنفسهم فيها بعد أن أعادوا لبلدهم استقلاله • ومحاولة شحن هذا الواقع بعناصر الحياة باعادته الى اصالته العربية على الرغم من كل ما عاناه وكابده من سلبية الظروف الخانقة التي ألمت بهذا القطر • وكان من أبرزها محاربة الذات العربية في أقدس سر من أسرار وجودها : فكرها ووجدانها ••• لكي يتسنى لهذا القطر الحضور في معركة التحدي المصيري ، بواقع فكري ايجابي معطاء يلبي حاجات المجتمع ، ويحقق تطلعاته •••

ان الازمة الفكرية التي عاناها المغرب قرابة نصف قرن ، حين فرضت عليه الحماية الفرنسية ، أزمة وليست كبقية الازمات ، فقد لايكون من الممكن لدى الكثير منّا تصوّر صنوف العسف والكبت التي مارستها تلك السلطات المحتلة في مجالي الفكر والثقافة ، ويحدثنا اخواننا المغاربة من الادباء والمثقفين كيف ان القصيدة العصماء التي تدفع للنشر ، كان يتسرب اليها سرطان الرقيب الغريب ، فيحيلها أشلاء مبعثرة ، أبياتاً مبتورة في الصدور والاعجاز ، امعانا في التشويه والاستخفاف ، وكيف ان الكلمة الخيّرة بما فيها من جمال ومسؤولية كانت تخنق ، لا تجد لها طريقا الا الى سلال المهملات • أما أصحاب الكلمة من ادباء ومفكرين • فلا حاجة الى القول بأنهم كانوا مطاردين مضطهدين ، أو في ظلمات السجون والمعتقلات •

كل ذلك كان يجري يوميا ، في المغرب المحتل ، وكان ذلك كافيا ، تماماً ، لان يشل العصب الفكري ، ويعزله عن أسباب الحياة ومقوماتها •

**الاتجاهات الفكرية بين الليبرالية والالتزام :**

في الستينات ، خلال وجودي في المغرب شهدت مناقشات جادّة راجت في الوسط الثقافي حول الاتجاهات الفكرية التي تنعكس في النشاط الثقافي العام ، وقد تناولت هذه المناقشات أخطر مسألة ، هي قضية الحرية في التفكير والتعبير ، وتحديد موقع المثقف المغربي من نظام الحكم ، كما

نوقشت قضية الموقف الذي يتعين على المثقف أن يعرب عنه ، ويلتزمه فى نشاطاته الفكرية .

تناولوا الاتجاه الليبرالي الذي يتأثره بعض الادباء والمثقفين ، وكان من السهل أن تشخص ، وبكل دقة ، الملابسات التي ترافق مفهوم الحرية فى الاتجاه الليبرالي فى هذه المرحلة من حياة المغرب ، وقد نادوا بضرورة الكشف عن الاخطار العظيمة التي تكمن فى اشاعة هذا الاتجاه اللامسؤول ، ولفت انتباه الرأي الثقافي العام الى خطورة ذلك على كيان المجتمع الذي خرج تواً من استعمار عنيد غاشم ، وهو فى أشد حالات التمزق ، والتخلف ، فهذا الاتجاه ذو بعدين : بعد يفتح الباب للاعراب عن الآراء ، اتفقت أم لم تتفق مع الشعور المتصاعد بضرورة التحرك لاعادة بناء المجتمع على أسس جديدة . وبعد آخر ، هو افساح المجال للتزييف بالاعتراف بمشروعية الانسلاخ عن الحس الجماعي ، والواجب القومي ، ويكاد يكون هذا هو المقصود من تشجيع هذا الاتجاه واشاعته توصلا الى ابقاء هذا البلد مكبلا بأغلال الماضى القريب(٢٠)

ان مفهوم الليبرالية البراق عاد مسألة مرفوضة من الاساس لدى جماهير كل دول العالم الثالث ، ولا أشك فى أن هذا الاتجاه النابع من مصادر غريبة يقحم فى بعض المجتمعات بتخطيط هذه المصادر وفعلها وتبقى تدعمها وتوجهها وفق مصالحها وأغراضها مستخدمة شتى الوسائل ، ومن أبرزها التطبيقات المضللة لهذا المفهوم فى مجتمعاتها ، المختلفة اصلا عن هذه المجتمعات تحقيقا لأهداف لا انسانية فى ابقاء الهيمنة الفكرية والثقافية على تلك المجتمعات كدعامة أساسية للاستعمار الاقتصادي والسياسي للشعوب .

ان المرحلة التي يمكن للمغرب أن يحقق فيها بناء أرضية ثقافية صلبة

---

(٢٠) جريدة « العلم » المغربية عدد ١٠٩١ الصادر فى ١٩ نوفمبر ١٩٦٣ ص ٦ .

على أساس قومي انساني لمّا تحن بعد ، وهو أمر طبيعي ، فأن بلوغ ذلك يشترط زمنا لا يتناسب والسنوات القليلة التي تمثل عمر المغرب المستقل ، لذا فان كل اتجاه لا ينبع من الشعور الواعي بالمسؤولية يشكل معوقات خطيرة ، بل يكون عملية تخريبية للمقومات الاساسية لهذا البلد • ان هذه القاعدة الصلبة للثقافة المغربية هي ما يمكن أن ندعوه بالضمير الفكري العام أو الوجدان الثقافي القومي الذي يعكس خلاصة الشخصية الفكرية ويمنحها أبعادها القومية كمنطلقات ، والانسانية كأهداف ، وهي قاعدة النضال الفكري الذي يخوضه مغرب اليوم فى سبيل تأكيد استقلاله وكرامته الانسانية •

ان محاولة تصنيف النتاجات التي تتحرك ضمن اطار النشاط الفكري في المغرب ، بصورة دقيقة ما زالت عملية معقدة ، ان لم نقل غير عملية ذلك لان تشخيص الاتجاهات الفكرية لا يتم الا بعد بلوغها مرحلة التبلور والنضوج الواضحين ، وهذا أمر ما زال غائبا عن معظم تلك النتاجات اذا استثنينا النتاجات القليلة لنفر من المغاربة الذين انطلقوا من مواقع وطنية معروفة ، ولا يزالون يتحملون مسؤوليات قيادية فى مجال الفكر ، وهذه الاقلام القليلة لا تغير من حقيقة ما قلناه اذا ما أخذنا بنظر الاعتبار ضخامة الموجات المتدافعة فى نشاط الاجيال الصاعدة ونزوعاتهم الفكرية وسط الصراع الرهيب الذي يحمله العصر الراهن ويلف مجتمعات العالم قاطبة •

لذا أراني لا أتفق وبعض النقاد المغاربة اذ يجعل الثقافة المغربية كلها تصب فى الفكر البرجوازي ، بتصنيف البورجوازية الى ثلاثة منطلقات : البرجوازية المحافظة ، التي هي اصلاحية لا تطمح الى أكثر من الترميم ، وبرجوازية تستلهم ماركس فى منطلقاتها ، فتنظر الى القضايا المطروحة فى الداخل فى اطار مشاكل العالم الذى يرتبط به المغرب وجدانيا واستراتيجيا• وبرجوازية ثالثة ، انتهازية لا يمكن لافرادها أن يفكروا فى غير استكمال

الاطار المادي الذي تتطلع اليه كل برجوازية شرهة فى النشوء[٢١] .

ان الدافع الرئيس الذي كان وراء هذا التقسيم الحدي للثقافة المغربية ومنطلقاتها كان دافعا نبيلا ، فهو نتيجة رصد للواقع ، واستيحاء مباشر لعناصره وأبعاده ، وهو ، من جهة اخرى ، استيعاب واع لظروف المرحلة التاريخية التي يمر بها المغرب ، تلك المرحلة التي لا يمكن رصد معطياتها بمعزل عن ظروف المرحلة التي سبقتها ، وهو ، ايضا ، نقد يستهدف القضايا الوطنية فى اطارها القومي الانساني ، الا ان مما تجدر الاشارة اليه هنا اننا نلمح ان لهذا النقد منطلقا سياسيا بصورة رئيسة ، فقد بنيت هذه التقسيمات على أساس المردود المباشر الذي ينبغي أن تحققه النشاطات الفكرية بالنسبة للفرد المغربي ، فى اطار محدد ، هو السياسة . ولا غرابة فى هذا ، فأن ارتحال الاستعمار الفرنسي عن أرض المغرب سنة ١٩٥٦ كان يشكل تحولا سياسيا عميقا ، الامر الذي قد صيّر « السياسة » قضية مطروحة بالضرورة أمام أنظار الجماهير الشعبية ، وهذه القضية تتصل اتصالا مباشرا بحياته اليومية بكل تفصيلاتها مما جعلها ، وبصورة تلقائية ، تستقطب اهتمامات المواطنين ، تلك الاهتمامات التي انبرى هؤلاء النقاد لتشخيصها والدفاع عنها بهذا الاسلوب .

ان الذي يتصدى لدراسة الحركة الادبية فى المغرب يرى تعددا فى الاتجاهات ، ولا أقول « فى المذاهب » ، وتعدّد هذه الاتجاهات ، كما هو معلوم ، هو نتيجة طبيعية للمرحلة التي يعيشها هذا القطر فى الوقت الراهن . وهي مرحلة مخاض فكري تعقب خروج كل شعب من الشعوب التي كانت مقهورة ، من صراع سياسي مرير بين هذه الشعوب المغلوبة ، وبين الوجود الاجنبي فى أراضيها بكل ما يخلفه ذلك الوجود من تركات ثقيلة أهمها الصراع الحاد بين التيارات الثقافية الوافدة ، والثقافة القومية . وهذا الصراع

---

(٢١) المصدر السابق نفسه .

لا يكون متكافئاً ، ولا متواجدا فى ظروف طبيعية ، انما هو صراع يفرضه القوي على الضعيف بكل ما يبيّته القوي لذلك الضعيف من نوايا التمزيق والسيطرة •

وحين يصل المغرب ، الى مرحلة الانتقائية الفكرية ، التي تتبلور فيها الاتجاهات بصورة واضحة نستطيع أن نرصد مجمل الحركة الفكرية ونحلل عناصرها ونصنف منطلقاتها وتطلعاتها برؤية واضحة وتقويم سليم ، ولا أظن انه سوف يمر وقت طويل قبل أن يتحقق ذلك ، فأن فى صفوف الادباء المغاربة الآن أمثلة حية تبشر بكل خير •

وأرى مفيدا في هذا المجال أن نعرض للحركة الادبية فى المغرب ونشخص بعض مقوماتها ومنطلقاتها من خلال ما يراه أحد روادها في هذا القطر •

لقد كان للصحافة المغربية أثر كبير فى النهضة الفكرية من خلال تسجيلها للحركة الادبية ، واحتضانها لعطاء ثرّ من النبضات الفكرية والدفقات الثقافية الحارة التي اتصف بها المثقف العربي فى هذا القطر سواء كان ذلك فى فترة صراعه مع الاستعمار ، أو فى هذه الفترة القليلة التي أعقبت خروج المستعمرين من هذه البلاد ، فقد أطل هذا النشاط الفكري وهو ، كما يقول الاستاذ عبدالله كنون : « من الغنى والتنوع بحيث يمكن القول انه استتم العناصر الاولية للادب الحي ، وانه شق الطريق للحاق بقافلة البعث الادبي فى العالم العربي ، ففي النشر زيادة على نمو المقالة السياسية والاجتماعية والادبية ظهرت البحوث المنوعة فى الفلسفة والفن والنقد ، وبلغت الخطابة السياسية أوج الكمال ، وبدأت المحاولات الناجحة فى كتابة الرواية التمثيلية والاقصوصة والقصة ، وذلك فضلا عن نشاط حركة التأليف فى الموضوعات السياسية والتأريخية والعلمية •

« وفى الشعر استفحل النظم فى موضوع الوطنية تبعا لاستفحال

حركتها ، فكاد الشعر كله يكون ثورة على الاستعمار ودعوة الى مقاومة النفوذ الاجنبي وتذكير الشعب بمجده وتاريخه العظيمين ، وتحول الشعر العاطفي من تفاهة العبارات الجوفاء الى تجارب ذاتية وانسانية صادقة ، وجال الشعراء في ميدان الطبيعة ، وحلقوا في مجال الفكر ، وظهر الشعر التمثيلي في مسرحيات صغيرة تعتبر كنواة لهذا اللون الجديد في الشعر العربي ، الى غير ذلك من مظاهر التفنن والابداع التي أكسبت الادب المغربي منثوره ومنظومه بسطة في الشكل والمضمون لم يعرفها من قبل • وهكذا لم يبق الادب فنا مسخرا لخدمة الرؤساء والملوك ولا تزجية للوقت عند من لم ينزل بأدبه الى مستوى الشعراء المداحين والكتاب المتكسبين ، بل صار دعوة ومذهبا ، وفنا رفيعا تتمثل فيه الحياة الانسانية بأهوائها ومطامحها ، والكون بجماله ونظامه ، وأصبح الاديب صاحب رسالة سامية ومكانة مرموقة في المجتمع بصفته أحد قادة الفكر ، ورائدا من رواد الاحياء والتجديد •

« ولا نعني ان الادب المغربي بلغ كماله ، ولا ان الاديب المغربي أدى مهمته كاملة ، وانما نعني انهما اصبحا على الطريق ، وصارا على ميعاد مع قافلة الادب والادباء في الشرق العربي ، أي ان المغرب طوى مراحل التخلف التي كانت قعدت به عن اللحاق بركب النهضة العربية في أول هذا القول ، ولم يبق مع الخالفين »[٢٢] •

كان هذا شأن الادب العربي في المغرب ، اما عن منطلقاته القومية فيمضي الاستاذ كنون محدثا بقوله :

« ومن الخطأ ان تميز عمل اى بلد عربي في هذا الصدد ، سواء كان سابقا اولا حقا ، لان طابع العروبة لايوجد الا حيث تلتقى جهود العرب

---

(٢٢) انظر : عبدالله كنون ــ احاديث عن الادب المغربى الحديث ــ نشر معهد الدراسات العربية العالية : القاهرة ١٩٦٤ ص ٨٠ــ٨١ •

كافة • ولم يتحقق للنظرية الاقليمية فى الادب العربى مدلول خارجى ، برغم ما قيل فى توجيهها والتنويه بآثارها •

الى ان يقول :

« ان الادب العربى وحدة لاتتجزأ ، وان ما يجدّ فيه من مذاهب واتجاهات هى فى نظرنا وليدة تفاعل افكار الادباء العرب ، والتيارات الفكرية الحديثة التى طرأت على الادب العربى بوساطة الترجمة عن الآداب العالمية والاطلاع على الثقافات الاجنبية المختلفة ، وليس شىء منها متولدا عن طبيعة الاقليم والسكان وخصائص الجنس والوراثة كما يحلو لبعضهم ان يعلل ذلك ، ولا نستدل الا بان أي مذهب او اتجاه ظهر فى بلد من بلادالعرب ، لا يلبث أن يتردد صداه في بقية البلاد ، وينمو ويزدهر على يد أبناء العرب كلهم • كان الامر فيما مضى حين كانت طريقة المتنبى التى ظهرت فى المشرق تجد من أبى القاسم بن هانيء راعيا لها فى الاندلس حتى سمى بمتنبى المغرب ، وكان البحترى يتمثل فى ابن زيدون • والمعرى وابن شهيد يكادان يردان من نبع واحد : هذا فى رسالة التوابع والزوابع ، وذاك فى رسالة الغفران • ولما ظهر التوشيح فى بلاد المغرب وراجت سوقه بين الادباء المغاربة ، لم يلبث ادباء المشرق ان اقبلوا عليه واهتبلوا به حتى الفوا فيه الكتب الخاصة• وكذلك كان الامر في العصر الحاضر ، فما ان ظهر بعد الحرب العالمية الاولى ما يسمى بالادب المهجرى من انتاج الادباء اللبنانيين والسوريين المستوطنين فى الامريكتين حتى انتشر فى العالم العربي وتعاطاه الادباء هنا وهناك • وفي فجر ظهوره وانتشار آثار اعلامه كجبران خليل جبران ، وامين الريحانى ، وميخائيل نعيمة ، كان عندنا فى طنجة محمد الحداد يكتب بذلك الاسلوب ، ويضرب على تلك النغمة ، حتى لتحسبه احد رواد ذلك المذهب »[٢٣] •

---

(٢٣) انظر المصدر السابق ص ٨٣ـ٨٤ •

**واقـع الثقافة المغربية :**

الذى يدرس تاريخ المغرب الثقافى تطالعه صفحات مشرقة من التراث العظيم فى مبادىء الفنون والعلوم والآداب[٢٤] .

اما النقد الذى يوجه اليوم الى واقع الثقافة المغربية فانه ينسحب على المؤسسات الثقافية ، والمثقفين على حد سواء . قالوا : ان القرويين وهـى جامعة أسست منذ أكثر من أحد عشر قرنا[٢٥] كان لها فعلا دور تاريخى كبير فى مجال الثقافة ، الا ان هذه الجامعة لم تصب تطورا ، بقيت تقليدية يسيطر عليها الجمود بسبب الظروف التى احاطت بها ، والمعوقات التـى خلقت فى سبيل تطورها ، وبالتالى كان طبيعيا ان تصبح عاجزة عن القيام بدورها الايجابى فى الحياة الفكرية والثقافية فى العصر الراهن .

والحقيقة ان هذه الجامعة وان كانت قد واجهت محنا قاسية ، وعانت اضطهادا شديدا من قبل السلطات الفرنسية مما ادى الى ان تتخلف نسبيا عن مواصلة سيرها فى طريق التطور ، واداء رسالتها كما ينبغى ، الا ان كل هذه الظروف لم تقو على القضاء على هذه المؤسسة وعزلها عن الحياة وذلك بسبب ان مقوماتها كانت اقوى من كل اساليب الحرب البشعة التى شنت عليها بأعتبارها اكبر معقل من معاقل الفكر ، والحرية فـى هـذا البلد .

انطلقت هذه الجامعة انطلاقة تاريخية كبرى . امدت المغرب العربى بدفقات من العلم والثقافة اضافت الى الفكر الانسانى اضافات خصبـة ، واستمرت تؤدى رسالتها حتى اوائل القرن العشرين حين فرض نظـام الحماية على المغرب ، وكان ذلك ايذانا بدخول المغرب مرحلة تاريخيـة

---

(٢٤) انظر : محمد المنونى : « العلوم والآداب والفنون على عهـد الموحدين » . نشر معهد مولاى الحسن في المغرب . فأن فيه اشارات مركزة الى ما ذهبنا اليه .

(٢٥) اسست جامعة القرويين سنة ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م .

خاصة جدا اتسمت بمحاربة المؤسسات الثقافية الوطنية ، وتشويه الشخصية المغربية الاصلية عن طريق محاربة هذه المؤسسات •

ان تاريخ جامعة القرويين مشرف ؛ فقد صارعت الاستعمار الفرنسي وقاومت اخطاره الكبرى فى محو اللغة العربية واحلال الفرنسية محلها ، وتشويه الاسلام ، وتمزيق وحدة الشعب عن طريق دعوات الادماج والتجزئة • ولعل شيئا من عظمتها يكمن فى طبيعة انشائها ، فقد انشأتها امرأة من صميم الشعب هى ام البنين القروية ، فاطمة بنت محمد الفهري، وانفقت على انشائها من مالها الخاص ، وظلت صائمة منذ شرعت فى بنائها الى ان تم البناء كما يروى •

« واذا كانت جامعة القرويين قد حفظت تراث العربية والاسلام فى العصور الوسطى وتلقت الأمانة من الاندلس ، ثم لم تلبث ان ردتها للحضارة الانسانية قوية مزيدة ، فانها قد قامت برسالة اشد ضخامة دعتها عندما اصطدمت بالاستعمار ، ولم تمكنه من اغلاق ابوابها ، ووقفت تحطم أهدافه واحدا بعد آخر ، وتحمي التراث وتشارك فى المقاومة والدفاع عن الحرية مقاومة ايجابية على اساس من الفهم الصحيح للاسلام والايمان العميق برسالة الفكر ، وهى اليوم تصنع عملا آخر أشد عظمة وجلالا ، وهو حماية شخصيتنا من أن يكون للفكر الغربي الاثر الذي يطغى عليها ، أو يغير ملامحها ، وهى حين تفتح الباب امام الثقافات الغربية انما تستفيد بها قوة لشخصيتنا دون ان تذوب فيها ، او تحوّل شيئاً من معالم الصورة العربية الاسلامية لكياننا الحى القوي النامى • »(٢٦)

---

(٢٦) انظر : « أثر القرويين فى حماية اللغة العربية » ـ بحث للاستاذ انور الجندى • نشر فى الكتاب الذهبى عن جامعة القرويين باسم : « جامعة القرويين فى ذكراها المائة بعد الالف » الذى اصدرته وزارة التربية المغربية بعد المهرجان الذى اقيم بمناسبة مرور احد عشر قرنا على انشاء هذه الجامعة بفاس ، وذلك عام ١٩٦٠ ( ص ٢١٢ ـ ٢١٣ ) •

هذا هو الدور التاريخي العظيم الذى لعبته جامعة القرويين وخريجوها خلال الحماية الفرنسية • اما بعد هذه الفترة ، أى حين دخل المغرب مرحلة البناء من جديد ، فقد كانت هذه الجامعة من جملة ما شملته حركة اعادة هذا البناء ، فصير الى اعادة النظر فى برامجها وطرق التدريس فيها انسجاما مع مقتضيات التطور •

اما ما يتعلق بالمثقفين ، فان قسما كبيرا منهم كانوا فى الحقيقة قد نهلوا من معاهد الغرب ، وعادوا الى وطنهم غير متمثلين لهذه الثقافة الاجنبية بالدرجة التى تمنحها بعدا وطنيا قوميا يمكن ان نلمس آثاره الايجابية فى اتجاهاتهم الثقافية ، لذا برز فى الوسط الثقافى عدد من هؤلاء المغتربين ثقافيا ، الذين يعدون انصاف مثقفين قد يكون خطرهم على الثقافة الوطنية أوضح من تأثيرهم الايجابى الضئيل فى انعاش الواقع الثقافى فى البلد • وهذا ، مرة اخرى نقولها ، ناجم عن الظروف التي مر بها المغرب وهو يرزح تحت الحماية الفرنسية • الا ان من الضرورى الاشارة الى تيار الثقافة العربية المتصاعد ، الذي كانت المدارس الوطنية الحرة قبل الاستقلال منبعا له ، وقد تمكن قسم من خريجى هذه المدارس والمعاهد الوطنية ان يكملوا تعليمهم فى الجامعات المشرقية ، كما ان الحماية الفرنسية نفسها كانت قد ارسلت بعض المثقفين من خريجى جامعة القرويين الى فرنسا ، وذلك لتحويل تفكيرهم وجهة فرنسا فيكونوا دعاة التغريب ولكن قوة مبادىء القرويين حالت دون انحراف هؤلاء الشباب ، فعندما عادت هذه المجموعة لم تلبث أن وجدت طريقها الصحيح مع مبادئها وأهداف الامة ، وما تزال حتى الان من اقوى العاملين فى حركات التعريب ، وهذه الطليعة تقع عليها فى الحقيقة مسؤولية ثقافية عظيمة الاهمية ، عليها ان تتحمل رسالة التقريب والمزج المتكافىء الواعي للتيارات الثقافية الاجنبية والوطنية فى سبيل ارساء الحياة الثقافية على قواعد ايجابية تضمن الشخصية المغربية

العربية ، فوجهة الثقافة المغربية ، كما سبق أن بينا ، لم تبلغ بعد مرحلة التبلور ، ولمّا تتحدد معالمها الاصيلة بعد • والعناصر الحية التى تمثل ثقافة البلد تعاني انكماشا وشعورا بالهامشية قد تكون لهما آثار خطيرة فى الاتجاه القومى ، اذ ان ذلك يعمل على خلق الجيوب الثقافية المتناقضة ، واضفاء صبغة الاهمية والتفوق على الاجنبى منها ، لاعتبارات سياسية لم يتحرر القطاع الثقافي منها ، او من ترسباتها بعد ، وادى ذلك ، وهذا مؤسف حقا ، الى انزواء المثقف العربى في هذا البلد الاصيل فى عروبته ، وغيابه عن مسرح الحياة • وسلبيته الحادة هذه افضت الى مضاعفات نفسية لها ابلغ الاثر على كيان الفرد والمجموع على حد سواء •

يصرّح احد المثقفين المغاربة بأن « المثقف العربي يخفي صوت ثقافته العربية على استحياء ، مخافة ان يتهم بجهل الثقافة والحضارة • ونجد المثقف ثقافة غير عربية عاجزا عن المضي بثقافته فى المستوى الذى رآه فى البلاد التى تثقف فيها ، فيخفي صوت ثقافته عن تواضع ، أو عن غرور ، وهو فى كلتا الحالتين عاجز عن المساهمة فى دفع الثقافة المغربية المشتركة الى وجهة معينة وسبيل واضحة » •(٢٧)

وقد يكون من المفيد هنا الاشارة الى المشكلة الخطيرة التى تعترض سبيل الثقافة العربية ، كما يراها أغلب المثقفين المغاربة ، الا وهى مشكلة اللغة ، فالمرحلة الانتقالية التى يجتازها المغرب الآن ، والخلفية التاريخية لثقافة المغرب فرضت ان يكون التعليم والتثقيف بغير العربية ، وهذه الاداة غير العربية ، مع ما يرافقها من اعتبارات خاصة ، تشكل عوامل خطيرة فى تعميق الاضطراب واشاعة البلبلة فى اوساط الجيل ، وتلك امور يضيع معها ، وبالضرورة ، الطريق الواضح للثقافة والفكر فى المغرب •

---

(٢٧) انظر : مجلة « دعوة الحق » ـ العدد الثالث ـ السنة الخامسة ( ديسمبر ١٩٦١ ص ٥٢ ) •

وقد كانت اللغة العربية من الموضوعات التى نالت اهتماما كبيرا من قبل المثقفين ، وهم يعالجون الشؤون الفكرية فى هذا البلد ، معتبرين الحضارة ، بمدلولها الواسع ، اشعاعات للثقافة تعود فى شكلها الخارجى الى لغة • والثقافة لاية حضارة انما هى عبارة عن نهل مستمر من شلالين اثنين هما : التراث والابتكار • وكان هذا هو المنطلق الايديولجى للوطنيين المغاربة فى غيرتهم على اللغة القومية باعتبارها الاداة الاصيلة للحاق بركب الحضارة البشرية ، والعامل الفعال لصيانة الوحدة الوطنية بعد الاستقلال السياسي • وبذلك عمل هؤلاء على نقل هذه القضية القومية من نطاقها الخاص الى مدلولات انسانية ارحب ، عبر هذا التبرير الذهني المقبول •

ومما يدعو الى التفاؤل ان جهودا ضخمة قد وجهت فى سبيل السياسة العامة ومنذ بداية الستينات حتى الآن للانعاش الثقافى فى المدرسة والجامعة ، فضلا عن الخطوات الاخرى التى تحققت فى مجالات الادارة والقضاء ، واجهزة الدولة الاخرى •

**مشاكل فى طريق الفكر المغربى :**

من الواضح جدا فى تاريخ الشعوب ان الغزو العسكرى الذى يقوم به بلد لبلد آخر ، يرافقه بالضرورة غزو فكرى وثقافى • وان حيوية الشعب الذى يغزى واصالته يتجليان فى استعدادات ذلك الشعب الذاتية لمقاومة ذلك الغزو فى واجهته الفكرية ، والارهاص للحركات الوطنية فى سبيل التحرر والانعتاق •

وفى تاريخ المغرب رأينا ان الثقافة العربية كانت الدعامة القوية التى اصطدمت بها اوربا فى غزوها للشعب المغربي • ان تيار الكفاح والمقاومة الوطنية فى المغرب كان قد اتخذ الثقافة العربية وسيلة للدفاع عن الذات ، والاحتماء من فظائع المسخ والتشويه ، مما أدى الى أن تكون معطيات هذه الفترة مجرد اهتمامات رمزية فوقانية فى المجال الفكرى انعدمت فيها صور

التطوير والابداع لتعميق الفكر العربى وجودا واتجاها ، فلم يكن الانتاج الفكري في فترة الحماية هذه فى مستوى التعبير عن قضية الشعب المقهور ، بل كانت انتاجا ذا طابع محدود الامد لايستطيع ان يطل على آفاق جديدة تستوعب طموحات هذا الشعب وتطلعاته ، ويتجاوز فكرة الاستعمار الى ما بعده • هذه وجهة نظر الناقد المغربي[٢٨] • والحقيقة هى ان مرحلة الحماية تميزت فيها فترتان : الاولى منذ الاحتلال سنة ١٩١٢ حتى نهاية الحرب الريفية سنة ١٩٢٦ ، والثانية من الحرب الريفية حتى اعلان الاستقلال سنة ١٩٥٦ • الفترة الاولى كانت امتدادا للفترة التى سبقتها ، تميزت بانتاج ادبي طبع بالروح الانهزامى والاستسلام للحياة ، والاتجاه للكتابات التاريخية للمدن والملوك والآثار ، والتهافت على الكتابة فى الوزارات ومكاتب الدولة المختلفة • وهذا النوع من الكتابات خلو من كل ابداع واجادة ، فهو اجترار ، وجمود على قوالب وشكليات تقليدية • كما كان فى هذه الفترة ادباء رسميون يمدحون ويهنئون فى المناسبات الى جانب ادباء آخرين تميز انتاجهم بالطابع الشخصي الذى كان يمثل جوانب الحياة المختلفة فى نطاق شخصاني ، فهناك الماجن الخليع ، والمنغمس فى شهواته الحسية ، والتقي الفار من رجس الحياة المادية ، والصوفى الذى يسبح فى وجدانياته وتهويماته •

اما الفترة الثانية من عهد الحماية ، فقد عرفت نهضة ادبية تمثلت بعدد من المجلات والصحف التى ظهرت فى شمال المغرب وجنوبه زاخرة بانتاج ادبي طموح ، فيه روح قومى وثاب ، وتحفز الى الاصلاح والبناء[٢٩] •

أما كون فترة الحماية بمجملها قد فرضت نوعا من النتاج الفكرى الذى

---

(٢٨) انظر : المصدر السابق •

(٢٩) من هذه المجلات والصحف : السلام ، المغرب الجديد ، الثقافة المغربية ، مجلة المغرب ، رسالة المغرب ، والملحقات الثقافية لجريدة المغرب •

تحرك على صعيد الاهتمامات الرمزية الفوقانية فى نظر الناقد المغربي المعاصر، فانه امر يكاد يكون طبيعيا من ناحية ، كما ان له دورا ايجابيا فى مجمل الحركة النضالية التي شهدها المغرب في سبيل التحرر من الاستعمار من ناحية اخرى.

اما فترة الاستقلال فقد وصفت بانها تشكل فراغا فكريا بدا شبحا مخيفا ضجّ اخواننا المغاربة بالشكوى منه فى مناسبات كثيرة . ولعل اهم سبب في احداث هذا الفراغ هو أن الوضع الجديد الذى أصبح عليه المغرب المستقل ، امتص الكثير من الطاقات الفكرية بشغل المناصب الادارية والسياسية التى خلت بانسحاب العناصر الاجنبية منها ، وكان ذلك على حساب النهضة الفكرية ، يضاف الى ذلك ضعف الاقبال العام على شؤون الفكر والثقافة ، وضعف التجاوب او انعدامه ، احيانا ، بين القرأ والمنتجين ، وكذلك تفشي الامية ، وميل القرآء الى استهلاك النتاجات الخفيفة وقد وصف الكتاب المغاربة هذه الظاهرة بانها مرض اجتماعي خطير تشكل الدعوة الى معالجته ضرورة وطنية ملحة .

اما الجامعة المغربية ، فهى مؤسسة اصبح لها وجود فعلى بعد الاستقلال وهى اليوم تتحمل قسطا كبيرا من المسؤولية فى المشكلة الفكرية ، الا ان اشعاعها الفكرى والثقافى لايزال محدودا ، والدعوة قائمة الآن الى تعضيدها وامداها باسباب القوة والنماء ، وتوفير الصلة بينها وبين الظروف العامة التى يمر بها القطر لخلق جو التفاعل الضرورى بينها وبين المجتمع تمكينا لها من اداء رسالتها .

ويرى بعضهم أن من بين المظاهر الاخرى للانعكاسات السلبية على واقع الحياة الفكرية والانتاجية فى المغرب ، ضآلة الاقبال على الانتاج المستقل القائم على قاعدة النشاط الفردى الخاص ، فتنهار بذلك المشروعات الأدبية ويخفق الكثير من الهيئات والمنتديات الفكرية والثقافية فى اداء مهامها ، سواء من الناحية الفنية والتنظيمية ، او من الناحية الادبية

والانتاجية ، فادى ذلك بدوره الى تقلص مجال النشر والاشعاع الفكرى ، وانعدام النزوع الى التنويع فى صور التعبير عن الفكر فى المغرب ، فنرى تركز هذه الصور واستقطابها حول المقالة أو المقطوعة الشعرية ، أو القصة القصيرة ، على حظوظ مختلفة من الابداع والاصالة »(٣٠) .

ومن هموم الكتاب المغاربة التى يطرحونها فى هذا المجال الاستخفاف الذى تقابل به امور الثقافة ، مما يؤدى الى شل الطاقات الانتاجية وتجميدها بسبب قتل الواعز النفسى الذى يبث فيهم روح الحرص على استغلال هذه الطاقات فى الانتاج المتسم بالجودة والاصالة والعمق . ومما يعقد هذه المشكلة عدم وجود رقابة فكرية موجهة تتناول بالنقد والتوجيه أهم ما يتهيأ له النشر من آثار ادبية وعلمية ، الامر الذى يؤدى بالمنتجين الى توخى الاجادة والاصالة فيما ينتجون .

وهنا لابد من الاشارة الى ضرورة التخطيط التربوى للبلد ، الذى عليه ينبني تطوير اتجاهات الاجيال ، وتأصيل محصولها من الوعى الثقافى ، وتنمية الحوافز النفسية التلقائية التى تذكى فيهم الرغبة للتثقيف الذاتى .

اما ظاهرة « التأجنب » الثقافى والفكرى ، التى سبق ذكرها ، فان على المسؤولين الرسميين مسؤولية وطنية على جانب كبير من الاهمية فى اذابة هذه الظاهرة ، وذلك بالعمل المخلص الدؤوب على استدراج الرؤوس التى تتمثل فيها الى الخروج من المنعطفات الفكرية اللاقومية المظلمة ، الى رحاب قوميتها الواضحة ، الخيّرة ، ونشر الوعي الفكرى والثقافى فى اوساط الشعب ، وتوسيع نطاق الانتاج والاستهلاك فى مجال الثقافة . وعلى هذا المستوى ينتظر تعريب هؤلاء المغتربين فكرا واتجاها .

---

(٣٠) انظر : مجلة « دعوة الحق » ـ العدد الاول ـ السنة الخامسة ( اكتوبر ١٩٦١ ) ص ٣٧ .

على ان هناك رسالة ضخمة تنتظر المثقفين انفسهم فى هذا البلد على اختلاف مشاربهم واتجاهاتهم ، هذه الرسالة هى العمل على صهر كل الالوان المتباينة والاتجاهات المتضاربة من الثقافات التى غزت المغرب ... صهر كل هذه الثقافات فى بوتقة فكر قومى انسانى متحرر ، ولا يؤدى ذلك الى انبعاث فكرى وثقافى وحسب ، بل يتضمن كذلك استمرار شخصية المغرب العربية الاصيلة ، وتأمين اسباب تطور وعيه الثقافى ، وتوسيع مجال تفاعله الايجابى مع التيارات الفكرية العالمية المعاصرة ، وتأكيد قدرته على الاسهام بنصيب اساس فى التعاون الانسانى العام من اجل مصير افضل ، ومثالية انسانية امثل(٣١) .

ولقد اصبح من الضرورات الملحة للمغرب بعد أن انتزع استقلاله السياسى بكفاحه ، أن يعيد لتفكيره أصالته فى المنهج ، ولاحساساته وسائلها الخاصة فى التعبير ، وبعبارة اخرى اصبح ضروريا للمغرب ان يعود الى لغته ، الام الرؤوم لتغمره بفيض من امومتها العبقرية ، وطفح من عطائها الروحي الخالد ، وتتلو له آيات بينات عن سر بقائه واستمرار وجوده رغما عن كل ما ابتلي به من شدائد ومحن قاساها فى تاريخه القريب ، وبذلك يتهيأ له مجال العودة للارتباط التام بمراحل تطور التفكير الغربي مستشعرا ذاته الغربية ، ومستلهما طبيعة تكوينها .

وهنا لابد من أن نسجل حقيقة ، هى ان المغرب يخوض اليوم معركة ضارية من اجل اقرار اللغة العربية ، واحلالها محلها التاريخى والطبيعى فى التعليم والتشريع والادارة . وقد اصبحت قضية التعريب من القضايا التى شغلت الصحافة والمجالس والمنتديات واجهزة الاعلام باعتبارها مشكلة ثقافية وقومية فى آن واحد ، وقد حقق فى هذا المجال انجازات لها اهميتها ، ولا يزال يسعى فى هذا السبيل ، نرجو له كل توفيق .

---

(٣١) انظر : المصدر السابق نفسه .

## مراجع عامة للبحث غير التى وردت فى الهوامش


١ ـ تاريخ تطوان ـ تأليف محمد داود (٨) مجلدات ، طبع المغرب.

٢ ـ المغرب عبر التاريخ ( من عصر ما قبل التاريخ الى نهاية دولة الموحدين ) ، تأليف : ابراهيم حركات ، طبع الدار البيضاء ( المغرب ) .

٣ ـ النظام السياسى والحربى فى عهد المرابطين ـ تأليف ابراهيم حركات طبع الدار البيضاء ( المغرب ) .

٤ ـ التشوف الى رجال التصوف لابن الزيات ، تحقيق ادولف فور ، طبع المغرب .

٥ ـ مفاهيم اسلامية ، تأليف : عبدالله كنون ، طبع بيروت .

٦ـ النبوغ المغربى فى الادب العربى ، تأليف : عبدالله كنون ( ٣ أجزاء ) طبع بيروت .

٧ ـ « جزء من كتاب نظم الجمان لابن القطان » تحقيق الدكتور محمود علي مكى ، طبع تطوان ( المغرب ) .

٨ ـ وثبة المغرب ، تأليف : الدكتور عمر فروخ ، طبع بيروت .

٩ ـ دليل مؤرخ المغرب الاقصى ( جزءآن ) تأليف : عبدالسلام بن سودة. « طبع المغرب » .

١٠ـ الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى ، لابى العباس أحمد ابن خالد الناصرى ، تحقيق ولديه جعفر ومحمد الناصريان ، طبع الدار البيضاء ( المغرب ) .




# جلال‌الدين دوانى ، متوفى ٩٠٨ هـ

**على النسخة الوحيدة ، المحفوظة في خزانة الدكتور حسين علي محفوظ المخطوطة سنة ١٠٥٨هـ ، المنقولة من خط الشاعر**

**اخرجه واكمله**

**الدكتور حسين علي محفوظ**
**الاستاذ ورئيس قسم الدراسات الشرقية**

## جلال‌الدين الدواني
## ٩٠٨هـ

هو جلال‌الدين محمد بن أسعد ؛ الدواني[١] • من أفاضل العلمـاء لراسخين المحققين •

له تآليف كثيرة فى الحكمة والمنطق وعلوم الدين ؛ منها :

١ ـ اثبات الواجب •
٢ ـ اثبات الواجب / القديم •
٣ ـ أخلاق جلالى • وهو ؛ لوامع الاشراق في مكارم الاخلاق •
٤ ـ أفعال العباد •
٥ ـ افعال الله (تعالى) •
٦ ـ انموذج العلوم •
٧ ـ الانوار الشافية •
٨ ـ تحفهٔ روحانى •

---

(١) دوان ـ قرية على ٨ كم شمالي كازرون فى بلاد فارس ؛ جنوب ايران •

٩ ـ تفسير سورة الاخلاص •

١٠ـ تفسير سورة الجحد •

١١ـ تنوير المطالع/الجديد •

١٢ـ تنوير المطالع/القديم •

١٣ـ التوحيـــد •

١٤ـ الجبر والاختيار •

١٥ـ الحاشية الاجد على شرح التجريد للقوشجى •

١٦ـ حاشية تحرير القواعد المنطقية فى شرح الشمسية •

١٧ـ الحاشية الجديدة على شرح التجريد •

١٨ـ الحاشية القديمة على شرح التجريد •

١٩ـ ديوان دوانى •

٢٠ـ رباعيات •

٢١ـ الرسالة الخلخالية •

٢٢ـ الرسالة العادلية •

٢٣ـ الرسالة القلمية •

٢٤ـ الزوراء •

٢٥ـ شرح بيت خواجه شمس‌الدين محمد الحافـظ : " دوش ديدم كه‌ملائك .. " •

٢٦ـ شرح الرباعيات •

٢٧ـ شرح العقائد العضدية •

٢٨ـ شرح هياكل النور للسهروردى •

٢٩ـ العجالة ؛ شرح تهذيب المنطق •

٣٠ـ مسألة چند ضروريست ازمسائل متعلقة بديوان مظالم •

٣١ـ منشآت •

٣٢ـ نور الهداية •

**شعره :**

لا يوجد من شعر الدوانى فى كتب الادب الفارسى الا أبيات معدودة لا تزيد على ٣٣ بيتا .

أما ديوان شعره فقد كان ـ بخط الخطاط المشهور ؛ عين الاعيان ؛ الحكيم جعفر الهروى ـ ٢٨ ورقة منه[٢] لا ندرى أين هى .

وقد عثرت على نسخة من شرح رباعيات الدوانى فى خزانة الكلية الشرقية بجامعة لنينغراد .

أما هذه المجموعة الفريدة من شعره التي أخرجتها وأكملتها ؛ فكل الظن أنها الوحيدة . وهى مكتتبة سنة ١٠٥٨هـ ، نقلا من خط الحكيم الشاعر نفسه . وهذا نصّها :

(F.28 a) **ومن اشعار المحقق الدوانى ؛ نقلت من خطه :**

ديدم اندر مسارح انظار — عجبى ز اختلاف ليل و نهار
آسمانى سفيد نورانى — مشتمل بر نجوم ظلمانى
از نجومش برا هل‌دل روشن — هرچه دارد زمانه در مكمن
وسط سطح او سراسر خط — خط او هم نه منتهى بنقط
گوئى از جادوى سپهر بلند — زلف شب را بروى روز افكند
جان فزا چون شب وصال شبش — مأمن عيش أهل حال شبش
حال در يكمحل شده اضداد — نور وظلمت دگر بياض و سواد
جمع كرده مهندسى درخور — همه اجزاء سايه در رخ خور
سايهٔ كان نه جنس ظل وفى است — گوئى اين بيت وصف حال ويست
سايهٔ نور پاش مى بينم — بلكه خود نور فاش مى بينم
ديده ارباب دل مراد در او — سرّ النور فى السواد درو

---

(٢) امتحان الفضلا ج١ ص١٥٦ .

در سوادش معـــانی باریـــك  چـون هلالیســت در شب تاریك
یا چو نور بصـر گرفتـه قـرار  در تـه دیـدهٔ اولی الابصـار
یا چـو آب حیـات کشـته نهان  در سـیاهی ز دیـدهٔ انسـان
یا چو خورشـید عقل بـر زده سر  از سـویداء قلـب اهـل نظـر
شرح آنـرا بصـورتی دیگـر  عرضـه دارم بر اهل فضل وهنر
نـو خطی نـام نامیش نامـه  انتسـابش بـه دودهٔ خامـه
دودمـانی بروشـنی مشـهور  نازل انـدر حق وی آیت نـور
یارفیقـی چو عقـل مونس جان  صاحب عقـل پیر و بخت جوان
تاجـری تاج فطنتش بر سـر  خلعـت رای روشنش در بـر
همرهش گلرخـان خوش سیما  دلفریبـان آفتـاب لقـا
دلربـای بتـان و ماهوشـان  بر جبینشـان ز نام شـاه نشـان
مشـتریشـان بجـان همـه عالم  مهرشـان شـیوهٔ بنـی آدم
اصلشـان جوهـری ز طینت پاك  بصفـا رشـك نیر افـلاك
هر کجـا در جهـان جهانبانیست  نافذ الحـکم و تیز فرمانیسـت
رفعت قـدر او نه از بازیسـت  ز انکه خاك ره شـه غازیسـت
کوکبی چنـد سـعد چون زهره  بسـعادت در انجمن شـهره
عدّ ایشـان شمار شمس و قمر  بحسـاب جمـل ولی بی مـر
هنر آرای خلـق ونقصان پوش  همه خوبانش گشته حلقه بگوش
کمـر خدمتش بجـان بسـته  چون دلش تنگ در میـان بسته
اصلش از خاك ملك آن شاه‌است  بهمین نسبتش چنین جاهسـت

(F. 28 b)

شاه خورشـید جاه شـاه نشـان  که رخش میدهـد به ماه نشـان
نبود مـاه را نشـان از نـور  تا نگـیرد ز حسـن او منشـور
یعنی این روشـنی که مـه دارد  همه از عکس روی شـه دارد

عقل چون دید جود و بخشش وی — حتم دانست طیّ حاتم طیّ
هست نوشیروان برش عادل — لیکن از حق بجانب باطل
مشنو ای دل فسانهٔ جم و جام — بر درش بین چو خم هزار غلام
جام گیتی نما ست خاطر او — لوح سر خدا ست خاطر او
دیده بگشا ببین برأی العین — کین زمان او ست قرن ذو القرنین
مشرق ومغرب جهان رامش — همه عالم رهین انعامش
سدّ یاجوج فتنه دولت او ست — قوت شرع و دین ز صولت او ست
تیر او سهم نکبت أعدا ست — که از ان خصم را دلیل فنا ست
بایزید ألدرم که همچون برق — تیغش از غرب میرود تا شرق
آفتابیست تیغ أو ساطع — دین حق راست حجتی قاطع
تکنم نسبت کفش به غمام — ز انکه باشد بحکم عقل حرام
اذ نوال الغمام قطرة عین — ونوال الامام بدرة عین
ای دوانی حذر کن از املال — چند هر سو دوانی اسب خیال
عرصهٔ مدح شاه جای تو نیست — در خور جاه او ثنای تو نیست
من کجا شعر و شاعری ز کجا — کف موسی و ساحری ز کجا
ترسد چون بمدح شاهم دست — کان بلند ست و خاطر من پست
به دعا اختصار خواهم کرد — گرد جانش حصار خواهم کرد
یا رب از جور دورش ایمن دار — فلکش رام باد و بخت بکام
تا فلك راست سیر در ادوار — صبح اقبال او بر اعدا شام

تمام این مثنوی بخط آخوند ملا جلال دوانی ، از کتابخانهٔ بزرگی بنظر در آمد وتقل شد • حرره العبد المذنب عبدالله بن حسن ، سنه ۱۰۵۸ •

در دلـــم درد طلب هســـت و توی درمانـــم
الله الله مگـــذارم کـــه چنیـــن در مـــانـــم

راه بنمـــا بمـــن ای خضـــر بیابـان طلـب
کـــه چـــو پرکـــار درین دایـــره ســـر گردانم

میشـــوم غرقـــه دریـــن ورطه بگوئیـــد کجا ست
کشـــتی نـــوح کـــه در مهلـــکـــهٔ طـــوفـــانـــم

آن سر زلف چـــو چـــوگان که توداری بر دوش
من سر گشته چو گـــو در ســـر آن چوگانـــم

بر ســـر خوان بـــلا خون جگـــر چند خورم
چند روزی که درین خانـــهٔ دون مهمـــانـــم

شـــده ام دوســـت کش طرهٔ خوبـــان چکنم
حالیـــا بـــر دل ســـلســـله می جنبـــانـــم

تیمی از مقصـــد خـــود دور ز تقصیر خود ست
ور نـــه مقصـــود عیانســـت من این میـــدانم

ولـــه

اسم اعظـــم توئی و جملـــه جهـــان تکسیرت
تو کـــلام حقی و کـــون و مکـــان تفسیرت

بنشـــین ای دل دیوانـــه و تشـــویش مده
ور نـــه از زلـــف کجش راســـت کنم زنجیرت

بـــار هســـتی نتوان بـــرد بمنزلگـــه یـــار
جـــز فنـــا نیســـت درین راه دلا تدبیرت

رفتـــم ار جـــا بود و خانـــه گرفتـــم در دیر
بر وی ای شـــیخ که فارغ شـــدم از تکفیرت

خاکپـــائیم و خـدنگ تو تمنـــا داریـــــم
گر چـــه دانیـــم که در خاك نیفتـــد تیرت
راه میخـــانه دوانی طلـــب از پـیر مغـــان
کـه نکـــو میکنـــد ارشـــاد طـــریقت بـیرت

وله فی نعت النبي - صلعم -

روی بنمـــا که جهـــان ظلمـت انکار گرفت
صیقلـی زن کـــــه مـرا آینـــه زنگـار گرفت
توئی آن شـــاه که از کشـــور حســـنت خیلی
ملك جان و دل و دین جملـــه بیکتـــاز گرفت
سـرّ توحیـــد بهـــر نشـأه کمالی می یافـت
تـا درین نشـــأه کمال همـــــه اطوار گرفـت
آفتـــاب ازل از مشـــرق رویت چـــو دمیـد
همـــه ذرات جهـــان پرتو انـــوار گرفـت
گـر بمعنـــی شـــنوم نعت کمالات شما ست
هر صـــــدائی که درین گنبـــد دوار گرفـت
صـــدق دعوی تـو از نور جبینت پیداســـت
منکـــر از کـور دلـی شـیوه انکـار گرفت
چـه غـــم از ره زنی لشـــکر شیطان دارد
هـر کـــه راه روش احمـــــد مختار گرفت
چون دوانی نخورد درد غـم از کاســهٔ چرخ
هـر کـه جامی ز کف ســـاقی ابرار گرفت

ولـــه

از دهـــانش اثـر کنـــج نهـــان یافتـــه ام
و ز لب او خبـــر عالـم جـــان یافتـــه ام

(F.29 b) روضـــهٔ کوثر و طوبی که‌نماینـــــد از دور
همـــه در ســـایهٔ آن ســرو روان یافتـــه ام
نقش هـــر غیب که در کتـــم عدم تعبیـــه بود
اندر آئینـــه آن روی عیـــــان یافتـــــه ام
ای کـــه گوئی کـه شـب قدر فلانسـت و فلان
من همه در خـــم گیســـوی فلان یافتـــه ام
فقـــر ظاهـــر منگـر کز شـــرف خاك رهش
دولت ســـلطنت کون و مکـان یافتـه ام
آب حیـــوان که سـکندر بهمـــه عمر نیافت
چـون دوانی شـــب وصل تـو روان یافتـــه ام

ولـــه

در راه عشـــق طعنـــهٔ بد کـــو بهـانه نیست
می خور کـــه نقش غیـر درین کارخانه نیست
مخمـــور از ان دو نرگس میگـــون ســـاقیم
آری خمـــار ما ز شـــراب شـــبانه نیســـت
من گـــرم قصهٔ شب غم هجر و تو خوش بخواب
آخر حدیث سوز دل اسـت این فســـانه نیست
ای خرقـه پوش بخیـــه فتادت بـــروی کـــار
در خرقـهٔ تو حالت دلـــق مغـــانه نیســت
یکـــذره نیســـت در دل مجـــروح نازکـــم
کز تـیر غمزهٔ تو برو صـــد نشـانه نیســـت
از آســـتان دوست دوانی کجـــا رود
معـــراج عاشـقان بجـز این آســـتانه نیست

لـــه

از خط غالیـه سـا بر دو رخ آن خوب سرشت
آیـه نســـخ جمال مه و خورشـــید نوشـــت
کاشـتم تخـــم وفا لیـــك زمینش بـر خـــورد
بخـــورد بر تو به بین تا که درو کرد وکه کشت
چون خط ســـبز تو بینـم بلبت میـــل کنـم
بادهٔ لعل خوش آینده بـود بـر لب کشـــت
زیـر خشـــت سـر خم یافتـــه ام گنج مراد
مدّعی گر نکنـد فهم سـخن کـــو سر و خشت
همه جا نور رخش بین کـه یك آتش باشـــد
کـه گهی صـومعـه روشـن کندوگاه کنشت
نـه بکـــوی تـــو نـــه بـیرون بنشینم بـرقیب
صحبت عـــام عذابســـت چـه دوزخ چه بهشت
از جهـــان داشـت دوانی دلـی وانهم پرخون
چون خـم زلف ترا دید دل از دست بهشـت

لـــه

پنهـان بزیر دامن شـــب آفتـاب چیســـــت
یعنی ز زلف بررخ جانان نقـــاب چیســـــت
گـــر نیســـت دام مـــرغ دل عاشـــقان زار
در حلقه های زلف تو این پیچ و تاب چیسـت
چـون ملك دل همیشـــه یکی پادفـاه راسـت
در وی بگو که دم بدم این انقـــلاب چیسـت
مه نـور میفشـــاند و سـگ بانگ میزنـــد
سـگ را بگو که چشـــم تو با ماهتاب چیسـت

ما را وصال جنت و هجـــران جهنـم اســت
واعظ فســانه چنـد بگوئی عذاب چیســت
بافیض کف خواجــه کـه دریـای رحمتست
پیداست بحر اخضر زرّین عبـــاب چیســت
هــر چنـد خیمهــای نمایش زند حبـــاب
آبست هر چه هست وجود حبـاب چیســت
جان سخـا جهـــان کرم خواجـهٔ جهـــان
بـا همتش حدیث جهـــان خراب چیســت
دســت گهر فشـــان چـو گشاید بگاه بــزم
پیدا شــود که بخشش بحــر وسحاب چیست
پـا در رکاب فتــح چـــو آرد بعــزم رزم
روشن شـــود که کوکبـهٔ آفتـاب چیســت
میخواســت جان که بیشــتر از تن بدور شد
دل گفت میرســیم دوانی شــتاب چیســت

لــه

بـاد صبحی چنیــن غالیــه بـو می آیــد
بـوی اعجـاز دم عیســی ازو می آیــد
گـل به رو میزنــد از دســت صبا ناخن خار
ابر ازیـن دم بدمش گریــه بـرو مـی آیـد
خـم مــا میشـکنـد محتســب امـروز ولـی
نگـران باش کــه سـنگی به سـبو مـی آیـد
ای فلك قدر ملـك خو کـه خور از ابلق چرخ
بهـر پا بوس کمیـت تو فـرو مــی آیــد

تو منه جام می از کف کبه عدو را همه دم
خون دل همچو صراحی ز گلو می آید
مرو از چشم دوانی کبه گل چسن ترا
آب ازین بحر گهر بار بجو می آید

لبه (F.30 a)

دید خورشید رخ شمع مرا از روزن
بوسه بر خاك زد و گفت چراغت روشن
تیغت آلوده بخون دگری می بینم
باز در قصد منی خون منت در گردن
گنج پنهان که جهان جمله طلسم است بران
گر تو خواهی بطلب در دل ویرانهٔ من
طرفه اینست که شاگرد یکی استادیم
من پیمانه شکن (۳)پیمانه شکن
هر کسی آینهٔ روی ترا میطلبد
صوفی از باطن صافی و من از دردی دن
آن همه کوکبه موقوف بیك باد فنا
چه خورد باد گل از عشوهٔ مرغان چمن
ای دوانی سخنت چون سخن یاران نیست
بر تو ختمست سخن نیست درین هیچ سخن

ولـه

]

(٤)[

---

(۳) بیاض فی الاصل ٠
(٤) ممزقة محکوکة متطلسة فی الاصل ٠

میکشـــم آه چـــو تیر تو ز دل میگـــذرد
آه ازین دم که چهـــا میگـــذرد بر دل مـــن
بـا دوانی نظـــر همّت مـــردان خداســـــت
منّت از خصـــم نخواهد چـــه توانـد کردن
ولـــه
ای رخت مطلـــع انـــوار جمـــال ازلـــی
تویی امـروز کـــه در حسن و ملاحت مثـلی
روی خـــوب تـو بتحقیـــق محـلّ نظر ست
ناصحم منـــع کنـد لیـك بوجـــه جـــدلی
گفـــت از همـت عالیســـت کـه دایـم داری
نظـــری بـــا قـد من گفتمش آری بعـــلی
دل بچشـــم تو امـانت بســـپردیم و بـــرد
من ندیدم بجهـــان گوشـــه نشـین بی دغلی
میکند جـــان بمرگی کـه شـود همچو تو خصم
ای دوانی چـــه نمـــاید بـــر کانی عمـــلی
ولـــه
گردش چرخ بکـــام دل ما خواهـــد شـــد
یار ما با ســـر پیمان وفـــا خواهـــد شـــد
دارم امیـــد کـه از فیض صفـــای دل جـــام
هر کدورت کـه مرا هست صفـا خواهـد شد
گر زحـل سنگ بهنگـــامهٔ مـــا می‌انـداخت
زهره در مجلس ما نغمـه ســـرا خواهد شـــد
دوشـــم از غیب کســـی گفت که دل فارغ دار
که حســـودت هدف تـیر بلا خواهـــد شـــد

گر دم سرد خزان دست تطاول میرانـد
بفدای قدم بادصبا خواهد شد
زاهد از عجب میفکن سرنخوت در پیش
کارت از پیش باین‌شید کجا خواهد شد
وقت وقتست دوانی بگشا دست دعا
که گشادت همه از یمن دعا خواهد شد

ولـه

رخ چون گل قد چون سرو خرامان داری
در لب لعل شکر خندهٔ پنهان داری
میکشی عاشق بیچاره خود انصاف بده
که بدین شیوه توان گفت که ایمان داری
منکر از کور دلی چون رخ جانانه بدید
گفت برهستی خورشید چه برهان داری
(F.30 b) باطنت کیسهٔ زرقست و فسون ای زاهد
تو ازین دست بسی حیله در انبان داری
فلکت نان دهد وجان بعوض بستاند
آفرین باد زهی شیوهٔ مهمان داری
طوطیم بازغن وزاغ نگیرم الفت
وگرم خود همه اندر شکرستان داری
ای دوانی چه غم از صولت این نامردان
چون ره مددی از شه مردان داری

لـه

لب میگزی در خنده گر بینم برویت یکزمان
جان کشی تاچند ازین آزار جان مردمان

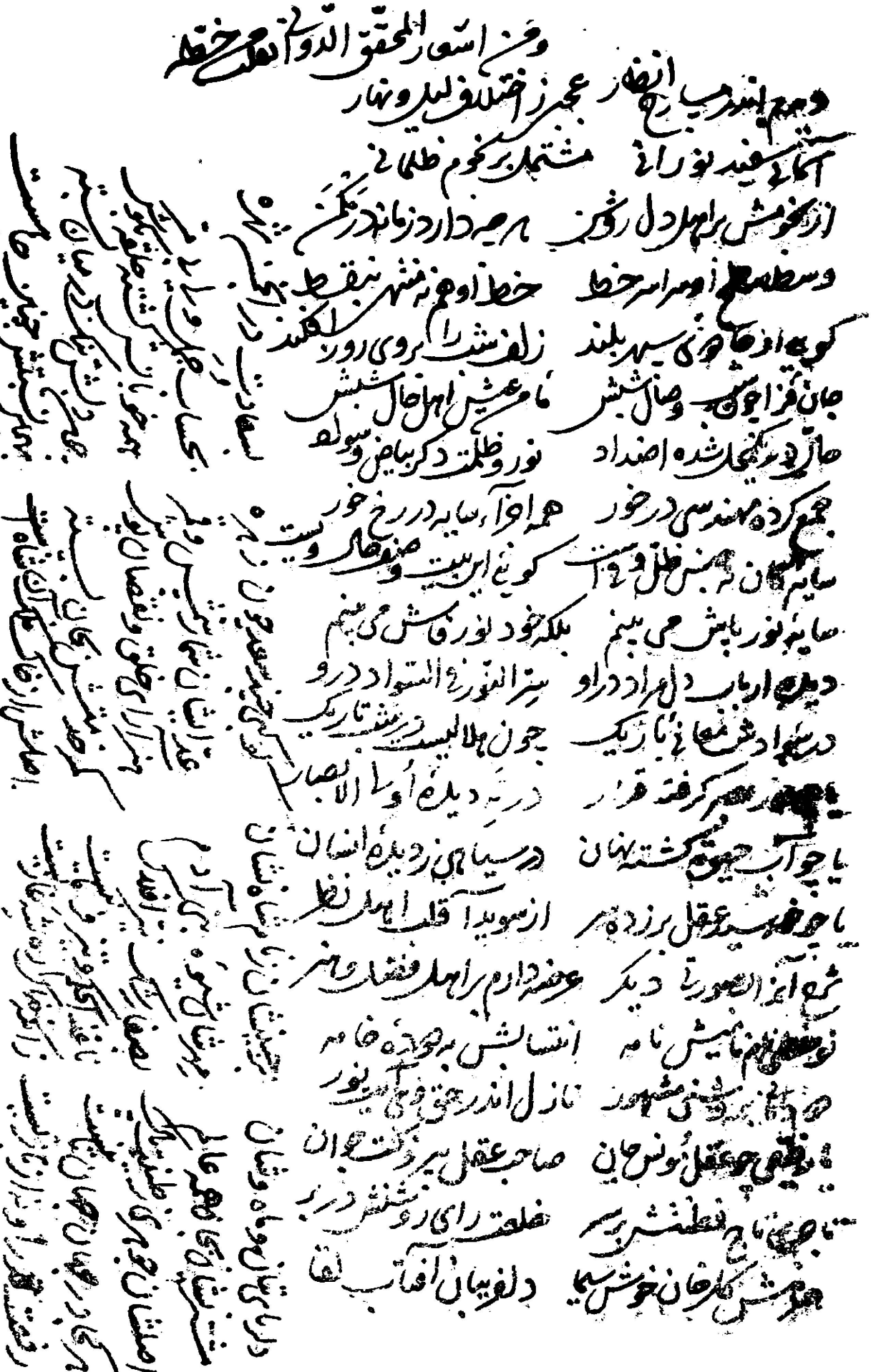
زان بردهانش تهمت دزدی دلهـــا بسته‌اند
کز خندهٔ پنهـــان او افتـــاد خلقـی در گمـان
چون بینمت با مردمان می‌میرم از غم دم بـــدم
آری چو نتوان زیســـتن یکدم بجـان دیگـران
بـا ترك خود گفتم میان می پوش از مـا گفت نی
چیزی ندارم جز کمر وان نیز دارم در میـــان

لـــه

چه حاجت تیر مژگان چون من از جانم شکار او
شـــکاری لاغرم لیکن بجـــانم شـر مسار او
همـــه وقت صبا خوش باد کو می آورد گاهـی
بســوی دیـده پیغـــامی ز خاك رهگـــذار او
خوشم باگریه‌های خود (٥)
زمستان گرچه (٦)
مدام آن نرگس مخمور چـون (٧)
بچندین می چرا ساکن نشد یارب (٨)
خرامان در کنـار جو گذشـــتی در چمن روزی
ستاده منظـر سرو سـهی زان بـر کنـــار او
دوانی گر رخش جـوئی مترس از تیغ‌مژگانش
که بلبـل در هـوای‌گل نیندیشـــد خـــار او

---

(٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨) هذه المواضع ممزقة فی الاصل ٠



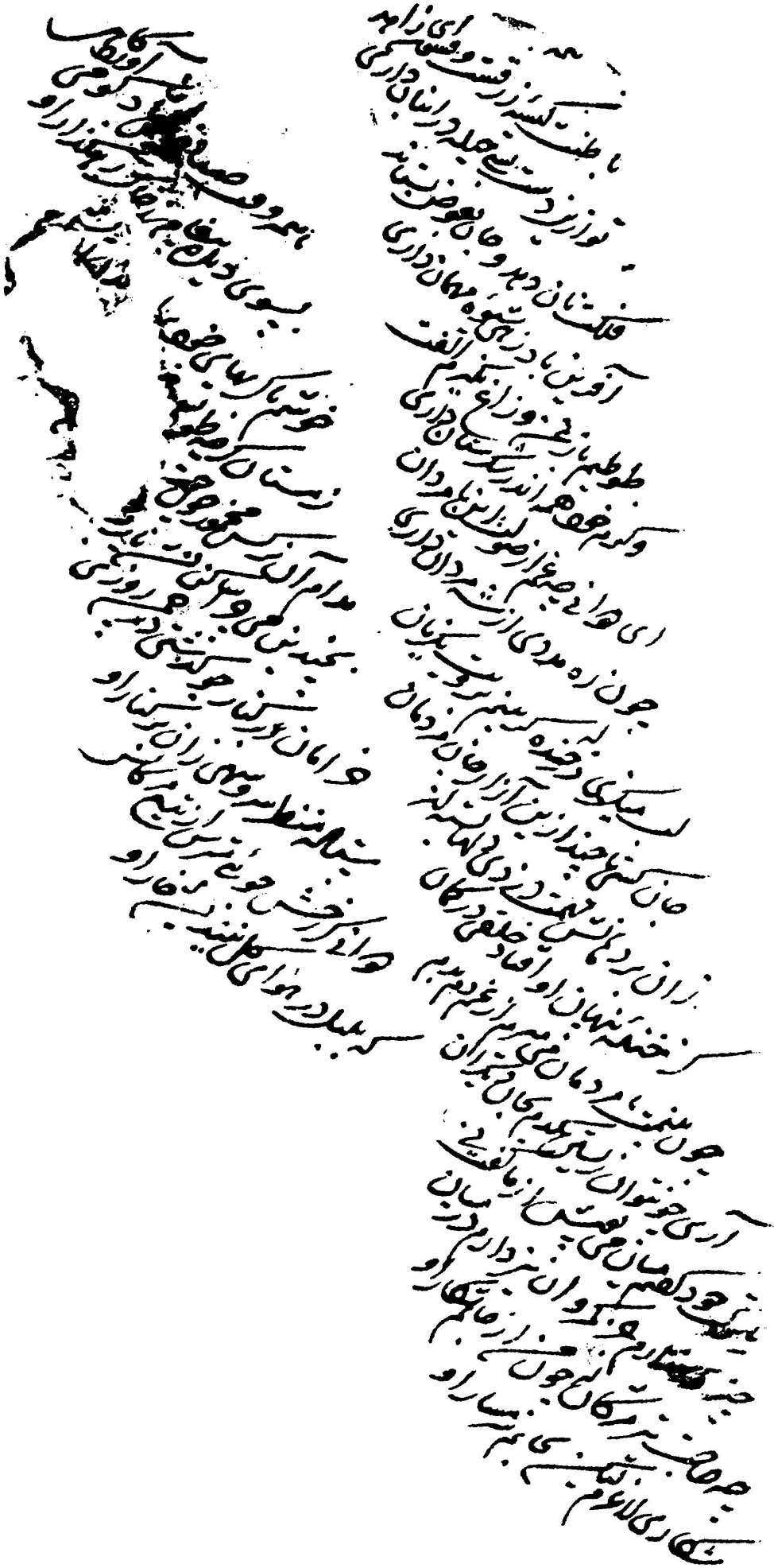
وجه الورقة ٣٠ من المخطوطة

شاه خورشید حاجه تشان کز رخش میدهد به ما نشان
بود ماه را نشان از نور تا نگیرد ز حسن او منشور
یعنی این روشنی که ما دارد همه از عکس روی شه دارد
عقل چیزی دید جود و بخشروی ختم دانیت طی حاتم طی
هست نوشیروان بزش عادل لیک از حق نمی نهد باطل
مشنوای دل فسانهٔ جم و جام بر درش بین چو جم هر غلام
جام گیتی نماست خاطر او لوح سر خداست خاطر او
دیده بگشا ببین برای العین کین زمان اوست قرن خیر القرین
مشرق و مغرب جهان زاش همه عالم رهین انعامش
سید یاجوج فتنه دولت اوست قوة شرع و دین رضوانست
تیر او سهم بکتب اعداست که از ان خصم را دلیل فناست
یزید الدرم ... بجول برق ...
آفتابیست تیغ او ساطع دین حق را ست حجتی قاطع
حکم نیست کفش به نجام زانکه باشد بحکم عقل حرام
از نوال الغمام قطرهٔ عین و نوال ...
ای خوانی حذر کن از اهلال چند هر سو همی روی خالی
عرصهٔ مدح شاه جای تو نیست در خور جاه او ثنای تو نیست
من کجا شعر و شاعری ز کجا کف موسی و ساحری ز کجا
سید چون بمدح شاهم دست کان بلند ست و خاطرم پست
به دعا اختصار خواهم کرد کز دعا نش حصار خواهم کرد

ظهر الوقة ٣٠ من المخطوطة

وجه الورقة ٣١

ظهر الورقة ٣١



ظهر الورقة ٣٢

# ذيـــــل

## شعر فارسی جلال‌الدین دوانی

## جمعه الدکتور حسین علي محفوظ

### رباعيات

در ديـدهٔ تحقيـــق ســرابســـــت جهان
بر سـيل فنـــا نقش حبابســـت جهـــان
رو چشـم خيـال خـواب دربند و ببـين
كز روی يقين خيال خوابست جهـــان(۹)

★ ★ ★

از لوح جهـان خط الهـــی خوانـــــدن
خوشتر بود از حرف و سياهی خوانـدن
بـر صفحـهٔ كاينـــات خطيســت كـزان
اسرار أزل توان كماهی خوانـــــدن(۱۰)

★ ★ ★

تا چنـــد چو باد گرد هـر در گـــردی
رو خـــاك ره حبيـب گـرد ار مـــردی
كردی تو خلاص ذات از شـــرك و نفاق
گر غسل چو ما در آب گرمش كردی(۱۱)

★ ★ ★

تا چند كنی نقـــل ز منهـاج و نصـوص
حق را طلب از نصوص خاتم نه فصوص

---

(۹) شرح رباعيات الدوانی ، الورقة ۲٤أ .
(۱۰) شرح رباعيات الدوانی ، الورقة ۲۵ أ .
(۱۱) شرح رباعيات الدوانی ، الورقة ۲۵ أ .

چـون ست مقـــام حمـد مخصـوص باو
اینســـت باو مشرب عرفان مخصوص(۱۲)

★ ★ ★

در خانقه و مدرســـه گشـتیم بســـی
انصاف کـه در هـر دو ندیدیم کســـی
دیدیم یکـی فســانه گوئی چنـــدی
قانع شـده از دوست ببانگ جرســی(۱۳)

★ ★ ★

بالاتـــری ای دوانـــی ازحـــد وقیـاس
نشناخت کسی [ترا] تـــو خودرا بشناس
زین دون صفتان خصـــال انسـان مطلب
کایشان نشناســـند اناس از نسناس(۱٤)

★ ★ ★

تـــا چنـد روی از پـی امیـــد و هراس
بگذار خیال غـیر و خـــودرا بشـــناس
دل برکن ازین منـــزل ویران کانـــرا
بـر قاعـــدهٔ فنـــا نهادنـــد أساس(۱٥)

★ ★ ★

ای در دو جهـان وصل تو مقصود دلـــم
روی ودهن تـو بـــود نابـــود دلـــــم

---

(۱۲) شرح رباعیات الدوانی ، الورقة ۲٥ ب ۰
(۱۳) شرح رباعیات الدوانی ، الورقة ۳۲ أ ۰
(۱٤) شرح رباعیات الدوانی ، الورقة ۳۳ أ ۰
(۱٥) شرح رباعیات الدوانی ، الورقة ۳۳ أ ۰

ترکیب رخ وزلف تو دانی که ز چیست
از شعلهٔ آتش دل و دود دلم[16]

★ ★ ★

هر حال که داری تو در اطوار وجود
ان لازم ذات تست در طور شهود
راضی بقضا شو ار نه از خود رنجی
چون نشأه سر اقتضاء آنحال نمود[17]

★ ★ ★

ای خال لبت سواد بینانی من
ز آینهٔ رخسار تو گویائی من
من دور ز تو بصد هزاران فرسنگ
و انگه تو درون دل سودائی من[18]

★ ★ ★

ای عکس رخ تو اصل پیدائی من
خاك قدمت مایهٔ بینائی من
چون دل ز تو برکنم که گنجائی نیست
جز درد ترا در دل شیدائی من[19]

★ ★ ★

در مدرسه کردیم بسی گفت و شنود
از سر جهان یکسر مو رخ ننمود

---

(١٦) شرح رباعيات الدوانى ، الورقة ٣٣ ب ٠
(١٧) شرح رباعيات الدوانى ، الورقة ٣٤ ب ٠
(١٨) شرح رباعيات الدوانى ، الورقة ٣٥ أ ٠
(١٩) شرح رباعيات الدوانى ، الورقة ٣٥ ب ٠

هـر چنـد گشـــوديم بســـی مشـــكلها
ز انجا بجـز از فسـانه كاری نگشود(۲۰)

★ ★ ★

خواهی كه رهی بكوی تحقيـــق بـــری
چون اهل حـــق از جـــدال میباش‌بری
با اهـل خدا نشـين و بـا ايشـــان باش
باشـد كه يكی راه بديشـــان بـری(۲۱)

★ ★ ★

مـر قـــدرت او نيسـت معلـــوم كسـی
ســرهـا شـده از دسـت درين راه بسی
موســی صفت انـدرين طـوی مرسی كن
از نـور يقيـن اگـر بيـابی قبسـی(۲۲)

★ ★ ★

ادراك چـو بی تميـــز عـاقـــل نشـــود
بس عقـل بكنـه ذات حـاصـــل نشـــود
چون نيست در ان مرتبه جز وحدت صـرف
اوصاف در ان مقـام حاصـل نشـود(۲۳)

★ ★ ★

درعلـم حق و كلامش ای اهـل كمـــال
گـــر نيـــك نظـــر نيـــابی اشـــكال

---

(۲۰) شرح رباعيات الدوانی ، الورقة ۳۷ ب ۰
(۲۱) شرح رباعيات الدوانی ، الورقة ۳۷ ب ۰
(۲۲) شرح رباعيات الدوانی ، الورقة ۳۸ أ ۰
(۲۳) شرح رباعيات الدوانی ، الورقة ۳۹ أ ۰

اینجا ست همه ماضی و مستقبل و حال
انجا همه هستیست عدم را چه مجال[٢٤]

★ ★ ★

در علم خدا ماضی و مستقبل و حال
آنکس گوید که او نداند أحوال
اینها همه محبوس زمان میگوید
از قید خود اوفتاده در ضیق مقال[٢٥]

★ ★ ★

گویند زمان نیست چو آب سیّال
سیّال ولی در نظر وهم و خیال
گر چشم خیال و وهم بندی گردد
اندر نظرت ماضی و مستقبل حال[٢٦]

★ ★ ★

رباعية مشتملة على نبذ من مناقب أمير المؤمنين ، ويعسوب الدين ، والحث على اخلاص الحب له ، والتوجه اليه ؛ فانه ملاك الامر فى نيل الحقائق كما أشار اليه المخبر الصادق[٢٧] : « أنا مدينة العلم ، وعلي بابها » .

رو رخت طلب بساقی کوثر کش
و ز کوثر کثرت می وحدت در کش
لا یظمأ أصلا أبداً شاربها
رمزیست ازین می ار توانی درکش[٢٨]

★ ★ ★

---

(٢٤) شرح رباعيات الدوانى ، الورقة ٤٠ ب .
(٢٥) شرح رباعيات الدوانى ، الورقة ٤٢ ب .
(٢٦) شرح رباعيات الدوانى ، الورقة ٤٦ أ .
(٢٧) محمد رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ
(٢٨) شرح رباعيات الدوانى ، الورقة ٤٦ أ و ب .

در ملـك حقيقتست آن شـــاه مـــدار
دسـت طلب اذ دامـن آن شـــاه مـدار
ان بـــاب مـدينـــهٔ علـومست در ای
زان در كـه رسی زود بمسندگه يار(۲۹)

* * *

خـورشـيد كمـالست نبي ، مـــاه ولی
اســـلام محمـد اسـت و ايمانست عـــلی
گـــر بينـه ای بـريـن سـخـن ميطلبی
بنگـر كـه ز بينـات أسماست جـلی(۳۰)

او راست در منقبت علي

از مهـر علي كسی كـه يـابـد ايمـــان
نامش همه دم نقش نگين(۳۱) بر دل و جان
اين نكتـهٔ طرفـه بين كـه ارباب كمـــال
يابنـــد ز بينـــات نامش ايمـــان(۳۲)

ولـه باسم طاهر

چـــون آدم و حـــوا عـــددش دانستن
در مـرتبـــه ســـوم بـين بـابـارا(۳۳)

---

(۲۹) شرح رباعيات الدوانی ، الورقة ٤٦ أ و ب ٠
(۳۰) شرح رباعيات الدوانی ، الورقة ٤٦ أ و ب ٠
(۳۱) فی هفت اقليم ص۲۱۱ : كند ٠
(۳۲) تذكره نصر آبادی ج۳ ص٤٩٦ ، وهفت اقليم ص۲۱۱ ٠
(۳۳) تذكره نصر آبادی ج۳ ص٤٩٦ ٠

وله باسم رکن

اول عـــــدد محـــب بـــــدست آر

بـــر وی عـــدد محب بیفـــزای[۳٤]

تاریخ سلطان أبو سعید

سـلطان أبوســعید که در فر خـــرمی

چشـم سـپهر پیر جـوانی چو او نـدید

الحق چگونه کشته نگردد کـه گشته بود

تاریخ مثـــل مقتـل سـلطان ابوسعید[۳۵]

واین مطلع ازوست

درد خمـــار دارم ودرمـــان من میست

می ده که می ز بهر مداوا حرام نیست[۳٦]

و از جملهٔ اشعار او اینست :

مـن کجـا شـعـر و شـاعری ز کجـا

یـــد بیضـــاء و سـاحری ز کجـا[۳۷]

★ ★ ★

مرا بتجربه روشن شد این در آخر حال

که قدر مرد بعلم است و قدر علم بمال[۳۸]

★ ★ ★

خورشـید کمـــال است نبی مـــاه ولی

اســلام محمـد است و ایمـانست علـي

---

(۳٤) تذکره نصر آبادی ج۳ ص٤۹٦ ۰

(۳۵) تحفه سامی ص ٤۸ ۰

(۳٦) مجالس النفائس ص ۱٤۱ ، و ۳۱۰ وفیها : ای خواجه می ۰

(۳۷) مجالس النفائس ص۳۱۰ ۰

(۳۸) مجالس المؤمنین ص۳٤۷ ۰

گـر بینـــه ای درینســـخن میطلبی[۳۹]
بنگـر کـه ز بینـات أسـماست جلی[۴۰]

ولـــه ایضـا

عارفـان قـدّ تـــرا مقصـد أعـلا خوانند
طـاق ابـروی تـرا مسجد أقصی خوانند
تیـز بینـان جهـان خـاك ســر کـوی ترا
توتیای نظـــر مـردم بینـــا خواننـد
قامت دلکش و رخسار دلفـــروز تـرا
أهل عرفان شـجـر و آتش موسی خوانند
سـخن از قد تو گفتم چو دوانی ز انـرو
سـخنانم همه در عالـم بالا خواننـد[۴۱]

أیضـا لـه

بنـور خاطر خـود میرویم در ره عشـق
چـراغ خاطر دون همّتان چه نور دهد
اگر چه فیض خدا شامل است یکسان نیست
نه هر جبل که تو بینی صدا چو طور دهد[۴۲]

در مدح أمیر المؤمنین علي

رو رخت طلب بســاقی کوثـــر کش
وز کوثـر کثـرت می وحـدت در کش

---

(۳۹) فی هفت اقلیم ص۲۱۱ : گربیننتی بر ین سخن میطلبی ۰
(۴۰) مجالس المؤمنین ص۳۴۸ ، وهفت اقلیم ص۲۱۱ ، وروضات الجنات ص ۱۶۳ ۰
(۴۱) مجالس المؤمنین ص۳۵۰ ، وتذکره ریاض العارفین ص۳۳۰ ۰
(۴۲) مجالس المؤمنین ص۳۵۰ ، وتذکره ریاض العارفین ص۳۳۰ ۰

لا يظمـأ أصـــلا أبـــداً شـــاربها

رمزی است در این می ار توانی در کش[٤٣]

★ ★ ★

در ملـك حقيقت اسـت آن شـاه مـــدار

دسـت از طلب دامـن آن شـــاه مـــدار

أو باب مدينـــة علـــوم اسـت در ای

زان در که رسی زود بمسند گه يار[٤٤]

من غزليـاته

از تـــو تا مقصود چندان منـزلی در پيش نيست

يك قدم بر هر دو عالم نه که گامی بيش نيست

معنی درويش ار خـواهی کمـال نيستی اسـت

هر که را هستی خود باقی است او درويش نيست

بندگی کن عشق را وز کفـر و ديـن ازاد باش

کز جدال آسوده شد هرکس که او را کيش نيست[٤٥]

اين رباعی در مدحت حضرت سلطان اوليا

علی مرتضی (ع) گفته

أی مصـــحف آيـــات الهـــی رويت

وی سـلسـلهٔ اهـــل ولايت مـــويت

ســـر چشـمهٔ زنـدگی لب دلجـويـت

محـــراب نمـــاز عارفـــان ابـرويت[٤٦]

---

(٤٣) مجالس المؤمنين ص٣٤٨ ٠

(٤٤) مجالس المؤمنين ص٣٤٨ ٠

(٤٥) تذكره رياض العارفين ص ٣٢٩ ٠

(٤٦) مجمع الفصحا ج٢ ص١١ ، وتذكره روز روشن ص١٧٦ ، وتذكره رياض العارفين ص٣٣٠ ، وآثار عجم ص٣١٠ ، وهفت اقليـــم ص٢١٠ ، وروضات الجنات ص١٦٣ ٠

ومنهـــا

فانی الف اســـت احـــد ازو جوی مـــدد
و انکـــه بشمـــار بینـاتش بعـــــدد
بنگـــر کـــه علیست فالعلي ســـرالله
اذ قـال الله : « قـل هـو الله أحـد»(٤٧)

ومنهـــا

آن چهار خلیفـه ای که دیدی همه نغـز
بشـنو سخنی لطیـف وشـیرین وملغـــز
بـا دام خـلافت ز پی گـــردش حـــق
افکند سه پوست تا برون آید مغـــز(٤٨)

وله ایضا فی جملة ما کتبه الی المولی عبدالرحمن الجامي : (٤٩)

ای از تو مـرا بهـر حـدیثی صـد ذوق
در گـردن من سلسلهٔ مهـر تو طـــوق
در دیـــدهٔ مـن اگـر ســـوادی باقیست
دودیست که جمع گشته از آتش شوق(٥٠)

---

(٤٧) روضات الجنات ص١٦٣ ٠
(٤٨) روضات الجنات ص١٦٣ ٠
(٣٩) الجامی ــ هو ذو اللسانین ؛ الشاعر المصنف ، نورالدین عبدالرحمن الجامی (٨١٧ــ٨٩٨هـ) ٠
(٥٠) روضات الجنات ص١٦٣ ٠

## المراجـــــع


١ ـ امتحان الفضلاء ـ سنكلاخ ( تبريز ١٢٩١ هـ ) .

٢ ـ مجموعة رسائل الدواني وأشعاره ، نقلا من خطه ، سنة ١٠٥٨ هـ . في خزانة الدكتور حسين علي محفوظ ( مخطوط ) .

٣ ـ شرح رباعيات الدواني . مخطوط في خزانة الكليـــة الشرقيـــة ، بجامعة ليننغراد .

٤ ـ هفت اقليم ـ امين أحمد رازي ( كلكته ١٩٣٩ ) .

٥ ـ تذكره نصر ابادى ـ محمد طاهر نصرابادى (طهران ١٣١٦ ش) .

٦ ـ تحفه سامي ـ سام ميرزا ( طهران ١٣١٤ ش ) .

٧ ـ مجالس النفائس ـ عليشير نوائي ( طهران ١٣٢٣ ش ) .

٨ ـ مجالس المؤمنين ـ نورالله الشوشتري ( ايران ١٢٩٩ ) .

٩ ـ روضات الجنات ـ الخونساري ( ايران ١٣٠٦ هـ ) .

١٠ـ تذكره رياض العارفين ـ رضا قليخان هدايت ( طهران ١٣١٦ش ) .

١١ـ مجمع الفصحا ـ رضا قليخان هدايت ( طهران ١٢٩٥ هـ ) .

١٢ـ تذكره روز روشن ـ مولوى محمـد مظفـر حسين صبـا ( طهران ١٣٤٣ ش ) .

١٣ـ آثار عجم ـ فرصت شيرازى ( بمبي ١٣١٤ هـ ) .

١٤ـ سيرة فيلسوف الاسلام جلال‌الدين الدواني ـ تأليف الدكتور حسين علي محفوظ ( مخطوط ) .

# اسكندر ابكاريوس

## من رواد مؤرخي الادب الجاهلي في العصر الحديث

بقلم : الدكتور رزوق فرج رزوق

هو اسكندر اغا بن يعقوب اغا بن ابكاريوس • اديب ومؤرخ وشاعر لبناني ، من اهل القرن التاسع عشر • ولد في بيروت ، ونشأ بها • وجال في انحاء اوربة ، وعاد الى بيروت واشتغل بالتأليف • ثم ارتحل الى القاهرة، وتقلد عدة مناصب في عهدي الخديوي اسماعيل والخديوي توفيق منها رئاسة دائرة صديق باشا الذي كان وزيرا للمالية • وتوفي في بيروت سنة ١٨٨٥ م •

وهو من عائلة ارمنية معروفة في بيروت • كان والده اثير المكانة عند الولاة والحكام في ديار الشام • وكان اول من قربه ورفع شأنه منهم ابراهيم باشا بن محمد علي باشا عندما فتح الديار الشامية[١] • ولاسكندر اخ اسمه يوحنا ، عني هو الآخر بالتأليف • كان ترجمانا في القنصلية الانكليزية ببيروت ، واشتغل بالتجارة واثرى ، وتوفي في سوق الغرب بلبنان سنة ١٨٨٩ • وله من المؤلفات :

التحفة الانيسة في النوادر النفيسة ـ ط

قطف الزهور في تاريخ الدهور ( كتاب في تاريخ العالم ) ـ ط

---

(١) انظر الآداب العربية في القرن التاسع عشر للويس شيخو ١ : ١١٥ـ١٦ ؛ تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ٤ : ٢٤٩ ؛ معجم المطبوعات العربية والمعربة ليوسف اليان سركيس ١ : ٢٤ـ٢٥ ؛ دائرة المعارف الاسلامية ( الترجمة العربية ) مادة « ابكاريوس » بقلم كارل بروكلمن ١ : ٩٥ ؛ الاعلام لخير الدين الزركلي ١ : ٢٩٧ ؛ معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ١ : ٢٥٣ •

نزهة الخواطر ( مجموعة روايات ادبية وتاريخية ) ـ ط
قاموس انكليزى عربى مطول ـ طبع ثلاث مرات
قاموس انكليزى عربى مختصر ـ طبع مرتين[٢] .
وليوحنا ابن اسمه نجيب له من المؤلفات :
فهرست تاريخ الحوادث فى السودان ـ فيه حوادث السودان (١٨٨١ـ١٨٨٩) وهو معرب عن الانكليزية[٣] .

اكب اسكندر ـ كما قال فى مقدمة كتابه تزيين نهاية الارب ـ على مطالعة تواريخ العرب واخبارهم ونوادرهم واشعارهم « ولا ريب فانهم امراء الكلام ، وارباب النثر والنظام ، وعنهم تروى الحكم والاداب ، والبلاغة التى يعجز عن مثلها ذوو الالباب » . والف كتبا عديدة فى الادب والتاريخ ، ونظم شعراً جله فى المدح والتهنئة والرثاء . ويتبين مما تحدثنا به المراجع عن كتبه ، ومما طالعته منها ، انه كان قد اتخذ من الجاهلية ـ تاريخاً وادباً ـ اوسع ميادين نشاطه التأليفى ، فله فى هذا الميدان أربعة كتب هى « نهاية الارب » و« روضة الادب » و « منية النفس » و « تزيين نهاية الارب » ونجد له ، فيما هو باق من كتبه ، كتابين فى التاريخ الحديث احدهما فى تاريخ ابراهيم باشا وثانيهما فى التاريخ اللبناني ، ثم نجد له ديواناً شعرياً .

وفى كتب اسكندر ما هو مطبوع ، وفيها ما هو مخطوط ، اما المطبوع فيبلغ عدده ثمانية . وأما المخطوطات فكتاب « نوادر الزمان فى وقائع جبل لبنان » ـ وهو محفوظ فى دار الكتب بالقاهرة ـ واربعة كتب اخرى يبدو انها مفقودة .

---

(٢) الاداب العربية فى القرن التاسع عشر ١ : ١١٦ـ١٧ ؛ معجم المطبوعات العربية والمعربة ١ : ٢٤ـ٢٥ ؛ تاريخ اداب اللغة العربية ٤ : ٢٤٩ .
(٣) معجم المطبوعات العربية والمعربة ١ : ٢٤٩ .

وفيما يأتي قائمة بأسماء هذه الكتب مرتبة وفقا لتسلسلها الزمني ، وباسماء المراجع التي ذكرتها . وسأتلوها بعرض ثلاثة منها اتيح لي ان اطالعها .

١ ـ نهاية الارب في اخبار العرب
مرسيليا ، مطبعة الفعلة ، ١٨٥٢ .
انظر الازهرية ٥ : ٥٩٤ ؛ الاعلام ١ : ٢٩٧ ؛ بروكلمن ٢ : ٤٩٥ ؛ زيدان ٤ : ٢٤٩ ؛ شيخو ٢ : ١١٥-١٦ ؛ الكتبخانة الخديوية ٥ : ٥٩٤ ؛ معجم المطبوعات ١ : ٢٤ ؛ معجم المؤلفين ١ : ٢٥٣ .

٢ ـ روضة الادب في طبقات شعراء العرب
انظر الازهرية ٥ : ١٣٢ ، الاعلام ١ : ٢٩٧ ، اكتفاء القنوع ٤٩٥ ؛ ايضاح المكنون ١ : ٥٩٢ ( سماه روضة الارب ... ) ؛ بروكلمن ٣ : ٤٩٥ ، دار الكتب ٣ : ١٧٣ ( سماه روض الادب ... ) ، زيدان ٤ : ٢٤٩ ؛ شيخو ٢ : ١١٦ ، الكتبخانة الخديوية ٥ : ١٣٢ ؛ المتحف البريطاني ١ : ٧٥٦ ؛ معجم المطبوعات ١ : ٢٤ ؛ معجم المؤلفين ١ : ٢٥٣ ؛ هدية العارفين ١ : ٢٠٦ ( سماه روضة الارب ... )

٣ ـ منية النفس في اشعار عنتر عبس
بيروت ، ١٨٦٤ ( الطبعة الاولى ) . بيروت ، ١٨٨١ (الطبعة الثانية)
انظر الازهرية ٥ : ٢٧٧ قال: منية النفس فياشعار عنترة عبس وهي مختارات من شعر عنترة بن شداد العبسي اختارها الاديب اسكندر اغا بن يعقوب اغا بن ابكار الارمني المتوفى في بيروت سنة ١٣٠٣ ( سنة ١٨٨٥ م ) ورتبها على حروف الهجاء وقدم لها بترجمة عنترة . نسخة في مجلد ، المطبعة العمومية في بيروت ١٨٦٤ بآخرها تقاريظ في ١٠٤ ص ، ١٩ سم . طبعة اخرى كالسابقة سنة (١٨٨١)؛

ايضاح المكنون ٢ : ٥٩٧ ، دار الكتب ٣ : ٣٨٩ ( قال لم يعلم جامعه اوله : الحمد الله الذى امره بين الكاف والنون ، ذكر فى اوله ترجمة عنترة ، وهو يشتمل على محاسن ما اختير من شعره ، وقد رتب على حروف الهجاء ، مخطوط بقلم معتاد بخط الشيخ محمد الشهير بالبربري ، فرغ من كتابته سنة ١٢٨٣ برسم محمد فقي ابراهيم ويليه تقاريظ للشيخ ناصيف اليازجي والسيد عمر افندى الانسى والمعلم يوسف الشلفون ) ؛ المتحف البريطانى ١ : ٢٨٢ ؛ هدية العارفين ١ : ٢٠٦ ،

٤ ـ تزيين نهاية الارب فى أخبار العرب
بيروت ، ١٨٦٧

انظر الازهرية ٥ : ٤٠٠ ؛ اكتفاء القنوع ٤٢٩ ؛ ايضاح المكنون ١ : ٢٨٥ ؛ بروكلمن ٢ : ٤٩٥ ( قال انه طبع سنة ١٨٠٧ ، وليس هذا القول صحيحا ، والخطأ ـ كما يبدو ـ طباعي ) ؛ دائرة المعارف ١ : ٩٥ ( قال انه طبع في بيروت سنة ١٩٥٨ ) ؛ المتحف البريطاني ١ : ٧٥٦ ، ( وقد اطلعت على هذا الكتاب فى مكتبة المتحف البريطاني فوجدته يتضمن تاريخي طبع ، الاول على غلاف الكتاب وهو سنة ١٨٦٥ ، والثاني على ورقة العنوان الداخلية وهو سنة ١٨٦٧ ، ووجدت تاريخ طبع آخر هو سنة ١٢٨٤ هـ التي ذكرت فى تاريخ شعري ورد فى نهاية الكتاب مؤرخاً سنة صدوره ، وهذه السنة تقابل سنة ١٨٦٧ الميلادية ،

٥ ـ ريحانة الافكار فى أخبار الاسد الكرار والبطل القهار الملك شهريار
بيروت ، ١٨٨٠ ( الجزء الاول فى ١١٩ صفحة )

انظر اكتفاء القنوع ٤٢٩ ( قال : قصة شهريار طبع فى بيروت ) ؛ المتحف البريطاني ١ : ٧٥٦ ؛ معجم المطبوعات ١ : ٢٤ ( قال : قصة شهرايار ـ بيروت ؟ )

٦ ـ نوادر الزمان فى وقائع جبل لبنان

مخطـوط

انظر بروكلمن ٢ : ٤٩٥ ؛ هدية العارفين ١ : ٢٠٦ ؛ ايضـاح المكنون ٢ : ٦٨٠ ؛ معجم المطبوعات ١ : ٢٤ ( قال : وله من المؤلفات « نوادر الزمان فى وقائع جبل لبنان » بخطه فى الخزانة التيمورية ) ؛ دائـرة المعارف الاسلامية ١ : ٩٥ ( قال : ويوجد لابكاريوس مخطوط فى تاريخ لبنان بدار الكتب المصرية ) ؛ الاعلام ١ : ٢٩٧ ( سماه : نوادر الزمان فى وقائع لبنان ـ خ ) .

٧ ـ نزهة النفوس وزينة الطروس

القاهرة ، مطبعة جريدة الزمان ، ١٨٨٣ ( الجزء الاول فقط )

انظر هدية العارفين ١ : ٢٠٦ ؛ ايضاح المكنون ٢ : ٦٤٣ قال ( نزهة النفوس وزينة الطروس فى تاريخ مصـر ) معجـم المطبوعات ١ : ٢٤ ؛ دار الكتب ٣ : ٤٠٩ ( قال : وهو ديوان الاديب اسكندر بك ابكاريوس . اودع فيه من الاشعار اللطيفة كل خريدة لطيفة . وهو فى المدائح والتهاني والمراثي . وأكثر ما فيه فى مدح الحضرة الخديوية التوفيقية والاسماعيلية . وقد مدح فيه الاميرة خشيار كريمة المرحوم ابراهيم باشا وامراء آخرين ) ؛ الاعلام ١ : ٢٩٧ .

٨ ـ المناقب الابراهيمية والمآثر الخديوية

القاهرة ، المطبعة الوهبية ، ١٢٩٩ هـ .

انظر هدية العارفين ١ : ٢٠٦ ؛ ايضاح المكنون ٢ : ٥٥٩ ؛ معجـم المطبوعات ١ : ٢٤ . ( قال : وهو تاريخ ابراهيم باشا ) ـ ألفـه بمعاونـة محمد مكاوي ، مط . الوهبية ١٢٩٩ ص ١٨٤ ) .

٩ ـ ١٢ ـ أربعـة مؤلفات خطيـة . قـال لويس شـيخو ان اسـكندر

ابكاريوس » ذكر لنفسه في المناقب الابراهيمية والمآثر الخديوية الكتب الآتية غير المطبوعة : التحفة الغراء في محاسن تونس الخضراء وكتاب ديوان الدواوين في أجود أشعار المتقدمين والمتأخرين وكتاب كأس المدامة في تركيب ( لعبة ) الدامة ثم ديوان شعر بين نظم ونثر » .

ونُسب الى اسكندر ابكاريوس ، سهواً ، مؤلفان هما :

١ ـ قاموس انكليزي عربي ، بيروت ١٨٩٢ ( الطبعة الثالثة ) . انظر دائرة المعارف الاسلامية ٣ : ١٨٢ ( قال : وقد طبع قاموسه الانكليزي العربي للمرة الثالثة في بيروت عام ١٨٩٢ ) وانظر بروكلمن ٢ : ٤٩٥ ( قال : قاموس انكليزي عربي ، الطبعة الثالثة ، بيروت ١٨٩٢ ) . انفرد بروكلمن بنسبة هذا القاموس الى اسكندر ابكاريوس . ولقد عرفنا ان لاخيه يوحنا قاموساً انكليزياً عربياً طبع ببيروت ثلاث مرات . ويبدو أن بروكلمن سها فنسب قاموس يوحنا الى أخيه اسكندر .

٢ ـ خرابات سوريا . وهو خطاب أثري عن عاديات سوريا وآثارها القديمة ، بيروت ، ١٨٦١ . انظر معجم المطبوعات ١ : ٨٤٦ ( ذكر سركيس هذا الخطاب ضمن مؤلفات خليل الخوري ( ـ ١٩٧٠ ) وأضاف ان مجلة المشرق ، السنة الثالثة ، نسبته الى اسكندر ابكاريوس .

## نهاية الارب في اخبار العرب

أول مؤلفات اسكندر ابكاريوس ، وهو كتاب في تاريخ العرب الجاهليين وأدبهم ، يقع في ١٨٨ صفحة متوسطة ، الفه سنة ١٨٥١ وطبعه سنة ١٨٥٢ بمطبعة الفعلة بمرسيلية في فرنسا طبعة جيدة أنيقة ، شكل فيها من الالفاظ ما يشكل .

---

(٥) انظر كتاب المخطوطات العربية لكتبة النصرانية ص ٣ .

قال في مقدمته ، مشيرا الى ما دعاه الى تأليفه من رغبة الناس في الشام في الاطلاع على أخبار العرب في الجاهلية : « بسم الله الرحمن الرحيم » الحمد لله الذي جعل الاولين عبرة للآخرين • وبعد فيقول العبد الى مولاه الغني ، اسكندر بن يعقوب بن ابكار الارمني ، انني لما رأيت اقبال الناس في ديارنا الشامية ، الى معرفة اخبار العرب الجاهلية شمرت ساعد العزم والجهاد ، الى التقاطها من كل شعب وواد ، فجاءت بحمد الله زبدة صافية ، كافية في بابها وافية ، وقد جمعتها في هذا الكتاب المسمى ( نهاية الارب في أخبار العرب ) وأنا أرجو ممن وقف عليه من أهل النظر ، ان يتجاوز عما زلت به القدم أو زاغ عنه البصر ، فأقول وبالله التوفيق ان العرب ينقسمون الى ثلاثة أقسام بائدة وعاربة ومستعربة • »

واودع مادة الكتاب في عشرة فصول ، هذه عناوينها : ملوك عرب الجنوب ، ملوك عرب العراق ، ملوك عرب الشام ، ملوك كندة ، ذكر ملوك متفرقة من العرب ، باب وقائع العرب المشهورة ، حرب خزاز ، حرب البسوس بين بني بكر وتغلب • حرب سباق الخيل • حرب ذي قار بين العرب والعجم • ذكر طرف من أخبار فصحاء العرب المشاهير •

وقد جعل الفصول التسعة الاولى ، وهي تشغل ثلاثة أرباع الكتاب ، لتاريخ العرب الجاهليين ناظرا الى هذا التاريخ من خلال ملوكهم ووقائعهم[٦] • وجعل الفصل العاشر ، وهو الاخير ، للادب ، فضمنه معلقات امرىء القيس وزهير والاعشى ولبيد بن ربيعة وعمرو بن كلثوم وطرفة بن العبد وعنترة العبسي وشيئا من أخبار حاتم الطائي وأشعاره[٧] •

وختمه بقوله « تمت أخبار الشعراء ، وبتمامها تم هذا الكتاب الذي

---

(٦) ص ٦ـ١٤٠
(٧) ص ١٤١ـ١٨٨

جمعنا فيه ما لاق وراق من أخبار العرب المتقدمين التي نقلناها من أسفار شتى عن ثقات المؤرخين • فجاء بحمد الله كتاباً كاملا يغني عن كثير من مطولات الاسفار ، ولا يمل الناظر فيه من اسهاب الروايات وتطويل الاخبار ، وانا التمس ممن طابت سريرته ، وحسنت سيرته ، أن يتجاوز بفضله عما طغى به القلم ، وزلت القدم ، فان الكمال لله وحده ، ولا عصمة الا عنده ، وهو حسبنا ونعم الوكيل »[٨] •

## روضة الادب في طبقات شعراء العرب

صدر هذا الكتاب في بيروت سنة ١٨٥٨ في ٢٨٨ صفحة •

يذكر المؤلف في أول كتابه هذا ما دعاه الى تأليفه ، ويشير الى منهج التأليف ، فيقول : « حمداً لمن انطق ألسن الشعراء بغرائب الاشعار ، وجعلها تذكرة لهم فيما يستجد من باقي الاعصار • وبعد فيقول اسكندر بن يعقوب صاحب هذا التأليف أنه لا يخفى ان الشعر ميدان تسابق فيه الشعراء الجياد ، وهو من أوضاع الجاهلية الذين كانوا يهيمون به في كل شعب وواد ، لانهم يأتون بالرقائق والنفائس ، وينزهون عباراتهم عن الخبائث والخسائس • فرأيت أن أجمع من لطائف أخبارهم ، ونوادر أشعارهم ما اخترته في هذا الكتاب ، وجعلته تذكرة لنفسي وهدية للاحباب ، وسميته « روضة الادب في طبقات شعراء العرب » وقد جعلت طبقاتهم على ثلاث مراتب ، قصداً لافادة الطالب ، ورتبت تراجمهم على حروف المعجم ، ليهتدي اليها الفصيح والاعجم ، وأنا التمس ممن يقف عليه أن يتغاضى عما زلت به القدم ، ويصلح ما طغى به القلم • والحمد لله اولا وآخراً ، وباطناً وظاهراً »[٩] •

---

(٨) ص ١٨٨

(٩) ص ٢–٣

ويورد بعد هذه المقدمة فصلا فى الشعر وفوائده ، يذكر فيه ، فيما يذكر من فنون الشعر وأغراضه ، التاريخ الشعري ، ويمثل له بقوله « كقول الشيخ ناصيف اليازجي فى وفاة المرحوم والدي :

مضى الى الله من طابت سريرته
بالله وهو بعفو الله مصحوب
فقل لمن جاء بالتاريخ يطلبه
قد صار في حضن ابراهيم يعقوب»(١٠)

ثم تتعاقب تراجم موجزة لشعراء الجاهلية مرتبة وفقا للتسلسل الهجائى لاسمائهم ، ومصحوبة بنماذج يسيرة من اشعارهم .

وهو يبدأ بترجمة أحيحة بن الجلاح ، وينتهي بترجمة يزيد بن ورقاء . وترد في آخر الكتاب تقاريظ شعرية يثني بها اصحابها على الكتاب ومؤلفه . واصحاب هذه التقاريظ هم : ناجي زاده عبدالقادر باشا مامور ايالة صيدا الكبير ، والشيخ ناصيف اليازجى الذى قال :

رسالة ليس قاريها بذى ملل وتحفة ليس شاريها بمغبون
تضمنت من بديع الشعر أحسنه نظماً فكانت كديوان الدواوين

وولده الشيخ حبيب اليازجي ، ومحمد رفعت بك ، وعمر افندى الانسي الذى قال :

ياحسن بهجة روضة الادب التى هى نزهة الابصار والاذهان

وابو حسن افندي الكستي ، والشيخ ابراهيم السالمي شيخ العرب السوالمه الذي قال :

فى نزهة الروضة الغراء قد جمعت عشائر افترقت فى سالف الحقب

---

(١٠) ص ٧ . وسنة الوفاة ١٨٤٥ .

انت الاديب وهذا الروض منك زهت ازهاره فتسمى روضة الادب[1]

## تزيين نهاية الارب في اخبار العرب

طبع هذا الكتاب في بيروت سنة ١٨٦٧ بعد خمسة عشر عاما من صدور « نهاية الأرب في اخبار العرب » •

ويبدو انه انجز تأليفه قبل طبعه بخمسة اعوام ، فقد ذكر في مقدمته ان المدة بين طبع الكتابين نحو عشرة اعوام •

وهذا الكتاب ، كما يشير عنوانه ، نسخة ثانية من نهاية الارب ، ولكنها نسخة مزيدة منقحة ، بلغ عدد صفحاتها ٤٠٨ ، فزادت على ضعف عدد صفحات الكتاب الاول •

وقد شجع المؤلف على اصدار كتابه « تزيين نهاية الارب في اخبار العرب » ما ظفر به كتابه « نهاية الارب » من شيوع بين الناس • واعتز بالكتاب الجديد فاهداه الى السلطان العثماني عبدالعزيز خان •

قال في مقدمته :

« •• اما بعد فيقول العبد الفقير الى رحمة مولاه اللطيف القدير ، اسكندر بن يعقوب المعترف بالذنب والتقصير : انني اذ كنت مغرماً بمطالعة تواريخ العرب واخبارهم ، ونوادرهم واشعارهم ، ولاريب فانهم امراء الكلام ، وارباب واربلب النثر والنظام ، وعنهم تروى الحكم والاداب ، والبلاغة التي يعجز عن مثلها ذوو الالباب • وقد كنت الفت كتابا جمعت فيه من اخبارهم ما سمح به الخاطر ، واوردت ما قدرت على جمعه من الاشعار والنوادر ، وسميته « نهاية الارب في اخبار العرب » واشتهرته مطبوعا من نحو عشرة اعوام ، وشاع بين الخاص والعام ، غير انه لم يكن

---

(١١) ص ٢٨٥ـ٢٨٨

مستوفيا حق المطلوب ، ولا جاء على تمام المرغوب ، نظرا لما فيه من الايجاز والتخفيف ، والاختصار فى التأليف ، فشرعت فى تهذيبه هذه المرة وزدت فيه ما امكني التقاطه من بدائع الاشعار ، كالقصائد المسبعات وغيرها من الوقائع والاخبار ، حتى زها رونقه وزاد فى التحسين ، وصار كتاباً مفيداً مزيناً بنفائس الدر الثمين ، كما يظهر ذلك لكل متأمل فيه من فصيح اديب ، وعاقل لبيب • وبعد ان تم جمعه وطاب سمعه سميته «تزيين نهاية الارب فى اخبار العرب » وقدمته الى اعتاب •• السلطان عبدالعزيز خان •• وكان تقديمه بواسطة •• والى ولاية سورية المحترم افندينا راشد باشا •• وانا ارجو ممن وقف عليه من اهل النظر ان يتجاوز عما زلت به القدم او زاغ عنه البصر ، فاقول ، وبالله التوفيق : ان العرب ينقسمون الى ثلاثة اقسام بائدة وعاربة ومستعربة ••» (١٢) •

ثم يستمر الكتاب فى مزيج من التاريخ والادب والشعر ، شبيه بما فى كتابه الاول « نهاية الارب » • ويختمه مؤلفه بقوله « هذا آخر ما اثبته من اخبار العرب المتقدمين التى نقلتها عن اسفار شتى عن ثقات المؤرخين فجاء بحمدالله كتابا شاملا يغني عن كثير من مطولات الاسفار ولا يمل الناظر فيه من اسهاب الروايات وتطويل الاخبار »(١٣) •

وترد فى اخره مجموعة من التقاريظ الشعرية لطائفة من ادباء الشام منهم عمر افندى الانسي والحاج حسين بيهم ويوسف الشلفون والمعلم ابراهيم سركيس والمعلم ظاهر خيرالله الشويرى وسعيد الحموى وسليم ذياب الطرابلسي(١٤) •

---

(١٢) انظر مقدمة الكتاب وهى فى خمس صفحات غير مرقمة •
(١٣) ص ٤٠٣
(١٤) ص ٤٠٣ـ٤٠٧

**منزلته في التاليف الادبي :**

كان اسكندر ابكاريوس من ادباء القرن التاسع عشر البارزين ، ومن مؤرخيه ، وشعرائه . ولكنه يكاد يكون مجهولا اليوم ؛ اذ لم يذكـــره الا القليل من المؤرخين والباحثين ، ولم يذكروا عنه الا القليل من الاخبار .

وممن ذكره مترجما له او مشيراً اليه او معرفا بمؤلفاته ـ جرجي زيدان واسماعيل بن محمد امين البغدادي ولويس شيخو ويوسف اليـــان سركيس وكارل بروكلمن وخيرالدين الزركلي وعمر رضا كحالة والدكتور صالح أحمد العلي .

واذا كان ما ألفه ابكاريوس في ميدان التاريخ ، او ما نظمه في روضة الشعر ذا مستوى اعتيادي لايحلّه منزلة المؤرخين والشعراء الكبار ، وينهض عذرا لقلة اهتمام الدارسين بأمره فان ما الفه ونشره في حقل الادب الجاهلي يعدّ عملا ريادياً جديرا بالعناية .

ولعل اول من اشار الى هذا الدور الريادي الدكتور صالح احمد العلي فقد قال في حديثه عن الادب الجاهلي بوصفه جزءا من دراسة تاريخ الادب العربي :

« لقد بدأ الاهتمام بدراسة الادب الجاهلي كجزء من الادب العام ، ومن اوائل من الف ونشر كتباً هو اسكندر ابكاريوس الذي نشر ثـــلاثة كتب هي « نهاية الارب في اخبار العرب » ( مارسيليا ١٨٥٢ ) و « روضـــة الادب في طبقات شعراء العرب » ( بيروت ١٨٥٨ ص ٢٨٨ ) و « تزيين نهاية الارب في اخبار العرب » ( بيروت ١٨٦٧ ص ٤٠٨ )[١٥] .

وتاريخ الادب ـ كما يقول محمد هاشم عطيّة ـ قديم عند العرب . تنبه اليه العلماء من السلف حين هموا بالنظر في علوم الامم الاخرى ونقل آثار اللغات المختلفة الى هذه اللغة العربية ، فنظروا ايضا فيما ورثوه عـــن

---

(١٥) « العصر الجاهلي » ، الادب العربي في آثار الدارسين ص١٨ .

اسلافهم من ذلك الادب ، فتناولوه بالتدوين ، وعالجوه بالتحليل والنقد ، وأرخوا رجاله ، ورتبوا طبقاته . ودرجت على هذا القدر من النظر امهات الكتب الادبية مثل « طبقات الشعراء » لابن سلام الجمحي (ـ٢٣١ هـ ) و « البيان والتبيين » للجاحظ (ـ٢٥٥هـ) و « الشعر والشعراء » لابن قتيبة (ـ٢٧٦هـ) و «الكامل» للمبرّد (ـ٢٨٥هـ) و « الاغاني » لابي الفرج الاصفهاني (ـ٣٦٥هـ) و «الامالي» لابي علي القالي (ـ٣٦٥هـ) ، ثم كتب الموازنة والنقد من بعدها ، على مثال من البحث لايزال يحتذى الى عصرنا هذا . غير ان مباحث هذا العلم كانت في اكثر هذه الكتب منثورة غير متعمقة ، وكانت مجردة في كثير من الاحيان من الدراسة الفنية التي استحدثها علماء الغرب لدراسة ادبهم في القرن الثامن عشر ، وطبقها بعض مستشرقيهم على دراسة تاريخ الادب العربي ، ونهجوا بها سبيل هذا البحث الجديد حتى استقل تاريخ الادب عن سائر العلوم ، وظهر في نسق حسن من الترتيب والتفصيل ، وسار المعاصرون في مصر ثم في غيرها على هذا المنهج ، ووضعوا في ذلك العلم كتباً متعددة يقصد اكثرها الى غرض التعليم[١٦] .

ولقد نقل المستشرقون كتابة تاريخ الادب العربي الى مرحلة جديدة حين طبقوا في دراسة ادبنا وكتابة تاريخه منهجاً يمنح تاريخ الادب استقلالا ، ويرسم لدراسته خطة ، ويظهر له صورة واضحة متصلة الاجزاء ، وينظر الى الادب من خلال معناه العام ، فيؤرخ لحياة الامة الشعورية والعقلية ، ويبحث في نشأتها وتطورها ، ويترجم لا للشعراء والكتاب وحدهم بل للفلاسفة والمؤرخين والعلماء ايضا .

وكان المستشرق النمساوي يوسف حامر برجشتال (١٧٧٤ – ١٨٥٦) اول من حاول تقديم تاريخ الادب العربي ، بمعناه العام ، في عرض كامل ،

---

(١٦) الادب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي ص ٢٨ .

بكتابه «تاريخ الاداب العربية» الذى صنفه بالالمانية ، وأصدره فى فينا بين سنتي ١٨٥٠ و ١٨٥٦ ، فى سبعة مجلدات . ولكن اهم مصادر تاريخ الادب العربى لم تكن قد عرفت فى زمانه ، كما انه لم يكن على علم كاف بالعربية ، لذا لم يعد من الممكن اليوم الاعتماد على كتابه الا بحذر كبير . واعقب برجشتال اربتنوت وفون كريمر فأصدر كل منهما كتابا فى هذا الحقل(١٧) .

وتلاهم المستشرق الالمانى كارل بروكلمن (١٨٦٨-١٩٥٦) فاصدر بالالمانية كتاب « تاريخ الادب العربى » بين سنتي ١٨٩٨ و١٩٠٢ فى جزأين وثلاثة ذيول . وقد عرض فيه الادب العربى فى مفهوم واسع جديد تضمن البحث فى احوال المجتمع وسير الادباء وتحليل نتاجهم ، ووضعه فى أطر اجتماعية وسياسية وفنية ، وربطه بتيارات فكرية عامة . وعني عناية فائقة بذكر المؤلفات العربية ، وبيان ما هو مخطوط او مطبوع منها ، والاشارة الى المكتبات التى تحتفظ بالمخطوطات وارقام هذه المخطوطات فى سجلات المكتبات .

ومن اوائل الكتب التى الفها العرب فيما بعد وافاد مؤلفوها ، بطريقة مباشرة او غير مباشرة ، من المناهج الغربية ، فى تأليف كتب التاريخ الادبي :

تاريخ العرب وآدابهم لقسطنطين فيليبدس وادوارد فنديك ، القاهرة ١٨٩٢ .
تاريخ اداب اللغة العربية لمحمد دياب ، القاهرة ١٩٠٠ .
ادبيات اللغة العربية لعاطف بركات وآخرين ، القاهرة ١٩٠٦ .
ادب الاسلام لصالح حمدى حماد ، القاهرة ١٩٠٧ .
ادب اللغة العربية لمحمد حسن نائل المرصفى ، القاهرة ١٩٠٨ .
تاريخ الادب او حياة اللغة لحفني ناصف ، القاهرة ١٩١٠ .

---

(١٧) بروكلمن ، تاريخ الادب العربى ( الترجمة العربية ) ١ : ٣٢ .

تاريخ ادب اللغة العربية لعبدالله دراز ، القاهرة ١٩١٠ .
تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ، القاهرة ١٩١١ .
الشذرات السنية فى تاريخ آداب اللغة العربية لمحمد علي المنياوى ، القاهرة ١٩١١ .
تاريخ آداب العرب لمصطفى صادق الرافعى ، القاهرة ١٩١٢ ـ ١٤ .
النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية للويس شيخو ، بيروت ١٩١٢ ـ ١٩ .
المنتخب من تاريخ آداب العرب لمحمد عطية الدمشقى ، القاهرة ١٩١٣ .
تاريخ آداب العربية منذ نشأتها الى ايامنا لفكتور ساروفيم ، الاسكندرية ١٩١٤ .[١٨]

واذا نحن لاحظنا ان معظم هذه الكتب قد صدرت فى اول القرن العشرين ، وان بينها وبين مؤلفات اسكندر ابكاريوس فى تاريخ العرب الجاهليين وادبهم قرابة نصف قرن من الزمن تبين لنا مدى السبق الذى وفق اليه هذا المؤلف فى مجال تأليف الكتب فى تاريخ الادب الجاهلى ونشرها .

ولا ازعم ان مؤلفاته «نهاية الارب» و «روضة الادب» و «وتزيين الادب» قد استكملت كل شروط تأليف كتب التاريخ الادبي التى نعرفها اليوم ، فالرجل رائد وهو يسبق زملاءه من مؤرخي الادب العربي بمدة طويلة من الزمن ، ويسير فى طريق جديدة لم تعبدها اقدام العابرين .

وليس من العسير على الباحث المعاصر ان يجد فى هذه الكتب ما ينتقده وما لايرضيه من مضامينها ومناهج تأليفها ؛ فخطة البحث فيها موجزة ، وعناصر الخطة قليلة ، وتوزيع المادة على هذه العناصر يفتقر الى التوازن والتناسب . وفى هذه الكتب من التاريخ ما يربو على ما فيها من الادب وفيها نظر الى الادب بمعناه الخاص المحدود ، وفيما اعتماد على منهج من السرد

---

(١٨) انظر المرجع نفسه ٣٣ـ٣٥ .

والتمثيل لا يستند الى نصيب كاف من النقد والتحليل ، وفيها تأكيد على هدف الامتاع فالمؤلف يجمع في صفحات كتبه هذه « ما لاق وراق من اخبار العرب المتقدمين » ويختار للقارىء المستمتع « لطائف اخبارهم ونوادر اشعارهم » ، وفي لفتها سجع متكلف لا تدعو اليه طبيعتها .

ولكن لهذه الكتب جوانبها الايجابية ايضا ؛ فقد فطن مؤلفها الى العلاقة الوثيقة بين الادب الجاهلي والشعب الذي انتجه ، فتحدث عن احوال هـذا الشعب وروى اخبار ملوكه وسرد انباء وقائعه ، وهو ايضا قد طبق قواعد تقديه وتأليفية حسنة حين قسم الشعراء الى طبقات ، وحين لم يستكثر منها بل اقتصر على ثلاث طبقات ، وحين اورد تراجم الشعراء مرتبة وفقا للتسلسل الهجائي لاسمائهم ، وحين اقتبس مواد كتبه « من اسفار شتى عن ثقـات المؤرخين » .

ولهذه الكتب ، بعد كل هذا ، تقدمها الزمني . والفضل للمتقـدم .

## مراجـع البحث


ابكاريوس ، اسكندر بن يعقوب ( ـ ١٨٨٥ )

١ ـ نهاية الارب في اخبار العرب ، مرسيلية ، مطبعـة الفضلة ، ١٨٥٢ .

٢ ـ روضة الادب في طبقات شعراء العرب ، بيروت ، ١٨٥٨ .

٣ ـ تزيين نهاية الارب في اخبار العرب ، بيروت ، ١٨٦٧ .

بروكلمن ، كارل ( ـ ١٩٥٦ )

١ ـ تاريخ الادب العربي ( بالالمانية )

٢ ـ « ابكاريوس » ، دائرة المعارف الاسلامية ( الترجمة العربية ) القاهرة ، ١٩٣٣ .

البغدادي ، اسماعيل بن محمد امين ( ـ ١٩٢٠ )

١ ـ ايضاح المكنون فى الذيل على كشف الظنون ، استانبـــول ، ١٩٤٥ .

٢ ـ هدية العارفين اسماء المؤلفين وآثار المصنفين ، استانبول ، ١٩٥١ ـ ١٩٥٥ .

الزركلي ، خيرالدين بن محمود .

الاعلام ـ قاموس تراجم ، الطبعة الثالثة بالافسيت ، بيروت ، ١٩٦٦ .

زيدان ، جرجي ( ـ ١٩١٤ )

تاريخ اداب اللغة العربية ، القاهرة ، ١٩٣٦ .

سركيس ، يوسف اليان ( ـ ١٩٣٢ )

معجم المطبوعات العربية والمعربة ، القاهرة ، ١٩٢٨ .

شيخو ، لويس ( ـ ١٩٢٨ )

١ ـ الآداب العربية فى القرن التاسع عشر ، بيروت ، ١٩٠٨ـ١٩١٠ .

٢ ـ كتاب المخطوطات العربية لكتبة النصرانية ، بيروت ، ١٩٢٤ .

عطية ، محمد هاشم (ـ١٩٤٣)

الادب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، ١٩٣٦ .

العلـي ، صالح .

« العصر الجاهلى » ، الادب العربى فى آثار الدارسين ، بيروت ، ١٩٦١ .

فنديك ، ادوارد (ـ١٨٩٥)

اكتفاء القنوع بما هو مطبوع من اجل التآليف العربية فى المطابـــع الشرقية والغربية ، القاهرة ، ١٨٩٦ .

فهرس الكتب العربيـة بمكتبة المتحف البريطانى ( بالانكليزيـــة ) ، لندن ، ١٩٢٧ .

فهرست الكتب العربية الموجودة بالدار لغاية شهر مايو ١٩٢٦ ، الجزء الثالث ، ١٩٢٧ .

فهرس الكتبخانة الخديوية .

فهرس الكتب الموجودة بالمكتبة الازهرية الى سنة ١٣٦٨ هـ ١٩٤٩ م ، القاهرة ، ١٩٤٩ ( الجزء الخامس )

كحالة ، عمر رضا .

معجم المؤلفين ـ تراجم مصنفى الكتب العربية ، دمشق ، ١٩٥٧ .

# الشعراء وتجربة الشعر

**الدكتور عبدالجبار المطلبي**

**الاستاذ المساعد فى قسم اللغة العربية**

الشعر « خلق فني »[١] يعبر به الشاعر عما يعتلج فى نفسه ، وهو فى اكثر أشكاله أصالة وظيفة طبيعية وان صحبها جهد وعمل ، أمّا النقد فشيء آخر ، انه تقدير ذلك « الخلق الفنى » سواء أكان التقدير معتمدا على منهج ذاتى اساسه التذوق ام اتخذ اسسا موضوعية تبنى عليها احكام معينة تفضى فى مجموعها الى تقدير معين . فالنقد اذن ، فى وجه من الوجوه ، حرفة وحذق قد يصدران عن موهبة طبيعية ، ولكنهما يعتمدان ، فى المقام الاول ، على مران الناقد وجهده . فالشاعر والناقد ، لذلك ، مختلفان فى طبيعة عملهما ، وهما مختلفان فى نقطة الانطلاق ايضا . فالقصيدة عند الشاعر ، كما يقول بول فاليرى Paul Valery ، هى نهاية المطاف ، اما عند الناقد ، فبدء الرحلة[٢] ، ولعلهما ، لهذا السبب ، لا يلتقيان .

ومن المستحيل ، كما يقول بعضهم[٣] ، ان يؤلف المرء تقديرا عادلا لقيمة قصيدة من القصائد حتى يستطيع ان يجرب كل ما يصل به الى تقدير

---

(١) انظر : Wellek, Rene and Warren, Austin; Theory of Literature, London, 1955.

( الفصلين الاول والثانى فى بحث الادب والدراسة الادبية وطبيعة الادب ص ٣ـ١٨ ) .

(٢) انظر: The Creative Process, ed by Chiselin, Breweter, (A Mentor Boog), New York, 1955, P. 95-96.

(3) Gurrey, P.: The Appreciation of Poetry, Great Brittain, 1955, P. 10.

عادل بما يمكن ان تمنحه تلك القصيدة، فان تقدير الشعر لهذا السبب ليس نشاطا نقديا ، فى الدرجة الاولى ، وانما هو شيء ابداعي .. فعندما ينظم الشاعر قصيدة ينتخب الفاظا وايقاعات وموسيقى ، وهذا الانتخاب يتضمن حكماً نقديا حسنا ، وعلى القارىء الا يدع اى نشاط نقدى يتدخل حتى يفوز من القصيدة بكل ما يمكن ان تمنحه اياه[٤] . وفى هذا الرأى الغاء لدور الناقد المحترف ، او على الاقل زحزحة له الى مرتبة متأخرة لا يحسد عليها .

ويبدو ان وضع النقاد فى هذه المنزلة ناتج من قصورهم عن اعادة خلق التجربة الشعورية فى نفوسهم أو من كونهم ( ومعهم مؤرخو الادب ) ينظرون الى الآثار الشعرية من موقف مختلف عن موقف الشعراء ، اصحاب تلك الآثار . فهم ينظرون الى انتاج الشاعر من خلال ظروفه وتقلبات الحياة به مما تركت آثارها فى ذلك الانتاج اى بجمع الوثائق وربطها وتفسيرها ، وهذه لا تمس الا الامور الخارجية ، فمعرفة الشعراء وايامهم ودراسة توالى الظواهر الادبية ليس لها الا ان تحملنا على التخمين فيما لعله حدث فى اذهان الشعراء ، فان نجحوا فى ذلك ، فبسبب تكرار حالين : انتاج الاثر نفسه ، واثره فى اولئك الذين تلقوه ... ومن المستحيل الجمع ، على صعيد واحد ، بين ملاحظة الذهن الذى انتج الاثر ، وذهن المتلقى له ، فما من عين بقادرة على جمعهما فى آن واحد[٥] ، لذلك يقف النقاد فى موقف مختلف عن موقف الشعراء ، اصحاب الآثار الفنية ، والحق انهم يقفون فى الطرف المقابل لهم ، فهم يواجهون القصيدة « عملا فنيا تاما » ويصدرون عليها احكاما ، مهما بلغت من الدقة ، فانها تغترف من اللجة ، ولا تستطيع ان تمعن فى الاعماق ، ذلك لانها لو فعلت ذلك لضلت السرى فى تلك

---

(٤) المصدر السابق ، ص ١٠ .

(5) The Creative Process, 95-96.

الظلمات التى تحفل بمخلوقات غريبة تضطرب وتتصارع ولا يعرف لها قرار او يسمع لها سرار ، فيؤثرون السلامة فى البقاء على الشاطىء ، وحسبهم انهم يصفون اصطخاب الموج ، والتماع الضوء ، ومتعة المشاهدة من شاطئهم الذى يقفون عليه[٦] .

ومن النقاد من جهة اخرى ، من لم يقنع بموقفه على شاطئه المطل بل حاول قرض الشعر ومعالجة نظمه ، فرأى بعد ذلك انه يستطيع ان يوجه الشعراء فى نظم الشعر ، ويرسم لهم الطريق اليه ، فجاء توجيهه « آليا » يمليه العقل لا القريحة والمنطق العقلى لا التجربة الشعرية . وخير مثل على مثل هذا الناقد قول ابن طباطبا فى عيار الشعر ، تحت عنوان: صناعة الشعر : « فاذا اراد الشاعر بناء قصيدة مخض المعنى الذى يريد بناء الشعر عليه فى فكره نثرا ، واعد له ما يلبسه اياه من الالفاظ التى تطابقه ، والقوافى التى توافقه ، والوزن الذى يسلس له القول عليه . فاذا اتفق بيت يشاكل المعنى الذى يرومه اثبته ، واعمل فكره فى شغل القوافى بما تقتضيه من المعانى على غير تنسيق للشعر وترتيب لفنون القول فيه . بل يعلق كل بيت يتفق له نظمه ، على تفاوت ما بينه وبين ما قبله . فاذا كملت له المعانى ، وكثرت الابيات وفق بينها بأبيات تكون نظاماً لها وسلكا جامعا لما تشتت منها ، ثم يتأمل ما قد اداه اليه طبعه ونتجته فكرته ، فيستقصى انتقاده ويرم ما وهى منه ... »[٧] .

واذا كانت حال الناقد المحترف كذلك فما هى حال الشاعر فى تقدير

---

(٦) وقديما ادرك بعض متذوقى الشعر هذا المعنى فقد جاء فى العمدة ( القاهرة ، مطبعة السعادة ، ١٣٨٣ هـ ، ١٩٦٣ م ، جـ١ ص ١١٧ ) ان « اهل صناعة الشعر ابصر به من العلماء بآلته من نحو وغريب ومثل وخبر وما اشبه ، ولو كانوا دونهم بدرجات » والمراد بالعلماء هنا : النقاد .

(٧) محمد بن احمد بن طباطبا العلوى ، عيار الشعر ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ٥ .

الشعر ؟ أيمكن ان نعتمد عليه وهو ينظر فى آثار زميله من الشعراء ؟ الحق ان تجاربه الشخصية فى ميدان الشعر قد تجعلنا نصغى الى تقديره لآثار غيره وتقويمها ، ولكن الخطر ماثل مع ذلك هناك ، فالشاعر وهو يدخل عالم آخر ، ينقلب فى معظم الاحيان الى ناقد ، ويجرى عليه ما يجرى على الناقد وهو يتخذ الموقف نفسه ، ويذكرنا هنا ، توجيه ابن طباطبا السالف الذكر ، بوصية ابي تمام للبحترى ، قال البحترى « كنت فى حداثتى اروم الشعر ، وكنت ارجع فيه الى طبع ، ولم اكن أقف على تسهيل مأخذه ، ووجوه اقتضابه حتى قصدت ابا تمام ، وانقطعت فيه اليه ، واتكلت فى تعريفه عليه فكان اول ما قال لي : يا ابا عبادة ، تخيّر الاوقات وانت قليل الهموم ، صفر من الغموم ، واعلم ان العادة جرت فى الاوقات ان يقصد الانسان لتأليف شيء او حفظه فى وقت السحر وذلك ان النفس قد اخذت حظها من الراحة وقسطها من النوم • وان اردت التشبيب فاجعل اللفظ رشيقا والمعنى رقيقا ، واكثر فيه من بيان الصبابة ، وتوجع الكآبة ، وقلق الاشواق ، ولوعة الفراق ، فاذا اخذت فى مديح سيد ذى اياد فأشهر مناقبة ، وأظهر مناسبه ، وأبن معالمه ، وشرف مقامه ، ونضد المعانى ، واحذر المجهول منها ، واياك ان تشين شعرك بالالفاظ الرديئة ، ولتكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الاجساد ، واذا عارضك الضجر ، فارح نفسك ، ولا تعمل شعرك الا وانت فارغ القلب ، واجعل شهوتك لقول الشعر الذريعة الى حسن نظمه ، فان الشهوة نعم المعين • وجملة الحال ان تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين ، فما استحسن العلماء فاقصده ، وما تركوه فاجتنبه ، ترشد ان شاء الله »[٨] •

ووصيته وان اختلطت بتجاربه الشخصية فانها تكشف ، ( لا سيما

---

(٨) القيروانى ، ابو اسحاق ابراهيم بن علي الحصرى ، زهر الآداب ، القاهرة ١٣٧٢هـ ـ ١٩٥٣ م ، جـ١ ص ١١٠ـ١١١ •

العبارات الاخيرة منها ) تبنيه لوجهة نظر النقاد ( ويسميهم العلمـاء ) فـي أيامه ، وان كان هو نفسه قد اشتط فى البعد عن طريقتهم واعتمد عـلى مزاجه الشعرى فى كثير مما نظم حتى قال له اسحاق يومـا بعد ان سمعه ينشد شعره : « يا فتى ما أشد ما تتكىء على نفسك »[٩] اى « انه لا يسلك مسلك الشعراء قبله وانما يستقى من نفسه »[١٠] .

وهكذا ينقلب الشاعر الى ناقد ، وهو لا ينقلب كذلك عندما يدخـل عالم شاعر آخر فيقوّم شعره حسب وانما عندما يرسم حدود مهنته ليستفيد شاعر آخر منها ، ذلك لان لكل شاعر عظيم عالمه المتفرد الذى لا يماثـل عالما اصيلا آخر ، فهو لو مائله لزالت صفة التفرد منه ، وهى اهم خصيصة جعلت شكسبير شكسبير او امرأ القيس وابن الرومى والبحترى هم بسماتهم المتميزة على ما كان كل منهم عليه منها . كذلك لكـل شـاعر اسـلوبه « ومن العسير ان يحلل المرء هذا الذى ندعوه : الاسلوب ، لانه يبدو فـى أحسن الاحوال، متمردا على كل تعريف، فيروغ كما تروغ الحياة... والسبب فى ذلك ينطوى ، كما يقول Llewelyn Powys ، فى كون الاسلوب هو التعبير التام لوعي المؤلف الروحى الفريد »[١١] وقد جعل هذا التفرد للادب قيمة خالدة فى تقديم نماذج من عوالم متفردة بما فى كل عالم منها من ألوان وظلال وأبعاد . فموقف الشاعر المتفرد من الشاعر الآخر ، اذن، موقف الغريب من الغريب ، ولا مناص له من اصطناع أحكام وأوضـاع والوقوف فى نقاط وزوايا معينة ، تجعل منه جميعها ، ناقدا لا شاعرا .

واذن فلا حيلة لنا ، هنا ، الا ان نواجه الشاعر وهو يصف تجربتـه فى شعره ومعاناته لها . ولا نظن ان ابواب عالمه الخاص جميعها سـتكون

---

(٩) المرزباني ، الموشح ، المطبعة السلفية ، ١٣٤٣ هـ ، ص ٣٢٧ .
(١٠) المصدر السابق ، ص ٣٢٧ .
(11) The Creative Process, P. 176.

مقفلة فى وجهه ، وان لم تخل رحلته من الضلال ، ووصفه من الادعاء وأحكامه من التعسف والمغالاة • والعقبة الاخرى تنطوى فى ان ندرة نادرة من الشعراء حاولت ان تنصت ، ساعة خلق القصيدة ، الى عالمها الداخلى ، وهو يعتمل بالموسيقى والصور والافكار والايقاع ، الى غير ذلك ، او وصفت النشوة العليا ، ان كانت نشوة عليا ، او الحال الفريدة التى اتصل خلالها بحقائق الحياة(١٢) ، او الفكرة التى تلمع فى الذهن والتى تبدو اول الامر غامضة ، وقد تتشعب فلا تقال فى بيت من أبيات القصيدة بل تعبر ابيات القصيدة كلها عنها ، ذلك لان الافكار تتقمص عند الشاعر المتفرد صورا حية ملونة تنبض بالحياة ، او تعبّر ظلال الابيات تعبيرا حيا عن الفكرة ، تعبيرا غير مباشر • وهذا هو الشعر الخالص ، وان كان بعض الشعر يتجه احيانا الى ان يجعل الافكار تتكلم عن نفسها لا بالطريقة العلمية التقريرية ، ولكن بطريقة ، قد تكون مباشرة بعض الشىء ولكن الاضافات الشعرية كالموسيقى وجو القوافى وغير ذلك ، تجعلها تتنفس نابضة بالحياة ، مصحوبة بالاحساس الذى يمنحها الروح الشعرى(١٣) • فقصور الشاعر عن ان ينصت الى عالمه الداخلى فى اثناء النظم او تقصيره فى ذلك ناتج من كونه يعنى قبل كل شىء ، بخلق القصيدة ، ولا يتساءل عن مصدرها او الاسباب التى افضت اليها(١٤) •

---

(١٢) كتب ماثيو ارنولد Mathew Arnold قائلا : « ليس الشعر الا اكثر كلام الانسان كمالا ، ففيه يصبح اقرب الى ان يكون قادرا على التعبير عن الحقيقة » •
انظر: Comolly, F. : Types of Literrature, New York, 1955, p. 195.

(١٣) انظر : The Creative Process, pp. 116-117.

(١٤) انظر ماكتبه الن تيت Allen tate فى The Critical Performance;ed. Stanley E. Hyman, New York 1956, pp. 175-188; or The Creative. Process. p. 135.

وها نحن أولاء نحاول ، برغم كل ذلك ، ان نستعرض من تجارب هذه الندرة من الشعراء ما يمكن ان يشير ، من بعيد او قريب ، الى تجربة الشعر عند الشاعر ، فلعل فى مجموعها ما يؤلف صورة تقربنا مما نطمح اليه .

لقد كان الشاعر فى الجماعات الانسانية الاولى مخلوقا بينه وبين القوى غير المنظورة اسباب وصلات ، وكان يصطنع اللغة على نحو يختلف عن اصطناع سائر افراد قبيلته لها ، ذلك لانه يعبّر بها فى حماسة تتسم بالالهام السماوى(١٥) .

فكان الشاعر ، اذ ذاك ، يرى ان قوة خفية تساعده فتلهمه الشعر ، فهومر فى مطلع ملحمته(١٦) يسأل الهة الشعر ان تعينه ، وفرجيل يدعو الآلهة لكى تلهمه القدرة على سرد قصة ملحمته الانيادة(١٧) . ويتضمن هذا الايمان المتعلق بالالهام الشعرى تفسيرا لاحساس الشاعر بسيطرة قوى عليا عليه ساعة قول الشعر ، فاذا به يأتى بما يسحر به الناس ويخلب البابهم، وبما يملأه هو نفسه بهرا وعجبا(١٨) ، وهو على اية حال تفسير لهذا الدافع الذى لا يرد والذى يأخذ على الشاعر جميع مسالكه ، فلا يدعه حتى ينتهى مما يعانى من هذا الذى ندعوه بتجربة الشعر .

---

(15) Daiches, David: Critical Approaches to Literature, G. B. 1956, p. 6.

(16) Wimsatt, JR. W. K., and Brooks, C. : Literary Criticism N. Y. 1957, p. 3.

(١٧) انظر : Virgil, The Aeneid (Penguin), 1956, p. 27.

(١٨) وفيما يتصل بتطور الشعر العربى القديم يقول غرنباوم : « وقد ادى الاعتقاد بوجود قوة سحرية فى الكلمة الى شيوع « العزائم » و « الرقى » و « اللعنات التى وردت اولا فى كلام مسجع ، ثم فى سجع موزون وهو شعر الرجز » . غوستاف غرنباوم ، دراسات فى الادب العربى، بيروت ١٩٥٩ ، ص ١٣٦ .

وفى جمهرة اشعار العرب صفحات كثيرة ( ٤٣ ـ ٦٢ ) تسرد حكايات شياطين الشعر التى تلهم شعراءها ، ولولا اولئك الشياطين ما واتاهم الالهام ولا نطقوا بالشعر فقد كان « لشعراء العرب شياطين تنطق بـه على السنتها »[١٩] ، ولكل واحد من شعرائها الكبار شيطان ، فشيطان امرىء القيس الذى يلهمه الشعر هو « لافظ بن لاحظ » وأما « هبيد » فصاحب « عبيد بن الابرص » « وبشر ( بن ابي خازم ) » ، واما « هادر » فصاحب « زياد الذبيانى » ، وهو الذى استنبغه فسمي النابغة»[٢٠] .

ويذكر الاعشى فى الابيات الآتية ( المنسوبة اليـه[٢١] ) شيطانه « مسحلا » وما يجرى على لسانه من الشعر :

وماكنت ذا خوف[٢٢] ولكن حسبتني  اذا مسحل يسدى لي القول افرق
شريكان فيما بيننا من هوادة  صفيان انسى وجن موفق
يقول فلا اعيا بقول يقوله  كفانى لا عي ولا هو اخرق

ويقول[٢٣] :

دعوت خليلي مسحلا ودعا له  جهنام ، جدعاً للحمار المصلم

ويروى[٢٤] صاحب الجمهرة ابياتا ينسبها لهبيد شيطان عبيد بن الابرص وبشر وفيها يذكر « مدركا » شيطان الكميت ويذكر فضل هؤلاء الملهمين على معد فلولاهم ما قالت الشعر والابيات هى :

---

(١٩) القرشى ، ابو زيد محمد بن ابى الخطاب ، جمهرة اشعار العرب فى الجاهلية والاسلام ، مطبعة لجنة البيان العربى ، القاهرة ١٣٨٧ هـ ـ ١٩٦٧ م ، جـ١ ص ٤٦ .

(٢٠) المصدر السابق ، جـ١ ص ٤٧ .

(٢١) ديوان الاعشى (صادر) ، ١٣٨٠ هـ ـ ١٩٦٠ م ، ص ١١٩ . والجمهرة ، جـ١ ص ٦٢ .

(٢٢) فى الديوان ، ص ١١٩ « شاحردا » وما اثبتنا من الجمهرة جـ١ ص ٦٢ .

(٢٣) الموشح ص ٤٩ .

(٢٤) الجمهرة ، جـ١ ص ٤٥ .

انا ابن الصلادم ادعى الهبيد حبوت القوافى قرمي اسد
عبيدا حبوت بمأثورة وأنطقت بشرا على غير كد
ولاقى بمدرك رهط الكميت ملاذا عزيزا ومجدا وجد
منحناهم الشعر عن قدرة فهل تشكر اليوم هذا معد

وليس لدينا الى جانب هذا التفسير الغامض للالهام ، سرد نطمئن اليه مما أثر عن شعراء العربية فى عصورها السابقة مما يتصل بتجربة الشعر سوى « حوادث » الارتجال[٢٥] ، وهى حوادث لا تصلنا بما يعتمل فى أعماق الشاعر فى تلك اللحظات ، وليس لنا الا ان نصغى الى الابيات المرتجلة معجبين احيانا بتلك البديهة السريعة التى تنطلق بما يناسب الموقف من شعر تنتظمه موسيقى خاصة ويؤطره وزن خاص وقواف متماثلة • ولابد ان الارتجال الاصيل يستمد استجابته السريعة المواتية من رصيد وافر تختزنه النفس الشاعرة ، وجهاز معقد يتسم بالحس المرهف الذى يستثيره الموقف ، فيهتز للمؤثر ويستجيب له ، ويملأ اعماق الشاعر بموسيقى غريبة ، سرعان ما تنطلق معبرة عما يتصل بتلك اللحظات المناسبة من ذلك الرصيد المخزون ، اما كيف يحدث هذا فامر لا احسب ان الكلمة الاخيرة قد قيلت فيه •

تذكر كتب الادب حادثة كان لبيد بطلها • وهى وان كانت غير موثقة فقد يصح قبول مجملها ، على انها فى تفصيلها قد تلقى ضوءً على لبيد فى معاناته للشعر ( على الاقل فى مطلع صباه ) وارتجاله للنثر الفنى الذى يدل على بديهة خصبة مواتية : قيل دخل بنو عامر ( رهط لبيد ) على النعمان ابن المنذر ( فرأوا منه جفاء ) ، وقد كان قبل ذلك يكرمهم ويقدم مجلسهم ، فخرجوا منه غضابا ، وهموا بالانصراف ولبيد فى رحالهم يحفظ امتعتهم ويغدو بابلهم فيرعاها ، فاذا امسى انصرف بها •

---

(٢٥) انظر : العمدة ، جـ١ ، ص ١٩٠-١٩٦ •

فأتاهم تلك الليلة وهم يتذاكرون الربيع ( وكان الربيع بن زياد احد رجال عبس المبرّزين أفسد عليهم النعمان لما يذكره من معايبهم ) فقال لهم : ما كنتم تتناجون ؟ فكتموه ، وقالوا : اليك عنّا ، فقال : اخبروني ، فلعل لكم عندى فرجا ، فزجروه ، فقال : والله لا أحفظ لكم متاعا ولا اسرح لكم بعيرا او تخبروني وكانت ام لبيد عبسية فى حجر الربيع ، فقالوا له : خالك قد غلبنا على الملك ، وصد عنا وجهه ، فقال : هل تقدرون ان تجمعوا بينى وبينه غدا حين يقعد الملك فأرجز به رجزا ممضا مؤلما ، لا يلتفت اليه النعمان بعده ابدا ؟ قالوا له : وهل عندك ذلك ؟ قال : نعم ، قالوا : فانا نبلوك بشتم هذه البقلة ـ وقدامهم بقلة دقيقة القضبان ، قليلة الورق ، لاصقة فروعها بالارض ، تدعى : التربة ـ فاقتلعها من الارض وأخذها بيده ، وقال : « البقلة التربة التفلة الرذلة ، التى لا تذكى نارا ، ولا تؤهل دارا ، ولا تستر جارا ، عودها ضئيل ، وفرعها ذليل ، وخيرها قليل ، بلدها شاسع ، ونبتها خاشع ، آكلها جائع ، والمقيم عليها قانع ، اقصر البقول فرعا ، واخبثها مرعى ، واشدها قلعا ، فحربا لجارها وجدعا ، ألقوابي اخا بني عبس ، ارجعه عنكم بتعس ونكس ، واتركه من امره فى لبس » فقالوا له : نصبح ونرى فيك رأينا .

فقال لهم عامر ( بن مالك ملاعب الاسنة ) : انظروا الى غلامكم هذا ، فان رأيتموه نائما فليس امره بشئ ، وانما تكلم بما جرى على لسانه ، وان رأيتموه ساهرا فهو صاحبكم ، فرمقوه بأبصارهم ، فوجدوه قد ركب رحلا يكدم واسطته ، حتى اصبح ، فلما اصبحوا ، قالوا : انت والله صاحبه ، فحلقوا رأسه ، وتركوا له ذؤابتين ، وألبسوه حلة ، وغدوا به معهم ، فدخلوا على النعمان فوجدوه يتغدى ومعه الربيع ، ليس معه غيره والدار والمجالس مملوءة بالوفد ، فلما فرغ من الغداء اذن للجعفريين فدخلوا عليه ، والربيع الى جانبه ، فذكروا للنعمان حاجتهم ، فاعترض الربيع فى كلامهم ،

فقام لبيد : وقد دهن احد شقي رأسه ، وارخى ازاره ، وانتعل نعلا واحدة[٢٦] ـ وكذلك كانت تفعل الشعراء فى الجاهلية اذا ارادت الهجاء ـ فمثل بين يديه ثم قال :

يا رب هيجا هي خير من دعه
اذ لا تزال هامتى مقزعه
نحن بني ام البنين الاربعه
ونحن خير عامر بن صعصعه
المطعمون الجفنة المدعدعه
والضاربون الهام تحت الخيضعه
مهلا ابيت اللعن لا تأكل معه
ان استه من برص ملمعه
وانه يدخل فيها اصبعه
يدخلها حتى يوارى اشجعه
كأنه يطلب شيئا ضيعه[٢٧]

فلما فرغ لبيد التفت النعمان الى الربيع شزرا ، وقال : كذلك انت ؟ قال : كذب والله ابن الحمق اللئيم ! فقال النعمان : اف لهذا الطعام ، لقد خبّث علي طعامي .... »[٢٨] .

ويعنينا هنا ارتجاله المسجوع الجميل ، ان كان ارتجله حقا ، وليلته

---

(٢٦) وهذه مما بقى من ارتباطات الشعر بالسحر . انظر Nicholson, R.A., Lit. Hist. of the Arabs, Cambridge, 1956, 72-73.

(٢٧) المدعدعة : المملوءة ، الاشجع : مغرز الاصبع .

(٢٨) الشريف المرتضى ، امالى المرتضى ، القاهرة ١٣٧٣هـ-١٩٥٤م ، جـ١ ص ١٩٠ـ ١٩٢ . وانظر : الاصفهاني ، الاغانى ، دار الكتب ، حـ ١٥ ص ٣٦٣ـ٣٦٦ . العمدة ، جـ١ ص ٥١ـ٥٢ .

التى قضاها ساهرا و « قد ركب رحلا يكدم واسطته حتى اصبح » ، وتلك حال لعلها خلقت له جوا أثار فيه شاعريته التى تمخضت عن ارجوزته ، وهى أرجوزة تشتد فيها الموسيقى وتسرع حتى لكأنه صنعها وهو يكدم على راحلته ، وصلة الرجز بمثل هذه الحركة واضحة ، ومعناها اللغوى « ارتعاد يصيب البعير والناقة فى افخاذهما ومؤخرهما عند القيام »[٢٩] ، لا يبعد عن هذا الارتباط .

ويروى ان كعب بن زهير كان يقول الشعر وهو صغير ، فكان ابوه ينهاه « مخافة ان يكون لم يستحكم شعره فيروى له ما لا خير فيه ، فكان يضربه فى ذلك ، ففعل ذلك به مرارا يضربه ويزبره ، فغلبه فطال عليه فاخذه فحبسه ، ثم قال : والذى احلف به لا تتكلم ببيت شعر ولا يبلغنى انك تريغ الشعر ـ أى تطلبه ـ الا ضربتك ضربا ينكلك عن ذلك ، فمكث محبوسا عدة ايام ، ثم أخبر انه يتكلم به ، فدعاه فضربه ضربا شديدا ، ثم اطلقه وسرحه فى بهمه وهو غليم صغير فانطلق فرعاها ثم راح بها عشية وهو يرتجز :

كأنما احدو ببهمي عيرا  من القرى موقرة شعيرا

ـ البهم صغار من ولد الضأن ـ فخرج زهير اليه وهو غضبان ، فدعا بناقته وكفلها بكسائه ـ والكفل ان يفتل ازار او كساء فيجعل حول السنام ـ ثم قعد عليها حتى انتهى الى ابنه كعب فاخذ بيده فاردفه خلفه ، ثم خرج يضرب ناقته ، وهو يريد ان يتعنت كعبا ويعلم ما عنده ويطلع على شعره . فقال زهير حين برز من الحي :

اني لتعديني على الهم جسرة  تخب بوصال صروم وتعنق

---

(٢٩) ابن منظور : لسان العرب (رجز) ، وانظر حاشية : Lit. Hist. of Arabs, p. 74.

ثم ضرب كعبا وقال : أجزيا لكع ، فقال كعب :

كبنيانة القرثى موضع رحلها وآثار نسعيها من الدف ابلق

فقال زهير :

على لا حب مثل المجرة خلته اذا ما علا نشزا من الارض مهرق

ثم ضرب كعبا وقال : أجزيا لكع ، فقال كعب :

منير هداه ليله كنهاره جميع اذا يعلو الحزونة افرق

ثم بدأ زهير فى نعت النعام وترك نعت الابل ، فقال زهير يعتسف به عمدا ـ اى يأخذ فى غير جهته ، يعنى طريقا آخر من الشعر :

وظل بوعساء الكثيب كأنه خباء على صقبي بوان مروق

فقال كعب :

تراخى به حب الضحاء وقد رأى سماوة قشراء الوظيفين عوهق[٣٠]

سماوة : شخص . وقشراء الوظيفين : يعنى الساقين ، وعوهق : طويلة العنق . فقال زهير :

تحن الى مثل الحبابير جثم لدى منتج من قيضها[٣١] المتفلق

ثم قال : أجزيا لكع فقال كعب :

تحطم عنها قيضها عن خراطم وعن حدق كالنبخ لم يتفتق

النبخ يعنى الجدرى ، شبه عين ولد النعامة بالجدرى ، لم يتفقأ ، فأخذ زهير بيد ابنه كعب ثم قال : قد اذنت لك يا بنى فى الشعر ...»[٣٢] .

وتشير الرواية المارة الذكر الى بديهة الشاعرين ـ زهير وابنه ـ

---

(٣٠) تغيرت القافية هنا من الرفع الى الجر .

(٣١) القيض : قشر البيض .

(٣٢) السكرى ، شرح ديوان كعب بن زهير ( نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ) القاهرة ١٣٦٩ هـ ـ ١٩٥٠ م ، مقدمة الكتاب (فق) .

الشعرية ، والى شاعرية كعب التى كانت تلح عليه وتسيطر على نفسه على الرغم من معارضة ابيه .

وتذكرنا هذه الحادثة بما روى عبدالله بن عبدالرحمن بن ابى عمرة عن ابيه من ان حسان بن ثابت ارق ذات ليلة « فعن له الشعر وعنده ابنته ليلى فى خدرها فقال بيتا :

مقاريك اذناب الامور اذا اعترت  اخذنا الفروع واجتبينا اصولها

ثم اجبل[٣٣] فلم يجد شيئا . فقالت له ابنته : يا ابتاه كأنك اجبلت ؟ قال : اجل . فقالت : فهل لك ان أجيز عنك ؟ قال : نعم . قالت : أعد ، فأعاد قوله ، فقالت :

مقاويل بالمعروف خرس عن الخنا  كرام يعاطون العشيرة سولها

قال : فحمي الشيخ فقال :

وقافية مثل السنان رزينة  تناولت من جو السماء نزولها

فقالت :

يراها الذى لا ينطق الشعر عنده  ويعجز عن امثالها ان يقولها

فقال حسان : لا اقول شعرا وانت حية ، قالت او اومنك ؟ قال : او تفعلين ؟ قالت : نعم ، لا اقول شعرا ما دمت حيا[٣٤] .

وتكشف لنا هذه الرواية ـ على فرض صحتها ـ عن الحالة الشعرية التى كان عليها حسان وعن أرقه تلك الليلة . وعجزه عن التعبير عن التجربة الشعورية التى تمتلىء بها ذاته . اما ابنته فالامر بالنسبة اليها لا يتعلق بتجربة مماثلة تمتلىء بها نفسها ، بل بالتعليق على معنى بيت ابيها « مقاريك أذناب .... » تعليقا منظوما ، وهو امر لا يتطلب اكثر من فهم

---

(٣٣) اجبل الشاعر : صعب عليه القول .
(٣٤) الموشح ، ص ٦٢ـ٦٣ .

سريع وقدرة لغوية على النظم ، ويبدو انها تمتلكهما ويستجيبان لهـــا متى دعتهما ، وهذا ما نجده ايضا فى تعليقها على بيت ابيها الثانى • وقول الراوى: « فحمي الشيخ » يكشف لنا عن التأجج العاطفى الذى يتصل بمن اصيب بأعز ما تملك « شخصيته » وهو قوة الشاعرية ، ويفسر لنا تحول الشاعر عن الفخر بجماعته الى الادعاء المتعلق بالتعبير والقدرة على نسج الشعر ، وان كشفت قافيته « الرزينة » البعيدة المنال عن « اعتراف » اتخذ هيأة الادعاء ، فيما يلاقيه من تصيد لها ومعاناة للتعبير عنها •

واجمل ما يروى من سرعة البديهة الموفقة ما جرى لابى تمام حين انشد « احمد بن المعتصم قصيدة مدحه بها ، فلما بلغ الى قوله :

اقـدام عمرو فى سماحة حـــاتم ( في حلم احنف في ذكاء اياس )

•••فقال له الكندى ، وكان حاضرا واراد الطعن عليه ، الامير فوق ما وصفت ، فاطرق قليلا ثم زاد فى القصيدة بيتين لم يكونا فيها :

لا تنكروا ضـــربى لـــه من دونـــه مثلا شـــرودا فى النـــدى والباس
فالله قـــد ضرب الاقـــل لنـــوره مثلا من المشـــكاة والنبراس»(٣٥)

ويتباين الشعراء فيما بينهم كثيرا ، فى داخل ذواتهم ، فمنهم من يعيش ما يمكن ان يدعى « بالحالة الشعرية » الدائمة ، فتتحول كـــل المؤثرات الخارجية ، وما يحيط بهم والايام التى يعيشونها على هذه الارض الى تجارب شعورية ، وينظرون الى العالم الخارجى ، من خلال هذه الحالة الشعورية الحادة، فيعبرون عنه تعبيراً شعريا منسجما مع نظرتهم فى الحياة ومزاجهم، فكل شىء حولهم رمز يثير حالة شعورية معينة ، والكون كله عندهم شعر موقع ، حزنا ويأسا أو تفاؤلا ومرحا ، او حبا وتعاطفا الى غير ذلك ••• وهؤلاء هم الشعراء الكبار كهومر وشكسبير وطاغور •

---

(٣٥) المصدر السابق ، ص ٣٢٦ •

ومن الشعراء من يعيش حياته ، ويضطرب مع الناس ، ولكن مواقف خاصة تخلق فيه حالة خاصة فيعانى منها ما يعانى ، وتتأجج فيه حالته تلك الى درجة تبعثه على قول الشعر ، وهذا ما عليه جمهرة الشعراء ، فهم يستجيبون الى مناسبات الحياة المثيرة فى جوانبها المختلفة ، من حب وفرح وحزن وفجيعه ويأس ورضا واعجاب ... وكما يفترقون فى بواعث الشعر كذلك يفترقون فى التعبير عما اثارت تلك البواعث بحسب امزجتهم واحساساتهم وثقافتهم وقوة الاسباب المثيرة وغير ذلك مما يتصل بـ « شخصياتهم » . ومن هنا تباينت اساليب التعبير عن التجارب الشعورية ، وتباينت اسباب معالجتها وطريقتها والنظر الى تلك التجارب وتقديرها . فكان كثير من الشعراء يهذبون شعرهم ويصقلونه ، وقد كان فرجيل كثير العناية بشعره ، كثير الاناة ، حتى كان نظم البيت الواحد يستغرق عنده احيانا يوما كاملا ، فأمضى ، لهذا السبب ، حوالى احدى عشرة سنة فى كتابة الانياده ، ولو لم يعجله الموت لقضى ثلاثة اعوام اخرى فى تهذيبها وصقلها[٣٦] ، وكان هذا الشاعر كالرسام المتمهل الذى يستوعب من يجلس قبالته ليرسمه ، فينظر اليه كما هو فى لحظة جلوسه عندئذ ، وهو يحاول ايضا ان يراه كما كان فى كل مراحل حياته الاولى تساعده على ذلك صور له كانت قد رسمتها ايدى رسامين آخرين قبله خلال اوقات متفرقة[٣٧] . وكان زهير بن ابي سلمى كثير الاحتفال بشعره ، كثير التهذيب له ، وقد عرفت قصائده بالحوليات[٣٨] ، لانه كان يقضى فى نظم القصيدة وتهذيبها عاما كاملا ، وكان الحطيأة ايضا ممن يهذبون ما ينظمون ويراجعونه بالصقل والتحكيك ،

---

(36) The Aeneid, (Introduction), p. 19.

(٣٧) المصدر السابق ، ص ١٨ .

(٣٨) انظر : الشعر والشعراء ، جـ١ ص ٨٢ .

ولذلك قال : «خير الشعر الحولى المحكك»[٣٩] ، حتى قال فيهما الاصمعي : « زهير بن ابي سلمى والحطيأة وأشباههما عبيد الشعر »[٤٠] . وخير من وصف معاناته للشعر ورصده لأوابده ، ومراقبته لها وسهره من أجلها سويد بن كراع العكلي[٤١] الذي شبه القوافي بسرب من حيوان الوحش ، وراح بعد ذلك يعالج هذه الصورة الفريدة معالجة الصناع الماهر . قال :

أبيتُ بأبواب القوافي كأنما
أُصادي بها سرباً من الوحش نُزَّعا[٤٢]
أكالئها حتى أعرّس بعد ما
يكونُ سُحيرا أو بعيدا فاجمعا[٤٣]
عواصيَ الا ما جعلتُ أمامها
عصا مربدٍ تغشى نحورا وأذرعا[٤٤]
أهبتُ بغُرّ الآبدات فراجعت
طريقا أملّته القصائدُ مهيعا[٤٥]
ببعدة شأوٍ لا يكاد يردها
لها طالبٌ حتى يكلَ ويظلعا

---

(٣٩) الجاحظ : البيان والتبيين ، القاهرة ١٣٨٠ هـ ـ ١٩٦٠ م . ج ٢ ص ١٣ .
(٤٠) البيان والتبيين ، ج٢ ص ١٣ . والشعر والشعراء ج١ ص ٨١ـ٨٢ . وانظر : العمدة ج١ ص ١٣٣ .
(٤١) من عكل ، شاعر جاهلي اسلامي .
(٤٢) اصادي : اداجي واخاتل ، ونزع جمع نازع وهو الغريب .
(٤٣) اكالئها : اراقبها ، والتعريس : النزول في السحر .
(٤٤) المربد : محبس الابل ، اراد عصا معترضة على باب محبس الابل .
(٤٥) اهبت بها : دعوتها ، الآبدات : المتوحشات ، وعنى بها القوافي، املته : سلكته والمهيع : الواسع .

اذا خفت ان تُـروى عليّ رددتُهـا
وراء القـــوافي خشيةً أن تطلّعـــا
وجشّمني خوفُ ابنِ عفّـان ردّها
فثقفتها حـولا حريـدا ومربعـــا[٤٦]
وقـد كان فى نفسي عليهـا زيـادةٌ
فلـم أر الا أن أطيـــعَ وأســـمعا[٤٧]

وممن يشير الى عنايته بشعره وتهذيبه له عدي بن الرقاع[٤٨] حيث يقول :

وقصيدةٍ قد بتّ أجمعُ بينها حتى أقوّم ميلَها وسنادها
نَظَرَ المثقف فى كعوب قناته حتى يقيمَ ثِقافُهُ منآدها[٤٩]

وكذلك ذو الرمة[٥٠] ، وهو يذكر ارقه وعنايتـه ، سـواد الليـل ، ليهذبه ويجنبه عيوب الوزن والمعنى ، ويختار له قوافي فريدة لا نظير لها :

وشعر قد أرقتُ له غريبٍ أجنّبـه المساندَ والمحـــالا
فبتُ أُقيمه وأقـدُّ منـــه قوافيَ لا اعـدّ لها مثـالا[٥١]

والبحتري وهو يشير الى عنايته بشعره ليأتي سلسا بعيدا عـن التعقيد وحوشي الالفاظ :

---

(٤٦) الحريد : التام الكامل .
(٤٧) البيان والتبيين جـ٢ ص ١٢ ، والشعر والشـــعراء ، جـ٢ ص ٥٣٠ .
(٤٨) شاعر محسن من عاملة ، كان ينزل الشام ، وكان مقدما عند بني امية مداحا لهم . انظر الاغانى جـ ٩ ص ٣٠٧ـ٣١٧ ، والشعر والشعراء جـ٢ ص ٥١٥ـ٥١٨ .
(٤٩) الشعر والشعراء جـ٢ ص ٥١٦ والاغانى جـ٩ ص ٣١٧ .
(٥٠) شاعر بدوى من شعراء الدولة الاموية ولد عام ٧٧ هـ وتوفى عـام ١١٧ هـ .
(٥١) ديوان شعر ذى الرمـة ، ( مكـارتنى ) ، كمبرج ١٩١٩ م ـ ١٣٢٧ هـ ، ص ٤٤٠ـ٤٤١ ، ق ٥٧ ، البيتان ٤٨ـ٤٩ .

في نظام من البلاغة ما شك امرؤ أنه نظام فريد
حزن مستعمل الكلام اختيارا وتجنبن ظلمة التعقيد
وركبن اللفظ القريب فادركن به غاية المراد البعيد[٥٢]

وكان منصور النمري لا يخرج القصيدة ، كما يقول ، الا بعد شهر ، حتى يمحو بيتا ويجدد آخر[٥٣] ، وربما صبر أبو دهبل الجمحي زمنا يتطلب اتمام بيت فلا يواتيه الا بعد حولين[٥٤] وكذلك ابن مناذر الذي استغرق اتمام بيت عنده حولا كاملا[٥٥] ، بينما لا يستغرق نظم القصيدة عند ابي العتاهية الا جلسة واحدة : « قال منصور النمري لابي العتاهية : في كم تقول القصيدة وتحكمها ؟ قال : ما هو الا أن أضع قنينتي بين يدي حتى أقول ما شئت »[٥٦] . ويبدو انه يقبل كل ما تورده عليه قريحته حتى أثار نقد معاصريه[٥٧] ، خلافا لما جرى عليه بشار بن برد قبله . روي انه

قيل لبشار : « بم فقت اهل عمرك ، وسبقت اهل عصرك في حسن معاني الشعر وتهذيب ألفاظه؟ فقال : لاني لم أقبل كل ما تورده عليّ قريحتي ، ويناجيني به طبعي ، ويبعثه فكري ، ونظرت الى مغارس الفطن ، ومعادن الحقائق ، ولطائف التشبيهات ، فسرت اليها بفهم جيد وغريزة قوية ، فأحكمت سيرها وانتقيت حرها ، وكشفت عن حقائقها ، واحترزت من متكلفها ، ولا والله ما ملك قيادي قط الاعجاب بشيء ما آتى به[٥٨] فان صح

---

(٥٢) زهر الآداب ، جـ١ ص ١١٠ .
(٥٣) الموشح ، ص ٢٥٦ .
(٥٤) الموشح ، ص ١٨٩ .
(٥٥) المصدر السابق ص ٢٩٦ .
(٥٦) المصدر السابق ص ٢٥٦ .
(٥٧) انظر : المصدر السابق ، ص ٢٥٦ و ٢٥٧ .
(٥٨) زهر الآداب ، جـ١ ص ١١٠ .

مـا أثـر عن بشـار ممـا اقتبسـنا آنفـاً ، فاننا نجد فيـه فنـانا من هؤلاء الذين لا يرضيهم الا النسق العالي من الشعر ، فهم أبدا وراء الكمال فى النظم .

ومن الشعراء من اذا عسر عليه الشعر[٥٩] استعان عليه بما يرى انه يخلق الجو المناسب للنظم أو المثير للقريحة ولهؤلاء غرائب قد يعدها الآخرون شذوذا .

فزهير ، على ما يبدو ، يخرج الى البرية ليجد الجو المناسب للنظم ، أو لعله كان يخرج اليها اذا ما اكدى لان الشعر كما يقول ، بري، وهذا ما تصح به النابغة ، على ما يروى ، حين استعصى على الاخير توضيح معنى البيت الآتى الذى عده النعمان هجاء الا اذا اتبعه ببيت يبعده عما يوميء اليه مما يحتمل أن يكون هجاءً والبيت :

تراك الارض اما مت خفـا وتحيـا ان حييت بها ثقيـلا

ولكن لم ينفع زهيرا ولا النابغة خروجهما اليها لولا ان يهب كعب بن زهير لنجدتهما فيقول :

وذاك بان حلـلت العـز منهـا فتمنـع جانبيهـا ان يزولا[٦٠]

ويفهم من سياق رواية ان الحطيئة فى ساعة التحدي لا تجد له مثيلا فى الشعر بعد زهير حين تراه مستلقيا على ظهره ، واضعا احدى رجليه على الاخرى رافعا عقيرته يعوى فى اثر القوافي[٦١] .

ويرى ذو الرمة ان مفتاح الشعر هو « الخلوة بذكر الاحباب » ، فاذا ما عَسُر عليه قول الشعر تذكر حبيبته « ميّا »[٦٢]

---

(٥٩) جاء فى العمدة جـ ١ ص ١١٧ « وقيل : عمل الشعر عـلى الحاذق به اشد من نقل الصخر ، ويقال : ان الشعر كالبحر اهون ما يكون على الجاهل اهول ما يكون على العالم » .

(٦٠) الموشح ، ص ٤٦ ، وفى المصـدر نفسه ص ٤٥ روى صـدر البيت كالاتى : نزلت بمستقر العز منها ...

(٦١) الشعر والشعراء جـ١ ص ٨١ .

(٦٢) العمدة ، جـ١ ص ٢٠٦ .

وقيل لكثيّر : كيف تصنع اذا عسر عليك الشعر ؟
قال :

اطوف فى الرباع المحيلة والرياض المعشبة ، فيسهل عليّ « ارصنه ويسرع الي احسنه »[٦٣] .

« وروى ان الفرزدق كان اذا صعبت عليه صنعة الشعر ركب ناقته وطاف خاليا متفردا وحده فى شعاب الجبال وبطون الاودية والاماكن الخربة الخالية ، فيعطيه الكلام قياده »[٦٤] .

« وقالوا : كان جرير اذا اراد ان يؤبد قصيدة صنعها ليلا : يشعل سراجه ويعتزل ، وربما علا السطح وحده فاضطجع وغطى رأسه رغبة فى الخلوة بنفسه »[٦٥] .

ومنهم من يستدعي شياطين الشعر ويخلق اجواء النظم باساليب تبدو غريبة ، فقد ذكر « ان فتى من الانصار بحضرة كثير ـ او غيره ـ فاخره بابيات حسان بن ثابت :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى  واسيافنا يقطرن من نجدة دما

فأنظره سنة فمضى حنقاً ، وطالت ليلته ولم يصنع شيئاً ، فلما كان قرب الصباح اتى جبلا بالمدينة يقال له : ذباب ، فنادى : اخاكم يا بني لبينى ، صاحبكم ، صاحبكم ، صاحبكم ، وتوسد ذراع ناقته فانثالت عليه القوافي انثيالا ، وجاء بالقصيدة بكرة وقد اعجزت الشعراء وبهرتهم طولا وحسنا وجودة »[٦٥] .

واستحسن أبو تمام أرجوزة ابي نواس : « وبلدة فيها زور » ، فأراد ان يعمل مثلها ، فجعل يخرج الى الجنينة ، ويشتغل بالنظم ، ويجلس على ماء جار حتى يحل العشاء فينصرف[٦٦] .

---

(٦٣) المصدر السابق جـ١ ص ٢٠٧ .
(٦٤) المصدر السابق ، جـ١ ص ٢٠٧ .
(٦٥) المصدر السابق ، جـ١ ص ٢٠٧ .
(٦٦) الموشح ، ص ٣٠٥ .

ويرى الشاعر ستيفن سبندر Stephen Spender ، ان معضلة الخلق الادبي هى فى جوهرها معضلة التركيز ، وما هذه العادات وما يروى عن الشعراء من غرائب وشذوذ الا عادات « آلية » أو طقوس تعين على التركيز • ومن الطبيعي ان التركيز فى نظم الشعر يختلف عن التركيز فى مسألة رياضية • ومن هذا القبيل ما يروى من ان الشاعر الالماني شلر Schiller كان يحب ساعة النظم شم رائحة التفاح المتعفن الذى كان يخفيه فى «طاولة» الكتابة تحت انفه(٦٧) ، وكان لابد للشاعر وولتر دى لامير Walter de la Mare ، وهو شاعر معاصر ، من ان يدخن فى تلك الساعة ، بينما يحتسي اودن Audin اكوابا لا عداد لها من الشاى ، اما سبندر نفسه « فالقهوة » والتدخين رفيقاه اللذان الا يستطيع النظم بدونهما ، وقد لاحظ هذا الشاعر انه حين يبلغ من التركيز اقصاه ، ينسى طعم لفافة التبغ فى فمه فيرغب فى تدخين لفافتين او ثلاث فى آن واحد(٦٨) •

ويذكرنا هذا بالشاعر رديارد كبلنج Rudyard Kipling الذى كان يرى ان لابد له من الكتابة بحبر أسود ، لان شيطانه ينفر من الحبر الازرق ، وما كان يفتح عليه ايضا بقلم الرصاص(٦٩) •

ومما يتصل بهذا الباب هذه الارتباطات الخارجية التى قد تستفيد منها الشاعرية وهى تبحث عن مسرب تجرى فيه التجربة الشعورية بعد ان تسد عليها ابواب التعبير ، فقد روى ان ذا الرمة قدم « على بلال بن ابي بردة ، فجعل يتردد اليه ، واراد ان يبتدىء قصيدة فيه فعيّ ، فقالت له عجوز مر بها ــ وكان جميلا ــ قد طال ترادك ، أفالى زوجة سعدت بها ، ام الى خصومة شقيت بها ؟ فقال لراويته : جاء والله ما أريد ثم قال :

---

(٦٧) The Creative Process, p. 113.

(٦٨) المصدر السابق ، ص ١١٣ •

(٦٩) المصدر السابق ، ص ١٥٩ •

تقول عجوز مدرجي مستروحا علي بها من عند أهلي وغاديا
الى زوجة[٧٠] بالمصر ام لخصومة أراك لها بالبصرة العام ثاويا

ثم مر في القصيدة »[٧١].

وروى ان ابا دهبل الجمحي قال : « قلت :

وان شكرك عندي لا انقضاء له

ثم أرتج عليّ النصف الاخير ، فأقمت على النصف الاخير حولين كريتين[٧٢] ، ثم سمعت عربيا في المسجد الحرام يذكر لبنان فقلت : اى شيء لبنان ؟ فقال جبل بالشام ففتح علي فقلت :

وان شكرك عندى لا انقضاء لـه ما دام بالجزع من لبنان جلمود »[٧٣]

وقال ابن مناذر « قلت :

يقدح الدهر في شماريخ رضوى ،

ثم مكثت حولا ، فسمعت قائلا يقول : «هبّود» فقلت : ما هبّود ؟ قال : جبيل في بلادنا ، فنفتح لي الشعر فقلت : ويحط الصخور من هبّود»[٧٤]

ويبدو كما ترى من هذا العرض السريع الذى مر بك اننا لا نملك ، في أدبنا العربي القديم ، صوراً تعالج وصفاً واعياً لتجربة الشاعر للشعر ، ويبدو أيضاً ان السبب ينطوى في ان الآخرين لم يطرحوا على الشعراء هذا الامر ولم يسألوهم تقديم تفصيل لهذه التجربة ، أو لم يضعوا السؤال وضعاً يؤدى الى تفصيل في وصف التجربة ، ام لعل غرور الشعراء نأى بهم عن

---

(٧٠) في الديوان ق ٨٧ البيت ٢٩ : اذو زوجة .
(٧١) الموشح ، ص ١٨٤ـ١٨٥ .
(٧٢) كريتين : كاملين .
(٧٣) الموشح ، ص ١٨٩ .
(٧٤) المصدر السابق ، ص ٢٩٦ .

القول فى ذلك • ولابد ان نذكر ان من الصعب كذلك الجمع بين التجربة الشعرية ومراقبتها ساعة النظم[٧٥] •

ولا نريد ان نشغل انفسنا بتفسير تجربة الشعر او طبيعة ما يسمى بالالهام او « عملية » الابداع ، فقد حاول فريق من الباحثين النفسانيين وغيرهم الادلاء بدلوهم فيما يتصل بهذا الموضوع ، ولكنهم لم يستطيعوا اماطة اللثام عن شيء منه ، وربما كانت علة ذلك انهم كانوا يرتادون ميدانا ليسوا هم رواده الاصلاء ، او ان اسلحتهم فى ذلك الميدان كانت تقصر عن الفوز باية نتيجة ، حتى اعترف فرويد « وهو بصدد البحث فى ليوناردو دافنشى L. Da Venci فقال ان التحليل النفسي •• لا يستطيع ان يدرس الانسان من حيث هو فنان وليس فى قدرته ان يطلعنا على طبيعة الانتاج الفني وانه هو نفسه فى دراسته لدافنشي لم يدرس الفنان من حيث هو فنان بل درسه من حيث هو انسان »[٧٦] • وكتب الاستاذ برسكوت Prescott كتاباً برمته ليبرهن على ان الشعر حالة نفسانية تقع على حافة احلام اليقظة ، ولكن من المستحيل على اى امرىء القطع بيقين فى ذلك[٧٧] • وتؤكد Amy Lowell ان الامر ، كما تراه من تجربتها ، ليس احلام يقظة ، وانما حالة نفسانية مختلفة تماما ••• وتشبه الشاعر بـ « هوائي » الراديو فانه يستطيع تسلم رسائل على امواج من نوع ما ، ولكنه اكثر من «هوائي» لانه يمتلك القدرة على

---

(٧٥) انظر ما سبق ص ٩٧ •

(٧٦) مصطفى سويف ، الاسس النفسية للابداع الفنى فى الشعر خاصة ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥١ ، ص ١٩ • ويقول يونج : « ان كل رجع يمكن تفسيره وبيان علته ، اما فعل الابداع وهو نقيض الرجع لما يمتاز به من تلقائية فسيظل على الدوام يفلت من قبضة الذهن البشري » المرجع السابق ، ص ٢٠ •

(77) The Creative Process, p. 109.

تغيير هذه الرسائل وتحويلها فى انماط من كلمات ندعوها بالقصائد وتقول ايضا : ان تعريفاً علمياً ربما جاء على هذه الصورة الآتية : انه انسان ذو شخصية «باطنية» ذات احساس خارق ، يغذيها وعي لا يقاوم وتغذيه هى أيضاً[٧٨] . وهذا التعريف الذى تنعته « بالعلمية » لا يلقي ضوءً على شي ولا يفسر شيئاً ، وانما يزيد الامر ابهاما وغموضا .

وقد تنظم القصائد بطرق مختلفة ويأتي بعضها عفوا فى جلسة واحدة ومنها ما يستغرق نظمها أعواما . ويرى بعضهم ان خلق القصيدة يتضمن اعادة تنظيم للوعي فلا يمكن لذلك ان يقسر الشاعر على السير فى نظمها أو ان يبذل فيها كلها جهدا واعياً لترتيبها ، فيجب على المرء أن ينتظر ، ويجب عليه ، كما أشار بول فاليرى ، ان يسمح للذهن ان تكون له حرية عمله ، ولعل هذا ما كان فى خاطر كيتس Keast عندما قال : « يجب أن يأتي الشعر طبيعيا كأوراق الشجر والا فمن الخير الا يأتي ابدا » ، ولا يفترض انه يعني ان الشعر يجب أن لا يأتي بلا جهد أو بجهد قليل ، فاننا نجد فى مخطوطاته انه كان يبذل جهدا كبيرا ليهذب قصائده ويقومها ، وكان يعيد نظم مقاطع كاملة ، ويحاول صورا من القول متباينة ، ويمحو كلمة ليضع مكانها اخرى ، وأحيانا يحذف تلك الكلمة ويكتب الاولى كرة اخرى ، كما يفعل كل شاعر[٧٩] .

ويتحدث الشاعر ستيفن سبندر فى أثر التركيز والذاكرة فى الشعر فيقول : ان الشاعر ينسى ما حوله ويدخل فى عالم من التركيز ، وقد تساعده أشياء على ذلك كالتدخين واحتساء الشاي ، وقد يضطرب هذا التركيز لسماع صفير أو بتأثير دقات ساعة وغير ذلك ، ويرى ان فى الجسد ميلا قليلا

---

(٧٨) المرجع السابق ، ص ١١٠ .
(٧٩) المرجع السابق ، ص ١٢٩-١٢٨ .

الى تحطيم هذا التركيز والفرار منه ، ويرى ايضا ان نظم الشعر قد يتم في ارتفاع الشاعر على الجسد الى منطقة روحية ... وثمة تركيز مباشر وتام ، وآخر على مراحل حتى ينتهي الى أن يكون تاماً ، فالشعراء ، في رأيه ، يفترقون في التركيز ، ولهم طرق متباينة في ذلك ، ومن الشعراء من ينظم فلا يحتاج الى تهذيب ما ينظم ، ومنهم من يهذب ويظل يصقل ويعيد الصقل والتهذيب حتى تبدو نسخة قصيدته الاخيرة ضعيفة الصلة بنسختها الاولى ، وخير مثل على ذلك في عالم الموسيقى موزارت وبيتهوفن فالموسيقى تعيش في الفنان موزارت : من سمفونيات وغير ذلك وحتى مناظر واوبرات ... وهي كثيرا ما تأتي اليه وهو في رحلة أو ربما وهو يواجه معضلات صعبة ، ثم اذا به يضعها على الورق كاملة ، اما بيتهوفن فعلى خلاف ذلك ، فهو يكتب في دفاتر مقطعات لافكار تخطر بباله فيبذل فيها جهدا على مدى أعوام حتى تستقيم رائعة من روائعه ، وتجد أحيانا الفكر الاساسية الاولى فجة ، واذا بالدهشة تستخوذ على الباحثين من تطور مثل هذه الفكر السالفة الذكر الى آثار كلها ابداع واعجاز[٨٠] .

ويقول الشاعر سبندر : ان كان فن التركيز في طريقة معينة هو الدربة الضرورية للشعر لكي يكشف عن نفسه فان الذاكرة تُمارَس في طريقة معينة ايضا ، هي موهبة العبقرية الشعرية الطبيعية . ذلك لان الشاعر هو ، قبل كل شيء آخر ، امرؤ لن ينسى نوعاً من الانطباعات الحسية التي مرت به ، والتي يستطيع ان يعيشها مرات ومرات كما لو كانت في غضارتها الاولى . ولكل الشعراء هذه « الآلة » الحساسة المتطورة جدا ، وهم ، كما هي الحال ، يدركون التجارب التي حدثت لهم في مطلع العمر وتحتفظ هذه التجارب بمغزاها الاصيل خلال الحياة . فلقاء دانتي Dante

---

(٨٠) انظر : The Creative Process, pp. 113-114

لبياتريس Beatrice وهو فى التاسعة من عمره كان التجربة التي أصبحت رمزا فى ذهنه ، ذلك الرمز الذي تبلورت حوله الكوميديا الالهية • وتجربة الطبيعة التي تؤلف موضوع شعر وردزورث Wordsworth كانت امتدادا لرؤيا طفولة للوجود الطبيعي مما أحاط بوردزورث الصبي • وما عزمه ، فيما بعد ، على العيش فى منطقة البحيرات Lake District الا رجوعا الى منظر ذكريات الطفولة تلك التي كانت أكثر تجاربه فى الشعر خطرا(٨١) •

ولعل من الصواب القول ان الذاكرة هي موهبة الشعر الطبيعية ، لان الخيال نفسه ليس الا ممارسة للذاكرة ، فما من شيء نتخيله مما لم يسبق الالمام به ، والقدرة على التخيل هي قدرتنا على تذكر ما كنا جربناه فنطبقه على مواقف اخرى • ولهذا فالشعراء الكبار هم اولئك الذين يمتلكون ذاكرة عظيمة تتجاوز أقوى تجاربهم الى أدق ملاحظاتهم عن الناس والاشياء ، مما يقع بعيدا عن مركز أنفسهم المستقطبة • ( ونقطة ضعف الذاكرة هي التركيز على الذات ، ومن هنا جاءت الطبيعة النرجسية لاكثر ما ينظم من الشعر )(٨٢) •

ويرى هذا الشاعر أيضاً ان الالهام هو فاتحة القصيدة وهدفها الاخير ، انه الفكرة الاولى التي تلتمع فى ذهن الشاعر وهو الفكرة الاخيرة التي يتمها فيما بعد فى الكلمات • وبين البدء والختام عرق وجهد • ويستشهد بقول بول فاليري : ان الله ، ( أو الطبيعة ) ، يلهم الشاعر بيتا واحدا ، اما الباقي فعليه أن يكتشفه بنفسه(٨٣) •

---

(٨١) المرجع السابق ، ص ١٢٠ •

(٨٢) انظر ما كتبه ستيفن سبندر مما جاء فى :
'The Greative Process, pp. 120-121.

(٨٣) المرجع السابق ، ص ١١٨ •

ومهما يكن من أمر هذه التفسيرات ، فان حالات غريبة نادرة تبقى خارج نطاقها ، بعيدة عنها وعن المحاولات التي تهدف الى اخضاع تجربة الشعر لسياق المنطق أو وفق الظواهر المعروفة • ومن هذه الحالات النادرة ما وقع للشاعر صموئيل تيلر كولرج Samuel Taylor Coleridge فى صنع قصيدته الذائعة الصيت كبلا خان Kubla Khan ففي توطئة لهذه القصيدة كتب الشاعر نفسه يقول :

« فى صيف عام ١٧٩٧ اعتكف المؤلف على أثر مرض طارىء فى بيت ريفي بين بورلوك Porlock ولنتون Linton على مشارف اكسمور Exmoor التابعة لسمرست Somerset وديفونشاير Devonshire وقد وصف له تناول عقار(٨٤) مهدىء على أثر ما طرأ عليه : فاستولى عليه النوم وهو جالس على كرسيه ، فى « لحظة » قراءته للعبارة الآتية أو شيء يماثلها فى « حج برتشاس Purshas's Pilgrimage » والعبارة هي : « امر الخان كبلا Khan Kubla ان يشاد له قصر ذو حديقة غناء رائعة ، فارتفع جدار يحيط بأرض خصبة مساحتها عشرة أميال » •

« واستغرق المؤلف فى نوم عميق طوال ساعات ثلاث نأت به فى الاقل عن حواسه الظاهرة ، وتحقق له فى أثنائها أبلغ اتصال وأجلاه حتى لم يقصر عن نظم أقل من مئتي بيت الى ثلثمائة ، ان كان هذا فى حقيقة امره يدعى نظما » •

« فقد ظهرت خلال ذلك ، الصور الشعرية امام عينيه وكأنها أشياء مع ما يساوقها من التعبيرات المماثلة لها ، من غير ما احساس أو وعي ببذل الجهد » •

---

(٨٤) يذكر كولرج فى غير هذا الموضع انه تناول حبتين من الافيون • انظر حاشية : The Creative Process, p. 84.

« فلما استيقظ ، بدا له انه يقدر على تذكر كل ما حدث فى جلاء ووضوح ، فتزود على الفور بقلمه ومحبرته وورقه ، وكتب الابيات التي امامنا الآن بحماسة شديدة • وكان من سوء طالعه ان ألم به ، فى هذه اللحظة ، طارق من بورلوك Porlock ، لبعض حاجاته ، فمكث معه حوالي ساعة من الزمان ، وما أشد دهشته ، عندما عاد الى غرفته ، فوجد انه ، وان كان لايزال يحتفظ ببعض التذكر الغامض غير الجلي لما فى الرؤيا من عموم المعنى ، لم يتذكر سوى ثمانية أو عشرة أبيات وصور متفرقة ، اما ما عدا ذلك فقد اختفى كما تختفي الصور المرتسمة على صفحة ماء جدول ترمي فيه بالحجر ، ولكن من غير ما اعادة وااسفاه ، لما مضى :

واذا بالسحرِ كلّه
قد تلاشى واختفى عالمُ أطيافٍ جميلْ
وتوالتْ حَلَقٌ فى صفحةِ الماءِ وكلٌ
تملأُ الاخرى اضطراباً ، وتزول»(٨٥)

ومع ذلك ، كثيرا ما رام المؤلف ان يسترجع ، مما بقي فى ذهنه من تلك الصور ، ما شهده فى الاصل ....(٨٦) •

وحادثة اخرى لا تقل غرابة عما سبق ذكره ، وقعت لشاعر مجهول ، تلك هي حادثة خلق المارسليز ، نشيد فرنسا الخالد • فهذا الشاعر المغمور الذي لم تحلّق به أجنحة الفن من قبل الى آفاقها العليا ، قد عانى العبقرية فى ليلة واحدة فى عمره ، وكأنها حلت به تلك الليلة ، أو ان شئنا الدقة ، لمدة ساعات ثلاث من تلك الليلة الخالدة فى عمره • وليس لدينا ، لسوء

---

(٨٥) فى ترجمة الابيات شيء من التصرف •

(٨٦) من توطئة كتبها الشاعر لقصيدته « كبلا خان » من كتاب « اعمال صموئيل تيلر كولرج الشعرية » انظر :
The Creative Process, pp. 84-85.

الحظ ، ما كتبه الشاعر نفسه فى تلك الحادثة الفريدة ، ولكننا ، مع ذلك ، نملك فصلا رائعا كتبه اصطفان زفايج فى كتابه مواتاة الحظ[٨٧] The Tide of Fortune أعاد فيه حياة تلك الليلة وما تلاها بعد ذلك مما يتصل بها ، بقدرة الكاتب القدير المبدع • على أنّ نطاق هذه المقالة لا يتسع لكل ما أبدع ، وحسبنا ، هنا ، أن نقتصر على بعض ما جاء فى ذلك الفصل •

ففي يوم ٢٥ نيسان من عام ١٧٩٢م وردت الاخبار مدينة ستراسبورغ على الحدود الالمانية ، باعلان فرنسا الحرب على امبراطور النمسا وملك بروسيا ، فحميت المدينة ، واشتدت الحماسة فى أبنائها ، وكان رئيس بلديتها فردريش بارون ديتريش Friedrich Baron Dietrich أحد مناصري الحرية الجديدة ، فأقام فى مساء ذلك اليوم احتفالا لهذه المناسبة ، أريقت فيه الخمر وبلغت خلاله الحماسة أقصى درجاتها • ورأى رئيس البلدية ، فى أثناء الاحتفال ضابطاً كان يدعى روجيه دى ليل Rouget de lisle وكان قد نظم «قصيدة الى الحرية» قبل ذلك بستة أشهر غُنيت فى الميدان الكبير ، وكانت قصيدة جميلة ، فسأله أن ينظم نشيداً لجيش الراين الزاحف على الجبهة •

وكان روجيه امرءً متواضعاً مغموراً ليس فيه ما يميزه من الوسامة ولكنه كان لطيف المعشر ، ولم يكن يعد نفسه يوماً من الشعراء العظام ، وان كان يرى ان القلم يواتيه فيما يتصل بالايقاع •

وانقضى معظم الليل ، وهدأ الصخب أو كاد ، واحتضن الليل دور المدينة وأحياءها ، ولكن الظلام كان خادعاً ، فتحت سدوله كانت المدينة ترتجف من شدة ما ألمّ بها ، وكان الجند فى ثكناتهم يتهيأون للزحف ،

---

(87) Stefan Zweig, The Tide of Fortune, (Translated into English by Eden and Ceder Pall), Edinurgh 1942.

وكثير من السكان يتهيأون لمغادرة مدينتهم تحت جنح الظلام ، وفى الشوارع كنتَ تسمع هنا وهناك ، وقع أقدام أرهاط من الجند ، وحوافر خيل الرسل وحاملي البريد ، كما تسمع أحياناً صلصلة مجموعة ثقيلة من المدفعيـة ، يتخلل كل ذلك أصوات متفرقة رتيبة يطلقها العسس وهم يحيون ساعات خفاراتهم • وكان العدو قريباً جداً والمدينة ينتابها قلق عجيب ، وكان كل ذلك يذود النوم عن عيون كثير من أبنائها فى مثل تلك الساعات الحاسمة •

وعـاد روجيه الى مقره فى الطابق العلوي فى Grand Rue 126 تملأه الحماسة من كل ذلك ، ولـم ينس وعـده فى أن يسرع فى نظـم النشيد ، فراح يذرع أرض الغرفة جيئة وذهوباً ، ترى كيف يبدأ ؟ وكان صدى اعلان الحرب المثير ، وما القي من خطب وما تبودل من أنخاب فى سواد ذلك الليل ، كان ذلك يرن فى اذنيه رنيناً مختلطاً ، وخطرت بباله أيضاً كلمات قد تسمّع لها عرضاً من أصوات الامهات يرتجفن من أجل أبنائهن ، وأصوات الفلاحين يخشون على حقول فرنسا أن تعبث بها أقدام العدو • فكتب البيتين الاول والثاني ، وكانا صدى او اعادة لما كان يسمع من قبل • لقد بدأ النشيد ، ولكن المهم هو أن يجد الايقاع المناسب للالفاظ ، فأخرج آلة الفايولين وأخذ يوقع عليها نغمات قليلة ، لقد كانت رائعة مناسبة ، فكتب على عجل شيئاً آخر ، وجرفته القوة التي استحوذت عليه ، وفى الحال بدا كل شيء وكأنه يجري قُدُماً : من كل تلك الاحساسات التي كانت تمتلىء بها نفسه وهو بصحبة دياتريش ، وكل الكلمات التي كان يسمعها فى الشارع وفى احتفال العشاء ، وكذلك احساسه حيال بعض المستبدين والخوف على بلاده ، والثقة بالنصر ، وحب الحرية • ولم يلجأ روجيه الى اعتصار ذهنه واقتداح قريحته ، فما عليه الا أن ينظم وان يلائم للحن المثير ما يرد عـلى خاطره ، من عبارات قد هجمت على اذنيه فى كل مكان خلال ذلك اليوم ، وما سمع مما كان يعبرّ عن مكنون الامة ، وما كانت به حاجة ايضا الى أن

ينظم ، فقد كانت تقتحم عليه غرفته خلال النوافذ نصف المغلقة ، ايقاعات الشارع ، وما تحفل به ساعة « الموقف » الحرجة ، وايقاعات التحدي التي عبرّ عنها وقع اقدام الارهاط الزاحفة وأصوات الابواق ، وقصف المدافع المنتظر • ولعل نفسه الواعية ما كانت تنظم أو توقع ، بل تلك عبقرية « اللحظة » استولت عليه فى تلك الليلة ، وسيطرت على اطاره الثاني ، فصار اللحن يلائم نفسه للايقاع الطارق المرح ودقات قلوب اناس ايقاظ • وكان ينظم ويلحن فى سرعة عجيبة ، وكأن كل ذلك من صنع رجل آخر ••• ان عاصفة ، ما جرب مثلها قط ، قد اجتاحت ذهنه المحدود ، فامتلأ كيانه باثارة وحماسة ما كانا من طبيعته ، لقد هيأ منفذا لقوى سحرية من « لحظة » متفجرة رفعت هذا الشاعر « الهاوي » آلاف المرات فوق مستواه الطبيعي ، مطلقة اياه كالشهاب أو كوميض اللهب الصاعد نحو النجوم • لقد قدر لروجيه فى تلك الليلة الفريدة أن يكون أحد الخالدين •• وقبيل الفجر اكتملت الاغنية التي قدر لها أن تبقى أبد الآبدين •

فأطفأ روجيه الضوء ، وألقى بنفسه على الفراش ، وراح فى سبات عميق ، وفى ذلك السبات العميق انحسرت القوة الملهمة ومات فى روجيه ، الخالق والشاعر والموسيقي والعبقري ولم يعد الا كأحد الناس الذين تضطرب بهم الحياة ، وهناك على « الطاولة » كانت المعجزة ، التي أنجزها فى جنون مقدس ، تستقر فى سكون غريب ، وقلما شهد التاريخ مثيلا لها فى النظم والموسيقى ينجز فى مثل هذه السرعة العجيبة ، وفى ملائمة اللحن للكلمات ملاءمة كاملة • واستيقظت المدينة ، وكان عسيرا على روجيه أن يهب من نومه العميق ، فلما استيقظ راجعه شعور غامض مؤداه ان شيئاً ما غريبا قد حدث له ، ولم يكن يستطيع أول الامر أن يتبينه ثم لمح الابيات على « الطاولة » • أبيات؟ متى نظمها ؟ موسيقى ؟ وفى خط يده ؟ ثم تذكر ما اقترحه رئيس البلدية عليه • فقرأ الابيات ونغمّ الموسيقى ، وما كان واثقاً

مما أبدع فعرضها على صديق فى غرفة مجاورة ، وتلقاها صديقه لقاء حسنا ، ثم أسرع بها الى دياتريش ، فعزف دياتريش على « البيان » وغنى روجيه ، لقد لقيت قبولا من صديقه رئيس البلدية ، وفى مساء ٢٦ نيسان عزفت أمام جمهور من أصدقاء رئيس البلدية فلقيت استحساناً وقبولا ، وانتهى أمر نجاحها عند هذا الحد تقريباً ... ولم يسمع شيء عنها طوال شهر أو شهرين .

ولكن فى ٢٢ حزيران فى مارسيليا ، على ساحل البحر المتوسط ، بعيدا عن ستراسبورغ احتفل نادي أصدقاء الدستور بالمتطوعين الذين كانوا على وشك أن يسيروا الى باريس ، وكانت الامور قد تغيرت كثيراً خلال ذينك الشهرين ، فقد توغل العدو فى داخل فرنسا ، وتهددت الحرية فى كل مكان .

وفجأة نهض فى الحفل طالب طب يدعى ميرو Mireur ، فنظر اليه الناس صامتين وتوقعوا أن يلقي خطبة حرب ، كما اعتادوا أن يسمعوا فى تلك الايام ، ولكنه رفع يده اليمنى وارتفع صوته بالنشيد الذي لم يكن أحد من الحاضرين قد سمع به ، وسرى تأثيره كالنار فى الهشيم .. وأحس اولئك المتطوعون كأن الكلمات عبرت عن أعمق ما تكن نفوسهم ، وهتف الجميع للنشيد هتافاً عالياً ... وفى اليوم التالي كان هذا النشيد على كل الشفاه ، وعندما فصل المتطوعون يوم ٢ تموز زاحفين نحو باريس صحبوا معهم نسخاً منه مطبوعة فكانوا اذا ما أتعبهم السير أو وهنت خطاهم أنشدوه فاذا بقواهم تتجدد واذا ما مروا بقرية وانشدوه أسرعت القرية الى مشاركتهم بانشاده ، حتى لقد صار اغنية الزحف للمارسيليين فقد اتخذوه نشيدهم الخاص ، وعرف بهم من غير أن يعرفوا ناظمه وملحنه ، وكان أول انتصار لنشيد المارسليز فى باريس . ففي ٣٠ تموز انشده هؤلاء المتطوعون فى تلك المدينة ولم تمض ساعتان أو ثلاث حتى كان الناس ينشدونه فى شوارع

باريس كلها ... لقد وجدت الثورة صوتها واكتشفت اغنيتها ، وانتشر هذا النشيد بسرعة البرق ، وكان مسراه العجيب لا يقاوم ، فاذا به ينشد فى الحفلات وفى المسارح والندوات والكنائس ، وفى شهرين من الزمان صار نشيد فرنسا كلها وفاق ذيوعه فى الجماهير ما كتب موليير او راسين او فولتير .

وطار صيت هذا النشيد فى كل صقع ، ولكن ما من اشارة تشير الى مؤلفه ولا نسخة تحمل اسمه .. ومن غريب المفارقات ان مبدع نشيد الثورة لم يكن هو نفسه ثوريا بل رفض أن يقسم يمين الولاء للجمهورية مفضلا أن يستقيل من منصبه على خدمة اليعاقبة ، وكان بغضه للطغاة والمستبدين الجدد لا يقل عما كان يكنه للطغاة المتوجين المتربصين وراء الحدود ، وأعلن عدم ولائه للجمهورية عندما أرسلت جمعية الامن العامة الى المقصلة صديقه رئيس البلدية والنبلاء الذين استمعوا للنشيد يوم ٢٦ نيسان . واذا بموقف غريب يجد ، فقد ألقي القبض على شاعر الثورة بتهمة معاداته للثورة ، أي بجريمة الخيانة العظمى للجمهورية ، ولم ينقذه الا سقوط روبسبير وفتح أبواب السجون ...

وعاش روجيه أكثر من أربعين عاما بعد يوم الابداع الخالد . لقد نزعت عنه حلته الرسمية وحرم من تقاعده ، ولم تطبع أشعاره ولا مثلت اوبراته ، فالقدر لم يغفر لهذا « الهاوى » جريمة انخراطه ، بلا مقدمات ، فى سجل الخالدين .. وآل به الامر الى أن ينطوي على نفسه مغمورا فى احدى المقاطعات وهناك كان يصغي الى قصيدته الخالدة وكأنه فى داخل قبر مجهول . وشرق نشيد المارسليز وغرب مع الجيوش المظفرة ... والتفت لويس فليب بعد ذلك أي عام ١٨٣٠ الى مؤلفه بمعاش صغير ، وبدا ذلك له حلما ما كان يمر بخاطره ، ولكن الموت لم يمهله فمات فى ١٨٣٦

وانطوت ست وسبعون عاما كانت عصارتها عبقرية ثلاث ساعات تجسدت فكانت نشيد المارسليز •

ولم يذكره بعد ذلك أحد ، ومرت أجيال وهذا النشيد هو نشيد فرنسا الوطني ، حتى اذا جاءت الحرب العالمية الاولى نقلت الحكومة رفات روجيه ، ليرقد أخيرا فى بانثيون فرنسا (٨٨) •

وكتب(٨٩) مالكولم كاولي فى تجربة شعرية للشاعر الامريكي المعاصر هارت كرين Hart Crane قائلا انه كان وجماعة من الاصدقاء فى عصر بعض الآحاد فى بيت ريفي ، وكانت القهقهات تملأ البيت ولكنه لا يستطيع تذكر الملح أو النوادر التى كانت تسبب تلك القهقهات ، وكان هارت كرين أشد الجماعة انفجارا فى الضحك وأكثرهم شرابا ، ولكن أمره انتهى ، أخيرا ، الى الصمت ، ثم اذا به ينسحب ، بعد قليل ؛ من الجماعة ، فلم نعد نسمع من قبله الا بعض الضوضاء الآتية من خلف جدار الغرفة المجاورة ، والا صوت الحاكي يدور عن رومبا كوبيه ، وآلة الطابعة تختلط معها فى ضوضائها • ويصمت الحاكي فجأة ، وتكف آلة الطابعة عن طرقاتها ، ثم يغيّر هارت الاسطوانة •••

وينقطع المطر بعد ساعة ويظهر هارت كرين فى المطبخ حيث كان الاجتماع ، وكان محتقن الوجه وعيناه تقدحان شررا وشعر رأسه الاشيب يقف على شواة هامته ، وهو يعلك « سيجارا » نسى ان يشعله • وكان يحمل بيده ورقتين او ثلاثا ، فيها كتابة مطبوعة بالآلة ، وفيها كلمات محذوفة وابيات جديدة كتبت كتابة رديئة ، وهو يقول : اقرأوا هذه ، اوليست اعظم قصيدة

---

(٨٨) اعتمدت فى كتابه هذه الحادثة على الفصل الذى كتبه اسطيفان زفايج فى كتاب :

The Tide of Fortune, pp. 127-146.

(٨٩) انظر : The Creative Process, pp. 145-147.

نظمت ؟ ويقرأها الن تيت Allen Tate طائعاً ، وربما جاء بتعليق ذى مغزى ، اما الباقون فما افادوا منها شيئا غير الايقـاع الذى يشبه « توم توم Tom-Tom» وصور قليلة مثيرة ، ولكن الجميع كانوا متفقين على انهـا رائعة • وما كانوا يفعلون غير ذلك لانهم لم يستطيعوا ان يقولوا شيئاً مـن غير ان يؤدوا به الى الانفجار او الاجهاش فى البكاء •

بيد ان هذه القصة لا تشتمل على البدء الحقيقـــى او الختام الحقيقى للقصيدة • « فقد اكتشفت اخيرا انه كان يجربها شهورا او سنين ، كاتبـا ابياتا على قصاصات من الورق كان يحملها فى جيوبه ، منتظرا لحظة الالهام فاذا ما حانت استطاع عندئذ ان يضم بعضها الى بعض[٩٠] • لقد حاول كرين ان يجد الهامه فى الشراب والضحك والحاكي •

اما نهاية القصيدة فربما تأخرت اسابيع ، يعكف عليها الشاعر ، وهو فى تمام قواه العقلية محككا ، مهذبا ، موضحا صورها ، مقيما وزنها ، باحثا فى المعاجم عن الكلمات المناسبة ، وهو لا يكف عن التهذيب والتبديل حتى بعد ان يرسلها الى النشر • ولم تكن لهارت كرين دراسة منظمة ، فقد ترك الثانوية قبل تخرجه ، فصار يملأ رأسه باشياء وان كانت عميقة فانها ليست منظمة ، وليس هذا الشاعر عالى الذكاء و « ولكني لا اعلم احدا نظيره فـى تاريخ الادب متهيئاً مثله لصرف وقت كثير على تهذيب قصيدة واحدة له حتى تبلغ كمالها »[٩١]

ونجتزىء بما سردنا مما يتصل بغريب الالهام ومعاناة الشعر ، لنعالج تجربة الشعر كما وصفها اصحابها • وليس فى قديم الشعر العـربى مـــا يفيدنا هنا ، كما مر بنا سابقاً ، ولدينا اليوم محاولات جاءت ، فى كثير مـن

---

(90) The Creative Process, p. 146.

(٩١) المرجع السابق ، ص ١٤٧ •

الاحيان ، جوابا لاسئلة موجهة ، ومن ثم فقد أصبحت عرضة لأن تكون رأى ناقد ينظر فى « شاعرية خاصة » نظرة فيها كثير من التحيز وخداع النفس ، مهما حاول ان يلبسها لبوس التواضع والاعتدال • وتجد فى كتاب(٩٢) «الاسس النفسية للابداع الفني في الشعر خاصة » مجموعة من هذه المحاولات ، لا يصلح اكثرها لتقديم وصف حقيقى لمولد الشعر الذى نتحدث فى امره • وقد اجد من المفيد ، مع ذلك ، ان اثبت بعض اجابة الشاعر خليل مردم ، فلعل فيها ما يتصل بموضوعنا •

قال الشاعر :

« من أواخر ما نظمت من الشعر قصيدة عنوانها ( الضحية ) اصف بها شاة يذبحها جزّار ••• وقد اخترت ان اجعلها موضوعا للاجابة لان صورها مجملة عاشت فى نفسي قبل الكتابة طويلا • وذلك انني شهدت مرة بدارنا جزاراً يذبح الاضاحي بعيد الاضحى ، فكنت أنظر اليه يذبح الواحدة بعد الاخرى بخفة وقساوة ، والاضاحي تتخبط بدمائها وتغط غطيطا منكرا • وقامت صور المشهد فى نفسي ، استهجن قساوة الجزار وارق للضحايا حتى صرت لا اقدر ان انظر الى حيوان يذبح •

« ومضى على ذلك زمن طويل ، ومنيت بفاجعة ما كنت اقوى معها على الرثاء ، بل ما كنت أطيق أن أسمع رثاء أو أقرأه ، ودافعت الشعر وتشاغلت عنه ، وكنت اشعر بعد تلك الفاجعة كأنني مذبوح ، وتنبهت صور الضحية فى نفسي وخيل الي انني اقاسي من جرح المصيبة مثل ما تقاسى من ألم الذبح • وأظلني حال من الشعر هزني للقول بعد ان تحاميته مدة غير قصيرة ، فعمدت الى تصوير الضحية صورة كاملة وانا اشعر معها فى كل ما تقاسيه •

---

(٩٢) الاسس النفسية للابداع الفنى فى الشعر خاصة ، ص ٢٠٠ـ٢٢٦ •

« اما صورة القصيدة وحوادثها فقد عاش اكثرها فى نفسي قبل الكتابة حياة مجردة ، وبعضها جاء على سبيل التداعي والاقتضاء كبعض ابيات الفاتحة والخاتمة . واما التصوير او طريقة الاداء فقد كان ذا اثر بالغ فى تكييف تلك الصور وتخليق تلك الحياة المجردة ، مثال ذلك :

على نحرها لون من الموت أحمر  وفى شفرة الجزار آخر ازرق

الصورة التى كانت فى نفسي « شفرة الجزار اجرت دم الضحية » ، اما اخراجها بهذا الشكل وتخليقها هذه الخلقة التى اراقت عليهـــا الوانـا واضافت اليها اشكالا فقد كان وقت الكتابة ، وهكذا كل بيت من ابيـــات المقطع الاوسط من القصيدة .

« ووجدت بعد الانتهاء من القصيدة انها نضجت وامتلأت اثناء الكتابة من جهة وصف الجزار ، فلم اكن مقدرا حين الشروع ان اعنى بوصفـــه بهذا المقدار . وما شعرت انها تضاءلت أو تلاشت فى نواحيها الاخرى »[٩٣] .

وفى تمهيد كتبه الشاعر محمد الاسمر لديوان شعره يعجب من قول بعض اصدقائه « انهم لايجدون فى صياغتهم لما ينظمون كثيرا من العنـاء » ويقول « اما انا فاجد من ذلك الشيء الكثير ، حتى لا حاول احيانا اقتضاب القصيدة والخلاص منها لشدة ما اعانيه من الانفعالات بسببها فأجدها ممسكة بتلابيبي متشبثة بي كأنها أمواج قوية تجذبني الى داخل بحر أود الخروج منه فلا استطيع ، ولا تزال هذه الامواج تتلاعب بى حتى تقذف بى الى الساحل ، ومعنى ذلك انى فرغت من القصيدة او بعبارة اقرب الى الحقيقة ان القصيدة فرغت مني . ويقول : « واني فى أول نظمي للقصيدة أجدني مســـوقاً الى نظمها بشعور خفي ليس فيه ما يرهق أعصابي ، ثم يأخذني التيار الجارف فيربد وجهى واظل ذابل البصر ، غائبا بعض الغياب عما حولى ، وفى هذه

---

(٩٣) الاسس النفسية ، ص ٢٠٠-٢٠١ .

الحالة اذا نمت كان نومى متقطعا ، اغفو الاغفاءة ، ثم اقوم ناهضا الى القلم والقرطاس ، لان معنى من المعانى تمت صياغته بيتا من الابيات .

« وانه ليخيّل الي ان مخي فى أول عمل القصيدة انما هو ( ساعة ) املأها وهو بعد ذلك يؤدي عمله بنفسه ولا سلطان لى عليه ، كما تؤدى ( الساعة ) عملها بعد ملئها .

« وطالما خيل الىّ اثناء عمل القصيدة ان قلبى موقد ملتهب وان رأسى فوقه انبيق ، به اشياء كثيرة تتبخر ثم تتقاطر شعرا .

« وانه ليخيل الىّ احيانا ان المعانى حينما تجول برأسى انها هى نفسها تبحث عن ألفاظها اللائقة لها !! كأنها أسراب طائرة ، كل طائر منها يبحث عن وكره ، فاذا وجده نزل به مستقرا مطمئنا ، وان لم يجده ظل شاردا حتى يهتدى اليه ، فان نزل بلفظ غير لفظه الجدير به حل فيه مضطربا قلقا كما ينزل الطائر بغير وكره ، ثم غادره محلقا برأسى ، جائلا هنا وهناك ، باحثا عن لفظه . وانا فى كل ذلك كأننى شخص غريب يشاهد وينظر لا الشاعر الذى يصوغ وينظم .

« وليس لنظم الشعر وقت خاص او مكان خاص ، فانه حينما تحضر شياطينه او ملائكته يأخذ علىّ كل وقتى حيثما كنت ، فاقول وانا فى المنزل ، واقول وانا فى الطريق ، واقول وانا وحدى ، واقول وانا مع الناس . كل كل ذلك وانا فى شبه غيبوبة .

« ولقد افرغ من القصيدة او تفرغ هى منى فاقرأها بعد ذلك واعجب لها بها وكيف تمت صياغتها حتى كأنى لست بصاحبها !!

« هذا على ان من الشعر ما يواتى فى بعض الاوقات من غير اجهاد نفسي فأفرغ منه وكأنما كنت أحلم حلما هادئاً جميلا ..[٩٤] » .

---

(٩٤) محمد الاسمر ، ديوان الاسمر ، القاهرة ، ص : م ـ س .

وفيما كتب الشاعر الاسمر شيء كثير ممتع قد يكشف عن بعض جوانب شخصيته ولكن نقطة الضعف التى تقلل من شأنه انه معالجة عامة لكل احواله فى تجارب الشعر ، وليس وصفا محددا لحال خاصة عانى فيها تجربة شعرية معينة او مراقبة دقيقة للحظات الالهام او لعملية الخلق الفني لاثر من آثار شاعريته الخصبة ، واذا كان الشاعر الاصيل يتسم بالتفرد ، فان كل حال منه فى كل قصيدة من قصائده ، هي حال متميزة عن أحواله الاخرى ، وان ضمها اطار شامل من شاعرية واحدة •

ونشر الشاعر الانجليزي المعاصر ستيفن سيندر Stephen Spender مقالة ضافية فى ال Partisan Review فى صيف ١٩٤٦م ، تحت عنوان « صياغة قصيدة » ، وهى من اطرف ما اطلعت عليه فى هذا الصدد ، لما اشتملت عليه من مراقبة دقيقة لاحواله الشعرية بعامة ، وسرد مستنير لامثلة خاصة مما وقع له من التجارب الشخصية فى نظم الشعر وتهذيبه • ولولا ضيق المجال لاثبتنا ترجمتها كلها هنا ، ولكن مجلة كلية الآداب التي اريد لهذه المقالة ان تحتل مكانها بين دفتيها ، تلزم كاتبيها ـ وهى على حق فى ذلك ـ بالا يتجاوزوا عدداً معيناً من الصفحات ، فأجدني ، لذلك مضطراً الى الاجتزاء منها بما هو اكثر اتصالا بالموضوع :

يقول سبندر :

« قد يهب الله شاعرا عقلا واضحا وقريحة متوقدة تجرى فى طريقها الى ما تهدف اليه ، وقد يجعله لا يجرى فى شعره الا وانيا متمهلا متعثرا • وليس هذا بذى بال ، فان مرد الامر كله فى التفضيل هو ألا يكون الشاعر موزع النفس ، بل ان يكون قادرا على ان يجرى الى قصده من غير ان يضيع نفسه •

ويقول ايضا : « وقلما كنت قادرا على التركيز الفورى فى الشعر ،

وما انا بصافى الذهن ، امّا ارادتى فضعيفة • زد على ذلك اننى اعانى من كثرة الافكار ، وليس لدى الا حاسة ضعيفة فيما يتصل بالصياغة • اننى اقتصر على البدء بنظم قصيدة واحدة مما لا يقل عن عشر قصائد افكر فيها ، وكل قصيدة اتم نظمها تقابلها سبع او ثمان لا اتمها ابدا [٩٥] »

ويقول :

« اما الطريقة التى اتبعها فهى ان اكتب فى دفتر اكثر ما استطيع كتابته مما يرد على خاطرى من الافكار ، مهما كان شكلها من عدم الصقل والتهذيب ، ( وعندى ، على اقل تقدير ، عشرون دفترا تجمعت خلال خمسة عشر عاما ، وهي تستقر على رف بجانب طاولة الكتابة )[٩٦] » •

« وخير مثل لشرح الطريقة التى اطور فيها الافكار التى اصطنع هو ان آتى بمثل على ذلك : فهنا دفتر بدأت الكتابة فيه عام ١٩٤٤ م فملأت مئة صفحة منه بالكتابة ، ونتج من ذلك حوالى ست قصائد • وقد اتخذت كل فكرة طرأت على خاطرى رقما معينا وربما اقتصرت الفكرة على سطر واحد لا تتجاوزه خذ مثلا الفكرة رقم (٣) ( ولم تتم قط ) وهى البيت الآتى :

لغة جسد وورد

وسأعود الى هذا البيت بعد صفحات قليلة عندما أتحدث فى امر الالهام • اما الآن فالتفت الى رقم (١٣) ، فهنا فكرة نمت وتطورت حتى بلغت خاتمتها • وتبدأ صيغتها الاولى كالآتى :

هناك ايام عندما يستلقي البحر كقيثار
تمتد صفحته تحت الاجراف الصخرية • فالامواج

---

(٩٥) The Creative Process, p. 115 مقتبسة عن : Partisan Review, 1946.

(٩٦) المرجع السابق ص ١١٥ •

كأنها اسلاك تحترق بوهج نحاس الشمس
( كل الهمس ازرق
وكل صامت )
وما بين بعضها وبعض ، كل صورة
للسماء ( الحقل و ) كل سياج من الشجر وحقل وزورق
يقطن كوجه هائل لوقت الزوال •
( يستلقي )
وعندما ينال التعب من الحر ، فان وقت الزوال
خارج البر قد يتنفس الصعداء
( وبين تلك الاسلاك مثل يد • انها تهتز
بهـا )
انها تتحرك بين تلك الاسلاك كيد ناعمة
( ثم ان الاهتزاز )
بين مسافاتها يمسك الاهتزاز
كل صوت طائر ، ونباح كلب ، وهتاف انسان
وصرير الضوضاء من الارض والسماء
مع كل موسيقى وقت الزوال

ومن الواضح ان هذه الابيات انما هى محاولات لتخطيط فكرة توجد في وضوح كاف على بعض مستويات الذهن حيث تغرى المحاولة باخراجها • والقصيدة ، فى هذه المرحلة ، تشبه وجها يبدو للمرء انه قادر على تصـور صورته بوضوح فى عين الذاكرة ، ولكن ما ان يفحصه فى ذهنه ، او يحاول ان يخرج ملامحه ، واحدة بعد الاخرى ، حتى يبدو آخذا فى التلاشى •

« ان فكرة هذه القصيدة هى صورة البحر • فاذا ما لبست ثوب الكلمات فانها فى رأى الشاعر ستكون ذات شأن • فالصورة هى : البحر يمتد تحت

جرف صخرى • وعلى قمة الجرف حقول واسوجة شجر ودور ، وخيول تسحب عربات بمحاذاة الدروب ، وكلاب تنبح بعيدا فى البر واجراس ترن من مسافات نائية • ويبدو الساحل موقرا بالاسوجة والورود والخيول وبنى الانسان • وكلهم على مرتفع عال على البحر ، فى يوم صيف رائع الجمال عندما يبدو المحيط وكأنه «يعكس» الساحل ويبتلعه • ثم ان امواج البحر الصغيرة المترابطة الملتمعة وهى ترقد تحت الساحل تشبه اوتار قيثار تستقبل ضوء الشمس • وبين هذه الاسلاك تستلقى صورة الساحل ، وتنزلق الفراشات فى طيرانها الهادىء على الامواج التى تخالها حقول منظر البر الابيض ، باحثة فيها عن الزهر وفى مثل هذا اليوم يبدو البر الذى ترتسم صورته على البحر وكأنه يهبط فى البحر كما لو كان راقدا تحته كقارة اطلانطا • واسلاك القيثار كموسيقى مرئية تمزج منظر البحر بمنظر البر •

« ومن الواضح ان لهذه الصورة ، اذا ما نظرنا اليها بطريقة اخرى ، قيمة رمزية • فان البحر يمثل الموت والابدية ، ويمثل البر حياة الصيف القصيرة[٩٧] وحياة جيل واحد من بني الانسان ، وكل يغيب فى بحر الابدية • ولكن دعني أقول هنا الآن ان الشاعر ، وان كان مدركاً لوجه من وجوه الصورة الشعرية فى مخيلته ، فانه لا يرغب الا فى تجنب ابرازها فى التعبير او تجنب كونه يفرط فى العناية بها • فغايته ان يعيد خلق صورته فيدعها تعبّر عن وجهتها بنفسها • ذلك لأن الشاعر يجب ان يميز فى ذهنه تمييزا واضحا بين ما يجب ان يقال محددا جدا وبين ذلك الذى لا يقال • فالمعنى الخفي الذى لايقال تعبر عنه موسيقى القصيدة ولحنها ، والشاعر على علم من ان بعض نغمات الصوت وبعض الايقاع تفرضهما الضرورة •

« وفى العشرين صيغة التى صيغت فيها القصيدة فيما بعد ، تلمست

---

(٩٧) صيف بريطانيا •

طريقى نحو توضيح الصورة المرئية والموسيقى والشعور الداخلى • ففى الصيغة الاولى المقتبسة سابقاً تجد فى البيتين الثاني والثالث العبارة الآتية :

فالامـــواج

كأنها اسلاك تحترق بوهج نحاس الشمس

وهذه العبارة تمزج صورة البحر بفكرة الموسيقى ، ولذلك فهي مفتاح، لأن موضوع القصيدة هو امتزاج البر بالبحر ، فهناك لذلك عدد من الصيغ لهذه العبارة التى شغلت بيتا وبعض البيت • واليك العبارة فى ترتيبها الذى كتبت فيه :

ب ـ الامواج أسلاك

تحترق كما لو كان ذلك باغنية النيران الخفية

جـ ـ ان النهار يحترق فى الاسلاك المرتجفة

بموسيقى عظيمة ذهبية فى العيون

د ـ يتوهج النهار على أسلاكه المرتجفة

مغنيا موسيقى ذهبية فى العيون

هـ ـ يتوهج النهار على أسلاكه المحترقة

كأمواج من الموسيقى تبدو للعيون ذهبية

و ـ يحترق وقت الزوال على أسلاكه

سطوراً من الموسيقى تعشى العيون

ز ـ يذهّب وقت الزوال أسلاكه المتحفزة

لموسيقى مرئية صامتة ، عند النظر

• ويظهر هذان البيتان كما فى الصيغة الاخيرة ، فى المقطع الآتي :

هناك أيام يستلقي فيها المحيط الجذل

تحت البر ، مثل قيثار ما مستها أنامل ،

يذهّب وقت الزوال كل الاسلاك الصامتة

فى موسيقى محترقة عند النظر

وعند ظهور الطرق بين تلك النيران المنظومة نظما جميلا يتيـــه الساحل ، وهو مثقل بالورود والخيل والابراج المدببة ، فى المـاء ، مصورا على زمال ذات أضلاع »[٩٨] .

الالهـــــام :

ويتحدث الشاعر فى الالهام فيقول : ان التهذيب الذي ظهر فى هذه الامثلة وما هو الا بعض ما بذل من جهد ـ قد تناول القصيدة كلها ، ولعل هذا يدفع القارىء الى التساؤل عن وجود الالهام ، « ام لعلك ترى أن سنيفن سبندر وحده لم يكن ملهما ؟ والجواب هو : ان كل شيء فى الشعر انما هو عمل ، ما عدا الالهام ، سواء تم العمل بجرة قلم ، كما وضع موزارت موسيقاه ام اتخذ طريقه الى ختامه بطيئاً وانيـا ، متطورا من مرحلـة الى مرحلة . وهنا يجب أن احدد كلمة « العمل » كما حددت « التركيز »[٩٩] ، فربما لا يكون العمل سوى أن تضع جانبا صيغة من بيت ، فتتركها أيـاما قلية أو أسابيع أو سنين ، ثم ترجع اليها كرة اخرى ، عندما تجد ان البيت فى هذه الفترة قد أعاد صياغة نفسه .

« ان الالهام فاتحة القصيدة وهو ايضا هدفها الاخير ، انـه الفـكرة الاولى التي تلمع فى ذهن الشاعر ، وانها الاخيرة التي يتم انجازها اخـيرا بالكلمات . وبين الفاتحة والخاتمة جهد وعرق ....

« ان تجربتي فيما يتصل بالالهام هي ان بيتا واحدا أو عبارة أو كلمة أو شيئاً لا يزال ، أحيانا ، غامضا ، كسحابة معتمة من فكرة احسّ بها ، يجب أن يعتصر ليكون دفقة كلمات . ان سمة ما يفتتح به من كلمة أو بيت هي انها لا تقتصر على أن تستميل كما تستميل كلمة نفّاج **Braggadocio**

(98) The Creative Process, p. 117.

(٩٩) انظر ما سبق ص ١١٦ـ١١٧ .

بل تتعدى ذلك الى ان تكون ، فيما يبدو ، صيغة نشيطة خصبة ، كما لو كانت تعبيرا يحتاج الى بدء وختام وكما لو ان فيها ما يجري بها نحو وجهة معينة .

واليك هذا المثل :

لغة جسد وورد

« فهذه العبارة ( وهي غير مرضية جدا ) تبعث فى ذهني سلسلة كاملة من التجارب وفكرة قصيدة لعلي سأنظمها فى أعوام آتية . لقد كنت واقفا فى دهليز قطار يجتاز الارض السوداء The Black Country ، فرأيت منظر حفر ورؤس حفر وجبالا مصنوعة ، وجروحا صفرا مسننة فى الارض ، فكل شيء تبدل كما لو كان بفعل حيوان هائل الحجم أو عملاق ، مزق الارض فى البحث عن فريسة أو كنز . ومن عجيب المصادفات ان رجلا لا أعرفه كان يقف الى جانبي قد ردد فكرتي التي كانت تجول فى اطواء نفسي فقال « كل شيء هناك من صنع الانسان » ، ففى تلك اللحظة ومضت فى رأسي عبارة :

لغة جسد و ورد

وكان مجرى فكري كما يأتي :

ليس المنظر الصناعي الذي يبدو الآن شيئاً مألوفاً وكأنه من صنع الله ، والذي يستعبد أصحاب المصانع والعمال معا ممن يخدم فيستفيد منه ، غير تعبير عن ارادة الانسان فبنو الانسان أرادوه على هذا النحو ، وليس رءوس الحفر والركام ونسيان حساب أي شيء الا متابعة الثراء ، غير رمز لذهن الانسان الحديث . وبعبارة اخرى : ان العالم الذي نخلقه ـ عالم الاكواخ الفقيرة ، والبرقيات ، والجرائد ـ ضرب من لغة لرغباتنا وأفكارنا الخفية . ولكنه وان كان كذلك ، لغة خرجت عن سيطرتنا ، انها لغة مختلطة ، انها

ثرثرة تهرف ولا تحس بأنها مسئولة • وقد احزنتني هذه الفكرة كثيرا ، فبدأت افكر وأقول : اذا كانت الظواهر التي خلقها بنو الانسان هي حقا كالكلمات فى اللغة فأي ضرب من اللغة نطمح اليه ؟ ان كل هذا النسق من التفكير ومض فى ذهني مع الجواب الذي سبق السؤال :

لغة جسد وورد

« آمل ان هذا المثال يوضح للقارىء ما أعنيه من كلمة « الالهام » ، « فالبيت » الذي مر آنفاً انما هو طريقة من التفكير على نحو خيالي ، فان كان هذا « البيت » يشتمل على أفكار ، فلابد اذن ان توضح هذه الافكار فى أبيات اخرى وهذا هو تحدي الشعر المفزع ، أفأنا قادر على اظهار منطق الصور ؟ فما أسهل ان أشرح هنا القصيدة التي أحب ان انظمها ، ولكن ما أصعب أمر نظمها ! ذلك لان نظمها يتضمن أن أعيش مسيرتي خلال التجربة المصورة لكل تلك الافكار، وهي هنا لا تعدوكونها مجردة ، ويحتاج جهد تجربة خيالية كهذه الى حياة كاملة من الصبر والمراقبة[١٠٠] » •

ويبدو ما كتبه سبندر طريفا حقا ، ولكنه حاول مع ذلك أن ينفصل عن سبندر الشاعر فيراقبه عن كثب ، ويكتب فى أمر شاعريته محللا ظواهرها كما تحلل ، فى العادة ، غيرها من ظواهر الحياة • أجل لقد تحدث فى كل شيء الا هذه الهزة التي تنبعث فى النفس ساعة النظم والا هذه الموسيقى التي تضج فى الاعماق وما يشبه الغيبوبة مما ينتهي فى أثنائها وجود الشاعر الواعي أو تبعد به عرائس الشعر الى آفاق غير مطروقة أو أودية غير مسلوكة هي أودية عبقر موطن الشعر ومنبع الالهام •• ولكن ما كتبه هذا الشاعر ، بالرغم من كل ذلك ، يتسم بالطرافة ، كما ذكرت ، لمراقبته الدقيقة وسرده المستنير ، وقد احسبه اختار الطرق التي يمكن السير فيها فى مثل هذه

---

(١٠٠) المرجع السابق ، ص ١١٧ـ١١٩ •

الاحوال ، ولو ارتاد غيرها لاعتسف طريقه فى مظلمة لا يجد فى أعقابها صبحاً ، ويهماء ليس فى سمائها نجوم •

ونصل بهذا الى نهاية مطافنا ، أو تقف بنا طريقنا فيما يبدو انه نهاية المطاف ، وما اخاله كذلك ، فما يتصل بتجارب الشعر والالهام لا يمكن أن تحيط به صفحات قليلة أو تفصل فى أمره مقالة أو بضع مقالات • ولكنها محاولة ، وحسب المرء أن يحاول ارتياد الطريق •

## المصادر والمراجع العربية والاجنبية

**العربية :**


ابن طباطبا ، محمد بن أحمد العلوي ، عيار الشعر ، القاهرة ، ١٩٥٦

ابن قتيبة ، أبو محمد عبدالله بن مسلم ، الشعر والشعراء ، بيروت ، ١٩٦٤

الاصفهاني ، أبو الفرج علي بن الحسين ، الاغاني (طبعة دار الكتب)

الاعشى ، ميمون بن قيس ، ديوان الاعشى ، بيروت ، ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦٠م

بدوي ، أحمد أحمد ، اسس النقد الادبي عند العرب ، القاهرة ، ١٩٦٠م

الجاحظ ، أبو عثمان عمر بن بحر ، البيان والتبيين ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦٠م •

ذو الرمة ، غيلان بن عقبة ، ديوان شعر ذى الرمة ( مكارتني ) كمبرج ، ١٩١٩م ـ ١٣٣٧هـ •

السكري ، أبو سعيد الحسن بن الحسين بن عبيدالله ، شرح ديوان كعب بن زهير ، ( نسخة مصورة عن ط • دار الكتب ) ١٣٦٩هـ ـ ١٩٥٠م •

غرنباوم ، غوستاف فون ، دراسات فى الادب العربي ، بيروت ، ١٩٥٩

القرشي ، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب ، جمهرة أشعار العرب ، القاهرة ، ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧ م •

القيرواني ، أبو اسحاق ابراهيم بن علي الحصري ، زهر الآداب ، القاهرة ، ١٣٧٢هـ ـ ١٩٥٣م

القيرواني ، أبو علي الحسن بن رشيق ، العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م .

المرتضى ، علي بن الحسين، امالي المرتضى ، القاهرة ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٤م

المزرباني ، أبو عبيدالله محمد ، الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء ، المطبعة السلفية ، ١٣٤٣هـ

**الاجنبيـــة :**

Connolly, Francis, The Types of Literature, New York, 1955.

Daiches, David, Critical Approaches to Literature, London, 1955.

Chiselin, Brewster (editor), The Creative Process, New York, 1955.

Gurrey, P., Appreciation of Poetry, Great Britain, 1955.

Hyman, S.E., The Critical Performance, New York, 1956.

Nicholson, Reynold, A Literary History of the Arabs, Cambridge, 1956,

Virgil, The Aeneid, ( translated by Jackson Knight ) (Penguin), London, 1956.

Wellek, Rene and Austin, W., Theory of Literature, London, 1948.

Wimsatt, William K., JR. and Brooks, C., Literary Criticism, New York, 1957.

Zweig, Stefan, The Tide of Fortune (Translated into English by Eden and Cedar Paul), Edinburgh, 1942.

# احكام الجنون والعته في الشريعة والقانون

## بحث مقارن

**عبدالله عبدالحميد السامرائي**

**المدرس بقسم الدين**

سنتاول في بحثنا هذا حكم تصرفات كل من المجنون والمعتوه في الشريعة الاسلامية والقانون الوضعي ( المدني والجزائي ) ابتداء بحكم الجنون ثم حكم العته مع المقارنة وقد راعيت ان يكون البحث موجزا ليكون متناسبا مع ما يجب ان تكون عليه البحوث التي تنتشر في مجلة الكلية عادة .

**(١) احكام الجنون في الشريعة الاسلامية :**

الجنون في اللغة زوال العقل أو فساده[١] .

وفي الشرع :- عرفه بعض علماء اصول الفقه بأنه : ( اختلال القوة المميزة بين الامور الحسنة والقبيحة المدركة للعواقب )[٢] .

وعرفه آخرون بأنه ( اختلال العقل بحيث يمنع جريان الافعال والاقوال على نهج العقل الا نادرا )[٣] .

وعرفوا العقل بأنه : ( قوة في الطبيعة تنزل في القلب منزلة البصر في العين )[٤] .

---

(١) المنجد لويس معلوف - راجع الفعل جن ص ١٠٧ ط٥ .

(٢) مرآة الاصول - منلا خسرو - ص ٣٢٦ .

(٣) التوضيح شرح التنقيح - بهامش التلويح - لصدر الشريعة عبيدالله بن مسعود . البخاري - ج٢ ص ١٦٧ والتلويح لسعد الدين التفتازاني .

(٤) كشف الاسرار على اصول البزدوسي - عبدالعزيز البخاري ج ٤ ص ١٣٥٢ .

اقسام الجنون : قسم الفقهاء المسلمون الجنون الى جنون ممتد وجنون متقطع .

فاذا كان جنونه ممتدا اى يستوعب جميع أوقاته ووصفوه بالجنون المغلوب على عقله للتفرقة بينه وبين من ينقطع جنونه بفترات افاقه .

أما الجنون المتقطع فهو الذى تتخلله فترات صحو ( افاقة ) يصير خلالها عاقلا ، وقالوا عن الاول بأنه عديم الاهلية وأما الثاني فأهليته كاملة خلال فترات الافاقة ويكون عديم الاهلية فى فترات جنونه . وقالوا ان تصرفاته فى حال الافاقة موقوفة فى حين ذهب صاحب حاشية الشلبى الى القول ان كان لافاقته وقت معلوم فتصرفاته نافذة واذا لم يكن وقت معلوم فتكون تصرفاته موقوفه(٥) .

وقد أوردت المجلة حكم تصرفات المجنون فى هاتين الحالتين فى المادتين ٩٧٩ و ٩٨٠ فنصت فى المادة ٩٧٩ بالقول ( المجنون المطبق هو فى حكم الصغير غير المميز ) فيكون عديم الاهلية وتصرفاته باطلة . وفى المادة ٩٨٠ قالت ( تصرفات المجنون غير المطبق فى حال افاقته كتصرفات العاقل ) أى ان اهليته كاملة وتصرفاته صحيحة .

كما قسموا الجنون بالنسبة لوقت حدوثه الى قسمين جنون اصلى وجنون طارىء .

فالجنون الاصلى هو ما حدث قبل البلوغ واستمر الى ما بعد البلوغ .

اما الجنون الطارىء فهو الذى يطرأ على الانسان بعد بلوغه عاقلا وهو محجور بنفس الجنون فلا يحتاج حكم حاكم ووليه ابوه ثم وصيه ثم جده ثم وصيه ثم القاضى .

---

(٥) تبين الحقائق ـ شرح كنز الدقائق ـ الزيلعي ـ ج ٥ ص ١٩١ . وبهامشه حاشية الشلبي .

**احكام تصرفات المجنون :ـ**

تنقسم التصرفات بصورة عامة الى قسمين :ـ

تصرفات قولية وتصرفات فعلية .

أ ـ التصرفات القولية : ـ وهذه تشمل العبادات والمعاملات والزواج والطلاق والعتق .

والتصرفات القولية وهى التى تترتب آثارها الشرعية بناء على القول الصادرعن ارادة حرة والارادة الحرة لا تكون الا بالعقل والاختيار .والمجنون لا ارادة له ولا اختيار فهو عديم الارادة وبهذا يختلف عن المكره فى ان الاخير له ارادة لكنها تعيبت أو تعطلت بضغط من الغير ولذلك لا نقول بأن ارادة المجنون قد تعيبت[٦] .

فالتصرفات القولية بما فيها العبادات لا تصح من المجنون ، فالعبادات لا تصح منه لعدم التكليف لان المجنون غير مخاطب بأحكام الشرع ولانه لا يفهم الخطاب ولا يمكن ان يعلم به وبالتالى فان القدرة على اداء التكاليف الشرعية لا تتحقق بدون العلم واذا صار الانسان عاجزا عن الاداء انعدم الوجوب عليه ؛ اذ لا فائدة من الوجوب بدون الاداء[٧] والصبي المميز مع انه احسن حالا من المجنون لوجود نوع من التمييز لديه ومع هذا فهو غير مكلف بالواجبات الشرعية فالجنون عارض يعدم الاهلية كالاغماء والنوم الا ان هذين العارضين لا يسقطان التكاليف اذا كان اداؤها لا يؤدى الى الحرج فى حين ان الجنون مسقط للعبادات طال أم قصر ولكن وجد من الفقهاء من يقول بأن السقوط ليس مطلقا فاذا زال قبل انتهاء وقت العبادة وجبت استحسانا وعلى هذا فبالنسبة للصلاة يكون الجنون ممتدا اذا زاد على يوم

---

(٦) الوسيط ـ المرحوم الدكتور عبدالرزاق السنهورى ـ ج ١ ص ٢٩٩ .

(٧) كشف الاسرار ـ عبدالعزيز البخارى ـ ج ٤ ص ١٣٨٤ .

وليلة بساعة وهذا عند الامام ابي حنيفه ، اما عند الامام محمد فيكون الامتداد بعدد الصلوات لا بالوقت فاذا استغرق الصلاة السادسة اعتبر ممتدا وبهذا تسقط الصلاة عنه اذا افاق بعد الصلاة السادسة لا قبلها .

وبالنسبة للصوم فان الجنون يعتبر ممتدا اذا استغرق شهر رمضان فلا يقضيه لعدم وجوبه عليه اما اذا افاق قبل نهايته أو جن بعد بدايته بيوم أو ايام ثم افاق بعد نهايته فيجب القضاء عليه وقال الامام ابو يوسف لا قضاء عليه فحكمه كحكم الصبي الذى بلغ خلال شهر رمضان[٨] .

وقال شمس الائمة الحلواني : لو افان المجنون في ليلة رمضان ثم اصبح مجنوبا ثم افاق بعد شهر رمضان فلا يجب عليه وهو الصحيح فى المذهب .

وفى الزكاة يتحقق امتداد الجنون اذا استمر حولا كاملا ودخل الحول التالي فعندئذ تسقط عنه الزكاة ، وفى رواية عن ابي يوسف اذا استغرق الجنون أكثر الحول سقط عنه الزكاة اى انه لا يشترط امتداد الجنون حتى يستغرق جميع الحول[٩] .

وذهب الشافعية الى وجوب الزكاة عليه والنفقات والضمانات اذا استغرق الجنون الحول أم لم يستغرق لان هذه الواجبات لا تتعلق بفعل المجنون بل بماله أو بذمته وكلاهما موجودان ويتولى الاداء عنه وليه وكذلك الحكم فى الصبى[١٠] وذهب المالكية مذهب الشافعية[١١] .

وفى ايمان المجنون :ـ قالوا لا يصح منه لتخلف ركنه وهو الاعتقاد

---

(٨) التوضيح شرح التنقيح ـ عبدالله بن مسعود البخارى ـ بهامش التلويح جـ٢ ص ١٦٧ .

(٩) التلويح على التوضيح ـ سعدالدين التفتازانى ـ جـ٢ ص ١٦٨ .

(١٠) الاحكام فى اصول الاحكام ـ الآمدى ـ جـ ١ ص ٧٨ .

(١١) مباحث الحكم ـ سلام مدكور ـ ص ٢٨٦ .

ولا اعتقاد صحيح لدى المجنون لعدم العقل ، لكن يصح اسلامه تبعا لابويه كليهما أو احدهما لان الاسلام نفع محض له • اما اذا كانت زوجته قد اسلمت فأن الاسلام لا يعرض عليه بل على وليه فأن اسلم بقيت الزوجية والا فرق بينهمـا •

وفى كفـره :ـ قالوا يثبت كفر المجنون تبعا لابويه الكافرين فاذا ارتد الابوان اعتبر ولدهما المجنون مرتدا تبعا لهما ولكن لا تجب عليه عقوبـة الردة لعدم ارتداده بنفسه كما ان العقوبة غير مجدية فى حقه •

واذا بقي المجنون كافرا تبعاً لابويه وبقيت زوجته على الاسلام فـان القياس يقضي بتأجيل الحكم بالتفريق بين الزوجين حتى يفيق الزوج كما هو الحكم فى الصبي غير انه لما كان وقت الافاقة غير معلوم فـان الزوجـة تتضرر بتركها معلقة فاستحسنوا عرض الاسلام على ابويه فان رفض عوقب بعقوبة الردة وفرق بين الزوجة المسلمة وزوجها المجنون • واذا لحق ابواه بدار الحرب وتركاه فى دار الاسلام اعتبر مسلما وكذلك الحكم اذا بقي أحد أبويه ولحق الآخر دار الحرب لان الاسلام يستفاد بأحد الابوين أو بالـــدار •

زواج المجنون :ـ يصح زواج المجنون بعبارة وليه اذا رأى فيـــه مصلحة له وهذا فى الرجل والمرأة • ويرى الامام الشافعي ان جواز التزويج قاصر على البالغين دون الصغار لان المنفعة تتحقق فى الكبار لتحقق الاشتهاء أو ازالة العلة عندما يقرر ذلك أهل الخبرة ومنهم اطباء الامراض العصبية والنفسية(١٣) •

اما طلاقة فلا يقع ، قال صاحب الاختيار ( والصبي والمجنون لا يصح طلاقهما وعتاقهما واستدل بقول النبي (ص) « كل طلاق واقـع الاطـلاق

---

(١٢) التلويح على التوضيح ـ سعدالدين التفتازانى ـ جـ٢ ص ١٦٨ •
(١٣) مباحث الحكم ـ سلام مدكور ـ ص ٢٨٨ •

الصبي والمعتوه »[١٤] .

أما اذا كان المجنون قد علق طلاقه على أمر وهو عاقل ثم تحقق الامر أو الشرط بعد جنونه فان طلاقه يقع وكذلك اذا كان قد فوض الطلاق لزوجته فأوقعته بعد جنونه وما دام الطلاق من حق الزوج فلا يملكه غيره الا بالتفويض فان وليه على رأى جمهور الفقهاء لا يملك حق ايقاع الطلاق عن ابنه المجنون لقوله (ص) فيما رواه ابن ماجد فى سننه « انما الطلاق لمن أخذ بالساق » وذهب عطاء وقتادة جواز ايقاعه من قبل الاب أو الولي اذا كان غير الاب ، فقد روى الامام احمد بن حنبل عن ابن عمره (رض) « ان المعتوه اذا عبث بأهله طلق عليه وليه »[١٥] .

وفى اعتاقه وهبته فأن هذه التصرفات لا تصح منه اذ لا عبارة للمجنون كما لا يملكها عنه وليه لانها من التصرفات الضارة ضررا محضا[١٦] .

والحكم فى معاملاته قالوا لا يصح بيعه ولا شراؤه ولا اجارته ولا كفالته ولا رهنه بل يتولى كل هذه التصرفات وليه نيابة عنه ومما يجدر ذكره فان الولي ممنوع من اجراء التصرفات الضارة بالمجنون ضررا محضا كأن يهب أو يتبرع من مال المجنون .

ب ـ التصرفات الفعلية :ـ اذا ارتكب المجنون جناية فلا حد عليه ولا كفارة[١٧] لعدم جدوى القصاص فى حقه الا انه تجب الدية على عاقلته كما لا يعاقب فى الجريمة العمدية لعدم القصد .

ويضمن قيمة ما اتلف واستهلك أو سرق لان حقوق العباد غير قابلة

---

(١٤) الاختيار فى تعليل المختار ـ محمود بن مولود الموصلى ج ٣ ص ٩٤ و ٩٥ .

(١٥) المغنى لابن قدامة ج ٧ ص ١٨٧ .

(١٦) كشف الاسرار ـ عبدالعزيز البخارى ـ ج ٤ ص .

(١٧) مرآة الاصول ـ منلا خسرو ـ ص ٣٢٦ .

للسقوط يدفعها وليه من مال المجنون .

اما اذا ارتكب الجناية وهو عاقل ثم جن اثناء المحاكمة فيرى المالكية ايقاف الدعوى ضده حتى يفيق واذا جن بعد الحكم عليه وقبل التنفيذ فيتوقف تنفيذ الحكم عليه فاذا اصبح شفاؤه ميئوسا منه سقطت العقوبة الا انه تجب الدية فى ماله[١٨] .

وفى عدم وجوب الكفارة عليه يرى الامام ابو حنيفه انها عبادة وهو ليس من اهلها لعدم التكليف فكما انه غير مكلف بالصوم فأنه غير مكلف ببديله وهو اطعام ستين مسكينا وقال الجمهور يجب فى ماله الاطعام فديه للصوم يؤديها الولي عنه[١٩] . واذا كان المجنون عديم اهلية الاداء التى هى اهلية التصرف الا ان اهلية الوجوب له وعليه كاملة لانها بناء على الذمة ، وعلى هذا فانه يتملك بالوصية والهبة له وبالميراث لان الارث خلافة الوارث للمورث كما تثبت له الحقوق وعليه اذا اجراها الولي نيابة عنه فيتملك ما يشتريه الولي لحسابه كما يثبت له النسب من ابيه ويستحق غلة الوقف اذا كان هو احد المنتفعين . والجنون يسلب الولاية فلا ولاية له على احد لعدم ولايته على نفسه واذا كان وليا على أحد فتنسلب الولاية عنه[٢٠] .

**(٢) احكام الجنون في القانون :**

عرف شراح القانون الجنون بأنه : ( اضطراب يلحق العقل فيعدم عند صاحبه الادراك والتمييز )[٢١] .

---

(١٨) مباحث الحكم ـ سلام مدكور ـ ص ٢٨٢ .

(١٩) المغنى ـ ابن قدامة ـ جـ ٧ ص ٧٧٦ وذهب الشافعية الى القول بأن عمده عمد اذا كان له ادنى تمييز كالصبي المميز ( نهاية المحتاج شهاب الدين الرملي ـ جـ ٣ ص ٣٤٢ .

(٢٠) نهاية المحتاج ـ شهاب الدين الرملي ـ جـ٣ ص ٣٤٨ .

(٢١) نظرية الحق ـ عبدالفتاح عبدالباقى ـ ص ١١٣ .

كما عرفه آخر بأنه ( ذهاب العقل وفقده لآفة اصابت الشخص )[٢٢] . فالمجنون من لا عقل له حتى اختل توازنه فى التصرفات ويكون عديم الاهلية[٢٣] لانعدام التمييز فتكون جميع تصرفاته باطلة لانه لم يقصدها تنصرف ارادته اليها لعدم القصد والارادة عنده[٢٤] وهذا موافق لما ذهب اليه الفقهاء المسلمون .

وقد اشارت الى هذا الحكم المادة (١١٤) مدنى مصرى فى فقرتها الاولى فقالت ( يقع باطلا تصرف المجنون والمعتوه اذا صدر التصرف بعد تسجيل قرار الحجر ) .

فالقانون المدنى المصرى يقرر اذا كان تصرف المجنون قد صدر قبل تسجيل قرار الحجر فانه يعتبر صحيحا أى أن المجنون غير محجور بنفس الجنون خلافا لما هو عليه فى الفقه الاسلامى حيث يعتبر محجورا بنفس الجنون دون حاجة الى صدور قرار بذلك من المحكمة المختصة ومع ذلك فقد أورد القانون المدنى المصرى استثناءين اعتبره فيهما محجورا بنفس الجنون اى قبل صدور قرار الحجرهما :ـ

(١) اذا كانت حالة الجنون معروفة لدى الناس أى شيوع حالته ومع هذا الشيوع تعامل معه شخص فيدل على سوء نيته باستغلاله حالة الجنون فيكون التصرف باطلا .

(٢) اذا لم تكن حالة الجنون شائعة ولكن الشخص الذى تعامل معه على علم بحالته .

أما القانون المدني العراقي فقد اعتبر المجنون محجوراً بنفس الجنون.

---

(٢٢) المدخل للقانون الخاص ـ الدكتور عبدالمنعم البدراوى ص ١٥٩ ط ١ .

(٢٣) المدخل للعلوم القانونية ـ الدكتور سليمان مرقس ص ٥٧٠ .

(٢٤) الوسيط ـ الدكتور عبدالرزاق السنهورى ـ جـ ١ ص ٢٨٩ .

دون حاجة الى صدور حكم من المحكمة وعلى هذا فان جميع تصرفاته باطلة ولا مجال لمن يتعامل معه بالاحتجاج بعدم علمه بحالة الجنون ، فنصت المادة ( ٩٤ مدنى عراقى ) على ما يلى : ( الصغير والمجنون والمعتوه محجوورون لذاتهم ) وهذا موافق لما قرره الفقهاء المسلمون ، وقد اوردت هذا الحكم مجلة الاحكام العدلية فى المادة (٩٥٧) فنصت ( الصغير والمجنون والمعتوه محجورون لذاتهم ) ويلاحظ انه نفس النص الذى اورده المشرع العراقى •

**الجنون المطبق والجنون المتقطع :ـ**

لم يفرق القانون المدنى المصرى بين الجنون المطبق ( المستمر ) وبين الجنون المتقطع فقد اعتبرهما فى الحكم سواء فالمصاب بجنون متقطع اذا تصرف فى حال افاقته فان تصرفاته تكون باطلة بطلانا مطلقا خلافا لما ذهب اليه الفقهاء المسلمون •

اما القانون المدنى العراقى :ـ فقد فرق بينهما فى الاحكام ، فالمادة ( ١٠٨ ) عراقى تنص على هذه التفرقة فتقول ( المجنون المطبق هو فى حكم الصغير غير المميز اما المجنون غير المطبق فتصرفاته فى حال افاقته كتصرفات العاقل ) وفى هذا ساير القانون العراقى الفقه الاسلامى واقتبس هذا النص من المجلة وهو نص المادة (٩٧٩) فقالت « المجنون المطبق هو فى حكم الصغير غير المميز » ومن نص المادة (٩٨٠) مجلة حيث يقول « تصرفات المجنون غير المطبق فى حالة افاقته كتصرف العاقل » ويلاحظ ان القانون المدنى العراقى قد اقتبس نص المادتين وجعلهما مادة واحدة هى المادة ( ١٠٨ ) •

كما يلاحظ ان المشرع العراقى قد وضع عبئاً على القاضى ليتحرى عما اذا كان المجنون قد اجرى التصرف فى حال افاقته ام فى حال جنونه فى حين ان المشرع المصرى قد حسم الامر بعدم اعتبار حال الافاقة واذا كان الفقه الاسلامى قد اعتبر تصرفات المجنون فى حال الافاقة صحيحة فأنه قد

لاحظ حرية الانسان العاقل فى التصرف بأمواله كما ان فساد الذمم لم يكن شائعا هو عليه فى الوقت الحاضر كما ان المشرع المصرى قد رفع تكليفا آخر عن عبء القاضى وذلك بأعتبار تصرفات المجنون قبل صدور قرار الحجر أو قبل تسجيل قرار الحجر صحيحة ونحن نرجح مذهب الفقهاء المسلمين والقانون المدني العراقى حيث اعتبرا المجنون محجورا بنفس الجنون فلا تصح تصرفاته اذ لا يمكن القول بصحة تصرفات المجنون قبل صدور قرار الحجر ولا يكفى ايراد الاستثناءين اللذين اوردهما المشرع المصرى .

وقد حاول الدكتور عبدالفتاح عبدالباقى ان يعتبر تصرفات المجنون قبل صدور قرار الحجر باطلة لانعدام الارادة حماية للمجنون من استغلال المستغلين ، فقال ببطلانها لعدم الارادة[٢٥] . غير ان هذا الرأى لا يسلم من النقد لان عدم الارادة ناتج عن الجنون فيقف نص المادة حائلا دون الاحتجاج به . كما شاركه هذا الرأي الدكتور عبدالحي حجازي ولكن دون ان يوضح[٢٦] .

## ( احكام تصرفات المجنون فى القانون )

### أ ـ التصرفات القولية

تصرفات المجنون القولية باطلة فهو فى الحكم كالصغير غير المميز حتى ولو كان التصرف نافعا له نفعا محضا فلا يستطيع أن يقبل الهبة بل يباشر عنه وليه كما ان الولي ليس له ان يباشر التصرفات الضارة بالمجنون ضررا محضا فلا يهب ولا يتبرع من ماله وهذا فى القانون المدنى العراقى .

---

(٢٥) نظرية الحق ـ عبدالفتاح عبدالباقى ص ١١٧ ط ٢سنة ٩٥٦ .
(٢٦) نظرية الحق ـ عبدالحي حجازى ـ ص ١١٨ .

اما فى القانون المدنى المصرى فقد فرق بين حالتين :ـ

١ ـ تصرفات المجنون قبل تسجيل طلب الحجر أو قبل صدور قرار الحجـــر •

٢ ـ تصرفاته بعد تسجيل طلب الحجر أو بعد صدور القرار •

**الحالـة الاولى :**

اذا كان التصرف صادرا قبل تسجيل قرار الحجر فى السجل الخاص الذى ذكرته المادة ١٠٧ من قانون المحاكم الحسبية أو قبل تسجيل عريضة طلب الحجر فان هذا التصرف يعتبر صحيحا بالنسبة للمتعاقد حسن النية ، اما اذا كان المتعاقد سيء النية فأن التصرف يعتبر باطلا •

**الحـالة الثانيـة :**

التصرفات الصادرة بعد تسجيل طلب الحجر أو بعد صدور قـرار الحجر • ان هذه التصرفات جميعا باطلة سواء كان المتعاقد مع المجنون حسن النية أو سيء النية •

**ب ـ التصرفات الفعلية :**

يؤاخذ المجنون بتصرفاته الفعلية اذا أحدث ضررا للغير ولكن القانون المصرى جعل المؤاخذة على من هو مسئول عن المجنون خلافا للفقه الاسلامى• غير انه جعل المجنون مسئولا فى ماله على سبيل الاستثناء فى حالتين :

١ ـ اذا لم يكن هناك من هو مسئول عنه •

٢ ـ اذا تعذر الحصول على التعويض ممن هو مسئول عنه •

وقد اوردت هذه الاحكام المادة ١٦٤ مدنى مصرى فى الفقرة (٢) اما المادة (١٧٣) فنصت بالقول فى فقرتها الثالثة ( ولـكى يتخلص من كـــان المجنون تحت مسئوليته من الالتزام بدفع التعويض يتعين عليه ان يثبت ان

الضرر كان لابد واقعاً ولو قام بهذا الواجب بما ينبغى من العناية )[٢٧].

فلكي يتخلص المسئول عن المجنون من الالتزام بتعويض الضرر الذى احدثه المجنون ينبغي عليه ان يثبت بأنه قائم بواجبه خير قيام وان الاعتداء يقع من المجنون حتى ولو بذل اقصى ما يمكن بذله من العناية فالقانون المصرى الزم المسئول عن المجنون بدفع التعويض من ماله الخاص لا من مال المجنون خلافا لما هو فى الفقه الاسلامى .

اما القانون المدنى العراقى فقد اتخذ مبدأ الزام المجنون فى ماله لتعويض الضرر الذى احدثه للغير ، اما اذا لم يوجد مال لدى المجنون فأن المسئول عنه يدفع التعويض من ماله الخاص وهو الولي أو القيم الوصي ، الا أن لهؤلاء الحق فى الرجوع على المجنون لاستيفاء ما دفعوه تعويضات عن الضرر الذى احدثه متى توفر المال لدى المجنون . وقد نصت على هذه الاحكام المادة (٢٩١) مدنى عراقى فى الفقرة الاولى فنصت ( اذا اتلف صبي مميز أو غير مميز أو من فى حكمها لزمه الضمان من ماله ) .

وفى الفقرة الثانية ( واذا تعذر الحصول على التعويض من أموال من وقع منه الضرر ان كان غير مميز أو مجنون جاز للمحكمة ان تلزم الولي أو القيم أو الوصي بمبلغ التعويض على ان يكون لهذا الرجوع بما دفعه على من وقع منه الضرر ) .

فالقانون المدنى المصرى جعل المسئولية على من هو مسئول عن المجنون حيث افترض تقصيره واهماله فى امساك المجنون فرتب عليه مسئولية مدنية فاذا اراد الولي ان يتخلص من المسئولية فعليه ان يثبت قيامه بواجبه خير قيام وان الاعتداء واقع مع كل ما بذله من رقابة .

اما فى القانون الجنائي فأن المجنون غير مسئول جنائيا عن فعله فلا

---

(٢٧) الفقرة ٣ م ١٧٣ مدني مصرى .

يعاقب بالعقوبات البدنية كالاعدام أو السجن وعلى هذا نصت المادة (٦٠) من قانون العقوبات العراقي فقالت ( لا يسأل جزائيا من كان وقت ارتكاب الجريمة فاقد الادراك أو الارادة لجنون أو عاهة في العقل ) .

كما نصت المادة ٢٣٢ من قانون اصول المحاكمات الجزائية العراقي على عدم مسئولتيه عن الجريمة التي ارتكبها وعدم توجيه التهمة اليه وبالتالي عدم محاكمته اذا ثبت لديها قيام حالة الجنون وقت ارتكاب الجريمة كما قررت تسليمه الى أحد ذويه لقاء ضمان يتعهد فيه ببذل العناية اللازمة وذلك بعدم تركه دون رقابة تحول بينه وبين الاعتداء على الناس أو على ممتلكاتهم والحاق الضرر بهم .

اما اذا طرأ الجنون بعد ارتكاب الجريمة سواء كان ذلك اثناء التحقيق أو خلال المحاكمة فتوقف اجراءات الدعوى ويوضع تحت الحراسة في احدى المؤسسات الصحية الحكومية المتخصصة بمعالجة الامراض العقلية اذا كان قد ارتكب جريمة لا يجوز اطلاق سراحه فيها بكفالة اما فيما عدا ذلك من الجرائم فلا فرق في ان يوضع في مؤسسة حكومية أو اهلية على نفقة المجنون بطلب من ممثله القانوني ( الولي أو وكيله ) أو على نفقه ذويه بكفالة شخص ضامن على ان يجرى فحصه بين حين وآخر من قبل هيئة رسمية مختصة لتقدم تقريرها عن حالته العقلية الى المحكمة[٢٨] اما اذا طرأ الجنون بعد صدور الحكم وايداعه السجن فقد اشارت الى هذه الحالة المادة ٢٨٣ من قانون اصول المحاكمات العراقي في فقرتها الثالثة فقررت ان يوضع تحت الحراسة وذلك بأخراجه من السجن وايداعه في احدى المؤسسات الصحية الحكومية المختصة بالامراض العقلية حتى انتهاء مدة

---

(٢٨) المادة : ٢٣٠ من قانون اصول المحاكمات الجزائية العراقي رقم ٢٣ لسنة ١٩٧١ .

العقوبة فاذا شفي قبل انتهاء مدة الحبس يعاد الى السجن ثانية على ان تحتسب له المدة التى قضاها فى المؤسسة الصحية .

واذا كان المجنون غير مسئول جنائيا عن جريمته فأن هذا لا يمنع المتضرر من المطالبة بتعويض الاضرار التى احدثها فيقيم الدعوى على الشخص المسئول عنه وهو الولي أو الوصي او القيم مطالبا بالتعويض وقد نصت على هذا الحكم المادة (١٢) من قانون اصول المحاكمات الجزائية العراقى . فقالت ( اذا كان المتهم غير أهل للتقاضى مدنيا رفعت الدعوى على من يمثله قانونا ان وجد والا عينت المحكمة من يمثله تطبيقا للمادة (١١) )[٢٩] .

**(٣) احكام العته في الشريعة الاسلامية :**

تعريف العته ومعناه :ـ

العته فى اللغة نقص فى العقل وقيل ان المعتوه هو المدعوش من غير مس جنون[٣٠] .

وفى الشرع : عرفوه ( بأنه اختلال فى العقل بحيث يختلط كلامه فيشبه مرة كلام العقلاء ومرة كلام المجانين )[٣١] .

كما عرفوه ايضا بأنه ( من كان قليل الفهم مختلط الكلام فاسد التدبير الا انه لا يضرب ولا يشتم كما يفعل المجنون ) كما قالوا بأنه المدهوش من غير جنون[٣٢] .

---

(٢٩) المادة : ١١ من قانون اصول المحاكمات الجزائية العراقى تنص على ( اذا كان من لحقه ضرر من الجريمة غير اهل للتقاضي مدنيا فينوب عنه من يمثله قانونا واذا لم يوجد فعلى حاكم التحقيق أو المحكمة تعيين من يتولى الادعاء بالحق المدنى نيابة عنه .

(٣٠) المنجد ـ لويس معلوف ـ الفعل عته ـ طه ٥ ص ٤٨٦ .

(٣١) التوضيح ـ شرح التنقيح ـ وكلاهما لصدر الشريعة ـ عبيدالله ابن مسعود البخارى بهامش التلويح ـ لسعدالدين التفتازانى . ج ٢ ص ١٦٨ .

(٣٢) تبين الحقائق ـ شرح كنز الدقائق ـ الزيلعي ج ٥ ص ١٩١ .

وقد اختلف الفقهاء فى تحديد معنى العته كما اختلفوا فى احكامه فمنهم من اطلق لفظ العته واراد به الجنون ومنهم من اطلق لفظ الجنون واراد به العته وفريق لم يفرق بين العته والجنون فى حين ذهب فريق آخر الى التفرقة بينهما فى الماهية والحكم .

وفى هذا يقول صاحب تبين الحقائق ( واختلفوا فى تفسيره اختلافاً كثيراً )[٣٣] .

فصاحب الهداية يقول : ( والصبي والمجنون لا تصح عقودهما ولا اقرارهما ولايقع طلاقهما ولا عتاقهما) مستشهدا بقول النبي (ص) « كل طلاق واقع الاطلاق الصبي والمعتوه » فهو يتكلم عن تصرفات المجنون ويستشهد بحديث ورد فيه لفظ المعتوه فى حين ان صاحب الهداية نفسه يعرف المعتوه بانه ( من لا يرجح المصلحة عن المفسدة وقال عنه « انه يصح ان يكون وكيلا عن غيره »[٣٤] وهذا يعني ان المعتوه عنده غير المجنون .

وقد اورد البخارى قول الامام علي بن ابي طالب (ض) : ( كل الطلاق جائز الا طلاق المعتوه ) كما اورد قول سيدنا عثمان بن عفان (رض) ليس لمجنون ولا لسكران طلاق )[٣٥] .

وجاء فى سبل الاسلام ( واما المجنون فالمراد به زائل العقل[٣٦] حين تكلم فى حديث النبي (ص) « رفع القلم .... وعن المجنون حتى يعقل ويفيق ) ومن هذا يتضح ان الاحاديث والاخبار المروية عن الرسول

---

(٣٣) نفس المرجع .
(٣٤) الهداية ـ المبرغناني ـ ج ٣ ص ٢٠٤ .
(٣٥) صحيح البخارى ـ لابي عبدالله محمد بن اسماعيل البخارى ـ ج ٧ ص ٦٠ ، ٦١ ـ كتاب الشعب
(٣٦) سبل السلام ـ شرح بلوغ الحرام ـ للصنعاني ـ ج ٣ ص ١٨١ .

«(ص) وعن الصحابة الكرام تضمنت لفظ المعتوه وفسره الفقهاء والمفسرون بأن المراد به المجنون مع ان بعض تلك الاحاديث ذكرت لفظ المجنون كما نجد من يطلق لفظ المعتوه ويصفه بمن لا يميز فيقول ( واما من لايجوز تصرفه فى الحال فأن كان ممن لا يميز كالمعتوه والمبرسم ومن عاين الموت لاتصح وصيته)[٣٧] فى حين نجد غيره من يطلق عبارة ( المجنون المميز) فيقول ( والمجنون اذا كان له ادنى تمييز كالصبي المميز ) فيعترض السبكى والاذرعي على هذا الرأى فيقولان ( انه ان ازال عقله فمجنون والا فهو مكلف وتصرفه صحيح فأن بذر فكسفيه )[٣٨] .

واذا وجد من يقول بوجود مجنون مميز وانه فى الحكم كالصبي المميز نجد آخر يقول بأن المعتوه فى الحكم كالصبي العاقل وبالتالى يكون كالمجنون الذى له ادنى تمييز فقد جاء فى التبيين ( والمعتوه كالصبي العاقل فى تصرفاته ورفع التكاليف وهو الناقص العقل )[٣٩] . كما يقول عن المعتوه بأنه الذى يجن ويفيق ( قال الاتقاني واراد بالمجنون المغلوب الذى يجن ولا يفيق وهو المغلوب على عقله وهو احتراز عن الذى يجن ويفيق وهو المعتوه )[٤٠] وقال عن حكم تصرفاته كحكم تصرفات الصبى ففى حال افاقته كالعاقل ويقول صاحب التبين معلقا على قول الاتقاني ( يقتضي أن تصرفاته نافذة حال الافاقة) والذى زجحه ان الاتقاني برى بان تصرفاته نافذة حين يفيق وموقوفه فى حالة عدم الافاقة .

واذا كنا قد أوردنا رأى من يقول بأن المعتوه فى تصرفاته كالصبي العاقل نجد فريقا آخر يرى بأن المعتوه فى تصرفاته كالمجنون فيقول

---

(٣٧) المهذب ـ الشيرازى ـ جـ ١ ص ٤٥٥ كتاب الوصايا .
(٣٨) نهاية المحتاج ـ شهاب الدين الرملي ـ جـ ٣ ص ٣٤٢ .
(٣٩) تبين الحقائق ـ شرح كنز الدقائق ـ للزيلعي جـ ٥ ص ١٩١ .
(٤٠) نفس المرجع .

أبو اليسر ( ان العته نوع جنون لان المعتوه لا يستطيع تقدير عواقب أقواله وافعاله )[٤١] ومن هذا الرأى عبدالحميد الضرير فيقول ( كالمجنون فلا يعرض الاسلام عليه بل على وليه لان العته لا حد له )[٤٢] .

واذا كان بعض الفقهاء قال بأن تصرفات المعتوه فى الحكم كتصرفات المجنون فاننا قد أوردنا تلك الاحكام فى بحث الجنون فلا حاجة للاعادة ولكننا سنبحث هنا آراء الفقهاء الذين ذهبوا الى القول بأن تصرفاته فى الحكم كتصرفات الصبى العاقل أو كتصرفات السفيه فى الاموال دون تصرفاته الاخرى .

**١ ـ احكام تصرفات المعتوه :**

سنتكلم عن تصرفات المعتوه القولية وتصرفاته الفعلية كما سنتضمن ما يتعلق منها بحقوق الله وما يتعلق منها بحقوق العباد :

**آ ـ التصرفات القولية :**

(١) الايمان :ـ اذا كان المعتوه غير مسلم فهل يصح عرض الاسلام عليه ، ذهب بعض الفقهاء الى القول بأن المعتوه كالمجنون فلا يصح عرض الاسلام عليه بل يعرض على وليه لان العته لا حد له فهو ليس كالصغير لان هذا الاخير له حد ينتهي اليه وهو البلوغ[٤٣] . وذهب فريق آخر الى القول بصحة عرض الاسلام عليه لصحة ادائه للعبادات وان لم تجب عليه فى الاصل فاذا أداها صحت منه واذا اسلمت امرأته فلا يؤخر عرض الاسلام الى ان يعقل بل يعرض على وليه[٤٤] غير ان صاحب التلويح قال

---

(٤١) مرآة الاصول ـ منلا خسرو ـ ص ٣٢٩ .

(٤٢) كشف الاسرار على اصول البزدوى ـ الشيخ عبدالعزيز البخارى ـ ج ٤ ص ١٣٩٤ .

(٤٣) ذهب بعض الفقهاء الى القول بأن الكفر والايمان من التصرفات الفعلية لانها من فعل القلب لا من فعل اللسان .

(٤٤) التوضيح شرح التنقيح ـ صدر الشريعة عبيدالله بن مسعود ج ٢ ص ١٦٩ .

بعرض الاسلام عليه فهو فى هذا كالصبي العاقل[٤٥] ولان هذا من حقوق العباد وهو هنا حع الزوجة وهى حقوق غير قابلة للسقوط لان الحقوق التى تسقط عن العباد هي حقوق الله[٤٦] .

(٢) كفـــره :ـ فاذا كان المعتوه كالصبي العاقل فى الحكم فأنهم قالوا عن كفر الصبي ( يصح ارتداد الصبى فى حق احكام الآخرة اتفاقا ) . قال ابو حنيفه ومحمد ( رض ) ويصح ارتداده فى حق احكام الدنيا فتبين منه امرأته المسلمة ويحرم من ميراث مورثه المسلم . وقالوا عن الصبى لا يقتل بردته خلافا لابى حنيفة ومحمد ـ وعدم قتله لانه ليس من أهل المحاربه ـ .

(٣) عبـــاداته :ـ ( صومه ، صلاته ، حجه ، زكاته ) ان الاصل لا تجب عليه العبادات الا ان المعتوه اذا اداها صحت منه ، غير ان الامام الشافعى أوجب عليه الزكاة كما أوجبها على المجنون بل هو أولى ، وقال القاضي ابو زيد بوجود العبادات عليه[٤٧] .

(٤) زواجه وطلاقه وعتقه :ـ لا يصح للمعتوه ان يعقد زواجه بنفسه بل ان وليه هو الذى يعقد عنه اما طلاقه وعتقه فلا يصح لا بنفسه ولا بواسطة وليه لانها من التصرفات الضاة ضررا محضا فلا يملكها الولي . لكنه يصح ان يكون وكيلا فى طلاق زوجة الموكل أو اعتاق عبد الغير اذا وكلاه بذلك[٤٨] .

(٥) معاملاتـــه : تنقسم التصرفات من حيث المعاملات الى تصرفات ضارة ضررا محضا ونافعة نفعا محضا وتصرف دائرة بين النفع والضرر .

---

(٤٥) تبين الحقائق ـ الزيلعي ج ٥ ص ١٩١ .
(٤٦) التلويح على التوضيح ـ سعدالدين التفتازاني ـ ج ٢ ص ١٦٩ .
(٤٧) تبين الحقائق ـ الزيلعي ـ ج ٥ ص ١٩١ .
(٤٨) كشف الاسرار ـ عبدالعزيز البخارى ـ ج ٤ ص ١٣٩٤ .

فالمعتوه لا يصح له مباشرة التصرفات الضارة ضررا محضا كالهبة والطلاق والعتاق كما ذكرنا لما لا تصح هبة ولا يجوز للولي مباشرتها • أما التصرفات النافعة نفعا محضا كأن يوهب له فتصح منه ولا تتوقف على موافقة الولي ، أما التصرفات الدائرة بين النفع والضرر كالبيع والشراء والاجارة فانها تنعقد موقوفة على اذن وليه •

فالولي بالخيار ان شاء ردها وان شاء اجازها[٤٩] كما يصح ان يكون وكيلا عن الغير لكنه لا يلتزم بشيء تجاه الذين تعامل معهم فلا يطالب بتأدية الثمن ولا بتسليم البيع ولا يرد عليه بالعيب ولا يكون خصما في الدعاوى أى انه غير أهل للخصومة[٥٠] كما انه ليس له الولاية على الغير لانه لا يملك الولاية على نفسه ولا ينفذ اقراره لاحتمال الصدق والكذب فيرد بالنظر لمصلحته •

ب ـ تصرفاته الفعلية :ـ يضمن المعتوه قيمة ما استهلك من أموال الغير سواء استهلكها أم اهلكها واذا اتلف شيئا مملوكا للغير ضمن قيمته اذ كما يقول صاحب التبيين فى ذلك ( اذ لا يمكن ان يكون القتل غير القتل والقطع غير القطع فأعتبر فى حقه فيترتب عليه موجبه لتحقق السبب ووجود اهليه الوجوب وهى بالذمة ) •

ويرتفع الحجر عن المجنون والمعتوه بالافاقة والرشد من غير حاجة الى قضاء القاضي لانه حجر ثبت بغير قضاء[٥١] •

**(٤) احكام العته في القانون :**

تعريفه : عرف شراح القانون العته ( بأنه نقصان العقل واختلاله لا زواله بالكلية بحيث يشبه من يصاب به العقلاء من ناحية والمجانين من

---

(٤٩) تبين الحقائق ـ شرح كنز الدقائق ـ الزيلعي ـ جـ٥ ص١٩١ •
(٥٠) الهداية ـ جـ٣ ص ٢٠٤ وراجع كشف الاسرار جـ٤ ص١٣٩٤ •
(٥١) نهاية المحتاج ـ شهاب الدين الرملي ـ جـ ٣ ص ٣٣٨ •

ناحية أخرى )[٥٢] كما عرفوا المعتوه بأنه ( من كان قليل الفهم مختلط الكلام فاسد التدبير ولكنه لا يضرب ولا يشتم كما يفعل المجنون )[٥٣] والتعريف الاخير وضعه الفقهاء المسلمون حيث أورده الزيلعي في التبيين[٥٤] .

وهذا يعني ان المعتوه ناقص العقل له قليل من الفهم ، اما المجنون فلا عقل له وليس له شيء من الفهم والادراك ، واذا كان المعتوه يشبه العقلاء من ناحية فهذا يعنى ايضا بأنه يتمتع بشيء من التمييز لكن هذا التمييز لن يستمر فى كل الاحيان مما جعل بعض المشرعين يعتبرونه بحكم المجنون وهو القانون المدني المصرى فى حين ان المشرع العراقى اعتبره بحكم الصغير المميز فهو فى القانون المصرى عديم الاهلية وفى القانون العراقى ناقص الاهلية .

فنصت المادة (٤٥) فى الفقرة الاولى مدني مصرى على ما يلى ( لايكون اهلا لمباشرة حقوقه المدنية من كان فاقد التمييز لصغر فى السن أو عته أو جنون ) . فالمعتوه فى القانون المصرى لا اهلية له وبالتالى فان جميع تصرفاته باطلة بطلانا مطلقا لكن القانون لم يقرر البطلان الا بعد تسجيل قرار الحجر الصادر من المحكمة المختصة أو بعد تقديم عريضة طلب الحجر[٥٥] لكنه أورد استثناءين على ذلك واعتبر تصرفاته باطلة قبل

---

(٥٢) المدخل للقانون الخاص ـ الدكتور عبدالمنعم البدراوى ـ ص ١١٧ جط٢ ١٩٥٦ .

(٥٣) المدخل للعلوم القانونية ـ الدكتور سليمان مرقس ـ ص٥٧٠ .

(٥٤) تبيين الحقائق ـ شرح كنز الدقائق ـ الزيلعي جـ ٥ ص١٩١ .

(٥٥) نصت المادة (١١٤) مدني مصرى على ما يأتى ( ف ١ : يقع باطلا تصرف المجنون والمعتوه اذا صدر التصرف بعد تسجيل قرار الحجر ) ف ٢ : ( اما اذا صدر التصرف قبل تسجيل الحجر فلا يكون باطلا الا اذا كانت حالة الجنون أو العته شائعة وقت التعاقد أو كان الطرف الآخر على بينة منها ) .

تسجيل قرار الحجر أو قبل تقديم طلب الحجر وهما :ـ

١ ـ اذا كانت حالة العته شائعة .

٢ ـ اذا كانت حالة العته معلومة لدى من يتعامل مع المعتوه وان لم تكن شائعة .

اما فى القانون المدنى العراقى :ـ فقد وردت تفرقة بين المجنون والمعتوه فنصت المادة : ( ١٠٧ ) مدنى عراقى بالقول ( المعتوه هو فى حكم الصغير المميز ) وقد اقتبس المشرع العراقي نص المادة (٩٧٨) من المجلةحرفياً وجعله المادةا ١٠٧ .

واذا كان المعتوه فى القانون العراقى فى الاهلية والتصرفات كالصغير المميز فاننا نورد احكام المادة (٩٧) مدنى عراقى وهى التى حددت اهليته فتصرفات الانسان من حيث علاقتها بالاهلية تنقسم الى ثلاثة اقسام :ـ

١ ـ تصرفات نافعة نفعا محضا كقبول الهبة بأن يوهب للمعتوه .

٢ ـ تصرفات ضارة ضررا محضا كما لو وهب المعتوه أو تبرع للغير .

٣ ـ تصرفات دائرة بين النفع والضرار وهي المعاوضات كالبيع والشراء والاجارة .

فالتصرفات النافعة نفعا محضا يباشرها المعتوه بنفسه ، اما التصرفات الضارة ضررا محضا فلا يباشرها الصبى ولا وليه ، اما النوع الثالث وهو التصرفات الدائرة بين النفع والضرر فأن الصبي يباشرها موقوفة على اذن الولي .

فالقانون المدنى العراقى سار على خطى الفقه الاسلامى ، اما القانون المدنى المصرى فقد اتخذ سبيلا آخر(٥٦) .

---

(٥٦) جاء فى التبيين للزيلعي ـ جـ ٥ ص ١٩١ ( والمعتوه كالصبى العاقل فى تصرفاته ) .

وفى القانون التجارى العراقى لم يرد ذكر المعتوه بل ذكر ناقص الاهلية وعديم الاهلية كما ذكر الصغير والمحجور عليه )[٥٧] .

فبالنسبة للصغير الذى يبلغ الخامسة عشرة كاملة يجوز ان يباشر الاعمال التجارية بأن الولي أو بترخيص من المحكمة عند امتناع الولي .

اما المعتوه فليس له اهلية لممارسة التجارة ولو انه بحكم الصغير المميز[٥٨] لان القانون اشترط اهلية خاصة هى بلوغ الصغير الخامسة عشرة ، اما الصغير المميز فى القانون المدنى فهو الذى تكون سنة بين السابعة والثامنة عشرة .

وفى قانون الاحوال الشخصية : فان المعتوه والمجنون لا اهلية لهما فى انشاء عقد زواجهما بأنفسهما ، فقد نصت المادة السابعة فى فقرتها الاولى ( يشترط فى أهلية الزواج العقل والبلوغ ) ونصت الفقرة الثانية ( للقاضي ان يأذن بزواج أحد الزوجين المريض عقليا اذا ثبت بتقرير طبي ان زواجه لا يضر بالمجتمع وانه فى مصلحته الشخصية اذا قبل الزوج الآخر قبولا صريحا ) .

ومن هذا فان المجنون والمعتوه ليس لهما أهلية الزواج كما انه ليس لوليهما ذلك بل ان زواج المعتوه لا ينعقد الا بأذن القاضى وقبول الزوج الآخر بالزواج من المعتوه سواء كان المعتوه هو الرجل أم المرأة ، والفقهاء المسلمون قالوا بزواج المجنون والمعتوه من قبل وليه الا ان عدم تصريحهم بموافقة الطرف الآخر رجلا أو امرأة بقبول الزواج لا يعنى ان العاقل

---

(٥٧) نصت المادة (١١) ف ١ من قانون التجارة رقم ١٤٩ لسنة ٩٧٠ على ما يلى ( اذا كان للصغير أو المحجور عليه مال فى تجارة جاز للمحكمة ان تأمر بأخراج ماله منها أو بأستمرار فيها وفقا لما تقتضيه مصلحته . ف ٢ : فاذا أمرت .

(٥٨) الوسيط فى شرح القانون التجارى العراقى ـ الدكتور صلاح الدين الناهي ـ بند ١٥٠ و ١٥١ .

الرشيد يجبر على الزواج بالمجنون ، فالمرأة المسلمة لا تجبر من قبل وليها على الزواج بمن لا تريد بل ان الحنفية صرحوا بأن المرأة لها الولاية كاملة فى تزويج نفسها ، قال صاحب الاختيار ( وعبارة النساء معتبرة فى النكاح حتى لو زوجت الحرة العاقلة البالغة نفسها جاز وكذلك لو زوجت غيرها بالولاية أو الوكالة وكذا اذا وكلت غيرها فى تزويجها أو زوجها غيرها فأجازت(٥٩) .

اما عن تصرفات المعتوه الفعلية فى نطاق القانون المدنى فانه يضمن قيمة ما يتلفه من أموال وممتلكات الغير على التفصيل الذى بيناه فى بحث الجنون فلا حاجة لتكراره هنا .

اما عن افعاله التى تخضع لاحكام القانون الجنائى فقد اعتبر قانون العقوبات العراقى المعتوه كالمجنون فى عدم المسئولية وهو من عبر عنه فى المادة (٦٠) ( من كان فاقد الادراك أو الارادة لجنون أو عاهة فى العقل ... الخ ) .

فبعد ان ذكر الجنون صراحة ذكر بعده صاحب العاهة العقلية وهو لا شك المعتوه ، يؤيد هذا ما ورد فى قانون اصول المحاكمات الجزائية فى الباب الرابع حيث جعل عنوان الباب المذكور ( محاكمة ناقص الاهلية ثم ذكر عبارة الفصل الاول ثم جعل العنوان ـ المعتوهون ـ ) .

وذكر فى المادة (٢٣٠) من الاصول ( اذا تبين اثناء التحقيق أو المحاكمة ان المتهم غير قادر على الدفاع عن نفسه لاصابته بعاهة فى عقله ... الخ ) ولم يذكر لفظ المعتوه فى نصوص المواد صراحة وهذا عيب فى القانون ينبغى ازالته .

---

(٥٩) الاختيار فى تعليل المختار ـ محمود بن ـــــ الموصلى الحنفى ج ٣ ص ٩٠ .

والذى نريده من هذا هو ان القوانين الجنائية فى العراق قد ساوت فى الاحكام بين المجنون والمعتوه ولم تساو المعتوه بالصبي المميز كما هو الحال فى القوانين المدنية وهذا راجع الى ان الصغير قابل للتوجيه بالنصح والارشاد فى حين ان المعتوه لا ينفع معه ذلك بل هو مريض لا يرجى شفاؤه الا نادرا فجاء فى المذكرة الايضاحية لقانون اصول المحاكمات الجزائية عند الكلام عن محاكمة الاحداث ( وهدفت الى اصلاح الحدث دون احداث آثار سيئة فى نفسه ) .

ويمكن القول ان قانون العقوبات العراقى قد اعتبر المعتوه نوعين :

١ ـ معتوه فاقد الادراك .

٢ ـ معتوه ناقص أو ضعيف الادراك .

فاذا كان المعتوه المتهم من النوع الاول فأنه كالمجنون فى الحكم فلا يسأل جنائيا اذا كان فاقد الادراك وقت ارتكاب الجريمة .

اما اذا كان المعتوه المتهم من النوع الثانى ( ناقص أو ضعيف الادراك ) فأنه يسأل جنائيا كالعاقل ، الا ان هذا النقص أو الضعف فى الادراك يعتبر عذرا مخففا فى تخفيف العقوبة ، فقد جاء فى المادة (٦٠) عقوبات ( اما اذا لم يترتب على العاهة فى العقل أو المادة المسكنة أو المخدرة أو غيرها سوى نقص أو ضعف فى الادراك أو الارادة وقت ارتكاب الجريمة عد ذلك عذرا مخففا ) .

وفى قانون العقوبات المصرى فأن المشرع قد ترك أمر المصابين بأضطراب عقلى ينتقص من ادراكهم فلا هم مع العقلاء ولا هم مع المجانين . أقول تركت أمر هؤلاء للقاضى ( الحاكم ) ليتبين بنفسه مدى ادراكهم لنتائج افعالهم )[٦٠] .

---

(٦٠) مباحث الحكم ـ سلام مدكور ـ ص ٢٨٢ .

# "انظر الى الماضى ساخطا"

## دراسة تحليلية نقدية

**عبدالمطلب عبدالرحمن**

**الاستاذ المشارك فى قسم اللغات الاوربية**

حينما ظهرت مسرحية « انظر الى الماضى ساخطا » للكاتب المسرحى الرومانسى الحديث جون اوزبورن لاول مرة على مسرح الرويال كورت فى لندن فى الثامن من أيار عام ١٩٥٦ وجد فيها النقاد والكتاب المسرحيون تحولا كاملا فى مفهوم الدراما الانكليزية ، فعدّها الكاتب ريتشارد فايندليتر (Richard Findlater) نقطة تحول فى تاريخ المسرح البريطانى المعاصر»[١] . ويشاركه هذا الرأى الكاتب الشهير جون رسل تيلر فى كتابه ( الغضب وما بعده ) الذى ظهر عام ١٩٦٢ اذ يقول فى تعليقه على ليلة ظهور هذه المسرحية « بان الصورة الكاملة للكتابة ( المسرحية ) [٢] فى هذا البلد ( انكلترة ) [٢] قد تغيرت تماما اثناء الخمس سنوات الاخيرة » [٣] .

ولابد من الاشارة الى ان عمر المؤلف ، جون اوزبورن ، عند ظهور هذه المسرحية كان ستة وعشرين عاما ، وكان قد الف قبل ظهورها

---

(١) راجع مجلة القرن العشرين ، عدد شباط عام ١٩٦١ .

(٢) الاقواس ومحتواها من اضافة الكاتب .

(٣) راجع كتاب « الغضب وما بعده » (Anger and After) للكاتب جون رسل تيلر (John Russel Taylor) مطبعة لندن ، ١٩٦٢ .

مسرحيات عدة الا انه لم يكتب لاي منها الاخراج المسرحي ، مما اضطر المؤلف الى امتهان التمثيل كسبا للعيش • فعمل فى عدة مسارح فى مدن الاقاليم ، كما قام بادارة بعض الفرق المسرحية الصغيرة •

ويعد عمر جون اوزبورن عند ظهور هذه المسرحية على جانب كبير من الاهمية فانه كان صبيا خلال الحرب العالمية الثانية وكان شابا فى السنوات الكئيبة العجاف التى اعقبت الحرب وامتدت لحين احتفالات مهرجان بريطانيا (The Festival of Britain) عام ١٩٥١ •

وكغالبية الناس من ابناء جيله فانه كان يتحسس كل مشاعر السخط وعدم الرضا وخيبة الامل التى سادت تلك الفترة العصيبة التى لم يكن فى العالم باسره خلالها ما يدعو الى البهجة او التفاؤل • كما لم تكن هناك حينئذ أمام الشباب أصوات ملهمة ولا مثل أو قيم تستحق الذكر ، فقد بدا كل شيء دون غاية او هدف • اما الجيل السابق فكان لايزال يعيش فى ماضيه مؤمنا بقيم ومفاهيم اصبحت عقيمة لاتنسجم مع روح العصر • وكانت الحواجز الطبقية لاتزال قائمة باصرار وعمد ، ومن بينها ان الثقافة والحضارة وقف على الاقلية من ابناء الطبقة الراقية الموسرة •

تحسس اوزبورن الحالة هذه كما تحسس الجو المحيط بها باسره فقام بافراغها والتعبير عنها فى مسرحيته ( انظر الى الماضى ساخطا ) بدقة وبراعة ، وليس أدل على ذلك من استهلالها • اذ يرينا الكاتب غرفة علوية لدار قديمة بنيت فى عهد الملكة فكتوريا(٤) • وهى غرفة لم يخطر ببال صاحب الدار عند تشييدها انها ستستعمل غرفة للسكن بل مجرد فسحة لحفظ الاثاث الزائدة عن الحاجة وخزن الحقائب والصناديق الفارغة •

---

(٤) فكوريا ، ملكة انكلترة ، حكمت البلاد فترة طويلة امتدت من عام ١٨٣٧ الى ١٩٠١ •

وهى المكان الذى تجد فيه خزان الماء فى البيوت الانكليزية عادة • وفى وقت ظهور المسرحية على خشبة المسرح أى عام ١٩٥٦ فانها استخدمت غرفة للجلوس فى شقة صغيرة يشغلها ثلاثة اشخاص هم : جيمى بورثر وزوجته اليسون ونزيل (Lodger) عندهما يدعى كليف • ونلاحظ أن خزان الماء قد تحول الى منضدة ، وقبل ان نسمع كلمة واحدة وبمجرد القاء نظرة على الغرفة فاننا ندرك بالتو مشكلات السكن وما يرافقها من امور اجتماعية مريرة ونشعر بالاستغلال البشع الذى تفشى فى انكلترة فى العقد السادس من هذا القرن •

يبدأ الفصل الاول من هذه المسرحية فى مساء يوم الاحد والسيدة اليسون تكوي ملابس زوجها جيمي بينما يقوم هو وكليف بمطالعة صحف ذلك اليوم • وفى الحال يقذف جيمى بالصحيفة بغضب وسخط ظاهرين قائلا :(٥) ـ

« لقد قرأت تو ثلاثة حقول كاملة عن الرواية الانكليزية ، وكان نصفها مكتوبا باللغة الفرنسية • اما تجعلك صحف يوم الاحد تشعر بالجهل ؟ (٦) » •

فما الحاجة الى أي تعليق آخر ؟ الحاجز الطبقي واضح للعيان ومطبق عمليا • وكأن لسان حال الاقلية المثقفة صاحب الامتيازات يقول ان الرواية لا علاقة له اطلاقا بالعامة من الناس وليس لديها ما تقدمه لهم • وخشية قيامهم باظهار اهتمام ورغبة فيها فاننا سنقوم بمناقشتها والتحدث عنها باللغة الفرنسية وبذلك يتيسر له ابعادهم عنها •

---

(٥) ان ترجمة جميع المقتطفات من المسرحية والاشارات من المراجع هى مسؤولية كاتب المقال •

(٦) راجع مسرحية « انظر الى الماضى ساخطا » طبعة فيبر ، الصفحات ١٠ـ١١ •

وبمجرد مشاهدة استهلال المسرحية فاننا نستطيع التكهن بمضونها وما ستنطوى عليه من امور • ومما يساعد على التوصل الى هذا الرأى تركيبها ولهجة الحوار فيها ، انها لامحال ستكون انتقادا لاذعاً لاوضاع الحياة الاجتماعية والسياسية والخلقية ، وانها ستقصى كيفية ومدى تأثير هذه الاوضاع على حياة شخص او شخصين • وهذا بذاته يبدو معقولا بما فيه الكفاية ولا يبعث على الدهشة الكبيرة ؛ اذ ان معالجة صورة من صورة الحياة فى الفترة التى اعقبت الحرب العالمية الثانية فى مسرحية تظهر عام ١٩٥٦ لهو أمر لا يدعو الى الاستغراب والفزع الشديدين مطلقا • والواقع ان المسرحية فعلت ذلك حيث ان جيل اوزبورن اخذ يعبّر لاول مرة وبصوت عال عن مشاعره الحقيقية على المسرح •

ولقد اصبح واضحا لدى الرأى العام منذ اوائل العقد السادس من هذا القرن ان شخصية جديدة قد اخذت بالظهور ، وان الجيل الجديد لاتفصل بينه وبين الاجيال السابقة الحرب العالمية الثانية فحسب بل تفصل بينهما هوة سحيقة من الافكار والقيم • فان بعض الروايات والمؤلفات من من أمثال (جيم المحظوظ)(٧) و ( مكان فى الاعلى )(٨) و ( اللامنتمى )(٩) كشفت كلها عن هذه الشخصية الجديدة التى هى ليست بالشخصية البطولية بل هى شخصية فردية غارقة فى بحر من الفوضى ، اما جون

---

(٧) ان هذه الرواية وعنوانها بالانكليزية (Lucky Jim) هى من تأليف الكاتب ك ايميس (Kingsley Amis) .

(٨) عنوان هذه الرواية بالانكليزية (Room at the Top) وهى من تأليف الكاتب جون برين (John Braine) .

(٩) « اللامنتمي » وبالانكليزية (The Outsider) دراسة عميقة من تأليف الكاتب الشهير كولن ويلسون • كان لظهورها صدى كبير فى العقد السادس وقام بنقلها الى اللغة العربية الاديب العراقى انيس زكى حسن •

أوزبورن فانه قد أظهر على المسرح لاول مرة شخصية فوضوية تعد نموذجاً لابناء الجيل الجديد • انه جيمن بورتر : شاب يفيض طاقة وحيوية ، متحدث لبق ورجل لديه الكثير مما يستطيع تقديمه لو استطاع أن يجد الشخص المناسب الذى يقدمه اليه • ان مشكلته هو انه لايستطيع العثور على هذا الشخص ، أو على الاقل أنه قد أقنع نفسه بأنه لا يستطيع ذلك • انه يعتقد جازما ان ظروفه الطبقية تعمل ضده وتحول دون ذلك • ان ثقافته اعتيادية جدا وليس فيها من الاتقان والذكاء ما يجعله يزهو بها او يشعر بالرفعة والتعالى بسببها • فلم يكن من نصيبه الدراسة فى المدارس الخاصة العريقة التى كانت وقفا على الطبقة الراقية ، كما انه لم يلتحق باحدى الجامعات العريقة كاوكسفورد او كمبردج التى تحمل ربطة العنق من احداها سحرا كبيرا يفتح جميع الابواب تقريبا لمرتديها ، انه ضيق اليد ، يسارى الميول والنزعات ومناهض للسلطة وهكذا • كل هذا جعل منه نموذجاً للشباب المرتبك الفكر المشوش من ابناء جيله • وهو بالاضافة الى كل ذلك رجل مثالى •

ومن المهم ان نتذكر مثاليته • فغالبا ما ينظر اليه على انه سلبي للغاية ، يحاول هدم كل شيء وينتقد من اجل مجرد الانتقاد • على ان وراء ما يتفوه به من كلمات او تعليقات ازدرائية معنى لشيء مختلف يهدف الى الافضل • ولتوضيح هذه النقطة نأخذ على سبيل المثال تعليقه على مقال صحيفة يوم الاحد عن الرواية الانكليزية • انه فى هذا التعليق لا يعبر عن اهتمام ورغبة شديدتين فى قراءة ما يكتب عن الرواية فحسب بل انه يعبر ايضا عن ادراك وتحسس عميقين لمزايا وافضلية كون المقال باللغة الانكليزية • وعليه فان الملاحظة الاولى المهمة حقا عن مسرحية ( انظر الى الماضى ساخطاً ) هى انها تضع على المسرح بكل وضوح واصرار الشخصية التى أخذ الروائيون وعلماء الاجتماع بل حتى رجال السياسة انفسهم يعدونها

بعيوبها ومزاياها الممثل الحقيقى للاكثرية الساحقة فى بريطانيا لفترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ، وهو الجيل الذى اخذ يحتل مكانة مرموقة وأخذت البلاد تعتمد عليه وتحسب له حساباً • وهذه الحقيقة بالذات هي التي أقضت مضاجع كثير من الناس ولا سيما الجيل المتقدم بالعمر الذى اخذ يشعر بانه غير مرغوب فيه وانه قد يزحزح من مواضعه بوقاحة وفظاظة • وفضلا عن ذلك فانه اخذ يحس بان هنالك محاولة لتقويض قيمه وتقاليده ، تلك التقاليد والمفاهيم التي واكبت الحياة الانكليزية وكانت جزءاً منها لفترة طويلة جدا • لقد كانت خيبة املهم عظيمة عندما احسوا بان جيمي بورتر يقصدهم بالذات بانتقاداته وتهجمه وانه يلقى الاستحسان والقبول فى ذلك • انهم كانوا لامحال يشاركونه عاطفيا وانفعاليا فى هذه المسرحية • فلم يكن ممكنا بالنسبة اليهم باى حال من الاحوال الجلوس لمشاهدتها بصورة موضوعية باعتبارها مجرد عرض منطقي لموقف من المواقف • لقد كانت مشاهدة هذه المسرحية تجربة فريدة تمتع بها واحبها قطاع كبير من المشاهدين وكرها آخرون • فان كان المشاهد شاباً فانه استمتع بها لانها عبرت بصوت مرتفع عن معتقداته والمأزق الذى هو فيه وعن مواقفه تجاه المجتمع الذى من حوله • وان كان المشاهد اكبر سنا فانه كرهها لانها اغاظته ودنست كل مفاهيمه ومايعتز به من مبادىء ولانها وضعت علامات استفهام على القيم التى يؤمن بها على الرغم من انه لايجرؤ على الاعتراف بانها زائفة ومغلوطة • وهذا الموقف بالذات هو ما كشف عنه جون اوزبورن باحساس عميق بالدور الذى اعطاه الى والد اليسون ـ زوجة جيمي بورتر ـ وهو ضابط متقاعد فى الجيش الهندى برتبة عقيد • ففى الفصل الثاني من المسرحية يقول هذا الضابط المتقاعد « ربما يكون جيمي مصيبا • وربما اكون انا ـ كيف اصف نفسي ؟ نبتة

شائخة مهجورة من برارى عهد الملك ادورد[١٠] • ولا استطيع ان افهم لما لا تشرق الشمس بعد الآن[١١]» •

وهنالك سبب آخر لنفور بعض المشاهدين من هذه المسرحية عند ظهورها عام ١٩٥٦ من الذين تكونت ونمت اذواقهم المسرحية فى العقدين الثالث والرابع من هذا القرن الا وهو فشلها فى تقديم حلول للمشكلات التى عملت على عرضها واثارتها • فليس فيها خاتمة حقيقية • ومن المؤكد ان الخاتمة التى تنتهى بها المسرحية ليست من النوع الذى يوحى بان الامور ستكون مختلفة بعد ذلك او انها ستسير نحو الافضل او حتى نحو الاسوأ • وكل ما نتوصل اليه فى النهاية هو الاحساس باننا ندور فى حلقة •

ان هذا الامر بالذات هو ما تتميز به معظم الكتابات الحديثة على الرغم من أنه لا يعد من مبتكرات العصر الحاضر اذ يمكن الرجوع به الى تشيكوف الذى كان ينادى بان وظيفة الكاتب المسرحى ليست تقديم الحلول للمشكلات التى يعرضها بل ان واجبه ينحصر فى ذكرها[١٢] ، وذلك واجب ليس من السهل ادراكه وتحقيقه • وفى الواقع انه يفوق فى صعوبته تقديم او حتى اقتراح الحلول ، فحكم الاعدام مثلا هو احد السبل لحل مشكلة ما يجب على المجتمع القيام به تجاه القاتل ، الا انه لا يقترب من تفهم مشكلة الاغتيال• ان واجب الكاتب المسرحى ليس ان يكون جلادا بل محللا •

ثم اننا كيف نستطيع ان نطلب او ننتظر من الكاتب المسرحي ان يجهزنا بحلول لمعضلات الحياة التى يقع اختياره عليها عندما لا تكون لهذه

---

(١٠) المقصود هنا الفترة التى تقع ما بين الحرب العالمية الاولى والثانية وليس فترة حكم هذا الملك الفعلية حيث حكم البلاد بين ١٩٠١ـ١٩١٠ • راجع مختصر تاريخ انكلترة للمؤرخ جي • ام • ترفيليان •

(١١) مسرحية « انظر الى الماضى ساخطا » طبعة فيبر ص ٦٧ •

(١٢) راجع كتاب « مسرح اللامعقول » لمؤلفه مارتن اسلين ـ الفصل السابع عن اهمية اللامعقول ص ٣٨٩ ـ طبعه بنجوين المنقحة والموسعة •

المعضلات حلول في الحياة الواقعية ؟ ان الناس من امثال جيمى بورتر لا يتبدلون بين عشية وضحاها • على ان الحل الوحيد لمشكلته هو تحول فجائي اما في نفسه او في المجتمع باسره وكلا الحلين غير محتمل •

وعليه فان جيمي بورتر ، الشخصية الرئيسة في مسرحية ( انظر الى الماضى ساخطا ) يهاجم المجتمع والاعراف السائدة وجهاز الحكم طول الوقت • الا أنه لم يقدم لنا قيماً جديدة بديلا عنها بل يكتفي بالاشارة بصورة مستمرة الى ضرورة التغيير • ان تأكيده على ضرورة التغيير هو الذى حدى بالمدافعين عن هذه المسرحية عام ١٩٥٦ الى ان يولوها اهمية كبيرة خاصة • فانهم كانوا ينظرون اليها على انها وثيقة اجتماعية خطيرة •

وعلى الرغم من كل ذلك فانها ليست بالمسرحية الاجتماعية او السياسية ، انها تكشف النقاب عن حياة جماعة صغيرة من الناس في ظرف اجتماعي وسياسي معين • انها في الاساس مسرحية عن الناس • وهكذا يجب ان ينظر اليها •

ومن الواضح اننى قد اكدت على عام ١٩٥٦ وهو العام الذى ظهرت فيه هذه المسرحية لان تلك الفترة كانت قد ابرزت اهمية هذه المسرحية ومضامينها السياسية • أما الآن وبعد مرور خمسة عشر[١٣] عاما على ظهورها فان الاحوال والظروف قد تغيرت كما ان جيمى بورتر وامثاله من ابناء ذلك الجيل هم الآخرون قد تغيروا ايضا • الا ان المسرحية باقية وهى تعيش الآن في محتوى جديد ومناخ آخر • ويعزى بقاؤها واستمراريتها ليس الى مضامينها السياسية بل الى قوة الكتابة فيها ( وهو ما سأتطرق اليه فيما بعد ) والى قوة تصوير شخصياتها والى استلطاف الشباب الثائر لها واعجابهم بها ، اذ انه لا تمر سوى فترة وجيزة لا تتعدى بضع دقائق بعد

---

(١٣) اى وقت اعداد هذا البحث علم ١٩٧١ •

افتتاح المسرحية الا ونشعر ونتحسس بوضوح قوة شخصيات افرادها الثلاثة جيمي بورتر وزوجته اليسون وكليف • وذلك امر مهم ومثير ويسترعي الانتباه • فالمسرحيات التقليدية تنصرف في البداية الى ترسيخ وتعميق قصة المسرحية مؤجلة تعريف المشاهد بالاشخاص الذين تحتويهم الى مرحلة لاحقة ، بينما لا يخبرنا اوزبورن عن القصة شيئاً في بداية المسرحية • وهو بالطبع مصيب جدا باغفاله ذلك ، اذ ان التأكيد على الناحية القصصية منذ البداية ليس له ما يبرره ، فالحياة الواقعية لا تتوقف لتوضح نفسها الينا • لماذا اذن يجب على المسرحية ان تقوم بذلك وهي في جوهرها محاولة لتقليد الحياة ؟ اننا في هذه المسرحية نجد انفسنا دون انذار مسبق في موقف يتعلق بعائلة بورتر في امسية يوم الاحد • فان اردنا ان نفهم هذا الموقف فمن الضروري ان ينجلي ويتوضح لنا حالا • فمن الناحية المثالية يجب أن يكون بمقدورنا فهم وادراك الموقف المسرحي لحظة مشاهدته دون أن يفسر لنا • وأي أمر يتحتم علينا معرفته عن خلفية الموقف يجب ان يبرز تلقائيا •

ان هذا هو الاسلوب المتبع في الكتابات الحديثة ، فالكاتب المسرحي مقيد بفترة زمنية معينة ساعة ونصف الساعة او ساعتين ليكشف لنا عن عالم مسرحيته ، وهي فترة قصيرة جدا نسبيا • فان ابتدأ باستعراض مطول وتمحيص دقيق للفترة الزمنية التي تسبق المسرحية فانه يؤخر بذلك التوغل في الموضوع • انه ان فعل ذلك انما يستعمل اسلوب الكاتب الروائي اكثر من استعماله اسلوب الكاتب المسرحي • ففي الرواية عادة نتوقع ان نجد مقطوعات قصصية طويلة بكلمات المؤلف ولسانه • كما ننتظر منه ان يساعدنا في وصف الشخصيات وجوها وفي اطلاعنا على الظروف التي ادت الى الموقف الذي هو بصدد معالجته • وهذا لا يمكن أن يحدث في الكتابة المسرحية لان المؤلف لا يساهم فيها شخصيا • فان قام المؤلف المسرحي باجبار

شخصياته المسرحية على ذلك لاجل المشاهدين واجبرهم على التوقف لتفسير بعض التفاصيل لزملائهم الشخصيات الاخرى فى المسرحية فانه بذلك يعرقل سير الفعل المسرحي •

ومما لاشك فيه ان بداية اية مسرحية ليست بالمهمة اليسيرة اطلاقا • فمن الضرورى وقوع حدث ما ، على ان اللمحات الخلفية ( اى تسليط الاضواء على بعض الاحداث السابقة بصورة سريعة ) قبل ان تتحرك المسرحية الى الامام تعد في الوقت الحاضر خطأ كبيرا • ان اوزبورن ومعظم الكتاب الشباب يقذفون بنا بكل بساطة ودونما اى تردد فى وسط مسرحياتهم • فمسرحية ( انظر الى الماضى ساخطا ) لا تخبرنا بشيء • انها تقوم بمجرد فتح باب الغرفة العلوية وتسمح لنا بالمساهمة فى حياة جيمي واليسو وكليف دون اى تفسير او تعليق •

وهذا لا يعني بطبيعة الحال ان اوزبورن لا يهتم بالماضى ، فالعكس هو الصحيح • انه يدرك جيدا ان للماضى قوة فعالة وخطرة فى آن واحد وان اهتمامه به يعزى الى تأثيره على حياة شخصياته • انه ينقل هذا الاحساس باهمية الماضى الى جيمي بورتر الذى لا يستطيع نسيان ماضيه كما لا يستطيع الصفح عن ماضي زوجته ، فهو دائم الهجوم عليها بسبب ابيها ، الضابط فى الجيش الهندى سابقا ، وبسبب محيطها العائلى الذى ينتمي الى الفئة الراقية من الطبقة المتوسطة • والزوجة اليسون هى الاخرى تدرك اهمية الماضى وتدرك ايضا ان لا مفر منه • ففى المشهد الاول من الفصل الثانى عندما تتحدث الى صديقتها الممثلة هيلينا التى اتت لزيارتهم نجدها تقول فى وصف ذكرياتها ليوم زفافها :

« كانت اول مناسبة فى حياتى افترق فيها عن الناس الذين عرفتهم طيلة حياتى : عائلتى ، اصدقائى وكل معارفى ، كنت قد احرقت

قـــواربي »[١٤] .

لقد كان الماضى قد وفر لها طريقة واسلوبا فى الحياة ، كما يفعـــل بالنسبة لنا جميعا . كان قد وفر لها الامان والطمأنينية حيث كانت لحين يوم زواجها تستطيع اللجوء اليه فى اى وقت تشاء . على انها تزوجت شـــخصا من محيط اجتماعى يختلف كليا عن محيطها وبهذا فانها قد اقتلعت نفسها بعنف من المحيط الذى كان يوفر لها الشعور بالطمأنينة والاستقرار والذى كانت تتشبث به دائما وزجت بنفسها فى عالم محيّر رث . كل ذلك ينجلي امامنا ببطىء وبدون لف او دوران ونحن نتوغل فى المسرحية . ان الفعل المسرحى لا يتوقف ابدا حينما ينقل الينا ذلك .

وعلى كل حال فان ربط الحقائق بعضها ببعض ببطىء وتدرج اكثـــر درامية من مجرد وضعها نصب اعيننا بانتظام واناقة دفعة واحدة .

وبنفس الاسلوب ونفس التدرج ينقل الينا اوزبورن المعلومات عـــن جيمي بورتر . فاننا بعد ان نتعرف عليه ونكتشف بانه انسان حقود ، قاس، سريع الغضب والانفعال وانه شريف ومستقيم الى حد الدهشة نبدأ نجمع الاشارات والنتف عما حدث له فى الماضى وادى به الى ما هو عليه الان .

جيمي : « شاهدت والدى على فراش الموت لاثنى عشر شهرا وانا فى العاشرة من عمرى . وكان قد عاد من الحرب فى اســبانيا ، كمـــا ترى . وبعض السادة المحترمين الذين يخشون الله هناك جعلوا منه حطاما بحيث انه لم يبق على قيد الحياة طويلا بعد ذلك . ولـــكن ، كمـــا ترى ، كنت الشخص الوحيد الذي اكترث للامر . أما عائلته فكانت خجلة ومرتبكـــة لكل ما قام به . خجلة ومنزعجة . اما والدتي فكل ما استطاعت ان تفكـــر

---

(١٤) مسرحية « انظر الى الماضى ساخطا » ـ الطبعة المشار اليهـــا سابقا ـ ص ٤٣ .

فيه هو انها قد ارتبطت برجل يبدو انه مع الجهة الخاسرة فى كل شىء • اما والدته فكانت تعمل بكل جوارحها لان يكون لها ارتباطات مع الاقليات الراقية ، شرط ان يكونوا من المهتمين بالاناقة والازياء الحديثة[١٥] •

ويستمر جيمي فى مزيد من الايضاح فى جزء لا حق من نفس الخطاب :

جيمي : « انني ، كما ترى ، قد تعلمت من حداثة سنى ما ينطوى عليه أن يكون المرء غاضباً وبائساً • انني لا أستطيع نسيان ذلك قط »[١٦] •

ان هذا يلقي ضوءا جديدا على جيمي فان غضبه ينبع من موقفه اليائس الفظيع ذلك الموقف الذى يتلخص فى عدم قدرته القيام باى شىء حيال القضايا التي تزعجه وتقلق باله • وفى استطاعتنا الآن أن نرى بسهولة كيف ان هذا الشلل قد توسع فشمل هجومه على المجتمع وانتقاده له • فعندما يتهمه الناس بانه رجل صراخ فقط ليس لديه شىء بناء يقوله ، فان جوابه : « ماذا يستطيع المرء ان يفعل سوى الصراخ » •

ومن التقاليد المرعية ان الشخصية التى تستأثر باعظم درجة من المشاركة العاطفية فى اية مسرحية هى الشخصية المركزية الرئيسة فيها دون سواها • والمشاركة العاطفية تستند فى الغالب على العطف وهو ذلك الشعور الذي يجرنا الى وضع أنفسنا فى موضعها وتمثلنا بها وعيش مشكلتها وكأنها مشكلتنا[١٧] • على ان العلاقة بين جيمى بورتر وجمهور المشاهدين ليست بهذه البساطة فانه ليس بالبطل الذى يسحر القلوب ويسلبها ( وليس بالرجل الشرير الذي يمكن ان يمقت ) على الرغم من شعورنا بالعطف عليه فى

---

(١٥) المصدر ذاته ص ٥٧ •

(١٦) المصدر نفسه ص ٥٨ •

(١٧) راجع البحث الذى قام به كاتب هذا البحث بعنوان « مفاهيم واتجاهات جديدة فى المسرح الانكليزى الحديث » المنشور فى مجلة كلية الآداب / العدد الرابع عشر / مطبعة المعارف ص ٤١٤ •

بداية المسرحية • ان تعليقه على مقال صحيفة يوم الاحد من ان نصفه باللغة الفرنسية تعليق مصيب جدا فانه يضعه فى الحال فى صفوف الاغلبية الساحقة التى تحس بانها مستعبدة ومحرومة • على ان الانجذاب اليه لا يستمر طويلا فانه سرعان ما يصبح الشخصية الرئيسة غير المحببة الى النفوس لانـه يبدو عليه أنه يتعمد الاغاظة وليس لديه أي احترام أو شعور طيب نحوالآخرين• انـه يتحول الى رجل عديم الاحساس وقاس دون اى مبرر •

ففى المشهد الافتتاحى الذى سبقت الاشارة اليه وبعـد الانتهـاء من التعليق على المقال عن الرواية الانكليزية المنشورة فى الصحيفة اليومية يعود جيمي الى المطالعة او الحديث مع كليف بينما نرى اليسون منهمكة فـى تنظيف وكي الملابس وفكرها مشغول بامورها الخاصة ولعلها كانت تفكـر فى ماضيها الذى نوهنا عنه قبل قليل • على ان جيمي بورتر يرغب بشـدة فى جرها الى الحديث • انه لا يفعل ذلك بدعوتها الى الكلام بل بمهاجمتها بقسوة • فعندما تجيب على سؤاله « يؤسفني انني لم أكن صاغية » يفاجئهـا بقوله « اراهن انك لم تكوني صاغية ابدا • فعندما يتحدث بورتر العجـوز فالكل يديرون ظهورهم وينامون • والسيدة بورتر[١٨] تشجعهم عـلى ذلك بان تكون اولى المتثائبين[١٩] •

وبعد هذا الحديث بقليل يختطف جيمـى جـريدة كليف ويرفض اعادتها اليه فتقول اليسون : « اوه ، اعطه اياها يا جيمى بحق السـماء ! لااستطيع التفكير[١٩] ، فما كان منه الا ان قذف بالجريدة الى كليف قائل :ـ

« لا استطيع التفكير ! ما جالت فى رأسها فكرة لسنوات »[٢٠] !

---

(١٨) المقصود هنا اليسون زوجة جيمي بورتر •

(١٩) مسرحية « انظر الى الماضى ساخطا » ـ الطبعة المشار اليهـا سـابقا ـ ص ١١ •

(٢٠) المصدر اعلاه ـ ص ١٢ •

وبقدر تعلق الامر بجيمي وبعالمه الخاص به فانه الشخص الوحيد الذى يتمتع بقسط من الحيوية والنشاط وكل ما سواه نصف ميت ، وخاصة زوجته • انه يعصف بها لانها نصف ميتة ولانها لا ولن تقف بوجهه وتخاصمه• فالمعركة تستمر الى نهاية المسرحية على مستويين مختلفين• فهو اعتدائي، مادى ، كثير الكلام • اما زوجته فهادئة ، ساهية منطوية وبالتالى فهى مستقلة• ولعل ذلك ما يزعجه ويستثيره فيها •

ويبدو من تصرفات جيمى ان زواجه من اليسون فرصة مواتية للهجوم على الطبقة الاجتماعية التى تنحدر منها والتى يكرهها كرها شديدا • انه ينوى تحطيم زوجته وبالتالى تحطيم طبقتها • الا انه لا يستطيع تحطيم زوجته لانه لا يستطيع السيطرة عليها • فهي ترفض الدخول فى مناقشات ومهاترات معه • وان كانت هنالك ثمة انتصارات فهى انتصاراتها لان بيدها مفتاح تطمين اهم رغباته : الجنس ، فهو يشتهيها بفظاعة ونهم شديدين •

وكلما انكشف هذا الموقف امامنا صعب علينا ان نقرر فيما اذا كان جيمي بطلا او شريرا على الرغم من اننا نبقى نشاركه عاطفيا • ولا يحاول اونيل بورن فى اى موقف من مواقف هذه المسرحية ان يباعد بيننا وبينه • وعلى العكس فانه فى الحقيقة يجرنا بصورة عاطفية الى التوغل اعمق فاعمق فى المسرحية وذلك باخضاعنا الى استجابات عاطفية متطرفة • فمثلا بعد ان يفلح المؤلف فى اقناعنا بان جيمى بورتر رجل متهور ومحب للانتقام نجده فجأة وبصورة درامية للغاية يقدمه الينا رقيقا جدا وأشبه ما يكون بالطفل الخائف • فعندما يستمر جيمي وكليف بالمزاح تارة والقدح اخرى يتطور الامر بينهما الى شجار ينجم عنه انقلاب خشبة مكواة الملابس واصابة اليسون بحروق مما يجعل جيمي يجمد فى موضعه ويعتذر قائلا «آسف يا حبيبتي»[٢١]!

---

(٢١) المصدر اعلاه ص ٢٦ •

الا ان حبيبته لا تكترث لاعتذاره فقد تحملته اكثر من طاقتها فتطلب منه الابتعاد عنها والخروج من الشقة .

ان هذه لحظة درامية مشحونة وكان من الممكن ان تؤدى الى نقطة تحول فى حياتهما الزوجية ، الا انهما كانا قد وصلا فى حياتهما المتوترة مرحلة يحاولان فيها متعمدين جعل الامور صعبة بل مستحيلة . فكل منهما لا يقل سوءا عن الآخر . فبعد لحظات قليلة من هذا الحادث وبعد مغادرة جيمي الشقة مطرودا نستمع اليها تقول :ـ

« لا انفك امعن النظر فى الماضى ، قدر ما تسعفنى الذاكرة ، فلا اهتدى الى كيف كنت احس وانا شابة ، وعندما عبّر لي جيمي عن احساس مماثل قبل ايام تظاهرت بعدم الاصغاء لاننى كنت اعلم ، على ما اعتقد ، بان ذلك سيؤلمه . وبالطبع طار صوابه لذلك فأصبح شرساً كما حصل الليلة تماماً . على انني كنت ادرك ما كان يرمي اليه وكان من السهل جدا علىّ ـ على ما أعتقد ـ ان أقول « نعم يا حبيبي ، أعلم ما يدور فى خلدك ، وأعلم ما تحس به » . ان هذه الامور البسيطة هى التى اصبحت ، على ما يبدو ، متعذرة علينا جدا »[٢٢] .

لدى تحليل المسرحية ودراستها بهذا الشكل يتضح لنا بصورة متزايدة بانها دراسة لنوع من العلاقة الانسانية اكثر من اى شىء آخر واكثر من كونها بيانا سياسيا على وجه التخصيص . ومما لا ريب فيه ان جيمي بورتر ينتمي الى فئة اليسار وانه ناقد عنيف للقيم المعاصرة البالية ولكل ما هو مزيف وللحياة الباهتة البليدة . ولكن كل هذا يعد ثانويا ما لم يستطع خلق علاقة بشرية واحدة ناجحة على الاقل ، فضلا عن انها سليمة وصالحة . فان الحياة التى لا تسير بصورة طبيعية على المستوى الشخصى لا تستحق شيئا

---

(٢٢) نفس المصدر ص ٢٨ .

يذكر . ومشكلة جيمي هى انه ظاهريا يميل الى الاستمتاع بفشله . فانه يكاد يتمرغ فى التعاسة والبؤس والرثاء لحاله كما لو كان ذلك حقا طبيعيا من حقوقه . ان هذا بالتأكيد ما تتصوره عنه زوجته اليسون . ففى احدى المناسبات تطلب من صديقتها هيلينا ان لا تضيع وقتها فى محاولة فهمه وتقول لها بالله عليك « لا تحرميه من معاناته ، فانه بدونها يضيع »[٢٣] .

ومرة اخرى يعبث اوزبورن بعواطفنا بذكاء . فبعد ان يتم له اقناعنا بان اليسون مصيبة فى رأيها عن زوجها التعس يسمح لجيمى ان يطلعنا على ماضيه وعلى الفترة العصيبة التى مرت عليه عند احتضار والده مما كان له كبير الاثر فى حالة الغضب المسيطرة عليه . وبهذا فانه يستعيد عطفنا عليه ومما يساعده على الاحتفاظ بهذا العطف ردحا من الزمن وصول انباء مفادها ان سيدة طاعنة فى السن كان جيمى ولا يزال يكن لها عميق الحب تحتضر على فراش الموت مما يحمله على الذهاب لزيارتها فورا . ومن الطبيعي ان يتوقع من زوجته ان ترافقه وبدلا من ان تفعل ذلك فانها تختار الذهاب الى الكنيسة برفقة صديقتها هيلينا . وهو اختيار سيء بالنسبة لجيمى فى اى ظرف من الظروف ، الا انه فى هذه المناسبة بالذات امر محيّر للغاية فيقول :ـ

جيمي : « انك آتية معى ، اليس كذلك ؟ فليس لديها[٢٤] أحد الآن .

اننى ... احتاج اليك ... فى المجيء معى[٢٥] » .

وتتردد اليسون لحظة ثم تلتفت نحو هيلينا وتهمس : لنذهب[٢٦] .

---

(٢٣) مسرحية « انظر الى الماضى ساخطا » ص ٥٤ .
(٢٤) المقصود هنا السيدة العجوز صديقة جيمي القديمة .
(٢٥) مسرحية « انظر الى الماضى ساخطا » الطبعة المشار اليها ص٦٢ .
(٢٦) المصدر اعلاه ص ٦٣ .

وهكذا ينتهي المشهد ويبقى جيمى وحيدا منبوذا • ولعله يستحق ذلك لان تصرفاته هى التى ادت به الى هذه النهاية • على اننا نرثي لحاله ويستمر هذا الشعور نحوه فى الجزء الاعظم من المشهد الذى يلي هذا المشهد على الرغم من كون جيمي خارج المسرح • ففي غياب جيمى عن الشقة تعمل هيلينا على قلب الحياة العائلية لآل بورتر رأسا على عقب • فهى تدبر زيارة لوالد اليسون ـ الكولونيل المتقاعد ـ لابعاد ابنته عن جيمي ، لعطلة قصيرة على الاقل • ويصل الاب فيستقر رأى اليسون على الذهاب معه معتقدة حتى اللحظة الاخيرة بان هيلينا ذاهبة هى الاخرى معها • الا ان هيلينا تعتذر عن مرافقتها مدعية بان لديها موعدا فى اليوم التالى يضطرها على البقاء فى الشقة ليلة اخرى على الاقل •

وليس هنالك أى دليل يشير مباشرة الى دوافع خفية تكمن وراء فعلتها هذه • غير انه لا مفر من الشك بصدق نواياها • فعندما يعود جيمي الى بيته نجدها هناك وحيدة فى استقباله ونعلم منه بان السيدة العجوز قد فارقت الحياة • انه الان متعكر المزاج الى حد كبير ، ومما يزيد الامور سوءا وتعقيدا تلك الرسالة التى كانت اليسون قد تركتها له قبل مغادرتها الشقة • ثم ان الاخبار التى تنقلها اليه هيلينا بهدوء وعدم انفعال من ان زوجته حامل كان لها وقع سيء يدفع به الى حالة من الهيجان يصبح خلالها بذيء اللسان جدا مما لا تستطيع هيلينا تحمله فتلطمه على وجهه لطمة شديدة كان لها وقع الصاعقة عليه • الا انه من الناحية الاخرى قد وجد ضالته فى هيلينا • فقد اهتدى اخيرا الى شخص مستعد للوقوف فى وجهه ومخاصمته وهو ما كان يبحث عنه ويتطلع اليه بشوق • وتسدل الستارة فى الوقت الذى تقوم هيلينا بتقبيله بعاطفه ملتهبة •

انها لنهاية درامية حقا تعد نموذجا صادقا لاسلوب اوزبورن • انه بهذه النهاية يزيد انطباعنا تعقيدا عن جيمى وعن الموقف برمته • ولقد تم

له ذلك بنقل مواضع اهتمامنا بصورة غير متوقعة • انه قد غير المراكز التى كنا نوليها انتباهنا بحيث لم نعد نستطيع بعدها الاعتماد على استنتاجاتنا • وبهذا فاننا نتطلع الى الفصل القادم من المسرحية بشيء من الحيرة محاولين فى الوقت ذاته جمع شتات عواطفنا المبعثرة • وسواء أكان مصدر تشتيت عواطفنا الحب او الكراهية فمما لا شك فيه ان المسرحية قد فعلت ذلك عاطفيا ، حيث ان القضايا الاجتماعية والسياسية التى كنا نتصور بانها تحتل المكان الاول فى المسرحية قد اضمحلت واوشكت على الزوال • وان الصراع الطبقى بين الجيل الجديد والقديم قد اصبح هو الآخر عديم الاهمية بعد الآن • فالمسرحية اذن ما هى الا حرب جنسية او انها تبدو كذلك فى هذه اللحظة على الاقل • وتستمر المسرحية على هذا المنوال فى المشهد الاول من الفصل الثالث الذى نجد انفسنا فيه عائدين الى بداية المسرحية والى المشهد الاول منها بالذات حيث نرى جيمي وكليف يقرآن صحف يوم الاحد • والفارق هو ان المرأة الواقفة بالقرب من خشبة كي الملابس هي ليست اليسون الزوجة بل الضيفة هيلينا صديقتها • على ان اليسون تعود اخيرا • ولعل المسرحية هنا فى اضعف مواقفها • فان اليسون تعود وقد فقدت طفلها • وهذا بالنسبة الى جيمي له تفسير واحد وهو انها قد عادت وهى امرأة تختلف اختلافا كبيرا عما كانت عليه سابقا حيث انه كان قد قال لها مرة :

آه لو كنت تستطيعين ان تنجبي طفلا ويموت ••• ليتني أستطيع مشاهدتك وانت تواجهين ذلك • ترى هل فى امكانك ان تصبحى بشرا سويا ! الا انني اشك فى ذلك[٢٧] • اذن جيمى كان يتمنى ان تجابه زوجته ازمة خطيرة وصدمة عنيفة كالتى المت بها الآن كوسيلة لايقاظها ولجعلها تستجيب لخصوماته • انه فظ غليظ القلب معها لانه بائس

(٢٧) المسرحية ـ ص ٣٧ •

لا حول له ولا قوة فى مواجهتها • انه يدرك لغة العنف جيدا ، الا انـه لا يعي ولا يفقه لغة الصمت أبدا بينما تلوذ اليسون بالصمت دائما •

وما ان تعود اليسون الى بيتها حتى تغادره هيلينا • وهنا يسود حياتهما نوع من الهدوء والاستقرار ، الا انه لا يعدو كونه هروبا الى عالم الوهـم الخاص بهما وهو مكان مريح يلجأ اليه الانسان عنـدما لا يستطيع تحمـل آلام الحياة ووطأتها • والسؤال الذى يفرض نفسه هنا الى متى يستطيعان البقاء فى هذا العالم ؟ وعندما يخرجان منه فهل ستبدأ هذه الفترة العصيبـة من جديد ؟ هذا ما يتركه الكاتب لخيالنا • انه يكتفي بتقديم بعض المواقف للمشاهدين بكل ما تتضمنه من مشكلات وتعقيدات الا انه لا يحاول تقديم الحلول لهـا •

من كل هذا نستخلص ان اهمية مسرحية ( انظر الى الماضى ساخطا ) تعود الى انها تأتي بالواقع المعاصر والاوضاع والظروف التي سـادت انكلترة فى العقد السادس من هذا القرن الى خشبة المسرح بامانة واحساس صادق• انها جعلتنا ننتظر من المسرح ان يقدم لنا ثانية تلك النظرة الى الحياة التـى تنسجم مع خبرات وتجارب معظم الناس • انها تعرض لنا الحياة كما عاشها النـاس • وان اهتمامهـا بالنـاس الـذين تحتـويهم قصتهـا هـو أكثـر من اهتمـامها بالقصـة ذاتهـا • فضـلا عن انها لا تحاول ان تقدم الحلول لنا وان ترينا كيف يجب ان تتم التحولات الاجتماعية والعاطفية والسياسية والاخلاقية • انها تقتصر على مجرد الاعتراف بالحاجة الى التغيير وتقوم بذلك بكل نزاهة وصراحة وألم • ان عنصـر الدراما فى مسرحية ( انظر الى الماضي ساخطا ) يكمن فى الالم أكثر منـه فى الفعل المسرحى •

ولابد لاستكمال هذه الدراسة من النظر الى فن واسـلوب اوزبورن

فى الكتابة المسرحية وهو ما وعدت القيام به فى مستهل هذا البحث •

ولعل النجاح الذى احرزه اوزبورن فى هذا المضمار يعود الى تاريخ ظهورها على المسرح ففى الفترة التى اعقبت الحرب العالمية الثانية مباشرة كان كريستوفر فراى وت • س • اليوت وجان آنوي من أبرز الكتاب المسرحيين وكانوا جميعا شعراء قبل اى شيء آخر • اما الآخرون من الكتاب المسرحيين غير الشعراء فانهم كانوا يستخدمون دائما اساليب ادبية صرفة فى كتاباتهم • حتى ان جون وايتنك نفسه وهو الذي يعد من اوائل الكتاب الذين دفعوا بالمسرح فى اتجاهات جديدة بعد الحرب لم يخرج على هذا التقليد •

ان المسرح الذى كان هؤلاء الكتاب يغذونه باقلامهم ويمدونه بما تجود به قرائحهم من نتاج ما هو الا مسرح الطبقة المتوسطة • وعلى الرغم من ان التمييز الطبقى بين جماهير المشاهدين كان الى حدما فى طريقه الى الزوال الا ان الدراما كانت تعكس ثقافة الطبقة المتوسطة ومطامحها • وعلى هذا فلقد كان من النادر حقا ان تجد لغة الحديث الاعتيادى اليومى طريقها الى لغة الشخصيات المسرحية عدا الشخصيات الهزلية التى كانت فى المسرح الانكليزي من الطبقة العاملة دائماً • ويعد الكاتب الشهير جورج برنارد شو من المقصرين فى هذا المجال ايضا • اذ انه على الرغم من محاولته نقل اللهجة اللندنية الى المسرح بدقة تامة الا انه لم يزود شخصياته اللندية قط باى اسلوب سوى لغة وتعابير الميوزيكهول التقليدية •

ولعل السبب فى ذلك يرجع الى ان معظم الكتاب المسرحيين شأنهم شأن الروائيين عموما هم نتاج ثقافة خاصة بالطبقة المتوسطة تلك الثقافة التي كانت رصينة وجيدة على العموم حيث انهم كانوا قد درسوا وتعلموا قواعد اللغة واصولها واكتسبوا خبرة وبراعة ليس فى كيفية استخدام المفردات

فحسب ، بل فى المواضع الصحيحة التى ينبغي ان تستخدم فيها[٢٨] • وعليه فاننا اذا القينا نظرة على اية مسرحية من نتاج الفترة التى سبقت ظهور مسرحية ( انظر الى الماضي ساخطا ) أي قبل عام ١٩٥٦ ـ فسنرى بأن الشخصيات المسرحية تتحدث كما لو كانت قد تدربت وتمرست بعناية فائقة ليس على ما تريد قوله فحسب بل على طريقة التعبير عنه ايضا • اننا نجد ان اللغة التى يتحدثون بها صحيحة وسليمة ومتقنة وفضلا عن ذلك فهى لغة مهذبة تنم عن ثقافة جيدة • وعلى الرغم من انه ليس لديها دائما قضايا مهمة لطرحها ومناقشتها الا انها تجيد طريقة التعبير عنها اجادة تامة وبصورة مؤثرة مهما ابتعدت طريقتها فى التعبير عن الاسلوب المتبع فى الحياة الاعتيادية عند التعبير عن امثال هذه القضايا •

وليس هنالك اى اعتراض على ذلك • فاللغة السليمة السلسلة المتقنة مفيدة جدا عندما يريد الكاتب ان ينقل افكارا خصبة وغزيرة فى وقت قصير • على ان هذا الاسلوب اللغوى المتقن الرصين لا ينسجم دائما مع طبيعة الشخصية المسرحية التى تستخدمه • ففى المسرحيات التى سبق ظهورها عام ١٩٥٦ نلاحظ ان المتحدث المفوه والخطيب اللامع يحتل مكانا فى المسرح اوسع من الشخص الابكم الكئيب • ولكن ان كانت الدراما تعنى بالقضايا المعاصرة الملحة وان كان عليها ان تمحص هذه القضايا بصورة مباشرة وفورية فمن المنطقي والمعقول ان يكون للغة المسرح الالمام الكافى

---

(٢٨) يروى الناقد الامريكى اناتول برويارد (Anatole Broyard) فى صحيفة الهيرالد تربيون الصادرة ٦ـ٧/تشرين الثانى/١٩٧١ عند تحليله وتعليقه على الكتاب الذى ظهر حديثا ( عام ١٩٧١ ) عن « الارض البوار » (The Waste Land) للشاعر ت • س • اليوت ان احد تلامذة اليوت قد اخبره بان اليوت عندما كان استاذه فى جامعة هارفارد كان يتوقف فى محاضراته بحثا عن الكلمة المناسبة وكانت تطول وقفاته حتى تصل خمس دقائق احيانا •

بلغة الحياة • ولا حاجة بالطبع ان يكون النقل عن الحياة نقلا اعمى على الرغم من وجود مجال فسيح لذلك • ان جيمي بورتر الذى يستخدم مصطلحات عصره يعنى بالنسبة لنا اكثر مما كان يمكنه ان يفعل لو ان اوزبورن استخدم اسلوبا ادبيا شبيها بالاسلوب المسرحى الذى كان سائدا فى العقد الرابع مثلا • ومما لا ريب فيه ان جيمي بورتر لم يكن ليستطيع التأثير فى نفوسنا ـ وهو قد قام بذلك فعلا ـ لو انه تحدث باسلوب توماس ميتدب فى مسرحية كريستوفر فراى الموسومة بـ (سيدة ليست للحرق)[٢٩] (The Lady's not for Burning).

وليس هدفنا فى هذا المجال توجيه النقد لاسلوب الكاتب الشهير كريستوفر فراى ، ذلك الاسلوب الذى تهفو للغته القوية الرصينة القلوب وتنصت لها الآذان ، والذي يشيع فى النفوس البهجة والانشراح • انما قصدنا هنا ان نشير الى ان جزءا من صناعة الكاتب يكمن فى قدرته على التوفيق بين شخصياته المسرحية والاسلوب الكلامى الذى يتناسب معها • وهذا ما استطاع جون اوزبورن القيام به • فعلى الرغم من انه لم يحاول التوسع فى استعمال المسرح او فى اجراء تجارب رائدة عليه فانه افلح فى التوفيق بين شخصية جيمي بورتر والاسلوب الذى يستخدمه • وان تحامل النقاد على جون اوزبورن « ووصفهم بازدراء »[٣٠] خطابات جيمي

---

(٢٩) راجع خطاب توماس فى مسرحية «سيدة ليست للحرق» من تأليف الكاتب كريستوفر فراى مطبعة جامعة اوكسفورد • ص١ • ومما يجدر ذكره هنا ان هذه المسرحية ظهرت لاول مرة على مسرح الفنون بلندن فى العاشر من آذار عام ١٩٤٨ باشراف جاك هوكنز وانتقلت منه الى مسرح الكلوب فى ايار عام ١٩٤٩ باشراف الممثل والمخرج القدير جون گيلگود John Gielgud ، علما بان هذه المسرحية طبعت خمس مرات عام ١٩٤٩ •

بورتر « على انها منولوجات أو مناجاة للنفس »[٣٠] كان مصدره « ان هذا الاسلوب لم يكن مألوفا »[٣١] عام ١٩٥٦ وهو العام الذى ظهرت فيه هذه المسرحيـة •

وان القينا نظرة على خطاب جيمي بورتر الطويل الوارد فى نهـاية المشهد الثانى من الفصل الثانى [٣٢] عندما يعود جيمي الى الشقة ليجـد زوجته قد هجرته ويجد بأن كليف هو الآخر قد خرج ولم يبق فى انتظاره والترحيب به سوى هيلينا فاننا نلاحظ بان الخطاب مفعم بالتغييرات فـى السرعة • ان اول سؤال يوجهه لهيلينا « أأنت الوحيـدة التى لا تخشـى البقـاء ؟ »[٣٣] بطىء فى حركته ومتعمد اكثر من الجزء الذى يسـبقه والذى يتعلق بصاحبه كليف • كذلك فهناك وقفات وتردد عندما يسـتلم جيمي الرسالة التى تركتها له زوجته والتى تعلن فيها عن عزمهـا عـلى الرحيل • وهناك مقطوعات هادئة واخرى عنيفة • والهادئة عـلى سـبيل المثال هى التى تتعلق بصاحبته السيدة العجوز ، واما العنيفة فهى عندمـا يصرخ ويولول فى نهاية المشهد • والخطاب ملىء ايضا بالمصطلحات والتعابير التى تستعمل فى الحياة الاعتيادية ، ومع كل هذا فانه يعطى انطباعا بانـه اوسع من الحياة • ولا يعزى هذا الانطباع الى طول الخطاب بل الى طريقة

---

(٣٠) راجع استهلال المسرحية الذي حرره الكاتب جون اوزبورن نفسه للطبعة التى وضعت بين ايدي الممثلين/طبعة اخوان ايفانز/وفيها يدافـع عن خطابات جيمي بورتر المطولة •

(٣١) راجع كتاب « الموجة الثانية » (الدراما البريطانية للسبعينات) (The Second Wave/British Drama for The Seventies)
تأليف جون رسل تيلر / طبعة مثيوين عام ١٩٧١ ، ص ٨ •

(٣٢) راجع مسرحية ـ انظر الى الماضي ساخطا ـ طبعة فيبر الصفحات ٧٢ ـ ٧٤ •

(٣٣) المصدر أعلاه ص ٧٢ •

تنظيمه والى كيفية ترتيب التغييرات فى السرعة والمزاج والى وضع الكلمات فى مواضعها المناسبة •

ان الانطباع الذى نخرج به من ان هذه الخطابات اوسع من الحياة هو ميزة تطبع جون اوزبورن على انه رجل المسرح الموهوب • وعلى الرغم من انني قد اكدت على استخدامه للكلام الاعتيادى فان شخصياته اضافة الى ذلك تبقى تتحدث كشخصيات مسرحية • ان جيمي ـ على الاخص ـ يتمتع فى أثناء حديثه بجو من الفخامة والجلال فهو لا ولن يتردد أو يتوقف فى حديثه بحثا عن الكلمات المناسبة • ويبدو انه يعلم بالضبط دائما افضل السبل للتغيير عن كل ما يعتلج فى صدره •

ان من مميزات جون اوزبورن أيضا انه يميل فى تصوير شخصيات مسرحياته ـ ولا يقتصر الامر على هذه المسرحية فقط ـ الى تركيز اهتمامه فى شخص واحد دون سواه • فان معظم ما يقوله كل من كليف او اليسون أو هيلينا عندما يكون جيمي على المسرح معهم ثانوي ويغذيه ويمده بالمساعدة على الاستمرار ، وكأن هذه الشخصيات جميعا خدم تابعون له فى احدى مسرحيات الميوزيكهول العائلية(٣٤) •

ان الشخص الوحيد الذى يقف خارج نطاق تأثير جيمي كليا وله شخصيته الفردية الخاصة به هو والد اليسون الكولونيل المتقاعد • ولعل ذلك يرجع الى عدم التقائهما وجهاً لوجه • اذ انه مما يلفت النظر ان الكاتب لم يمنح جيمي قط فرصة اخفات صوت الكولونيل او اسكاته كما تيسر له ذلك مع بقية الشخصيات الاخرى • وعلى كل حال فانه من الصواب ان

---

(٣٤) ولابد من الاشارة هنا الى ان عنصر الميوزيكهول في الواقع لايكاد يفارق هذه المسرحية ففي استطاعتنا السماع اليه فى نوع النكات التى يتبادلها جيمي وكليف وفى المزاح الذى يندمجان فيه بين الحين والآخر •

يتمتع الرجل المجوز بقسط من الاستقلال والفردية طالما اختار الكاتب تصويره بطريقة ودية تنم عن العطف عليه على الرغم من ان اوزبورن ينفذ من خلال جيمي الى الطبقة التى ينتمى اليها الكولونيل للهجوم عليها وعلى طريقة تفكيرها وكل ما تتمسك به من تقاليد وأعراف •

وعندما تكون المسرحية جيدة باسلوبها فان كل خطاب فيها يجب ان لا يقتصر على الاسهام فى تطوير ونمو موضوعها فحسب بل عليه ان يقوم باضفاء شيء جديد الى الانطباع الكلي عن الشخصية الرئيسة بحيث يكون فى الامكان معرفة هوية الشخصية المسرحية التي تتحدث بمجرد سماع او قراءة النص دون الاضطرار الى الرجوع الى اسمه فى المسرحية وعلى الا يكون ادراكنا للشخصية المتحدثة بسبب قدرتنا على معرفة من يمكن ان يروي لنا ذلك الجزء من القصة بل يجب أن يكون ادراكنا للشخصية المسرحية مستندا على طريقتها فى الكلام وعلى نبرات صوتها •

ان مسرحية ( انظر الى الماضي ساخطا ) غير موفقة تماماً فى هذه الناحية لانها فى الغالب منولوج وان ما تتفوه به الشخصيات الاخرى عندما يكون جيمي على المسرح دون ان يلقى خطابا مطولا هو مجرد حشو يتخلل اقواله كما هو ملاحظ فى المقطوعة التالية من الفصل الاول والتى يمكن ان تعد نموذجا لذلك :ـ

جيمي : ••• ان فى اصبعها الصغير حيوية ونشاطا اكثر مما فيكما انتما الاثنين •

كليف : من تعني ؟

اليسون : مادلين •

جيمي : ان تطلعها لمعرفة الاشياء والناس لامر مذهل • وليس ذلك مجرد فضول ساذج ، فان التيقظ والترقب بالنسبة اليها محض سرور وانشراح •

( وهنا تبدأ اليسون بكيّ سروال كليف ) .

كليف : ( من وراء صحيفته اليومية ) واخيرا سأعد الشاى .

جيمي : ( بهدوء ) ان مجرد كون المرء معها يعد مغامرة . حتى الجلوس معها فى الطابق العلوى للباص كان بمثابة الابحار مع يوليسيس[٣٥] .

كليف : لا يسعنى القول ان ويبستر كثير الشبه بيوليسيس ، فهو شيطان صغير قبيح .

جيمي : اننى لا اتحدث عن ويبستر يا غبي ، على الرغم من انه رجل لا بأس به بطريقته الخاصة .

فهو شبيه بأميلي برونتي[٣٦] ، انه على كل حال الوحيد من بين اصدقائك ( موجها الكلام الى زوجته اليسون ) الذي يساوي بنسين[٣٧] . انني مستغرب انك تنسجم معه .

اليسون : اعتقد انه ( أي كليف )[٣٨] مستغرب من ذلك ايضا .

جيمي : انه لا يتمتع بالجرأة فحسب ، بل وبالحس المرهف ايضا وذلك لعمرى اندر توافق يخطر على البال . فليس بين اصدقائك من يتمتع باحدى هاتين الصفتين .

---

(٣٥) الاسم الروماني للبطل اليونانى اوديسيوس . وهو بطل الاوديسة اسطورة هومر وملحمته الشهيرة ، كما انه لعب دورا بارزا فى حروب طروادة .

(٣٦) الشاعرة والروائية الانكليزية التى عاشت فى النصف الاول من القرن التاسع عشر ( ١٨١٨ ـ ١٨٤٨ ) صاحبة الرواية الشهيرة (مرتفعات وذرنك ) .

(٣٧) البنس اصغر عملة انكليزية فى الوقت الحاضر .

(٣٨) الاقواس ومحتواها من اضافة الكاتب .

اليسون : جيمي ، ارجوك ـ لا تستمر هكذا[٣٩] .

ومن الواضح ان الحاجة الى اقوال اليسون وكليف ضئيلة جدا فى المقطوعة اعلاه باستثناء ملاحظة اليسون الاخيرة اذ هى الاشارة الوحيدة التي تضيف شيئاً يذكر الى انطباعنا عن مشاركتها عاطفيا فى هذا الموقف .

كل هذا يوصلنا الى القول بانه علينا عند دراسة وتحليل لغة هذه المسرحية التركيز على كلام جيمى . وهذا بطبيعة الحال يعنى ان اوزبورن لم يطور ، بل لم يدرك ادراكاً كاملا بقية شخصيات مسرحيته فيما عدا الكولونيل الذي يلقى نفس الدرجة من الاستقلال على المسرح كجيمي ـ كما سبقت الاشارة الى ذلك . وهذا فى الواقع ما يؤاخذ عليه المؤلف بالاضافة الى انه يضع مسؤولية كبيرة فى نجاح المسرحية او فشلها على شخصية واحدة فقط ، الا وهى شخصية جيمي .

والواقع ان شخصية جيمي بورتر كما نتوصل الى معرفتها خلال المسرحية تختلف عن الشخصية التى يبدو انها كانت فى ذهن ومخيلة مبدعها . ان اوزبورن فى ارشاداته المسرحية (Stage Directions) يصف جيمي على انه « ... مزيج مشوش من الاخلاص والحقد ، من الرقة والقسوة ، قلق ، لجوج ، متغطرس »[٤٠] . وهذا الخليط من الصفات باعتراف الكاتب « ينفر الانسان الحساس وغير الحساس سواء بسواء »[٤٠] . ويمضى الكاتب فى وصف جيمى قائلا « ولعله يبدو بنظر الكثيرين حساسا الى حد التبذل ، وينظر الآخرين مجرد ثرثار سفيه »[٤٠] .

ان الوصف أعلاه لا يمكن أن يجعل من جيمي بطلا مسرحيا .

---

(٣٩) مسرحية « انظر الى الماضي ساخطا » الطبعة المشار اليها سابقا ص١٨ـ١٩ .

(٤٠) راجع مقدمة المؤلف لهذه المسرحية ـ طبعة اخوان ايفانز ص٧ .

بالاضافة الى انه دليل واضح ان الكاتب لم يهدف الى جعله بطلا • ومع ذلك فاننا بسحر خطبه البليغة وحديثة اللبق ننظر اليه على المسرح باستمرار على انه بطل من نوع خاص • وحتى عندما نصفه بانه لا بطل (Anti-hero) فاننا بذلك نضفى عليه ضمنا صفات بطولية ذلك ان اللابطل هو تلك الشخصية المسرحية التى تتمتع بطريقة البطل واسلوبه دون قيمة ومفاهيمه البطولية •

من هذا يتضح ان هنالك تناقضا بين ما كان يهدف اليه اوزبورن عند تصويره لهذه الشخصية وبين الخلق الفعلى لها فى المسرحية التى بين ايدينا • ان ارشادات المؤلف وتوجيهاته المسرحية من بداية المسرحية وحتى نهايتها تؤيد هذا الاستنتاج • فانه لا ينفك يصف جيمي بالرجل العصابي الذى يجد صعوبة فى السيطرة على الآخرين ، كما يصفه بانه بامس الحاجة الى من يعني به • على اننا لا نجده كذلك عند مشاهدة هذه المسرحية • اننا نجده على المسرح شخصية صاخبة عاصفة وفى بعض الاحيان متكبرا ومتعجرفا أشبه بشخصية كوريولاينوس[٤١] وغالبا ما تكون الغطرسة لنفس الاسباب • وعندما لا يكون جيمي كذلك فانه يقرب من شخصية افريمان[٤٢] (Everyman) ، وبذلك تصبح مسرحية ( انظر الى الماضي ساخطا ) مسرحية اخلاقية[٤٢] معاصرة يقوم فيها جيمي بتمثيل

---

(٤١) بطل مسرحية «كوريولاينوس» للكاتب شكسبير • وتدور احداث هذه المسرحية حول انتصار هذا الجنرال الروماني الاسطوري على أعداء روما وانتخابه رئيسا للبلاد • الا ان كبرياءه وتعاليه على الناس كان السبب فى نفيه خارج البلاد مما حدى به الى الانضمام الى اعدائها والهجوم على روما ومحاصرتها • ولم يرفع الحصار الا بعد ان توسلت اليه زوجته وامه •

(٤٢) افريمان ـ الشخصية الرئيسة فى مسرحية « افريمان » • احدى المسرحيات الاخلاقية التى اشتهرت على عهد الملك ادورد الرابع وذاع صيتها فى القرن السادس عشر • وقصة هذه المسرحية الاخلاقية رمزية

البشر جميعا كرجل يحاول ان يعيش دون الخضوع الى قواعد وتقيدات ودون عقيدة ، متعمداً الخروج على القيم التي يحترمها المجتمع ويقيم لها وزنا ، ومع ذلك فان هذه القيم التى يناصبها العداء لا تفارق ذهنه ابدا ويعلم انه قد يكون من الافضل له فى يوم من الايام وبشكل من الاشكال ان يقبل بها .

ان رجلا كهذا يخوض معركة من هذا القبيل من المحتم ان يكون عملاقا تدفعه قوة داخلية لا تتوافر لدينا نحن جمهور المشاهدين وتمنحه شجاعة نوشك ان نحسده عليها احيانا على الرغم من اننا قد لا نتفق معه .

ان التفسير المقبول لهذا الارتباك والفوضى الظاهرية يمكن ان يعزى الى الموقف الذي يجد جيمي بورتر نفسه فيه . فهو شاب يتحرق رغبة للخروج على مجتمعه وفى الوقت ذاته يشتاق الى ان يجد له مكانا فيه . وهذا الموقف لا يمثل مشكلة خاصة به . انه مأزق احس به جمهور غفير من الناس فى العقدين السادس والسابع من هذا القرن ولا يزالون يعانون منه . وعليه فمهما كانت عيوب مسرحية ( انظر الى الماضي ساخطا ) فانها تعد تعبيرا صادقاً لهذه الحالة وان اللغة التي يستعملها اوزبورن لعرض هذه الحالة وتقصى ابعادها رائعة لا يمكن مجاراتها او التفوق عليها .

---

وان الشخصيات التى يقابلها افريمان فى سفرته تمثل صفات مجردة كالفضيلة والرذيلة . راجع كتاب « تاريخ الادب المسرحي الانكليزى » للاستاذ المتمرس السيد ايفورايفانز ترجمة السيدين علاء الدين حمودى وعبد المطلب عبدالرحمن ، الصفحات ٢٠ ــ ٢٢ .

# الايكولوجيا

## والبناء الاجتماعي في شفاشة

# دراسة انثروبولوجية اجتماعية فى البادية العراقية

**علاءالدين جاسم البياتي**
**المدرس فى قسم الاجتماع**

**تمهيد نظرى :**

النظام الايكولوجى[1] جزء لا يتجزأ من النظم الاجتماعية ، فلايمكن

---

(١) وضع اصطلاح الايكولوجيا لاول مرة فى عام ١٨٦٩ من قبل عالم الاحياء الالمانى ارنست هيكل ، اشتقاقا من الكلمة اليونانية (Oîkes) التى تعنى ، البيت ، الموطن ، الا انه كان يقصد بها دراسة العلاقات المتبادلة بين البيئة الطبيعية وما يوجد فيها من حيوانات ونباتات ، وقد حاول علماء الاجتماع ان يدرسوا ليس علاقة النباتات والحيوانات بالبيئة الطبيعية بل علاقة الجماعات الانسانية بهذه البيئة • فلقد حاول عالم الاجتماع الفرنسى اميل دوركايم ان يبين اثر البيئة الطبيعية فى توزيع وتباين الكثافة السكانية وحركة الهجرة الداخلية والخارجية وبالتالى اثر هذه البيئة فى الظواهر والنظم الاجتماعية • ليس هذا بل انه حاول ان يبين اثر السكان وتوزيعهم وكثافتهم وحركة هجرتهم فى البيئة الطبيعية وفى النظم والظواهر الاجتماعية ولقد اطلق دوركايم على هذا النوع من الدراسة اسم المورفولوجيا الاجتماعية •

لقد تطورت دراسات المورفولوجيا الاجتماعية حتى اننا نرى عددا كبيرا من علماء الاجتماع الامريكان فى اوائل القرن العشرين حاولوا ان يدرسوا العلاقات والتأثيرات المتبادلة بين الجماعات وبيئاتها الطبيعية الا ان هؤلاء سموا هذا النمط من الدراسة بالايكلولوجيا الانسانية • فقد استخدم عالم الاجتماع الامريكى ( شارلز جالبن ) هذا النمط من الدراسة فى دراسته للعائلات القروية فى مقاطعة من ولاية وسكنن وبين فى كتابه « التشريح الاجتماعى لمجتمع محلى زراعى » كيف تحدد البيئة الطبيعية النشاطات الانسانية لسكان المقاطعة وقد وضح ذلك فى خارطة تبين انماط النشاطات المختلفة وتوزيعها فى مختلف الاماكن ، وذكر ( بارك ) فى نفس

معرفة العلاقات والنظم الاجتماعية المختلفة الا من خلال دراسة التفاعلات الهامة والقوية بين النظام الايكولوجي وبقية النظم الاجتماعيـة التى تؤلف

---

فترة ظهورالكتاب السابق انالمدينة ظاهرة طبيعية (اوجدتها عوامل طبيعية) متعددة وان كلمدينةتنقسم الىمناطق سكنية وتجاريةوصناعية تتميزكلمنها بخصائص اجتماعية وحضاريةتميزها عنغيرها. وهذه الخصائصتطبع حياة سكان كل منطقة بطابع خاص ، ليس هذا فقط بل ان الخصائص الاجتماعية والحضارية المتماثلة للجماعة تجمعهم فى مناطق معينة من المدينة . وقـد ازدادت البحوث والدراسات التى تستخدم المدخل الايكلولوجى فى تحليل العلاقات الاجتماعية زيادة واسعة فى الولايات المتحدة فـى مطلـع الربـع الثانى من القرن العشرين ولم تلبث طويلا حتى انتشرت فـى دول اخـرى فاخذ عدد كبير من علماء الاجتماع والانثروبولوجيا يطبقون هـذا الاتجاه فى دراساتهم ، من اجل التوصل الى معرفة علمية وشاملة لطبيعـة التفاعـل والتأثير المتبادل بين البيئة الطبيعية والجماعات الانسانية المختلفة ، وبالتالى اثر هذا التفاعل فى تشكيل العلاقات والنظم الاجتماعية والانماط السلوكية والاساليب الحياتية لهذه الجماعات ينظر :

Holling shead. A.B., *"Human Ecology"* in lee A. M., *"Principle of Sociology"* (N.Y) Barnes and Noble., 1955. pp. 67-71

Hawly. A.H., "Human Ecology" A theory of Comunity Structure, (N.Y.) Ronald Press, 1950, p.3.

Ogburn. W. F., and, Nimkoff. M. F., *"A hand Book of Sociology"* London Routedge and Kegan Poul Ltd. 1960. pp. 266-267.

نيقولا تيماشيف « **نظرية علم الاجتماع** » **طبيعتها وتطورهـا** . ترجمـة الدكتور محمد عودة وجماعته ، الطبعة الاولى ، القاهرة دار المعارف ، ١٩٧٠ ص ٣٥١ـ٣٥٧ . الدكتور علي احمد عيسى « **ايكلولوجيا الانسان** » القاهرة، مجلة الثقافة العدد (٣٠) ١٩٦٣ ص ٢٢٨ .

الدكتور السـيد محمد بـدوى « **نظريات ومـذاهب اجتماعيـة** » الاسكندرية ، دار المعارف ، ١٩٦٩ ص ٧ـ٩ .

الدكتور علي عبدالواحد وافى « **الوراثـة والبيئـة** » القاهـرة دار نهضة مصر ، ١٩٧٠ ص ١٠٧ـ١٢٢ .

البناء الاجتماعي[٢] لاي مجتمع من المجتمعات، فعلماء الاجتماع والانثروبولوجيا الاجتماعية الذين يطبقون المنهج الوظيفى البنائى فى دراساتهم للمجتمعات المتخلفة او النامية او المتقدمة يؤكدون ضرورة دراسة الظروف الطبيعية المحيطة بتلك المجتمعات لان معرفة طبيعة ووظيفة العلاقات والنظم والظواهر الاجتماعية لاى مجتمع تتطلب معرفة الظروف الطبيعية التى تؤثر فيها ، لان الطبيعة ومظاهرها ( التربة ، المناخ ، المياه ، مصادر الثروة الطبيعية ) شرط ضرورى لحياة الناس ولوجود المجتمع ، لانها الوسط والمحيط الذى تتحقق فيه عمليات اشباع الحاجات الاقتصادية الانسانية ، وعن طريق هذه الحاجات ذاتها ، وطريق نشاطات الانسان لتطمينها ، يحدث التفاعل بين الانسان والطبيعة[٣] فمكونات المجتمع المادية وغير المادية وحدة متكاملة مترابطة ومتبادلة التأثير والتفاعل فلا يمكن فهم اى نظام من النظم الاجتماعية بصورة مركزة وشاملة ودقيقة ، الا بأخذ النظم الاخرى بعين الاعتبار ، وخاصة فى المجتمعات التقليدية التى لم يتوفر فيها بعد التقدم العلمى والتكنولوجى والحضارى ، بحيث يتمكن الانسان من التعديل والتغيير والتحوير فى الظروف المحيطة

---

(٢) البناء الاجتماعى Social Structure ، هو نسيج العلاقات الاجتماعية الدائمة والمستقرة فى المجتمع والتى تظهر على هيئة نظم اجتماعية شاملة Soceal Systems يتألف كل منها من الداخل من نظم اجتمائية جزئية Social Institutions يمثل كل منها انماط الافعال الاجتماعية المنظمة والمستقرة والهادفة الى تحقيق اهداف محددة ومعينة فى المجتمع ، فالنظام القرابى الشامل Kinship system يتألف من نظام الانحدار ، ونظام الزواج ، ونظام العائلة ، والنظام الاقتصادى الشامل ، يتألف من الداخل من نظام الملكية ، ونظام الانتاج ، ونظام التوزيع ونظام تقسيم العمل ، وهكذا بقية النظم الاجتماعية الشاملة التى تكون البناء الاجتماعية . ينظر :

الدكتور احمد ابو زيد « **البناء الاجتماعى** » الجزء الاول المفهومات ، الدار القومية ، ١٩٦٥ . ص ١٩٥ .

(٣) ارمان كوفيلية « **مقدمة فى علم الاجتماع** » ترجمة الدكتور سيد محمد بدوى وعباس الشربينى ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٦١ ، ص ١٩٧ .

بـه ، وفى مثل هذه المجتمعات يبدو أثر البيئة الطبيعية قويا واضحا فـى كل النظم الاجتماعية والانماط السلوكية والاساليب الحياتية ، بشكل قـد لا يبدو فى المجتمعات الحضرية المتقدمة ، فالتقدم العلمى يمكن الانسان ، بدرجة او باخرى من التغيير فى مظاهر البيئة الطبيعية وبالتالى يمكنـه من التكيف والتلائم معها ، ولكن الانسان لا يتمكن من التخلص بصورة نهائية من تأثيراتها ، فهى التى تعطى وتمنح الامكانيات الطبيعية العـديدة للحيـاة الاجتماعية لاى مجتمع ولكن استخدام هذه الامكـانيات المتوفـرة مرتبط بالمجتمع ذاته وبحاجاته ومستوى تقدمه الحضارى(٤) • ولهذا فان البيئة الطبيعية وامكانياتها يمكن ان تستغل من قبل الجماعات المختلفة ، وبأساليب متباينة واشكال متعددة ، فكل جماعة تختار من بين الامكانيات المتوفرة لهـا ما ينسجم مع نظمها وحضارتها وما يؤهلها تقدمها العلمى من ادخال التغير عليها(٥) • لذلك نرى تواجد اشكال متعددة من النظم والانماط السلوكية فى البيئات الطبيعية المتماثلة ، فسكان السهول مثلا فى العالم لا يتشابهون فـى نظمهم واساليبهم الحياتية فالفلاح فى سهول الولايات المتحدة الامريكيـة يختلف ، بدرجة أو باخرى فى نظمه وحضارته عن الفلاح العراقى الذى يعيش فى سهل وادى الرافدين ، كما اننا نلاحظ مثل هذا النوع من التباين الاجتماعى والحضارى فى البيئة الطبيعية الواحدة ، ولكن فى الاوقـات والفصول المختلفة من العام ، فالتباين ، بين فصل المطر ( الصيف ) وفصـل الجفاف ( الشتاء ) فى مجتمع النوير جنوب السودان ، ادى الى تباين النظم والسلوك الاجتماعى هناك فى كل من الفصلين ففى الشتاء يرعى اهـالى النـوير ابقارهم فى السهول على هيئة جماعات قرابية عشائرية صغيرة وفى

---

(٤) ماكيفر • م ، وشارلز • هـ • يدج « **المجتمع** » ، ترجمة الدكتور علي احمد عيسى ، مكتبة النهضة المصرية ص ١٠٨-١٠٩ •

(٥) احمد ابو زيد « البناء الاجتماعى » الجزء الثانى « الانسـاق » دار الكاتب العربى ١٩٦٧ ص٩-٨٥ •

اواخر ايام هذا الفصل تجتمع اكثر هذه الجماعات القرابية ذات النسب الواحد فى مخيمات كبيرة فتزداد فرص التعاون الاقتصادى والزواج ، وتتاح فرص حل المخاصمات وعقد اتفاقيات الدفاع بينها ، ولكن هذا النمط من العلاقات والحياة ، لا يدوم فما ان ينزل المطر فى فصل الصيف حتى ياخذ اهالى النوير فى السكن فى قرى صغيرة قريبة من الروابى والمرتفعات ترعى مواشيهم الحشائش النابتة بالقرب من مساكنهم ويزرعون الذرة والخضروات بالقرب من بيوتهم ، وقد ادت هذه الحياة الجديدة الى عزلة القرى بعضها عن البعض الاخر ، وبالتالى عزلة الجماعات ذات النسب المشترك عن بعضها الامر الذى ادى الى ضعف فرص التعاون الاقتصادى ، وعقد المصاهرات ، وضعف العلاقات القرابية والاجتماعية ، وبالتالى ترتب على هذا ظهور تنظيمات قرابية عشائرية واجتماعية واقتصادية وسياسية متمايزة لكل قرية بحيث توفر ، الحماية والضمان والطمأنينة لسكانها وتمكنهم من التكيف للظروف الطبيعية لهذا الفصل(٥) .

ومهما يكن من امر فان البيئة الطبيعية تحدد وترسم نوع العلاقات والنظم والسلوك ولكنها لا تحتم قيام نمط معين من الحياة الاجتماعية والحضارية ، لذلك نرى ان علماء الاجتماع بصورة عامة وعلماء الانثروبولوجية الاجتماعية الوظيفية البنائية على الاخص يؤكدون على اهمية نوع التكيف الذى يتم بين الجماعات المختلفة وبين الظروف الطبيعية المحيطة بكل منها ، والى أى مدى ، والى اى حد تسهم هذه الظروف فى تفسير العلاقات والنظم السلوكية دون ان يقر بحتمية هذه الظروف وسيطرتها على

---

5 -- Evans, Pritchard, E. E., "*the Nuer*" Adescraption of Liveli hood and political institution of Nilotic people. London, Oxford University Press, 1950, pp. 51-57.

الانسان والجماعات وفعالياتها[٦] كما يذهب الى ذلك دعاة الحتمية الطبيعية[٧] .

**الدراسة الحقلية :**

تهدف هذه الدراسة الحقلية الى التعرف على طبيعة التفاعل والتأثير المتبادل بين الظروف الطبيعية فى واحة شفاثة وسكانها وتحركاتهم ونظمهم الاجتماعية وانماطهم السلوكية واساليبهم الحياتية وبالتالى تهدف الى دراسة التغيرات التى طرأت على الظروف الطبيعية فيها واثر هذه التغيرات فى تغير العلاقات والنظم والانماط السلوكية لسكان الواحة .

---

6 -- Lienhardt, G., "*Social anthropology*" Home University Library, London, 1964, pp. 44-48.

(٧) دعاة الحتمية الطبيعية من امثال ، مونتسكيو ، ورتر ، وهمبولت ، وديمولان ، ألن سمبل ، هنرى بكل ، وهنتكتن اكدوا ككل ، على الرغم من الاختلاف فى درجة التأكيد بدرجة أو باخرى ، على ان الظروف الطبية الجغرافية تقرر شكل العلاقات والنظم والانماط السلوكية للجماعات الانسانية المختلفة بصورة حتمية ، فالتباين فى الظروف الطبيعية ــ على ما يعتقد هؤلاء ــ يؤدى بصورة حتمية الى تباين فىالعلاقات والنظموالاساليب الحياتية ليس هذا فقط بل ذهبوا الى أبعد من ذلك بكثير الى حد انهم قالوا ان شكل الانسان الجسمانى وتركيبه البدنى وقابليته العقلية ومقدار فعالياته ونشاطاته المختلفة ما هى الا نتيجة حتمية من نتائج البيئة الطبيعية المحيطة به والوسط الجغرافى الذى يكتنفه ، فالانسان على ما يرى هؤلاء صنيعة من صنائع الطبيعة تشكله بالقالب الذى تريده فهو عبد لها وآلة مسخرة بيدها : ينظر :نيقولا تيماشيف « المرجع السابق » ص ٨٣ ــ ٨٥ .

الدكتور حسن شحاته سعفان « **تاريخ الفكر الاجتماعى والمدارس الاجتماعية** » دار النهضة المصرية . القاهرة ١٩٦٢ ص ١١٢ــ١١٥ .

الدكتور مصطفى الخشاب « **علم الاجتماع ومدارسه** » الكتاب الثانى ، **المدخل** لعلم الاجتماع القاهرة ١٩٦٠ ، مطبعة لجنة البيان العربى ص١٤٧ .

الدكتور منير شابك موسى ، « **المطول فى علم الاجتماع** » الكتاب الاول « **فى علم الاجتماع العام** » « دمشق ، مطبعة جامعة دمشق ١٩٥٩ ص ١٨٣ــ٢٨٣ .

الدكتور محمد سيد غلاب « **البيئة والمجتمع** » الاسكندرية ، دار الطالب ، ١٩٥٥ ص ٣ــ٢٤ .

لقد استغرقت فترة الدراسة الحقلية للواحة ثلاث سنوات بدأت عام ١٩٦٨ وانتهت عام ١٩٧١[٨] استخدمت خلالها فى دراسة الواحة منهج البحث للمدرسة الانثروبولوجية الوظيفية البنائية الذى يقوم على الملاحظة المباشرة والمشاركة والمقابلة لافراد مجتمع الواحة فى اثناء تبادلهم للعلاقات الاجتماعية وفى اثناء تفاعلهم مع بعض مظاهر الظروف الطبيعية المستقرة والمتغيرة التى تحيط بهم والتى تتجسد اولا : فى موقعها الجغرافى ، وثانيا : فى مياه العيون[٩] • ان هذه الظروف أثرت فى التحركات والنظم والسلوك الاجتماعى الواحة ، فسكان الواحة ـ كما سنرى ـ يصادفون بسبب هذه المظاهر الطبيعية ، صعوبات ليس من السهل الميسور السيطرة عليها وخاصة فى المستوى العلمى والحضارى المتخلف الذى يعيشه هؤلاء السكان الا انهم مع ذلك يحاولون ان يكيفوا تحركاتهم ونظمهم وسلوكهم الاجتماعى ، بصورة تقلل من مفعولها وتعدل من تأثيرها المباشر عليهم ، ليتمكنوا من المعيشة والبقاء ، وفيما يلى من البحث سوف نبين اهم خصائص المظهرين الطبيعيين السابقين واثرهما فى مجتمع الواحة •

**المظاهر الطبيعية فى الواحة :** وتتمثل فى :

اولا : الموقع الجغرافى تقع واحة شفاثة فى الاطراف الشرقية من

---

(٨) نظرا لظروف الباحث الصعبة فى الاقامة الدائمة فى الواحة ومناطق هجرة سكانها فقد لجأ الى اسلوب الزيارات المتقطعة ، والاقامة المؤقتة ، فى فترات مختلفة ، خلال العطل الصيفية والربيعية والاسبوعية بدل الاقامة الدائمة فى الواحة وتلك المناطق بحكم عمله الجامعى •

(٩) لم احاول التعرض للظروف الطبيعية السائدة فى الواحة ككل وانما قصرت اهتماعى على مظهرين منها وهما الموقع ومياه العيون لان الدراسة التفصيلية لهذه الظروف من اختصاص الجغرافيين وليس من الانثروبوجيين والاجتماعيين ولان بقية مظاهر الظروف الطبيعية ليس لها اثر كبير يبلغ فى درجة تأثيره درجة تأثير المظهرين السابقين فى حياة مجتمع الواحة •

البادية الشمالية كمايتضح ذلك من الخارطة رقم (١) وضمن منطقة الوديان السفلى من الهضبة الغربية[١٠] على بعد ٦٧ كيلو مترا غرب مدينة كربلاء وعلى بعد ٨٠ كيلو مترا جنوب غرب مدينة الفلوجة ، وهى من اهم الواحات الواقعة فى الاطراف الشرقية للهضبة الغربية والممتدة فى خط محاذ تقريبا الى الاطراف الغربية من نهر الفرات[١١] .

---

(١٠) الهضبة الغربية الصحراوية العراقية جزء من هضبة جزيرة العرب، وتنحدر هذه الهضبة فى اتجاه الشرق والجنوب الشرقى ، حتى تنتهى فى سهل وادى الفرات ، وسطح هذه الهضبة وخاصة القسم الذى يؤلف البادية الشمالية ـ يقسم بموجب تركيب الطبقات الجيولوجية ـ وشكل السطح ونوع التكوينات التى تغطيه ونظام صرف المياه السطحية وموارد المياه الجوفية ، الى المناطق الطبيعية التالية : منطقة الدبدبة ، منطقة الحجارة ، منطقة الوديان العليا ، منطقة الوديان السفى ، التى تقع ضمنها واحة شفاثة،

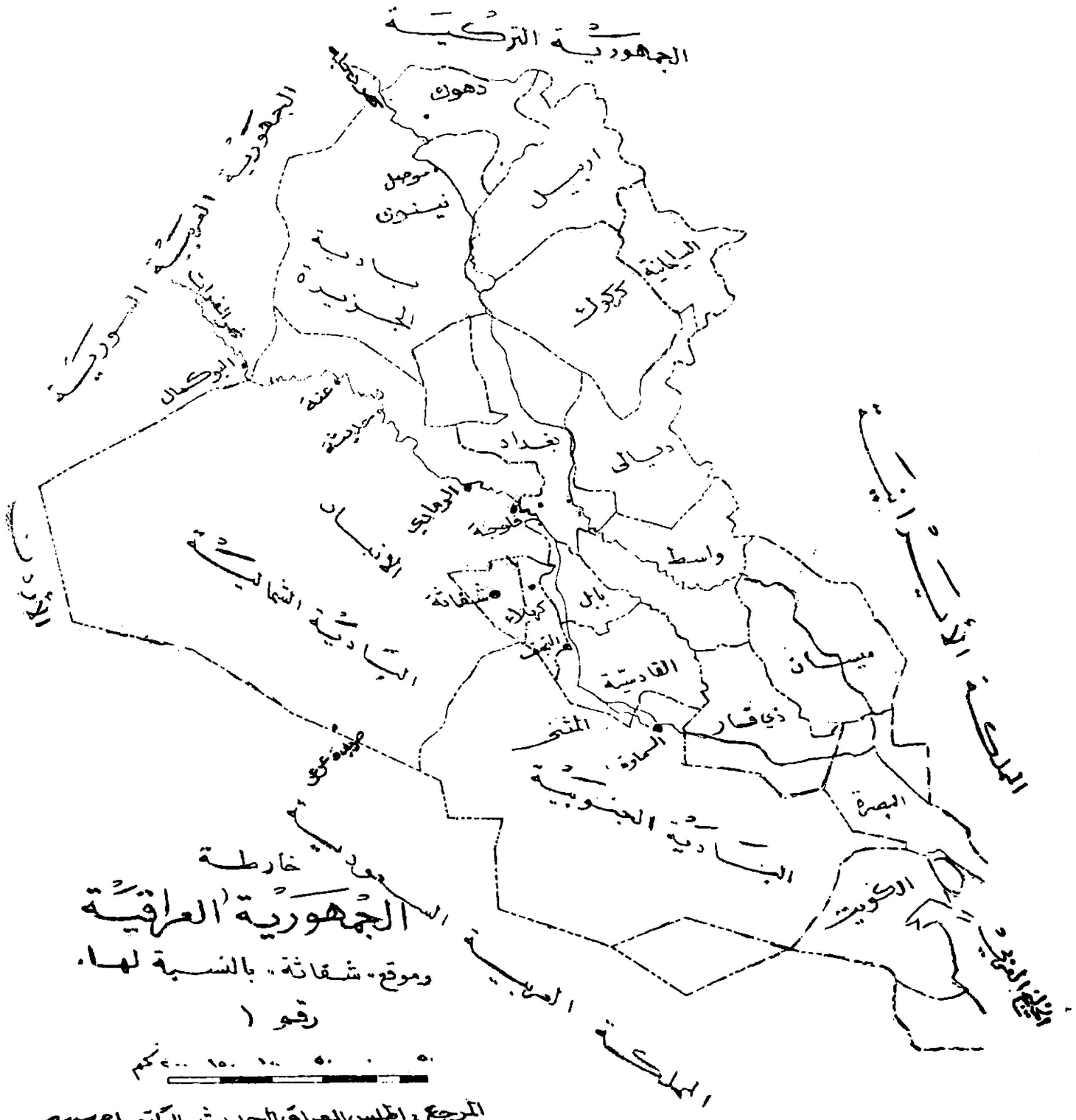
وتتكون هذه المنطقة من شريط مستطيل الشكل يمتد من الحدود السورية شمالا وينحدر جنوبا محاذيا لضفة الفرات الغربية ، ويأخذبالضيق النسبى فى الجهات الشمالية من واحة شفاثة ثم يتجه الى الجنوب الشرقى حتى ينتهى بالبادية الجنوبية وتوجد فى هذه المنطقة اضافة الى واحة شفاثة واحة كبيسة وواحة الرحالية وواحة عين حمود غرب مدينة اور الاثرية ينظر :

الدكتور محمد حامد الطائى « **واحة عين تمر** » دراسة جغرافية اقليمية ، مجلة الاستاذ ، كلية التربية ، جامعة بغداد المجلد الثانى عشر ، ١٩٦٤ ص ٤٨ـ٤٩ .

الدكتور نورى خليل البرازى « **البدو والاستقرار فى العراق** » القهارة ، معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٦٩ ص ٥٠ .

الدكتور جاسم محمد الخلف « **محاضرات فى جغرافية العراق الطبيعية والاقتصادية والبشرية** » معهد الدراسات العربية العالية الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦١ ص ٥٠ .

(١١) الدكتور جاسم محمد الخلف « المرجع السابق » ص ١٦٤ .




خارطة

# الجمهورية العراقية

وموقع شقاثة بالنسبة لها

رقم ١

٠ ٥٠ ١٠٠ ١٥٠ ٢٠٠ كم

المرجع : اطلس العراق الحديث - الدكتور احمد سوسه

يحد الواحة كما يتبين لنا من الخارطة رقم(٢) من الشمال منخفض (أبو دبس)[١٢] ومن الجنوب منطقة السلام التابعة لقضاء النجف ، وتحدها من الشمال الغربى منطقة شريش التابعة لمحافظة الانبار ومن الغرب الاطراف الشرقية من البادية الشمالية ، ومن الشرق مرتفعات الطار الواقعة غرب مدينة كربلاء •

ثانيا : مياه العيون : لقد اسهمت مياه العيون الكبريتية الرئيسية الثلاثة[١٣] ومياه العيون الصغيرة[١٤] ومياه بعض الابار

---

(١٢) يقع منخفض ( ابو دبس ) الى الجنوب من مشروع خزان بحيرة الحبانية ـ الذى هو جزء منه ـ بمسافة تقارب ٧٠ كيلو مترا ، ويتكون هذا المنخفض من وهدتين ، هما الوهدة الغربية وتسمى بـ « بحر الملح » وتمتد هذه الوهدة من الشمال الى الجنوب حتى تتصل اطرافها الغربية بحدود واحة شفاثة اما الوهدة الاخرى ، فتدعى بـ هور ( ابو دبس ) وتقع الى الجنوب الشرقى من وهدة ( بحر الملح ) من اتجاه الشمال حتى تتصل بحدود ذنائب جدول الحسينية ، المتفرع من نهر الفرات من امام سدة الهندية ، وهى أصغر حجما من وهدة بحر الملح ويطلق اسم منخفض ( ابو دبس ) على هاتين الوهدتين ، انظر خارطة رقم (٣) ويستوعب هذا المنخفض عند منسوب ٣٧ مترا فوق سطح البحر حوالى عشرين مليار متر مكعب من الماء ، وبوجود المياه فى هذا المنخفض وارتفاعها وانخفاضها فيه اثار على اراضى واحة شفاثة وسكانها ونظمهم وانماطهم السلوكية واساليبهم الحياتية سوف نعرض لها فى هذا البحث • ينظر :

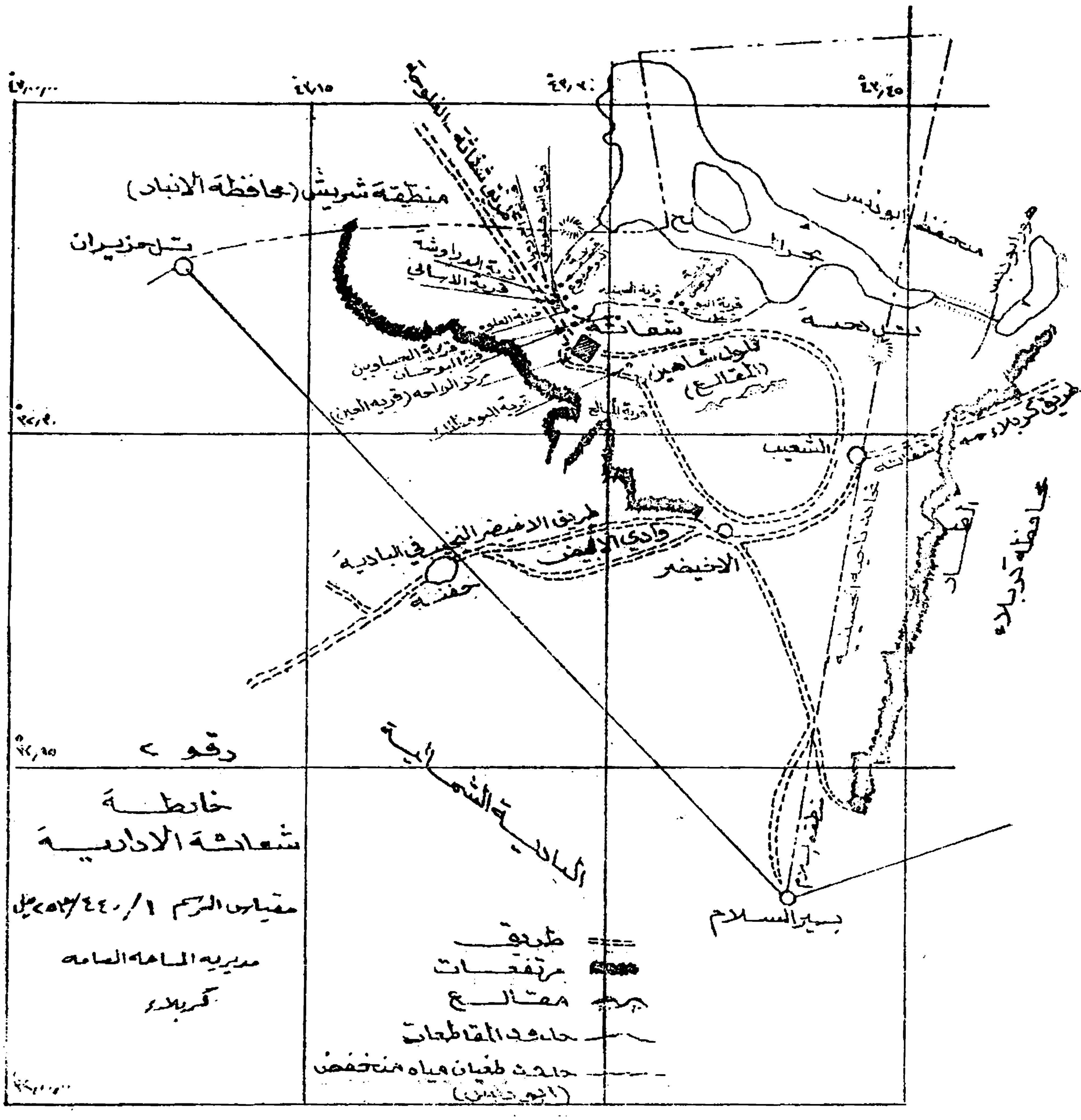
الدكتور احمد سوسه « **فيضانات بغداد فى التاريخ** » القسم الثالث ، بغداد مطبعة الاديب ، ١٩٦٥ ص ٧٦٣ـ٧٧٦ •

الدكتور جاسم محمد الخلف « المرجع السابق » ص ٢٠٤ـ٢٠٥ •

(١٣) اهم واكبر العيون من حيث كميات المياه هى : العين الكبيرة ( الزركة ) و ( عين السيب ) وعين ( الحمرة ) وكميات المياه المتدفقة من هذه العيون تكاد تروى جميع بساتين الواحة •

(١٤) تنتشر فى الاجزاء المختلفة من اراضى الواحة مجموعة من العيون الصغيرة ، التى تروى مساحات محددة من الاراضى والبساتين ومن اهم هذه العيون هى : عين الضابط ، عين عبد المهنة ، عين بيت السمنية ، عين الفتنة ، عين جاسم النجم ، عين بركة ، عين محريجه ، عين سداح ، عين ام كبارة ، عين فيضه ، عين السودة : ينظر :

طالب الشرقى : ( المرجع السابق ) ص ٧٣ـ٧٤ •


منطقة شريش (محافظة الانبار)
تل حزيران
قرية الدراوشة
قرية الاحمالي
قرية العلوان
قرية العساوين
قرية البوحسان
مركز الواحه (قريه العين)
قرية البوحمالين
شعاثة
تلول شاهين (المقالع)
قرية البو
قرية الصبه
بحيرة
البوغاس
تل دهمه
الشعيب
طريق فرعي الى الشعيبة
وادي الاثيف
الاخيضر
حفنة
طريق الاخيضر النخيب في البادية
بير السلام
طريق كربلاء
محافظة كربلاء
٤٧,٠٠
٤٧,١٥
٤٧,٣٠
٤٧,٤٥
٢٧,٣٠
٢٧,١٥
رقم ٢
خارطة
شعاثة الادارية
مقياس الرسم ١/٤٠٠٠٠
مديرية المساحة العامه
كربلاء
الخارطة الشعاثية الادارية
طريق
مرتفعات
مقالع
حدود القاطعات
حدود طغيان مياه منخفض (ابو حسان)

الفلوجه

الروايذ نهر الفرات

بحيرة الحبانية

اراضي صحراويه منخفضة

الخسيب

سدة الهندية

الشمال

منخفض

سدة الوزانه

منخفض ابو دبس

هورابي دبس

الملح

بحر

قرية البوحريوع

قرية البوشبار

قرية البوطريش

قرية العذبه

قرية الدراوشة

شفاثة

رقم ٣

خارطة مشروع الحبانية ومنخفض ابودبس

وموقع شفاثة بالنسبة لهما

المقياس ١/ ٥٠٠,٠٠٠

كم ٠ ٥ ١٠ ١٥ ٢٠ ٢٥ ٣٠ ٣٥ ٤٠ ٤٥ ٥٠

المرجع فيضانات بغداد في التاريخ د. احمد سوسه

الارتوازية[١٥] فى خفض نسبة خصوبة تربة الواحة المتباينة الخصوبة فى اجزائها المختلفة[١٦] لماتحمله من املاح، وقد ترتب على انخفاض خصوبة التربة انخفاض انتاجيتها وبالتالى عائد سكان الواحة منها • وقد ترتب على الانخفاض الاخير حدوث تغييرات اجتماعية وحضارية سنعرض لها •

من العرض الموجز السابق لبعض مظاهر الظروف الطبيعية فى الواحة ، نرى ان لهذه المظاهر تأثيرات اجتماعية وحضارية تتجسد بما يلى :

اولا : وقوع الواحة فى الاطراف الشرقية من البادية الصحراوية وفى الاطراف الصحراوية الغربية لوادى الفرات على مسافة ٦٧ كيلو مترا من مدينة كربلاء ، وعلى مسافة تقارب ٨٠ كيلو مترا من مدينة الفلوجة ادى هذا الى قربها النسبى من المراكز الحضرية والى قربها كذلك من مراكز البدو وتحركاتهم فى البادية ، وبالتالى يسر لها هذا القرب زيادة التفاعل والاتصال بهذه المراكز ـ على الرغم من وعورة الطرق الترابية الصحراوية التى تربطها بها ـ وقد ترتب على هذه الحالة قبل عام ١٩٤٨ تحول الواحة الى سوق نشطة وكبيرة تمول بدو سوريا والاردن والعراق ، بالملابس والاقمشة والسلاح والتمور ، التى كانت تعتبر الغذاء الرئيسى لهؤلاء البداة ، وتمكنهم

---

(١٥) تروى بعض اجزاء من اراضى الواحة بواسطة ابار ارتوازية ومن اهم هذه الابار : بئر سداح ، وبئر عوينه ، وبئر قرية المالح : ينظر : طالب الشرقى : « المرجع السابق » ص ٧٧ـ٧٨ •

(١٦) تربة الواحة تربة رسوبية سمراء مزيج من رواسب الرمل والطين واحجار الكلس الا ان تربة الاطراف الشرقية منها ، والمحاذية لمنخفض ( ابو دبس ) تتميز بانها تربة ثقيلة بسبب ارتفاع نسبة الرواسب الطينية فيها ، والمنحدرة اليها ، من وديان الهضبة الغربية والتى تصب فى منخفض ( ابو دبس ) اما الاقسام الشمالية من الواحة فعارية من التربة وتظهر فيها فيها الصخور الجيرية والكلسية : ينظر :

الدكتور فليح حسن الطائى « **حصر وتقييم موارد التربة والاراضى فى تخطيط مشاريع التنمية الزراعية** » بحث قدم للمؤتمر الفنى الدورى الاول لاتحاد المهندسين الزراعيين العرب ، المنعقد فى الخرطوم فى كانون الاول عام ١٩٧٠ ص ١٣ •

من بيع فائض اغنامهم وآبلهم ومنتجاتها فيها ، ولقد أدت حركة السوق النشطة هذه الى مجيء قسم من تجار التمور والاقمشة والسلاح من مدن محافظتي كربلاء والانبار الى الواحة في مواسم جني التمور وبيعها ، وهي مواسم حركة هذه السوق ، بل دفعت بقسم من هؤلاء التجار الى فتح محلات لهم فيها والاقامة بين سكانها • لقد أدت حركة السوق النشطة هذه الى تحول الواحة ، وخاصة مركزها ، الى مركز وبوتقه للتفاعل الاقتصادى والاجتماعى والحضارى بين الحضر ونظمهم وقيمهم والبدو ونظمهم وانماط سلوكهم من جهة وبين الحضر والبدو ونظمهم وقيمهم ككل وسكان الواحة ونظمهم وتقاليدهم وعاداتهم من جهة اخرى وترتب على هذا التفاعل تغيرات اقتصادية واجتماعية وسلوكية • فقد أدت حركة السوق الاقتصادية النشطة الى ارتفاع مدخولات سكان الواحة من التمور ، ومن حركة البيع والشراء التى اسهم قسم قليل منهم فيها اضافة الى التجار الحضر الوافدين عليها •

ان ارتفاع مدخولات سكان الواحة وتفاعلهم مع البدو والحضر ادى الى ارتفاع مستوى معيشتهم بصورة نسبية ويسر هذا الارتفاع والاتصال الاجتماعى والحضارى توسيع دائرة علاقاتهم الاجتماعية خارج وحداتهم القرابية العشائرية ، بدرجة وباخرى ، ومكنهم من ترسيخ بعض قيمهم التقليدية خاصة قيم الضيافة التى اخذت تمارس على نطاق واسع وكبيرة فى ضيافة جماعات البدو وتجار الحضر الوافدين •

ان حالة الانتعاش الاقتصادى هذه فى الواحة لم تدم بعد عام ١٩٤٨ فقد اخذ تردد البدو على الواحة يقل بصورة تدريجية حتى ان هذا التردد انكمش وانحسر بل كان يكون فى حكم المنعدم فى الاعوام التى تلت عام ١٩٥٢ ، بسبب انتشار وسائل النقل الحديثة فى العراق ، بصورة عامة مما مكن تجار المدن من نقل ما يحتاجه البدو من بضائع وسلع الى ديارهم ، ليس هذا فقط بل ان غالبية البدو اخذوا يستخدمون السكر والشاى كآدام

لهم بدل التمر ، اضافة الى ان قسما كبيرا منهم انتقل الى المدن العراقية والسورية والاردنية واستوطنها ، بل ان قسما آخر منهم هاجر من بوادى اقطار المدن السابقة الى الكويت والسعودية واخذ يعمل فى مراكز استخراج البترول وبعض المؤسسات الحكومية والاهلية فى تلك الاقطار • ان انقطاع مجيء البدو الى الواحة وانقطاع مجيء التجار الحضر اليها ادى الى حدوث ركود اقتصادى وبالتالى ادت هذه الظاهرة الى انخفاض اسعار التمور ، بحيث اصبحت اسعارها لا تسد تكاليف انتاجها فى بعض المواسم ، ان هذه الحالة ادت الى انخفاض مدخولات سكان قرى الواحة وبالتالى ادت الى انخفاض مستوى معيشتهم وروجوعهم مرة ثانية الى ظاهرة الالتفاف الكلي او الجزئى حول وحداتهم القرابية العشائرية والتمسك بنظمها وقيمها وعاداتها فى التناصر والتضامن بصورة اضعف نسبيا عما كانت عليه قبل فترة الانتعاش الاقتصادى ، لان مثل هذا الالتفاف ، يوفر لهم الحماية والضمان ، ويمكنهم من تطمين حاجاتهم المتعددة عن طريق توفير نمط من التكامل الاقتصادى والاجتماعى فيما بينهم يلزم اعضاء كل وحدة قرابية بالتعاون والتناصر والتضامن فى كل الاوقات وفى مختلف الظروف الحياتية التى يمرون فيها • وعلى الرغم من ان الالتفاف يمنح الوحدات القرابية العشائرية كل المميزات السابقة الا انه يسهم من ناحية فى تجزئة مجتمع الواحة الى وحدات قرابية عشائرية متمايزة مغلقة لكل منها ارضها ونظامها الاقتصادى والسياسى والاجتماعى الخاص بها ، ويتمثل نظامها الاقتصادى فى قصر استغلال ارضها على جماعتها القرابية العشائرية ولا حق لغير من ينتسب لهم باستغلالها ويتمثل نظامها السياسى فى وجود عدد من كبار السن فيها يسهمون فى حل الخلافات والمخاصمات التى تنشب بينهم من جهة وبينهم وبين الوحدات الاخرى من جهة ثانية ويتمثل نظامها الاجتماعى بتنظيم علاقات اعضائها فى مختلف المجالات بما يحقق الانسجام والتضامن القرابى •

ان هذه الجماعات العشائرية فى الواحة على الرغم من ان لها كيانات مغلقة ومتمايزة الا ان التغيرات فى الظروف الطبيعية التى طرأت على الواحة منذ عام ١٩٦١ بسبب غرق بعض قراها كما سنرى ادت الى احداث تغيرات اجتماعية وحضارية فيها اضافة الى التغيرات الاخرى التى حدثت نتيجة لاتصال سكان الواحة بالمدن وانتشار التربية والتعليم بينهم ونتيجة لحركة الهجرة الجزئية التى تعرضت لها الواحة على أثر انقطاع مجيء البدو اليها كما رأينا ، كل هذه العوامل والظروف أدت الى ضعف الانغلاق الاجتماعى بصورة نسبية وبدرجات متفاوتة لدى الوحدات القرابية العشائرية المنتشرة فى الواحة • وضعف هذه الانغلاق بصورة عامة ادى الى انفتاح الوحدات القرابية العشائرية على بعضها البعض بنطاق ضيق ومحدود ، بحيث ان انفتاحها هذا لم يؤد الى اندماجها ككل فى مجتمع الواحة الشامل فهذا الاندماج لم يتبلور تماما فما زالت لهذه الوحدات المتمايزة المنغلقة بعض خصائصها وصفاتها المميزة لها عن غيرها •

ان وقوع الواحة فى الاطراف الجنوبية والجنوبية الغربية من منخفض ( ابو دبس ) قد ادى الى تهديد قرى ( كصور ) الواحة بالغرق كلما ارتفعت مستويات المياه فيه وخاصة بعد تاريخ ٥-٤-١٩٥٦ وهو تاريخ استخدام المنخفض كخزان لمياه الفرات وقد اسهمت مياه هذا المنخفض بالفعل فى غرقة قرية البو طريمش وقرية البو شبل عام ١٩٦٢ كما أدى الى غرق قرية البو جربوع وقرية السمنية عام ١٩٦٦ وغرق قرية العلوة وقرية الدراوشة عام ١٩٦٨ • وارتفاع مستويات المياه فى المنخفض سنة بعد اخرى يهدد كذلك بقية قرى الواحة • لقد ادت عمليات غرق القرى السابقة الى هجرة سكان هذه القرى الى مدينة الفلوجة والى مدينة كربلاء والى قرى الواحة الاخرى التى لم تتعرض الى الغرق • وقد ترتب على حركة الهجرة خارج الواحة حدوث تغيرات فى النظم والانماط السلوكية والاساليب

الحياتية في الجماعات المهاجرة واقاربهم الباقين في بقية قرى الواحة الاخرى التي تتعرض للغرق • فقد ادت حركة الهجرة الى تمتع المهاجرين بالحرية الفردية النسبية في اثناء اقامتهم في المدن نتيجة لبعدهم عن السلطة العشائرية وسائل الضبط الاجتماعي الجبرى فيها مما ادى الى ضعف التزامهم بالاعراف والتقاليد العشائرية التقليدية التي كانوا يلتزمون بها قبل هجرتهم بصورة نسبية دون ان يتخلوا عنها كليا فقد حلت مثلا الضيافة على نطاق ضيق وبحدود محل الضيافة على نطاق واسع كبير وحلت انماط السلوك المتعددة والمتنوعة في التصرف والمظهر نسبيا محل انماط السلوك التقليدية المتشابهة والمتماثلة والمتجانسة والتي كانوا يمارسونها قبل الهجرة ، وتعددت الممارسات والادوار والوظائف والتخصصات الاجتماعية بعد ان كانت بسيطة محدودة حسب الجنس والعمر سابقا ، واتجه البعض منهم الى حل مخاصماته ومنازعاته بواسطة السلطة الادارية المركزية بدلا من ان يتجه الى مجالس التحكيم العشائري التقليدية التي تحكم حسب قواعد العقاب والجزاء العشائري والتي كانت تبت في مثل هذه المخاصمات والمنازعات ليس هذا فقط بل أخذ قسم منهم لا يسهم في دفع نقود التعويضات والفصول العشائرية الجماعية والفردية ، التي تكلفه بها وحدته العشائرية ، بعد ان كان يسهم بدفعها بصورة تلقائية ، وبدون تردد • اضافة لما سبق فقد ضعف نسبيا التزام قسم منهم بالطقوس والممارسات الدينية التقليدية كزيارة العتبات المقدسة في كربلاء والنجف وسامراء وممارسة الطقوس الحسينية خلال الايام العشرة الاولى من شهر محرم وخلال الاربعين يوما التي تمر على مقتل الحسين (رض) •

ان حركة الهجرة الى مدينة كربلاء والفلوجة أدت الى زيادة السخط على هؤلاء المهاجرين من سكان تلك المدينتين لمنافستهم في أعمالهم المختلفة ، ولكونهم يقبلون العمل باجور أقل مما يريده سكان تلك المدينتين ، أضف الى

ذلك تباين تقاليدهم وعاداتهم وانماط سلوكهم بصورة نسبية ، عما هو موجود في المدينتين ، كل هذا أدى الى أن يلجأ المهاجرون الغرباء الى نـوع من المقاومة الخفية التي تتمثل في الالتفاف حول بعضهم البعض وفي التكتل معا في مجالات العمل المختلفـة وفي السكن في أمـاكن معينـة من المـدينتين السابقتين ، بحيث يؤلفون جزرا حضارية ومجاميع سكنية متمايزة على أساس أصـل النسب العشائري والجماعة الاقليمية ( القرية ) التي كانوا ينتمون اليها قبل الهجرة ، الا انه على الرغم من هـذا التكتل القرابي العشائري ، نرى ان عوامل التضامن فيما بينهم لا تبلغ درجة شدتها تلك ، الدرجة التي كانت موجودة بينهم قبل هجرتهم الى المناطق الجديدة •

ان غرق بعض قرى الواحة لم يؤد الى حركة الهجـرة والتغييرات الاجتماعية والحضارية السابقة ، بل أدى أيضا الى انتقال بعض سكان تلك القرى ، ممن بقوا في الواحة ، الى السكن على حافات منخفض (أبو دبس) ، وبالتالي أدى الى تكيف هؤلاء السكان مع الظروف الطبيعية الجديدة التي خلقتها عملية الغرق ، فغيّر هؤلاء نشاطهم الاقتصادي بصورة تدريجية من مهنة الزراعة والرعي الى مهنة صيد الاسماك التي أصبحت متيسرة وموجودة بسبب الاعداد الكبيرة التي تحتويها مياه منخفض ( أبو دبس ) منها • وقد ترتب على تغير النشاط الاقتصادي حدوث تغيرات في النظـم والانمـاط السلوكية التقليدية لهؤلاء السكان فمهنة الصيد تتطلب بقاء الصيادين فترة طويلة من الليل في مياه منخفض ( أبو دبس ) لغرض نصب شباك صيـد الاسماك(١٧) •

ان بقاء الصيادين في منخفض ( أبو دبس ) في الليل أدى الى غياب

---

(١٧) ان فترة الليل هي اصلح فترة لنصف شباك الصيد في المياه حيث ان رؤية السمك في الليل للشباك اضعف بكثير من رؤيتها لـه في النهار ، لذلك لا ترى الاسماك الشباك في الليل اذا ما نصبت لاصطيادها •

من يشرف على الضيافة فى مساكنهم ، وهي عادة فى الامسيات والليالي ، مما أدى الى ضعف الالتزام بقيم اضافة الضيف التقليدية نسبيا وبصورة تدريجية على الرغم من بقاء بعض ملامحها البسيطة التي تتم فى حدود ضيقة جدا •

لقد أدت هذه الظاهرة الى ضعف وظيفة المضيف الاجتماعية الى درجة كبيرة فى حل المخاصمات والمنازعات والمشكلات المختلفة للوحدات العشائرية وفى القيام بالمجالس الحسينية والمآتم والافراح وفى تعليم الاعراف والتقاليد والآداب العامة العشائرية التقليدية لان المضايف هي المدارس الاجتماعية الاولى التي يتعلم فيها سكان القرى سننهم الاجتماعية ، مما أدى الى ضعف ترسيخ وتكريس القيم التقليدية وبالتالي الى ضعف الالتزام بها من قبلهم •

ان غياب الرجال لصيد الاسماك فى الليل ولبيعه فى النهار لم يؤد الى ما سبق فقط بل أدى ايضا الى ضعف التضامن العشائري القرابى نسبيا بسبب قلة التقاء أعضاء تلك الوحدات مما أدى الى انخفاض فى كثافة العلاقات والتفاعلات فيما بينهم عن السابق حيث كانت فرص التقائهم كبيرة وكثيرة عندما كانوا يزاولون العمل الزراعي والرعوي • اضافة الى هذا أدت الحياة الجديدة الى ضعف الاشراف والسيطرة على أفراد العائلة نسبيا عما كانت عليه سابقا مما أدى الى ضعف السلطة الابوية بدرجة أو بأخرى فيها •

وغرق بعض قرى الواحة لم يؤد الى حركة هجرة قسم من سكان تلك القرى وتحول القسم الآخر الى مهنة صيد الاسماك بل أدى أيضا الى تحول قسم قليل منهم الى مهنة قلع الاحجار فى المقالع الحجرية فى تلول أم صفية[١٨] الامر الذي يتطلب بقاءهم فى منطقة المقالع طيلة الاسبوع فيها

---

(١٨) تقع الى الجنوب والجنوب الغربى على بعد اربعة كيلو مترات.

عدا ليلة الجمعة التي ينزلون فيها الى عوائلهم الموزعة فى مستقرات بسيطة انشأت حديثا بين ( قرى الحساويين ) و ( البومطلك ) و ( المالح ) وفى بعض البيوت الموزعة فى أجزاء متفرقة من الواحة • ان غياب هذا القسم من الرجال فى معظم أيام الاسبوع أدى الى ضعف الاشراف الابوي والعائلي مما أدى الى ضعف نسبي فى التمسك فى الاعراف والتقاليد العشائرية التقليدية اضافة الى أنها أدت الى تغيرات فى العلاقات والنظم الاجتماعية تماثل الى حد كبير تلك التغيرات التي حدثت اثر حركة الهجرة خارج الواحة والتغيرات التي حدثت أثر مزاولتهم لمهنة صيد الاسماك •

ثانيا : قلة معدل الامطار الساقطة على الواحة أدت الى التجاء سكان قرى الواحة ككل قبل غرق بعض هذه القرى والتجاء سكان القرى التى لم تتعرض للغرق الى مياه العيون الكبيرة والصغيرة والآبار الارتوازية ـ التي تكلمنا عنها سابقا ـ لرى مزروعاتهم • ان الاعتماد على هذه المياه التى تحتوى على نسبة عالية من الاملاح والمواد المعدنية والكبريتية أدى الى زيادة ضعف خصوبة تربة الواحة المتوسطة الجودة بدرجات متفاوتة فى المناطق المختلفة من أرضها وبالتالي أدت هذه الحالة بصورة عامة الى ضعف انتاجية وحدة الساحة منها من المحصولات الزراعية ليس هذا فقط بل ان معظم أراضي الواحة تحولت بسبب هذه المياه الى أرض لا تصلح الا لزراعة المحصولات التي تتحمل الملوحة كالنخيل ، والجت ، وبعض أشجار الفواكه والخضراوات فى الاراضى التى قد تنخفض فيها نسبيا نسبة الملوحة والتى تستمد بالاسمدة الحيوانية من أجل زيادة فعاليتها الانتاجية • ان انتاجية هذه المحصولات

---

مركز واحة شفاثة مجموعة تلول تسمى محليا بتلول شاهين توجد فيها مقالع للاحجار وتسمى محليا مقالع ام صفية تزود معمل سمنت سدة الهندية منذ سنة ١٩٥٦ وحتى الوقت الحاضر بالاحجار التى تستخدم فيها كمادة اولية فى صناعة السمنت • ولهذه المقالع اثر كبير فى تحريك سوق العمل فى الواحة •

ككل منخفض أدى الى انخفاض مدخولات الفلاحين ، وبالتالى ترتب على هذا الانخفاض ـ خاصة بعد ركود سوق الواحة أثر انقطاع مجيء البدو اليها بعد عام ١٩٤٨ ـ انخفاض مستوى معيشة الغالبية العظمى منهم وبقائهم يعيشون عيشة كفاف ان هذه الظروف المعاشية وهذا النمط من عيش الكفاف دفع قسما قليلا من العناصر الشابة الى الهجرة الى مدينة كربلاء ومدينة الفلوجة بعد عام ١٩٤٨ وازداد حجم هذه الهجرة بعد تعرض قسم من قرى الواحة التي ذكرناها سابقا الى الغرق ، وقد ترتب على حركة الهجرة هذه تغييرات اجتماعية حضارية تماثل تلك التى تكلمنا عنها سابقا عندما تعرضنا لآثار الهجرة التي حدثت على أثر غرق بعض قرى الواحة ليس هذا فقط بل ان ضعف الانتاجية الزراعية للارض وركود حركة السوق أثر فى التفاف من بقى فى الواحة من العناصر البشرية غير الشابة على قيمها ونظمها التقليدية الى حد ما لتكون حامية لهم اضافة للحماية الاقتصادية التي يوفرها قسم من المهاجرين لاقاربهم الباقين فى الواحة عن طريق ارسال النقود وما يحتاجون اليه بين فترة واخرى ..

والخلاصة من كل ما تقدم يمكن أن نقول ان قسوة بعض مظاهر الظروف الطبيعية على سكان الواحة لم يمنع هؤلاء من تكيف فعالياتهم الاقتصادية والاجتماعية بما يتفق مع هذه المظاهر مهما كانت درجة قسوتها عليهم ، ومما يسر وسهل عملية التكيف هذه تعارض وتباين الظروف الطبيعية فى الواحة من جهة وقربها النسبي من المراكز الحضرية من جهة اخرى . وقد ترتب على عملية التكيف هذه حصول تغييرات فى تحركات سكان الواحة ونظمهم الاجتماعية وانماطهم السلوكية وأساليبهم الحياتية .

وعلى كل حال يمكننا أن نقول بأن تفهم طبيعة النظم والانماط السلوكية والاساليب الحياتية والتغييرات الاجتماعية الحضارية فى الواحة لا يمكن أن يتم من خلال دراسة علاقة الانسان بالانسان فقط بل من خلال دراسة

علاقات الانسان بالظروف الطبيعية التي يعيش ضمن اطارها ، حيث ان هذه العلاقة هي المظهر الاول للتفاعل بين الانسان والظروف الطبيعية ، ذلك التفاعل الذي يكشف لنا الى أي حد يتوافق الانسان ويتكيف ويتلائم مع تلك الظروف الطبيعية ويبين لنا كيف يكيف فعالياته مع مظاهرها المختلفة ليتمكن من تطمين حاجاته المتعددة وبالتالى ليضمن بقاءه واستمرار وجوده فى المجتمع(١٩) .

19 -- Rodfield., *"Peasan Seciety and culture"* Chivage, 1950, pp. 16-17.

## « مراجـــع البحث »

اولا : المراجـع العربيـة :


١ ـ الدكتور احمد ابو زيد « **البناء الاجتماعى** » مدخل لدراسة المجتمع ، الجزء الاول ( المفهومات ) الاسكندرية ، الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٥ و « البناء الاجتماعى » الكتاب الثانى « الانساق » دار الكاتب العربي ١٩٦٧ ٠

٢ ـ الدكتور احمد سوسة ـ « **فيضانات بغداد فى التاريخ** » القسم الثالث بغداد ، مطبعة الاديب ، ١٩٦٥ ٠

٣ ـ أرمـان كوفيليـه ـ « **مقدمة فى علم الاجتماع** » ترجمـة الدكتور السيد محمد بدوى وعباس احمد الشربينى ، مصر ، دار المعـارف ، ١٩٦١ ٠

٤ ـالدكتور جاسم محمد الخلف « **محاضـرات فى جغرافيـة العـراق ، الطبيعية والاقتصادية والبشرية** » القاهرة ، معهد الدراسات العربية العليا ، الطبعة الثانية ، مطبعة لجنة البيان العربى ، ١٩٥٩ ٠

٥ ـ الدكتور حسن شحاته سعفان ـ « **تاريخ الفكر الاجتماعى والمدارس** الاجتماعية » القاهرة ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٢ ٠

(٦) الدكتور سيد محمد بدوى ـ « **نظريات ومذاهب اجتماعية** » سـلسلة المكتبة الاجتماعية ، مصر ، دار المعارف ، ١٩٦٩ ٠

٧ ـ طالب الشرقى ـ « **عـين تمر** » النجف ، مطبعة الاداب ١٩٦٩ ٠

٨ ـ الدكتور علي أحمد عيسى « **ايكولوجيا الانسان** » ، القاهرة ( مجلة الثقافة ) العدد (٣٠) ، ١٩٦٣ ٠

٩ ـ الدكتور علي عبدالواحد وافي « **الوراثة والبيئة** » القاهرة دار نهضة مصر ، ١٩٧٠ ٠

١٠ـ ماكيفر ٠ ر٠ م٠ ، وشارلز هـ ٠ يدج ٠ « **المجتمع** » ترجمة الدكتور علي أحمد عيسى ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الاولى ، ١٩٥٧ ٠

١١ـ الدكتور محمد حامد الطائي « **واحة عين التمر : دراسة جغرافيـة اقليمة** » مجلة الاستاذ المجلد الثانى عشر ، كلية التربية ، جامعـة بغداد ، دار الجمهورية ، ١٩٦٤ ٠

١٢ـ الدكتور فليح حسن الطائي « **حصر وتقييم موارد التربة والاراضي ،**

**فى تخطيط مشاريع التنمية** » بحث مقدم ، الى مؤتمر الفنيين الهندسي الاول لاتحاد المهندسين الزراعيين العرب المنعقد فى الخرطوم عـــام ١٩٧٠ ٠

١٣ـ الدكتور نوري خليل البرازي « **البدو والاســتقرار فى العــراق** » القاهرة ، معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٦٥ ٠

١٤ـ الدكتور محمد السيد غــلاب « **البيئة والمجتمــع** » الاســكندرية دار الطالب ، ١٩٥٥ ٠

١٥ ـنقولا تيماشيف « **نظرية علم الاجتماع : طبيعتها وتطورها** » ترجمة الدكتور محمد عودة وجماعتــه ، الطبعــة الاولى ، القاهــرة ، دار المعارف ، ١٩٧٠ ٠

١٦ـ الدكتور مصطفى الخشاب « **علم الاجتماع ومدارسه** » الكتاب الثاني ( **مدخل لعلم الاجتماع** ) القاهرة ، مطبعة لجنة البيان العربي ، ١٩٦٠ ٠

١٧ـ الدكتور منير شابك موسى « **المطول فى علم الاجتماع** » الكتاب الاولى « **فى علم الاجتماع العام** » دمشق ، مطبعة جامعة دمشق ١٩٥٩ ٠

ثانيا : **المراجع الانكليزية :**

18 Evans - Prichard, E.E., "*the Nuer*" description of Livelihood and Pelitical institutions of anilotic people, (Oxford University Press), 1950.

19 Hawlay. A.H., "*Ruman Ecolocy*" A theary of Community studies, Ronald Press (N.Y) 1950.

20 Holling Shesd, A.B., "*Human Ecelogy*" in lee, A. N., "Prinnciple of Secielogy" Bornes and Noble, (N.Y) 1955.

21 Lienhardt. C .,"*Social anthrepolegv*" Home University Library. London, 1954.

22 Ogburn. W.F., and nimkeff. M.F., "*Hand Book of Sociology*" Routedge and Kegan Poul 4 Edition, London, 1960.

23 Redfield. R., "*Pessant Society and Culture*" Chioage. 1950.

# مفهوم الصفة والاحتجاج به في الشريعة والقانون

**الدكتور عمر عبدالعزيز**

المدرس ورئيس قسم الدين بكلية الآداب.

المفهوم : اسم مفعول من الفهم ، وهو فى اللغة : ما يستفاد من اللفظ وبهذاالاطلاق اللغوى يتناول ما يفيده اللفظ بالتصريح به ، أو التلويح به لان المعانى المستفادة من الالفاظ تستفاد منها تارة من جهة النطق تصريحا وتارة من جهته تلويحا[1] . والاصوليون يريدون بالمفهوم المعنى الثانى ، اذ انهم يعرفونه بأنه : دلالة اللفظ على معنى لا فى محل النطق . ويقصدون دلالة اللفظ على حكم شىء لم يذكره المتكلم فى كلامه ولم ينطق به[2] وتسمية ذلك بالمفهوم نظرا الى كونه مفهوما مجردا وعدم استناده الى منطوق، وهذا هو الذى حمل الاصوليين على تخصيصه بهذا الاسم والا فما دل عليه المنطوق ايضا مفهوم لان المعنى لا ينطق به وانما ينطق بالدال عليه ، الا انه لما لم يكن مفهوما مجردا بل استند الى منطوق حيث ذكر فى الكلام ما يدل عليه ونطق به المتكلم سمى بالمنطوق ولم يطلق عليه الاصوليون اسم المفهوم[3] والمفهوم مثل حرمة ضرب الوالدين المستفادة من قوله تعالى « ولا تقل لهما أف »[4] فالآية دلت على حكم شىء وهو الضرب لم يذكر

---

(١) راجع تسهيل الوصول الى علم الاصول . للمحلاوى ص١٠٧ طبعة الحلبي .

(٢) المرجع السابق ص١٠٨ .

(٣) المستصفى من علم الاصول . للغزالى جـ٢ ص٤٣ ط مصطفى محمد .

(٤) سورة الاسراء آية ٢٣ .

في الكلام ولم ينطق به بل هو مفهوم مجرد • وكعدم وجوب الزكاة في الغنم المعلوفة المستفاد من قوله (ص) « في الغنم السائمة زكاة » عند القائلين بحجية مفهوم المخالفة • فالحديث دل على حكم شيء وهو المعلوفة لم يذكر في الكلام ولم ينطق به المتكلم بل هو مفهوم مجرد لا يستند الى منطوق •

والمراد بالصفة مطلق القيد غير الشرط والغاية والعدد ، ولا يقصد بها النعت النحوى وهو : التابع المكمل متبوعه ببيان صفة من صفاته أو من صفات ما تعلق به »[٥] بل يعنى الاصوليون بها معنى أعم من ذلك يتناوله وغيره • وهو كما قلنا مطلق القيد سواء كان نعتنا نحويا مثل : « في الغنم السائمة زكاة » فإن القيد هنا هو ( السائمة) وهى نعت نحوى اذ هى تابع لمشاركتها لما قبلها وهو الغنم فى اعرابه مطلقا ولذا جرت لما كان ما قبلهـــا مجرورا بـ ( فى ) وهى مكملة متبوعه وهو الغنم ببيان صفة من صفاته وهى السوم • أو مضافا مثل : « فى سائمة الغنم زكاة » فان القيد هو السائمة وهو هنـــا مضاف أو مضافا اليه : « مطل الغنى ظلم » فان القيد هو الغنى وهو مضاف اليه أو ظرف زمان مثل قوله (ص) : « من ابتاع نخلا بعد ان تؤبر فثمرتها للبائع الا ان يشترطها المبتاع » فان القيد هو : بعد ان تؤبر وبعد ظرف زمان أو ظرف مكان مثل بع فى مكان كذا • فان القيد هو : فى مكان كذا • وهو ظرف مكان • أو حالا مثل قوله تعالى : « ولا تأكلوها اسرافا »[٦] فان القيد هو : اسرافا • أو جارا ومجرورا مثل قوله (ص) : « لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها » فان القيد هو : على عمتها وعلى خالتها وهما جاران ومجروران • أو بدل بعض مثل قوله تعالى : « ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا »[٧] فان القيد هو : من استطاع ••• الخ وهو بدل بعض من الناس •

---

(٥) شرح ابن عقيل جـ٢ ص١٩١ ط مصطفى محمد •
(٦) سورة النساء آية ٦ •
(٧) آل عمران آية ٩٨ •

وهكذا نرى ان الاصوليين يعنون بالوصف تقييد لفظ يتناول عـــدة افراد بلفظ آخر يختص ببعض افراده ليس بشرط ولا غايـــة ولا عدد فيختص اللفظ الاول بذلك البعض الذى اختص به اللفظ الثانى بعد ان كان متناولا له ولغيره(٨) .

فمثلا فى المثال الاول كان لفظ الغنم شاملا للسائحة ولغيرها كالمعلوفة مثلا. وبتقييده بالسائمة اختص بما يكون بصفة السوم وكذلك اختص بالسائمة باضافة السائمة اليه فى المثال الثانى .

وفى المثال الثالث كان لفظ المطل يطلق على مطل الغنى ومطل غيره كالفقير مثلا ، الا انه باضافته الى الغنى اختص بما يكون من الغنى فقـــط دون غيره .

وفى المثال الرابع كان ابتياع النخل شاملا لما قبل تأبيرها ولما بعده الا انه بتقييده بظرف الزمان اختص بما بعد التأبير فقط .

وفى المثال الخامس كان الامر بالبيع يتناول البيع فى المكان الـــذى خصصه والبيع فى غيره الا انه بتقييده بالمكان اختص بالبيع فى ذلك المكان فقط .

وفى المثال السابع كان النهى عن نكاح المرأة يتناول نكاحها على عمتها وعلى خالتها ونكاحها على غير ذلك الا انه بتقييده بالجار والمجرور ( عـلى عمتها ولا على خالتها ) اختص بنكاحها كذلك .

وفى المثال الثامن كانت فرضية الحج تتناول كل الناس المستطيع وغيره الا أنه بتقييده بالبدل ( من استطاع ) اختص بالمستطيع فقط .

ومما سبق يتبين ان مفهوم الصفة هو : دلالة تقييد الشيء بالوصف على نفى الحكم عن هذا الشيء عند انتفاء الوصف .

---

(٨) تسهيل الوصول للمحلاوى ص١٠٩ .

ومفهوم الصفة من أهم انواع مفهوم المخالفة • وقد اتسعت دائرة الخلاف حوله ، فقد اختلف العلماء فى حجيته الى أقوال أهمها أربعة •

الاول : انه حجة : وذهب الى ذلك مالك والشافعى وأحمد بن حنبل والاشعرى وجماعة من المتكلمين وأبو عبيد وجماعة من أهل العربية[٩] ، ومعنى حجيته انه اذا قيد حكم بصفة فان هذا التقييد يدل على نفى الحكم عن غ المتصف بهذه الصفة • كقول جابر (رض) « قضى رسول الله (ص) بالشفعة فى كل شركة لم تقسم » فانه يدل على نفى مشروعية الشفعة بعد قسمة العقار المشترك ، لانه قيد العقار المشترك الذى شرعت الشفعة فيه بصفة عدم القسمة • فاذا انتفت هذه الصفة بأن قسم العقار ينتفى الحكم وهو مشروعية الشفعة •

الثانى : انه ليس بحجة : وذهب الى ذلك الحنفية والمالكية والغزالى والآمدى من الشافعية[١٠] وكذا الزيدية[١١] ومن أئمة اللغة الاخفش وابن فارس وابن حنى •

فتقييد الحكم بصفة لا يدل على نفى الحكم عما انتفت عنه تلك الصفة واذا انتفى الحكم عند انتهاء الصفة فان انتفائه يكون لدليل آخر دل على ذلك لا التقييد بالصفة •

الثالث : انه حجة اذا كان الوصف مناسبا للحكم كما فى قوله (ص) « فى الغنم السائمة زكاة » فان التقييد بالسوم يناسب الحكم وهو فرض الزكاة • ذلك ان الغنم اذا كانت ترعى فى الكلأ المباح وهو معنى السوم لا يشعر صاحبها بالارهاق لعدم دفعه ثمن الكلأ ويسهل انتفاعه بها فيناسب

---

(٩) راجع الاحكام للآمدى (٣/٦٨) ارشاد الفحول للشوكانى ص١٦٨ •
(١٠) انظر الاحكام للآمدى (٣/٦٨) •
(١١) راجع منهاج الوصول الى شرح معيار العقول فى اصول الزيدية ( ق ٤٦ ) •

ذلك فرض الزكاة فيها • فحينئذ يكون التقييد بالسوم دالا على انتفاء الحكم عند عدمه فلا تجب الزكاة فى المعلوفة •

وانه ليس بحجة اذا انتفت المناسبة بين الوصف والحكم كما لو قال « فى الغنم البيضاء زكاة » فانه لا توجد مناسبة بين التقييد بالبياض وبين فرض الزكاة • وحينئذ لا يدل الوصف على انتفاء الحكم عند عدم الصفة والى هذا ذهب أمام الحرمين(١٢) •

الرابع : انه حجة فى أحد احوال ثلاث :

١ ـ ان يكون الخطاب قد ورد للبيان كما فى قوله (ص) : « فى الغنم السائمة زكاة » •

٢ ـ ان يكون الخطاب قد ورد للتعليم كما فى خبر : « التحالف عند التخالف والسلعة قائمة » •

٣ ـ ان يكون ما عدا الصفة داخلا تحتها كالحكم بالشاهدين ، فانه يدل على نفى الحكم عن الشاهد الواحد فلا يحكم به لدخوله فى الشاهدين •

ففى هذه الاحوال الثلاث يدل تقييد الحكم بالصفة على نفيه عما عداها وفيما سوى ذلك لا يدل على النفى • والى هذا ذهب ابو عبدالله البصرى من المعتزلة(١٣) •

**ادلة المذهب الاول :**

استدل القائلون بحجية مفهوم الصفة بعدة ادلة أهمها ما يلى :ـ

أولا : ان تقييد الحكم بالصفة لو لم يكن لاختصاص الحكم بالمقيد بالصفة ونفيه عما عدا المتصف بها ، لزم ان يكون لاشتراكها فى الحكم ،

---

(١٢) انظر البرهان لامام الحرمين ( ١/لوحة ١٢٨ ) مخطوطة دار الكتب المصرية • نسخة مصورة •

(١٣) انظر المعتمد فى اصول الفقه لابي الحسين البصرى (١/١٦١ـ١٦٢) ط دمشق •

فقوله (ص) : « فى الغنم السائمة زكاة » لو لم يكن ظاهرا لحصر وجوب الزكاة فى الغنم المتصفة بالسوم ونفي وجوبها عن غير المتصف به كالمعلوفة • لزم ان يكون لاشتراك المذكور وهو السائمة والمسكوت عنه وهو المعلوفة فى الحكم • وهذا التلازم بين عدم الاختصاص وبين الاشتراك يتأتى من عدم وجود واسطة بينهما ، ذلك ان الحكم يثبت فى المذكور المتصف بالصفة قطعا • وحينئذ فالمسكوت عنه الذى انتفت عنه الصفة إما أن لا يثبت له الحكم أو يثبت له أيضا • فهو يتردد بين هذين الامرين الذين لا ثالث لهما • فان لم يثبت له الحكم يكون التقييد بالصفة للاختصاص • وان ثبت فيه الحكم يكون للاشتراك(١٤) •

ثانيا : ان افادة تقييد الحكم بالصفة نفي الحكم عما عدا المتصف بالصفة تؤدى الى تكثير الفائدة ، لانه حينئذ يفيد امرين احدهما اثبات الحكم للمذكور والمتصف بالصفة ، والثانى نفي الحكم عن المسكوت عنه الذى انتفت عنه الصفة ، اما اذا لم يكن لتقييد ما ذكرنا فانه يفيد امرا واحدا وهو اثبات الحكم للمذكور ولاشك ان افادة امرين أكثر فائدة من افادة أمر واحد وكثرة فائدة الشيء ترجح المصير اليه ، اذ يتلائم ذلك وغرض العقلاء(١٥) •

ثالثا : ان التعليق بالصفة كالتعليق بالعلة ، لان تعليق الحكم بشيء موصوف يدل على علية الوصف للحكم ، والتعليق بالعلة يقتضى نفي الحكم عند انتفاء العلة التى علق الحكم بها لان الحكم يدور مع علته وجودا وعدما فكذلك الحكم المعلق بالصفة ينبغى ان ينتفي بانتفاء الصفة التى علق بها(١٦) •

---

(١٤) راجع مختصر المنتهى لابن الحاجب مع شرح العضد ( ١٧٦/٢ ) ط بولاق •

(١٥) شرح العضد على المختصر ( ١٧٨/٢ ) •

(١٦) راجع المستصفى ( ٤٥/٢ ) والاحكام ( ٧٥/٣ ) ط الحلبي •

رابعا : ان اهل اللغة سووا بين الاستثناء والصفة فى ان الخطاب المقيد بهما يفترق عن المطلق عنهما ، والاستثناء يدل على ان حكم المستثنى يختلف عن حكم المستثنى منه ، فكذلك الصفة ينبغي ان تدل على ان حكم المتصف بها على خلاف حكم المجرد عنها[١٧] .

خامسا : ان ابن عباس رضى الله عنه ذهب الى منع توريث الاخت مع البنت استدلالا بقوله تعالى : « ان امرؤ هلك ليس له ولد ، وله أخت ، فلها نصف ما ترك »[١٨] حيث فهم من تعليق الحكم وهو توريث الاخت النصف بعدم الولد انتفاء الحكم بوجود الولد فمنع من توريث الاخت مع البنت لانها ولد ، وابن عباس من فصحاء العرب وترجمان القرآن ، فلو لم يكن التعليق بهذا القيد دالا على انتفاء الحكم بانتفائه لما ذهب الى ذلك[١٩] .

سادسا : ان أئمة اللغة اخذوا بمفهوم الصفة فقد روى عن ابى عبيد القاسم بن سلام انه قل بهذا المفهوم حيث انه لما سمع قوله (ص) : « لى الواجد يحل عقوبته وعرضه » ( اى مطل الغنى يحل حبسه ومطالبته )[٢٠] .

قال يدل على ان لى غير الواجد لا يحل عقوبته وعرضه .

ولما سمع قوله : « مطل الغنى ظلم » قال : ( يدل على ان مطل غير الغنى ليس بظلم ) وقد قال بمفهوم الصفة الامام الشافعى ، وهو من ائمة اللغة يحتج بقوله فيها ، والاصمعي قد احتج بقوله ، وصحح عليه دواوين الهذليين ، واذا استدل ابو عبيد والامام الشافعى على ان الكلام المقيد بصفة يدل بمفهومه المخالف على نفي الحكم عما عدا المتصف بها ، فان ذلك يدل على ان ذلك مفهوم لغة ، ولو لم يكن كذلك لما حصل هذا الفهم مفهما ، اذ

---

(١٧) المرجع السابق ص٧٤ .
(١٨) النساء آية ١٧٦ .
(١٩) انظر المستصفى (٢/٤٤) والاحكام (٣/٧٠) .
(٢٠) راجع شرح المختصر (٢/١٧٥) .

هما امامان من أئمة اللغة ، عالمان باسرارها ، ومختلف اساليبها ، وما يدل عليه الكلام فيها ، فقولهما بمفهوم الصفة دليل فهم ذلك لغة[٢١] .

سابعا : لو لم يكن التقييد بالصفة دالا على نفي الحكم عما تخلفت عنه هذه الصفة لزم ان لا يكون لذكر الصفة التى قيد الحكم بها فى الخطاب فائدة . وجه الملازمة : هو ان المفروض عدم الفوائد الاخرى ، فاذا انتفت هذا الفائدة ايضا وهى نفي الحكم لما يبقى لذكرها فائدة . واللازم وهو خلوها عن الفائدة باطل . وجه البطلان هو : ان خلو تقييد الحكم بالصفة عن الفائدة لا يستقيم فى كلام اى واحد من البلغاء فاذا لم يجز ذلك فى كلامهم فأولى ان لا يجوز فى كلام الله ورسوله[٢٢] .

**ادلة المذهب الثاني :**

استدل المنكرون لحجية مفهوم الصفة بجملة ادلة أهمها ما يلى :ـ

أولا : ان دلالة التقييد بالصفة على نفي الحكم عن غير المتصف بها ينبغى ان تثبت بما تثبت به الاوضاع اللغوية لمساس علاقة هذه الدلالة باللغة . واثباتها لا يخلو من ان يكون اما بدليل عقلى أو بدليل نقلى . ولا سبيل الى الاثبات بالعقل لانه لا مجال له فى اللغات ، ولا دخل له فى ذلك . والنقل اما متواتر أو آحاد ، ولا سبيل الى الاول لانتفائه لان المتواتر لو كان موجودا لما وقع الاختلاف بين العلماء فى مفهوم الصفة نظرا الى أن المتواتر قطعي لا يدع مجالا للاختلاف . والاختلاف واقع فى هذه المسألة ، فدل ذلك على عدم توفر الدليل النقلى المتواتر فى الموضوع .

بقى الدليل النقلى الآحادى ، وهو لا يفيد فى مثل هذه المسألة ، لانه يفيد الظن ولا يفيد غيره ، ولا اعتبار بالظن فى اثبات اللغات ويمتنع الحكم

---

(٢١) راجع شرح العضد على مختصر المنتهى (٢/١٧٥) .
(٢٢) المرجع السابق .

على لغة ينزل عليها كلام الله ورسوله بقول الآحاد مع جواز الخطأ والغلط عليه[٢٣] .

ثانيا : ان ما دل عليه اللفظ لا يحسن الاستفهام عنه نظرا الى ان اللفظ افاده فيكون الاستفهام بلا داع ، فلو قال قائل : « لا تقل لمحمد أف » لا يحسن أن يقال : « فهل اضربه ؟ » لان اللفظ دل على امتناع ضربه ، فيكون هذا الاستفهام استفهاما عما دل عليه اللفظ ، فلا يحسن فلو كان تقييد الحكم بالصفة دالا على نفيه عند انتفائها لما حسن الاستفهام عن الحكم فى حال عدمها . لانه استفهام عما دل اللفظ عليه . ولكن الاستفهام عن ذلك يحسن . لان القائل اذا قال : « أد الزكاة عن غنمك السائمة » يحسن ان يقال : ( وهل أؤديها عن المعلوفة ؟ ) فحسن هذا الاستفهام دل على ان ذلك ليس مدلول اللفظ ولذا حسن الاستفهام عنه[٢٤] .

ثالثا : ان التقييد بالصفة لو دل على النفي عند عدمها لزم ان يكون العطف نقضا . ففى قول القائل : « اكرم الرجال الطوال والقصار » لو كان التقيد بالطول دالا على نفي الحكم وهو الاكرام عند عدم الصفة وهى الطول لدل على نفي اكرام القصار ، ثم العطف بقوله : « والقصار » يدل على اثبات اكرامهم لما يقتضيه العطف من التشريك فى الحكم فيكون ما يفيده العطف نقضا لما افاده التقييد بالصفة . وكون العطف نقضا باطل لان أهل اللغة فرقوا بينهما فيبطل ما يؤدى اليه وهو كون التقييد بالصفة لنفي الحكم عند عدمها[٢٥] .

رابعا : لو كان التقييد بالصفة دالا على نفي الحكم عند عدمها لزم ان

---

(٢٣) راجع المستصفى (٢/٤٢) والاحكام (٣/٧٦) والعضد على المختصر (٢/١٧٩) .

(٢٤) انظر المستصفى (٢/٤٢) والاحكام للآمدى (٣/٧٧) .

(٢٥) راجع المعتمد فى اصول الفقه لابي الحسين البصرى (١/١٦٧-١٦٨) .

يدل التقييد بالاسم على نفي ما علق به عن غير المسمى بذلك الاسم ، لان المقصود منهما واحد وهو التمييز ، ذلك ان المقصود من الصفة انما هو تمييز الموصوف بها عما سواه ، وكذلك المقصود من الاسم انما هو تمييز المسمى عن غيره ، وتعليق الحكم بالاسم كما في قول القائل : « محمد عالم » لا يدل على نفي العلم عمن لم يسم باسم محمد فكذلك تعليق الحكم بالصفة ينبغي ان لا يدل على نفي الحكم عن غير المتصف بها[٢٦] .

خامسا : في الحكم المعلق بالصفة يصح التصريح بنفي الحكم عن غير المتصف بها فانه يجوز ان يقال : « في الغنم السائمة زكاة ولا زكاة في الغنم المعلوفة منها » فلو كان تعليق الحكم بالصفة يدل على نفيه عن غير الموصوف بها لما صح ذلك لانه حينئذ تنتفي الحاجة الى العبارة الاخرى وهي ( ولا زكاة في المعلوفة ) لعدم فائدتها[٢٧] .

سادسا : لو كان تقييد الحكم بالصفة يدل على النفي لكانت كلمة واحدة تدل على الضدين معا فان ( في الغنم السائمة زكاة ) يدل على وجوب الزكاة في المتصف بالسوم فلو دل على نفي الزكاة عن المعلوفة ايضا لكان اللفظ الواحد دالا على المتضادين ، وليس في لغة العرب كلمة لها هذه الدلالة[٢٨] .

سابعا : لو كان تعليق الحكم بالصفة دالا على نفيه عند عدمها لزم ان لا يثبت الحكم عند انتفائها ، لان ثبوته حينئذ يكون مخالفا للدليل وهو على خلاف الاصل ، اذ الاصل عدم مخالفة الدليل ، لكن الحكم المعلق بالصفة ثابت عند عدمها يدل على ذلك قوله : « ولا تقتلوا اولادكم خشية

---

(٢٦) راجع تخريج الفروع على الاصول للزنجاني (ص٧٤) ط جامعة دمشق .

(٢٧) انظر الاحكام للآمدي (٣/٧٩) .

(٢٨) المرجع السابق ص٨٠ .

املاق »[٢٩] فان النهى عن قتل الاولاد قيد بحالة خشية الاملاق مع ان الحكم وهو تحريم قتل الاولاد ثابت فى حالة عدم خشية الاملاق ايضا[٣٠].

**دليل المذهب الثالث :**

استدل امام الحرمين بأن الوصف اذا كان مناسبا للحكم كان علة له والعلة يناط بها الحكم ويدور معها وجودا وعدما فيوجد الحكم بوجودها وينعدم بانتفائها .

واما اذا انعدمت المناسبة بين الحكم والصفة التى قيد بها فان معنى انعدامها عدم وجود ارتباط بين الحكم والصفة وحينئذ لا يدل تقييده بها على انتفائه عند عدمها وتصبح كاللقب ولا يحتج بمفهومه[٣١] .

**مناقشة الآراء :**

**اولا : مناقشة ادلة القائلين بحجية مفهوم الصفة :**

وردت على ادلة القائلين بحجية مفهوم الصفة جملة من الاعتراضات نوردها فيما يلى ونرتبها حسب ترتيب ادلتهم . والاعتراضات هى :ـ

١ ـ يرد على دليلهم الاول انه لايلزم من عدم افادة اللفظ الاختصاص ثبوت الاشتراك وافادة اللفظ له ، وانما يلزم ذلك من افادة اللفظ عدم الاختصاص ، وهناك فرق بين عدم الافادة وبين افادة العدم ، واذا كان الاشتراك يستلزمه الثانى وهو افادة العدم فان الاول وهو عدم الافادة لا يستلزمه ولا تلازم بينهما ، اذ لا يلزم من عدم الحكم الحكم بالعدم . وبما ان اللفظ لم يتعرض للاختصاص لا بالنفى ولا بالاثبات فانه لا يلزم ان يفيد الاشتراك فالملازمة ممنوعة[٣٢] .

---

(٢٩) الاسراء آية ٣١ .
(٣٠) المعتمد للبصرى (١/١٦٥) والاحكام للآمدى (٣/٨١) .
(٣١) البرهان لامام الحرمين ( ١/لوحة ١٢٨ ) .
(٣٢) راجع حاشية السعد التفتازاني وشرح العضد (٢/١٧٧) .

٢ ـ يعترض على دليلهم الثانى • بأن دلالة المقيد بالصفة على النفى عن غير المتصف بها لو ثبتت بتكثير الفائدة يلزم الدور لان تلك الدلالة حينئذ تتوقف على تكثير الفائدة اذ به تثبت • وتكثير الفائدة يتوقف على تلك الدلالة لانه انما يحصل بدلالة القيد على النفى عن الغير فيتوقف كل منهما على الاخر وهذا دور والدور باطل • فما يؤتى اليه وهو اثبات هذه الدلالة بالتكثير يكون باطلا ايضا(٣٣) •

٣ ـ ورد على دليلهم الثالث أن انتفاء الحكم بانتفاء علته غير مسلم لجواز علة اخرى للحكم لان العلة قد تتعدد اما انتفائه عند انتفاءها فانما يتأتى ذلك عند اتحاد العلة • ولا يتأتى ذلك فى الصفة ضرورة تعددها»(٣٤) •

٤ ـ يعترض على دليلهم الرابع بأن قياس الاستثناء على الوصف قياس فى اللغة والقياس فيها لا يجوز • ثم انه قياس مع الفارق وجه الفرق ان الخطاب يقتضى نفى الحكم فى صورة الاستثناء جزما واما اقتضاء الخطاب المقيد بالصفة نفى الحكم عن غير محل الصفة فهو مشكوك فيه فافترقا ، فلا يقاس احدهما على الآخر(٣٥) •

٥ ـ يرد على دليلهم الخامس • ان ابن عباس رضى الله عنه يحتمل انه لم يورث الاخت مع البنت بناء على استصحاب النفى الاصلى لا بناء على مفهوم الصفة • وليس أحد الامرين أولى من الآخر ، فالقول بأنه لم يورثها بناء على المفهوم ترجيح بلا مرجح وهو تحكم لا يصار اليه(٣٦) •

٦ ـ يرد على دليلهم السادس اعتراضان :

---

(٣٣) انظر حاشية السعد على المختصر (٢/١٧٨) •
(٣٤) راجع المستصفى للغزالى (٢/٤٥) والاحكام للآمدى (٣/٧٥) •
(٣٥) انظر المعتمد لابي الحسين البصرى (ـ١/١٧٠) والاحكام (٣/٧٤) •
(٣٦) راجع المستصفى (٢/٤٤) والاحكام (٣/٧١) •

اولهما : ان قول ابى عبيد والامام الشافعى بمفهوم الصفة يحتمل ان يكون عن طريق الاجتهاد لا نقلا عن العرب اذ ليس فى كلامهما ما يشعر بالنقل على انه لو ثبت نقلهما ذلك عن العرب ، فانه من اخبار الآحاد فلا تثبت به مثل هذه القاعدة اللغوية التى يبنى عليها كثير من الاحكام الشرعية .

ثانيهما : ان قولهما معارض بقول الأخفش فانه لم يقل بمفهوم الصفة وهو أحد علماء العربية ايضا ، وهذا يدل على ان نفى الحكم عن غير الموصوف ليس من فهم اللغة(٣٧) .

٧ ـ قد يرد على دليلهم السابع ان فوائد التقييد بالصفة قد تكون أكثر من ان يحاط بها ولا سيما فى نصوص الكتاب والسنة فلا يجوز حصرها فى نفى الحكم عن غير المتصف بها(٣٨) .

ثانيا : مناقشة ادلة النافين لحجية مفهوم الصفة .

وردت على ادلة المنكرين لحجية مفهوم الصفة جملة من الاعتراضات ايضا نرتبها حسب ترتيب ادلتهم فيما يلى :

١ ـ يرد على دليلهم الاول ان عدم افادة اخبار الآحاد فى اثبات مثل هذه المسئلة غير مسلم لان عدم قبول الآحاد واشتراط التواتر يقضى الى امتناع العمل بأكثر ادلة الاحكام لعدم توفر التواتر فى مفرداتها ثم ان العلماء فى شتى البلاد ومختلف العصور كانوا يكتفون فى فهم معانى الالفاظ بالآحاد كنقلهم عن الاصمعى والخليل وابى عبيد وسيبويه(٣٩) .

٢ ـ يرد على دليلهم الثانى ان حسن الاستفهام عن الحكم فى حال

---

(٣٧) المستصفى (٢/٤٣) والاحكام للآمدى (٣/٦٩) وشرح مختصر ابن الحاجب (٢/١٧٥) .
(٣٨) التلويح على التوضيح (١/١٤٤) .
(٣٩) راجع الاحكام للآمدى (٣/٧٦ـ٧٧) وشرح العضد (٢/١٧٩) .

عدم الصفة لا لاجل ان التقييد بها لا يدل على النفى حال عدمها بل للاستيضاح أكثر وطلب الأجلى لان دلالة التقييد على النفى ظنية غير قطعية فلا يدل حسن الاستفهام على عدم دلالة اللفظ عليه[٤٠] .

٣ ـ يرد على دليلهم الثالث ان قول القائل : «اكرم الرجال الطوال» انما يدل على امتناع اكرام القصار اذا خص الطوال بالذكر ولم يذكر معه القصار اما اذا ذكر القصار معه وعطف عليه فلا يدل على النفى ، واذا لم يدل على النفى لا يكون العطف نقضا[٤١] .

٤ ـ يرد على دليلهم الرابع ان قياس الصفة على الاسم قياس فى اللغة ولا يصح القياس فيها . ثم انه منقوض بالغاية فانها مقصود للتمييز مع انها تدل على ان ما بعدها مخالف لما قبلها ، فلو كان كل ما هو مقصود للتميز لا يدل على النفى لما دلت الغاية على ذلك[٤٢]

٥ ـ يجاب عن دليلهم الخامس بأن التقييد بالصفة وان دل على نفى الحكم عن غير المتصف الا ان التصريح بهذا النفى ووضع عبارة خاصة تدل عليه أبلغ فى الدلالة وأقرب الى حصول المقصود لانها تدل بمنطوقه على هذا النفى بينما التقييد بمفهومه يدل عليه ودلالة المنطوق اقوى من دلالة المفهوم ، وهذه هى فائدتها[٤٣] .

٦ ـ يرد على دليلهم السادس ان عدم وجود لفظ فى اللغة يدل على المتضادين معا غير سليم لان الاسماء المشتركة تدل على معان متعددة وان كانت اضدادا . ثم ان امتناع الدلالة على المتضادين لو سلم فانما يمتنع ذلك

---

(٤٠) انظر الاحكام للآمدى (٣/٧٧) .
(٤١) راجع المعتمد لابي الحسين البصرى (١/١٦٧ـ١٦٨) .
(٤٢) راجع المعتمد لابي الحسين البصرى (١/١٦٧ـ١٦٨) . والاحكام للآمدى ٣/٧٩ .
(٤٣) راجع الاحكام للآمدى (٣/٨٠) .

اذا اتحدت جهة دلالة اللفظ اما اذا اختلفت جهة دلالته بأن دل على كل معنى من المتضادين من جهة تختلف عن الجهة التى منها يدل على المعنى الآخر فلا مانع من ذلك ابدا • والتقييد يدل على ثبوت الحكم للمتصف من جهة النطق وصريح الخطاب • ويدل على النفى من غير المتصف من جهة المفهوم ودليل الخطاب • فجهتا النفى والاثبات مختلفان(٤٤) •

٧ ـ يجاب عن دليلهم السابع بأن القائلين بمفهوم الصفة انما يجعلونه دليلا على نفى الحكم عند عدمها اذا لم يكن حالة عدم الصفة اولى باثبات الحكم من حالة وجودها ، اما اذا كانت حالة العدم أولى به من حالة الوجود فلا يدل التقييد بها حينئذ على النفى والحكم هنا وهو تحريم القتل حالة عدم خشية الاملاق أولى من التحريم حالة خشية الاملاق(٤٥) •

**مناقشة امام الحرمين :**

يجاب عما ذهب اليه امام الحرمين من التفريق بين الوصف المناسب وجعله دالا على النفى عند العدم وبين الوصف غير المناسب وجعله غير دال على النفى بأن هذا التفريق لم ينقل عن العرب ، والعلماء القائلون بمفهوم الصفة كأبى عبيد والامام الشافعى من ائمة اللغة قالوا به من غير تفرقة ، وهذا ينقض ما ذهب اليه امام الحرمين •

**مناقشة ابي عبدالله البصرى :**

يرد على ابى عبدالله البصرى من حصر القول بمفهوم الصفة فى الحالات الثلاث ما يلى :ـ

١ ـ ان كون اللفظ بيانا لمجمل انما يتأتى اذا دل على ما يراد بالمجمل بموضوعه أو بمعناه ، وفى الكلام المتضمن تعليق الحكم بالصفة

---

(٤٤) المرجع السابق •
(٤٥) المرجع السابق (ص/٨١ـ٨٢) •

لم يذكر ما عدا الصفة فلا يكون اللفظ بيانا لما لم يذكر فيه[٤٦] .

٢ ـ ان ما صدر عن الرسول ( ص ) من الكلام والذى يتضمن حكما ، فهو خارج مخرج التعليم فلا داعى الى تخصيص البعض بذلك[٤٧] .

**موقفنا من مفهوم الصفة :**

هذا وبعد ان عرضنا لمفهوم الصفة ، واستعرضنا ادلة القائلين به والنافين له ، نرى ان ادلة الطرفين ما كانت تعوزها القوة وان كانت قد فسحت المجال امام المناقشة . الا ان ادلة القائلين به تميلنا نحو السير فى سبيل الجمهور فى القول بمفهوم الصفة ، لان بعضا من ادلتهم وان زعزعته الاعتراضات ، وكادت الايرادات ان تفقده حجيته ، أو افقدته ، الا ان البعض الآخر منها ظل صامدا امامها ، ولم تجد المناقشة الى افقاده حجيته سبيلا . ولا سيما نقل القول بذلك عن اعلام هم أئمة فى اللغة ، وفرسان البيان فيها كالامام الشافعى ، وابى عبيد القاسم بن سلام ، واذا طابت للنافين المعارضة بمذهب الاخفش ونفيه لمفهوم الصفة مع كونه عالما بالعربية ومن اعلامها ، فان القائلين لا يعوزهم الجواب عن هذه المعارضة بأن النقل عن الشافعى وابى عبيد يترجح على النقل عن الاخفش بأمرين :

أولهما : ان اثباتهما لمفهوم الصفة يختلف عن نفيه له بالاستفاضة حيث ان ابا عبيد كرر قوله بذلك فى مواضع فصار القدر المشترك وهو القول بمفهوم الصفة مستفيضا ، وكذلك الشافعى حيث نقل عنه اصحاب مذهبه قوله بمفهوم الصفة وهم كثيرون كما ان المخالفين له رووا عنه ذلك ايضا ، فاستفاض النقل عنه . ولم تشق هذه الاستفاضة طريقها الى النقل عن الاخفش .

---

(٤٦) انظر المعتمد لابي الحسين البصرى (١/١٦٨) .
(٤٧) المرجع السابق (١/١٦٩) .

ثانيهما : انهما يثبتان مفهوم الصفة وهو ينفيه ، والمثبت أولى بالقبول من النافى لان المثبت انما يثبت لانه وجد دليلا يدل على الاثبات فهو يدل على وجود الدليل قطعا ، واما النافى فانه انما ينفى لانه لم يجد دليلا يدل على الاثبات ، وعدم وجدانه الدليل على ذلك لا يدل على عدم وجوده ، لجواز ان يكون الدليل موجودا وهو لا يجده ، وان دل على عدم وجود الدليل فانما يدل على ذلك ظنا ، والظن لا يقوى على معارضة القطع .

وكون المثبت أولى بالقبول من النفى من القواعد المقررة(٤٨) .

ثم ان الفائدة التى توخاها الجمهور من التقييد بالصفة ، وهى النفى عند عدمها لابد منها لبلاغة الكلام ، ولا يضير ذلك عدم الاحاطة بفوائد التقييد اذا عرفنا ان الاحاطة بها لازمة للقطع بحصر الفائدة فى النفى عن غير الموصوف . اما اذا كانت المسألة فى حدود غلبة الظن . فالاحاطة هذه غير لازمة ، وعدمها لا يستدعى الاحجام عن القول بمفهوم الصفة ، وغلبة الظن كافية فى ثبوت دلالة التقييد بالصفة على نفى الحكم عند عدمها ، كما انها تكفى للعمل بهذه الدلالة وجمهور القائلين بها متفقون على انها ظنية .

والقائلون بمفهوم الصفة لم ينأوا عن فهم الصحابة من هذا التقييد فيما عرفوه من لغتهم ، وما عهدوه من الرسول المبين (ص) فقد جاء فى البحر المحيط : « وفى صحيح البخارى فى كتاب الجنائز عن ابن مسعود قال » : قال رسول الله صلى عليه وسلم « من مات يشرك بالله شيئا دخل النار» قلت انا . ومن « مات لا يشرك با بالله شيئا دخل الجنة » قال الزركشى : وهذا مصير منه الى القول بالمفهوم(٤٩) . وهكذا يتعاضد القول بمفهوم الصفة بمفهوم الصحابة بمقتضى سليقتهم الصافية مضافا اليها ما أنعم الله

---

(٤٨) راجع مختصر المنتهى مع شرح العضد (٢/١٧٥) وأصول الجصاص. (ق/٥٣/أ) .

(٤٩) راجع البحر المحيط للزركشي وسند احمد (٥/١٨٦-١٨٧) .

عليهم من فهم كتابه وسنة رسوله اضف الى ذلك ان القول بالمفهوم يجعل المجال فسيحا امام العقلية الفقهيه ، ويبعثها على الانطلاق لاستشفاف ما وراء النصوص ، واستنباط الاحكام منها دون الوقوف عند ظاهرها ما دام هـذا الاستنباط يتفق وما تفيده اللغة ، ويتسق وعرف الشرع .

ثم ان الحذر من القول بالمفهوم المنبعث من الحيطـة والتثبت تخف وطأته اذا عرفنا ان القائلين به احاطوه بسياج من الضوابط والقيود والشروط مما يجعل القول به يتفق مع تلك الحيطة دون ان يجانبها ، وينسجم مـع ذلك التثبت دون ان يجافيه .

**من آثار الاختلاف فى مفهوم الصفة :**

لقد كان لاختلاف العلماء فى حجية مفهوم الصفة وعدم حجيته أثر فى الفروع الفقهيه ولو شئنا ضرب الامثال لطال بنا المقال ، حيث زخـرت كتب الفروع الفقهية بأمثلة كثيرة يجدها المتتبع لابواب الفقه ، ونحن نكتفى بمثالين احدهما من الكتاب والثانى من السنة .

اما الكتاب : فقد قال الله تعالى : « ومن لم يستطع منكم طولا ان ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت ايمانكم من فتياتكم المؤمنـات »[٥٠] ففـى الآيه وصف الفتيات بالمؤمنات ، ونظرا لهذا الوصف اختلف العلماء فـى زواج الامة غير المؤمنة :

فذهب المالكية والشافعية والحنابلة والزيدية الى عدم جواز ذلك[٥١]. اخذا بمفهوم الصفة لان الآية قيدت حل زواج الامة بصفة الايمان ، فـاذا انتفت صفة الايمان ينتفى الحكم وهو الحل بانتفائها ، فلا يجوز زواج الامة غير المؤمنـة .

---

(٥٠) سورة لنساء آية ٢٥ .

(٥١) راجع متن الرسـالة لابن ابي زيد القـيرواني (ص/٧٨) والمهذب للشيرازي (٤٤/٢) والمغنى لابن قدامة (٥٠٨/٧) والهداية مع فتح القدير ٣٧٦/٢ .

وذهب الحنفية الى جواز زواج الامة سواء كانت مؤمنة أو غير مؤمنة • لانهم لا يقولون بمفهوم الصفة •

واما السنة : فقد روى عن ابن عمر (رض) ان النبى (ص) قال : « من ابتاع نخلا بعد ان تؤبر فثمرتها للبائع » •

فالحديث قيد كون الثمرة للبائع بأن يكون الابتياع بعد تأبير ( التشقيق والتلقيح ) النخل ، فاختلف العلماء فى حكم الثمر اذا وقع البيع قبل التأبير •

فذهب جمهور العلماء الى ان الثمر يكون للمشترى[٥٢] • أخذا بمفهوم الصفة ، لان الحديث قيد كون الثمر للبائع بوصف التأبير وهذه الصفة منتفية قبله فينتفى الحكم المقيد بها فيكون للمشترى •

وذهب ابو حنيفة رحمه الله الى ان الثمر يكون للبائع سواء كان البيع قبل التأبير أو بعده • نظرا الى عدم أخذه بمفهوم الصفة[٥٣] •

**موقف القانون من مفهوم الصفة :**

لقد ارتضى رجال القانون طريق الجمهور فيما ذهبوا اليه من اعتبار مفهوم الصفة حجة ، فقد رأى علماء القانون واعلامه انه لا غنى عن اعتبار مفهوم المخالفة وفى ضمنه مفهوم الصفة طريقا من طرق تفسير النصوص القانونية لان تقييد الحكم بالصفة أو بغيرها من القيود المعتبرة لابد ان يتضمن فائدة حتى لا يكون عبثا ، ولهذا أخذ شراح القانون يستخرجون الحكم عن طريق دلالة المفهوم التى هى دلالة اللفظ على حكم شىء لم يذكر فى الكلام ، كما يستخرجونه عن طريق دلالة المنطوق التى هى دلالة اللفظ على حكم شيء مذكور فى الكلام • ويدل على اعتبار المفهوم عند رجال

---

(٥٢) انظر المهذب للشيرازي (٢٧٩/١) والمغنى لابن قدامة (١٩١/٤) •
(٥٣) راجع البدائع (١٦٤/٥) والهداية مع فتح القدير (٩٩/٥) •

القانون والاخذ به عند تفسير النصوص القانونية ما نصت عليه الفقرة الاولى من المادة الاولى من القانون المدني العراقي ، من انه : « تسري النصوص التشريعية على جميع المسائل التي تتناولها هـذه النصوص فى لفظهـا أو فحواها » والمقصود بكلمة ( فحواها ) مفهومها ، سواء كان مفهوم موافقة وهي دلالة المفهوم على حكم موافق لحكم المنطوق أو مفهوم مخالفة ، وهي دلالة المفهوم على حكم مخالف لحكم المنطوق ، فكلاهما معتبر فى تفسير النص القانوني •

وما نص عليه القانون المدني العراقي من اعتبار فحوى النصوص ، نص عليه القانون المدني المصري فى مادته الاولى فى فقرتها الاولى ايضا •

واذا كان القانون قد اعتبر مفهوم المخالفة بوجه عام فانه قد اعتبـر مفهوم الصفة بوجه خاص طريقا من طرق الدلالة على الحكم ايضا كما يتبين ذلك بوضوح فى شرح النصوص القانونية التي قيدت الحكم فيها بالصفة ، ومثال ذلك ما نص عليه القانون المدني العراقي حيث جاء فيه : « الجـواز الشرعي ينافي الضمان ، فمن استعمل حقه استعمالا جائزا لم يضمن ما ينشأ عن ذلك من الضرر »[٥٤] فقد قيدت المادة الاسـتعمال الـذي لا يضمن المستعمل الضرر الناشيء عنه بوصف هو ان يكون جائزا ، فدلت بمفهومها المخالف وهو مفهوم الصفة هنا على انتفاء الحكم وهو عدم الضمان بانتفـاء الصفة وهي الجواز وعلى هذا يكون من اسـتعمل حقه استعمالا غير جائز ضامنا لما ينشأ عن هذا الاستعمال من الضرر •

وعلى مثل هذا نص القانون المدني المصري حيث نص فى المادة الرابعة منه على ان « من استعمل حقه استعمالا مشروعا لا يكون مسئولا عما ينشأ عن ذلك من ضرر » والمتتبع لنصوص القوانين وشروحها يقع على كثير من النماذج التي يطول استقصاؤها ، والتي نكتفي بهذا القدر منها •

---

(٥٤) راجع القانون المدنى العراقى المادة (٦) •

ومما تجدر الاشارة اليه ان شراح القانون حين اعتبروا المفهوم طريقا من طرق الدلالة على الحكم دعوا الى أخذ الحيطة والحذر ، وعدم استنباط الحكم من هذه الطريق الا اذا كانت دلالة المفهوم قوية بل فى غاية القوة ، لان هذه الطريق يكتنفه كثير من الخطورة ، لان حكم المنطوق قد يكون واردا على سبيل التمثيل أو بيان الاغلب أو غيرهما مما لا يدل المفهوم على العكس .

ولهذا فانهم لم يأخذوا بالمفهوم المخالف فى كثير من النصوص التي قيدت الحكم بالصفة أو غيرها من القيود(٥٥) .

وبهذا يتبين لنا ان القانون أخذ بالمفهوم واعتبره طريقا من طرق الدلالة على الحكم متوخيا الفائدة من القيود التي يقيد بها الحكم وحتى لا يكون ذكرها عبثا . كما قرر ذلك علماؤنا الاولون .

كما ان القانون لم يترك الاخذ به مطلقا بل أحاطه بسياج من الحيطة والتثبت كما احاطه بهما الاصوليون .

---

(٥٥) راجع المدخل للعلوم القانونية للدكتور سليمان مرقص (١/٢١٠) والمدخل للعلوم القانونية للدكتور عبدالمنعم البدراوى (ص/٢٢٢) واصول القانون للسنهورى وابو ستيت (ص/٢٤٧) .

# وحي الأنبياء

**الدكتور عمر الملا حويش**
**المدرس في قسم اللغة العربية**

**الوحي في اللغة :**

يقال وحيت الى فلان أحي اليه وحيا اذا أشرت اليه وأومأت ، قال العجاج :

الحمد لله الذي استقلت  باذنه السماء واطمأنت
باذنه الارض وما تعتت  وحى لها القرار فاستقرت(١)

أي وحى الله الارض بأن تقرّ قرارا فلا تميد بأهلها ، أي أشار اليها ، أو أمرها بذلك(٢) .

ويقال وحى لها القرار أي كتب لها القرار ، ويقال وحيت الكتاب أحيه وحيا أي كتبته ، قال لبيد :

فمدافع الريان عرق رسمها  خلقا كما ضمن الوحي سلامها(٣)

يقول ابن الانباري في شرحه لهذا البيت : والوحي جمع وحى وهو الكتاب .. يقال وحيت أحي وحيا اذا كتبت ... قال الشاعر :

فأهداها لاعجمي طمطمّي كوحي صحائف في عهد كسرى

وقال جرير :

---

(١) ديوان العجاج ص : ٥
(٢) تهذيب اللغة للازهري ج ٥ ص ٢٩٦ وما بعدها .
(٣) شرح القصائد السبع الطوال ، لابن الانباري ص : ٥١٩ .

كأن اخـا اليهود يخط وحيـا  بـكاف فى منـــازلها ولام[٤]

وينقل الازهري فى تهذيبه عن ثعلب عن ابن الاعرابي قوله : أوحى الرجل اذا بعث برجل ثقة الى عبد من عبيده ثقة ، وأوحى ايضا اذا كلّم عبده بلا رسول .

ويضيف الازهري ايضا عن ابي اسحاق قوله :

وأصل الوحي فى اللغة كلها اعلام فى خفاء ، ولذلك صار الالـمام يسمى وحيا[٥] .

من هذه المقدمة اللغوية يتبين لنا ان لفظة الوحي فى أصل اللغـة تعني الاعلام فى خفاء مع تضمن السرعة والاستعجال ، كما تعطي ايضا معنى الكتابة والرسالة وكل ما القي الى الغير ، والالمام والالهام والاشارة .

اما ماورد فى تهذيب اللغة عن ابن الاعرابي من تفسير للفظة الوحي فأرى ان ابن الاعرابي لم يبتعد فى تفسيره هذا عن الاصل اللغوي لهذه اللفظة وربما تأثر بالوحي الآلهي للانبياء فهو فى تفسيره هذا أقرب الى المعنى الاصطلاحي للوحي منه الى المعنى اللغوي ، ذلك المعنى الذي صارت به لفظة الوحي علما للوحي الآلهي للانبياء ، وكل ما يتلقاه النبي من الله سبحانه وتعالى .

**الوحي فى القرآن الكريم**

لقد تكررت لفظة الوحي كثيرا فى القرآن فى مواضع متعددة وفى مناسبات مختلفـة ، ولكنها فى كل استعمالاتها لا تكاد تخرج فى مدلولهـا عن المعاني اللغوية التي تضمنتها والتي أشرنا اليها قبل قليل .

---

(٤) ديوان جرير ، ص : ٤٩٨ .

(٥) تهذيب اللغة للازهري ، ومعجـم مقاييس اللغـة لابن فارس وأساس البلاغة للزمخشري .

ففي قوله تعالى : « واذ أوحيت الى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأنا مسلمون »[٦] وقو له تعالى « وأوحينا الى ام موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين »[٧] فان معنى لفظة الوحي في هاتين الآيتين هو الالقاء في القلب أو الالهام [٨] .

وفي قوله تعالى : « فخرج على قومه من المحراب فأوحى اليهم أن سبحوه بكرة وعشيا »[٩] . وهنا يختلف المفسرون في تفسير لفظة الوحي ، يقول الفراء : ( فأوحى اليهم ) أي أشار اليهم ، والعرب تقول : أوحى اليَّ ووحى وأومأ وهي بمعنى واحد[١٠] . ووافقه الطبري في هـذا التفسير ، ولكنه لم يكتف به ، وانما أورد روايات تشير الى معاني اخرى فاضافة الى ما ذكره الفراء . يقول الطبري :

« فأوحى اليهم » أشار اليهم ، وقد تكون تلك الاشارة باليد وبالكتاب وبغير ذلك .

واختلف أهـل التأويل في المعنى الـذي بـه أوحى الى قـومـه ، فقال بعضهم : « أوحى اليهم » اشارة باليد . وعن قتادة اومأ اليهم . وقال آخرون : معنى أوحى كتب . وقال آخرون معنى ذلك أمرهم ... الخ[١١] وكل ما قاله المفسرون حول لفظة الوحي له صلة بما ورد لهذه اللفظـة من معان .

وفي قوله تعالى : وأوحى الى النحل أن اتخذي من الجبـال بيوتـاً

---

(٦) سورة المائدة آية ١١١ .
(٧) سورة القصص : ٧ .
(٨) تفسير الطبري ١٢٨/٨ ، وتفسير الرازي ٣٤٣/٣ ، وتهذيب اللغة للازهري ٢٩٦/٥ .
(٩) سورة مريم : ١١ .
(١٠) معاني القرآن للفراء ١٦٣/٢ .
(١١) تفسير الطبري ٥٣/١٦-٥٤ .

ومن الشجر ومما يعرشون[١٢] . وهنا ترد لفظة الوحي لتعطي معنى الالقاء في النفس باتفاق معظم المفسرين[١٣] .

واستعمل القرآن هذه اللفظة مع الملائكة[١٤] والشياطين[١٥] ، ولكنها في معناها لا تخرج عن المعاني التي ذكرناها آنفاً . ولذلك سنتجاوز ذكر هذه الآيات مكتفين بالاشارة اليها ، لنأتي الى الآيات التي تخص وحي الانبياء .

ان الآيات التي تتعلق بوحي الانبياء كثيرة ، تناولت اسلوب الوحي والوسيط الذي كلف بنقل هذا الوحي الى من اصطفاه الله من عباده ، ومنها أيضا جاءت تأكيدا لقدرة الوسيط في اداء مهمته ، وأمانته في تبليغ هذا الوحي ، وضمان استيعابه من قبل الموحى اليه[١٦] .

وقد كشف لنا القرآن الكريم عن طبيعة هذا الاتصال بين الباري سبحانه وبين من اصطفاه من عباده ، فقال تعالى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلاّ وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء انه عليّ حكيم »[١٧] وهذا النص القرآني يؤكد أن ليس من شأن أي انسان أن يكلمه الله في هذه الحياة الدنيا إلاّ بأحد هذه الاساليب الثلاثة التي قررتها الآية الكريمة ، وهي اما ان يكلمه الله من وراء حجاب بحيث يسمع الموحى اليه الكلام دون أن يرى شيئاً . وهذا ما حصل لموسى عليه السلام حين كلمه ربه ، ولمّا طمع موسى برؤية ربّ العزة كما ورد

---

(١٢) سورة النحل : ٦٨ .
(١٣) معاني القرآن للفراء ١٠٩/٢ ، وتفسير الطبري ١٣٩/١٤ ، وتهذيب اللغة ٢٩٦/٥ .
(١٤) سورة الانفال : ١٢ .
(١٥) سورة الأنفال : ١٢١ .
(١٦) سورة النجم : ٥ و ٦ .
(١٧) الشورى : ٥١ .

في القرآن الكريم على لسان موسى قوله : « ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر اليك قال لن تراني ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت اليك وأنا أول المؤمنين »[١٨] .

ولا نريد أن نخوض الآن في مسألة رؤية الله سبحانه وتعالى في هذه الحياة الدنيا والتي تضمنتها الآية الكريمة لاننا آثرنا أن نفرد لها بحثا خاصا بها ، نتطرق فيه الى رؤية محمد صلى الله عليه وسلم لربه ليلة عرج به الى السماء لان هذه المسألة كانت موضع نقاش طويل بين العلماء .

**الوحي في اصطلاح العلماء**

لقد تكلم العلماء كثيرا على الوحي ، فتناوله العلماء القدامى ، كما تناوله المحدثون ايضا ، واذا ما درسنا ما أوردوه من تعريفات للوحي لم نجدهم يخرجون عن مضمون الآية الكريمة الآنفة الذكر « وما كان لبشر أن يكلمه الله ..الخ » ، وما ورد في المعاجم اللغوية من تفسير للفظة الوحي .

فيعرفه الطبري بقوله : هو ما يوحيه الرسول الى المرسل اليه ما يشاء ربه ان يوحيه من أمر ونهي وغير ذلك من الرسالة والوحي[١٩] .

ويعرفه الزمخشري على انه كلام خفي في سرعة[٢٠] . وتعريف الزمخشري هذا تعريف لغوي لم يخرج عن مدلول لفظة الوحي اللغوي .

ومن العلماء والمحدثين الذين تكلموا عن الوحي الزرقاني في كتابه مناهل العرفان فيعرفه بقوله : الوحي هو أن يعلم الله تعالى من

---

(١٨) الاعراف : ١٤٣ .
(١٩) الطبري جـ ٢٥ ص ٤٥ ط ـ البابي الحلبي ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م .
(٢٠) الكشاف جـ ٢ ص ٣٠ .

اصطفاه من عباده كل ما اراد اطلاعه عليه من الوان الهداية والعلم ، بطريقة سرية خفية غير معتادة للبشر[٢١] .

ويعرف الامام محمد عبده الوحي تعريفا يكاد ينفرد به ، فيقول : « انه - أي الوحي - عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة ، والاول بصوت يتمثل لسمعه أوأ بغير صوت، ويفرق بينه وبين الالهام وجدان تستيقنه النفس وتتساق الى ما يطلب على غير شعور منها من أين اتى ، وهو اشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور[٢٢] .

وتعريف الامام محمد عبده هذا للوحي لا يمكن التسليم به ما دمنا بصدد الحديث عن وحي الانبياء وذلك لان ايراده لفظة « الشخص » مطلقة . دون تخصيص أو تقييد تثبت الوحي لبني الانسان عامة ، وما دمنا بصدد الحديث عن وحي الانبياء فلا يسوغ لنا ان نقبل تعريف محمد عبده هذا .

**انواع الوحي :**

كل ما قيل عن انواع الوحي لا يكاد يخرج عما ورد في الآية الكريمة التي وضحت لنا صور الوحي الالهي للانبياء . فقال تعالى : « وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بأذنه ما يشاء انه عليّ حكيم »[٢٣] .

فيكون الوحي على ثلاثة اصناف كما ورد في الآية الآنفة الذكر :

اولا : الوحي : وقد فسر الوحي هنا ( النفث في القلب )[٢٤] وهو

---

(٢١) مناطق العرفان ج ١ ص ٥٦ .
(٢٢) رسالة التوحيد ، ضمن مجموعة رسائل ص ٨٣ .
(٢٣) سورة الشورة آية ٥١ .
(٢٤) أبو حيان الاندلسي : البحر المحيط ج ٧ ص ٥٢٦ .

ان يلقي الله تعالى في قلب من يريد ان يوحي اليه ما يشاء ان يوحيه فيستيقنه الموحي اليه ويعيه .

الثاني : الكلام : وهو أن يكلم الله سبحانه وتعالى من يوحى اليه ، بحيث يسمع الموحى اليه كلام الله تعالى دون ان يراه . كما حدث بالنسبة لموسى عليه السلام .

الثالث : ويكون بواسطة رسول من ملائكته يرسله الله الى من يريد ان يوحي اليه فيوحي ذلك الرسول ما يشاء الله ان يوحيه الى المرسل اليه(٢٥) .

وقد اجتمعت هذه الانواع الثلاثة من الوحي لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . لانه في بدء الاسلام كان يرى من الرؤيا الصادقة كفلق الصبح(٢٦) .

وسمع كلام الله تعالى ليلة عرج به الى السماء . وكان يأتيه جبريل الى آخر عمره(٢٧) .

وقد كان وحي القرآن كله من النوع الثالث من انواع الوحي التي ذكرناها أي ان نزوله كان عن طريق جبريل عليه السلام ، كما نطق القرآن الكريم بذلك ، فقال تعالى : « نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين »(٢٨) .

وفي هذه الآية الكريمة يصف الله تعالى جبريل عليه السلام بانه امين على ابلاغ هذا الوحي الى محمد صلى الله عليه وسلم قادر عليه . وقد

---

(٢٥) الطبري : التفسير ج ٢٥ ص ٢٨ .
(٢٦) النيسابوري ، تفسير غرائب القرآن ، هامش تفسير الطبري ٢٥/٤٨ ط . بولاق .
(٢٧) نفس المصدر .
(٢٨) سورة الشعراء آية ١٩٢ـ١٩٤ .

اثنى الله تعالى على جبريل في غير هذا الموضع من القرآن الكريم ايضا ، فقال تعالى ( ... انه لقول رسول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم امين )[٢٩] والمقصود بهذه الآيات هو حامل الوحي الرسول الامين جبريل عليه السلام[٣٠] .

وقد اطلق على ما انزل على محمد صلى الله عليه وسلم اسم الوحي في اكثر من موضع من القرآن الكريم . فقال تعالى : « والنجم اذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحي يوحى »[٣١] . وقال تعالى : « واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا أئت بقرآن غير هذا أو بدله ، قل ما يكون لي ان ابدله من تلقاء نفسي ان اتبع الا ما يوحى الي اني أخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم »[٣٢] .

والقرآن حين يسمي هذا الضرب من الاعلام الخفي السريع وحيا تأتي هذه التسمية مطابقة لما تدل عليه لفظة الوحي من معان لغوية ، وقد بيناها في مطلع هذا المقال .

**اول نزول الوحي على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .**

يختلف العلماء في اول ما نزل من القرآن الكريم ، فمن قائل ان اول ما نزل هو الآيات : « اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم »[٣٣] وهذه الآية يؤيدها البخارى[٣٤] ومسلم[٣٥] في صحيحيهما .

---

(٢٩) سورة التكوير آية : ١٩-٣١ .
(٣٠) تفسير الطبري ٣٠/٤٣ .
(٣١) سورة النجم : ١-٤ .
(٣٢) سورة يونس الآية : ١٥ .
(٣٣) سورة العلق الآية : ١-٥ .
(٣٤) العسقلاني . فتح الباري ١/١٩ .
(٣٥) صحيح مسلم بشرح النووي ١/١٩٩ - ٢٠٠ .

وثمة رواية اخرى يذكرها مسلم ايضا في صحيحه[٣٦] ، تقول : ان اول ما نزل من القرآن هو قوله تعالى : « يا ايها المدثر قم فانذر » غير انهم يخرجون هذه الرواية على ان اول ما نزل في حراء قوله : « اقرأ باسم ربك الذى خلق » فلما رجع صلى الله عليه وسلم الى خديجة رضي الله عنها أنزل الله عليه في بيت خديجة قوله : « يا أيها المدثر » .

ورواية ثالثة تقول : ان اول ما نزل من الوحي هو سورة الفاتحة ، ويقول الباقلاني عن هذه الرواية ( ان هذا الخبر منقطع ) ثم يعقب بقوله : وأثبت الاقاويل ان اول ما نزل من الآيات « اقرأ باسم ربك » ويليه في القوة يا ايها المدثر »[٣٧] . وقد أيد السيوطي الباقلاني فيما ذهب اليه[٣٨] .

والراجح على ما يبدو ان اول ما نزل من القرآن هو قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق » ... الخ الآيات ، وكان ذلك في حراء وقد أخذ بهذه الرواية النويرى وغيره ، والله تعالى اعلم[٣٩] .

**محمد صلى الله عليه وسلم والوحي :**

كان محمد صلى الله عليه وسلم ـ وهو يرعى الغنم لاهل مكة ـ يتبصر في خلق السموات والارض فينظر الى السماء التي تظله بغير عمد ، ويجيل نظره في الارض الواسعة التي تحيطه بوديانها وجبالها ورمالها ، ثم يفكر بالليل والنهار وتعاقبهما ، والشمس والقمر والنجوم« لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون[٤٠] . فيقع في خلده ان هذا الكون العجيب لابد له من مدبر

---

(٣٦) صحيح مسلم ١/٢٠٧ .
(٣٧) سورة الحشر ، الآية ١ـ٢ .
(٣٨) ينظر الاتفاق للسيوطي .
(٣٩) النويري ، نهايب الارب ١٦/١٦٩ .
(٤٠) سورة ياسين ، آية ٤٠ .

قد احكم نظامه • ثم ما لبث صلى الله عليه وسلم أن حبب اليه الخلوة ، فلم يكن شيء أحب اليه من ان يخلو الى نفسه ، فاختار حراء وهو جبل بمكة فكان يجاور فيه شهرا من كل سنة ، وكان ذلك الشهر هو شهر رمضان •

وفى هذا الشهر المبارك وفي حراء فاجأه الوحي • ففي احد الليالي جاءه جبريل عليه السلام ، وهو في كامل يقظته ، ووعيه ليبلغه رسالة السماء ، فقال له اقرأ ، قال : ما انا بقارىء ، قال : فأخذني فغطني[٤١] حتى بلغ مني الجهد ، ثم ارسلني فقال : اقرأ • فقلت : ما انا بقارىء فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم ارسلني ، فقال : اقرأ • فقلت : ما انا بقارىء ، فأخذني فغطني الثالثة ثم ارسلني ، فقال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم الذي علّم بالقلم علّم الانسان ما لم يعلم »[٤٢] •

وفي رواية يذكرها ابن هشام في السيرة ، انه صلى الله عليه وسلم كان نائما حين جاءه جبريل بالوحي[٤٣] • غير ان رواية الصحيحين في هذا الباب تؤيد يقظة النبي ، وانه كان في كامل وعيه عندما نزل عليه جبريل عليه السلام بالوحي[٤٤] • وثمة نقطة اخرى تؤيد رواية الصحيحين هي ما اعتراه من رعب من جراء هذه الحالة التي لم يعهدها من قبل وقد لازمه الخوف حتى فى بيته فلو كان الامر قد وقع فى المنام لزال عنه ذلك الخوف بمجرد يقظته • ومن منا لا يرى ما يخيفه في منامه ، ولكن بعد الاستيقاظ يزول ذلك الخوف •

ويروى البخارى عن عبادة بن الصامت قال : كان رسول الله صلى

---

(٤١) غطني : ضمني وعصرني ( العسقلاني ، فتح الباري ١/١٩ ) •
(٤٢) سورة العلق ، آية : ١ـ٥ •
(٤٣) السيرة النبوية ١/٢٥٤ـ٢٥٥ •
(٤٤) صحيح البخاري ، وصحيح مسلم ، باب بدء الوحي •

الله عليه وسلم اذا نزل عليه الوحي كرب وتربد[٤٥] له وجهه • وفي وجهه •

وفي رواية اخرى قال صلى الله عليه وسلم : فما من مرة يوحي اليّ الاّ وظننت ان نفسي تقبض •

وروى البخاري ومسلم عن عائشة ان الحارث بن هشام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟ فقال : احيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهذا اشده عليّ فيفصم عني وقد وعيت ما قال ، واحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول • قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصد عرقا •

واخرج احمد وعبيد بن حميد وابن جرير وابن نصر والحكم وصححه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا اوحي اليه وهو على ناقة وضعت جرانها[٤٦] فما تستطيع ان تتحرك حتى يسرى عنه ، وكان يوحي اليه ورأسه على فخذ زيد بن ثابت وكان يحس بثقله حتى كأن فخذه كادت ترض من شدة ثقل رأس رسول الله[٤٧] •

وكان صلى الله عليه وسلم شديد الحرص على ما يلقى اليه من الوحي ، فكان يجهد نفسه ساعة تلقيه الوحي فيحاول اعادة ما يوحى اليه ليطمئن على وعيه وحفظه ، ولكن الله سبحانه وتعالى اللطيف بعباده قد اشفق على نبيه لما رأى منه ذلك فكفاه حفظه وطمأنه على استيعابه فنزلت

---

(٤٥) الربدة : غبرة مع سواد •

(٤٦) الجران : مقدم عنق الناقة من مذبحها الى نحرها •

(٤٧) عبدالقادر ملا حويش ، بيان المعاني جـ ١ من القسم المكي ص : ٩٢-٩٣ •

الآية الكريمة لتنهاه عن اجهاد نفسه في تلك اللحظات الحرجة وتخبره بان الله قد تولى عن رسوله ذلك ، فقال تعالى : « لا تحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرآنه فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم ان علينا بيانه »[٤٨] .

وكان الرسول في بدء الوحي يحاول استيعاب اكبر قدر ممكن منه ، وكأنه يطلب المزيد من الوحي فكان يستعجل جبريل عليه السلام حين كان يتلقى عنه فنزل قوله تعالى : « وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل ان يقضى اليك وحيه وقل رب زدني علما »[٤٩].

واسلوب هذه الآيات وكثير من امثالها تكررت في القرآن الكريم[٥٠] يوضح الصلة بين ذات الرسول صلى الله عليه وسلم وظاهرة الوحي فيستدل منها ان الوحي خارج عن ارادة محمد صلى الله عليه وسلم وليس لشخصه أى تأثير أو تصرف في نزوله او عدم نزوله ، وقد صرّح القرآن بذلك فقال تعالى : « واذا تتلى عليه آياتنا بينات قال الذين لايرجعون لقاءنا أئتِ بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي ان ابدله من تلقاء نفسي ان اتبع الاّ ما يوحى اليّ اني أخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم ، قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا ادراكم به ، فقد لبثت فيكم عمرا من قبله افلا تعقلون[٥١] .

فالوحي شي الهي منوط امر نزوله بمشيئة البارى تبارك وتعالى ينزله بارادته ومقتضى حكمته ، قال تعالى : « وان من شيء الاّ عندنا خزائنه وما ننزله الاّ بقدر معلوم »[٥٢] . ومما يؤيد ذلك ايضا الآيات

---

(٤٨) سورة القيامة آية : ١٦ـ١٩ .
(٤٩) سورة طه آية : ١١٣ـ١١٤ .
(٥٠) سورة آل عمران آية : ١٥٤ ، النساء آية : ٦٣ ، ٥٠ .
(٥١) سورة يونس ، آية : ١٥ و ١٦ .
(٥٢) سورة الحجر ، آية : ٢١ .

التي نزلت لتصور الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه كأي انسان ضعيف لا يملك من امر نفسه شيئا ، فهو يتوسل الى الله تعالى يطلب منه الرحمة والعون والنصر ويستمد منه المعرفة ، ومن هذه الآيات قوله تعالى : قل انما انا بشر مثلكم يوحى اليّ انما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه احدا »[٥٣] . وقوله تعالى : « وقل رب زدني علما »[٥٤] وقوله تعالى : « قل لا املك لنفسي نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله ولو كنت اعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ان انا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون »[٥٥] .

وبعد هذا نرى الرسول صلى الله عليه وسلم يبادر الى الدعاء ، يتوسل الى الله ان يرحمه ويلهمه المعرفة وينصره على اعدائه ، وقد وردت عنه كثير من الادعية المأثورة في هذا الخصوص ، نذكر منها :

( اللهم اني اسألك رحمة تهدى بها قلبي وتجمع بها امرى وتلم بها شعثي وتصلح بها غائبي وترفع بها شاهدي وتزكي بها عملي وتلهمني بها رشدى وترد بها الفتي وتعصمني من كل سوء ، اللهم اني اسألك الفوز في القضاء ونزل الشهداء وعيش السعداء والنصر على الاعداء )[٥٦] .

**متى كان ينزل الوحي ؟**

لم يكن نزول الوحي في مواعيد معينة كان ينظرها الرسول صلى الله عليه وسلم ، وليست له اوقات معلومة ، ولا اماكن محددة ، بل كان

---

(٥٣) سورة الكهف ، آية : ١١٠ .
(٥٤) سورة طه ، آية : ١١٤ .
(٥٥) سورة الاعراف ، آية : ١٨٨ .
(٥٦) القاضي عياض ، الشفا بتعريف حقوق المصطفى ١/٤٦ .

ينزل عليه الوحي في الليل حين يأوى الى فراشه ، وفي رابعة النهار ووقت الظهيرة ، واثناء السفر وفي الحضر[٥٧] .

كما لم يكن نزوله منتظما فقد يتتابع نزوله ، وقد ينقطع فترات تطول وتقصر . فيروى ان الوحي انقطع بعد نزول سورة المزمل ، وكان ذلك في اوائل نزول الوحي ، وقد دامت فترة انقطاعه ثلاث سنين أو ثلاثين شهرا على اختلاف في ذلك لم ينزل فيها على النبي شيء من القرآن ولم يتل على الناس غير السور الثلاث التي نزلت منذ بدء الوحي وهي : سورة العلق ، والقلم ، والمزمل . ثم نزلت بعد هذا الانقطاع سورة المدثر .

وقد ينقطع الوحي في ظروف يكون الرسول فيها احوج ما يكون الى الوحي من أى وقت آخر . وحديث الا فك الذى رمى به المنافقون زوجه المصون أم المؤمنين السيدة عائشة ، وهي بنت الصديق أحب الناس وأقربهم اليه . وفى هذا الظرف الحرج حيث يبتلى فيه رسول الله ، ينقطع الوحي وتدوم فترة انقطاعه شهرا كاملا[٥٨] . والرسول يتحرق ألما لما يروجه المنافقون والذين في قلوبهم مرض من افتراءات باطلة حتى نزلت الآيات بتبرئتها ، فقال تعالى : « ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل امرىء منكم ما اكتسب من الاثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم ، لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا افك مبين ، لولا جاءوا بأربعة شهداء فاذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم فيما افضتم فيه عذاب

---

(٥٧) السيوطي ، الاتقان ١/٢٢ وما بعدها .
(٥٨) النويري ، نهاية الالب ١٦/٤١٠ .

عظيم »[٥٩] فمال بال محمد صلى الله عليه وسلم لا يستعجل الوحي ـ لو كان ذلك بمقدوره ـ ليلجم أفواه المتقولين ويرد كيد الكائدين ، ولكن ليس لمحمد سلطان على أوامر السماء .

وكان بدء نزول الوحي سنة احدى عشرة وستمائة من السنين الميلادية ، وكان عمره الشريف قد بلغ آنذاك أربعين عاما باتفاق العلماء[٦٠] .

اما كون بدء الوحي كان في شهر رمضان فان هناك آيات كثيرة تؤيد ذلك ، كقوله تعالى : « انا انزلناه في ليلة القدر ، وما أدراك ما ليلة القدر ... الخ السورة[٦١] » وقوله تعالى : « حٰم والكتاب المبين ، انا انزلناه في ليلة مباركة انا كنّا منذرين ، فيها يفرق كل أمر حكيم ، امرا من عندنا انا كنا مرسلين ، رحمة من ربك انه هو السميع العليم »[٦٢] وقوله تعالى : « واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ان كنتم آمنتم بالله وما انزل على عبدنا يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير »[٦٣] . ويوم التقى الجمعان هو اليوم الذي التقى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع المشركين في وقعة بدر وقد كان ذلك يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة من رمضان[٦٤] .

---

(٥٩) سورة النور ، آية : ١١ـ١٣ .

(٦٠) القسطلاني ، ارشاد الساري ٦/٢١٩ ، السيرة لابن هشام ١/٢٥٣ .

(٦١) سورة القدر .

(٦٢) سورة الدخان ، آية : ١ـ٦ .

(٦٣) سورة الانفال ، آية : ٤١ .

(٦٤) سيرة ابن هشام ١/٢٥٨ .

## مصـــادر البحث ومراجعه


١ ـ القرآن الكريم •
٢ ـ الاتقان فى علوم القرآن ، جلال‌الدين السيوطي • ط• مصر ١٣٧٠ •
٣ ـ ارشاد الساري الى شرح حديث البخاري • القسطلاني •
٤ ـ أساس البلاغة ، محمود بن عمر الزمخشري •
٥ ـ البحر المحيط ، أبو حيان الاندلسي ط • السعادة بمصر ١٣٢٨ •
٦ ـ البرهان فى علوم القرآن • بدرالدين محمد بن عبدالله الزركشي ط • البابي الحلبي ١٣٧٧/١٩٥٧ •
٧ ـ بيان المعاني ، عبدالقادر ملا حويش • ط • مطبعة الترقي بدمشق •
٨ ـ تفسير غرائب القرآن ، النيسابوري هامش تفسير الطبري ط • بولاق •
١٠ـ جامع البيان عن تأويل القرآن • محمد بن جرير الطبري ط • مصر ١٩٢١ •
١١ـ رسالة التوحيد ، محمد عبده ط • مصر ١٣٥٧ •
١٢ـ السيرة النبوية ، ابن هشام بتحقيق محي‌الدين عبدالحميد •
١٣ـ شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، ابن الانباري ط • دار المعارف بمصر ١٩٦٣ •
١٤ـ الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، القاضي عياض ط • مصر ١٣٢٩ •
١٥ـ صحيح البخاري ، ط • مصر ، بدون تاريخ •
١٦ـ صحيح مسلم بشرح النووي ، ط • مصر ١٣٤٨/١٩٢٩ •
١٧ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري • العسقلاني ط • مصر ١٣٤٨ •
١٨ـ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الاقاويل • محمود بن عمر الزمخشري •
١٩ـ معاني القرآن • يحيى بن زكريا الفراء • ط • دار الكتب المصرية •
٢٠ـ المعجم المفهرس لالفاظ القرآن ، محمو فؤاد عبدالباقي •
٢١ـ معجم مقاييس اللغة ، ابن فارس •
٢٢ـ مناهل العرفان ، الزرقاني • ط • مصر ١٣٧٢ •
٢٣ـ نهاية الارب ، النويري • ط • دار الكتب المصرية •

# ظاهرة شعر الكدية

## في القرن الرابع الهجري

الدكتور ـ عناد اسماعيل الكبيسي

المدرس في قسم اللغة العربية

الكدية ظاهرة اجتماعية أوجدتها ظروف القرن الرابع الهجري ، وما كان لها ان تظهر في غير هذا العصر ، لاسباب سنمر بها سريعا في ثنايا هذا البحث ، ذلك لان جل اهتمامنا سيكون منصبا على دراسة هذه الظاهرة من خلال الشعر ، وعلى الخصوص من خلال القصيدة الساسانية لابي دلف الخزرجي ، تلك القصيدة التي حفظها لنا الثعالبي في يتيمة الدهر ، معلقا عليها بقوله « وهذا ما اخترته من القصيدة الساسانية التي أولها » :

جنون دمعها يجري  لطول الصد والهجر[1]

وظاهر من قول الثعالبي ان للقصيدة ابياتا أخرى ، عزف عنها ولم ينقلها ، وانما اكتفى برواية الابيات التي ذكرها في اليتيمة وتقرب من مائتي بيت ، وهي على ما نرى طويلة اذا قورنت بالشعر العربي ، وقد حوت هذه القصيدة الشيء الكثير عن اخلاق المكدين وتصرفاتهم والطريقة التي بها يعيشون . ويذكر محقق اليتيمة الآخر الاستاذ علي محمد عبداللطيف[2] أنه قابل هذه القصيدة بأخرى خطية في دار الكتب المصرية فلم يجد فيها اختلافا عن تلك التي رواها الثعالبي ، ولكي نكون أكثر دقة ننقل الهامش بنصه « حاولنا ان نعثر على القصيدة الساسانية كاملة فوجدنا منها نسخة خطية في الدار تحت رقم ٥٦٣٦ أدب فقابلناها عليها فلم نجد زيادة »[3] .

وهذا يجعلنا نعتقد ان هذه القصيدة المخطوطة انما نقلت عن يتيمة الدهر ، والا لكانت كاملة ، ومن المحتمل جدا أن يكون الثعالبى قد روى اكثرهـا ولكنه اكتفى بما رواه عنها • وعلى كل حال فان ما بقى من هذه القصيدة يعطينا صورة يمكننا ان نتعرف من خلالها على كثير من تصرفات هذه الزمرة وطريقة معيشتهم •

وقبل ان ننتقل الى دراسة هذا الشعر ، نحب ان نتعرف فى البدايـة أسباب هذه الظاهرة الادبية التى برزت كفن مستقل فى هذا العصر ، حتى صار الناس يتقبلونها ويأنسون بها مع ما فيها من سخف ورفث ، يقول آدم متز « ومما هو عظيم الدلالة ، اننا لا نجد فى الشعر العربى مكانا للمكدين الطوافين قبل القرن الرابع الهجرى»(٤) • على ان هذه الظاهرة لم تكن بارزة فى الشعر وحده ، وانما فى النثر ايضا ، فقد كان الكتاب كاخوانهم من الشعراء يقصدون الى الفكاهة قصدا ولا يعترفون بالايماء والتلميح فى كثير مما يكتبون « وذوق الفكاهة يغلب على كتاب القرن الرابع الهجرى ، وانهم كانوا يعمدون الى هذا الفن ••• وان الفكاهة اصبحت فناً من فنون القـول »(٥) • وامام شيوع هذه الظاهرة وطغيانها ، نجد انفسنا ملزمين لتلمس الاسباب التى دعت الى اقبال الادباء عليها فى هذا الوقت بالـذات ، وهذا بطبيعة الحال يجرنا الى معرفة العصر الذى ظهرت فيه ، معرفة سريعة، لان همنا سيكون منصبا على دراسة هذه الظاهرة من خلال الشعر كما قلنا • ذكرنا قبل قليل ان هذه الظاهرة برزت فى القرن الرابع الهجرى ، وما كان لها ان تظهر قبل هذا العصر ، أما نوادر الطفيليين والحمقى التى أوردهـا الجاحظ فى كتبه ، فلا يمكن مقارنتها بهذا الفن الجديد ، ذلك ان الجاحظ يأتى بهذه النوادر عرضا لكى يدفع السأم والملل عن قرائه الذين ضجروا من الكتابة المغرقة فى الجد ، والتى نجدها فى كتب العلماء والفقهاء « فكان الجاحظ اذا تخوّف ملل القارى وسآمة السامع خرج من جد الى هـزل

ومن حكمة الى نادرة لطيفة »[٦] فى حين تعاطى هذا الادب فى القـــرن الرابع الهجرى عدد كبير من الشعراء والكتاب يزدون على ما سواهم فى الفنون الاخرى ، وقد اهتمت اليتيمة بهذا الشعر فكـانت تسـميه بالادب العصرى وبأدب الظرف والفكاهة ، وراحت تكيل له ولاصحابه من الصفات ما جعلنا نعتقد انه كان طبيعيا ومقبولا فى عصره الى حد بعيد ، رغم ما فيه من سخف لا يليق ، انه مجرد هزل ودعابة لا يتعدى حدود القول ولايدخل فى المجال العملي يقـول الثعالبي وهو يدافع عن رأيه هذا « ذكر الاعضاء لا يؤثم وانما الاثم فى ذكرها عند شتم العورات وقول الرفث فى اكل لحوم الناس وقذف المحصنات »[٧] .

لقد كانت الاحوال العامة فى هذا العصر ملائمة كل الملائمة لظهور هذا الادب ، حيث انقسمت المملكة الاسلامية الى دويلات صغيرة متناحرة فيما بينها ، فهناك « دولة فارس والرى واصبهان بيد آل بويـه ، وكرمـان لمحمد بن الياس ، واليمامة والبحرين بايدى القرامطة ، وجرجان لقابوس وشمكير ، والموصل وديار بكر وربيعة بأيدى الحمدانيين ، ومصر والشام للاخشيديين والاندلس بيد عبدالرحمن الناصر الاموى ، وخراسان لآل سامان ، والاهواز وواسط والبصرة بيد ابن رائق ، ولم يبق بيد الخليفـة غير بغداد والسواد »[٨] التى احتلها معز الدولة البويهى سنة ٣٣٤ هـ كما هو معروف ، وبهذا انحسرت سلطة الخليفة واصبح الامر بأيدى البويهيين، فوقعت السلطة تحت رحمة اياد أجنبية ، قال الخليفة الطائع « أنا ليس لي غير الخطبة فان أحببتم أن اعتزل اعتزلت »[٩] وكان البويهيـون يعيّنون للخليفة كاتبا يدير اقطاعاته واخراجاته « ولم يكن لهم وزير ولا أمر ولم يسلموا من عنت البويهيين ، فقد جرت العادة ان تنهب دار الخلافة بعـد موت الخليفة او خلعه حتى لا يبقى فيها شيء البتة»[١٠] أما ما كان يحدث للوزراء والقضاة والعمال فأمر وأدهى من هذا كله ، لانهم يحصلون على

مناصبهم تلك عن طريق الرشاوى والتأجير ، وقد حوت كتب التاريخ الكثير من النوادر الغريبة فى هذا المجال .

فى مثل هذه الاجواء تنعدم المسؤولية ، وتترك النفوس على هواها ، لتجد حرية فيما تقول وتعتقد ، وتظهر الآراء الغريبة التى تشكك فى المعتقدات والمثل ، فالقرامطة الذين ظهروا بصورة عارية فى هذا العصر ، احدثوا كثيرا من المعتقدات التى تنافى الاسلام وروحه ، ونفثوا سمومهم بين كثير من الناس ، وقل مثل هذا فى الفرق المختلفة ، وسيل لا ينقطع من الادعياء ، هؤلاء جميعا كانوا يجدون حرية مطلقة فى وقت أمنوا فيه العقاب ، وصاروا لا يلتفتون الا لما يشبع نهمهم من اللذة والمتعة . أما المسؤولون فقد شغلوا انفسهم كذلك باللذة والمتعة ، وتعاطوا هذا الشعر ، واحاطوا مجالسهم بكل فكه وظريف ، وتركوا لانفسهم الحرية من ان تنغصها هذه الرسميات ، قال صاحب كشف أسرار الباطنية « ليس كولاة الامور من أهل زماننا هذا الذين غرقوا فى اللذات واتبعوا الشهوات ولم يرغبوا فى المكارم والخيرات »[11] وربما كانوا محقين فى هذا كله اذا نظرنا الى طريقة تعيينهم أو طريقة مصادرتهم ، وهم بعد هذا لا يعرفون متى تدور عليهم الدوائر ، فراحوا يعبون من اللذة حتى ينسوا المستقبل المظلم الذى ينتظرهم ، فالخليفة الراضي مثلا كان يطرب للشعر اللاهي ويتعاطاه بنفسه وهو القائل :

قم فاسقني بين خفق الناى والعود ... ولا تبع طيب موجود بمفقود
كأسا اذا ابصرت فى القوم محتشما ... قال السرور له قم غير مطرود
نحن الشهود وخفق العود خاطبنا ... نزوج ابن سحاب بنت عنقود[12]

وكان مجلس الوزير المهلبي يضم كل فكه وظريف منهم ابو اسحق الصابي وابن الورد « وهو من عجائب الدنيا فى المطايبة والمحاكاة يخدم مجلس المهلبي ويحكي شمائل الناس والسنتهم فيؤديها كما هى فيعجب

الناظر والسامع ويضحك الثكلان »[١٣] ، كما كان ابو اسحق الصابي المذكور ، وهو كاتب الانشاء في الدولة البويهية ، يتعاطى هذا الشعر على سبيل الفكاهة والظرف ، وهزله في رسائله مشهور ، فقد اتخذ من الطفيليين وسيلة لظرفه وفكاهته « ومن اظرف ما كتب على طريق الهزل والفكاهة ، عهد التطفل ، وهو عهد انشأه ابو اسحق على لسان طفيلي اسمه عليكا كان يقع على مائدة معين الدولة بين بويه »[١٤] ومن شعره في هذا المجال قوله :

أبصرت في رشد وقد أحببته ... رشدى ولم أحفل بمن قد ينكر
يا لائمي أعلى السواد تلومني ... من لونه وبه عليك المفخر
دع لي السواد وخذ بياضك انني ... أدرى بما آتى وما أتخير[١٥]

وربما كانت النادرة التي يرويها الثعالبي عن هؤلاء المسؤولين خير ما يمكن أن نعول عليه هنا ، ننقلها بالنص لاهميتها « كان القاضى التنوخي ريحانه الندماء وتاريخ الظرفاء وكان من جملة القضاة الذين ينادمون المهلبي في الاسبوع ليلتين على اطرّاح الحشمة والتبسط في الوصف والخلاعة وهم ابن قريعة وابن معروف والقاضى التنوخي وغيرهم ، وما منهم الا ابيض اللحية طويلها ، وكذلك كان المهلبى فاذا تكامل الانس وطاب المجلس ولذ السماع ، واخذ الطرب منهم مأخذه ، وهبوا ثوب الوقار للعقار ، وتقلبوا في اعقاب العيش بين الخفة والطيش ، ووضع في يد كل واحد منهم كاس ذهب من ألف مثقال الى ما دونها مملؤا شرابا قطربليا أو عكبريا ، فيغمس لحيته فيه بل ينقعها ، حتى تتشرب أكثره ويرش فيها بعضهم على بعض ، ويرقصون اجمعهم وعليهم المصبغات ومخانق البرم والمنشور ، ويقول كلما كثر شربهم : هر ، هر ، واياهم عني السرى الرفاء :

مجالس ترقص القضاة بها ... اذا انتشوا في مخانق البرم
وصاحب يخلط المجون لنا ... بشيمة حلوة من الشيم

تخضّب بالـراح شـيبه عبثـا أنامـل مثـل حمـرة العنـم
حتى تخـال العيـون شـيبته شـيبة فعلان ضرّجت بدم[١٦]

فلا غرو بعد هذا أن يكون لأدب الهزل سوق رائجة الى ولاة الامور ، فابن الحجاج وهو زعيم شعراء السخف بلا مدافع ، كان يتبختر على رؤوساء عصره رغم الرفث الذى فى شعره « كان ابن الحجاج يتحكم على الاكابر والرؤوساء بخلاعته ولا يحجب عن الامراء والوزراء مع سخافته ، يستقبلونه بالبشاشة والاكرام ، ويقابلون اساءته بالاحسان والانعام »[١٧] وذكر الثعالبي ان ابن الحجاج « كان موفور الحظ من الاكرام والانعام ، مجاب الى مقترحة من الصلات الجسام ، والاعمال المجدية التى ينقلب منها الى خير حال ، وقد كان طول عمره يتحكم على رجال الوقت ورؤساء العصر تحكم الصبي على أهله ويعيش فى اكنافهم عيشة راضية ، ويستثمر نعمة صافية ضافية »[١٨] ، ومن يدرس ديوان هذا الشاعر المخطوط يلاحظ المدى المؤلم الذى ينحدر اليه الانسان بعد ان يعتاد هذا السخف ، وهكذا هو ابن سكرة وابن لنكك والخبز أزرى وغيرهم من شعراء الظرف والسخف الذي امتلأت بهم اليتيمة ، والذي يتمعن فى دراسة هؤلاء لا يجد فرقا بينهم وبين الشعراء المكدين لا من حيث الدافع فحسب ولكن من حيث الطريقة والاداء الفنى كذلك ، بل اننا نجد لهؤلاء الشعراء المغرقين فى السخف ، شعرا فى الكدية لا يقل عن الشعراء المكدين انفسهم . فهم جميعا يذكرون انهم انما تعاطوا هذا الشعر تحت الحاح الظروف القاسية التى يحيونها ، فألجأتهم الى هذا العبث الغريب ، فضنك العيش والمجاعات الغريبة التى يحدثنا التاريخ عنها فى هذا القرن ، صارت تدفع الناس الى سبل ما كانوا يرتضونها لو كانت الامور طبيعية ، يذكر المقدسي « أن الخطب فى المسجد لا تسمع من صياح السوّال فى شيراز »[١٩] ، وهذا هو نفس ما كان يصرح به المكدون واصحاب السخف ، وفى كثير من الاحيان تخرج

منهم أنات مريرة لتخبر عن وجود احساس دفين لا يختلف عن هذا الذى نجده عند غيرهم ، ومن المحتمل جدا أنهم لو وجدوا وسيلة شريفة يرتزقون منها لما ولجوا هذا الباب ، يقول الاحنف العكبرى ، وهو رأس المكدين فى مدينة بغداد :

عشت في ذلة وقلة مال ... واغتراب ومعشر انذال
بالاماني أقول لا بالمعاني ... فغذائي حلاوة الايمان

وقال مكد آخر :

الروح والراحة في الحمق ... وفي زوال العقل والخرق
فمن اراد العيش في راحة ... فليزم الجهل مع الحمق

ويصب ابن لنكك غضبه على الزمن الذى دفع به الى هذا السخف ، وهو اكثر اندفاعا من غيره فيقول :

زمان قد تفرّغ للفضول ... فسوّد كل ذى حمق جهول
اذا احببتم فيه ارتفاعا ... فكونوا جاهلين بلا عقول

وقال :

عجبت للدهر في تصرفه ... وكل أفعاله عجب
يعاند الدهر كل ذى ادب ... كانما .... أمه الادب[٢٠]

ولعلنا نحس باللوعة تعتصر قلب الشاعر ، بعد ان دفع الى هذا المسلك دفعا ، فهو فى اعماقه انسان آخر غير ما يبدو من خلال شعره السخيف ، لقد عجز الادب الجاد ان يهيأ لهم لقمة شريفة يقتاتون منها ، ولهذا نراهم يثورون على هذه الحياة كلما التفتوا الى انفسهم ، قال ابن الحجاج .

واضطرني جور زماني الى ... معيشة تزرى على الحرّ
والدهر قد صارت به هيضة ... فنحن غرقى فى خسرا الدهر

وحينما كان يعاب على هذا السخف ، فانه يجد المبررات التى تسوّغ له هذا الاندفاع :

سيدى شكرك عندى مثل شكرى لألاهي
سيدى سخفي الذى قد صار يأتي بالدواهي
أنت تدرى أنه يد فع عن مالي وجاهي(٢١)

ويبدو ان هذا السخف قد ارغم الناس على ان يهابوهم ويخشوا لسانهم ، الامر الذى جلب لهم الكثير من المكاسب ، حتى اصبح شعرهم مهنة يرتزق منها ، ولا أهمية بعد ذلك لما قد يقوله الآخرون فيهم ، المهم ان يعيشوا ويأكلوا حيث يعيش الناس ويأكلون ، هم على غير استعداد لان يروا غيرهم يرفلون بأبهى الملابس ، ويأكلون من الطعام أطيبه ، بينما يعيشون هم وعوائلهم عيشة بؤس وفاقه .

ما حال من يأوى الى منزل أرفق منه المسجد الطائع
لا يرتوي العطشان فيه ولا يلحق ما يقتاته الجائع
وسوقه كاسدة بينكم لا مشتر فيها ولا بائع

وفى شعر ابن سكرة ما يشير الى ذلك صراحة ، فهو واضرابه من الشعراء والمكدين لم يكونوا على استعداد لان يتحملوا شظف العيش مقابل كلمة طيبة تقال لهم أو لا تقال :

ارى حللا وديباجا حسانا فالحظها بعين المستريب
وأعرف قصتي وأرد طرفي وفي قلبى أحرّ من اللهيب(٢٢)

وهذا هو نفس ما نلاحظه لدى الشعراء المكدين ، فالدوافع واحدة والهدف واحد كما قلنا ، بل ان شعراء السخف تعاطوا الكدية قولا وعملا ، وذهبوا فى هذا الباب الى أكثر مما ذهب اليه المكدون انفسهم ، فالشعر برمته قريب من السخف أو هو السخف بعينه ، فلا غرو ان يشتكى شعراء الكدية من الدهر ووطأته حيث اشتكى شعراء السخف ، فالاحنف العكبرى يذكر لنا صراحة ان ظروف الحياة هى التى دفعته الى هذا المنزلق وحينما نقرأ

شعره نلاحظ روحا انسانية عميقة لا يختلف فيها عن غيره من الناس :

رأيت في النـوم دنيـانا مزخرفـة  مثل العروس تراءت فى المقاصير
فقلت جودي فقالت لي على عجل  اذا تخلصت من ايدي الخنازير

وقال والحسرة تملأ نفسه :

العنـكبوت بنت بيتا عـلى وهن  تأوى اليـه ومالي مثلـه وطـن
والخنفساء لها من جنسها سكن  وليس لي مثلها الف ولا سكن

كيف يمكن ان يكون الاحساس ، انه يحسد العنكبوت لان لها بيتا تأوى اليه ، ويحسد الخنفساء لان لها سكنا تأوى اليه ، أما هو فلا وطـن له ، هكذا كتبت عليه الحياة ومن هنا راح هو واصحابه يحملون على الزمن الذى ارغمهم على ان يألفوا هذه الحياة ، حتى صارت جزءا منهم ، بـل لقـد اصبح عسيرا عليهم أن يتراجعوا الى الحياة المألوفة بعد أن عرف الناس منهم هذا السخف ، فاذا اضفنا الى هذا كله المكاسب التى حصلوا عليهـا ، وتقبل الناس لسخفهم هذا ، ادركنا كيف تحول هؤلاء الشعراء الى بهلوانات او ممثلين لاهم لهم الا ان يرضوا المشاهدين ولو على حساب كرامتهم ، ولهذا فقد جاء شعرهـم صريحـا لا يعترف بالايماء ، وانما يعبر شـاعرهم حيث يحلو له ان يقول ، ما دام يضحك الناس ويستلب اعجابهم مع ما قد يترتب على هذا الاعجاب من عطاء هو هدفهم الذى يسعون اليه ، وهـذه ظاهرة مهمة فى شعر الكدية ، فهو شعر تكسب لا على طريقة المدح المألوفة فى الادب العربى ، وانما على طريقة المكدين الذين راحوا يحرفون الاغراض المألوفة تلك الى ما يخدم قضيتهم • ومن الظواهر الاخرى التى نستدل عليها من خلال شعرهم ، ان المكدين لا يرتبطون بالوطن ، اذ لا وطن لهـم ، وانما يتنقلون حيث يحلو لهم أن ينتقلوا ، فتراهم يراعون الفصول فى اثناء ترحالهم ، فى الصيف ينحدرون الى المناطق الباردة ، وفى الشتاء الى المناطق الدافئة ، لا يهتمون بما قد يصادفهم فى تنقلهم هذا من عقبات ومخاطـر ،

فى وقت كثر فيه اللصوص وقطاع الطرق ، حتى ان كثيرا من المسافرين والتجار كانوا يرافقونهم حينما يقصدون الى مناطق معينة لكى يأمنوا اللصوص وقطاع الطرق ، قال الاحنف العكبرى :

على أنيّ بحمد الله في بيت من المجد
باخواني بني ساسان أهل الجدّ والحد

لهم أرض خراسان ... فقاشان الى الهند
الى الروم الى الزنج ... الى البلغار والسند
اذا ما أعوز الطرق ... على الطرّاق والجند
حذار من أعاديهم ... من الاعراب والكرد
قطعنا ذلك النهج ... بلا سيف ولا غمد
ومن خاف أعاديه ... بنا في الروع يستعدى[٢٣]

والبيت الاخير يجعلنا نعتقد ان الناس حينذاك لم يكونوا ينظرون اليهم نظرة جادة ، فهم مجرد مكدين لا يملكون شيئا يغرى الآخرين بهم ، ولهذا صار التجار والمسافرون يتسترون بهم ويحتمون مما قد يتعرضون له فى اثناء الطريق . وكان المكدون يطوفون على البيوت ويتزيون بمختلف الازياء حتى يصلوا الى ما يريدون ، ولا يملكون طريقة أخرى غير هذه :

قد قسّم الله رزقي فى البلاد فما ... يكاد يدرك الا بالتفاريق
ولست مكتسبا رزقا بفلسفة ... ولا بشعر ولكن بالمخازيق
والناس قد علموا أني أخو حيل ... فلست أنفق الا فى الرساتيق

كما كانوا يتفننون فى الحيل التى يقومون بها ، وان جلبت الاذى لاجسامهم ، يذكر ابو حيان التوحيدى أن هذه الجماعة كانت تبيع ماء الوجه عن طريق ما تقوم به من حركات غريبة « انهم يبيعون الدين والمروءة واراقة ماء الوجه وكدّ الابدان وتجرّع الاسى ومقاساة الحرفة»[٢٤] ،

فحرفتهم تتطلب منهم كل ذلك ما داموا قد الفوا هذه الحياة ، وما دامت الحياة قد ألفتهم ، والناس من جانبهم يرحبون بهم حيثما حلوا لانهم يجدون فيهم مصدرا لتفكههم :

وقد صارت بلاد الله في ظعني وفي رحلي
تغايرن بلبثي وتحاسدن على رحلي
فما انزلها الا على انس من الاهل

وخير من يمثل هذه الظاهرة شاعران معروفان ، هما الاحنف العكبرى وابو دلف الخزرجي ، ولم نعثر على غير شعرهما في هذا المجال وهذا يعني أن انتاجهم قد ضاع اما لقلة العناية به واما لانه لم يكن ذا بال من الناحية الادبية والا لاهتم الثعالبي به كما اهتم بغيره من الشعر المعاصر ، واما ان يكون هذان الشاعران هما خير من يمثل هذه الطائفة فاكتفى بهما عن غيرهما .

والاحنف العكبرى الذى تمثلنا بنصوص مختلفة له هو « أبو الحسن كان اديبا وشاعرا مليح القول »[٢٥] وقد روى له صاحب المنتظم مقطوعة وقصيدة تخلوان من السخف ، قال عن القصيدة التى رواها له : « لم اسمع في معناها مثلها » ننقل منها بعض الابيات لنؤيد ما ذهبنا اليه من أن هؤلاء الشعراء وقعوا تحت ظروف قاسية الجأتهم الى هذا المسلك ، قال الاحنف :

من اراد الملك والرا حة من همّ طويل
فليكن فردا من النا س ويرضى بالقليل
ويرى أن قليلا نافعا غير قليل
ويداوى مرض الوحدة بالصبر الجميل
يلزم الصمت فان الصمت تهذيب العقول
يذر الكبر لاهليه ويرضى بالخمول
أي عيش لامرىء يصبح في حال ذليل

الى آخر هذه القصيدة التى تدل على نفس أبيه لو أنه عاشها فعلا ، فمن خلالها نحس بثورة عارمة ، مبعثها ثورة الضمير الذى يستيقظ ، حينما يتاح له ان يستيقظ . ولم يذكر الثعالبى عنه الا القليل ، ومصدر هذا القليل هو الصاحب بن عباد الذى كان يتردد عليه الشاعر فيعجب به ايما اعجاب ، قال عنه « أبو الحسن عقيل بن محمد العكبرى شاعر المكدين وظريفهم ومليح الجملة والتفصيل منهم ، وقرأت للصاحب فى ذكره فأوردته وهو : لو انشدتك ما انشدنيه الاحنف العكبرى لنفسه ، وهو فرد بني ساسان لليوم بمدينة السلام وحسن الطريقة فى الشعر لامتلأت عجبا من ظرفه واعجابا بنظمه »[٢٦] ومن ثم يروى الثعالبى له مقطعات قصيرة تلائم منهجه العام فى اختيار الشعر ، وقد استهلكنا اكثر هذه الابيات فى مكانها الملائم ، وبقيت مقطوعة لها أهميتها فى دراسة هذا الشعر لما تحويه من الفاظ غريبة يبدو انها كانت مادة للتندر والظرف ، بالاضافة الى طريقة تمثيلهم امام الناس : وهي :

شربت بما خور ... على دفّ وطنبور
وصوت الطبل كردم ... وصوت النای طلیّر
فصرنا من حمی البيت ... كأنّا وسط تنوّر
وصرنا من أذى الصفع ... كمثل الصحي والعور
لقد اصبحت مخمورا ... ولكن أیّ مخمور

وليست هذه الابيات غير صورة لما كان على هؤلاء الشعراء ان يقوموا به ليضحكوا عليهم الناس ، فهم مجرد ممثلين هزليين عليهم ان يسلكوا أى سبيل لاضحاك مشاهديهم .

والشاعر الثانى الذى يمثل هذه الظاهرة هو ابو دلف الخزرجى « شاعر كثير الملح والظرف » مشحوذ المدية فى الكدية ، خنق التسعين فى الاطراب والاغتراب ، وركوب الاسفار الصعاب ، وضرب صفحة المحراب

بالجراب ، فى خدمة العلوم والآداب ، وفى تدويخه البلاد ، وكان ينتاب حضرة الصاحب ويكثر المقام عنده ... »[٢٦] والصاحب بن عباد كان يطرب لهذا الشعر ويحتفي باصحابه ، وكان يشجع أبا دلف على معارضة العكبرى ، كما ذكر الثعالبى ، الا اننا لم نعثر على شيء من ذلك ، والا لكانت الفائدة أشمل .

اما قصيدته الساسانية فيمكن النظر اليها على انها خير مصدر لدراسة المكدين وشعرهم ، فهى تشبه ان تكون ملحمة تحكى قصة جماعة من الناس لفظها الزمن فراحت تحيا حياة خاصة ، لها اصطلاحاتها وتصرفاتها ، وكأن بودنا ان ننقل أكثر هذه القصيدة الا ان المجال لا يسمح لنا بذلك . بدأ أبو دلف قصيدته هذه بأبيات تحس معها أن الشاعر يشعر بالمرارة من هذه الحياة العابثة ، التى الجأته واصحابه الى الغربة ، فلم يعودوا يستقرون فى مكان بعينه ، لقد اضاعوا فى الغربة اعمارهم ، وما دامت الحياة قد كتبت عليهم هذا الشقاء فلا أقل من أن يعترفوا بالواقع ويتحملوا الصعاب ، وينسوا الاهوال ، والا فما فائدة الحسرة بعد ذلك :

جفون دمعها يجرى ... لطول الصد والهجر
وقلب ترك الوجد ... به جمرا على جمر
ومن كان من الاحرا ... ر يسلو سلوة الحرّ
ولا سيما وفي الغر ... بة أودى أكثر العمر

ثم ينتقل الشاعر بعد ذلك الى الحياة ذاتها ، حياتهم هم ، وما بها من صور ومشاهد ، مصدرها هذا التنقل والاغتراب الذى زودهم بتجارب وخبر كثيرة ، حتى يصل الى وصف حالته وحالة جماعته ، وكيف عبث الدهر بهم فصار يرميهم هنا وهناك ، كما تفعل الريح بكثبان الرمل . لقد اتحد اعضاء هذه الجماعة على السراء والضراء ، فكانوا يتقاسمون الخير والشر فيما بينهم ، وحينما يأنسون فى مكان ما ، فانهم يتركون لانفسهم الحرية

المطلقة فى كل شيء ، همهم ان يحصلوا على المتعة أنى وجدوها والا ضاق بهم المكان ورحلوا الى آخر غيره ، لا تقف أمامهم صعاب أو عقبات ، يختارون المناطق التى يكثر فيها الرى ، وكل الارض وطن لهم :

على أنيّ من القوم الـ ... بهالل بني الغرّ
بني ساسان والحامي الـ ... حمى في سالف العصر
تغربنا الى أنّا ... تناءينا الى شر
كما قد تفعل الريح ... بكثب الرمل في البرّ
فطبنا نأخذ الاوقا ... ت في العسر وفي اليسر
فما ننفكُّ من صمي ... وما نفتر من متر (٢٨)
فاحلى ما وجدنا العيـ ... ـش بين الكمد والخمر
فنحن الناس كل ... الناس فى البرّ وفى البحر
اخذنا جزية الخلق ... من الصين الى مصر
اذا ضاق بنا قطر ... نزل عنه الى قطر
لنا الدنيا بما فيها ... من الاسلام والكفر
فنصطاف على الثلج ... ونشتو بلد التمر

ثم ينتقل الشاعر بعد هذا الى الوصف العملى لتصرفات جماعته بأدب صريح مكشوف ، تحس معه وكأنهم لم يعودوا يؤمنون بالمثل بعد ان ألفوا هذه الحياة ، كما لم يعودوا يؤمنون بالندم الى الحياة السوية ، فحياتهم كلها انحرافات شاذة وبخاصة فى المجال الجنسى ، فكل واحد منهم يرينا لونا غريبا فى الاثم والفجور وهو فى سبيل ذلك يتلون حيث شاءت له الظروف ، يظهر الجنون ، يتباله ، يضع التعاويذ ، يسحر النساء ، يتشاجر مع صاحبه ، وأمور أخرى غريبة فى بابها ، لكنها مألوفة عندهم ، ذلك هو سر المهنة اذا صح التعبير :

فنحن الميزقانيوّ ... ن لا ندفع عن كبر (٢٩)

هم شتى فسلني عنهم يثبك ذو خبر
فمناكل كمّاذ اللبو سات مع الهرّ
ومناكل صلاّج بكيذ وافر نكر
قد استكفى بكفيه عن الثيب والبكر
فلا يخشى من الاثم ولا يؤخذ بالمهر
ولا يحذر من حيض ولا حمل على طهر
ومنا الكاغ والكاغة والشيشق فى النحر(٣٠)
ومن دروز أو حرّ ز او كوّز بالدغر(٣١)
ومن درّع أو قشع أو دمع في القر(٣٢)

وهكذا يفضح ابو دلف الخزرجي سر المهنة لا فى هذه الابيات فحسب وانما فى مواضيع اخرى من قصيدته هذه فيعطينا ادق التفاصيل عن كل حركة من حركات هذه الجماعة ، حتى اننا لنقف مندهشين أمام هذه البدع الغريبة والحركات العجيبة التى لا يمكن ان تأتى على بال ، والحاجة أم الاختراع كما يقولون فهم فى سبيل ان يستدروا عطف الناس عليهم ويسلبوا أموالهم ، يمثلون أشق الادوار ويقومون بمختلف الاعمال دون النظر الى ما قد يلحقهم من ضرر ، فالابيات التالية تظهر لنا بجلاء بعض الاعمال الغريبة التى كانوا يقومون بتمثيلها والتى اصبحت جزءا من حياتهم :

وحاجور وكذا يا ت اهل الاوجه الصفر(٣٣)
ومن شطّب او ركّب للضربات والعقر(٣٤)
ومن ميسر أو مخطر واستنفر للثغر(٣٥)
ومن قص لاسرائيل او شبرا على شبر(٣٦)
ومناكل قنّاء على الانجيل والذكر(٣٧)
ومن يزنق أو يخنق أو يذلق بالدبر(٣٨)

ومطـــــــــلي دم الاخ مـــع المصمـــوغ كالبشـــر

فالمكدى يضع البيض فى حجره ليسيل صفاره ، ويعصب رأسه حتى ينتفخ باعتباره مريضا ، وقد يجرح نفسه بالموس او يطلي جسمه باللـون الاسود لان الجن لطمته ، وربما لوى لسانه فى فمه ليوهم الناس ان الروم قطعوه وانه هرب من الثغور خشية من جورهم ، وفى احيـان كثيرة يعظ الناس ويقص عليهم قصص الانبياء أو يوهمهم انه كان مسيحيا أو يهوديـا فاسلم ، وقد يثقب بدنه ويخنق رقبته حتى ينتفخ رأسه وربما مشى عاريـا بعد ان يستعمل ادوية معينة لتخرج به يثور يمرض منها ، كل هذا فـى سبيل ان يستدر العطف عليه وهو يكدى . اما قصة المكدين مـع السـحر والدجل والشعوذة ودخولهم بيوت الناس وعبثهم بها وبأهلها فأمر يطول .

نكتفى بهذا القدر ، والا اصابنا الملل ونحن نقرؤ بقية القصيدة لمـا فيها من اصطلاحات غريبة لا عهد للغة بها ، لانها خاصة بهم ، وادبهم بعد هذا ادب شعبي ادخلوا فيه كثيرا من الاصطلاحات الخاصة بهم حتى ليمكن القول ان هذا الشعر كان يتداول بينهم على الاكثر ، وانهم لم يكونوا بصدد نشره أو اذاعته بين الناس والا افتضح امرهم ، كما اننا لا نجد فى هـذا الشعر ما يشير الى وجود صناعة لفظية أو معنوية ، ولهذا جـاء شـعرهم صادقا يعبر عن حياتهم التى لا تعترف بالصهرجة ، يقول آدم متز « وقد دخل فى الادب على ايدى المكدين شعر حر مزهر ترنموا به »(٣٩) .

ويذكر المؤرخون ان بديع الزمان الهمذانى استوحى مقاماته مـن هؤلاء المكدين ، ولهذا أوقف أكثرها على الكدية ، وجعل بطلها ابا الفتح الاسكندري المكدي ، ومن الممكن أن نعرف الكثـير عن هؤلاء المكدين من خلال دراستنا لمقامات بديع الزمان ، وبهذا يمكن اعتبارها مصدرا آخـر يضاف الى القصيدة الساسانية فى معرفة تصرفات هذه الجماعة فأبو الفتح الاسكندري يمثل هذه الزمرة تمثيلا رائعا عن طريق ما يتحفه بديع الزمان

من حركات تمثيلية رائعة ، فبينما نراه ماجنا يضحك من المصلين والزهاد كما في المقامة الاصفهانية اذا بنا نراه ناقدا وأديبا يعطي الناس رأيه في الشعر والشعراء كما في المقامة السجستانية والقريضية والجاحظية في حين نراه في المقامة السجستانية وغيرها واعظا ينصح الناس ويدلهم على طريق الخير • كما أفرد بديع الزمان مقامة كاملة عن الساسانيين وسماها المقامة الساسانية ومنها « احلتني دمشق بعض أسفاري ، فبينا أنا يوما على باب داري ، اذ طلع عليّ من بني ساسان كتيبه قد لفّوا رؤوسهم،وطلوا بالمغرة لبوسهم وتأبط كل واحد منهم حجرا يدق بها صدره وفيهم زعيم لهم يقول وهم يراسلونه ، ويدعو ويجاذبونه ، فلما رآني قال :

| | |
|---|---|
| اريد منك رغيفا | يعلو خوانا نظيفا |
| اريد ملحا جريشا | اريد بقلا لطيفا |
| اريد لحما غريضا | اريد خلا ثقيفا |
| اريد جديا رضيعا | اريد سخلا خروفا |

وهكذا يستمر المكدي وهو يذكر ألوان الاطعمة حتى اذا انتهى من ذلك وأعطاه الناس بعض ما يجودون به ، انتقل الى غيرهم وراوية بديع الزمان يلاحقه ليعرف منه ان كان يكرر هذا الشعر مع آخرين ، فاذا به يقول شعرا غيره وهو :

| | |
|---|---|
| يا فاضلا قد تبدى | كأنه الغصن قدّا |
| قد اشتهى اللحم ضرسى | فأجلده بالخبز جلدا(٤٠) |

والذى لا شك فيه ان للحرمان أثرا كبيرا فى اهتمام المكدين بذكر الاطعمة لانهم يعيشون على ما تجود به أيدي الناس وربما تمر أوقات أو أيام لا يحصلون فيها على ما يقيم أودهم الامر الذى يجعل تعلقهم بالطعام شديدا يصل الى درجة التغزل به •

(١) الثعالبي ـ يتيمة الدهر ـ جـ٣ ص٣٥٨ ٠

(٢) لليتيمة اكثر من محقق واحد وقد اعتمدنا على تحقيق محي الدين عبدالحميد ، ولم نعتمد على المحقق الآخر الا فى الهامش التالى مباشرة ٠

(٣) الثعالبى ـ اليتيمة ـ جـ٣ ص٣٢٣ ـ تحقيق محمد علي عبداللطيف ٠

(٤) آدم متز ـ الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ـ جـ١ ص٤٩٤ ٠

(٥) زكي مبارك ـ النثر الثني ـ جـ١ ص١٤٦ ٠

(٦) المسعودى ـ مروج الذهب ـ جـ٤ ص١٩٦ ٠

(٧) الثعالبي ـ ثمار القلوب ـ ص١٨٠ ٠

(٨) القرماني ـ اخبار الدول ـ ص١٦٧ ـ والفخرى ص٢٨٨ ٠

(٩) السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ـ ص٢٦٦ ٠

(١٠) ابن مسكويه ـ تجارب الامم ـ جـ٦ ص١٢٤ ٠

(١١) محمد ابن مالك ـ كشف اسرار الباطنية ـ ص٢١٥ ٠

(١٢) الآمدى ـ المؤتلف والمختلف ـ ص٤٦٥ ٠

(١٣) الثعالبي ـ اليتيمة ـ جـ٢ ص٣٧٨ ٠

(١٤) زكي مبارك ـ النثر الفنى ـ جـ١ ص١٤٢ ٠

(١٥) ابو احمد العباسي ـ معاهد التنصيص ـ جـ١ ص١٥٧ ٠

(١٦) الثعالبى ـ اليتيمة ـ جـ٢ ص٣١ ٠

(١٧) ياقوت ـ معجم الادباء ـ جـ٩ ص٢٠٧ ٠

(١٨) الثعالبي ـ اليتيمة ـ جـ٣ ص٣٢ ٠

(١٩) المقدسى ـ أحسن التقاسيم ـ ص٤٢٩ ٠

(٢٠) الثعالبي ـ اليتيمة ـ جـ٢ ص٣٤٩ ٠

(٢١) مخطوطة ديوان ابن الحجاج ـ مكتبة الاوقاف ـ

(٢٢) الثعالبي ـ اليتيمة ـ جـ٣ ص٢٤ ٠

(٢٣) ن ٠ ف جـ٣ ص١٢٢ ٠

(٢٤) ابو حيان التوحيدى ـ الامتاع والمؤانسة جـ٢ ص٤٣ ٠

(٢٥) ابن الجوزى ـ المنتظم ـ جـ٧ ص١٨٥ ٠

(٢٦) الثعالبي ـ اليتيمة ـ جـ٣ ص١٢٢ ٠

(٢٧) ن ٠ ف جـ٣ ص٣٥٧ ٠

(٢٨) فى القصيدة كلمات غريبة لاتضمها المعاجم ، شرح الثعالبى اكثرها ، وبعضها كلمات نابية لا يليق ان نذكر معناها هنا ٠

(٢٩) المزقانيون ـ المكدون ، مفردها ميزق ، وبعض الفاظ هذه الابيات مغرقة فى السخف من اراد معناها فليرجع الى اليتيمة ٠

(٣٠) الكاغ والكاغة ـ المتجانن والمتجاننة ٠ والشيشق : الحـدائـد والتعاويذ التى يلقونها على انفسهم ٠

(٣١) دروز : دار على السكك والدروب وسخر بالنساء ٠ وحرز : اذا كتب التعاويذ ٠ والمكوز : الذى يقوم فى مجالس القصاص فيأمر القاص اصحابه باعطائه ٠ الدغر : المقاسمة ٠

(٣٢) درّع : لحس الهريسة ٠ قشّع : اذا مشى وعينه الى الارض لطلب القطع ٠

(٣٣) الحاجور : البيضة يجعلها المكدى في حجره وهى تسيل ماءا اصفر ٠ الكذايات : العصابات توضع على الجباه ٠

(٣٤) شطب : عقر نفسه بالموسى ٠ ركّب : طلى جسمه بلون اسود ليوهم ان الجنّ لطمته ٠

(٣٥) ميسر : اذا كدّى على انه من الثغر ٠ مخطر : اذا بلع لسانه وأوهم ان الروم قطعوه ٠

(٣٦) الشبريات : القصص يرويها عن الانبياء ٠

(٣٧) القناءّ : الذى يوهم انه اسلم بعد ان كان نصرانيا او يهوديا ٠

(٣٨) يزنق : يثقب بدنه حتى يتورم ٠ يخنق : يخنق نفسه لكي ينتفخ رأسه ٠ يذلق : من يمشي عريان المؤخرة ٠

(٣٩) متز ـ الحضارة الاسلامية ـ جـ١ ص٤٢٥ ٠

(٤٠) محي الدين عبدالحميد ـ شرح مقامات بديع الزمان ـ ص١٠٦ ٠

# المراجـــع


(١) الثعالبي ـ يتيمة الدهر جـ٢ القاهرة ١٩٥٦ · تحقيق محي‌الدين·

(٢) الثعالبى ـ يتيمة الدهر ـ القاهرة سنة ١٩٣٤ · تحقيق علي محمد عبداللطيف ·

(٣) آدم متز ـ ترجمة عبدالهادى ابو ريدة ـ الحضارة الاسلامية فـى القرن الرابع الهجرى ـ طـ٤ بيروت ١٩٦٧ ·

(٤) زكي مبارك ـ النثر الفني ـ القاهرة ١٩٣٤ ·

(٥) المسعودى ـ مروج الذهب ـ القاهرة ١٩٤٨ ·

(٦) الثعالبي ـ ثمار القلوب ـ القاهرة سنة ١٩٠٨ ·

(٧) القرماني ـ اخبار الدول ـ القاهرة سنة ١٢٨٢ ·

(٨) الفخرى ـ ابن الطقطقا ـ القاهرة سنة ١٩٥٠ ·

(٩) السيوطي ـ تاريخ الخلفا ـ القاهرة سنة ١٣٥١ ·

(١٠) ابن مسكويه ـ تجارب الامم ـ القاهرة سنة ١٩١٤ ·

(١١) محمد ابن مالك ـ كشف اسرار الباطنيـة ـ جـ٢ ســـنة ١٩٠٥ القاهرة ·

(١٢) الامدي ـ المؤتلف والمختلف ـ القاهرة سنة ١٣٥٤ ·

(١٣) ابو احمد العباسى ـ معاهد التنصيص ـ سنة ١٩٣٦ ·

(١٤) ياقوت ـ معجم الادباء ـ القاهرة سنة ١٩٣٨ ·

(١٥) المقدسي ـ احسن التقاسيم ـ سنة ١٩٠٦ ليدن ·

(١٦) ابن الحجاج ـ مخطوطة الديوان ـ بغداد مكتبة الاوقاف تحت رقم ٥٧٣٠ ·

(١٧) ابو حيان التوحيدى ـ الامتاع والمؤانسة ـ القاهرة سنة ١٩٣٩·

(١٨) ابن الجوزى ـ المنتظم ـ الاستانة ١٣٥٨ ·

(١٩) محى الدين عبدالحميد ـ شرح مقامات بديع الزمان ـ القاهرة سنة ١٩٦٢ طـ٢ ·

# سياسة المأمون تجاه العلويين

## ١٩٨هـ / ٨١٤م ـ ٢١٨هـ/٨٣٣م

### القسم الثانى ـ مغزى سياسة التوفيق مع العلويين

**الدكتور فاروق عمر فوزى**
**استاذ التاريخ الاسلامي المساعد**

**مقدمة تحليلية :**

ان المتأمل لسياسة الخلفاء العباسيين الاوائل قبل المأمون يجد فيها الكثير من الغموض والتعقيد بل المرونة والتوفيق • فلقد جاء الخلفاء الاوائل فى أعقاب ثورة جذرية ذات طبيعة معقدة وشعارات وواجهات متعددة • ومع ذلك فقد كان على الخلفاء الاوائل للدولة العباسية أن يعلنوا الاتجاه العقائدي للنظام الجديد • هل انهم يدينون بالتطرف ام بالاعتدال فى آرائهم الاسلامية ؟ • والحقيقة فان السنوات الاولى من الحكم العباسي شهدت تناقضات واضحة فى السياسة الدينية رغم اعلان الخلفاء العباسيين بأنهم حماة الاسلام والحريصون عليه •

وبعد تجارب وتفاعلات مع اراء دينية مختلفة [١] قرروا تبني عقيدة « أهل السنة والجماعة » محاولين كسب أهل الحديث والعلماء الى جانبهم • وكان من الطبيعي أن تظهر ردود فعل على شكل تكتلات وفرق دينية ـ سياسية تعارض مجيء العباسيين للحكم وتعارض سياستهم الدينية • وهكذا فقد كان على السلطة العباسية ان تتخذ اجراءات جديدة مناسبة لتحديد انتشار حركة المعارضة هذه فزادت السلطة تشبثها بمذهب « أهل السنة » وزادت من محاولتها لكسب الفقهاء والعلماء لتزيد من صبغتها الدينية فى نظر الناس •

ومع كل ذلك فان السياسة الدينية للعباسيين لا يمكن أن تحدد فقد

ظل الخلفاء العباسيون الاوائل مرنين فى مواقفهم .. وقد أثارت هذه المرونة وهذا الغموض الكثير من التأملات والتفسيرات عالجناها فى بحوث مختلفة . اما الذي يهمنا هنا فهو سياسة الخليفة المأمون الدينية ومدى علاقتها بسياسته تجاه العلويين .

فمن المعروف ان الخليفة المأمون كان أول خليفة يتخذ الاعتزال مذهبا رسميا للدولة ، كما انه أول خليفة يتميز بمرونته وسياسته التوفيقية تجاه العلويين حيث بايع لعلي الرضا بولاية العهد سنة ٢٠١ هـ وفى ذلك يقول ابن الطقطقي « ومن اختراعاته نقل الدولة من بني العباس الى بني علي »[٢] . ورغم ان الكثير من المؤرخين المحدثين بحثوا فى خلافة المأمون الا انهم ـ عدا البروفسور سورديل[٣] ـ لم يحاولوا أن يربطوا بين سياسة الخليفة الاعتزالية وبين ميله للعلويين . لقد حاول المستشرق نيبرك[٤] أن يظهر الاعتزال كواجهة دينية للدعوة العباسية بينما أظهر الاستاذ المستشرق برنارد لويس[٥] ان سياسة المأمون الاعتزالية كمحاولة للتوفيق بين الدولة العباسية والمعارضة الشيعية العلوية . وعلى ذلك فأن البروفسور لويس يعتقد بأن مذهب الاعتزال اتخذ من قبل الدولة العباسية كبديل « لمذهب أهل السنة والجماعة » الذي فشل فى كبت المعارضة أو ترضيتها .

ان الباحث فى دوافع البدعة الدينية ـ السياسية التى ابتدعها الخليفة المأمون لا بد ان يرجع ، كما يرى البروفسور الفرنسى سورديل [٦] ، الى الفترة التي سبقت عصر المأمون . ففي خلافة هارون الرشيد الطويلة (١٧٠هـ-١٩٣هـ/٧٨٦-٨٠٩م) حيث تعقدت المشاكل السياسية وزادت مؤامرات البلاط ودور الحريم فى السياسة يلاحظ المؤرخ المتمعن بروز الكثير من الميول الفكرية والنزعات السياسية وتصادمها واصطراعها فى حلقات المثقفين والمفكرين فى بغداد . ولعل أبرز ما كان يدور فى هذه الحلقات من المواضيع السياسية-الفكرية هو

المشادة العنيفة بين دعاوي العباسيين والعلويين حول الخلافة • فبعد ان استطاع العباسيون بالقوة القضاء على الخلافة الاموية لم يفسحوا المجال للعلويين للمشاركة في الحكم وحين ثار العلويون قابلهم المنصور بشدة وعنف وقضى على حركاتهم • على ان الرشيد لم يكن قويا عنيفا كالمنصور ولهذا نلاحظ بوادر الانحلال السياسي والتدهور الاداري تظهر على عهده[٧] ، بل ان أول خلاف أو انشقاق في موقف الدولة تجاه المعارضة العلوية ظهر في عهد الرشيد ايضا • فقد حاول الرشيد ان يكون شديدا مع العلويين ولكن البرامكة الذين سيطروا على الادارة زهاء ١٧ سنة (١٧٠ هـ/٧٨٦ م - ١٨٧/٨٠٣ م) لم يوافقوا الرشيد على هذه السياسة مما أثار غضب الرشيد في عدة مناسبات • ولعل الفضل البرمكي كان من أبرز المعارضين وقد استطاع أن يقنع يحيى بن عبدالله الحسني بمرافقته من الديلم الى بغداد وضمن له أمان الخليفة الذي لم يدم طويلا حيث قتله الرشيد بعد فترة وجيزة أو سجنه ومات في السجن[٨] • وقد أبعد هذا النقض للامان الثقة بين الخليفة والفضل البرمكي ـ الذى عزل عن مسؤولياته الادارية في المشرق الاسلامي • كما وان الفضل البرمكي بعد فترة ليست بالبعيدة من اعتقال يحيى الحسني ، رفض أوامر الرشيد بالتخلص من موسى الكاظم بشكل من الاشكال[٩] • وبسبب ذلك لم يعد الفضل البرمكي يلعب الا دورا ثانويا في السياسة العباسية • وهناك روايات تشير الى عطف الفضل البرمكي على محمد بن ابراهيم طباطبا وكذلك علاقة يحيى البرمكي بأحمد بن عيسى الحسني[١٠] • وهكذا فالبرامكة ـ أو بعضهم بتعبير أدق ـ عرفوا بموالاتهم وعطفهم على العلويين على عكس السياسة العباسية المتبعة • وربما فسر ذلك لنا سببا من أسباب نكبتهم •

ومهما يكن من أمر فان وضع البرامكة يبقى غامضا ومحيّراً • فهل كان البرامكة قانعين بابداء عواطفهم تجاه العلويين أم انهم حاولوا التوفيق

بين[١١] البيتين العلوي والعباسي أم أنهم كانوا يتحينون الفرصة لقلب الحكم من عباسي الى علوي ؟؟

وليس هنا محل بحث او استقصاء هذه الاسئلة ولكننا نقول بأن موقف البرامكة المتميز بالمرونة والعطف نحو العلويين كان يتماشى تماما مع الوجهة الفكرية والثقافية للعصر • تلك الوجهة التي تتميز بحرية الرأي والمناقشة فى مختلف المواضيع الدينية والسياسية والفلسفية • وقد عرف البرامكة بتشجيعهم لهذا الاتجاه وعقدهم الندوات والاجتماعات لسماع الآراء والمناقشات الفكرية التي كان يحضرها انصار من مختلف الفرق والمذاهب السياسية والكلامية • كما عرف عن البرامكة انهم شجعوا الترجمة من الاغريقية الى العربية تلك الحركة التي زادت فى عهد المأمون • ورغم اننا لانستطيع القول بانالبرامكة كانوا معتزلة الا انهم اتخذوا الموقف الذى تبنته المعتزلة بعدئذ الا وهو مناقشة الآراء والمذاهب ودحض الضعيف منها وذلك بتحكيم العقل والمنطق ودافعوا عن هؤلاء الذين عرفوا بهذه الآراء « الحرة »[١٢] •

هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فالمعروف ان هناك ارتباطات غ يرقليلة بين المعتزلة والحركة الشيعية العلوية المعتدلة رغم الاختلافات فى بعض الظواهر العقائدية والفكرية والمواقف السياسية • وقد رفض واصل بن عطاء الغزل رأس المعتزلة الاوائل أن يقرر هل ان مرتكب الكبيرة كافر أم مؤمن• ومعنى ذلك ان المسلم الذي يحمل السلاح ضد أخيه المسلم لا يكون كافرا أو مؤمنا بل « منزلة بين المنزلتين » • ولم يخش سطوة الامويين بل أكثر من ذلك فقد عرف بصداقته لمحمد بن الحنفية وأن زيدا بن علي كان تلميذا له • وهذا يدل على ارتباط واصل بالعلويين وميله لهم[١٣] • ويشير البروفسور سورديل « ورغم ان البعوث التبشيرية التى ارسلها واصل الى الاقاليم لم تترك لنا شيئا يعرفنا على فعالياتها الا انه يمكن القول بأنها مرتبطة

بفعاليات شيعية علوية رغم فرضية نيبرك »[١٤] . كما تشير رواياتنا التاريخية الى تأييد المعتزلة لمحمد بن عبدالله المحض ( النفس الزكية ) واخيه ابراهيم في البصرة . مما يدل على ان المعتزلة والزيدية من شيعة العلويين كانا أقرب الى بعضهما بحيث شكلا جبهة معارضة واحدة للعباسيين[١٥] . وفي عهد الرشيد كان جماعة من الزيدية يدعون « معتزلة بغداد » . وقد أمر الرشيد بسجن بشر بن المعتمر لميوله العلوية ، كما ولاقى ثمامة بن الاشرس المعتزلي العناء بسبب دفاعه عن أحمد بن عيسى الزيدي[١٦] .

وهكذا فرغم ان معتزلة البصرة تبنوا بصورة عامة موقف « أهل السنة » حول الخلافة وطبيعتها فاننا نلاحظ في نهاية القرن الثاني للهجرة ظهور كتلة كبير من المعتزلة التي تقاربت مع الزيدية في آرائها وكانت عونا لها في مواقفها السياسية كما ظهر في ثورة محمد النفس الزكية وابراهيم . والمهم ان ارتباط البرامكة بهذه الكتلة وتأيدهم لآرائها لايمكن الا ان يكون له أهميته السياسية .

ان المناخ الفكري والسياسي في أواخر عهد الرشيد والذي كان تمثله حلقات المثقفين ويؤيده البرامكة كان يتميز بالتسامح والمرونة وحرية الرأي وبمعنى آخر سعة الافق المبنية على تحكيم العقل وهو الشعار الذي نادى به المعتزلة ثم المرونة تجاه العلويين . على ان هذا الاتجاه بأبعاده المختلفة كان لا يلقى قبولا لدى الخلفاء العباسيين وعارضه كذلك بعض رجال الدين والعامة فقد عارض الفقيه أبو يوسف اراء المعتزلة ووسائلها في استعمال المنطق والكلام في موضوع العقيدة والشريعة وقال قولته المشهورة « من طلب العلم بالكلام تزندق»[١٧] . وقد اشتد الرشيد على اهل الكلام ومنع المناقشات حول مسألة « خلق القرآن » كما وطارد القائلين بها مثل بشر المريسي[١٨] . وقد استمرت مطاردة المعتزلة في عهد الامين كما هو واضح من رواية الكندي[١٩] الذي يشير فيها الى ان قاضي مصر رفض شهادة احد الشهود المتهمين بالقدرية . ويؤكد الجاحظ التعسف الذي قاسى منه

المعتزلة قبل عهد المأمون من السلطة ومن العامة الذين يهاجمهم الجاحظ ويتهمهم بالجهل والتقليد واثارة الفوضى[٢٠] • ويظهر الجاحظ امتعاضه الشديد من « عامة بغداد » الذين عارضوا سياسية المأمون المعتزلي • ورغم ان الجاحظ معتزلي فى آرائه[٢١] ولذلك يجب الحذر من مبالغاته الا ان الحوادث التاريخية تؤكد معارضة بغداد لسياسة المأمون الموالية للعلويين والمعتزلة •

ولكن ما هو دور المعتزلة فى سياسة المأمون العلوية؟؟ من المعروف ان المأمون كان محاطاً بالمعتزلة حين اتخذ قراره بالبيعة لعلي الرضا سنة ٢٠١هـ/٨١٧م وكان بشر بن المعتمر وثمامة بن الاشرس بين الشهود الذين وقعوا وثيقة العهد • والمعروف كذلك ان بشر بن المعتمر وثمامة من معتزلة بغداد المعروفين بميولهم العلوية• كما واننا ذكرنا سابقا التقارب المذهبي بين المعتزلة والزيدية • على ان الذى يثير الدهشة والاستغراب هو ان المأمون انتخب علويا من الفرع الحسينى هو علي بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق وهو من الائمة الامامية وليس من الزيدية او الحسنية • بل ان الزيدية لاتعترف بأمامته لاسباب عديدة لذلك فنحن لا نستطيع ان نقول بان دور المعتزلة كان دورا كبيرا فى هذا الاختيار بالذات ولكنهم اثروا على الخليفة بصورة غير مباشرة بان سوغوا له جدوى النظرية الزيدية فى الامامة مما دفعه الى هذا الاختيار[٢٢] •

ويشير البروفسور سورديل الى ان وجود الفضل بن سهل وهو من صنائع البرامكة ساعد ايضا على هذا الاختيار خاصة وان المصادر تتهمه بمحاولة التغلب على سلطة الخليفة وتحويل السلطة من ايدى العباسيين وان ارتباطاته بالشيعة جعلته يندفع فى مغامرة خطرة كلفته حياته فى النهاية ، على ان كبريللي لا يقبل اتهام الفضل بن سهل ويؤكد ولائه للدولة العباسية[٢٤] •

ومهما يكن من امر فان هدفنا من هذه المقدمة هو التأكيد على نقطة واحدة فقط الا وهى ان الجو الفكرى والسياسى فى الفترة التى سبقت عصر المأمون وكذلك الظروف السياسية كانت كلها الى جانب النظرة المرنة والتوفيقية المتعاطفة مع العلويين •• ولعل ذلك يفسر سياسة المأمون الموالية للعلويين وبيعته للرضا بولاية العهد •

**البيعة لعلي الرضا :**

يشير المستشرق الايطالى كبريللى[٢٥] الى ان اعتلاء المأمون يعني بالنسبة لكثير من المؤرخين انتصار النزعة الفارسية على النفوذ العربى الذي كان بارزا قبل المأمون • ويستطرد هؤلاء المؤرخين فيقولون بان من مظاهر النزعة الفارسية هو الميل للعلويين والتشيع لهم • على هذا الرأى رأى خاطيء ذلك لان التشيع فى هذه الفترة المبكرة لم يكن فارسيا بل كان عربيا وان الثورات العلوية كانت ثورات عربية قادها عرب ووقعت فى اقاليم عربية وان انصارها من العرب • ثم ان الميل « للفارسية » لم يكن من واقع سياسة المأمون بل من تخطيط وزيره الفضل بن سهل واعوانه خلال السنوات بين (١٩٨هـ ـ ٢٠٢هـ) • وقد ازعجت هذه النزعة الفارسية ليس فقط بنى هاشم واعوانهم بل اهل بغداد الذين شعروا بضعف مركزهم بالنسبة لمرو وكذلك قادة كبار من امثال طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين • وقد أُبعد الاول الى الرقة لفترة من الزمن اما الثانى فقد استطاع ان يتصل بالمأمون ويلومه على تأييده للسياسة التى يتبعها الفضل بن سهل قائلا « قدمت هذا المجوسي على اوليائك وانصارك» [٢٦] على ان الفضل استطاع سجنه ثم قتله فخسرت الدولة قائدا عربيا من المع انصارها • ولكن ثورة بغداد استمرت رافعة شعار : « لا نرضى بالمجوسى بن المجوسى الحسن بن سهل» [٢٧] بين سنتي ٢٠٠هـ ـ ٢٠١هـ بقيادة محمد بن ابى خالد وابنه عيسى • اما كتلة المأمون فى بغداد فكان يمثلها المنصور بن المهدى والحسن بن سهل وحميد بن عبدالحميد الطوسى •

تشير بعض الروايات التاريخية الى «تشيع» المأمون[٢٨] ، على ان المستشرق كبريللى يعتقد بان للمأمون ميل دينى عاطفى للعلويين وهذا المل دفعه ليبايع الرضا[٢٩] • الا اننا يجب ان نفرق بين العواطف وبين الاعمال، فالبيعة للرضا ليس بالامر العاطفي ولكنه امر سياسى له عواقبه الخطيرة ذلك لانه يعني نقل الخلافة او نقل الدولة ـ على حد قول ابن طباطبا ـ من العباسيين الى العلويين •

يقول الطبرى ويؤيده اليعقوبي[٣٠] ان المأمون ارسل رجاء بن ابى الضحاك (وهو من اقرباء الفضل بن سهل ) وفرناس الخادم الى المدينة سنة ٢٠٠هـ ليرافق علي الرضا الى مرو ، حيث اعلنت البيعة رسميا واستبدلت الاعلام السود بالاعلام الخضراء وضربت السكة باسم ولى العهد الجديد • وأصدرالخليفة أمراً وزع على كل الاقاليم وأظهر فيه أنه اختار علي الرضا بعد أن « نظر فى بني العباس وبني علي فلم يجد أحداً هو أفضل ولا أورع ولا أعلم منه » ولا تشير رواية الطبري أو اليعقوبي الى الدوافع الحقيقية التي دفعت المأمون الى هذه الخطوة على انهما يذكران رد الفعل لدى اهل بغداد الذين علقوا على النبأ بقولهم « هذا دسيس من الفضل بن سهل » •

وهناك روايات كثيرة تؤكد اتهام الفضل بن سهل بهذه البيعة نجدها فى البلعمي والجهشيارى وابن طباطبا[٣١] ويظهر الجهشيارى اندفاع الفضل بن سهل ودوره فى البيعة • اما الفخرى فيقول « كان الفضل بن سهل هو القائم بهذا الامر والمحسن له » • ورغم ان المؤرخ يتردد فى قبول هذه الروايات التى تؤكد دور الفضل بن سهل ويحتار فى تفسير دوافعه وهو الذي تربى فى كنف الدولة وأصبح صنيعة من صنائعها وان مصلحته باتت فى بقائها الا أن المؤرخ لابد وان يصدق هذه الروايات التي يؤكدها أوائل المؤرخين حيث يقول الاصفهاني[٣٢] ان المأمون شاور الفضل بن سهل واخاه الحسن فى نيته نقل الخلافة الى الرضا فعارض الحسن المشروع مبديا قلقه من العواقب ولكن الخليفة بقي

معاندا متصلبا فى رأيه متعذرا بانه كان قد وعد بان ينقل الخلافة الى العلويين اذا ما انتصر على الامين وبقيت الخلافة بيديه « اني عاهدت الله ان اخرجها الى أفضل آل أبي طالب ان ظفرت بالمخلوع » •

ونحن هنا امام رأيين[٣٣] الاول ما يقرره المستشرق كبريللى حيث يقول ان المقرر الاول لفكرة البيعة للرضا هو الخليفة المأمون نفسه حيث كانت الفكرة قد اختمرت فى ذهنه وصمم بطبيعته المجبولة على العناد على ان ينفذها • اما الرأى الثانى فهو رأى الاستاذ الدكتور عبدالعزيز الدورى حيث انه « يميل الى تأثير الفضل بن سهل ووجود المأمون فى خراسان هما اللذان اضطراه الى اتخاذ هذه الخطة » • ويدلل الاستاذ الدورى بالادلة التالية :

(١) الروايات التاريخية التى تؤكد دور الفضل الرئيسى فى البيعة •

(٢) لوم البغداديين للفضل بن سهل فى تدبير هذه الخطة وعدم لومهم للخليفة •

(٣) رغبة الفضل فى ارجاع سلطة الفرس لان نقل الخلافة الى علوى معناه ابقاء مركز الخلافة فى خراسان لعدم رغبة اهل بغداد بمبايعة علوى • وقد اتهم نعيم بن خازم الفضل بانه يحتال « ليصير الملك كسرويا » •

(٤) خيبة امل الخراسانيين « ويقصد بهم الفرس من اهل خراسان » من الدولة العباسية فنقلوا ولائهم الى المعارضة العلوية •

(٥) ان انتصار المأمون كان ضربة لبني العباس اخوال الامين ودحرا لآمالهم ففقد المأمون تأييدهم ولذلك اراد ان يكسب ثقة وتأييد الفرع الهاشمي الآخر وهو الفرع العلوي • ويظهر الدوري المأمون وكأنه مجبر على البيعة للرضا لكي يجاري أهواء أهل خراسان • ولكن لم يُعرف عن أهل خراسان ميلهم القوي للعلوية وربما كانت بينهم فئة تمثل

الشيعة العلوية ولكن هذه الفئة لم تكن من القوة بحيث تؤثر على سياسة الخليفة •

ثم ان الروايات التاريخية لا يتوقع منها ان تضع اللوم كل اللوم على الخليفة صاحب السلطة بل لابد ان تضعه على الفضل الذى سقط وهوى من عليائه • ولعلنا نستطيع ان نذكر التهم العديدة التى كالها الرواة لابى مسلم الخراسانى وللبرامكة بعد نكبتهم •• ويؤكد المستشرق كبريللى ذلك ويشير اولا الى السرعة واليسر الذى استطاع بهما الخليفة ان يتخلص من الفضل بن سهل واعوانه ولذلك فالخطة من بناة افكار المأمون قبل الفضل بن سهل • وثانيا الى تصميمه فى التخلص من الرضا دون كبير عناء • وثالثا لم يستبدل المأمون شعار الخضرة حتى دخل بغداد وتمركز فيها وبعد توسلات طاهر بن الحسين والاميرة زينب • ويعتبر كبريللى كل ذلك دلائل على شخصية المأمون واستبداده برأيه • ويستطرد كبريللى بان الظروف السياسية التى احاطت بالمأمون اثناء الحرب الاهلية وبعدها ثم ان عواطف المأمون تجاه العلويين ورغبته فى احياء حكم العدل الذى وعد به اذا تسلم السلطة لعبت دورها فى قرار الخليفة بالبيعة للرضا •

ولعل الظروف السياسية لعبت دورا اكبر من الميول العاطفية عند الخليفة فلم ينفك العلويون واتباعهم من الثورة ضد حكم المأمون العباسى[٣٤] ولقد اراد المأمون الذى ملّ حالة القلق السياسى بعد الحرب الاهلية ان يبدأ فترة من الاستقرار والتوفيق بين السلطة والمعارضة فاختار علي وسماه ( الرضى ) وهو نفس اللقب الذى كان الثوار العلويين يتخذونه وتبني الشعار الاخضر وهو شعار الجنة وأهلها ليرمز الى المحبة والتسامح والتوفيق • وهذا يدل على الطبيعة السياسية للعمل الذي أقدم عليه المأمون ولعل هذا يذكرنا بسياسة التوفيق والمرونة التي حاول الخليفة المهدي اتباعها مع العلويين كذلك •

هذا من جهة ولكن من الجهة الثانية فاننا نرى انه من الصعب أن يصل ميل الخليفة وتعاطفه مع العلويين الى الحد الذي يحول به الخلافة الى شخصية علوية ، فالتعاطف الذي خطط له المأمون لا يتعدى حدود المعنويات الى الاعمال والافعال . فالمأمون كافح فى سبيل الحصول على الخلافة ولا يمكن أن يعطيها هدية سائغة للعلويين هذا سياسيا اما عقائديا فالمأمون معتزلي ولا يمكن ان يتفق مع الشيعة الحسينية حول الخلافة . ولذلك فاننا نرى بأن حركة المأمون ببيعة الرضا كانت تهدف ظاهريا التعاطف والتوفيق وعمليا ليست الا مناورة سياسية بارعة لكشف بعض الشخصيات العلوية واظهار عزوفها عن الخوض فى غمار السياسة ومعترك الحياة ، ففي رواية ان المأمون ناقش الرضا قائلا :

ـــ بم تدعون هذا الامر ؟

ـــ قال : بقرابة علي من النبي (ص) وبقرابة فاطمة (رضي)

ـــ قال المأمون : ان لم يكن ها هنا شيء الا القرابة ففي خلف رسول الله (ص) من أهل بيته من هو أقرب اليه من علي ومن هو فى القرابة مثله . وان كان بقرابة فاطمة من رسول الله فان الحق بعد فاطمة للحسن والحسين وليس لعلي فى هذا الامر حق وهما حيان . واذا كان الامر على ذلك فان عليا قد ابتزهما جميعا وهما حيان صحيحان واستولى على ما لا يجب له .

ويورد القفطي فى ( تاريخ الحكماء ) (٣٤ب) :

« كان المأمون قد رأى آل أمير المؤمنين علي بن ابي طالب متخشين مختنعين من خوف المنصور ومن جاء بعده من بني العباس ، ورأي العوام قد خفت عنهم امورهم بالاختفاء فظنوا بهم ما يظنونه بالانبياء ويتفوهون فى صنعتهم بما يخرجهم عن الشريعة من التغالي فأراد معاقبة العامة على هذا الفعل ثم فكر انه اذا فعل هذا بالعوام زادهم اغراء فنظر فى هذا الامر نظرا دقيقا وقال لو ظهروا للناس ورأوا فسق الفاسق منهم وظلم الظالم لسقطوا

من أعينهم ولا نقلب شكرهم لهم ذما ثم قال اذا أمرناهم بالظهور خافوا واستتروا وظنوا بنا سوءا وانما الرأي ان نقدم أحدهم ويظهر لهم اماما • فاذا رأوا هذا انسوا وظهروا وأظهروا ما عندهم من الحركات الموجودة عند الآدميين فيتحقق للعوام حالهم وما هم عليه مما خفي بالاختفاء فاذا تحقق ذلك ازلت ما أقمته ورددت الامر الى حالته الاولى » •

وقوى هذا الرأي عنده وكتم باطنه عن خواصه وأظهر للفضل بن سهل انه يديد أن يقيم اماماً من آل أمير المؤمنين علي صلوات الله عليه وافكر وهو فيمن يصلح فوقع اجماعهما على الرضا فأخذ القضل بن سهل فى تقرير ذلك وترتيبه وهو لا يعلم الامر وأخذ فى اختيار وقت لبيعة الرضا فاختار طالع السرطان وفيه المشتري •

قال عبدالله بن سهل بن نوبخت هذا اردت ان أعلم نية المأمون فى هذه البيعة وان باطنه كظاهره أم لا لان الامر عظيم فانفدت اليه قبل العقد رقعة مع ثقة من خدمه وكان يجيء فى مهم أمره وقلت له ان هذه البيعة فى الوقت الذي اختاره ذو الرئاستين لا تتم بل تنقضي لان المشتري وان كان فى الطالع فى بيت شرفه فان السرطان برج متقلب ••• وهو نحس وقد أغفل ذو الرئاستين هذا •

فكتب اليّ قد وقفت على ذلك أحسن الله جزاك فأحذر كل الحذر ان تنبه ذا الرئاستين على هذا فانه ان زال عن رأيه علمت انك انت المنبه له ، فهمّ ذو الرئاستين بذلك فما زلت أصوب رأيه الاول خوفا من اتهام المأمون لي وما أغفلت امري حتى مضى أمر البيعة فسلمت من المأمون » •

وتؤكد روايات اخرى فى مصادر شيعية امامية نفس الهدف الذي كان يسعى اليه المأمون الا وهو كشف العلويين عن طريق جعلهم أكثر ايجابية ومشاركة فى الحياة والسياسة ويقول الصدوق فى ( عيون أخبار الرضا ) :

« ان المأمون جعل له ( الرضا ) ولاية العهد من بعده ليرى الناس انه راغب فى الدنيا فيسقط محله فى نفوسهم » •

وفى رواية اخرى فى نفس الكتاب ان المأمون كان يعتقد ان الرضا يدعو الى نفسه فى السر فأراد أن يجعله ولي عهده ليعترف بالخلافة والملك له « وليعتقد فيه المفتونون به انه ليس مما ادعى فى قليل ولا كثير وان هذا الامر لهم ( العباسيين ) دونه »[٣٤جـ] .

وفى كتاب التوحيد يقول الصدوق :

« ان المأمون كان يجلب على الرضا متكلمي الفرق والاهواء المضلة وكل من سمع به حرصا على انقطاع الرضا عن الحجة مع واحد منهم وذلك حسداً منه له ... »

ولا ينكر اثر المبالغة فى هذه الروايات خاصة وان المصادر الشيعية تحاول دوما تصوير العلويين وكأنهم ضحايا مظلومين من قبل الخلفاء الظالمين ، وانهم كانوا مجبرين مضطرين فيما اتخذوه من قرارات فيما يخص علاقاتهم بالسلطة . ومع ذلك كله فان رواية القفطي والروايات الاخرى تدل دلالة واضحة على ان الخليفة المأمون حاول ابراز العلويين واظهارهم الى الحياة العامة وعلى المسرح السياسي الذي يتقبل الاخذ والرد والجدل واظهار المواقف والآراء ثم العدول عنها أو مناقضتها وعندئذ سيتغير رأى الناس وخاصة الشيعة العلوية فى العلويين . وذلك لان استار العلويين او ندرة ظهورهم أدى الى قلة معرفة الناس بآرائهم ومواقفهم مما جعلهم يعدونهم فوق مستوى البشر ويعتقدون فيهم آراء متطرفة غاليه . وبمعنى آخر فان اشتراك العلويين فى المعترك السياسى وامور الدولة والمجتمع بصورة اكبر سيظهرهم للناس ويجعلهم يتعاملون معهم وسيرى الناس ان العلويين مثل غيرهم لهم محاسنهم ومساوئهم ومنهم من يخطأ ومنهم من يصيب وعندئذ ستضعف الشيعة العلوية ويقل خطرها ـ بنظر المأمون ـ على الدولة العباسية .

اما دور الفضل بن سهل فقد ايد المأمون فى البيعة واخفى عن الخليفة

ردّ الفعل المعادى فى بغداد للبيعة قائلا ان ابراهيم بن المهدى الذى بويع خليفة فى العراق لم يكن الا ممثلا عنه هناك[٣٥] • ولكن علاقة الفضل بالرضا لم تكن ودية بل ان الرضا اظهر امتعاضه من تدابير الفضل وانه هو الذى اخبر الخليفة فى نهاية الامر بحقيقة الوضع فى العراق • ولذلك فان تأييد الفضل لسياسة المأمون كانت منبثقة عن طموحه العريض ورغبته فى الحفاظ على سلطاته الواسعة فى خراسان والعراق معا •

ولم يكن علي الرضا ذا طموح سياسي كبير فلقد ولد فى المدينة سنة ١٤٨هـ من ام ولد نوبية وبلغ عمره ٥٣ سنة دون ان يلعب دورا فى السياسة على ان شهرته فى ميادين العلم والورع كانت واسعة وقد امتنع الرضا اول الامر عن قبول العهد حيث تشير الروايات[٣٦] الى انه كان ( معرضاً عن الدنيا ولولا خوفه من المأمون لما اجاب الى ولاية العهد ) • وانه قال ( اني قد اجبت امتثالا للامر وان كان الجفر والجامعة يدلان على ضد ذلك ) • وهذا ربما يفسر رواية الاصفهانى الذى يؤكد ان المأمون هدد[٣٧] علي الرضا بوجوب قبول البيعة ، وقد بايع كل العباسيين الموجودين فى مرو لولى العهد الجديد وكان اولهم العباس بن المأمون • وقد كتب الخليفة نفسه نص كتاب البيعة[٣٨] ثم ردّ علي الرضا على الكتاب[٣٩] مبديا قبوله لولاية العهد واشهد على ذلك الشهود وهم امير المؤمنين المأمون ثم الفضل بن سهل ، سهل بن الفضل ، يحيى بن أكثم ، عبدالله بن طاهر ، ثمامة بن اشرس ، بشر بن المعتمر ، حماد بن النعمان • وامر الخليفة ان يقرأ نص البيعة فى المدينة قرب قبر الرسول ( ص ) بين الروضة والمنبر بحضور الهاشميين والجند •

والملاحظ فى نص كتاب الخليفة انه لم يشر الى نقل الخلافة من العباسيين الى العلويين ذلك الامل الذى كافح العلويون من اجله بالثورة حينا وبالحجج والادلة النظرية حيناً آخر بل اشار فقط الى فضل علي الرضا وورعه ( وارجا للقيام بامر الله وحقه )[٤٠] • ولكن نص خطاب علي الرضا

يشير بوضوح الى حقوق العلويين التى اعترف بها المأمون والى التئام بني هاشم ( اهل البيت ) بعد انقسامهم وتنازعهم • ولكن هذه الوثائق الرسمية لا تمس مسألة ولاية العهد بعد علي الرضا وهى بطبيعة الحال مسألة حساسة جدا • والطريف ان البلعمي يعتبر ان خليفة علي الرضا سيكون بطبيعة الحال علويا لا عباسيا وستبقى الخلافة بايدى العلويين(٤١) • كما وان احدى الروايات فى تاريخى الفي تشكر الله على هذه المنّة الكبيرة فقد باتت الخلافة آخر الامر علوية ( الحمد لله والمنه له آخر الامر منصب خلافت در مركز خود تراز كرفت از مداينى كه از محبان صميمى أهل بيت است »(٤٢) •

والواقع فلقد كان من الصعب انتقال الخلافة الى عباسى اذا ما تلقفها علوى ، ذلك لان العلويين سيحرصون على بقائها فى نسلهم وهذا شىء طبيعى عند الاسر الحاكمة ، رغم ان المأمون حاول ان يوثق الروابط بين كلا البيتين الهاشميين بان زوج احدى بناته للرضا والاخرى لابن الرضا محمد • ومهما يكن من امر فان المؤتمن وهو ثالث ابناء الرشيد والذى كان ثالث ولاة العهد حسب اوامر الرشيد ، اصبح فى طى النسيان(٤٣) • وبات الشيعة العلوية يسمعون لاول مرة منذ وفاة علي بن ابى طالب (رضي) اسم احد احفاده يذكر فى خطبة الجمعة باعتباره وليا للعهد •

**صدى البيعة :**

لم يكن ما قام به الخليفة فى امر البيعة امرا يسيرا وذلك لانه قلب السياسة العباسية السابقة رأسا على عقب مما كان له صداه فى الاقاليم المختلفة• وكان من الطبيعي أن يطيع ولاة الاقاليم أوامر الخليفة ويذعنوا لها وكان من بينهم الحسن بن سهل والى بغداد ، الا والي البصرة اسماعيل بن جعفر بن سليمان بن على الهاشمى فقد رفض البيعة قائلا « هذا نقض لله وله ( الخليفة ) وقد اعتقل ونفي الى جرجان(٤٤) •

وقد هلل أهل قم وهم فى غالبيتهم من شيعة العلويين للقرار(٤٥) •

ولكن أهل بغداد لم يرضهم هذا القرار • وقالو « •• لا نبايع ولا نلبس الخضرة ولا نخرج هذا الامر من ولد العباس »[٤٦] • ورغم أن المأمون قد جعل مقره مرو فان الكثير من العباسيين كانوا يعيشون فى بغداد عاصمة المنصور المهجورة كما كان فيها كتلة كبيرة مؤيدة للعباسيين • وبدأت المعارضة للبيعة فى بغداد بالقاء اللوم على آل سهل ولكنها ما لبثت ان تحولت الى شخص الخليفة حيث رشحوا خليفة جديد هو ( المنصور بن المهدي ) الذي رفض تقلد الخلافة خوفا او ولاءا للمأمون بل اعتبر نفسه ممثلا للخليفة الشرعي[٤٧] • لكن الامر كان أخطر من ذلك فالبيعة كانت تعني نقل السلطة الى بيت آخر وبكلمة اخرى فان هذا الاجراء مسّ طموح العباسيين وهدد مصالحهم للخطر • وفى يوم الجمعة أعلن الناس فى المسجد الجامع بيعتهم ( لابراهيم بن المهدي ) خليفة وتلقب بلقب (المبارك) فى ٥ محرم سنة ٢٠٢هـ/٨١٧م وبايعه كل الامراء العباسيين وأهل بغداد • وهكذا فقد قطع أهل بغداد كل علاقة بالمأمون وادارته ويشير الطبري الى انهم انما فعلوا ذلك :

» غضبا منهم على المأمون حين أراد اخراج الخلافة من ولد العباس الى ولد علي ولترك لباس آبائه من السواد ولبسه الخضرة »[٤٨] •

فقد ترك ابراهيم بن المهدي بغداد الى المدائن حيث معسكر الجند لاعداده للحرب المقبلة وللدفاع عن حق العباسيين فى الخلافة ، وقد أعطى الجند عطاءا نقديا اضافة الى مقادير عينية من الحنطة والشعير •

اما فى بغداد فبقي العباس واسحق بن موسى الهادي • وقد استمرت المقاومة فى بغداد حتى ٢٠٣ هـ على ان شعار الدولة كان فى هذه المرة الاخضر بينما كان شعار المعارضة الاسد • ورغم ان الكوفة سقطت فى يد الجيش الموالي للمأمون وأصبح العباس بن موسى بن جعفر واليا عليها ودعى أهل الكوفة للانضمام اليه والبيعة للمأمون والرضا ولكنهم لم يتقبلوا

دعواه ودعوه الى الدعوة لنفسه أو لعلوي آخر[٤٩] • وبينما كانت الكوفة على هذا الحال تقدم جند ابراهيم بن المهدي رافعين شعار « ابراهيم يا منصور لا طاعة للمأمون » واستطاعوا احتلال الكوفة وهرب العباس منها •

على ان الثوار لم يستطيعوا احتلال واسط واندحروا منسحبين الى بغداد التي بقيت تحت سيطرتهم حتى سقطت على يد المأمون •

ان أهم ظاهرة تلفت النظر في حوادث بغداد خلال هذه الفترة هي حركة المتطوعة[٥٠] التي نظمها سهل بن سلامة سنة ٢٠٢ هـ وهدفها في بداية الامر لم يكن سياسيا بل لحفظ النظام والآداب والامن العام في بغداد • وقد برزت هذه الحركة كنتيجة لفقدان سلطة الحكومة بعد قرار المأمون البقاء في مرو • وقد زاد نفوذها تدريجيا حتى أصبحت سلطة داخل سلطة • يقول الطبري : « فكان كل من أجابه ( سهل بن سلامة ) قد عمل على باب داره برجا وآجر ونصب عليه السلاح والمصاحف حتى بلغوا قرب باب الشام سوى من أجابه من أهل الكرخ وسائر الناس » ولكن هذه الحركة ضربت حيث اعتقل زعيمها وتبعثر انصارها وسجن بعضهم بأمر من ابراهيم بن المهدي •

وفي أوائل سنة ٢٠٣ هـ كان العباسيون وأهل بغداد لا يزالون صامدين امام سلطة المأمون رغم ان الخليفة بعث اليهم برسالة يدعوهم فيها الى المصالحة والسلم فانهم رفضوا ذلك مما دعى الخليفة الى التحرك نحو بغداد وكان على رأس الجند حميد الطوسي وعلي بن هشام اللذان حاصرا بغداد حتى استسلمت في ١٧ ذى الحجة سنة ٢٠٣ هـ بعد سنة و ١١ شهرا من التحدي لسلطة الخليفة العباسي وهرب ابراهيم بن المهدي مع بعض أعوانه • على ان عاصمة المنصور حققت هدفها الرئيسي فعادت عاصمة للمأمون وعاد العراق اقليما مركزيا للدولة •

**الخاتمة :**

انه من الصعب علينا ان نضع مسؤولية البيعة لعلي الرضا بولاية العهد على عاتق الفضل بن سهل أو على عاتق الخليفة المأمون • ان كثرة الروايات المتيسرة لدينا وتناقضها يزيد المشكلة تعقيدا فنحن بما لدينا من روايات لا نستقرأ الا بقدر محدود ما يختلج فى نفوس وعقول الخليفة والمحيطين به • على اننا نستطيع ان نقرر بأنه لولا رغبة المأمون وتخطيطه لما حصلت البيعة وانه هو لا الفضل بن سهل لعب الدور الاول والرئيسي فيها وقد جاءت هذه السياسة موافقة لخطط الفضل فى السيطرة وازدياد النفوذ والقضاء على المنافسين له أمثال طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين وغيرهم فأيدها وحببها الى المأمون ولكنه ما لبث ان وقع هو ضحية لها •

ان واقع الحوادث وشخصية المأمون لا يمكن أن تسمح للوزير الفضل بن سهل باتخاذ قرار خطير كهذا ونحن نعتقد بأن سقوطه واغتياله جعل الرواة يضعون فى عنقه كل مساوىء سياسة المأمون •

ان الفضل بن سهل اعتقد بأن تأييد سياسة المأمون سيحفظ له منصبه كوزير ونفوذه على المشرق كما وانه أمل بأأخاه الحسن سيستطيع بسهولة اخماد الثورة فى العراق والقضاء على القادة الطموحين والامراء العباسين المتمردين دون أن يكون هناك حاجة لاخبار الخليفة بذلك • وهكذا تبقى السلطة بيد آل سهل وهو هدف الفضل الاول •

على ان الذي اربك خطط الفضل بن سهل هو علي الرضا نفسه فأن تقاه وورعه وقلة طموحه على طرفي نقيض مع الفضل • وكان الرضا بسبب وازع من ضميره أو بتأثير رجالات البلاط المعادين للفضل الذين أدركوا ان الرضا هو الرجل الوحيد الذي يستطيع أن يخبر الخليفة عن حقيقة الوضع فى العراق ، هو الذي فتح عيون الخليفة على الاضطرابات وعدم الاستقرار فى الدولة • وقد فوجيء المأمون واستفسر من رجالات

بلاطه مثل يحيى بن معاذ ، عبدالعزيز بن عمران ، علي بن ابي سعيد وخلف المصري ولكنهم جميعا رفضوا الافصاح بشيء قبل أن يعطيهم الخليفة ضمانا خطيا على محافظته عليهم من عقاب ذى الرياستين ( الفضل )[٥١] . وعندئذ أكدوا للمأمون ما ذكره ولي العهد الرضا من سوء الحالة فى العراق وتفاقم الاضطرابات ونددوا بسياسة العزلة التي اتبعها الفضل بن سهل وأشاروا الى اغتيال القائد هرثمة بن أعين الذي لم يرتكب ذنبا سوى محاولته حماية الدولة والخليفة من سوء تدبير الفضل . وانتقدوا نفي طاهر بن الحسين فى الرقة ، فى الوقت الذي كان بالامكان الاستفادة من خبرته فى تهدئة الحالة فى العراق خاصة وانه يتمتع بمقدرة عسكرية وكفاءة ادارية تفوق خبرة الحسن بن سهل وكفاءته . كما وانهم حرضوا الخليفة ، بصورة غير مباشرة ، على التخلي عن الفضل وقتله .

لقد قرر المأمون العودة الى العراق بعد سماعه بالموقف واستطاع التخلص من الفضل بن سهل حيث قتل فى الحمام عن عمر يناهز السبعين . ولكن الخليفة أظهر امتعاضه من قتل الفضل[٥٢] وقرب أخاه الحسن وجعله وزيراً ليغطي حادثة قتله ، كما وانه تزوج ابنة الحسن بن سهل . ورغم ان الفضل بن سهل أثار الكثير من الكراهية بسبب حبه للسلطة وتدابيره ولكن وفاته أثارت شجون بعض الشعراء أمثال دعبل الخزاعي ومسلم بن الوليد .

كانت سفرة المأمون الى بغداد سفرة بطيئة حيث كان يتوقف كثيرا فى المدن التي على الطريق ويحاول التعرف على أحوالها وتخفيف الخراج عنها ليكسب رضى الناس . وحين توقف فى طوس تخلص من علي الرضا حيث مات على الاكثر بالسم[٥٣] ودفن قرب قبر هارون الرشيد وفى ذلك قال شاعر علوي :

قبران فى طوس خير الناس كلهم  وقبر شرهم هذا من العبر

ما ينفع الرجس من قرب الزكي ولا  على الزكي بقرب الرجس من ضرر

وقد دعى المأمون الامراء العباسيين وأهل بغداد بعد وفاة الرضا الى الطاعة ولكنهم لم يجيبوه الى ذلك • وحين وصل حلوان وصلته الانبـاء عن اختفاء ابراهيم بن المهدي وعودة الاحوال الى طبيعتها فى بغداد ، خاصة وانه لم يعد هناك دافع للمقاومة بعد ان قتل الفضل بن سهل اولا وانتهى امر البيعة للرضا ثانيا وعاد المأمون الى العاصمة العباسية بغداد بعد غيبة دامت عشرة سنوات ثالثا • ومع ذلك فان كبرياء الخليفة واعتداده بنفسه وكرامته لم تسمح له بالتراجع عن سياسته بصورة كلية • فقد بقي الاخضر شـعار العباسيين بعد دخول المأمون بغداد فى ٢٢ صفر سنة ٢٠٤هـ/٨١٩م •

لم ينبذ المأمون سياسته التوفيقية تجاه العلويين فجأة وكليا فقد أصدر منشورا سنة ٢١٢ هـ ذكر فيه الامام علي (رض) مشيرا الى انه « خير خلفاء الله بعد رسول الله صلعم وأولى الناس بالخلافة »[٥٤] كما انه عزم على ذم معاوية وأصدر منشورا كاد أن يوزعه على الاقاليم ذكر فيه « برئت الذمة من أحد من الناس ذكر معاوية بخير أو قدمه على أصحاب رسول الله (ص) »[٥٥] •

ان بيعة المأمون بولاية العهد لعلي الرضا ستبقى ظاهرة سياسية فريدة فى تاريخ العصر العباسي الاول كما وان هذه الظاهرة تعكس شخصية المأمون ذاتها والتناقض الواضح فيها بين سلوكه واخلاقيته ••• سلوكه الذي يهدف الى ضمان مصلحته ومصلحة العباسيين وكشف قلة طموح العلويين وضعف قدرتهم السياسية وتبديد الهالة المقدسة التي احيط بها العليويون من قبل شيعتهم • وأخلاقه الميالة الى انصاف العلويين والتعاطف معهم • وسواء كانت روايـة الصفدي[٥٦] موثوقة أم موضوعة فانها تعبر بصدق عن الموقف حين تشير الى آخر حديث بين المأمون والرضا حيث قال الاول للثاني :

ما توصيني ؟؟

فأجابه : أوصيك أن لا تعطي احدا ما تندم عليه ٠

**الحواشي**

(١) الدكتور فاروق عمر ـ موقف المعتزلة السياسي من العباسيين ، **مجلة الاقلام** ، عدد ٣ سنة ١٩٦٨ ، ص٥٧ فما بعد ٠

(٢) ابن الطقطقي ـ **الفخرى** ٠٠ ، طبعة القاهرة ، ص١٧٨ ٠

(3) D. Sourdel, La politique - Religieuse du Calife al-Ma'mun *R.E.I.* 1965

(4) Neberg, Mu'tazilla, *E.I.* [1]

(5) B. Lewis, 'Abbasids, *E.I.* [2]

(6) Sourdel, *Op. cit.*, pp. 28f

(7) F. Omar, Harun al-Rashid, *E.I.* [2]

(٨) الاصفهانى ، **مقاتل الطالبين** ص٣١١ ٠ ـ ليس هناك دليل على قول ابن طيفور ان للرشيد ميولا علوية ولعلهم قصدوا انه اظهر بعض العطف تجاه العلويين فى بداية حكمه ٠

(٩) انظر : Sourdel, *Le Vizirat abbaside*, vol. 1, p. 166.

هناك روايات ضعيفة تشير الى دور يحي البرمكى فى قتل موسى الكاظم **مقاتل الطالبين** ص ٣٢٢ فيما بعد ٠٠ ابن الطقطقى ، **الفخري** ص١٤٥ فما بعد ٠

(١٠) انظر : Sourdel, Le *Vizirat*..., p. 166

(١١) ان الشاعر مروان بن ابي حفصه يرى ان دور البرامكة كان دور الوسيط من اجل احلال الوئام محل الشقاق حيث يقول فى الفضل البرمكى بعد ان حقق الصلح بين الرشيد ويحي الحسني :

ظفرت فلا شلت يد برمكية ... رتقت بها الفتق الذى بين هاشم

على حين اعيا الراتقين التئامه ... فكفوا وقالوا ليس بالمتلائم

(١٢) المسعودى ، **مروج الذهب** الطبعة الاوربية ، جـ٦ ص٣٦٨ فما بعد ٠ ينقل ابن طيفور عن المأمون انه قال : « انا قد ابحنا الكلام واظهرنا المقالات » ، **تاريخ بغداد** ص٢٨ ٠

Sourdel, La Politique Religieuse... pp. 29-30.

(١٣) الشهرستانى **الملل والنحل** جـ١ ص١١٦ ٠ ـ البير نصرى نادر **فلسفة المعتزلة** بيروت ١٩٥٦ ص٣٢٢ فما بعد ٠

(14) Sourdel, La Politique Religieuse... pp. 30f

(15) See: F. Omar, *The Abbasid Caliphate..*, Baghdad 1969, pp. 211ff

عن فرضية البروفسور نيبرك انظر :

*E.I.* [1] (Mu'tazil)

الدكتور فاروق عمر ، موقف المعتزلة السياسى ٠٠ ( انظر حاشية ١)

(١٦) انظر : الاشعرى **مقالات الاسلامين** الطبعة الاوربية ص٧٩ ٠ الملطي ، **التنبيه والرد** ٠٠ ص٢٧ ٠ Sourdel, *Le Vizirat* P. 169.

(١٧) وكيع ، **اخبار لقضاة** ج ٣ ص٢٥٧ فما بعد ٠ ـ ابو يوسف ، **الخراج** ص٧٢ ٠

(١٨) ابن الجوزى ، **مناقب الامام احمد** ص٣٤٨

(١٩) الكندى ، **ولاة مصر** ٠٠ ، ص٤٢٢

(٢٠) انظر : الجاحظ ، رسالة فى نفي التشبيه ، **مجلة المشرق** ١٩٥٣ ٠

(٢١) عن اراء الجاحظ حول الامامه والخلافه انظر :

Ch. Pellat, L'Imamat dans La doctrine de Gahiz, *S.I.*, 1961.

(22) D. Sourdel, La politique Religieuse.. pp. 33ff

(٢٤) عن وجهتي النظر المختلفتين راجع :

D. Sourdel, *op.cit*, P. 34

F. Gabrieli, *al-Ma'mun E Gli Alidi*, Leipziq, 1929

(25) Gabrieli, *op. cit.*, p. 29

(٢٦) اليعقوبى ، **تأريخ جـ٣ ص**١٧٨ ٠ ـ ( النسخة الاوربية ) جـ٢ ص٥٤٦

(٢٧) الطبرى جـ٣ ص١٠٠٦

(٢٨) Ibid ٠ ـ انظر كذلك اليعقوبى **تاريخ** جـ٢ ص٥٤٥ ـ **الفخرى** ص ١٦٣ ٠ الاصفهانى **مقاتل** ص ٣٦٩ ٠ ـ الزبير بن بكار ، **الاخبار الموفقيات** ، تحقيق الدكتور سامي العاني ، بغداد ١٩٧٣ ص ٧٠ ٠

(29) Gabrieli, *op. cit.*, pp. 46 ff., p. 52

(٣٠) الطبرى جـ٣ ص١٠٠٠ ـ اليعقوبى ، **المصدر السابق** جـ٢ ص٥٤٥ فما بعد ٠

(٣١) البلعمي **ترجماى تاريخى طبرى** جـ٤ ص٥٠٧ ـ ٥٠٩ ٠ الجهشيارى الوزراء ص٣١٢ ـ **الفخرى** ص٢٩٩ طبعة اوربا ٠

(٣٢) الاصفهانى ـ **مقاتل** ص١٩٤ ٠

(٣٣) الدورى = **العصر العباسى الاول بغداد** ١٩٤٥ ص٢٠٨ فما بعد ٠ـ Gabrieli, *op.cit.*, p.31. — S. Hamdi, The pro - Alid..., *B.C.A.S.*, Vol. 1, 1956

(٣٤) لقد قامت عدة ثورات علوية فى العراق والحجاز واليمن اهمها ثورة ابي السرايا · انظر فاروق عمر سياسة المأمون ·· القسم الاول مجلة الجامعة المستنصرية العدد الثالث ١٩٧٢ ص٣٤٠ ـ ٤٤٦ ·

(٣٤آ) انظر نبيلة عبدالمنعم **نشأت الشيعة الامامية** ص٢٧٣ ·

(٣٤ب) القفطي ـ تاريخ الحكماء طبعة برلين ص ٢٢١ ـ ٢٢٢ ·

(٣٤جـ) الصدوق عيون **اخبار الرضا** جـ٢ ص٢٣٩ وص١٧٠ طبعة قم ١٣٧٧ـ ·

(٣٤د) الصدوق **كتاب التوحيد** ص٣٢٩ ـ ٣٣٠ طهران ١٣٧٥هـ ·

(٣٥) الجهشيارى الوزراء ص٣١٣ ـ الطبرى جـ٣ ص١٠٠٦ فما بعد · العيون والحدائق ص٣٥٣ ·

(٣٦) الاصفهانى **مقاتل** ص١٩٤ ـ ١٩٥ **الفخرى** ص٢٩٩ ، سبط ابن الجوزى **مرآة** مخطوطة باريس رقم ١٥٠٥ ورقة ٤٠ ب ·

(٣٧) الاصفهانى مقاتل ص١٩٤ فما بعد

(٣٨) **الفخرى** ص٢٩٩ · ـ **مرآة** مخطوطة الجزء رقم ٥٩٠٣ ورقة ١٤٩ أ فما بعد · ـ القلقشندى **صبح الاعشى جـ٩** ص٣٦٢ ـ ٣٦٦ ·

(٣٩) **مرآة** ورقة ١٥١ آ فما بعد

(٤٠) الطبرى جـ٣ صفحة ١٠٠٩ فما بعد

(٤١) البلعمى ـ **المصدر السابق** جـ٤ ص٥٠٩ ·

(٤٢) تاريخى الفي ورقة ٢٧٥ب مخطوطة المتحف البريطانى رقم ١٦٦٨١ Add

(٤٣) يقول خليفة بن خياط ان المأمون بايع للرضا وخلع القاسم بن هارون فى نفس الوقت (تاريخ ، طبعة بغداد ، ص ٥٠٨ )·

(٤٤) اليعقوبي *op. cit.* جـ٢ ص٥٤٥ ·

(٤٥) الاصفهانى ، **الاغاني** جـ١٨ ص٢٩ ·

(٤٦) الطبرى ، *op. cit.* جـ٣ ص١٠٠٥ فما بعد · الازدى ، **تاريخ الموصل ص٣٤٢** · ـ تاريخ خليفة بن خياط ص٥٠٨ · **العيون والحدائق ص٣٥٤** ·

(٤٧) العيون والحدائق ، ص٣٥٢ · ـ الطبرى ، جـ٣ ص١٠٠٥ فما بعد ·

(٤٨) الطبرى *op. cit.* جـ٣ ص١٠٠٦ فما بعد ، **تاريخ الموصل** ، ص٣٤٢ ـ · ( وكان يسمى ابن شكله انظر : الازدى نفس المصدر ، ص ٣٤٢ · ابن خلكان ، **وفيات الاعيان** ، جـ١ ص١٠ طبعة مصر ١٨٥٨م)·

(٤٩) الطبرى ، جـ٣ ص١٠١٧ ، ١٠٢٠

(٥٠) الطبرى ، جـ٣ ص١٠٢٣

(٥١) الطبرى ، جـ٣ ص١٠٢٦ · ـ اليعقوبى ، المصدر السابق جـ٢ ص ٥٤٩ ·

(٥٢) رغم ان المأمون دبر خطة قتل الفضل بن سهل الا انه امر بالقبض على قتلته الذين فروا وجعل لمن يحضرهم عشرة الاف دينار وحين احضروا قالوا له : « انت امرتنا بقتله » فضرب اعناقهم · انظر الطبرى جـ٣ ص١٠٠٧ فما بعد · ـ الازدى المصدر السابق ، ص٣٤٣ ·

(٥٣) اليعقوبى المصدر السابق ، جـ٢ ص٥٥١ · ـ يقول ابن الاثير : وقيل سمه المأمون وهذا عندى بعيد ، ( الكامل جـ٦ ص٢٤٨ ) ·

(٥٤) انظر : الطبري ، جـ٣ ص ١٠٩٩ « علي أفضل الناس بعد رسول الله (ص) » · قارن : ابن عبد ربه ، **العقد الفريد** ، طبعة القاهرة ١٢٩٣ جـ٣ ص ٤٢ فما بعد ·

(٥٥) ابن طيفور ، **تاريخ بغداد** ، ص ٩١ · ـ المسعودي ، **مروج الذهب** ، جـ٧ ص ٩٠ ـ ٩٣ ·

(٥٦) الصفدي ، مخطوطة فى المتحف البريطانى ( **الوافي بالوفيات** ) رقم Or. 6587 ، ورقة ٢١٥ أ انظر كذلك طبعة استانبول ١٩٣١ـ١٩٥٩ ( الفهرست ) ·

# كتاب
# لوما الحيوان
# لأرسطوطاليس

**الدكتور قاسم السامرائي**
استاذ مساعد في قسم الفلسفة

المقالات ١٥ ـ ١٩ من كتاب الحيوان ، ترجمة من اليونانية الى العربية نسبت الى يحيى بن البطريق •

حققاها وقدما لها : يان بروخمان و يوان دورساروت لولوفس[١]

نشرته : مؤسسة دى خويه فى نشرياتها تحت تسلسل ٢٣ ، وتوزعه: مؤسسة بريل فى لايدن ـ هولندا •

طبع فى المطبعة الكاثوليكية ببيروت سنة ١٩٧١ •

يحتوى الكتاب على النص العربي الذى شغل ١٩٧ صفحة من صفحات الكتاب وعلى معجم للمصطلحات العربية الواردة فى النص وما يقابلها من اليونانية ، وقد شغل هذا المعجم الرائع ٩٠ صفحة من الكتاب • اضافة الى ذلك فقد احتوى الكتاب على تمهيد وسبع مقدمات باللغة الانكليزية ودليل للرموز التى استخدمها المحققان فى الكتاب وفهرس بأسماء الاعلام والاماكن شغلت ٨٢ صفحة •

---

(١) الاستاذ بروفمان رئيس المعهد الشرقي بجامعة لايدن ، ولولوفس استاذ الفلسفة اليونانية بجامعة امستردام •

قال الاستاذ لولوفس فى تمهيده انه قام بتحقيق النص العربي بالاشتراك "in conjunction" مع بروخمان وان معجم الالفاظ العربية وما يقابلها من اليونانية قام باعداده الاستاذ بروخمان وحده • وبالنسبة للمقدمات السبع فقد كتب الاستاذ بروخمان المقدمة الرابعة والخامسة ، أما الاولى والثانية والثالثة فقد كتبها الاستاذ لولوفس وقد كان من المستطاع لو ادمج الاستاذ لولوفس مقدماته الثلاث فى واحدة لانها متشابهة فى معالجة الموضوعات ولوفّر على القارىء جهده ، ومن ثم لم يقل لنا الاستاذ لولوفس: من كتب المقدمة السادسة والسابعة واكتفى بقوله : « والفصل الاخير حول النص فانه استند على الملاحظات التى ارتآها كل منّا فى مناسبات مختلفة » •

وقرر الاستاذ لولوفس فى مقدمته الاولى : « ان وجود كثير من الآثار السريانية فى النص العربي يظهر بوضوح ان هذه الترجمة لم تنقل من نص يوناني بل من نص سرياني مع اننا لم نعثر حتى الآن على ترجمة سريانية للكتاب ما عدا اشارة عابرة فى كتاب الفهرست لابن النديم حيث قال « ان هناك ترجمة من السريانية لكتاب الحيوان لابن البطريق »[٢] • ثم يعرض الاستاذ لولوفس لرأي الدكتور اندريس حول قسم من نص « طبائع الحيوان » ترجمة ابن البطريق ونشرفورلاني حيث توصل اندريس الى ان كتاب الحيوان لا يمكن أن يكون من ترجمة ابن البطريق • ثم حاول الاستاذ لولوفس أن يقارن بين نص كتاب الحيوان ونص كتاب « الميتافيزيقيا » لارسطوطاليس الذي ترجمه من يسمى اسطات أو اسطاث ، وبعد مقارنة طويلة بين الالفاظ والاصطلاحات التي وردت فى كلا الترجمتين توصل الى ان هناك احتمالين وهما :

اولهما : ان الترجمة للكتابين لابد وان تكون من انتاج نفس المدرسة

---

(٢) الفهرست ، تحقيق فلوكل صفحة ٢٥٢ ، ( وهذا القول فى صفحة ٢٥١ ) •

من الترجمة العربية وما يقابلها باليونانية ، ولجهلي التام باليونانية فلا استطيع ان اقدم رأيا ، بيد ان هناك مثالا واحدا فى الاقل استوقفني ، فقد ورد فى النص العربي ما يأتي :

« وأيضا اختلاف الاطعمة يكون علة اختلاف خروج الرطوبة ويكون لهذه العلة أقل وأكثر ، مثل ما يعرض لاجساد أصحاب الحضار ( فى مخطوط لايدن : الحضر ) والجري فانه يعرض خروج رطوبة كثيرة من أجسادهم ( صفحة ٤٠ من النص العربي المطبوع ) »

واقتبس الاستاذ لولوفس النص اليوناني وترجمه الى الانكليـــزية "Some of the pungent foods" ووضع امام الترجمة الانكليزية ( أصحاب الحضار والجرى )[٣] .

والترجمة الانكليزية اذا كانت حرفية لليونانية ، فلا تستقيم مع النص العربي لان معناها ( بعض الاطعمة اللازمة ، كطعم الفلفل مثلا ) والنص العربي يعني السعاة والعداءون وهو موافق تماما لمعنى النص . ومما يؤكد هذا ان المنقح ، كما أسماه لولوفس ، وضع كلمة ( خ السعاة ) بعد كلمة ( الحضر ) للدلالة على ان كلمة ( السعاة ) وردت فى نسخة ثانية . ( ورقة ١٥٨ أ من مخطوط لايدن ) .

وفى المقدمة الثالثة اسهب الاستاذ لولوفس فى بيان ان المترجم قـد توسع كثيرا فى ترجمته فأضاف بعض الالفاظ والعبارات مما لا يوجد فى الاصل اليوناني لتسهيل الفحوى والمحتوى لان الترجمة من لغة الى اخرى تتطلب مثل ذلك لتعذر الترجمة الحرفية التي لا تحمل المعنى كاملا حين

---

(٣) جـاء فى القاموس ، والحضر بالضم ارتفـــاع الفـرس فى عـدوه كالاحضار ، وزاد صاحب تاج العروس : ، قال الازهري : الحضـر والاحضار من عدو الدواب .

اذ ان هناك اصطلاحات وعبارات متعارفة بينهما ، لم يستطع حتى اسطات التخلي عن استعمالها .

وثانيهما : ربما كان اسطات نفسه قام بترجمة كتب الحيوان فى أول حياته « الترجمية » عندما كان فن الترجمة لم يزل بعد فى اول أطواره ولم يتخذ بعد شكله المتطور الاخير . وختم مقدمته بقوله : وفى الوقت الحاضر لا نستطيع الوصول الى حل لهذه المسألة بما يتوفر لدينا من معلومات » .

لقد أورد ابن النديم ما يأتي « الكلام على كتاب الحيوان وهو تسع عشرة مقالة نقله ابن البطريق وقد يوجد سرياني نقلا قديما أجود من العربي وله جوامع قديمة ، كذا قرأت بخط يحيى بن عدي فى فهرست كتبـــه « ..... » وقد ابتدأ أبو علي ابن زرعة بنقله الى العربي وتصحيحه » .

وجاء فى الصفحة ٢٦٤ من كتاب الفهرست نفسه « ابن زرعة ... أحد المتقدمين ... والنقلة المجودين ... ما نقله من السرياني كتاب الحيوان لارسطوطاليس » .

فاذا كانت الترجمة لهذا النص ، كما افترض الاستاذ لولوفس ، من السريانية ، وان هذه الترجمة لا يمكن ان تكون لابن البطريق ، كما برهن اندريس ، فلماذا لا تكون ترجمة ابن زرعة ؟ وقد نص ابن النديم على أن تكون لابن البطريق ، كما برهن اندريس ، فلماذا لا تكون ترجمة ابن زرعة ؟ وقد نص ابن النديم على ان ابن زرعة قد ابتدأ بنقله ثم قال بلهجة الواثق من كلامه : « ما نقله من السرياني ... » ولا نعلم السبب فى اغفال الاستاذ لولوفس نص ابن النديم الكامل واكتفائه بقسم منه .

اما فى مقدمته الثانية فقد حاول الاستاذ لولوفس أن يوضح اسلوب وفن الترجمة الذي اتبعه المترجم والعشرات التي وقع فيها وعلاقـة تلك العثرات بقابلية المترجم اللغوية فى العربية ، وشفع ذلك بنماذج انتزعهـا

لا يجد المترجم لفظا مقابلا فى العربية • ثم استطرد قائلا « ان المترجم فى بعض الحالات اساء فهم النص اليوناني فعبّر عنه بكلام لا معنى له اطلاقا » ثم شفع قوله هذا بنصوص انتزعها من النص العربي وقابلها بالنص اليوناني • فمثلا : ( الترجمة الانكليزية للنص اليوناني ) ، « تماما مثل طبقة الجص الجديدة على الحائط سرعان ما تسقط (ما تقع جانباً ) ، فانها ترجمت « مثل ما يتحلل البخور اذا وضع على النار » ( صفحة ٢١ ، المقدمة الثالثة ) وأمثال ذلك • ولا يستبعد ان النص اليوناني حوى كثيرا من التصحيف أو ان المترجم أساء قراءة النص فأساء الترجمة •

واختتم مقدمته الثالثة بقوله « بالرغم مما رأينا من الامثال الكثيرة الدالة على سوء الترجمة من اليونانية الى العربية ، فان المترجم لم يكن له هدف سوى تحويل كتاب الحيوان لارسطوطاليس الى لغته بكل ما لديه من قابلية وما توفر عنده من جهد » •

وفى المقدمة الرابعة درس الاستاذ بروخمان لغة الترجمة بعناية ودقة فائقتين ، وقال : : « ان لغة النص تذكرنا فى حالات عديدة باللغة العامية فان لغة المترجم فى أغلب الاحيان معلولة ويغلب عليها اللحن فلعله كان يتكلم نوعا من العامية العربية ، ومن ناحية اخرى فان المفردات الفلسفية لم تصل عنده بعد الى مستوى الكمال الذي وصلت اليه فيما بعد » • ثم عرج الاستاذ بروخمان على لغة المترجم فدرسها بتفصيل واسهاب عجيبين يستثيران الاعجاب فأظهر بالامثلة المستقاة من النص العربي ان المترجم كان ضعيف الملكة باسباب النحو واللغة وتركيب الجمل فلغته تمثل « العربية الوسطى » التي هي بين العامية والفصحى أو قل هي لغة النصارى الذين لم تكن العربية لغتهم الاصلية •

وفى المقدمة الخامسة تتبع الاستاذ بروخمان المصادر العربية التي يمكن ان تكون قد اقتبست من كتاب الحيوان أو ذكرته فى الاقل فقال

« انه كان معروفا عند العرب باسم كتاب الحيوان وهكذا ذكره الكندي فى رسائله وابن النديم فى فهرسه والقفطي فى تاريخ الحكماء وابن ابي اصيبعة فى عيون الانباء وابن باجة فى مجموعة من الكلام والقزويني فى عجائب المخلوقات والدميري فى حياة الحيوان » واستطرد قائلا : « ان العرب هم الذين قسموا الكتاب الى تسع عشرة مقالة ؛ وقد سميت المقالات العشر الاول باسم « طبائع الحيوان » كما تظهر عند ابن ابي اصيبعة وحاجي خليفة » .

يبدو ان الكندي كان أول من ذكر كتب ارسطوطاليس « الحيوانية » فقد قال فى رسائله « كمية كتب ارسطوطاليس وما يحتاج اليها فى تحصيل الفلسفة » « فقد ذكر كتاب الحيوان ككتاب سابع فى سلسلة الاشياء الطبيعية وقال : ان كتاب الحيوان ( وسماه الحيواني ايضا ) يحتوي على كون الحيوان فى طبائعه وخواصه وعوامه وعلل أعضائه والمواضع الخاصة به وحركاته وما يعمه من ذلك وما يخصه » ( رسائل الكندي ٣٨٣ ) . فالكندي فى كتبه لم يتعرض لآراء ارسطوطاليس فى الحيوان لانه على ما يبدو لم يكن معنيا بها فلم تحظ باهتمامه . ثم درس الاستاذ برخمان أثر كتاب الحيوان عند الجاحظ وابن قتيبة والمسعودي وابي حيان التوحيدي وأخيرا النويري فخرج بالنتيجة الآتية « ان هؤلاء وان اوهموا انهم اعتمدوا على كتاب الحيوان فى ما أورده من معلومات فأن معلوماتهم لم تكن مستقاة من الكتاب مباشرة وانما من مصادر ثانوية قد تكون مختارات أو مختصرات للكتاب ( أو جوامع كما سماها ابن النديم ) الا ابن سينا فانه الوحيد الذي كان على معرفة تامة بكتاب الحيوان بل ربما قد رأى الترجمة الحالية بعينها كما يظهر فى الفصل الثامن من كتابه المعروف « الشفاء » فقد صاغ المعنى بلغة أسلم وعلق على كل المقالات ١٥–١٩ من كتاب الحيوان فضلا عن ذلك فقد أدلى بآراءه وأصلح كثيرا من المصطلحات الواردة فى النص واستبدلها بما يقرب

من المعنى الاصيل • وعلى سبيل المثال فقد استعمل ابن سينا طبيعة بدلا من طباع المستعملة كثيرا فى النص ونبات بدلات من شجرة وهضم بدلا من أنضج ومادة بدلا من هيولى • وفى حالات اخر استخدم ابن سينا نفس المصطلحات الواردة فى النص دون تغيير مما يدل على ان ابن سينا قد رأى الكتاب واقتبس منه • وتظهر اصالة ابن سينا فى رفضه آراء ارسطوطاليس على علاتها ومحاولته صياغتها وتحويرها كما يرتضيه منهجه فقد أورد مثلا رأي ارسطوطاليس فى علة خلق الجنين « فلهذه العلة اذا خالط الزرع الذي هو غذاء نقي بذا الدم الذي ليس بنقي تكون الولادة من الزرع ويكون الغذاء من دم الطمث » فأضاف ابن سينا موضحا هذا الرأي « يجب ان تعلم انه يعني هنا بالزرع زرع الاناث » فهذا الرأي الاخير مناقض وراد تماما لرأي ارسطوطاليس الذي يرى ان علة نشوء الجنين تكون من زرع الرجل فقط وغذاءه يكون من دم الطمث بينما يرى ابن سينا ان خلق الجنين يكون مشتركا بين زرع الرجل وزرع الانثى • فلا ولادة من غير اتصال احدهما بالآخر وتأثير الواحد فى الآخر •

ويختتم الاستاذ بروخمان مقدمته قائلا « اننا لا نشك فى ان المؤلفين فى الطب وبما كان عندهم من معرفة واسعة بالعلوم اليونانية فى مختلف مجالاتها لا بد وان تكون دراساتهم قد تضمنت كتاب الحيوان ايضا ، ومع هذا فأن الكتاب كان معروفا حتى فى الاوساط الادبية فى القسم الشرقي من الامبراطورية الاسلامية فقد اورد الثعالبي فى « يتيمة الدهر » بيتا لابي الفتح البستي :

وكيف الوم المرء فى خبث فعله وأول شيء قد غذاه دم الطمث

يظهر منه ان هذا الرأي الارسطوطاليسي فى مسألة خلق الجنين كان معروفا فى هذه الاوساط •

وقد فات الاستاذ بروخمان ان أبا سعيد عبدالله بن بختيشوع ( المتوفي

سنة ٤٥٠ ـ ٤٦٠هـ )[٤] قد اقتبس فصلا من كتاب الحيوان لارسطوطاليس فانه نقل نصا طويلا من المقالة الثانية من الكتاب مخطوط لايدن Or. 584 ورقة ٨١ أ ) فى كتابه « رسالة فى بياو وجوب حركات النفس » كما سماه مصنف فهرس مخطوطات لايدن •

**النص العربي :**

اعتمد المحققان فى اخراج النص على ثلاث مخطوطات وترجمة لاتينية للنص العربي ترجمها مايكل سكوت فى القرن الثالث عشر للميلاد • واولى هذه المخطوطات لايدن المحفوظة تحت رقم Or. 166 قال عنها المحققان « كتب فى سورية فى القرن الخامس للهجرة = الحادي عشر للميلاد • وتحتوي الصفحة من المخطوطة على ١٢ سطرا ، وتنقيط الحروف قليل واشكال الكلمات يكاد يكون معدوما وخط النص بما فيه اسم الكتاب والاشارات الدالة على الكراسات والتعليقات والاضافات كلها كتبت بخط واحد • والنص المنشور يقع قسمه الاول بين الورقات ١١٥أ ـ ١٦٥ب • والمخطوطة تمثل الجزء الثالث من أربعة فقدت بقيتها • وان الطريقة التي اتبها الناسخ فى تقسيم المقالات التسع عشرة من كتاب الحيوان على الاجزاء الاربعة يمكن أن تحدس من العنوان :ـ

( الجزء الثالث من كتاب الحيوان لارسطوطاليس الحكيم
وهو يشتمل على أربع مقالات من جملة تسعة عشرة مقالة
وهي المقالة الثانية عشرة والثالثة عشرة
والرابعة عشرة والخامسة عشر )

تحتوي مخطوطة لايدن على ٢٢ كراسة تشتمل كل واحدة على ١٠ ورقات ، غير أن الوقة الاولى والاخيرة من الكراسة قد سقطتا » • ويستمر المحققان فى وصف مخطوطات المتحفة البريطانية وطهران وترجمة مايكل

---

(٤) انظر بروكلمان ١/٤٨٣ •

سكوت مما لا يدخل فى مناقشتي هذه لذلك سأحصر نقاشى فى ما يتعلق بمخطوطة لايدن لاننى لم أر مخطوطتي لندن وطهران .

قال المحققان فى الصفحة ٦٢ من المقدمة السادسة « ومما لا شك فيه أن نسخة لايدن قد وقعت بيد من نقحها وعلق عليها تعليقات تختلف عن ما هو موجود فى النص ، فانه لم يكتف بما أضاف اليها بل عدّل وأصلح وبدّل وقد قراءات مغايرة لما فى النص يحملنا على الاعتقاد بأن المنقح هذا كان قادرا على أن يقرن بين النص اليوناني والعربي فأضاف وغيّر مارآه أصلح للسياق » . وأورد المحققان أمثلة لهذا التغير والاصلاح مثل هذا المثل : « جاء في مخطوطة لايدن ( مثل ما يكون غرق المركب الذى كان من اثيناس ) فأضاف المنقح فى حاشية الورقة ١٤٦أ ( كما كان مسير الاثينيين فى السفينة من بعد الاجتماع للحرب ، خ ، ) . مع أن الاصل اليوناني ( تماما مثل الرحلة البحرية التي تأتي بعد الاحتفال الباناثيني ) فلعل كلمة « للحرب » كانت فى النسخة الاخرى « للطرب » فتصحفت على ناسخ نسخة لايدن . فاذا كان هذا الافتراض صحيحا فهو تأييد مباشر لرأي المحققين القائل ان المنقح كان على علم باليونانية . ومن ناحية اخرى فان المحققين لم يحسبا للتصحيف حسابا ولم يولياه أية عناية وهو الطامة الكبرى فى دراسة المخطوطات .

قال الاستاذ لولوفس فى مقدمته ( صفحة ١٠ ) انه أثناء رجوعه من طهران وبعد أن رأى مخطوطتها قابل بيروت الدكتور صلاح‌الدين المنجّد الذى قدم رأيه حول مكان وزمان المخطوطات العربية الثلاث للكتاب ، ثم صرح برأي الدكتور المنجد هذا فى الصفحة ٥٤ من المقدمة السادسة حول النص وقال عن مخطوة لايدن « كتبت فى سورية فى القرن الخامس للهجرة = الحادي عشر للميلاد » دون أن يشفع رأيه هذا بدليل وكنا نود أن قد فعل . ولما لم أر مخطوطة لندن أو طهران فان مناقشة رأيه

فيهما لا معنى لها .

ومن دراسة مخطوطة لايدن ظهر لنا أمران :

أولهما : ان الكتاب لم يكتب فى سورية اطلاقا ، فلعل الاستاذ المنجد أطلق هذا الحكم الجزاف حين رأى أن المؤرخ خليل بن ايبك الصفدي كان أحد الذين امتلكوا الكتاب فى فترة من التاريخ فان خطه المعروف يظهر على صفحة العنوان ( من كتب خليل بن ايبك الصفدي ) فتبادر الى ذهنه ان الكتاب كتب فى سورية . ولو اوتي الدكتور المنجد صبر المحقق الثبت ، وهذا ما أعوزه فى كل تحقيقاته[٥] لرأى بوضوح أن هناك غير الصفدي من امتلك الكتاب .

وثانيهما : ان الكتاب لم يكتب فى القرن الخامس للهجرة ، ولا ندري على أي دليل أقام الدكتور المنجد رأيه هذا فان الاستاذ لولوفس لم يصرح به واكتفى بما نقلناه عنه .

تحمل ورقة العنوان اضافة الى العنوان الذى أوردناه سابقا وتملك الصفدى ما يأتي بالحرف :

ملك محمد بن أحمد الم .....

ثم لعلى بن .....

ومن بعده للراجي [ عفو الله .... ]

..... ن المنداى ....

..... [ وآلـه وصحبه وسلـم ]

ولو كلف الدكتور المنجد نفسه قليلا من العناء لحدس ان الصفدى لابد وأن ترجم لمالك الكتاب وذلك لسبب بسيط وهو أن الكتاب ليس من

---

(٥) انظر مقالة الدكتور مصطفى جواد عن تحقيقه كتاب العبر للذهبي مثلا، المجلد ١٧ لسنة ١٩٦٩ صفحة ٧٠ ؛ مجلة المجمع العلمي العراقي .

الكتب المتداولة ولابد أن من يحويه يكون من خواصهم واذا كان من خواصهم فلابد أن يترجمه الصفدى أو غيره . وقد أصاب الاستاذ بروخمان حين قال « ان ندرة وجود المخطوطات لهذا الكتاب تظهر ان كتاب الحيوان لارسطوطاليس لم يكن متداولا على نطاق واسع بل ان تداوله كان مقتصرا على نطاق ضيق بين الناس » ( المقدمة الخامسة ٣٩ ) . وهذا ما تبادر الى ذهني فكان الدليل فى كتابة التملك الاخير التي عفت وانطمست لتهرؤ جانب الورقة الاسفل فلم يبق من اسم المالك الاخير الا اسم « المنداى » فوجدت أن الصفدى قد أورد بالفعل ترجمة لمالكه محمد بن أحمد بن بختيار المندائي قاضي واسط المتوفى سنة ٦١٥هـ . وزاد الامر توكيدا ان الكتاب انتقل بعد وفاة محمد بن أحمد المندائي الى من اسمه « علي » وقد وجدنا المؤرخ المنذرى يقول : ـ

« علي بن محمد بن أحمد بن بختيار بن علي ، أبو جعفر الواسطي المعروف بالمندائي ، مؤرخ له علم بالفقه والادب والثقة ، من أهل واسط وبها كانت وفاته » . وأضاف المنذرى : « ولي القضاء بواسط مدة وصنف تاريخا ؛ ولد سنة ٥٥٩هـ وتوفي سنة ٦٣٠هـ ( التكملة لوفيات النقلة ، وفيات سنة ٦٣٠ هـ تحـ بشار عواد ـ النجف )

( ونقل الزركلي فى الاعلام هذا النص ٥/١٥٣ ، وأعاد كحالة ما قاله الزركلي ٧/١٧٩ ) ثم انتقل الكتاب بعد وفاة علي بن المندائي الى من اسمه ... المندائي أيضا فلعله كان ابناً لعلي بن المندائي أو أخا له . فعلى هذا فان الكتاب يكون قد كتب فى العراق وبالذات فى واسط وليس فى سورية وانه كتب فى القرن السادس أو بداية القرن السابع الهجري وليس الخامس ... فتأمل وان الكتاب قد بقي في واسط الى ما بعد وفاة المندائي الاخير أو لعله بقي في واسط عند المندائيين حتى بداية القرن الثامن

ثم انتقل الى ملك الصفدى المتوفي ٧٤٥هـ[٦] ( بروكلمان ملحق ٢/٢٧ ) وهذا افتراض يبدو فى الاقل غير معلول .

وآل المندائي مشهورون فى كتب التراجم والتاريخ ، فهم بيت قضاء وعدالة وتصوّن وأولهم : أبو العباس أحمد بن بختيار ابن المندائي الواسطي . ولد سنة ٤٧٦هـ بأعمال واسط وتوفي ببغداد سنة ٥٥٢هـ وقد ذكره السمعاني فى تاريخ بغداد وابن الجوزى فى المنتظم وياقوت فى معجم الادباء وابن كثير فى البداية والنهاية والسبكي فى طبقاته وابن الاثير فى الكامل والذهبي فى المشتبه والسيوطي فى بغية الوعاة وغيرهم . قال ابن الفوطي « ورأيت للبطائح تاريخا حسنا قد صنفه القاضى المندائي » (تلخيص مجمع الآداب رقم ٢٧٧٠ ) .

ثم ابنه محمد بن أحمد ابن المندائي ، أبو الفتح القاضى ، ولد سنة ٥١٧هـ وتوفي سنة ٦١٥هـ عن ثمان وثمانين سنة . ذكره ابن الدبيثي وابن خلكان وابن العماد والمنذرى وسبط ابن الجوزي وابن الساعي والذهبي وابن تغرى بردى والصلاح الصفدى وأخيرا الذهبي فى العبر ٥/١٤ تحقيق الدكتور المنجد حيث وقع فى بعض أسماء شيوخه اضطراب لم ينبّه عليه الاستاذ المنجد .

قال ابن الدبيثي « محمد بن أحمد بن بختيار بن على ، أبو الفتح بن أبي العباس المندائي الواسطي القاضي الثقة الفاضل ، ولد بواسط وحمل الى الكوفة اذ تولى أبوه قضاءها فسمع بها عمر بن ابراهيم العلوي ثم دخل بغداد وسمع البارع حسين بن محمد الدباس وهبة الله بن الحصين ومحمد بن الحسين المزرفي وهبة الله بن الطير وأبا السعود أحمد بن علي بن المجلي وأبا الحسن البيهقي وجماعة . وعاد الى واسط سنة ثلاثين

---

(٦) أو سنة ٧٦٤هـ كما أورد ذلك الدكتور المنجد فى كتابه « المؤرخون الدمشقيون » صفحة ٤٨ . ط٢ .

( وخمس مائة ) وقرأ بها القرآن على أحمد بن عبيدالله الآمدى سبط الاغلاقي وعلى الرئيس ابي يعلى محمد بن سعد بن تركان ، وسمع نصرالله بن محمد بن مخلد والمبارك بن نغوبا وأبا عبدالله الجلابي وكان حسن المعرفة جيد الاصول صحيح النقل متيقظا • حدث بالكثير وصار أسند أهل زمانه وقصد من الآفاق وحدّث ببغداد غير مرة ونعم الشيخ كان عاقلا وخلقا ومودة • ولد فى ربيع الآخر سنة سبع عشرة وخمس مائة وتوفي في شعبان سنة خمس وست مائة بواسط •

قال الذهبي روى عنه أبو الطاهر ابن الانماطي وفتوح بن نوح وابن عبدالدائم وخلق كثير • » ( المختصر المحتاج اليه من تاريخ ابن الدبيثي ، اختصار الذهبي ، تح • مصطفى جواد ١/١٨ ) •

ثم ابنه محمد بن محمد بن أحمد ، أبو حامد ، ولد سنة ٥٥٧هـ وتوفي سنة ٦٠٢هـ ( الجامع المختصر لابن الساعي ١٩١ ، الكامل لابن الاثير ١٢/١٦٠ طبعة لايدن ) •

ثم ابنه الآخر أبو جعفر علي بن محمد بن أحمد ، ولد سنة ٥٥٩هـ وتوفي سنة ٦٣٠هـ ( التكملة لوفيات النقلة للمنذري ، وفيات سنة ٦٣٠هـ )

وقد وردت أسماء ولدى ابن المنداثي فى سماعات لكتاب جمهرة نسب قريش للزبير بن بكار ( تح • محمد محمود شاكر ، القاهرة ١٣٨١هـ ) بهذه الصورة • » سمع جميع هذا الجزء على القاضى ••• أبي الفتح محمد بن أحمد المنداثي بحق روايته اجازة ••• عن المؤلف بقراءة الشيخ ••• أحمد بن محمد بن أحمد ••• ولدا المسموع عليه أبو حامد محمد وأبو جعفر علي ( فى المطبوع محمد وهو خطأ ) » ( صفحة ١٠١ ، ١٩٩ ، ٤٠٧ من مخطوط اكسفورد المنشورة بعد صفحة ٧٢ من كتاب جمهرة النسب )[٧] • وقد توفي أبو حامد قبل أبي جعفر بـ ٢٨ سنة فلابد

---

(٧) هذه الاشارات كلها فى الجزء الاول •

أن تركة والدهم وصلت اليه ومن ثم الى ولده أو أخيه الذى نجهل اسمه وبقي لقبه مرقوما على صفحة كتاب الحيوان •

قال المحققان فى المقدمة السادسة صفحة ٥٤ « ان كل المخطوط بما فى ذلك عنوان الكتاب وأرقام الكراسات والحواشى والتعليقات كتبت بخط واحد » فعلى هذا فاننا قد لا نخطىء الصواب اذا قلنا ان الكتاب انتسخه محمد بن حمد ابن المندائي لنفسه ، فلم تشأ أمانته ان يغير فيه شيئا حتى الاغلاط النحوية المتفشية فيه ، فنقل الكتاب بنصه واخطائه ولغته لان خط تملك ابن المندائى ونوعية الحبر يشبه تماما خط الكتاب وحبره • ثم قابل نسخته بالاصل فوجد بعض الكلمات او الجمل كان قد اغفلها فاضافها فى الحاشية مع كلمة « صح » للدلالة على ان هذه الكلمة او الجملة من الاصل• ثم قابل نسخته مع نسخة اخرى فوجد زيادات لا توجد فى نسخته او اختلافا مع نسخته فوضعها فى الحاشية ايضا مع « خ » للدلالة على ان هذه ليست فى الاصل وانما وردت فى نسخة اخرى • ثم مرت عليه كلمات لم يتوثق من قراءتها اما لرداءة خط النسخة التى نقل منها او لشكه فى صحتها وصلاحها فى مكانها امامها « ظ » اى فيها نظر •

ومن دراسة خط التعليقات والاضافات يتوضح ان ناسخها لم يكن شابا بل شيخا طعن فى السن وذلك لتعرج الحروف من ارتعاش يديه • فقد يكون الامر ان ابن المندائى كتب نسخته فى زمن متقدم من عمره ثم عثر على نسخة اخرى فى اواخر عمره فاضاف الى نسخته ما شاء ان يضيف• وقد علمنا انه عاش ثمانية وثمانين عاما •

هناك نقطة اخرى تستحق الملاحظة وهى ان المحققين اعتبرا هذا الكتاب جزءا ثالثا اعتمادا على ما ورد فى صفحة العنوان ولم يحاولا دراسة العلامات التى تظهر فى المخطوطة ، فقد وردت فى المخطوطة ارقام وحروف بعد كل عشر ورقات ففى الورقة ١٠ أ يظهر الرقم ٦ وتحته تماما حرف د

وهكذا الى اخر الكتاب الا فى الكراسة الاخيرة حيث سقطت الورقة التى تحمل رقم ٢٢ وحرف د ايضا • فالرقم هنا يشير الى عدد الكراسات والحرف الى المجلد او الجزء وهذا يعنى ان المخطوطة التى بايدينا هى المجلد الرابع او الجزء الرابع وليس الثالث لان الجزء الاول رمز له بالحرف أ والثانى بالحرف ب والثالث بالحرف ج ، ومثل هذا النظام مألوف فى كثير من المخطوطات • ففى مخطوطة « كتاب تحريم الدفن لجالينوس تفسير الشيخ ابى سعيد عبيدالله بن جبريل بن عبدالله بن بختيشوع ( لايدن (Or. 584) بدأ الكتاب بنظام ابجد هوز ••• فالورقة الاولى أ والثانية ب والثالثة ج •• الى نهاية النظام ثم اعيد النظام عكسيا فتحول الترقيم الى ثانى يا فى الورقة ١٠ أ وبعدها يب ، يج ، يد ••• الى اخر المخطوطة • اما فى مخطوطة الكامل للمبرد[٨] المنسوخة فى سنة ٤٨٨ هـ فقد اتبع الناسخ نظاما اخر ففى الورقة ١٠ أ يظهر ( ٢ من ثالث ) وبعدها فى الورقة ١٠ أ( ٣ من ثالث ) وهكذا الى نهارة المخطوطة • ومثل هذا النظام اتبع فى مخطوطة كتاب المجمل لابن فارس (Or. 485) . وغير ذلك كثيرو مالوف •

أن تحقيق نص عربي ليس أمراً سهلا يقوم به من شاء كما يشاء اذ له اصوله وقواعده التى التزمها المحققون وأخذوا بها • وهناك رأيان فى طريقة اخراج النص لكل منهما انصاره فاولهما : يرى ان الاقتصار على اخراج النص مصححا وخاليا لا يفيد القارىء او الباحث لذلك ينبغى توضيح النص بالهوامش والتعليقات واثبات الاختلافات فى النسخ والاشارة الى مصادر ورود الاسم او الخبر او الحادثة وقد التزم هذه الطريقة قلة من المحققين لما فى هذه الطريقة من وعوردة وما تتطلبه من جهد • وثانيهما :

---

(٨) مخطوطة لايدن Or 2380 B .

يرى ان اخراج النص لا يحتاج الى اثقاله بالهوامش والتعليقات والاشارات الى مناجم ورود الخبر والعلم واصلاح ما طرأ من غلط النساخ ، وقد زخر عالم النشر بكثير من انتاج اصحاب الرأى الاخير فكان كارثة على الباحثين الذين راوا ان الرجوع الى المخطوط الاصل خير من الاعتماد على ما اخرج بهذه الحلة السقيمة • والظاهر ان هؤلاء اتبعوا هذه الطريقة لسهولتها ورغبوا عن الاخرى لما تتطلبه من صبر وعناء فى زمن قل فيه من يتمتع بهما لهذا جنحوا الى الاسراع فى نسخ المخطوط او عهدوا به الى ( كاتب طابعة ) واسرعوا به الى اقرب ناشر او مؤسسة نشر لتظهر اسماؤهم لامعة على صفحة الغلاف ، ولهذا كثرت فيه الاخطاع وشاع التصحيف حتى وصل الامر ببعض المحققين الى انه استصوب الخطأ واستخطأ الصواب او نفى وجود المشهور • وهل فى العالمين من لم يسمع بموقعة ملازكرد او منازكرد او منازجرد التى وقعت بين السلطان الهمام الب ارسلان السلجوقى وامبراطور الروم ارمانوس او دخيانوس ؟ فقال المحقق « لم اعثر على مكان بهذا الاسم » ولا ندرى اين بحث ؟ وابن البرزالى الشهير تحول عنده الى البروالى وبني ماران صارت نير ماران وقال « ولم اعثر على اسم هذا المان » فقد جاء فى تاريخ ابن الفرات (١/٨٥) « والمارانى منسوب الى نير ماران بالمروج ••• الموصل » وعلق المحقق « كذا فى الاصل منسوب الى نير ماران بالمرو •• الموصل ، ولم اعثر على اسم المكان » وفى الصفحة ٤٥ من الجزء نفسه جاء اسم عثمان بن عيسى بن درباس بن فير المارانى المصرى « فعلق المحقق على كلمة «فير » : كذا فى الاصل ••• وصحيح الاسم بعد الرجوع الى وفيات الاعيان ٢/٤٠٦ » • ولم يفطن الى ان عثمان هذا هو اخو عبدالملك المذكور فى الصفحة ٨٤–٨٥ ، مع ان ابن خلكان ذكر فى ترجمة هذا « والمارانى بفتح الميم وبعد الالف راء مفتوحة بعد الالف الثانية نون ، هذه النسبة الى بنى ماران بالمروج تحت الموصل » ( ١/٣٣٨ طبعة

ايران ) وقد وقع الاستاذ المنجد فى الخطأ نفسه فوضع علامة استفهام بعد كلمة « المارانى » مع انها نسبة صحيحة ، ( العبر : ١٣ ) • اما عن منازيرد ( انظر معجم البلدان فى مادة قاليقلا ومنازكرد وابن الاثير ١٠/٤٤ طبعة لايدن وتاريخ ابن العديم تح • الدهان ١/٢٤٤ ، وكتاب زبدة النصرة ، اختصار البندارى تح • هوتسما صفحة ٣٨-٤٤ وغيرها ) • ومثل هذه الاخطاء كثيرة جدا فى الكتاب بجزئيه ، وكنا نود لو اولاه المحقق الفاضل من عنايته حظا اوفر مما اولاه •

ان اخراج النص ، كما يرى المحقق الفاضل الدكتور شكرى فيصل ، « ان ينظر المحقق فيه وفيما حوله ••• ان يدل على المنازع التى صدر عنها ، وان يتولى محققو النصوص بالذات عمليات الشروح الاولى هذه لكى تصبح جاهزة للبحث الادبى الصرف او للبحث التاريخى الصرف او لهما معا ••• تتيح للباحث ان ينطلق بعد ذلك عنها دون ان يضطر الى معاودة الجهد الذى بذله المحققون » ( مقدمة الجزء الثالث من خريدة القصر ٢٤-٢٥ ) •

فتحقيق النص ليس عملية نسخ آلى يقوم بها من شاء بل هو عملية خلق واعادة النص للحياة على الصورة التى ارادها المؤلف نفسه ، وانه لا يستلزم معرفة المحقق بالعربية وحسب بل يفترض فيه ان يكون على علم بضروب المعرفة التى يتناولها النص وهو الى ذلك يتطلب صبرا وجلدا ونفسا طويلا على معاناة النص وخاصة اذا كان النص فريدا لا ثانى له ، ومن هنا استطاع المحقق الغربى التفوق على العربى بشىء والتقصير عنه بشىء آخر ، فقد فاقه بصبره ومثابرته على اكتشاف الغامض من النص بالرجوع الى عشرات المصادر وتطلبه فى عشرات المضان ، وقصر عنه بفهمه للغة غريبة عنه تختلف فى مجالاتها وضروف اشتقاق الفاظها ومعانى حروفها التى تتغير بتغير مجالات ورودها • والمحقق الغربى يبحث اياما طوالا عن لفظة واحدة لا يكل ولا يعتوره الملل حتى يحظى ببغيته ويشبع نهمه ، وهو

مع هذا فقد يقع على ضالته وقد يضل السبيل وغالبا ما يختار اللفظ الخطأ اذا تعددت القراءات لجهله بسياق المعنى وصلاح اللفظة وملائمتها لموضعها ، وويل لكل ذى سلعة ذات عوار • ولعل نظرة فاحصة فى مقال الاب « اغلاط المستشرقين »[٩] حيث بين الاخطاء التى وقع فيها كل من فرايتاخ وخوليوس وكليمان هوار ودى خوية ، تعطينا صورة للجهد الذى كان يبذله المستشرقون الاوائل والنصب الذى تحملوه فى نشر النصوص العربية • وهذا ما يعوز المحقق العربي الذى لا يكلف نفسه عناء البحث وانما يعتمد على ما عنده من معرفة قد تكون ناقصة فى غالب الحالات فيشط ويشتط ويحمل من يأتى بعده على الشطط والغلط •

وليس بعجيب ان لا يسلم نص فى الوجود اثناء تحقيقه من هنة هنا أو هفوة أو اغفال للفظ أو سهو عن حرف حتى لو اوتي المحقق صبر أيوب وحلم الاحنف وحدة عين الزرقاء ، وانما العجب ان يقع فى خطأ يبين فيه جهله ويظهر تسرعه فيفقد ثقة قارئه • خذ مثالين من كثير من كتاب المعارف لابن قتيبة ، تحقيق ثروة عكاشة ( دكتور فى الاداب ) • فقد ورد فى الصفحة ٣٩٣ ما نصه :

١ ـ « وقتل أحمد بن نصر بالمحنة لليلتين بقيتا من شعبان سنة احدى وثلاثين ومائتين » فعلق المحقق : « المحنة منزل بين الكوفة ودمشق ( معجم البلدان ) » •

٢ ـ فى خروج محمد بن عبدالله بن الحسن العلوى على ابى جعفر المنصور وخروج اخيه ابراهيم بالبصرة ( صفحة ٣٧٨ ) جاء « فلما انتهى اليه قتل اخيه خرج متوجها الى الكوفة واقبل عيسى بن موسى نحوه فالتقوا ب » باجميرى « من ارض الكوفة » وقد وضع المحقق الحركات على الكلمة

---

(٩) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، المجلد ١٤ ، لسنة ١٩٣٦ •

فوضع ضمة على الجيم وفتحة على الميم ولسكونا على الراء • وعلق على ذلك فقال : « وهو موضع دون تكريت » •

فاما المحنة التى ظنها موقعا بين الكوفة ودمشق فهى محنة اهل السنة على ايدى المعتزلة او محنة القول بخلق القـران والتى ابتـدأت بالمأمـون وانتهت بالمتوكل وفيها قتل الفقيه احمد بن نصر الخزاعى قتله الخليفة الواثق بيده وذكرها اشهر من ان نشير الى مصدر واحد لها •

اما باجميرى فهى باخمرى او باخمرا • وهل هناك مؤرخ عربى لم يسمع بها ؟ •• فتأمل • وقد وردت الكلمة وفسها فى الكتاب فى الصفحة ٢١٣ فى كلام ابن قتيبة على ثورة الاخوين العلويين فقال : « فبعث اليهمـا عيسى بن موسى فقتل محمدا بالمدينة وقتل ابراهيم بـ » باخمرا « على ستة عشر فرسخا من الكوفة » وعلق المحقق مرة اخرى : « وهو موضع دون تكريت ، وانظر معجم البلدان » • فقد قرأ باخمرا واشـار الى باجميرا • جاء فى معجم البلدان فى كلام ياقوت على باخمرا « موضع بين الكوفـة وواسط وهو الى الكوفة اقرب ••• بها كانت الوقعة بين اصحاب ابى جعفر المنصور وابراهيم بن عبدالله بن حسن بن ابى طالب ـ عليه السلام ـ فقتل ابراهيم هناك » فاين الكوفـة من تكـريت ؟ واين باجميـرا تكـريت من باخمرا الكوفة ؟

أوردت هذه الامثلة لابيّن بها مدى العناء والنصب الذى يلقاه محقق النص اذا كان نصا عربيا سليما فما تظـن اذاً فى اخـراج نص مترجم من اليونانية او السريانية يشيع فيه الخطأ ويكثر فيه التصحيف ؟ فان التنويه بهذا العناء هو اقل ما يكافأ به المحققان وادعى لهما الى السعى بنشر غـيره فقد انجز المحققان عملهما بصبر دونه كل صبر ودقة دونها كـل تدقيق وقد اوتى المحققان صبرا وجلدا على معاناة هذا النص الغريب لا احسـبهما يتأتيان لغيرهما ممن عانى تحقيقاً لنص أو نشراً لكتاب فقد ذللا كل عقبـة

كؤود وقدما النص واضحا جليا بما يملكان من علم غزير يستأثر بالاعجاب ويستوجب التقدير • ومع هذا الجهد المشكور فان النص العربى لم يسلم من هنات وقعت هنا او هناك وهذا شيء طبيعى لا احسبه يغطى جهدهما الكبير •

لقد اتبع المحققان ، على ما يبدو ، فى الاشارة الى اختلاف القراءات نظاما معينا هو :

ج للدلالة على المتن لمخطوطة لايدن •

ج١ للدلالة على ورود الجملة أو اللفظة فى الحاشية وأمامها كلمة « صح » فمرة اشارا اليها واخرى اهملاها فى اثناء التحقيق •

ج٢ للدلالة على ان الجملة او اللفظة وردت فى الحاشية مشفوعة بـ « خ » او « ظ » او كانت خلوا منهما •

وقد اختلط هذا النظام كثيرا فنسب ما فى ج الى ج١ وما ج١ الى ج٢ والعكس صحيح وهذا الامر ليس مستغربا فى حروف لا يفرق بينها سوى الاعداد ولو اورد المحققان نفس الاشارات الواردة فى الحواشى لسهل الامر او استعملا رموزا اخرى لسهل التفريق والتمييز بينها ثم ان المعروف عند المحققين ان الجملة او اللفظة التى تشفع بكلمة « صح » ينبغى ان تدرج فى المتن دون حاجة الى الاشارة اليها لان الناسخ نسيها اثناء النسخ ثم اثبتها فى المقابلة •

واليك ثبتا بما لم يورده المحققان او يشيرا اليه وقد اهملت ما تكرر حدوثه •

| رقم الصفحة في النص العربي | السطر | ما ورد في النص المطبوع | ما ورد في المخطوطة ( مخطوطة لايدن ) |
|---|---|---|---|
| ١ | ١٧ | تتبع | تتبع ذلك |
| ٦ | ٩ | جزأن | جزين |
| | | انثى | ـ ج (أي ساقطة من الاصل ) |
| | ١٠ | قريبا | قريب |
| ٧ | ٣ | فـان | وان |
| | ٨ | اوان | اول |
| | ١٠ | مثـل | كمثل |
| | ١٣ | ليس له انثيان بل سبل | ليس له الا انثيان فقط وسبيل |
| | ١٧ | حاشية الشهوة ظم حـ٢ | الشهوة ظ فيه ( أي : فيه نظر ) |
| ٨ | ٣ | واذا | فاذا |
| | ١٧ | فى الطيور | في الطير جـ ١ |
| ٩ | ٢١ | حبس النفس | وردت في جـ ٢ |
| | ٢٢ | البـلاء | البلا (أي البلى أو الفناء ) |
| ١١ | ٤ | ولين ـجـ١ | موجودة في جـ |
| | ٥ | ابطأ من | أكضا مثل |
| | ٢١ | العظم | موجودة في جـ٢ وفيجـ : العضو |
| ١٢ | ١ | فهو ... يبيض ـجـ | الجملة موجودة في جـ |
| | | فينبغى | وينبغي |
| | ٦ | الطعام | جـ العظام |
| | | | جـ١ الطعام |

| رقم الصفحة في النص العربي | السطر | ما ورد في النص المطبوع | ما ورد في المخطوطة ( مخطوطة لايدن ) |
|---|---|---|---|
| | ٢١ | تاما | ـ ج |
| ١٣ | ١٩ | لانه لا يمنع عمل من اعمال | لانه لا يعمل من الاعمال |
| ١٤ | ١٦ | صارت | ـ ج |
| ١٥ | ٨ | صارت انثيا الدلافين | صارت الانثيان من الدلافين |
| | ٢١ | مثل النساء والبقر | مثل الماعز والبقر ، النساء ـ ج |
| ١٦ | ١٥ | رطب صارت | رطب صار |
| | ١٦ | فضلة رطبة | فضلة رطوبة |
| ١٧ | ٢ | الذين : التي ج | ج : اللذين |
| | ٩ | فى مكان الفقار | في المكان من الفقار |
| | ١٢ | فاذا كان لهذا الحيوان انثيان توجد متعلقة | ـ ج |
| | ١٣ | السبيل | السباع |
| | | تلتقي | تاتي |
| ١٨ | ٨ | من هنا ومن هنا | ـ ج |
| | | البيضة | النطفة |
| | ١٠ | المماسكة | الماسكة |
| | ١١ | الاخر | ـ ج |
| | ١٢ | من اجل | من قبل |
| ١٩ | ١٢ | يابسة | تشبه |

| رقم الصفحة في النص العربي | السطر | ما ورد في النص المطبوع | ما ورد في المخطوطة ( مخطوطة لايدن ) |
|---|---|---|---|
| | ١٣ | يتسافد | يسافد |
| | ٢١ | عضو ما فى الاناث يشبه الرحم جـ٢ | في ج |
| ٢٠ | ١٤ | كلي | كل |
| | ١٦ | ما يولد انما يولد | ما يولد من الزرع انما يولد |
| | ١٩ | فانه مما ينبغى | فانه ينبي |
| ٢١ | ٧ | تشبه الاعضاء | ـ ج |
| | ٩ | خروج | ـ ج |
| | ١٧ | باليونانية | ـ ج |
| | ١٨ | مبددة | شديدة ج مبددة جـ١ |
| ٢٢ | ٤ | يلدون | يلدوا |
| | ١٤ | القشور : الغصون جـ١ | الغصون ج القشور (خ) جـ١ ، جـ٢ ؟ |
| ٢٣ | ١ـ٢ | يخرج .. الزرع ـ جـ١ | كتبت في الحاشية وامامها « صح» في موجودة في ج |
| | ٢ | فان = فاذا جـ٢ | وهي موجودة في نفس الجملة السابقة . |
| | ٣ـ٤ | فهو ... ايضا ـ جـ١ | ـ ج وليس ج ١ |
| | ٧ | كذلك | وكذلك |

| رقم الصفحة في النص العربي | السطر | ما ورد في النص المطبوع | ما ورد في المخطوطة ( مخطوطة لايدن ) |
|---|---|---|---|
| | | ان يشبه | ـ ج |
| | ١٢ | انـه | ـ ج |
| | ١٥ | من | ـ ج |
| | ١٦ | يخرج | ـ ج |
| | ١٨ | الامر | للامر |
| | ٢١ | حال الاثنين | حال ـ ج<br>حال الاثنان « خ » |
| ١٤ | ١ | شبيها | شـبيه |
| | | وينبغى | فينبغي |
| | ٤ | له ايضا | ـ ج |
| | | شيئا | شيء |
| | ٦ | ولاى | فلاي |
| | ٧ | قبول | قابل |
| | | فاما كما | فما كنا<br>ـ ج |
| | ٩ | مما لا يمكن | ـ ج |
| | ١٠ | تسلم | يشبه |
| | ١٢ | اعناق | أعنق |
| | ١٤ | ولا | فلا |
| | ١٥ | يقدر | ويقدر |

| رقم الصفحة في النص العربي | السطر | ما ورد في النص المطبوع | ما ورد في المخطوطة ( مخطوطة لايدن ) |
|---|---|---|---|
| | | حيوانا واحدا | حيوان واحد |
| | ١٦ | القول : النوع ج١ | النوع ج القول « خ » ، ج١ ، ج ٢ ؟ |
| ٢٥ | ١ | في | من |
| | ٣ | مفترقة | ـ ج |
| | ١٧ | فباى | ـ ج |
| | | نشو | تنشق |
| ١٦ | ١ـ٢ | كيف ... ولحم | كررها الناسخ |
| | ٦ | صب | صير |
| | | دقيق | رقيق |
| | ٩ | + بلغ | كلمة « بلغ » ليست من المتن |
| | ١١ | يتغيرون | يتغيرن |
| | ١٥ | اى الزرع الذى يخرج | وان الزرع يخرج |
| ٢٧ | | | |
| | ٧ | تثمر | مثمرة |
| | ٨ | الشجرة | لشجرة |
| | | وكيف | فكيف |
| | ١٣ | وينصب | ينتصب |
| | ١٥ | الثمر | ـ ج |
| | ١٩ | فتدخله | وتدخله |

| رقم الصفحة في النص العربي | السطر | ما ورد في النص المطبوع | ( مخطوطة لايدن ) ما ورد في المخطوطة |
|---|---|---|---|
| ٢٨ | ٢ | ونلطف | ونطالب |
| | ٦ | يلبس | لبس |
| | ١٢ | التي هي فهي | ـ ج |
| | ١٩ | الولاد | الاولاد |
| | | ان الزرع لا يخرج | سقطت منها جملة كاملة فلربما تكررت وكانت غير موجودة في النص اليوناني • وهي : ان الزرع ( يخرج من الانثى ايضا نقول ان الانثى بنوع من الانواع علة الاولاد فقد علمنا ان الزرع ) لا يخرج ••• ورقة ١٤٥ أ • |
| | ٢٠ | بـه | ـ ج |
| ٢٩ | ٢١ | علل اعمال الزرع والاعراض | علل الاعمال والاعراض |
| ٢٩ | ٢ | علة | ـ ج |
| | ٤ | عملنا | علمنا |
| | ٧ | والسرير | والنمو |
| | ١١ | وايضا ـ ج | موجودة في ج |
| | ١٤ | فيه | ـ ج |
| | ١٥ | علة من | من ـ ج |

| رقم الصفحة في النص العربي | السطر | ما ورد في النص المطبوع | ما ورد في المخطوطة ( مخطوطة لايدن ) |
|---|---|---|---|
| | | المهن | المهن « خ » الهيولي ج |
| | ١٨ | مثل من الهيولى | من مثل الهيولي |
| ٣٠ | ٤ | ويفعل | ـ ج |
| | ٩ | يلـد | يولـد |
| | ١٥ | وبين الزرع | ومن الزرع |
| | ١٨ | لماذا | ماذا |
| | ٢٠ | ان كل | ـ ج |
| ٣١ | ٥ | مفترقا | مفترق |
| | ١٣ | وليس ولا ينتفع | فليس ولا مما ينتفع |
| | ١٥ | فنى اكثر | فني أكثره |
| | ١٨ | تكون | لكون |
| ٣٣ | ١٢ | من الجماع | ـ ج |
| | ٢١ | من المتشابه بالصورة قيست | وفي المتشابه الصورة قيس |
| ٣٤ | ١ | منها ما هو كثير الزرع | ـ ج |
| | ٢ | ماهو قليل الزرع ومدها وليس لحال الضعف | ـ ج وليس ولحال الضعف |

| رقم الصفحة في النص العربي | السطر | ما ورد في النص المطبوع | ما ورد في المخطوطة ( مخطوطة لايدن ) |
|---|---|---|---|
| | ٤ | انهم | انـه |
| | ٩ | يلدون | يلـدو |
| | ١٥ | وكذلك | وذلك |
| | | مزمنة | من شـبه |
| ٣٥ | ٣-٤ | فاما الفضلة ...ممرض | ـ ج |
| | ٤ | خروج | ـ ج |
| | ٦ | مـع | ـ ج |
| | | ذوبا دائما : ذوب جسد: | ذوبا دائما : ج |
| | ٧ | ونحن | فنحن |
| | | فقول الذين | فقول ـ ج |
| | | فقول الذين | الذين : فالذين |
| | ١٠ | ونبين فضلة غذاء الزرع | ـ ج |
| | ١٢ | استبانت | اسـتبان |
| | ١٦ | بقبول | لقبول |
| ٣٦ | ٢ | وتفريعه | وتفريقه |
| | ٨ | بقي | يبقى |
| | ١٧ | تحلل في | في ـ ج |
| ٣٧ | ١١ | الاولاد | الولادة |
| | ١٧ | من | مـع |
| | ٢٠ | وابين | وليس |

| رقم الصفحة في النص العربي | السطر | ما ورد في النص المطبوع | ( مخطوطة لايدن ) ما ورد في المخطوطة |
|---|---|---|---|
| ٣٨ | ٣ | شيئين | نسبتين |
| | | بيّن | ـ ج |
| | ٤ـ٥ | ان كان : الا كان ج | ج : اذ يكون |
| | | ان زرع الانثى | الزرع من الانثى |
| | ١٤ | مثلك | فلذلك |
| | | العلامة | ـ ج |
| | ١٩ | ندى | غـذا |
| ٣٩ | ١ | ايضا | دائما |
| | ٨ | الفضلة | ـ ج |
| | ١٠ | فاذا | واذا |
| | ١٥ | على ... للانثى | ـ ج |
| | ١٦ | موافقة فى الولاد | موافق في الولادة |
| ٤٠ | ٦ | الحضار | الحضر |
| | ١٠ | لا تقوى على | على الافضاء من الزرع |
| | | | ـ ج |
| ٤١ | ٩ | بل ... الدمية | ـ ج |
| | ١٥ | قريبة | قريب |
| ٤٢ | ٦ | وباضطرار | وفي اضطرار |
| ٤٦ | ١٩ | البناء فى | في ـ ج |
| | ١ـ٢ | ذلك ... جزء من | ـ ج |

| رقم الصفحة في النص العربي | السطر | ما ورد في النص المطبوع | ما ورد في المخطوطة ( مخطوطة لايدن ) |
|---|---|---|---|
| | ١٠ | ذكورتها | ذكورة |
| | ١٤–١٥ | يجبلون ولا يشبه ما يعمل مع النجارين | يخيلو أو يشبه ما يعمل من المخاريق |
| ٤٨ | ١٦ | بزرا | ـ ج |
| | ١٧ | يمكن | لم يمكن |

ان كثيراً من هذه القراءات المختلفة ليست بذات أهمية ؛ تركهما المحققان لهذا السبب ولانهما وجدا ان اثقال الهوامش بمثل هذه القراءات سوف يزيد من تكاليف الطباعة وبالتالي فلن تخدم الباحث كثيرا وهما محقّان الى حدٍّ ما كل الحق لان نسبة ما أشار اليه الى هذه القائمة كبيرة جدا ثم ان اهمال هذه القائمة سوف لن يبخس الكتاب حقه من الثناء والتقريظ وللمحققين حقهما من الاعجاب والتقدير • ولا ادّعي ان كل ما أدرجته صحيح فلربما اسأت القراءة فاسأت النقل ومتى كان الكمال من صفات الانسان ؟

من الشعراء الكتاب :

# القاسم بن يوسف

قحطان رشيد التميمي
المدرس في قسم اللغة العربية

القاسم بن يوسف بن القاسم بن صبيح[١] شاعر ناثر من ابناء العصر العباسي الأول . ولعل صبيحا كان قبطيا اشتراه السرى بن بشر العجلي[٢] ثم اعتقه ، فهو مولى بني العجل من قرية من قرى الكوفة تعرف بدبا ، يقال ان أباه منها مولى اسلام . وحين أعتقه العجلي تكنى بأبي القاسم[٣] .

وكان ابنه القاسم رجلا جليلا تولى اعمالا كثيرة لهشام بن عبدالملك ، وكان ممدحا يقصده الشعراء لأدبه وسماحته ، ومن هؤلاء الشعراء أبو النجم العجلي ويزيد بن ضبة الثقفي[٤] . وهو شاعر ناثر روى له الصولى نماذج من شعره ونثره[٥] .

وكان أبو الشاعر يوسف بن القاسم مع خاله بشر بن سليمان على ديوان الكوفة ايام بني أمية ، وكتب لعبدالله بن علي عم السفاح[٦] وله فيه شعر . وظل معه حتى هزم عبدالله امام ابي مسلم الخراساني ، ومرّ زمان حتى كان يوسف من كتاب ابى جعفر المنصور[٧] . ويوسف هذا هو الذى كلم الناس بعد موت الخليفة الهادى آخذا البيعة لأخيه الرشيد بعد ان خطب خطبة بليغة تدل على قدرته العالية في مجال النثر الفني[٨] ، ولكل هذا فقد كان أثير المكانة يخلف يحيى البرمكي – صديقه – على التوقيع وعلى دواوين الدولة[٩] . وكان مقصودا بمديح الشعراء ، وهو بعد هذا جيد الشعر روى له المرزباني[١٠] والصولى[١١] .

واحمد بن يوسف ـ اخو الشاعر ـ كاتب شاعر ، وامره في الكتابة الفنية في عهد المأمون معروف ومشهور ، ولأحمد هذا ولد شاعر كذلك . ولذلك كله صحّ قول المرزباني في هذه الاسرة : « وهم من أهل بيت شعر وأدب وبلاغة »[١٢] .

وشاعرنا القاسم بن يوسف يكنى أبا احمد[١٣] وربما أبا محمد[١٤]. وليس في المصادر التي ذكرته شيء كثير ومفيد عن سيرته ونشأته فهي لا تذكر شيئا عن ولادته أو وفاته . ولكن الثابت انه توفي بعد سنة ٢١٣هـ بزمن ، وهي السنة التي توفي فيها أخوه احمد[١٥] ، فرثاه وعاش بعده مدة كما يقول الصولي ؛ فهو اسن من أخيه ، ولاشك ان شاعرنا قد جاوز السادسة والستين من عمره لقوله[١٦] :

أمن بعد ستين حرمتها ... وخمس وسادسها ان كمل
يضيء القريض بنار النسيـ ... ـب والرأس من شيبه مشتعل

وقد تولى القاسم خراج السواد حين تولى أخوه احمد وزارة المأمون[١٧] .

ويبدو أنه كان يسكن بغداد اذ حنّ اليها وتشوق حين كان في شيراز فقال[١٨] :

الاهل الى ورد العراق سبيل ... بحيث الاخلاء الجميع حلول
تبدلت من بغداد شيراز منزلا ... بلاد وعور ما بهن سهول
دعاك ببغداد هواك وأسبلت ... مدامع منها قاطر وهمول

والقاسم شاعر مجيد يقول عنه الصولي « وما ينبغي ان يسقط شيء من شعره ، لأنه كله مختار وللناس فيه فائدة »[١٩] .وقد نظم الشعر في اغراضه المختلفة .. في المديح والرثاء والزهد والحكمة والشكوى وغير ذلك ..

كان القاسم محبا لآل البيت متشيعا للعلويين مادحا لهم ، فهو يقول[٢٠] :

وقائلة أتمدح قلت انـي ... أخص بمدحتي آل الرسـول
يطيب الفـرع حين يطيب أصل ... ويخبث من خبيثات الاصـول

وهو يصرح بحبه للامام علي وبأنه الوصي بعد النبي (ص) فيقول[٢١]:

حلفت برب الـورى المعتـلي ... على خلقـه الطالب الغالـب
لأحمـد خـير بنـي غالـب ... ومن بعـده ابن أبي طالـب
فهـذا النبي وهـذا الوصي ... ويعتـزل النـاس في جانـب

وله كذلك[٢٢] :

أيهـا السـائل عن خـير الورى ... خير من تحت السموات نزار
وقريش ذروة المجـد وفي ... هاشـم أرسـت فمثوى وقرار
مغرس طاب فأثـرى محتـدا ... واستطـال الفـرع والعود نضار

ومن شعره يمدح الحسن بن سهل[٢٣] :

من غاله حدث أو خانـه زمن ... فالمستعان عليه الله والحسـن
ولا يحـول اعتلال دون نائلـه ... ولا يمنّ وان كانت له منـن
لولا رجاؤك لم تشسع بطيتنـا ... مرو ولم يترك الاهلون والوطن

وله يمدح اسحق بن ابراهيم المصعبي[٢٤] :

وامدح الماجد الكريم وحق الـ ... مدح للماجـد الـكريم النجيب
ان اسـحق قد تكامل فيـه الـ ... ـفقر من عفـة وطهـر وطيب
حازم رأيـه قؤول فعـول ... ومصيب اذ لا يـرى من مصيب
وسع الناس عدلـه ونـداه ... ففـدوه بألسـن وقلـوب

والمتأمل في مديح الشاعر يجده لا يخرج عن معاني المديح المألوفة المعروفة .. فهو كغيره من المادحين يشيد بعطاء الممدوح ونواله ، ويذكر عفته ورجولته واصالة نسبه .

ومذهب الشاعر الشيعي واضح في شعره ، فهو لا ينفك يصرح بأن الامام عليا هو الولي والوصي[٢٥] :

بأحمد اغلق باب الضلا ... ل وهدم اركانه فانهدم
فارحامه منه ادنى اليـ ... ـه وأولى به منهم بالرحم
عليهم لهم فضل قرباهم ... وذو السبق منهم أخ وابن عم
ولي وصي ومولاهم ... على رغم انف من قد رغم
أقام لنا الدين بعد الرسو ... ل ولو لم يقمه لنا لم يقم

ومع هذا الميل نحو العلويين فاننا نجد الشاعر يمدح العباسيين الى جانب مديحه للعلويين[٢٦] :

وامتدح اسرة الرسول تنل ... حظا من الفوز ان اردت امتداحا
آل عباسنا وآل علي ... وبني جعفر تلاق رباحا
فهم العم والأخ والصهر والط ... يار في جنة أعير جناحا
فيهم الوحي والنبوة والـ ... ـحكم ولا تخش في المقال جناحا

وبعد .. فمديحه للرسول وبني ارحامه كثير ، لا يبالغ فيه ولا يغالي فهو انما يمدحهم بما عرفوا به من نبوة وتقوى وصلاح ..

ورثاؤه لونان : رثاء الانسان ورثاء الحيوان .. وأشهر مراثيه في الامام الحسين واخيه احمد وولده محمد .. فله في رثاء الحسين (ع) قصيدة في خمسين بيتا تحدث فيها عن خروجه الى العراق ملبيا دعوة العراقيين الذين تخلوا عنه وخذلوه فهو يقول[٢٧] :

سلم على قبر الحسين وقل له ... صلى الاله عليك من قبر
وسقاك صوب الغاديات ولا ... زالت عليك روائح تسرى
كتبوا اليك وارسلوا رسلا ... تترى بما وعدوا من النصر
اعطوك بيعتهم وموثقهم ... بالله بين الركن والحجر

حتى اذا اصرخت دعوتهم طلبا لوجه الله والاجر
ختروا مواثقهم وعهدهم لا يرهبون عواقب الختر

وبعد ان يصب لعنته على بني أمية وبني سمية .. يعود فيتفجع على الحسين ومن قتل معه باكيا تملأ نفسه الحسرات فيقول :

ما تنقضي حسرات ذى ورع ودم الحسين على الثرى يجرى
ودماء اخوته وشيعته مستلحمين بشاطىء النهر
خذلوا وقل هناك ناصرهم واستعصموا بالله والصبر
فابك الحسين بمضمر قرح وابك الحسين بمدمع غزر
حق البكاء له وحق له حسن الثناء وطيب النشر

ويموت أخوه احمد فيرثيه رثاء صادقا ويبكيه بكاء حارا ، تظهر فيه معاناته وآلامه مقدمة حكميه تحدث فيها عن الدهر وما يصنعه بالاخوان. فلا يبقى عزيزا ولا يقبل عثرة مستقيل[٢٨] :

رماك الدهر بالخطب الجليل فعز النفس بالصبر الجميل.
عزاءك قد حدا بأخيك حاد وناداه المنادى بالرحيل.
ومالك بعد احمد من عزاء ومالك بعد أحمد من ذهول.
فكيف عزاء ذى قلب قريح من الفجعات والحزن الطويل.
أترجو سلوا وأخوك ثاو ببطن الأرض تحت ثرى مهيل.
ألا ابك أخاك بالدمع الهمول لعل الدمع يبرد من غليل.
ثمال للارامل واليتامى وللجار المجاور والدخيل.
حفي بالاقارب والادانى كفعل الوالد البر الوصول

وله في رثاء ابنه محمد قصائد[٢٩] تتميز بصدق المعاناة وعمق الالم ، وهو في كل مراثيه لا يخرج عن دائرة الراثين القدامى من حيث تعداد مناقب الميت والاشادة بكرمه وبكونه ربيع المعتفين والمعين لليتامى والأرامل ..

اما رثاؤه للحيوان والبهائم فقد استغرق كثيرا من شعره ، وجعل وكده فيه[٣٠] ، وهو في هذا الضرب من الرثاء اشعر من جميع المحدثين حتى انه لرأس فيه متقدم جميع من نحاه[٣١] . ولعل رثاء الحيوان لون من التجديد اصاب شعر الرثاء في عصر بني العباس . والقارىء في رثائه لهذه الحيوانات من عنز وهرة وطير يشعر بأن القاسم كان محبا لها متعلقا بها يصدق في رثائه لها . وقصائده في رثاء هذه الحيوانات طويلة .. اذ انه يطنب في وصفها وفي ذكر منافعها وفوائدها .. قال يرثي عنزة سوداء[٣٢]:

عين بكي لعنزنـا السـوداء ... كالعروس الأدماء يوم الجلاء
ذات لون كالعنبر الورد قد عـ ... ـلّ بما فاق لون الطلاء
ذات جيد ومقلتين كوحـ ... ـشية قفر من جاريات الظباء
بوركت حفرة تضمنت السو ... داء بل ضمنت من السوداء
كيف لي بالعزاء لا ، كيف عنها ... سلبتني السوداء حسن العزاء

ويبدو الشاعر في رثائه لعنزته وكأنه يرثي عظيما من العظماء أو علما من الاعلام اذ يقول :

واصبنا من السويداء ما يقـ ... ـصر عنه تعداد ذى الاحصاء
كنت غيثا حيا وكنت ربيعا ... لك طيب الثنا وحسن الثناء
لو فدى الحيّ ميتا لفدينا ... ك رخيصا ان كان أو بغلاء

ويكشف عن ألمه وفجيعته في رثائه لأحد طيوره[٣٣] :

أوحشت منك أبا سعـ ... ـد عراص وديار
فجعتنا بك أقدا ... ر لها فينا الخيار
قرحت بعدك أكبا ... د من الوجد حرار
وبكى يومك أهلو ... ن وجارات وجار
وسقى حفرتك الغيـ ... ـث وجادتها القطار

ويرثي هرة فيشير الى جميل صحبتها وعظيم نفعها فيقول[٣٤] :

ألا قل لمخة أو ماردة ... تعزّوا عن الهرة الصائدة
وكنا بصحبتها حامدين ... وكانت بصحبتنا حامدة
فمن لها عارض للردى ... فأمست بتربتها هامدة
واصبحت الفأر في دورنا ... أوامن صادرة واردة
لها قنص كاقتناص الفهو ... د واثبة فيه أو لابدة

ولاشك في ان رثاءه للحيوان مزيج من وصف طويل جميل ومن ضرب للحكمة التي لا يخلو منها رثاء .

وللقاسم في الزهد والحكمة شعر كثير ، وتدور معاني زهدياته حول الموت والانسان والمصير والقناعة وما الى ذلك مما الفناه في شعر أبي العتاهية واضرابه من شعراء الزهد . ويبدو ان الشاعر قال في الحكمة والاعتبار ما قال بعد ان خطا به العمر سن الشباب فهو يقول من قصيدة[٣٥] :

ودع شبابك قد علاك مشيب ... وكذاك كل معمر سيشيب
جازت سنوك الاربعين فازعجت ... بلبه الشباب تجارب وخطوب
ما هذه الدنيا بدار اقامة ... لا توطنن بها وأنت غريب
وغدا جزاء سعادة أو شقوة ... أفلا ينيب الى الرشاد منيب
والموت يغتال النفوس ولم يزل ... للموت راع للنفوس طلوب
ما نحن الا كالبهائم رتعا ... حتى يتاح لها الردى المجلوب

ويقول في قصيدة ثانية[٣٦] :

ويوم البعث يجمعهم ... لديه الواحد الصمد
وتقوى الله منجاة ... ووعد الحق ما يعد

ويتحدث عن مصير الانسان ووحدته في قبره فيقول[٣٧] :

يا ساكن الدور عن قليل ... تصير من ساكني القبور

يومك هـذا عـلى مهـــــاد ثم غـــدا راكب الســـــرير
منفـردا نازحـــا غريبـــا غـير معـــــود ولا مـــزور

وهو يدعو الى التقوى وعدم الانخداع بالدنيا فيقول[٣٨] :

حـذار من الأيام لا تأمننهـــا فتخـدعك الايـام وهي خوادع
يرجي الفتى والموت دون رجائه ويسرى له ساري الردى وهو هاجع
ترحل من الدنيا بزاد من التقى فانك مجزي بمـا أنت صانـع

وله في القناعة[٣٩] :

قنـــوع النفس يغنيهـــا وقـوت النفس يكفيهـــا
وان لـــم يرضهـا القـــوت فمـــا شـيء بمرضيهـــا
الا ايتهـــا النفـــس الـ ـتي المـــوت ملاقيهـــا
دعي الدنيـــا لمـــن نافـ ـس في الدنيـــا يقاسيها

ولعل الوضوح والطابع النثرى والجفاف ابرز ما يطغى من ميزات على هذا اللون من شعر الشاعر ، وقد نجد هذا اللون الزهدى في قصائد مستقلة خاصة وربما نجده في قصائد رثائه .

وشكا الشاعر كغيره من الشعراء الدهر وما يلحقه بالناس من اذى وظلم ، وأوضح ما نجد مظاهر هذه الشكوى في شعر الرثاء عنده ، وشكا القاسم كذلك الحشرات والحيوانات المؤذية الضارة كالنمل والفأر والبق والبراغيث والعصافير والحيات .. وهو حين يشكوها يصفها وصفا جيدا يتحدث فيه عن حركاتها وعما تصنعه بفريستها من بني الانســـان تقض مضجعه ، وتسهده .. وتسفك دمه ، قال يشكو البق والبراغيث[٤٠] :

قد منينـــا بهنـــات هـــن من شر الهنـات
نافـرات آمـــرات قلقـــات مقلقـات
سـافكات لـــدماء الـ ـناس منهـــا شاربات

معنا في الفرش والـ ـقمص علينا واثبات
تخضب الاصبع والـ ـثوب دما من دامیات
جارحات داخلات مسهرات ساهرات
طعنها أنفذ في الـ أبدان من طعن الكماة

ويشكو الفئران وما تحدثه من خراب في البيوت وأذى في النفوس فيقول[٤١] :

خراب الدور عامرها فواقمها وطائرها
لنا جارات سوء مؤ ذيات من يجاورها
حوارث غير زارعة اذا انتشرت عساكرها

وينتقل الى الحيات فيقول :

وفي الجارات حيات تساور من يساورها
كبسط الحبل بسطتها ودور الترس دائرها

والعصافير تنبش السقوف وتنثر الريش وتخرب ما تخرب :

فأما الطير ان وصفت فأخبثها عصافرها
كأن معاول الحدا د توعيها مناقرها
اذا قرعت بها سقفا تبوأ فيه واكرها
تجاورها خطاطيف تخالطها زرازرها
وتملأ دورنا ريشا ألا شلت عواشرها

والقاسم في وصفه لهذه الحيوانات والحشرات وصاف مجيد ، وصفها وهو يرقبها عن قرب ويعيش اذاها ويتحمل أوزارها ، ولعله في هذا اللون من الوصف والشكوى قد مهد الطريق لشعراء جاؤا بعده اكثروا من شكوى الحشرات المؤذية كالزعفراني[٤٢] والثعالبي[٤٣] والصابي[٤٤] من شعراء العصر البويهي .

وله في الغزل[٤٥] شعر ولكنه لا يدل على اصالة وصدق معاناة وانما هو أقرب الى أن يكون تقول شاعر ..

وتفخم عبارته وتعلو صيحته حين يتحدث عن نفسه بعزته وبعزوفه عن الطمع .. فهو يكتفي بالقليل موفرا ماء وجهه غير راض لنفسه ذل الطلب ومنّة اللئام[٤٦] :

| | |
|---|---|
| سأطلب بالاجمال ما أنا طالب | واني اذا ما ضاق رزق لقانع |
| ولم تدنني والحمد لله فاقة | الى طمع تدعو اليه المطامع |
| ولا ضرعت نفسي لشيء أناله | وبعض الرجال خاشع متضارع |
| أمصّ ثمادى والبحار غزيرة | لئلا يرى عندي لقوم صنائع |
| ولم يتعبدني اللئام بمنة | ولا أنا للشيء الذى فات تابع |
| واني لأستغني فما أبطر الغنى | وما المال الا عارة وودائع |
| أبى الله لي الا علوا ورفعة | وليس لما لم يرفع الله رافع |

والشاعر في بيته .. واني لأستغني .. ينحو منحى لبيد فى قوله[٤٧]:

| | |
|---|---|
| وما المال والاهلون الا ودائع | ولابد يوما ان ترد الودائع |

وقد مرينا شيء غير قليل من وصفه للحيوانات والحشرات في معرض مراثيه أو شكواه ، وكما أجاد في هذه الأوصاف فقد أجاد كذلك في وصفه للديار الخاليات والاطلال الدوارس ، كما في قوله[٤٨] :

| | |
|---|---|
| قفا صاحبيّ نحيّ الطلل | وربعا محيلا بجرع الرجل |
| ورسما لليلى بذات الطلوح | كسفر اليهودى أو كالخلل |
| اذا استنطقته الصبا والجنوب | تنوّح مرتجزا واستهل |
| يضيء سنا برقه ساطعا | كأنك أضرمت فيه الشعل |
| أيا ربع ليلى محاه البلى | واخنى عليه زمان جبل |
| وبدل بالأنس وحش الفلا | فبئس بديلا ونعم البدل |

ويقول في قصيدة أخرى[٤٩] :

ألم تسألا بجنـــوب الســـلا م فتستخبرا دار ميّ ألـــــم
بلى وأســـألا ان اجابتكمـــا وأنى لدارس رجـــع الكلـم
وكل شـــمالية هطلـــة اذا ما بكت خلتهـــا تبتسم
تـدر اذا ما مرتهـــا الجنـو ب لواقحهـا بـدموع ســجم
فقد كسـيت من ثياب البـــلى رسـوما تدوم عليهـــا الديـــم
كسحق البرود ووحي الزبـو ر رقشـــه كاتب بالقـــلم

وليس بعيدا ان يكون الشاعر قد تأثر في جانب من معانيه الوصفية المتقدمة بايحاءات من قول المرقش الاكبر في قصيدته التي أولها[٥٠] :

هل بالديار ان تجيب صمـــم لو كان رســـم ناطقا كلـــم

وبعد .. فلعل الناظر في شعر القاسم يجده يعنى بفنون البديع في غير تكلف ثقيل ، وابرز ما يعنى به الشاعر هو التناظر اللفظي في كثير من ابياته كمثل قوله يتشوق الى العراق[٥١] :

وشاقك من عجـل تعجل لوعة وما لك عن ذهل هناك ذهـول

وكقوله في بيته الذى تقدم .. فقد كسيت من ثياب البلى ...

وفي قوله يتحدث عن بني أمية[٥٢] :

هشموا بهاشـمة وحـاق بهـم ما قدموا من سيء المكـــــر

ومن مظاهر الصنعة اللفظية في شعره هذا السجع الداخل في بنـاء ابياته وهو ما يعرف بالترصيع ، من مثل قوله في الزهد[٥٣] :

رهن ضـريح لـدى صفيـــح كســـته ريـح ثياب مـــور
قـــرب مـــزار وبعـــد دار ولا تـــلاق الى النشـــــور

وقوله في رثاء ابنه[٥٤] :

بعيـــد دار غريـب جـــــار  قـد فـارق الالف والقرينـــا

وقوله في مديح الهاشميين[٥٥] :

سادة قادة حماة لدى الـــرو  ع اذا اصبح الحـمى مستباحا

والشاعر كثير الولع بالألوان وخاصة حين يصف الحيوان والطير ولعل هذه العناية بالألوان تزيد في وضوح الصورة الشعرية التي يريدهـا الشاعر كما في قوله يرثي طيرا[٥٦] :

كـأن في صورتـــه  لون بياض واصفـرار
كأن في المنقـار والـ  ساق اصفرار واحمرار

وقوله يرثي هرة[٥٧] :

ورقطاء تمشـي على بطنهـــا  وسوداء شـامذة عقـــده

وقوله في رثاء القمرى[٥٨] :

كأن عينيـــه ياقـــو  تتان حمـــــراوان
كأن رجليـه مصبـــو  غتـان من أرجوان
وأخضر اللون يحكي  لباس أهـل الجنـان

وقد يعمد الشاعر الى تقطيع الأبيات تقطيعا متساويا ليفضي عليها حلاوة موسيقية .. كما في قوله واصفا[٥٩] :

وأهـــل المناخ وأهـــل المراح  وأهـــل القباب وأهـل الخيم
وبيض الوجوه حراض العيـو  ن هضام الكشوح حسان اللمم
خماص البطون لطاف الحشـا  جذبن بجـــذل عنـــان الأدم
قصـار الخطـا عائفات الخنـا  كرام الثنـا طيبات النســـــم

ويميل القاسم احيانا الى تكرار العبارة في القصيدة الواحدة لتوكيد المعنى في النفس ، وكثيرا ما يقع هذا اللون من التكرار في الرثاء ليوحي

الشاعر بعظم المصيبة النازلة وفداحة الفجيعة التي اصابته ، نقرأ مثل هذا في رثائه لأخيه أحمد[٦٠] :

رماك الدهر بالخطب الجليل ... فعزّ النفس بالصبر الجميل
فان الدهر بالحدثان رهن ... وكل سالك قصد السبيل
وان الدهر طلاب دروك ... وسباق بأوتار الذحول
وان الدهر لا يبقي عزيزا ... ولا تنبو يداه من الذليل
فان الدهر لا عتبى عليه ... وليس يقيل عثرة مستقيل

ومثل هذا نجده في رثائه لأبنه محمد[٦١] :

أسفا عليك أبا على ... ي والمنايا رصّد
أسفا عليك أبا على ... ي يوم ضمك ملحد
أسفا عليك بحسرة ... بين الحشا تتوقد
أسفا عليك بحرقة ... وحرارة لا تبرد

هذا الذى تقدم يجيز لنا ان نقول : ان القاسم شاعر محسن ، جيد العبارة ، مليح الشعر[٦٢] . قال احدهم وقد ذكر شعر الكتاب : « اشعرهم عندى الذى مزحه أفصح وأحسن من جد الناس »[٦٣] وفيه يقول المرزباني : « شاعر حسن الأفتنان في القول »[٦٤] .

وقد قلنا في أول الحديث ان القاسم ناثر الى جانب كونه شاعرا ، فما حظه من النثر ؟ الواقع انه ليس بين ايدينا نصوص نثرية له تكفي لتمكين الباحث من ان يحكم حكما قاطعا في نثره الفني . يقول ابن النديم في الفهرست متحدثا عنه : « أخو احمد بن يوسف وكان شاعرا مترسلا وله كتاب رسائل »[٦٥] ولكن كتاب الرسائل هذا غير معروف ، ولكن قطعتين نثريتين ذكرهما الصولي تنبئان عن قلم نثرى جيد يصطنع السجع المزدوج في غير ثقل أو تكلف ، في اسلوب واضح سهل تميّز به نثر العصر

العباسي الأول .. كتب في القطعة الأولى يطلب الرضا لأحدهم[٦٦] :: « قد أحلك الله من الشرف في أعلى ذروته ، وبلغك من الفضل أبعد غايته ، فالآمال اليك عايله ، والاعناق نحوك مائلة ، واليك تنتهي الهمم السامية ، وعليك تقف الظنون الراجية ، لا يستريث نجحا من رجاك ، ولا تعروه النوائب في ذراك ، وفلان ممن قدمت بك حرمته ، وطالت لك خدمته ، ووجبت لك حقوق عليه ، وهي أوكد وسيلة ، وأقصد ذريعة ، وقد فرط جرم ما تعمده ، وخطأ جرى القضاء به ، وفي عتبك ما قوّمه ، وفي عفوك ما تلافي زلته ، ان شاء الله » .

وله قطعة أخرى كتبها الى صديق له ، وتتميز بالجمل القصار مع الاهتمام بالسجع طلبا للتنميق وبحثا عن الزخارف اللفظية ، قال القاسم[٦٧]:

«ظلمت ـ أعزك الله ـ وما أنصفت، وأسأت وما أحسنت، تأتي ذلك اختيارا، ولا تتبعه اعتذارا ، حتى اذا لدغت بلظى المكافأة ، وسلك بك طريق المجازاة ، جعلت ذلك لنا ذنبا ، والزمتنا له عتبا ، ومن لم يعرف قبيح ما يبلى ، لم يعرف حسن ما يولي ، ولله در القائل :

اذا ما امرؤ لم يحمل الحقد لم يكن
لديه لذي نعمى جزاء ولا شكر

فالقطعة تتميز بالعبارة الواضحة والبناء الجيد ، وهي تدل على ان الكاتب ربما يزوق نثره بشيء من الشعر على عادة الكثيرين من الكتاب .. والقطعتان بعد كل هذا تدلان على ان القاسم كاتب مجيد وبليغ .

وبعد .. فالقاسم بن يوسف واحد من الشعراء الكتاب الذين يجدر بنا أن نلم بهم وان نتناول آثارهم بالعناية والبحث .

**« مصادر البحث »**

(١) في الوزراء والكتاب للجهشياري ١٣١ ط . البابي الحلبي « بصيغة التصغير » وفي معجم الشعراء للمرزباني ٢١٦ ضبط بفتح الصاد .

(٢) الاوراق للصولى ( اخبار الشعراء ) نشر ج. هيورث دن ـ ١٤٤ .
ويرى بعضهم ان الذى اعتقه بحر بن العلاء العجلي ـ ١٤٣ ـ .
ويذكر ابو الفرج الاصفهانى فى اغانيه ٢٢/٥٦٥ ط. الثقافة فى
ترجمته لاحمد بن يوسف : « ان القاسم بن يوسف كان ينتمى الى
بني عجل ولم يكن أخوه أحمد يدعي ذلك » .
(٣) المصدر السابق ١٤٣ .
(٤) المصدر نفسه ١٤٤ .
(٥) المصدر نفسه ١٤٥ـ١٤٦ ، وزهر الآداب للحصرى ٤٤٧ ط. البابي
الحلبي .
(٦) الوزراء والكتاب للجهشيارى ١٣١ . ومعجم الشعراء للمرزباني
٥٠٤ .
(٧) اخبار الشعراء ، الصولي ١٥٠ .
(٨) المصدر السابق ١٥٤ .
(٩) كذلك ١٥٦ .
(١٠) معجم الشعراء ٥٠٥ .
(١١) اخبار الشعراء ١٦١ .
(١٢) معجم الشعراء ٥٠٤ .
(١٣) معجم المرزباني ٢١٦ .
(١٤) اخبار الشعراء ١٦٣ .
(١٥) اخبار الشعراء ٢٣٦ .
(١٦) اخبار الشعراء ١٨٨ .
(١٧) كذلك ٢٠٦ .
(١٨) كذلك ١٩٠ .
(١٩) كذلك ١٦٤ .
(٢٠) كذلك ١٩١ .
(٢١) كذلك ١٦٧ .
(٢٢) كذلك ١٨٠ .
(٢٣) كذلك ٢٠٥ .
(٢٤) كذلك ١٩٧ .
(٢٥) كذلك ١٩٢ .
(٢٦) كذلك ٢٠٠ .
(٢٧) كذلك ١٨١ .
(٢٨) كذلك ١٨٥ .
(٢٩) كذلك ٢٠٣ـ٢٠٤ .
(٣٠) الاغاني ٢٢/٥٦٥ ط. الثقافة .
(٣١) اخبار الشعراء ١٦٤ .

(٣٢) كذلك ١٦٤ ٠
(٣٣) كذلك ١٧٦ ٠
(٣٤) كذلك ١٧٢ ٠
(٣٥) كذلك ١٦٨ ٠
(٣٦) كذلك ١٧٤ ٠
(٣٧) كذلك ١٧٩ ٠
(٣٨) كذلك ١٨٥ ٠
(٣٩) كذلك ٢٠١ ٠
(٤٠) كذلك ١٧١ ٠
(٤١) كذلك ١٧٥ ٠
(٤٢) يتيمة الدهر ، الثعالبي ٣/٣٥٤ط٠ السعادة ٠
(٤٣) خاص الخاص للثعالبي ٢٣٦ ط٠ مكتبة الحياة ، بيروت ٠
(٤٤) اليتيمة ٢/٢٦٨ ٠
(٤٥) اخبار الشعراء ١٧٣ ٠
(٤٦) كذلك ١٨٤ ٠
(٤٧) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٩٨ ط٠ دار الثقافة ٠
(٤٨) الشعر والشعراء ١٨٧ ٠
(٤٩) كذلك ١٩١ ٠
(٥٠) المفضليات للضبي ٢٣٧ ط٠ دار المعارف ٠
(٥١) اخبار الشعراء ١٩٠ ٠
(٥٢) كذلك ١٨٢ ٠
(٥٣) كذلك ١٧٩ ٠
(٥٤) كذلك ٢٠٣ ٠
(٥٥) كذلك ٢٠٠ ٠
(٥٦) كذلك ١٧٨ ٠
(٥٧) كذلك ١٧٢ ٠
(٥٨) كذلك ١٩٤ ٠
(٥٩) كذلك ١٩١ ٠
(٦٠) كذلك ١٨٥ ٠
(٦١) كذلك ٢٠٤ ٠
(٦٢) الاغاني ٢٢/٥٦٥ ٠
(٦٣) اخبار الشعراء ١٦٦ ٠
(٦٤) معجم الشعراء ٠ المرزباني ٢١٦ ٠
(٦٥) الفهرست ٠ ابن النديم ١٨٤ ط٠ الاستقامة ٠
(٦٦) اخبار الشعراء ١٩٧ ٠
(٦٧) كذلك ٢٠٦ ٠

# الترجيح والتوفيق بين نصوص القرآن

**الدكتور محسن عبدالحميد**
المدرس في قسم الدين

من المعلوم في الاسلام بالضرورة أن القرآن كتاب الله المنزل على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم • فاذا كان الامر كذلك ، فمن المحال عقلا أن يوجد تعارض حقيقي بين آياته لصدورها من مصدر واحد ، وهو الله العليم الحكيم سبحانه •

على أننا اذا قرأنا القرآن ، نرى أن ظواهر بعض الآيات تبدو وكأنها متعارضة ، ولكن سرعان ما تظهر الحقيقة اذا ما تعمقنا في الفهم ، واطلعنا على حقائق الالفاظ ومجازاتها ، ومدلولات التراكيب ، وانماط الاساليب ، واذا خطونا في الدراسة خطوات أوسع فدرسنا القواعد الاصولية ، وجدنا القرآن كالكلمة الواحدة ، وعند ذلك ظهر لنا جليا زيف طعن أعداء الله من الملاحدة ، وانهارت شبهاتهم ، وتمزقت سرابيلهم التي كانوا ـ ومازالوا ـ يتسربلون بها ، من أجل القضاء على الاسلام واطفاء نوره •

ولكن قد يتساءل المرء فيقول : ترى لم تتعارض ظواهر بعض النصوص ؟ يجيبنا الزركشي في البحر فيقول ( اعلم أن الله لم ينصب على جميع الاحكام الشرعية أدلة قاطعة ، بل جعلها ظنية ، قصدا للتوسيع على المكلفين • لئلا ينحصروا في مذهب واحد لقيام الدليل القاطع عليه • واذا ثبت أن المعتبر في الاحكام الشرعية الادلة الظنية ، فقد تتعارض في الظاهر بحسب جلائها وخفائها ، فوجب الترجيح بينها ، والعمل بالاقوى )[1] •

---

(١) الشوكاني • ارشاد الفحول ص٢٧٣ •

ولابد لنا قبل الدخول في الموضوع من تحديد المصطلحات التي نستعملها في هذا البحث ، فالنص اسم مشترك يطلق عند العلماء على ثلاثة أوجه ( الاول ) وهو الاشهر ما لا يتطرق اليه احتمال أصلا كقوله تعالى ( تلك عشرة كاملة ) فانه نص في معناه لا يحتمل غيره • فكل ما كانت دلالته على معناه في هذه الدرجة ، سمى بالاضافة الى معناه نصا في طرفي الاثبات والنفي ، فعلى هذا حده اللفظ الذى يفهم على القطع معنى ، فهو بالاضافة الى معناه المقطوع به نص ( الثاني ) ما أطلقه الشافعي رحمه الله ، فانه سمى الظاهر نصا ،وهو منطبق على اللغة ، تقول العرب : نصت الظبية رأسها اذا رفعته واظهرته ، ولا مانع منه في الشرع • فعلى هذا حده الظهر وهو اللفظ الذى يغلب على الظن فهم معناه منه من غير قطع ، فهو بالاضافة الى ذلك المعنى الغالب ظاهر ونص ( الثالث ) التعبير بالنص عما لا يتطرق اليه احتمال مقبول يعضده دليل • أما الاحتمال الذى لا يعضده دليل ، فلا يخرج اللفظ عن كونه نصا[٢] • ويرجح ابن قدامة الاول دفعا للترادف والاشتراك بين الالفاظ ، فانه خلاف الأصل[٣] •

والتعارض تقابل النصين أو الدليلين على سبيل الممانعة[٤] • أي أن يقتضى كل من الدليلين عدم ما يقتضيه الآخر[٥] • والترجيح في جعل الشيء راجحا أي فاضلا زائدا ، ويطلق مجازا على اعتقاد الرجحان • وفي الاصطلاح بيان الرجحان أي القوة التي لأحد المتعارضين على الآخر[٦] •

وللجمهور أدلة قوية على جواز الترجيح ، نقلها الرازي في كتابه

---

(٢) الغزالى • المستصفى ١/١٥٧ •
(٣) روضة الناظر وجنة المناظر ص٩١ ، ٩٢ •
(٤) التفتازاني : التلويح والتوضيح ٢/٦١٢ •
(٥) الخضرى : أصول الفقه ص٣٩٤ •
(٦) التلويح والتوضيح ٢/٦١٢ • ارشاد الفحول ص٢٧٣ •

المحصول ( أولها ) اجماع الصحابة على العمل بالترجيح ( وثانيها ) أن الظنين اذا تعارضا ثم ترجح أحدهما على الآخر ، كان العمل بالراجح متعينا عرفا ، فيجب شرعا لورود أحاديث تأمر بلزوم الجماعة وذم من خرج عنها ، ولزوم السواد الاعظم ( وثالثها ) أنه لو لم يعمل بالراجح لزم العمل بالمرجوح على الراجح ، وترجيح المرجوح على الراجح ممتنع في بداهة العقل[٧] .

وذهب جمهور العلماء الى أنه لا يمكن التعارض بين نصين قاطعين الا بأن يكون أحدهما ناسخا[٨] . ولا يوجد دليلان أجمع المسلمون على تعارضهما بحيث وجب عليهم الوقوف[٩] ، فلابد أن يكون أحدهما أرجح من الآخر في نفس الامر وان جاز خفاؤه على بعض المجتهدين ، فلا يجوز تعارضهما في نفس الامر من كل وجه ، وعند البحث لابد أن تجد له جهة الخصوص والعموم والاجمال والتفسير[١٠] ، والظاهر أن بعض الاصوليين ثبت عندهم هذا عن طريق الاستقراء ، ولأجله جزم الشاطبي بعدم وقوع هذا النوع من التعارض واستدل عليه بأدلة كثيرة نجملها فيما يلي (الاول) قوله تعالى « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » وقوله تعالى « وان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول » وقوله تعالى « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات » وقوله تعالى « وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه » وقوله تعالى « ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق » . فهذه الآيات بمجموعها تدل على أن القرآن لا اختلاف فيه ، وأنه يرفع التنازع ولا يرتفع الا بالرجوع الى شيء واحد وطريق

---

(٧) ارشاد الفحول ص٢٧٣ ، ٢٧٤ .
(٨) المستصفى ٢/١٢٦ . الآمدي : الاحكام ٣/١٧٥ .
(٩) الشاطبي ، الموافقات ٤/٢٩٤ .
(١٠) ارشاد الفحول ص٢٧٥ .

واحد[١١] . ( الثاني ) وجود الناسخ والمنسوخ في القرآن ، فهو دليل على أن الباقي لا يمكن أن يتعارض ، اذ لو حدث تعارض لم يبق للنسخ فائدة . ( الثالث ) ان كان هنالك تعارض لأدى ذلك الى تكليف ما لا يطاق . ( الرابع ) أن الاصوليين متفقون على اثبات الترجيح بين الادلة المتعارضة ، وقولهم بلزوم الترجيح يتنافى مع كون الاختلاف في الدين والا لصح اعمال أحد الدليلين المتعارضين جزافا ، وهذا باطل بالاتفاق[١٢] .

ويمكن أن نضيف أنه لو كان هنالك تعارض لحدث تناقض ، ومن المعلوم أن أحد طرفي التناقض لابد أن يكون صدقا والآخر كذبا . ومعاذ الله أن يكون ذلك في كتاب الله .

قال الغزالي ( وكما لا يجوز التعارض والترجيح بين نصين قاطعين ، فكذلك في علتين قاطعتين ، فلا يجوز أن ينصب الله علة قاطعة للتحريم في موضع وعلة قاطعة للتحليل في موضع آخر )[١٣] .

أما اذا كان أحد المتعارضين قطعيا والآخر ظنيا ، فلا يكون التناقض ، لان الظني ينتفي أمام القطعي .

وأما اذا تعارض نصان ظنيان ، رجحنا بينهما ، ولابد أن يكون هناك مرجح لاحدهما على الآخر في نفس الامر[١٤] ، ولأنه يؤدي الى وقوع الشبهة وهو منفر عن الطاعة[١٥] . واذا توهم شيء من هذا النوع أي اذا تعادل النصان من غير وجود دليل آخر ، فقد ذهب بعض المعتزلة والباقلاني الى أن المجتهد مخير في ذلك ، وذهب آخرون الى انهما يتساقطان ويطلب

---

(١١) الموافقات : ٤/١١٩ـ١٢٠ .
(١٢) الموافقات ٤/١٢٢ . الآمدي : الاحكام ٣/١٧٥ .
(١٣) المستصفى ٢/١٢٧ .
(١٤) السبكي : جمع الجوامع ٢/٣٥٩ . ارشاد الفحول ٣٧٥ .
(١٥) روضة الناظر وجنة المناظر ص١٣١ .

الحكم من موضع آخر أو يرجع المجتهد الى عموم أو الى البراءة الاصلية • وحكى عن بعضهم التوقف • وقيل يأخذ بالاغلظ • وقيل يصير الى التوزيع ان امكن تنزيل كل أمارة على أمر[١٦] •

قال الغزالى ( اذا تعارض الدليلان فأما أن يستحيل الجمع أو يمكن ، فان امتنع الجمع لكونها متناقضين كقوله مثلا لا يصح نكاح بغير ولى ويصح نكاح بغير ولى ، فمثل هذا لابد أن يكون احدهما ناسخا والآخر منسوخا ، فأن اشكل التاريخ فيطلب الحكم من دليل آخر ، ويقدر تدافع النصين • فان عجزنا عن دليل آخر ، فنتخير العمل بأيهما شئنا ، لان الممكنات اربعة : العمل بها وهو متناقض أو اطراحهما وهو اخلاء الواقعة عن الحكم وهو متناقض ، أو استعمال واحد بغير مرجح وهو تحكم • فلا يبقى الا التخيير الذى يجوز ورود التعبد به ابتداءا )[١٧] •

ويقول ابن قدامة في سبب جواز تعارض العموم بلا مرجح أنه يكون مبينا للعصر الاول ، وانما خفى علينا لطول المدة واندراس القرائن والأدلة ، ويكون ذلك محنة ، تكليفا علينا لنطلب دليلا آخر ، ولا تكليف في حقنا الا بما بلغنا ، وأما التنفير فباطل ، فقد نفر طائفة من الكفار من النسخ ثم لم يدل ذلك على استحالته[١٨] •

وأما اذا تعارض النصان وأمكن العمل بهما ، فلا يرجح أحدهما على الآخر ، لان اعمال النصين أولى[١٩] • قال الرازي في المحصول ( العمل بكل منهما من وجه أولى من العمل بالراجح من كل وجه وترك الآخر ) قال الشوكاني : وبه قال الفقهاء جميعا[٢٠] •

---

(١٦) روضة الناظر ص٢٠٠ • ارشاد الفحول ص٢٧٥ •
(١٧) المستصفى ٢/٣٢ •
(١٨) روضة الناظر ص١٣١ •
(١٩) جمع الجوامع ٢/٣٥٧ •
(٢٠) ارشاد الفحول ص٢٧٦ •

وذهب ابن حزم الى اعمال النصين المتعارضين مطلقا ، لانه ليس بعض ذلك أولى بالاستعمال من بعض ، وليست هنالك آية أولى بالطاعة لها من آية أخرى مثلها وكل من عند الله عز وجل ، وكل سواء في باب الطاعة والاستعمال ولا فرق . ومن أجل توضيح رأيه ، يضرب امثلة كثيرة . فقوله تعالى ( وانكحوا الايامى منكم ) ليس فيه ما يرد قوله تعالى ( والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك ) كما ليس فيها اباحة نكاح الاخت والبنت المحرمتين وان كانتا من الايامى ، ولكن احدى الآيتين مضمومة الى الاخرى ، فتنكح الايامى ما لم يكنّ زوانى ، من أنه يبعد عنده في اللغة وقوع اسم أيم على الزانية ، فالواجب استعمال الآيتين معا ، لان استثناء بعضها من بعض ممكن[٢١] ولا يجوز لابن حزم أن يقال بأن شيئا من النصوص قبل شيء ، ولا أن شيئا منها بعد شيء ، وسواء نزل بعضها قبل بعض ، أو نزلت معا لا فرق عندنا بين شيء من ذلك ، وليس شيء مما نزل بعد رافعا لشيء نزل قبل الا بنص جلي في انه رافع له أو اجماع على ذلك ، والا فهو مضاف اليه ، معمول به ضرورة لابد من ذلك[٢٢] .

يقول ابو زهرة ( ان مسلك ابن حزم هذا هو مسلك ظاهرى أساسه احترام النصوص ، وعدم الترجيح بينها بأى وجه من وجوه القياس أو اسقاط بعضها[٢٣] .

ومن الجدير بالذكر هنا أن من يقرأ باب الترجيح في كتابه (الاحكام) يجد قوة كلام ابن حزم ، ومقدار توفيقه في اسناد رأيه ، بدفع التعارض والترجيح بين الآيات ذات الموضوع الواحد .

وبعد عرضنا لأسس الموضوع نأتي الى استعراض أهم القواعد

---

(٢١) الاحكام فى أصول الاحكام ٣/٣٦٤ .
(٢٢) المصدر السابق ٣/٣٧٦ .
(٢٣) ابن حزم ص٣/٣٢٦ .

التفصيلية التى وضعها الاصوليون والمفسرون للتوفيق بين الآيات أو دفع التعارض الظاهرى فمنها : تقديم المكى على المدنى عند التصنيف ، وان كان يجوز أن تكون المكية نزلت عليه صلى الله عليه وسلم ، بعد عوده الى مكة والمدنية قبلها ، فيقدم الحكم بالآية المدنية على المكية في التخصيص والتقديم، اذ كان غالب الآيات المكية نزولها قبل الهجرة .

ومنها : أن يكون أحد الحكمين على غالب احوال أهل مكة والآخر على غالب احوال المدينة ، فيقدم الحكم بالخبر الذى فيه أحوال أهل المدينة كقوله تعالى ( ومن دخله كان آمنا ) مع قوله ( كتب عليكم القصاص في القتلى ) فاذا امكن بناء كل واحدة من الآيتين على البدل جعل التخصيص في قوله تعالى ( ومن دخله كان آمنا ) كأنه قال الا من وجب عليه القصاص.

ومنها : أن يكون أحد الظاهرين مستقلا بحكمه والآخر مقتضيا لفظا يزاد عليه فيقدم المستقل بنفسه عند المعارضة والترتيب ، كقوله تعالى (وأتموا الحج والعمرة لله) مع قوله (فان احصرتم فما استيسر من الهدى) وقد اجمعت الأمة على أن الهدى لا يجب بنفس الحصر ، وليس فيه صريح الاحلال بما يكون سببا ،فيقدم المنع من الاحلال عند المرض بقوله ( وأتموا الحج والعمرة لله ) على ما عارضه من الآية .

ومنها : أن يكون كل واحد من العمومين محمولا على ما قصد به في الظاهر عند الاجتهاد فيقدم ذلك على تخصيص كل واحد منهما من المقصود بالآخر كقوله ( وان تجمعوا بين الاختين ) بقوله ( وما ملكت ايمانكم ) فيخص الجمع بملك اليمين بقوله تعالى ( وأن تجمعوا بين الاختين الا ما قد سلف ) فتحمل آية الجمع على العموم والقصد فيها بيان ما يحل وما يحرم، وتحمل آية الاباحة على زوال اللوم فيمن أتى بحال .

ومنها : أن يكون تخصيص أحد الاستعمالين على لفظ تعلق بمعناه

والآخر بأسمه كقوله ( شهادة بينكم اذا حضر احدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم ) مع قوله تعالى ( ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ) الآية ، فيمكن أن يقال في الآية بالتبين عند شهادة الفاسق ، اذ كان ذلك من كافر على مسلم أو فاسق على كافر ، وأن يقبل الكافر على الكافر وان كان فاسقا ، أو يحمل الظاهر في قوله ( أو آخران من غيركم ) على القبيلة دون الملة ، ويحمل الامر بالتثبت على عموم النسيان في الملة ، لانه رجوع الى تعيين اللفظ وتخصيص الغير بالقبيلة ، لانه رجوع الى الاسم على عموم الغير .

ومنها : ترجيح ما يعلم بالخطاب ضرورة على ما يعلم منه ظاهرا ، كتقديم قوله تعالى ( وأحل الله البيع ) على قوله ( وذروا البيع ) فان قوله ( وأحل ) يدل على حل البيع ضرورة ودلالة النهى على فساد البيع اما ألا تكون ظاهرة أصلا أو تكون منحطة عن النص[٢٤] .

ومنها تقديم العام الذى لم يخصص على العام الذى قد خصص ، وعللوا ذلك بأن دخول التخصيص يضعف اللفظ ويصير به مجازا . قال الفخر الرازي : لان الذي قد خصص قد أزيل عن تمام مسماه .

ومنها أن يقدم العام الذى لم يرد على سبب على العام الوارد على سبب ، قالوا لان الوارد على غير سبب متفق على عمومه ، والوارد على سبب مختلف في عمومه[٢٥] .

وهناك طرق أخرى كثيرة للترجيح كتقديم الحقيقة على المجاز لتبادرها الى الذهن ، وتقديم المجاز الاشبه بالحقيقة على ما لم يكن كذلك ، وتقديم ما كانت حقيقة شرعية على ما كان حقيقة لغوية ، وتقديم ما كان

---

(٢٤) الزركشى : البرهان فى علوم القرآن ٢/٤٩ ، ٥٠ . راجع : المستصفى ٢/٣٤ وارشاد الفحول ص٢٨٠ وروضة الناظر ص٢٠٠ .
(٢٥) ارشاد الفحول ص٢٧٨ .

مستغنيا عن الاضمار في دلالته على ما هو مفتقر اليه ، وتقديم الدال المراد من وجهين على الدال المراد من وجه واحد ، وتقديم ما دل على المراد بغير واسطة على ما دل عليه بواسطة ، وتقديم ما كان فيه الايماء الى علة الحكم على ما لم يكن كذلك ، لان دلالة المعلل أوضح من دلالة ما لم يكن معللا وتقديم ما ذكرت فيه العلة متقدمة على ما ذكرت فيه العلة متأخرة[٢٦] .

وأما التوفيق بين الآيات واستعمال كل آية في محلها الخاص فله نماذج كثيرة ، منها : الجمع بين كليين اذا كان له اعتباران في الحقيقة ، مثال ذلك ان الله تعالى وصف الدنيا بوصفين ظاهرهما التضاد ، حيث ذمها في وصف ودعا الى عدم الالتفات اليها وترك اعتبارها ، وفي وصف آخر مدحها ودعا الى الالتفات اليها وأخذ ما فيها لانه شيء عظيم مهدى من ملك عظيم . فمثال الوصف الاول قوله تعالى ( انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم ) وقوله ( وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور ) وقوله ( وما الحياة الدنيا الا لهو ولعب ، وان الآخرة لهي الحيوان ) الى آيات كثيرة ومثال الوصف الثاني : قوله تعالى ( ولا تنس نصيبك من الدنيا ) والآيات الدالة على ان الله خلق للناس الدنيا ، وأنعم ما فيها عليهم كقوله تعالى ( الله الذى خلق السموات والارض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم الى قوله تعالى ( وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ) الى غيرها من الآيات . فالآيات الاولى تتحدث عن الدنيا باعتبارها فقط منبعا للشهوات ، وطريقا الى اللذات وحشرا مع البهائم ، فهى من هذه الجهة قشر بلا لب ، وباطل بلا حق . وهذه وجهة الكفار الذين لم يبصروا منها الا هذه الجوانب ، وأما الآيات الثانية فباعتبار أنها ملأى بالمعارف والحكم والنعم الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى والتي توجب العبودية والشكر ، وهذه وجهة

---

(٢٦) المصدر السابق ٢٧٨ وما بعدها .

المؤمنين • فالدنيا من الوجهة الاولى مذمومة ومن الوجهة الثانية محمودة ، فذمها باطلاق لا يستقيم ومدحها باطلاق لا يستقيم • قال الشاطبي : فتأمل في هذا الفصل ، فان فيه رفع شبه كثيرة ترد على الناظر في الشريعة وفي أحوال أهلها ، وفيه رفع مغلط تعترض للسالكين لطريق الآخرة • فيفهمون الزهد وترك الدنيا على غير وجهة ، كما يفهمون طلبها من غير وجهة ، فيمدحون ما لا يمدح شرعا ، ويذمون ما لا يزم شرعا[٢٧] •

ومنها استثناء الاقل معانى من الاكثر معانى مثل قوله تعالى ( ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ) مع اباحته المحصنات من نساء أهل الكتاب بالزواج فكن بذلك مستثنيات من جملة المشركات وبقى سائر المشركات على التحريم •

قال ابن حزم ( ولا نبالى في هذا الوجه سواء كنا نعلم أي النصين ورد أولا أو لم نعلم ذلك ، وسواء كان الاكثر معانى ورد أولا أو ورد أخيرا ، كل ذلك سواء ، ولا يترك واحد منهما للآخر ، ولكن يستعملان معا )[٢٨] •

ومنها قوله تعالى ( ان طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ، ومتعوهن على الموسع قدره ) وقوله تعالى ( وللمطلقات متاع بالمعروف ) فالآية الاولى بعض هذه وداخلة في جملها[٢٩] •

ومنها أن يكون أحد النصين فيه أمر بعمل ما ، معلق بكيفية ما أو بزمان ما أو على شخص ما أو في مكان ما أو عدد ما ، ويكون في النص الآخر نهى عن عمل ما بكيفية ما أو زمان ما أو مكان ما ، أو عدد ما أو عذر ما ، ويكون في كل واحد من العلمين المذكورين اللذين أمر بأحدهما ، ونهى

---

(٢٧) الموافقات ٤/٣٠٤ـ٣١٠ •
(٢٨) الاحكام فى اصول الاحكام ٢/١٥٢ •
(٢٩) الاحكام فى اصول الاحكام ٢/١٥٣ •

عن الآخر شيء يمكن أن يستثنى من الآخر ، وذلك بأن يكون على ما وصفنا في كل نص من النصين المذكورين فصاعدا ، فيكون بعض ما ذكر في أحد النصين عاما لبعض ما ذكر في النص الآخر ولا شيئا آخر معه ، ويكون الحكم الذى في النص الثاني عاما ايضا لبعض ما ذكر في هذا النص الآخر ولا شيئا آخر معه . فمن ذلك قوله تعالى ( يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى انعمت عليكم وانى فضلتكم على العالمين ) مع قوله تعالى ( كنتم خير أمة اخرجت للناس ) فليس أحد النصين أولى بالاستثناء من الآخر الا بنص أو اجماع ، لانه جائز أن يقول قائل : معناه كنتم خير أمة للناس الا بنى اسرائيل ، الذين فضلهم الله على العالمين . وجائز أن يقول قائل : معناه انى فضلتكم على العالمين الا أمة محمد صلى الله عليه وسلم الذين هم خير أمة أخرجت للناس ، فلابد من ترجيح أحد الاستثناءين على الآخر ببرهان آخر والا فليس أحدهما أولى من الثاني .

قال ابن حزم : فوجدنا قوله تعالى ( وانى فضلتكم على العالمين ) قد قام البرهان على أنه ليس على عمومه ، لان للملائكة افضل بيقين فوقفنا على هذا ثم نظرنا قوله تعالى ( كنتم خير أمة أخرجت للناس ) لم يأت نص ولا اجماع بأنه ليس على ظاهره لان الملائكة يدخلون فى العالمين ، وقد خرج من عموم ذلك الجن بالنصوص في ذلك ولا يدخلون في الامم المخرجة للناس . فلما كان هذا النص ، لم يأت نص آخر ولا اجماع بأنه ليس على عمومه ، لم يجز لاحد أن يخصه ، فاذا لم يجز تخصيصه فالفرض الحمل له على عمومه ، فان ذلك فرض ، ولابد من أن نخص أحد ذينك النصين من الآخر ، ولم يجز تخصيص هذا ، فقد وجب تخصيص الآخر ولابد . اذ لابد من تخصيص أحدهما . وهذا برهان ضرورى صحيح[٣٠] .

---

(٣٠) الاحكام فى اصول الاحكام ١٥٨/٢ .

هذه نماذج واضحة تكفى ـ فيما اعتقد ـ لفهم طبيعة القواعد العلمية الرصينة التي وضعها علماؤنا المحققون ـ رحمهم الله تعالى ـ والتى عن طريقها اثبتوا اثباتا موضوعيا أن القرآن العظيم كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من عليم حكيم ،لا تعارض فيه ولا تناقض • فآياتها يأخذ بعضها برقاب بعض في تنسيق رائع ، واضعة أمام البشرية فطرتها ، وقواعد حياتها الكلية ، ومقدمة الاسس الصحيحة للتفكير والانطلاق نحو البناء والتعمير واقامة الحضارة ، وأداء أمانة الخلافة على الأرض •

## مصادر البحث


(١) الغزالى :ا لمستصفى من علم الاصول • الاولى ـ القاهرة ١٣٥٦هـ ـ ١٩٣٩م •

(٢) الآمدى : الاحكام في اصول الاحكام • الحلبي ـ القاهرة ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م •

(٣) ابن حزم : الاحكام في أصول الاحكام • الامام ـ القاهرة •

(٤) السبكي : جمع الجوامع ـ دار احياء الكتب العربية ـ القاهرة •

(٥) الشاطبي : الموافقات ـ الاولى ـ المكتبة التجارية ـ القاهرة •

(٦) ابن قدامة : روضة الناظر وجنة المناظر ـ الاولى ـ السلفية ـ القاهرة ـ ١٣٨٥هـ •

(٧) التفتازانى : التلويح والتوضيح ـ طبعة اسطنبول ١٢١٠هـ •

(٨) الزركشى : البرهان في علوم القرآن • الاولى ـ الحلبي ـ القاهرة ـ ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٧م •

(٩) الشوكاني : ارشاد الفحول ، الاولى ـ الحلبي ـ ١٣٥٦هـ ـ ١٩٣٧م•

(١٠) الخضرى : أصول الفقه • الخامسة ـ ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥م •

(١١) محمد ابو زهرة : ابن حزم • الاولى ـ القاهرة •

# إقامة الدليل

## على صحة التمثيل وفساد التأويل

### لابن هشام الأنصاري

**تحقيق وتعليق**
**هاشم طه شلاش**
**المدرس في قسم اللغة العربية**

**مقدمة**

**بسم الله الرحمن الرحيم**

**احمده وأستعينه**

وبعد فقد وفقت للعثور على نسخة مخطوطة من الرسالة الموسومة بـ ( اقامة الدليل على صحة التمثيل وفساد التأويل ) لجمال الدين بن هشام الانصاري رحمه الله وهي رسالة صرفية جديرة بالنشر لاهميتها العلمية التي تتمثل في جملة أمور :

أولها : أنها لا أخت لها في المكتبات المفهرسة في العالم .

وثانيها : أنها كتبت في حياة المصنف وقرئت عليه .

وثالثها : انها تمثل مرحلة النضج الاخيرة في حياة ابن هشام حيث أملاها في أواخر أيامه .

ولقد اجتهدت في ضبط النص على اكمل وجه ومراجعة ما يقتضي التحقيق مراجعته واثبات ما وجدته نافعا في الهامش ولم أدخر وسعا في كل ذلك ، فان وفقت في عملي فمن الله وله الحمد وان تكن الاخرى فحسبي أني بذلت الوسع في ذلك ، وحسبي أن اخراج الرسالة على ما هي عليه الآن هو غاية ما أستطيع والحمد لله في الاولى والآخرة .

**المحقق**

**ترجمة ابن هشام :**

ان اكثر المعلومات التي بين أيدينا عن حياة ابن هشام منقولة عن كتاب الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لشيخ الاسلام الحافظ شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢هـ ، لـذا كان أكثر المترجمين الذين ترجموا لابن هشام عالة عليه في ذلك نذكر منهم على سبيل التمثيل :

١ ـ السيوطي في كتابيه «حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة» ، و «بغية الوعاة»[١] ، فقد نقل ما ذكره عن ابن هشام من الدرر الكامنة لابن حجر .

٢ محمد بن علي الشوكاني المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ صاحب كتاب « البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع »[٢] . فقد نقل ترجمته عن ابن حجر صاحب الدرر الكامنة ، ولكنه أضاف تبريرا للانحراف الذى أظهره ابن هشام تجاه استاذه أبي حيان .

٣ ـ الخوانساري في « روضات الجنات »[٣] ينقل ترجمته عن ابن حجر وعن السيوطي في البغية علما أن السيوطى ينقل ترجمته عن ابن حجر أيضا ولكن الخونساري يضيف أسماء الذين اشتهروا باسم ابن هشام والذين لهم مصنفات باسم المغني الا ان ابن هشام وكتابه المغني قد طغيا على الجميع .

٤ ـ جرجي زيدان في كتابه « آداب اللغة العربية »[٤] فقد نقل مادة ترجمته من حسن المحاضرة للسيوطي والدرر الكامنة لابن حجر .

---

(١) انظر حسن المحاضرة ١ : ٣٠٩ وبغية الوعاة ص٢٩٣ ـ ٢٩٤ .
(٢) انظر البدر الطالع ١ : ٤٠٠ ـ ٤٠٢ .
(٣) انظر ص٤٥٥ ـ ٤٥٧ .
(٤) انظر ٣ : ١٤٣

٥ ـ الزركلي في كتابه « الاعلام »[٥] فانه ينقل مادة ترجمته لابن هشام عن ابن حجر •

٦ ـ محيي‌الدين عبدالحميد في جميع ترجماته التي وضعها في مقدمات كتب ابن هشام التى نشرها له[٦] ، فقد نقل هذه الترجمات عن الدرر الكامنة • والغريب ان محيي‌الدين عبدالحميد لم يذكر لابن هشام « رسالته اقامة الدليل » في حين ان ابن حجر ذكر هذه الرسالة ضمن مؤلفات ابن هشام ، ولعل محيي‌الدين عبدالحميد شك في نسبة هذه الرسالة لابن هشام لان اكثر المترجمين لم يذكروها ضمن مؤلفاته • والملاحظ ايضا ان بروكلمان لم يشر الى هذه الرسالة في كتابه تاريخ الادب العربي •

**حياة المصنف :**[٧]

هو عبدالله بن يوسف بن عبدالله بن يوسف بن أحمد بن عبدالله ابن هشام الانصارى جمال‌الدين ابو محمد النحوى الفاضل المشهور •

ولد في ذى القعدة سنة ٧٠٨هـ ولزم الشيخ شهاب‌الدين عبداللطيف ابن المرحل وتلا على ابن السراج وسمع من أبي حيان ديوان زهير بن أبي سلمى ولم يلازمه ولا قرأ عليه وكان كثير المخالفة لابي حيان شديد الانحراف عنه وقد ذكر الشوكاني في البدر الطالع تبريرا لذلك بقوله : ( ولعل ذلك والله أعلم لكون أبي حيان كان منفردا بهذا الفن في ذلك العصر غير مدافع عن السبق فيه ثم كان المنفرد بعده هو صاحب الترجمة وكثيرا ما ينافس الرجل من كان قبله في رتبته التي صار اليها اظهارا لفضل

---

(٥) انظر ٤ : ٢٩١ •

(٦) انظر على سبيل المثال مقدمته فى أوضح المسالك وشرح قطر الندا ومغني اللبيب بتحقيقه •

(٧) مأخوذة بتصرف من الدرر الكامنة لابن حجر ص٣٠٨ ومقدمة ابن خلدون ٣ : ٢٨٢ ـ ٢٨٣ والبدر الطالع للشوكانى ص٤٠٠ ـ ٤٠٢ ، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردى جـ١٠ حوادث سنة ٧٦١هـ ص٣٣٦ •

نفسه بالاقتدار على مزاحمته لمن كان قبله أو بالتمكن من البلوغ الى ما لم يبلغ اليه ) • وقد حضر ابن هشام دروس الشيخ تاج‌الدين التبريزي وقرأ على الشيخ تاج‌الدين الفاكهاني شرح الاشارة جميعه الا الورقة الاخيرة ، وتفقه للشافعي على تقي‌الدين السبكي • ثم تحنبل فحفظ مختصر الخرقي في دون أربعة أشهر وذلك قبل موته بخمس سنين وأتقن العربية ففاق الاقران بل الشيوخ •

وتصدر لنفع الطالبين وانفرد بالفوائد الغريبة والمباحث الدقيقة والاستدراكات العجيبة والتحقيق البالغ والاطلاع المفرط والاقتدار على التصرف في الكلام والملكة التي كان يتمكن بها من التعبير عن مقصوده بما يريد مسهبا مع التواضع والبر والشفقة ودماثة الخلق ورقة القلب •

قال عنه ابن خلدون : « ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع انه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام أنحى من سيبويه •

وذكر ابن خلدون أن ابن هشام كان « كأنه ينحو في طريقته منحاة أهل الموصل الذين اقتفوا أثر ابن جني واتبعوا مصطلح تعليمه فأتى من ذلك بشيء عجيب دال على قوة ملكته واطلاعه »[٨] •

وقد توفى الشيخ الامام جمال‌الدين بن هشام في ليلة الجمعة الخامس من ذى القعدة عام ٧٦١هـ ودفن بعد صلاة الجمعة بمقابر الصوفية خارج باب النصر في القاهرة •

وقد رثاه كثيرون لمكانته العلمية ولما له من تأثير في نفوس الكثيرين في عصره لعلمه وورعه وخلقه • وممن رثاه ابن نباته المصري بقوله :

سقى ابن هشام في الثرى نور رحمة ... يجر على مثواه ذيل غمام
سأروي له من سيرة المدح مسندا ... فما زلت أروي سيرة ابن هشام

ورثاه ابن الصاحب بدرالدين بقوله :

---

(٨) مقدمة ابن خلدون ص٣١٤ المطبعة الخيرية القاهرة •

تهنّ جمـــال الدين بالخلد انني لفقدك عيشـي ترحـــة ونكـــال
فمـا لدروس غبت عنهـــا طلاوة ولا لزمان لســـت فيه جمـــال

رحم الله ابن هشام رحمة واسعة لما قدمه للعلم من جليل الاعمال •

**مؤلفـــاته :**

لابن هشام كتب عديدة تدل على علم كثير في مسائل النحو واللغـة وتدل على الاخلاص الكبير في تقديم الفائدة لطلاب العلم والمعرفة وتطالعنا في كتبه عبارات يشير فيها الى أن أسباب تأليفه كتبه جاءت نتيجة لسؤال صعب فهمه أو اعتراض لمعترض على مسألة من المسائل ، أو التماس في شرح كتاب كثرت الغازه فأسهب في شرحه وحل مشكلاته • وفي هـــذا المقام نذكر قسما من كتبه محيلين القارىء الى مقدمات كتبه الاخرى التـي نشرها محيي الدين عبدالحميد فقد ذكر فيها كثيرا من كتبـــه المطبوعـــة والمخطوطة التي أربت على الثلاثين كتابا وقد أشار الى أماكن وجـــود المخطوط منها وأماكن طبع النسخ المطبوعة •

١ ــ مغني اللبيب عن كتب الاعاريب : وقد صنف ابن هشام مؤلفا قبله في الموضوع نفسه بمكة عام ٧٤٩هـ وفقده في طريقه الى مصر ، وفي رحلة ثانية له الى مكة كتب مصنفه مغني اللبيب وقد سمّاه في الرسالة التي تنشرها الآن قواعد الاعراب • وقد شرح وطبع مرارا •

٢ ــ شوارد الملح وموارد المنح وهو رسالة في سعادة النفس وتوجد منه نسخة مخطوطة في برلين رقمها ٢٠٩٧ •

٣ ــ اقامة الدليل على صحة التمثيل وفساد التأويل « وهو الرسالة التي نقدمها للقارىء » وهو رسالة صغيرة في الصرف أشار اليها ابن حجـر في الدرر الكامنة ونقل الزبيدي منها في تاج العروس وسنشير الى ذلك عند حديثنا عنها ، وتوجد منها نسخة مخطوطة في مكتبة المتحف العراقي وهي التي اعتمدناها في التحقيق •

٤ ـ تخليص الشواهد وتلخيص الفوائد وهو كتاب في شـــرح شواهد الالفية وتوجد منه نسخة مخطوطة في مكتبة المتحف العراقي بخط عبدالوهاب السبكي صاحب طبقات الشافعية وكان أحد تلاميذه •

٥ ـ شرح التسهيل لابن مالك وقد ذكر ذلك ابن حجر في الـدرر الكامنة وذكر ايضا انه بقي مسوّدا وأشار الى ذلك أيضا الشوكاني في البدر الطالع ويظهر انه نقل ذلك عن ابن حجر لنقله ترجمة ابن هشام كاملـة من كتابـه •

**رسالة الدليل :**

١ ـ لم تنل رسالة ابن هشام هذه العناية التي تستحقها ممن ترجموا له وذكروا مؤلفاته • اذ لم نجد لها ذكرا الا في الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) ، وان كان الناسخ قد توهم في تسميتها اذ صحف كلمة « التمثيل » فجعلها « النحيل » ثم جاء محقـــق النسخة ليصلح ما وقع فيه الناسخ فلم يزدد الا بعدا عن العنون الذي اختاره ابن هشام لرسالته اذ جعل الكلمة « التحليل » • وذكر ابن حجر الرسالة وحده كاف في اثبات نسبتها الصحيحة لابن هشام الا اننا اجتهدنا في ايجاد دعم لما أثبته صاحب الدرر فوجـــدنا ذلك في تاج العروس حيث اقتبس الزبيدى نصا من الرسالة وسمّاها رسالة الدليل قال في مادة ( عنكب ) : « وصرح الشيخ ابن هشام في رسالة الدليل بأن أصالة النون هو الصحيح وهو مذهب سيبويه لجمعه على عناكب وأطال في بسطه » • ورأي ابن هشام هذا وذكره مذهب سيبويه تجده في الصفحة السابعة من المخطوطة اما اطالة البسط فليس أدل عليه من أن الرسالة انما وضعت ابتداء من أجل هـــذه المســـألة •

٢ ـ وضع المصنف رسالته هذه ردا على اعتراض نقل اليه بسـبب

ذكره أمثلة لعبارة في التصريف وردت في كتاب التسهيل لابن مالك ولم يشر الى المعترض ولم نتوصل نحن اليه وكأنما أراد ابن هشام ألا يجعل له حظا من الذكر فكان كما أراد ويكفي انه أثار الشيخ رحمه الله تلك الاثارة التي انتجت لنا هذه الرسالة • فموضوع الرسالة اذن رد على اعتراض تناول فيه المصنف مسألتين بالشرح الوافي والايضاح الكافي مما لا يدع مجـــالا لتساؤل المتسائلين ولا متسعا لتحامل المتحاملين وهما أصالة نون عنكبوت وتاء تخربوت وفي خلال ذلك تحدث عن جملة مسائل منها ياء عباقري ونون العشوزن ووزن اسطوانة ، فأوفاها حقها جميعا •

٣ ـ أحال المصنف في الرسالة على كتابه الكبير في قواعد الاعراب قال : ( فان سيبويه رحمه الله لا يورد في كتابه الامور المستبعدة جدا ولهذا لم يورد اشياء كثيرة أوردها غيره كالنصب بلم والجزم بلن وأصر عـلى مخالفة علي بن حمزة الكسائي اذ أجاز فاذا هو اياها وان كان له مسـاغ على ما بينه مبسوطا في كتابي الكبير في قواعد الاعراب ••• ) ( ٩ـ١٠ من المخطوط ) •

وقد ثبت عندنا ان الكتاب المشـار اليه هـو ( مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ) •

أ ـ فقد تحدث عن خلاف سيبويه والكسائي حديثا مبسوطا استغرق الصفحات من ٨٨ـ٩٢ من الجزء الاول من المغني ، وفيه يقول : ( واما فاذا هو اياها فخارج عن القياس واستعمال الفصحاء كالجزم بلن والنصب بلم والجر بلعل ، وسيبويه وأصحابه لا يلتفتون لمثل ذلك وان تكلـم بعض العرب فيه ) •

ب ـ قال في مقدمة المغني : ( ووضعت هذا التصنيف على أحسن احكام وترصيف وتتبعت فيه مقفلات مسائل الاعراب فافتتحتها )[٩] ، فاذ قد ثبت

(٩) انظر المغني جـ١ ص٩ •

هذا فأنه يؤكد لنا أمرين الاول نسبة الرسالة الى ابن هشام ، والثاني ان هذه الرسالة من أواخر ما كتبه المصنف ان لم تكن آخر مصنّف له وذلك أنه بدأ كتابة المغني في سنة ست وخمسين وسبعمائة(١٠) ، وتوفي سنة احدى وستين وسبعمائة وهذا يعني انه توفى بعد خمس سنوات من بداية الكتابة في المغني ولما كان المصنف يشير اليه في هذه الرسالة فانا موقنون بأن القارىء الكريم معنا في ما ذهبنا اليه من أن هذه الرسالة من أواخر ما أملاه ابن هشام رحمه الله .

٤ ـ كتب الناسخ في صفحة العنوان : تصنيف الشيخ الامام العالم العامل العلامة شيخنا ( جمال‌الدين عبدالله بن هشام أيده الله تعالى ) وكلمة أيده الله تعالى دعاء للاحياء مما يقطع بأن الرسالة كتبت في حياة ابن هشام وكلمة شيخنا اذا ضمت الى هذا الدعاء تجعلنا نميل الى ان الناسخ هو أحد طلاب ابن هشام يعزز هذا وجود اشارات تدل على ان الرسالة قد قرئت على مصنفها من ذلك مثلا ما كتبه الناسخ على هامش ص٨ من المخطوط حيث كتب مقابل كلمة «ا لشماخ » صحابي رضي الله عنه ذكره المصنف «حاشية».

**٥ ـ وصف المخطوطة :**

(أ) المخطوطة محفوظة في مكتبة المتحف العراقي مجموعة مع كتاب آخر لابن هشام تحت رقم **٣٨٣٩** ، وقد ثبت عنوانها في صفحة مستقلة حيث كتب « اقامة الدليل على صحة التمثيل وفساد التأويل » تصنيف شيخنا الامام العالم العامل شيخنا جمال‌الدين عبدالله بن هشام أيده الله تعالى .

أما الكتاب السابق لها في المجموعة نفسها فهو « تخليص الشواهد وتلخيص الفوائد » لابن هشام أيضا وهو كتاب كبير شرح فيه شواهد شرح ألفية ابن مالك شرحا مبسوطا وافيا يقع في **٢٨٧** صفحة من القطع المتوسط

---

(١٠) انظر المغني جـ١ ص٩ .

وقد كتب اكثره بخط ناسخ رسالة الدليل بخط نسخ جميل ويبـــدو ان سقطات قد طرأت عليه مما جعل اكثر من ناسخ يشتركون في سد سقطاته كان آخرهم على حسب ترتيب صفحات المخطوط هو الشـــيخ تاج الدين السبكي ( ت ٧٧١هـ ) الذى أرّخ انتهاءه من النسخ في سنة ٧٦٤هـ • وعلى الصفحة الاولى للمجموع تملك للشيخ السبكي المذكور • والصفحـــة الاخيرة من المجموع وهي آخر صفحة في رسالة الدليل ساقطة مما جعلنا نفقد اسم الناسخ وتاريخ النسخ ، اما مضمون الرسالة فلم يسقط منها غير لفظ واحد على ما قدرنا وذلك انه في آخر الصفحة ٩ من رسالة الدليل كتب ! فهذا منتهى القول في هذه المسألة ••• وبالله تعالى المستعان وعليـــه التكلان ولا حول ولا قوة • وكتب اسفل الصفحة لفظة الا مشيرا الى أن الصفحة القادمة تبدأ بها فقدرنا انه لم تبق الا كلمة لفظ الجلالة مما يمكن الجزم بوجوده في الصفحة الساقطة فزدناها • ولعله كتب بعدها شيئا غير تاريخ النسخ واسم الناسخ الا أنه لا يمكن القطع به •

والرسالة تقع في الصفحات العشر الاخيرة من المجموع تتراوح اسطر صفحاتها بين ٢٠ـ٢١ سطرا وقياس الصفحة ٥ر٢٥ × ٥ر١٦سم •

## رسالة الدليـــل

بسم الله الرحمن الرحيم

أعذني ربِّ من حصَر وعي ومن نفس أعالجها علاجـا[11]

اللهم انا نسألك أن تنور بالعلم قلوبنا ، وتفتح للحكمـة أسـماعنا ، وتستعمل في الطاعة أبداننا ، وتجعلنا ممن صمت ليسلم ، وقال ليغنم ، وكتب ليعلم ، وعلم ليعمل ، وأن تصرفنا عن الانقياد لاهوائنا ، والقول بمجرد آرائنا ، والاستنكاف عن قبول الحق وقول الصدق ، انك سميع قريب .

وبعد فأن الامام العلامة الحافظ أبا عبدالله محمد بن مالك الطائي[12]

---

(١١) البيت مطلع قصيدة للنمر بن تولب من أحد عشر بيتا وبعده :

ومن حاجات نفسي فأعصمني فان لمضمرات النفس حاجـا

انظر شعر النمر بن تولب ـ د . نوري القيسى ص٤٦ . والبيـــان والتبين للجاحظ تحقيق السندوبي جـ١ ص١٧ الحاشية .

والنمر بن تولب العكلي شاعر جواد مخضرم نشأ في الجاهلية وأدرك الاسلام ووفد على النبي (ص) وأسلم . وهو من المعدودين فى الصحابة ، انظر ترجمته فى : ( طبقات بن سعد ٧ : ٢٦ والاستيعاب لابن عبدالبر ٤ : ١٥٣ وجمهرة الانساب لابن حزم ص١٩٩ والتهذيب لابن حجر ١ : ٤٧٤ وطبقات الشعراء لابن سلام ص١٣٣ والكامل للمبرد ١ : ٣٢٥ والاغـانى ١٩ : ١٥٧ وأسد الغابة لابن الاثير ٥ :٣٩ والاصابة لابن حجر ٣ : ٥٤٢) .

العِيّ : فقدان الابانة عما يخالج النفس . والحَصَر : محاولة التعبير وانعقاد اللسان عن المراد .

(١٢) هو أبو عبدالله جمال الدين محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالله بن مالك الطائي الجيانى الشافعى النحوى نزيل دمشق المتوفى سنة ٦٧٢هـ ، صاحب الخلاصة الالفية ولامية الافعال واكمال الاعلام بتثليث الكلام وغيرها من كتب النحو واللغة .

انظر ترجمته فى : نفح الطيب جـ٧ ص٢٨٠ ، وغاية النهاية فى طبقات القراء لابن الجزرى جـ٢ ص ١٨٠ ، ١٨١ ، وطبقات الشافعية جـ٥ ص٢٥٧ ، وبروكلمان جـ١ ص٢٩٨ ، والذيل حـ١ ص٥٢١ ودائرة المعارف الاسلاميـة م١ عدد ٥ ص٢٧٢ وما بعدها .

رحمه الله تعالى قال في كتابه تسهيل الفوائد[١٣] : ( ولا يستبقى دون شذوذ في هذا الجمع مع أربعة أصول زائد الا أن يكون حرف لين رابعا )[١٤] انتهى • ولم أر أحدا من شارحي[١٥] هـذا الكتاب ولا غيرهـم تعرّض لتمثيل قوله : ( دون شذوذ ) ، وقد سئلت عن ذلك من جماعة ، فكتبت لهم ما معناه : ان لذلك ثلاثة أمثلة ، أحدها قول بعضهم عناكبيت والثـاني قراءة جماعة من السلف ( متكئين فيها على رفارف خضر[١٦] وعباقريّ حسان )[١٧] ، ان قدّر عباقري جمعا لعبقري لا ان قدّر جمعا لعبقر وأن الياءين بمنزلتهما في مدائني • والثالث كلمة ثبت في كتاب أبي الفتح بن

---

(١٣) هو كتاب ( تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد ) لابن مالـك ، وهو كتاب في النحو والصرف تناول فيه مؤلفه مسائل النحو والتصريـف في ثمانين بابا تتضمن مائتين واحد عشر فصلا •

(١٤) انظر النص بكامله في كتاب ( تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد ) باب امثلة الجمع وما يتعلق به مما لم يسبق ذكره • ص٢٦٧ ـ ٢٨٣ •

(١٥) شرح هذا الكتاب عديدون منهم :

أبو حيان النحوي المتوفي سنة ٧٤٥هـ ، وقد شرحه عدة شروح هي : التنخيل الملخص من شرح التسهيل ، والتذليل والتكميل وملخصه : ارتشاف الضَرَب من لسان العرب وكذلك التحصيل والتفصيل لكتاب التذييـل والتكميل • وابن عقيل المتوفى سنة ٧٦٩هـ واسم كتابه ( المساعد عـلى تسهيل الفوائد ) والدماميني المتوفى سنة ٨٢٧هـ وكتابه تفليق الفرائد •

وشرحه ابن مالك نفسه ولم يكمل الشرح فأكمله ابنه بدرالدين •

وشرحه مؤلف هذه الرسالة الامام ابن هشام الانصارى وشرحه غير هؤلاء كثيرون ، انظر مقدمة التسهيل ص ٧٨ ، ٧٩ •

(١٦) جاء في الكشاف « وقُرِئ رفارف خُضُرٍ بضمتين » جـ٤ ص ٥٠ ، وقال القرطبي فى تفسيره « وضم الضاد من خضر قليل » ١٧ : ١٩٣ ، وذكر ابن جني فى المحتسب جـ ٢ ص٣٠٥ « واما خُضُر بضم الضاد فقليل وهذا من مواضع الشعر كما قال طرفة ( ورادا وشُقُر) •

(١٧) سورة الرحمن : ٧٥ ، والقراءة المثبتة فى المصاحف المنتشرة قوله تعالى ( متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان ) •

جني[١٨]/٣ المسمى (المحتسب)[١٩] في سورة الرحمن ع ز وجل فلتراجع من هناك • هذا ملخص ما كتبته • ثم بلغني أن معترضا اعترض المثال الاول بأمرين : أحدهما أن نونه زائدة فهو من مزيد الثلاثي لا من مزيد الرباعي ، والثاني ان الجمع قد تم عند الباء من عناكبيت ، وان الزيادتين بعده في تقدير الانفصال ، وانه اعترض المثال الثاني بالاعتراض الثاني[٢٠] وقد أذكرني ذلك حكايتين : احداهما عن الامام الشافعي[٢١] رحمه الله انه قال : « ما رأيت أعجب من أهل مصر سألوا مالكا[٢٢] عن مسائل فلم

---

(١٨) هو ابو الفتح عثمان بن جنى الموصلى النحوى اللغوى المتوفى سنة ٣٩٢ هـ • انظر ترجمته فى : ( انباه الرواة ٢ : ٣٣٥ وبغية الوعاة ٣٢٢ وتاريخ بغداد ١١ : ٣١١ وتاريخ ابن الاثير ٧/٢١٩ ، وابن خلكان ١ : ٣١٣ ودمية القصر ٢٩٧ وروضات الجنات ٤٦٦ وشذرات الذهب ٣/١٤٠ ومعجم الادباء ١٢ : ٨١ ومرآة الجنان ٢ : ٤٤٥ ويتيمة الدهر ١ : ٨٩ •

(١٩) هو كتاب المحتسب فى القراءات الشاذة ويظهر انه كان مشهورا فى عهد ابن هشام بدليل قوله فلتراجع من هناك •

(٢٠) المثال الاول قول بعضهم عناكبيت والمثال الثانى هو عباقرى • والاعتراض الثانى هو قوله : ان الجمع قد تم عند الباء من عناكبيت وان الزيادتين بعده فى تقدير الانفصال أي : أن الجمع قد تم عند الراء من عباقر وان الياء المشددة فى تقدير الانفصال •

(٢١) هو الامام ابو عبدالله محمد بن ادريس القرشى المطلبى الشافعى (رض) ولد سنة ١٥٠ هـ وتوفى سنة ٢٠٥ • وهو أحد الائمة الاربعة وامام الشافعية ، أخذ العلم عن الامام مالك بن انس • انظر ترجمته فى : ( وفيات الاعيان ترجمة ٥٣٠ ، والفهرست ٢٢٠٩ ومعجم الادباء ١ : ٣٧٦ ، ومناقب الامام الشافعى للفخر الرازى ، وطبقات الشافعية للسبكى ، : ٢٥٥ ، والوافى بالوفيات ٢ : ١٧١ •

(٢٢) هو الامام أبو عبدالله مالك بن أنس بن مالك رحمه الله صاحب المذهب المالكي وأحد الائمة الاعلام ولد سنة ٩٥ هـ وتوفى سنة ١٧٩ هـ • انظر ترجمته فى ( وفيات الاعيان ترجمة ٥٢٢ • وتذكرة الحفاظ للنووى ٢ : ٧٥ والاعلام ٦ : ١٢٨ •

يعلمها فلم يقبلوها بعد ذلك ممن علمها » • والثانية حكاها الصولى[٢٣] ، قال : كتبت لبعض اخواني كتابا فورد عليّ جوابه : ( وصل الي كتابك وقد أعبت عليك فيه حرفا فكتبت اليه قد عبت عليك قولك أعبت )[٢٤] •

وها أنا مورد من الدليل ما يبين صحة ما ذكرته وفساد ما اعترض به وبالله التوفيق وهو حسبي ونعم الوكيل •

أما قول المعترض ان نون عنكبوت زائدة فمخالف لنصوص الائمة سيبويه[٢٥] ، وغيره ، ولمقتضى الدليل • وبيان الاول : أن سيبويه استدل على أن التاء منه زائدة بأنها لو كانت أصلا لكان من مزيد الخماسي ، والخماسي لا يكسر الا على استكراه ، وعناكب كثير في كلامهم[٢٦] ، قلت ولزيادة التاء دليل آخر وهو سقوطها من العنكب والعنكباء وهما بمعناه ،

---

(٢٣) ابو بكر محمد بن يحيى بن عبدالله بن العباس ابو بكر الصولى المتوفى سنة ٣٦٦ انظر ترجمته فى ( انباه الرواة ٣ : ٢٣٣ ، وتاريخ بغداد ٣ : ٤٢٧ ، وابن خلكان ١ : ٥٠٨ وروضات الجنات ٦٠٩ وشذرات الذهب ٢ : ٣٣١ والفهرست ١٥٠ واللباب ٢ : ٦٣ ومعجم الشعراء ٤٦٥ والنجوم الزاهرة ٢ : ٢٩٦ ) •

(٢٤) أعاب بمعنى عرض الشيء للعيب ولم ترد بمعنى عاب •

(٢٥) أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر انظر ترجمته فى: (اخبار النحويين البصريين ٤٨ ، وانباه الرواة ٣ : ٢٤٦ ، وبغية الوعاة ٣١٦ ، وابن خلكان ١ : ٣٨٥ ، وروضات الجنات ٥٠٣ ، وتاريخ بغداد ١٢ : ١٩٥ ، وطبقات النحويين للزبيدي ٦٦ ، والفهرست ٥١ ، ومراتب النحويين ١٠٥ •

(٢٦) قال سيبويه فى باب علل ما تجعله زائدا من حروف الزوائد وما تجعله من نفس الحرف ( ٢ : ٢٤٧ ـ ٢٤٨ ) : ( فمما يبين لك أن التاء فيه زائدة ••• والعنكبوت والتخربوت لانهم قالوا عناكب وقالوا العنكباء فاشتقوا منه ما ذهبت فيه التاء ، ولو كانت التاء من نفس الحرف لم تحذفها فى الجمع كما لا يحذفون طاء عضرفوط ، وكذلك تاء تخربوت لانهم قالوا تخارب ••• ) •

وقال فى باب ما يحذف فى التحقير من زوائد بنات الاربعة (٢ : ١١٩ ): ( وفى منجنيق مجينيق لانك تقول مجانيق وفى عنكبوت عنيكب وعنيكيب لانك تقول عناكب وعناكيب ••• ويدلك على زيادة التاء والنون كسر الاسماء للجمع وحذفها وذلك لانهم لا يكسرون من بنات الخمسة للجمع حتى يحذفوا

ذكره الفارسي[٢٧] ، في الايضاح[٢٨] ، في باب تحقير بنات الاربعة ، وقال الجرجاني[٢٩] : ( نقول في تحقيره عنيكب وفي تكسيره عناكب لان تركيبه من عنكب ) وقال الزبيدى[٣٠] ، في كتابه الابنية ( وزنه فَنَعْلُوت [٣١] ، وكذا قال ابن عصفور[٣٢] في الممتع[٣٣] . وقال ابن

---

لانهم لو أرادوا ذلك لم يكن من مثال مفاعل ومفاعيل فكرهوا أن يحذفوا حرفا من نفس الحرف ومن ثم لم يكسروا بنات الخمسة الا أن تستكرههم فيخلطوا لانه ليس من كلامهم فهذا دليل على الزوائد ) .

(٢٧) هو ابو علي الحسن بن أحمد بن عبدالغفار بن سليمان الفارسى المتوفى سنة ٣٧٧ هـ . كان من أكابر أئمة النحويين . انظر ترجمته فى ( انباه الرواة ١ : ٢٧٣ ، وبغية الوعاة ٢١٦ ، وتاريخ بغداد ٧ : ٢٧٥ ، وتاريخ أبي الفدا ٢ : ١٢٤ ، وتاريخ ابن كثير ١١ : ٣٠٦ ، وابن خلكان ١ : ١٣١ ، وشذرات الذهب ٣ : ٨٨ ، وطبقات الزبيدى ١٣٠ ، والفهرست ٦٤ ، ولسان الميزان ٢ : ١٩٥ ، ومعجم الادباء ٧ : ٢٣٢ ، والنجوم الزاهرة ٤ : ١٥١ ) .

(٢٨) يلاحظ ان ما نسبه للفارسى ذكره سيبويه أيضا .

(٢٩) هو أبو بكر عبدالقاهر بن عبدالرحمن الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ . انظر ترجمته فى ( انباه الرواة ٢ : ١٨٨ ، وبغية الوعاة ١٣٠ ، وروضات الجنات ١٤٣ ، وشذرات الذهب ٣ : ٣٤٠ ، وفوات الوفيات ١ : ٣٧٨ ، ومرآة الجنان ٣ : ١٠١ ) .

(٣٠) ابو بكر محمد بن الحسن الزبيدي النحوي اللغوي المتوفى سنة ٣٧٨ هـ . انظر ترجمته فى : ( جذوة المقتبس ٤٣ ، وبغية الملتمس ٥٦ ، وتاريخ ابن الفرضي ٢ : ٩١ ، والمغرب فى حلى المغرب ١ : ٢٥٠ ، ويتيمة الدهر ٢ : ٧١ ، ووفيات الاعيان ٤ : ٧ ، وانباه الرواة ٣ : ١٠٩ ، ومعجم الادباء ١٨ : ١٨٠ ، والوافى بالوفيات ٢ : ٣٥١ ، وبغية الوعاة ٣٤ ، وروضات الجنات ٦٨٦ ، وبروكلمان « الترجمة العربية » ـ ٢ : ٢٨٠ ) .

(٣١) انظر الاستدراك على سيبويه فى كتاب الابنية والزيادات « حيث قال : ( وعلى فعللوت فالاسم عنكبوت وتخربوت لحق بالتاء والواو ) .

(٣٢) هو علي بن مؤمن بن محمد بن علي المعروف بأبي الحسن بن عصفور النحوى الاشبيلى حامل لواء العربية فى زمانه بالاندلس وصاحب كتاب الممتع فى التصريف والمقرب وشارح اشعار الستة الجاهلين وغيرها توفى سنة ٦٦٣ ( انظر الوعاة ٣٥٧ ) .

(٣٣) الممتع ج ١ ص١٥٩ ( تحقيق د . فخرالدين قباوة . المطبعة العربية بمصر ١٩٧٠ م ) .

الضائع[٣٤] : ( نون عنكبوت أصل اذ لا دليل على زيادتها ) قال : ( وجعله بعضهم ثلاثي الاصول واشتقه من العكوب وهو الغبار ، وهذا خطأ لما فيه من البعد ، ولو كان قريبا لكان جمعه على عناكب دليلا على أنه ليس منه[٣٥] . وبيان الثاني من وجهين : احدهما أنا استقرينا فوجدنا النون الواقعة في الحشو لا يحكم بزيادتها الا في احدى صور ثلاث : الاولى أن تكون ساكنة في كلمة خماسية بين اثنين قبلها واثنين بعدها نحو غَضَنْفَر[٣٦] وعقنقل[٣٧] . والثانية أن تسقط في الاشتقاق كالنون في حنظل[٣٨] وسُنْبُل فانها ساقطة فى قولهم: حَظِلت الابل اذا آذاها أكل الحنظل وأسبل الزرع[٣٩] . الثالثة أن يكون الحكم بأصالتها مقتضيا للزوم عدم النظير/٤ وذلك كالنون فى كَنَهبل[٤٠] ، وعُرْنُد[٤١] وإصْفَعِنْد[٤٢]

---

(٣٤) هو علي بن محمد بن علي بن يوسف الكتامى الاشبيلى المعروف بالضائع ، أحد أئمة العربية بالاندلس وصاحب أبى علي الشلوبين وشارح كتاب سيبويه توفي سنة ٦٨٠ هـ ( انظر بغية الوعاة ٣٥٤ ) .

(٣٥) يعنى ان نون عناكب ليست أصلا على هذا الرأى فالهاء فى انه عائد على النون وفى منه عائد على عناكب .

(٣٦) الغضنفر : الغليظ المتغضن . وأسد غضنفر غليظ الحلق متغضنة ( اللسان مادة : غضنفر ) .

(٣٧) العقنقل : ما أرتكَمَ من الرمل وتعقل بعضه ببعض ( اللسان مادة : عقل ) .

(٣٨) الحنظل : الشجر المر وأحدته حنظلة ( اللسان مادة : حنظل ) .

(٣٩) أسبل الزرع : اذا سنبل ( اللسان مادة : سبل ) .

(٤٠) الكنهبل : بفتح الباء وضمها شجر عظام وهو من العضاه قال سيبويه : اما كنهبل فالنون فيه زائدة لانه ليس فى الكلام على مثال سفرجُل ( اللسان مادة : كنهبل ) .

(٤١) العُرْنُد : الشديد من كل شيء ( اللسان مادة : عرد ) .

(٤٢) اصفعند : من اسماء الخمر ... قال ابن سيده : ( وانما اثبته فى الخماسى ولم احكم بزيادة النون لانه نادر ولا مادة له ولا نظير فى الابنية المعروفة ... ( اللسان مادة : اصفعند ) .

وهُنْدَلِع[٤٣] اذ ليس فى الرباعي فُعُلّ ولا فى الخماسي فَعَلَّل ، ولا فى الابنية ذو ستّة أصول ، وعنكبوت ليس شيئاً من هذه الانواع • فان قلتَ : بل هو من باب حنظل وسنبل وذلك أنه من العكوب وهو الغبار ، قلتُ : كذا زعم بعض اللغويين[٤٤] وهو فاسد لضعف هذا الاشتقاق لبُعد معناه ولو فتحنا هذا الباب لصرنا الى القول بأن جميع الألفاظ مشتق بعضها من بعض لأمكان مثل هذا الاشتقاق البعيد فى الجميع وليس ذلك مما يرضاه المحصّلون • وقد نُسِبَ هذا القول لسيبويه وأبي اسحق اسحق الزّجّاج[٤٥] وسيبويه منه براء[٤٦] ، فأما أبو اسحق فقد أسرف فى ذلك فى كتابه الذي سمّاه بالاشتقاق الكبير •

الوجه الثاني من الوجهين الدالين على أصالة نون عنكبوت قول العرب فى جمعه عناكب وذلك مشهور حتى انه فى نظم الدرة الالفية قال ناظمها :

وعنكبوت جمعه عناكب[٤٧] •

---

(٤٣) الهُندَلِع : بقلة ، قيل انها عربية ، فاذا صح انها من كلامهم وجب ان تكون نونه زائدة لانه لا أصل بازائها فيقابلها ومثال الكلمة على هذا فُنْعَلِيل" ( اللسان مادة : هدلع ) •

(٤٤) هو الجوهرى حيث ذكرها فى عكب قال : ( والعكوب بالفتح الغبار والعنكبوت : الناسجة والغالب عليها التأنيث (الصحاح مادة : عكب) •

(٤٥) هو آبراهيم بن السري بن سهل أبو اسحق الزجاج النحوى المتوفى سنة ٣١١ هـ • انظر ترجمته فى : ( انباه الرواة ١ : ١٥٩ ، واخبار النحويين البصريين ١٠٨ ، وبغية الوعاة ١٧٩ ، وتاريخ بغداد ٦ : ٧٩ ، وتاريخ أبى الفدا ٢ : ٧٢ ، وابن خلكان ١ : ١١ ، وروضات الجنات ٤٤ ، وشذرات الذهب ٢ : ٢٥٩ ، وطبقات الزبيدى ١٢١ ، والفهرست ٦٠ ، ومراتب النحويين ٨٣ •

(٤٦) قال سيبويه فى باب ما لحقته الزوائد من بنات الاربعة غير الفعل (٢/٣٣٧) : « ويكون على مثال فعللوت فى الاسم نحو عنكبوت » ، فالنون عنده أصل كما هو واضح فى الميزان اذ أنه جعلها مقابل العين •

(٤٧) الدرة الالفية للشيخ زين الدين يحيى بن معطى النحوى المتوفى سنة ٦٢٨ هـ • والبيت بكامله

ووجه الدليل أن النون لو كانت زائدة لقيل في الجمع عكابيت وذلك لم يقله أحد" ، ووجه اللزوم أن القاعدة في بابي التكسير والتصغير انه يجب في تكسير الاسم المزيد فيه وتحقيره تقليل الحذف منه بحسب الامكان ولهذا وجب ان يكون المحذوف من حيزبون الياء فيقال حزابين لانهم لو حذفوا الواو فقالوا حيازبن لانخرمت البنية ووجب أن تحذف الياء فتقول حزابن ، وهذه المسألة في المختصرات الصغيرة حتى انها في الخلاصة قال ناظمها :

والياء لا الواو احذف ان جمعت مـــا
كحيزبون فهـــو حكـم حتمـا(٤٨)

وهذه كتب يحفظها الصبيان فما اقبح بالانسان أن يجهل شيئا مما فيها.

وأما قوله ان زيادتي عنكبوت في تقدير الانفصـــال فمردود/٥ من جهات : احداها ان الزيادات التي في تقدير الانفصال محصورة في زوائد بعينها ليس هذا منها وهي مسطورة في المختصرات كالخلاصة والكافية(٤٩) والثانية : ان كون الزيادة في تقدير الانفصال انما هو معتبر في باب التصغير دون باب التكســـير ، الا ترى انك تقـــول في تصغـــير لوذعي(٥٠) ، وقاصعاء(٥١) ، وحنظلة لويذعي وقويصعاء وحنيظلة ، فتثبت الزيادات ولو

---

وعنكبوت جمعـه عنـاكب والجمع قد يجمع كـ ( الاكالب" )
وقال ابن الخباز في شرحه : الواو والتاء في عنكبوت زائدتان لقولهم في معناه عنكباء ، ووزنه فعللوت ، فاذا كسرته حذفت الواو والتاء فقلت عناكب . ( انظر شرح ابن الخباز على الدرة الالفية لابن معطى ص ٣٠٤ ) .

(٤٨) انظر شرح ابن عقيل على الفية ابن مالك ٢ : ٤٧٥ .

(٤٩) هو كتاب الكافية في النحو لعثمان بن عمر بن يونس أبو عمر الكردي المعروف بابن الحاجب المتوفى سنة ٦٤٦ ( انظر ترجمته في بغيـة لوعاة ٣٢٣ ) .

(٥٠) اللوذعي : الحديد الفؤاد واللسان ، الظريف ، كانه يلذع من ذكائه ( اللسان مادة : لذع ) .

(٥١) القاصعاء : جحر يحفره اليربوع فاذا فرغ ودخل فيه سد فمه ( اللسان مادة : قصع ) .

كسرتهن لقلت لواذع وقواصع وحناظل فحذفتهن حذفا واجبا ، لا يختلف في ذلك بصرى ولا كوفي ولا متقدم ولا متأخر • ولو أن قائلا قال : لواذعي وقواصعاء وحناظلة واحتج لذلك بأن هذه الزيادات في تقدير الانفصال لكان ما ذكره منكرا من القول وزورا • والثالثة : انه يلزم هـذا القائل تخطئة الائمة في جمعهم عنكبوتا على عناكب ، بل تخطئة العرب لانهم كذلك جمعوه ، ووجه اللزوم انهم على زعمه حذفوا الزيادة التي في تقـدير الانفصال • وأما قوله ان الزيادة في عباقري في تقدير الانفصال فقد لعمرى نصوا على أن الياء المشددة فى تقدير الانفصال ولكن فى باب التصغير دون باب التكسير كما قدمنا ، والفرق بين البابين ان التكسير أثقل من التحقير فخص بمزيد التخفيف ، ولولا ان السماع ورد بعباقري لم نتفوه به ولكنه ورد فوجب قبوله وهي قراءة عثمان رضي الله عنه ونصر بن عاصم(٥٢) ، والجحدري(٥٣) ، ومالك بن دينار(٥٤) ، وأبي طعمة وابن محيصن(٥٥) وآخرين(٥٦) • ورويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم • ذكر ذلك

---

(٥٢) هو نصر بن عاصم الليثى المتوفى سنة ٨٩ هـ • انظر ترجمته فى معجم الادباء : ٧ : ٢١٠ ، وبغية الوعاة ٤٠٣ ، وطبقات الزبيدى ٢٠ •

(٥٣) هو عاصم بن ابى الصباح العجاج وقيل ميمون ابو المجَشِّر الجحدرى البصري ، أخذ القراءة عن نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر ، وتوفى سنة ١٢٨ هـ ( انظر طبقات آبن الجزري ١ : ٣٤٩ ترجمة ١٤٩٨ ) •

(٥٤) هو ابو يحيى مالك بن دينار البصرى ، كان عالما زاهدا كثير الورع توفى سنة ١٣١ هـ بالبصرة ، انظر ترجمته فى : ( وفيات الاعيـان ترجمة ٥٢٣ ، وحلية الاولياء ٢ : ٣٥٧ ، والاعلام ٦ : ١٣٤ ) •

(٥٥) هو محمد بن عبدالرحمن بن محيصن السمهى مقرىء أهـل مكة ، روى له مسلم • قال ابن مجاهد فيه ( وكان ممن تجرد للقراءة وقـام بها • توفي سنة ١٢٣ هـ ، انظر طبقاتابن الجزرى ٢ : ١٦٧ ترجمة ٣١١٨)

(٥٦) هذه القراءة ذكرها القرطبى فى تفسـيره ١٧ : ١٩١ـ١٩٢ • وذكر ابن جني فى المحتسب جـ ٢ ص ٣٠٥ ، ان ابا الجلد والفرقبى ممن قـرؤا بها ايضا •

كله الامام أبو بكر بن مجاهد[٥٧] ، رحمه الله في كتاب الشواذ • وانما الذى كان يمكن الاعتراض به ما أشرت أنا اليه فى الجواب الذى كتبته من أنه يجوز أن يكون جمعا لعبقر فيكون عبقر وعباقر كجعفر وجعافر ، ثم نسب اليه مع بقاء صيغة الجمع شذوذا كما قيل في النسب الى مدائن مدائني، وقد رأيت الزمخشرى[٥٨] ذكر هذا الوجه[٥٩] ، ولم يذكر /٦ سواه ، وهو عندى بعيد بل باطل ، أما بُعده ، فلأن الذين قرؤا بذلك قرؤا رفارف بالجمع فالظاهر أنهم أرادوا ازدواج الجمعين وتناسب المتعاطفين وعلى هذا التأويل يكون عباقري مفردا كمدائني لا جمعا ككراسي ولانه قد وصف بحسان وهو جمع ، كما وصف رفارف بخضر وهو جمع ، فان ذهبت الى أن حسانا صفة للمتعاطفين جميعا أو للمعطوف وحده مع دعواك انه مفرد على أن يكون بمنزلة قوله :

ياليلة خُرس الدجاج سهرتها[٦٠]

على قول من يرى أن خرسا جمع خرساء فقد تجاوزت حدا وتعسفت جدا وقلت ما لا يرتضيه مرتض وخرجت عن الظاهر لغير مقتض • وأما بطلانه فلأن القارئين بذلك قرؤا بمنع الصرف ولا سبيل لذلك اذا كان من

---

(٥٧) هو احمد بن موسى بن العباس بن مجاهد شيخ القراءة فى بغداد ولا يعلم أحد من شيوخ القرآءات أكثر تلاميذ منه • توفي سنة ٣٢٤ ( انظر ترجمته فى طبقات القراء ١ : ١٣٩ ) •

(٥٨) هو جارالله محمود بن عمر بن محمد أبو القاسم الزمخشرى صاحب القدم فى الادب واللغة والنحو والتفسير ، وتفسيره الكشاف من اشهر الكتب • توفى سنة ٥٣٨ • انظر ترجمته فى : ( انباه الرواة ٣ : ٢٦٥ ، وبغية الوعاة ٣٨٨ ، وتاريخ ابن الاثير ٩ : ٨ ، وتاريخ أبى الفدا ٣ : ١٦ ، وتاريخ ابن كثير ١٢ : ٢١٩ ، وابن خلكان ٢ : ٨١ وروضات الجنات ٦٨١ ، وشذرات الذهب ٤ : ١١٨ ، ومرآة الجناة ٣ : ٢٦٩ ، ومعجم الادباء ١٩ : ١٢٦ ، والنجوم الزاهرة ٥ : ٢٧٤ ) •

(٥٩) انظر الكشاف جـ ٤ ص ٥٠ •

(٦٠) هذا صدر بيت من الكامل ولم نجد بقيته ولم نعرف قائله •

باب مدائني ، وانما يتأتى اذا قدر أنه من باب كرسي وكراسي • فان قلت منع الصرف مشكل على قولك أيضا ، لان الجمع الذى يستحق منع الصرف هو الذى بعد ألفه حرفان كمساجد ودواب وجوار ، أو ثلاثة أوسطها ساكن نحو : دنانير وطواويس ، قلت : الجمع المستحق لمنع الصرف هو صيغة منتهى الجموع والغالب أن تأتي على أحد ثلاثة أوجه : الوجهين المذكورين ومفاعلة كملائكة وفرازنة • وربما ورد على وجه خارج عن الثلاثة فيستحق أيضا منع الصرف حينئذ لكونه لا نظير له في الآحاد ، ويكون الشذوذ في الصيغة لا في منع الصرف ، فلذلك قرىء « عباقري » ممنوع الصرف وكذلك تقول في قول من قال : عناكبيت ، وانما صرف نحو ملائكة وفرازنة[٦١] لموازنته /٧ للآحاد من نحو طواعية وكراهية لا لانه ليس صيغة منتهى الجموع ، ولهذا قال النحويون : شرط الجمع المانع من الصرف أن يكون على صيغة منتهى الجموع ، وأن يكون بغير الهاء ، وذلك دليل على ان الذي بالهاء من صيغ منتهى الجموع • فان قيل وكذا يدل اقتصارهم على ذكر مفاعل ومفاعيل على أن ما عداهما ليس من صيغ منتهى الجموع فيخرج عن ذلك نحو عناكبيت قلت : لا لجواز أن يكون اقتصارهم عليهما لندور ما عداهما ولعل اكثرهم أو كثيرا منهم لم يطلع على غيرهما • ومثل عناكبيت وعباقري في استحقاق منع الصرف وفي صحة التمثيل به لمسألة ( التسهيل ) قول بعضهم تخربوت وتخاربيت وهذه هى الكلمة الثالثة التى أحلتها على الكشف من كلام أبي الفتح[٦٢] ، والتخربوت الناقة الفارهة وتاؤها اصلية فلا تتوهمن زيادتها كما توهم من

---

(٦١) جاء فى اللسان ( مادة فرزن ) :
الفرزان من لعب الشطرنج أعجمي معرب وجمعه فرازين ، وجاء فى القاموس المحيط : فرزان : الشطرنج معرب فرزين والجمع فرازين • وليس فى اللسان أو القاموس ان الفرازن يجمع على الفرازنة •
(٦٢) انظر المحتسب جـ٢ ص ٣٠٥ •

توهم زيادة نون عنكبوت لأنا لانحكم بزيادة حرف الا بثبت • وكذلك سائر ما يدّعى فيه خلاف الاصل لا يجوز ادعاؤه ببادىء النظر بل لابد من اعتبار القواعد التى أصّلها العلماء فمن أراد اتقان احكام الزوائد فليتأمل باب ذى الزيادة من شافية ابن الحاجب رحمه الله فأنه لا نظير له في تحقيق هـذا الامر(٦٣) ، وممن نص على أصالة تاء تخربوت ابن سيدة(٦٤) ، قال في كتابه المحكم في باب الرباعي من باب الخاء المعجمة : ( وناقة تخربوت : خيار فارهة ، وانما قضي على التاء بأنها أصل لانها لا تزاد (اولا)(٦٥) الا بثبت )(٦٦) • انتهى بحروفه •

فان قلت أيصح التمثيل لمسألة ( التسـهيل ) بالعشـاوز جمـع العشوزن(٦٧)/٨ ، قلت لا ، لأوجه اذكرها بعد شرح هذه الكلمة

اعلم انهم اختلفوا فى عشوزن على قولين احدهما ( أن واوه ونونـه

---

(٦٣) انظر باب ذى الزيادة من شرح شافية ابن الحاجب للرضي الاستربادي ج ٢ ص ٣٣١ـ٣٩٧ •

(٦٤) ابن سيدة ( ضبطت هكذا فى الرسالة ) : هو علي بن اسماعيل ابن سيده الاندلسي الضرير صاحب المحكم والمخصص ولد سـنة ٣٩٨ هـ وتوفي سنة ٤٥٨هـ • انظر ترجمته فى : (الصلة ٢ : ٣٩٦ـ٣٩٣) وطبقات الامم ٧٧ ، وجذوة المقتبس ٢٩٣ـ٢٩٤ ، والمغرب ٢ : ٢٥٩ ، والديبـاج المـذهب ٢٠٤ـ٢٠٥ ، ووفيـات الاعيـان ١ : ٤٣١ ، وانبـاه الرواة ٢ : ٢٢٥ـ٢٢٧ ، ومطمع الانفس ٦٠ ، ونكت الهميان ٢٠٤ـ٢٠٥ ، وبغية الوعاة ٣٢٧ ، ونفح الطيب ٤ : ٣٥١ ، ومرآة الجنان ٣ : ٨٣ ، وشذرات الذهب ٣ : ٣٠٥ـ٣٠٦ ، ولسان الميزان ٤ : ٢٠٥ـ٢٠٦ ، وتاريخ ابـى الفـداء ٢ : ١٨٦ ، وانظر بروكلمان ليدن ١٩٣٧ ) الملحق ٥٤٢ •

(٦٥) زيادة من اللسان والتاج مادة ( تخرب ) •

(٦٦) انظر اللسان وتاج العروس مادة ( تخرب ) •

(٦٧) العشوزن : الشديد الخلق ( لسان العرب مادة : عشزن ) •

زائدتان فوزنه فَعَوْلَنْ )[٦٨] ، وهو قول المبرد[٦٩] ، وعلى هذا فليس مما الكلام فيه لانه من مزيد الثلاثي وجمعه عشاوز لزوما لا شذوذا • والثاني ان نونه أصلية وواوه زائدة لالحاقه بسفرجل (فوزنه فَعَوْلَلْ)[٧٠]،وهو قول سيبويه وعلى هذا فهو من مزيد الرباعي وجمعه عشازن لزوما لا عشاوز اذ لا يحذف الاصلي ويبقى الزائد ولكن ثبت في شعر معقل بن ضرار وهو الشماخ[٧١] :

---

(٦٨) فى الانتصار قال ابن ولاد ص ١٥٨ـ١٥٩ مسألة : ومن ذلك قوله ( سيبويه ) فى باب ما لحقته الزوائد من بنات الاربعة : زعم أن عشوزنا من بنات الاربعة وان النون أصل ، قال محمد « المبرد » والنون زائدة ، من ذلك قول الشماخ : حوامي الكُراع المويدات العشاوزُ • ولو كان كما قال لم يجز الا العشازن •

(٦٩) هو محمد بن يزيد بن عبد الاكبر ابو العباس المبرد صاحب الكامل المتوفى سنة ٢٨٥ هـ • انظر ترجمته فى : ( انباه الرواة ٣ : ٢٤١ ، اخبار النحويين البصريين ٩٦ بغية الوعاة ١١٦ ، تاريخ ابن كثير ١١ : ٧٩ ، ابن خلكان ١ : ٤٩٥ ، روضات الجنات ٦٠٠ ، سمط اللآلي ٣٤٠ ، شذرات الذهب ٢ : ١١٠ ، طبقات الزبيدى ١٠٨ ، الفهرست ٥٩ ، لسان الميزان ٥ : ٤٣٠ ، مرآتب النحويين ٨٣ ، معجم الادباء ١٩ : ١١١ ، النجوم الزاهرة ٣ : ١١٧ •

(٧٠) قال سيبويه ٢ : ٣٣٦ فى باب ما لحقته الزوائد من بنات الاربعة غير الفعل : فأما بنات الاربعة فكل شيء جاء منها على مثال سفرجل فهو ملحق ببنات الخمسة ••• فالواو تلحق ثالثة فيكون الاسم على مثال فعولل فى الاسم والصفة فالاسماء نحو حبوكر وفدوكس وصنوبر ، والصفة نحو : السرومط والعشوزن والعرويط •

(٧١) هو الشماخ بن ضرار بن حرملة بن سنان المازنى الذبيانى الغطفانى شاعر مخضرم من طبقة لبيد والنابغة • وهذا البيت من قصيدة طويلة أولها :

عفا بطن قوٍّ من سليمى فعالز  فذات الصفا فالمشرفات النواشز

حذاها : انعلها • والصيداء : الارض المستوية • طراق النعل : ان تجعل طبقا على طبق • والحوامي : المواضع الوعرة التى تمنع من المسير فيها • والكراع : أنف يتقدم من الجبل والمؤيدات : المقفرات أى خاليات من الانيس • والعشاوز : الصعبة المسلك ••• والمعنى أن العير سلك بها الخشن من الارض • ( انظر ديوان الشماخ بن ضرار ، شرح الشنقيطى ص ٥١ ) •

حذاهـــا من الصيـداء نعـــلا طـراقُـها
حوامي الكُـراع المؤيـــدات العشـاوز

فتمسك المبرد به لدعواه زيادة النون وقال : ( لو كانت أصلا لـــم يجز الا العشازن )[٧٢] ، وأجاب المنتصرون[٧٣] لسـيبويه بأنه انما قال العشاوز لان القافية اضطرته الى ذلك • قال الامام أبو العباس احمد بن محمد بن ولاد[٧٤] ( وهذا جائز في الشعر وهو نظير حذف نون لكن في قول النجاشي )[٧٥] :

فلســـت بآتيـــه ولا اســـتطيعه
ولاك اسقني ان كان ماؤك ذا فضل

---

(٧٢) فى الانتصار لسيبويه على المبرد ( وهو نقض ابن ولاد على رد المبرد على سيبويه فى الكتاب ) ويقول المبرد ص ١٥٩ بهذه الصورة ( ولو كان كما قال لم يجز الا العشازن ) •

(٧٣) يعنى ابن ولاد فى كتابه الانتصار حيث قال : ( انما لم يقـل العشازن وهو الاصل لان القافية « اضطرته » الى حذف حرف من الاصـل وهو جائز فى الشعر ) •

(٧٤) هو احمد بن محمد بن الوليد التميمي المصرى ويعـرف بابن ولاد ، ابو العباس نحوي أصله من البصرة رحل الى بغـداد وتوفي بمصر سنة ٣٣٢هـ ومن أشهر تصانيفه المقصور والممدود والانتصار لسيبويه على المبرد • انظر ترجمته فى : ( معجم الادباء ٤ : ٢٠١ انباه الرواة ١ : ٩٩ ، مرآة الجنان ٢ : ٣١١ ، بغية الوعاة ١٦٩ ، شذرات الذهب ٢ : ٣٣٢ •

(٧٥) نقل ابن هشام النص بتصرف • انظر النقض • النجاشى : هو قيس بن عمرو بن مالك احد بني الحارث بن كعب ، نسب الى امـه وكانت من الحبشة وكان النجاشى من اشراف العرب الا انه كان فاسقا •

والبيت من قطعة له يذكر فيها ذئبا عرض له فى سـفر فدعـاه الى الطعام ، وأجرى على لسانه هذه الابيات ومنها بيت الشاهد وقبله :

فقلت له يا ذئب هل لك فى فتى ... يوآسي بلا قنٍّ عليك ولا بخـل
فقال هـداك الله للرشـد انمـا ... دعوت لمـا لم يأتـه سـبع قبـلى
فلست بآتيـــه ••••••••• الخ

انظر ترجمته فى سمط اللآلى للبكرى ص ٨٩٥ والشعر والشـعراء ١٨٨ ، والخزانة ٤ : ٣٦٧ ، ومعجم البلدان ( الكوفة ) والمعانى الكبير لابن قتيبة ٢٠٧ ، وأمالى المرتضى ٤ : ٢١١ ، وحماسة ابن الشجرى ٢٩٧ ، والعقد الفريد ٤ : ١٨٥ •

الا ترى ان سيبويه قال[٧٦] في باب ما يحتمل الشعر انهم يحذفون فيه ما لا يحذف ، يشبهونه بما قد حذف واستعمل محذوفا كقول العجاج[٧٧] :

قواطنا مكة من وُرق الحَمي[٧٨] .

يريد الحمام قال فالنون من عشوزن محكوم بأنها أصلية حتى يجيء أمر قاطع يبين أنها زائدة ، فأما هذا الموضع فهو موضع /٩ يجوز فيه حذف

---

(٧٦) قال سيبويه ١ : ٨ في باب ما يحتمل الشعر : ( اعلم انه يجوز في الشعر ما لا يجوز في الكلام من صرف ما لا ينصرف ... وحذف ما لا يحذف يشبهونه بما قد حذف واستعمل محذوفا كقول العجاج : قواطنا مكة من ورق الحمي يريد الحمام . ) وقد ذكر الاعلم الشنتمرى ثلاثة آراء لتوجيه كلمة الحمي أحدها : انه حذف الالف لزيادتها فبقي ( حمم ) وأبدل من الميم الثانية ياء استثقالا للتضعيف كما قالوا تظنيت في تظننت ثم كسر ما قبل الياء لتسلم من الانقلاب الى الالف فقال الحمي ( شرح شواهد الكتاب ــ حاشية الكتاب ١ : ٨ ) .

(٧٨) العجاج : أبو الشعث ، عبدالله بن رؤبة البصرى التميمى شاعر راجز مشهور وديوانه مطبوع . انظر ترجمته في : ( الشعر والشعراء ٢٣٠ ، سمط اللآلي ٢ : ١٩٩ ، الاعلام ٤ : ٢١٧ــ٢١٨ ) .

(٧٨) وردت فيالرسالة ( الحم ) بدون ياء ووردت ( الحما ) في نقض ابن ولاد ص ١٥٩ والمشهور كتابتها بالياء كما وردت في مجموع اشعار العرب ج٢ وهو المشتمل على ديواني الاراجيز للعجاج والزفيان بتحقيق الورد ص ٥٩ . وكذلك في سمط اللآئي للبكرى ح ٢ ص ١٩٩ وتهذيب الالفاظ لابن السكيت ص٤٤٥ والعقد الفريد م٤ ص١٨٥ .واللسان مادة (حمم ) .

وقد ورد هذا الشطر في ارجوزة مطلعها :

أدار سلمى يا سلمي ثم اسلمي بسمسم أو عن يمين سمسم

وقبل الشطر المذكور :

ورب هذا البلدِ المحرّم والقاطنات البيت غير الرُيَّم

أوالفاً (أو قواطناً) مكة من ورق الحَمي

ورب هذا الاثر المقسَّم

وبعده :

من بعد ابراهيم لما يُطْسَم بحيث ألقى قدماً لم تذأم

الاصل وليس بقاطع لانه موضع اضطرار ، ولو جمعنا عشوزنا لم نقل الا عشازن • انتهى كلامه ملخصا •

اذا تقرر هذا فنقول التمثيل بعشاوز في جميع عشوزن معترض من جهات : احداها انه لا يجوز الا في ضرورة الشعر كما صرح به ابن ولاد وغيره فكيف يمثل به لما ادُّعيَ انه شاذ هذا ان حملناه على قول سيبويه ، فأما ان فرعنا على قول المبرد فلا يصح التمثيل به من وجهين : أحدهما : انه من مزيد الثلاثي والثاني : انه قياس لازم لا شاذ نادر ، والثانية أن قول ابن مالك « ولا يستبقى دون شذوذ في هذا الجمع مع أربعة أصول زائد»(٧٩) يقتضى انه في الشذوذ يجمع بين الاصول الاربعة وبين الزائد ، وعشاوز ليس كذلك انما فيه ثلاثة أصول وزائد ، والثالثة ان ابن مالك لو أراد الاشارة الى هذا المثال لكان تصريحه بأنهم قد يحذفون الحرف الاصلي ويبقون الزائد أولى من اقتصاره على التنبيه على أنهم قد يبقون الزائد ، لان الاول أوغل من الثاني في الغرابة فهو بالتصريح به والتنصيص عليه أولى • وقلت يوما اختلف في اسطوانة ما وزنها على ثلاثة أقوال : أحدها : انه افعوالة بدليل قولهم أساطين ، ويضعفه أن سطن مهمل • والثاني : انها فُعْلُوانة ، ويضعفه أن أسط مهمل ، والثالث : أنها افعلانة ويضعفه انه يلزم في أساطين حذف الاصل وبقاء الزائد ، فقال لي طالب : فهل يصح التمثيل بهذه لمسألة التسهيل ؟ فقلت لا ، لانها على كل قول من مزيد الثلاثي • ثم انما يصح ان لو كانت رباعية على القول الأخير ، ويرد عليه ما أوردته على من مثّل بعشاوز من أن الاصول لم تستوف فى الجمع • وهذه الاقوال الثلاثة حكاها صاحب الكافي(٨٠) ، وعن الاول للخليل(٨١) ، والثاني

---

(٧٩) التسهيل ص ٢٧٩ •

(٨٠) الكافي فى النحو لابي جعفر أحمد بن محمد النحاس ت ٣٣٨ هـ •

للاخفش[٨٢] ، ومما يُقضَى منه العجب ما حكي لي عن بعض العصريين من انه ذكر أن مثال مسألة التسهيل في كتاب سيبويه ، وهذا مما يعلم من له أدنى ممارسة للكتاب أن الامر بخلافه فأن سيبويه رحمه الله لا يورد في كتابه الامور المستبعدة جدا ، ولهذا لم يورد أشياء كثيرة أوردها غيره كالنصب بلم والجزم بلن ، وأصر ع لى مخالفة علي بن حمزة الكسائي[٨٣] اذ أجاز فاذا هو اياها[٨٤] وان كان له مساغ على ما بينته مبسوطا[٨٥] /١٠ في كتابي الكبير في قواعد الاعراب[٨٦] ، وما ذاك الا لانه رحمه الله لا يلوي على النوادر البعيدة • وان كان مراد هذا القائل مسألة عشوزن وعشاوز فليس

---

(٨١) الخليل بن أحمد بن عبدالرحمن بن أحمد البصري الفراهيدي الازدي ، سيد اهل الادب فى عمله وزهده ، كان من تلامذة أبي عمرو بن العلاء وأخذ عنه سيبويه توفى سنة ١٦٠ هـ • انظر ترجمته فى : ( اخبار النحويين البصريين ٣٨ ، الانساب ٢٤١ ، تهذيب التهذيب ٣ : ١٦٣ ، أنباء الرواة ــ ١ : ٣٤١ ، طبقات الزبيدي ٤٣ ، الفهرست ٤٢ ) •

(٨٢) هو أبو الحسن سعيد بن مسعده الاخفش الاوسط المتوفى سنة ٢١٥ هـ • انظر ترجمته فى : ( اخبار النحويين البصريين ٥٠ ، بغية الوعاة ٥٨٥ ، وتاريخ ابي الفداء ٢ : ٢٩ ، وابن خلكان ١ : ٢٠٨ وشذرات الذهب ٢ : ٣٦ ، وطبقات الزبيدي ٧٤ ، والفهرست ٥٢ ، ومراتب النحويين ٦٨ ، وأنباء الرواة ٢ : ٣٦ ) •

(٨٣) أبو الحسن علي بن حمزة رأس المدرسة الكوفية فى النحو والمتوفى سنة ١٨٩ هـ • انظر ترجمته فى : ( وفيات الاعيان ١ : ٣٣٠ ، طبقات الزبيدي ١٣٨ ، أنباء الرواة ٢ : ٢٥٦ ، مراتب النحويين ١٢٠ ) •

(٨٤) هى المسألة الزنبورية التي تناظر فيها الكسائي وسيبويه وموضوعها هذه العبارة : ( قد كنت أظن أن العقرب أشد لسعا من الزنبور فاذا هو هي أو فاذا هو اياها ) انظر المسألة بكاملها فى الانصاف جـ ٢ ص ٣٧٢ •

(٨٥) بسط الحديث فى هذه المسألة فى كتابه مغني اللبيب جـ ١ ص ٨٠ــ٨٤ وفيها قال : ••••••• وأما فاذا هو اياها ان ثبت فخارج عن القياس واستعمال الفصحاء ، كالجزم بلن والنصب بلم والجر بلعل ، وسيبويه وأصحابه لا يلتفتون لمثل ذلك وان تكلم بعض العرب به ) •

عشاوز في كتاب سيبويه ، وانما فيه عشوزن ، فلا يصح أن يقال أن مثال المسألة مسطور في كتاب سيبويه • فان قلت كيف ساغ لك التمثيل بما أوردته من الامثلة الثلاثة وكلها خارج عن الوزن الذى الكلام فيه ، ألا ترى أنه قال في أول الفصل « ومنها[٨٧] غير فواعل وفعايل من المساويهما في البنية »[٨٨] ، ثم ساق الكلام الى أن قال ( ولا يستبقى دون شذوذ في هذا الجمع )[٨٩] أى في الجمع المساوى لفواعل وفعايل فى الزنة ، قلت : ساغ لي هذا كما ساغ للمصنف أن يقول في هذا الفصل بعينه : ( وما رابعه حرف لين زائد غير مدغم فيه ادغاما اصليا فصل في هذا الجمع ثالثه من آخره بياء ساكنة )[٩٠] وأراد بذلك نحو عصفور وعصافير وسربال[٩١] وسرابيل وقنديل وقناديل ، فكما قال هذا الجمع وذكر حكما لا تبقى معه تلك الصيغة المشار اليها ، كذلك فعل ها هنا • بل قوله هنا ( الا أن يكون حرف لين رابعا )[٩٢] كاف في الاستشهاد ، لانه يشير الى مثل قنديل وقناديل وعصفور وعصافير ونحو ذلك مما قد مناه وشبهه • فهذا منتهى

---

(٨٦) هو مغني اللبيب : قال ( واصل ذلك علم الاعراب الهادي الى صواب الصواب • وقد كنت عام تسعة وأربعين وسبعمائة أنشأت بمكة زادها الله شرفاً كتابا فى ذلك منورا من أرجاء قواعده كل حالك • ثم انني أصبت به وبغيره فى منصرفي الى مصر • ولما منّ الله عليّ فى عام ستة وخمسين بمعاودة حرم الله والمجاورة فى خير بلاد ووضعت هذا التصنيف على أحسن احكام وترصيف وتتبعت فيه مقفلات مسائل الاعراب فافتتحتها ١٠٠٠ : ٩ ) • ومعنى هذا انه ليس له كتاب كبير فى الاعراب غير المغني •

(٨٧) لفظة (وفيها) غير موجودة فى متن التسهيل وانما هي زيادة من ابن هشام ، انظر ص ٢٧٨ •

(٨٨ و٨٩و٩٠) انظر التسهيل ص ٢٧٨ •

(٩١) السربال : القميص والدرع وقيل كل ما لبس فهو سربال ( اللسان مادة : سرمل ) •

(٩٢) التسهيل ص ٢٧٨ •

القول في هذه المسألة ولو شئت اطالة القول فيها والاستظهار بتكثير الادلة وايراد نصوص العلماء على أصالة نون عنكبوت وتاء تخربوت لفعلت ولكني آثرت الايجاز ، لا التوسيع ، والافادة لا التشنيع ، وحسبك من القلادة ما أحاط بالجيد ، وبالله تعالى المستعان ، وعليه التكلان ، ولا حول ولا قوة الا ( بالله )[٩٣] .

## مراجع التحقيق والدراسة


١ ـ القرآن الكريم .

٢ ـ آداب اللغة العربية ـ جرجي زيدان ـ مطبعة الهلال ١٩١٣م .

٣ ـ الاستدراك على سيبويه في كتاب الابنية والزيادات ـ لابى بكر الزبيدى طبعة روما ـ ١٨٩٠م .

٤ ـ الاعلام ـ الزركلى م٤ .

٥ ـ الامالى ـ لابي علي القالى ـ طبعة دار الكتب المصرية ـ ١٩٢٧م .

٦ ـ أمالى المرتضى ـ تحقيق ابى الفضل ابراهيم ـ جـ٤ ـ دار الكتاب العربى بيروت ١٩٦٧ .

٧ ـ الانتصار لسيبويه على المبرد ـ لابن ولاد ـ مخطوطة المتحف العراقى تحت رقم ١٣٥٢ .

٨ ـ الانصاف في مسائل الخلاف ـ لابن الانبارى جـ٢ ط٣ مطبعة السعادة ـ مصر ١٩٥٥ .

٩ ـ البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع م١ ط١ ـ مطبعة السعادة ـ مصر ١٣٤٨هـ .

١٠ـ بغية الوعاة ـ السيوطي ـ مطبعة السعادة ـ مصر ـ ١٣٢٦هـ .

١١ـ البيان والتبيين ـ الجاحظ ـ تحقيق السندوبى جـ١ ط٤ ـ ـ القاهرة ١٩٥٦ .


---

(٩٣) زيادة يقتضيها السياق .

١٢ـ تاج العروس من جواهر القاموس ـ للزبيدى ـ طبعة الكويت •
١٣ـ تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد ـ لابن مالك ـ طبعة دار الكاتب العربي ـ القاهرة ١٩٦٧ •
١٤ـ تفسير القرطبي جـ١٧ ط١ ـ دار الكتب المصرية ـ ١٩٤٨ •
١٥ـ تفسير الكشاف ـ الزمخشرى جـ٤ طبعة البابى الحلبى ـ القاهرة ١٩٦٦ •
١٦ـ تهذيب الالفاظ ـ لابن السكيت ـ بيروت ١٨٩٥ •
١٧ـ حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة ـ السيوطى جـ١ ـ مطبعة الوطن ـ مصر ١٢٩٩هـ •
١٨ـ خزانة الادب ـ للبغدادى جـ٤ ـ الطبعة الاولى •
١٩ـ الدرر الكامنة ـ لابن حجر العسقلاني ط١ ـ حيدر آباد ١٣٤٩هـ •
٢٠ـ ديوان الشماخ بن ضرار ـ شرح الشنقيطى ـ القاهرة ـ ١٣٢٧هـ •
٢١ـ ديوان العجاج ـ ضمن مجموع اشعار العرب ـ طبعة ليبسك ١٩٠٣ بتحقيق ألورد •
٢٢ـ روضات الجنات ـ الخونسارى ـ طبعة حجرية ١٣٠٧هـ •
٢٣ـ سمط اللآلى في شرح أمالى القالى ـ لابى عبيد البكرى ـ تحقيق عبدالعزيز الميمنى الراجكوتى ـ القاهرة ١٩٣٦م •
٢٤ـ شرح ابن الخباز على الدرة الالفية لابن معطي ـ مخطوط مكتبة المتحف العراقى ـ تحت رقم ٢٣٩٣ •
٢٥ـ شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك جـ٢ ط١٤ ـ مطبعة السعادة ـ مصر ١٩٦٥م •
٢٦ـ شرح شافية ابن الحاجب ـ لرضي الدين الاستربادى ـ مطبعة حجازى ـ القاهرة ١٣٥٦هـ •
٢٧ـ شعر النمر بن تولب ـ تحقيق د• نورى القيسى ـ مطبعة المعارف ـ بغداد •

٢٨ـ الصحاح ـ الجوهرى ـ مخطوطة مكتبة المتحف العراقى •
٢٩ـ طبقات القراء ـ لابن الجزرى ـ طبعة الخانجى ١٩٣٢م •
٣٠ـ العقد الفريد ـ ابن عبد ربه ـ جـ٤ ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٧ •
٣١ـ القاموس المحيط ـ للفيروزابادى •
٣٢ـ كتاب سيبويه ـ طبعة بولاق •
٣٣ـ لسان العرب ـ ابن منظور ـ طبعة بولاق •
٣٤ـ المحتسب في القراءات الشاذة ـ لابن جني ـ طبعة دار الكتب المصرية•
٣٥ـ مغني اللبيب ـ لابن هشام الانصارى ـ جـ١ ـ مطبعة المدنى ـ القاهرة•
٣٦ـ مقدمة ابن خلدون جـ٣ طبعة باريس ١٨٥٨م •
٣٧ـ الممتع لابن عصفور جـ١ ـ تحقيق فخرالدين قباوة ـ ط المطبعة العربية ـ حلب ـ ١٩٧٠ •
٣٨ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ـ لابن تغري بردي جـ١٠ حوادث سنة ٧٦١هـ •

# النمو الاقتصادى وتطور السكان والعمالة فى البحرين

النمو الاقتصادى وتطور السكان والعمالة فى البحرين

**الدكتور محمد سعيد الحديثى**

**المدرس فى قسم الجغرافية**

**مقدمة**

يلحظ الزائر لهذا البلد العربى الشقيق نهضه اقتصادية واجتماعية تتلمس طريقها فى ضوء تخطيط علمى مدروس • وقد اتيحت لى فرصة الاطلاع والوقوف على جوانب هذه النهضة • الا ان الواجب العلمى والقومى فى الوقت نفسه يدفعني الى ابداء بعض الملاحظات عسى أن يكون لها نفع يجنب الباحثين فى هذا المضمار بعض عثرتهم •

ولسنا هنا فى مجال بحث مختلف جوانب الموضوع وانما سنقتصر دراستنا على الجانب البشرى لما لهذا من اهمية بالغة فى مختلف خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية ان لم يكن عمادها الاول والاخير •

فاذا كان قد قدر للبحرين ان تكون عروسة الخليج بسبب موقعها الجغرافى فى منطقة وسط من الخليج العربى ومركزها التجارى القريب من ساحل الخليج الغربى من ناحية ولسهولة الانتقال اليها من ساحله الشرقى فأن لذلك اثر كبير فى تكوين سكانها ومكانتها التى سوف تزداد على مر الايام اهمية وتقدما وازدهارا ورقيا لان فيها من الطاقات البشرية والمعدنية والزراعية ما يؤهلها لذلك •

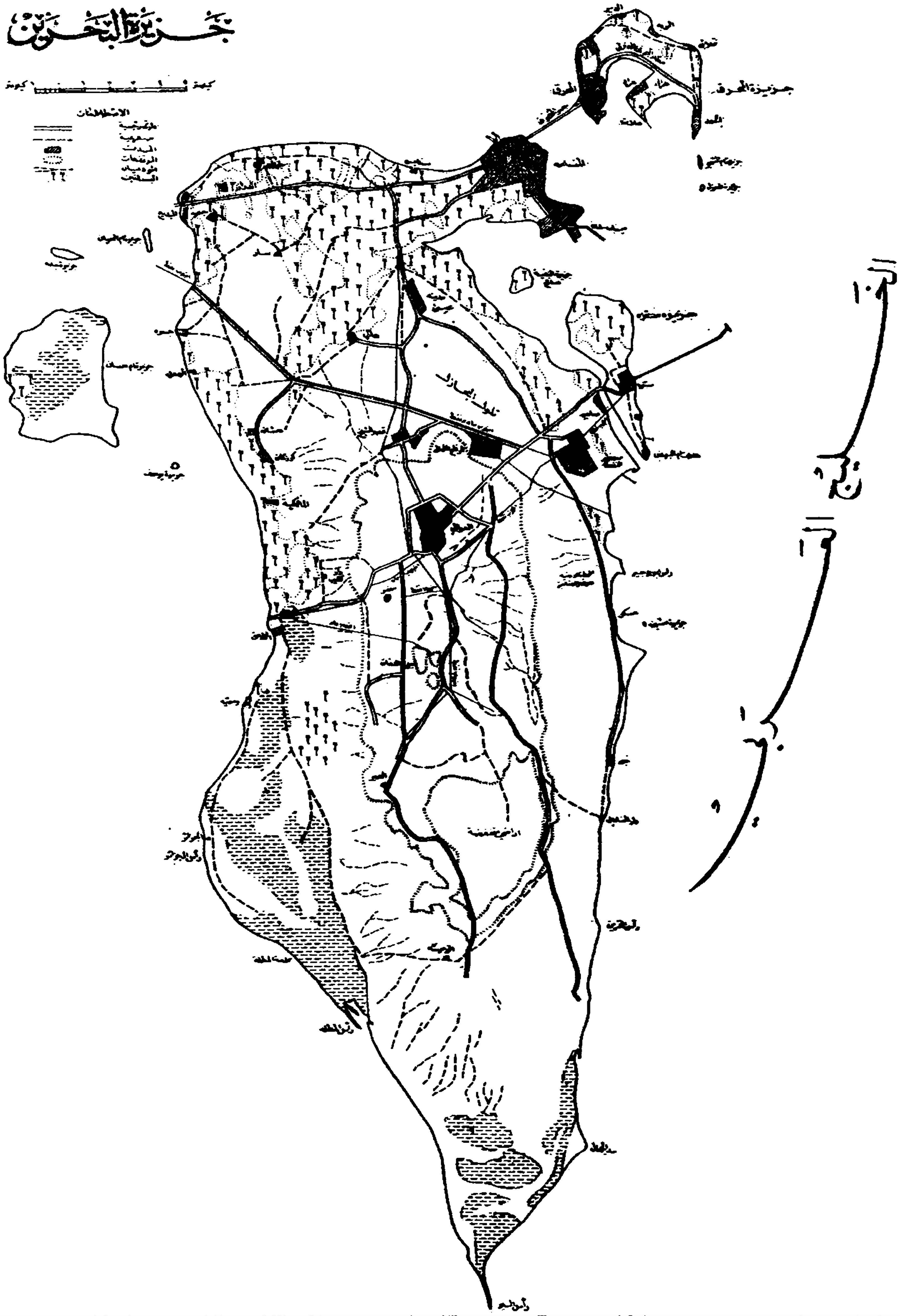
ان سكان البحرين كغيرهم من سكان سواحل الخليج العربى ، عرب انحدروا من سلالات عربية كان بعضها يقطن من عهد بعيد والبعض الآخر انحدروا اليها من جماعات عربيـة من الجزيرة العربية على مر العصور وطبعتها بطابعها العربي المميز • الا ان الفترة القصيرة التي خضعت بهـا للنفوذ الاجنبى شجعت هجرات جماعات مسلمة بشكل واضح اضافت الى مجموعة سكانها العربية مجموعات صغيرة اخرى هاجرت من جنوب شرق اسيا ومن الجهات المجاورة لها من ناحية الشرق • وقد تزايدت هجـرة الجماعات غير العربية من الجهات الانفة الذكر فى فترة الاحتلال البريطانى نتيجة لتشجيعها سياسة الاستيطان فيها • وقد بزت هجرة هذه الاقليـات المهاجرة الغير عربية المجموعة العربية فى مكانتها الاقتصادية والاجتماعيـة وما يرتبط بذلك من نواحى اخرى •

وعليه كان جانب من هذه الدراسة يتعلق بكشف طبيعة هذه الهجرة وتأثيرها على النواحى التى اشرنا اليها انفا ولاسيما فيما يتعلق بجوانب التنمية الاقتصادية التى ترتبط بتطور السكان والقوى العاملة •

ان التطور السكاني الملحوظ فى دولة أمارة البحرين يتطلب تنميـة اقتصادية سريعة متوازنة للحيلولة دون ان تبق نسبة التخلف التى تعانى منها الامارة أعلى من نسبة النمو الاقتصادي أو ما يعادلها • فضلا عن هذا فان مثل هذه تحول دون النكسات والاختناقات التى قد يسببها التطور والاندفاع فى جانب والبطىء فى جانب اخر فى فروع الحياة الاقتصادية والاجتماعية • وحتى تكون التنمية الاقتصادية واضحة الاهداف متكاملة الجوانب لابد لنـا ان نأخذ بنظر الاعتبار الخصائص التى تميز السكان والقوى العاملة والنشاط الاقتصادى فى دولة امارة البحرين كبلد نموذجى فى هذه الدراسة •

فعلى سبيل المثال • ان اقامة معمل الالمنيوم فى مطلع عام ١٩٧١ فـى البحرين لم يرتكز على خبرة أو مواد خام أو رأس مال وطني فيمـا عـدا مصدر الطاقة •

# جزيرة البحرين



وبعبارة اخرى ان العامل الاساسي الذي حدا الاستثمارات الاجنبية الى اقامة هذا المصنع وموافقة البحرين على ذلك هو رخص الايدى العاملة المستوردة ومصدر الطاقة وموقع البحرين الاقتصادى بالنسبة لسوق منتجات هذا المعمل والتى تتمثل فى النهضة العمرانية التى تشهدها منطقة الخليج العربى •

ان مثل هذا النوع من التصنيع رغم دلالته الظاهرية من الناحية الاقتصادية لا يلعب دورا ايجابيا فى التنمية الصناعية فى البلاد بل ربما كان العكس هو الصحيح وذلك لانه لا يتفق وامكانات البلاد من النواحى التى اشرنا اليها انفا من ناحية ولا يكون متكاملا صناعيا مع ما موجود حاليا او مما يمكن انشاءه فى المستقبل من صناعات • فان رأس المال الاجنبى المستثمر فى مختلف النواحى الاقتصادية وفق خطط مدروسة تهدف فى آخر الامر الى انعاش اقتصاد البلاد والنهوض به • وانما كان القصد من رأس المال المستثمر استغلال موارد البلاد لصالح مناطق تقع خارج حدودها السياسية • اذ ينحصر استثمار الموارد الحالية الاجنبية ونشاط الفنيين والخبراء فى تعبيد الطرق وانشاء المطارات والموانىء ومد انابيب نقل الزيب وغيرها من المنشأت لاغراض عسكرية وتجارية فى آن واحد • لذا تختلف حصيلة الاستثمارات الاجنبية فى زيادة صادرات الامارات من مواردها الخام ولا سيما الموارد غير المتحددة كالنفط مثلا[1] • ومعنى هذا ان طبيعة الاستثمار هنا يهدف الى استزاف موارد البلاد واستغلال طاقاتها لا العمل على تنميتها والحفاظ عليها •

ان الاحتكارات البترولية الامبريالية مثلا عملت بشكل متعمد ولفترة طويلة على جعل اقتصاد الامارات العربية المنتجة للنفط ، ومنها دولة امارة

---

(١) عبدالله الطريقى ، تعاون لاستغلال ، مجلة نفط العرب عدد ٢ ، السنة السابعة تشرين ثانى ١٩٧١ • ص٧ •

البحرين ، متأخرا وتابعا ومضطربا وحيد الجانب • وعملت ايضا على اضعاف هذه الامارات وارهاق ميزانياتها بالنفقات غير الانتاجية • اضافه الى ان عوائد النفط والميزانيات المالية فى امارات الخليج العربى المنتجة للنفط تتفق فى الغالب ومصلحة مجموعة صغيرة من الفئات المالكة •

ولذا فان هذه الامارات فى الوقت الحاضر بما فى ذلك البحرين تعتمد اعتمادا كليا على سد حاجاتها الضرورية من سلع غذائية ومصنوعة عن طريق الاستيراد من الخارج • ويظهر هذا بوضوح من ارتفاع نصيب الفرد من الاستيراد مما يفوق الدول العربية الاخرى •

وبناء على ذلك تصبح خطط التنمية الاقتصادية المقصودة امرا ضروريا وحاسما لوضع حد لمثل هذا النوع من التخطيط الذى يحرم البلاد من تنمية مواردها وجعلها عاجزة عن سد ابسط المتطلبات • ويمكن فى هذه الحالة ان تصبح عوائد النفط المتزايدة دعامة اساسية لتنفيذ برامج التنمية • الا ان دراسة الجوانب المختلفة يتطلب بحثا مطولا مما نحن ليس بصدده فى دراستنا هذه اذ ستقتصر على دراسة الجانب البشرى ولا سيما بعض خصائص السكان متخذين من ذلك منطلقا للباحثين فى مختلف موضوعات التنمية لهذا البلد الشقيق •

وحتى نبني اسس هذه الدراسة على واقع السكان فى البلاد عمدنا الى الاخذ بعمليات تعدادهم التى اجريت فى سنوات مختلفة فى الفترة التى بدأت فى ١٩٤١ وانتهت سنة ١٩٦٥ ولم نأخذ بتقدير السكان لعام ١٩٧١ لانه لم يجر وفق طرق تعداد السكان المعمول بها دوليا وانما كان مجرد تخمين لا يعتمد على اساس واضح او طريقة معمول بها •

وارجو ان لا يستشف من قولنا هذا بأن دراستنا سوف تعنى بظواهر السكان هنا اذ أنها سوف تؤكد على امرين اساسيين :ـ

أ ـ علاقة نمو السكان بزيادة اقوى العاملة •

ب ـ تغير التوزيع الحرفى وعلاقته بالنشاط الاقتصادى مما يلقى الضوء على نسبته من مجموع القوى العاملة فى البلاد •

وتأكيدنا على هاتين الناحيتين يمكننا من التعرف على ظاهرتين سكانيتين اساسيتين هما :

١ ـ اتجاه النمو فى اعمار القادرين على العمل من مجموع السكان•

٢ ـ نسبة القوى العاملة من سكان البحرين الاصليين •

**نمو السكان فى البحرين :**

يرد فى بعض المراجع التي تناولت دراسة البحرين اشارات الى عدد سكانها اذ قدر عددهم عام ١٨٩٧ بحوالى ٦٨/٠٠٠ نسمة[٢] الا ان تعداد السكان الذى يمكن الاعتماد عليه هو الذى تم بين عامى ١٩٤١ و ١٩٦٥ كما مبين فى الجدول ادناه •

---

(2) ABBAS FAROUGHY. " THE BAHRAIN ISLAND. (1950-1951) " NEW YORK 1951. P. 18.

## جدول رقم (١)

### سكان البحرين فى الاعوام ١٩٤١ ، ١٩٥٠ ، ١٩٥٩ ، ١٩٦٥ ٠

### والنسبة المئوية للبحرنيين وغير البحرنيين من مجموع السكان(٣)

| الجنسية | النوع | ١٩٤١ ك الثاني | ٪ | ١٩٥٠ مـــارت | ٪ | ١٩٥٩ مايس | ٪ | ١٩٦٥ شباط | ٪ |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| بحرنيين | ذكـور | — | | — | | ٥٩ر٩١٣ | | ٧٢ر٣٦٨ | |
| | انـاث | — | | — | | ٥٨ر٨٢١ | | ٧١ر٤٤٦ | |
| | المجموع | ٧٤ر٠٤٠ | ٨٢ر٣ | ٩١ر١٧٩ | ٨٢ر٢ | ١١٨ر٧٣٤ | ٨٣ر٠ | ١٤٣ر٨١٤ | ٧٨ر٩ |
| غير بحرنيين | ذكـور | — | | — | | ١٧ر٧٠٩ | | ٢٧ر٠١٦ | |
| | انـاث | — | | — | | ٦ر٦٩٢ | | ١١ر٣٧٣ | |
| | المجموع | ١٥ر٩٣٠ | ١٧ر٧ | ١٨ر٤٧١ | ١٦ر٨ | ٢٤ر٤٠١ | ١٧ر٠ | ٣٨ر٣٨٩ | ٢١ر١ |
| المجمـوع | ذكـور | ٤٨ر٢٦٧ | | ٥٨ر٦٠١ | | ٧٧ر٦٢٢ | | ٩٩ر٣٨٤ | |
| | انـاث | ٤١ر٧٠٣ | | ٥١ر٠٤٩ | | ٦٥ر٥١٣ | | ٨٢ر٨١٩ | |
| | المجمـوع | ٥٩ر٩٧٠ | | ١٠٩ر٦٥٠ | | ١٤٣ر١٣٥ | | ١٨٢ر٢٠٣ | |

(٣) دائرة المالية والاقتصاد الوطنى ـ حكومة البحرين ٠ المجموعـة الاحصائية السنوية مكتب الاحصاء ٠ يوليو سنة ١٩٧٠ ٠ ص٣ ، ٦ ٠

ويتضح من الجدول السابق النقاط الاتية :ـ

(١) ان نمو السكان الاجمالى فى امارة البحرين قد تضاعف خلال فترة الاربعة والعشرين عاما الاخيرة تقريبا • فبعد ان كان فى حدود ٩٠ ألف نسمة عام ١٩٤١ اصبح فى سنة ١٩٦٥ حوالى ١٨٢ر٢٠٩ ألف نسمة أي حوالي ضعف عددهم(٤) • عاذا سارت هذه الزيادة بنفس نسبة النمو والاتجاه فان عدد السكان فى الامارة سوف يصبح بعد أقل من ٢٥ عاما فى حدود ضعف العدد الذى كان عليه فى سنة التعداد الاخير ولكن قد يختلف هذا التقدير بسبب ان هذه الزيادة وتضاعف عدد السكان لم يكن ناشىء عن زيادة طبيعية فى اعدادهم • وتبعا لزيادة المواليد فقد كان عام ١٩٥٩ فى حدود ( ١٣٥ و ١٤٣ ) الف نسمة وهذه فترة قصيرة اذا ماقيست أو قورنت بالفترات التي يتضاعف بها السكان فى البلاد الاخرى(٥) •

فاذا اعتبرنا زيادة السكان فى البحرين شبيهة بما هي عليه فى الاقطار العربية المجاورة كالكويت والعراق حيث يبلغ معدل الزيادة الطبيعية حوالى ٢ر٣٪ فان مقدار الزيادة العددية الطبيعية فى البحرين تقع فى حدود ٢٦ ألف نسمة وذلك فى الفترة الممتدة من ١٩٥٩ الى ١٩٦٥ • فى حين يظهر الجدول ان الزيادة بلغت ٣٩ ألف نسمة وهى زيادة لا يمكن ان تفسر الا فى ضوء اعداد مهاجرة وفدت البلاد واستقرت بها • وهذا يعنى ان هناك زيادة سنوية تقدر بحوالى ٢٥٠٠ نسمة منشاءها خارج البلاد مما له اثره فى اخلال برامج التنمية والتخطيط لخير ابنائها لا سيما اذا علمنا ان هؤلاء الشباب قادرين على العمل • ونظرا لاهمية هذا الموضوع فقد اشرنا اليه بشىء من التفصيل فيما يأتى من دراستنا •

وليس من احد يستطيع القول علميا ان ريف البحرين فى ضوء

---

(٤) انظر الشكل رقم ١ ، ٢ •
(٥) المصدر السابق • ص٦

البناء الهيكلي والمؤسسات الاقتصادية والمالية القائمة حاليا قادر ان يقـــدم المواد الغذائية لهذه الزيادة السكانية أو ان يعمل على رفع مستوى التغـذية الحالى • اى ان الزيادة السكانية المرتفعة هذه تعمل عـــلى زيادة عـــدد المستهلكين من ناحية وتعمل على تغيير فئات السن حيث ترتفع فئات صغـار السن فى حالة الزيادة الطبيعية والفئات الشابه القادرة على العمل فى حالـة الهجـرة •

وعلى الرغم من ان الاتجاهات العامة للتطور القادم للسكان فى هـذه الامارة غير واضحة بشكل جيد حتى الان نتيجة لعدة عوامل اهمها :ـ

أ ـ عدم تكامل الاحصاءات ووضوحها •

ب ـ عدم وجود احصاءات دقيقة موثوق بها عن الهجرة الايرانيـــة او غيرهـا •

جـ ـ ان تطور الولادات والوفيات فى السنوات القادمة يرتبط بصورة مباشرة بخطط التنمية الاقتصادية وسياسة الاستيطان • الا ان معدلات المواليد المرتفعة تؤدى بدورها الى ارتفاع نسبة الفئات الشابه فى المجتمع البحرانى • مم يؤدي الى ارتفاع نسبة غير العاملين اقتصـاديا من طلبة أو أفراد دون سن العمل • وتزداد هذه الظاهرة خطورة اذا عرفنـا أن معظـم الافـــراد المهاجرين الى البحرين هم الفئات الشابة • اذ تشير البيانات الاحصائية الى ان اعمار ٦٩٪ منهم فى سنة ٩٦٥ تتروح من ١٦ـ٣٠ سنة بعد ما كـانت نسبتهم عام ١٩٥٩ حوالى ٥٣٪[٦] الا ان هؤلاء لا تظهر لهم اثار واضحـة فى معدلات الولادات وذلك للاسباب التالية :ـ

أ ـ ان الغالبية العظمى منهم لا يستقر طويلا فى البلاد اذ يعمل على جمع ما يستطيع جمعه من المال فى أقرب فرصة والعودة الى بلاده •

---

(٦) لاحظ جدول رقم (٢ ، ٣) •

ب ـ صعوبة حصول الكثير من هؤلاء المهاجرين على موافقة السلطات المحلية للاقامة والعمل فى البلاد او التجنس •

جـ ـ قلة عدد النساء المهاجرات قلة واضحة بالنسبة الى عدد المهاجرين من الرجال وقلة من يتزوج منهم كما توضح ذلك المعلومات الواردة فى الجداول الملحقة •

٢ ـ لقد بلغ معدل النمو السكانى للمحليين خلال الفترة ما بين التعدادين ١٩٥٩ـ١٩٦٥ (١٢ر٢١٪) أي ان معدل الزيادة السنوية بلغت ٢ر٣/مما جعل دولة البحرين من الدول التي ترتفع فيها نسبة زيادة السكان • واذا أضفنا نسبة زيادة غير الوطنيين سواء كانت زيادة طبيعية بينهم أو زيادة ناشئة عن الهجرة فان ذلك سوف يعطينا وجها آخر •

والجدول أدناه يبين عدد السكان والنسبة المئوية فى السكان من البحرنيين وغير البحرنيين ومعدل الزيادة السنوية من ١٩٤١ـ١٩٦٤[٧] •

**جدول رقم (٤)**

| سنة التعداد | عدد السكان | الزيادة المئوية بين التعدادين للبحرانيين | الزيادة المئوية بين التعدادين لغير البحرانيين | الزيادة للسكان بالمائة | معدل الزيادة السنوية بين التعدادين |
|---|---|---|---|---|---|
| ١٩٤٩ | ٨٩ر٩٧٠ | — | — | — | — |
| ١٩٥٠ | ١٠٩ر٦٥٠ | ٢٣ر١٥ | ١٥ر٩٥ | ٢١ر٩ | ٢ر٤ |
| ١٩٥٩ | ١٤٣ر١٣٥ | ٣٠ر٢٢ | ٣٢ر١٠ | ٣٠ر٥٤ | ٣ر٤ |
| ١٩٦٥ | ١٨٢ر٢٠٣ | ٢١ر١٢ | ٥٧ر٣٣ | ٢٧ر٢٩ | ٤ر٦ |

(٧) حكومة البحرين • مكتب الاحصاء سنة ١٩٦٩ • ص٣ •

ملاحظة :ـ على الرغم من ان الزيادة المتوسطة فى السنة لمانت تقدر بـ ٣ر١٤٣ نسمة (٢ر٩٠٧) بحرنيين و ٩٣٦ غير بحرنى الا انه ليس من اللازم ان يتوزع معدل الزيادة السنوى بالتساوى خلال الفترة ما بين التعداديين وذلك لسببين هما :ـ

أ ـ ان المعدل يختلف من سنة لاخرى نتيجة لاختلاف الحالات المرضية والولادات والوفيات •

ب ـ ان معدل الزيادة السنوى للمهاجرين متباين من سنة لاخرى نتيجة لتباين سياسة الدولة ازاء المهاجرين والتنمية الاقتصادية •

يتضح من الجدول اعلاه ان نسبة زيادة سكان البلاد الاصليين تكون ٣٩٪ من نسبة زيادة غير البحرنيين • وان عدد البحرنيين لم يتضاعف تماما خلال ٢٤ عام ( لزيادة ٤٩٪ ) فى حين ان غير البحرنيين قد زاد عددهم مرتين ونصف عما كان عليه عام ١٩٤١ • وهذه دلالة لها ابعاد لمبيرة • فاذا استمرت نسبة الزيادة لغير البحرنيين بالصورة التى ذكرناها آنفا فان سكان البلاد الاصليين سيصبحون فى المستقبل القريب اقلية فى بلادهم • هذا الامر لابد من معالجته والحيلولة دون حدوثه •

وان حوالى ٧٠٪ من سكان البحرين دون الثلاثين اى ان ثلاثة ارباع السكان فى الامارة من الشباب العاملين الذين يطمعون دائما شأنهم اخوانهم فى العالم العربى الى تأكيد شخصيتهم بوسائل جديدة لتتفق والتطور والوضع الدولى والعربى فى العالم •

ومن المؤكد ان الامر بالنسبة الى البحرين سيبقى على ما هو عليه او يعمل على تثبيت هذا الواقع ادخال الطب الحديث الذى ادى الى قلة نسبة الوفيات قلة واضحة فى المدن فى حين انها لا تزال مرتفة فى الريف البحرانى وذلك لقلة المؤسسات الصحية العاملة فيه •

٣ ـ يبلغ متوسط معدل الاعمار للسكان المحليين حوالي ٣ر٢٠ سنة في سنة ١٩٦٥ بعد ان كان ٥ر٢٢ سنة ١٩٥٩ • حيث ان نسبة الافـــراد الذين تقل اعمارهم عن الثلاثين عاما تبلغ حوالى ٧٤٪ بعد ان كانت لاتتعدى ٦٨٪ في سنة ١٩٥٩ • وتدلنا الارقام والمعدلات الانفة الذكر على مدى صغر سن السكان المحليين وأهمية ذلك من الناحية الاقتصادية حيث يتطلب هـذا العدد الكثير من الخدمات والمواد الغذائية من جهة ومجالات العمل من جهة اخرى • وان مثل هذا العامل الديموغرافي من الناحية النظرية يجعـــل القسم الاكبر من افراد المجتمع في سن الانجاب مما يؤدى الى زيادة كبيرة في المستقبل • اذ ان هناك علاقة طردية بين درجة الخصوبة لاى مجتمع من المجتمعات وحجم الفئات الشابه فيه •

ولتوضيح هذه الظاهرة نجد ان عدد الطلاب في المراحل التعليميـــة الثلاث • الابتدائية ، المتوسطة ، والثانوية والمدارس الدينية والصناعية والتعليم العالى في دولة البحرين قد تزايد في الفترة ما بـين ١٩٤٥ـ١٩٦٥ـ١٩٧٠ بنسبة كبيرة جدا بحيث وصل عدد هذا التزايد الى ٤٧ر٦٦٦ طالب بعد ان كان عددهم ٣٥ر٧١٥ طالبا عام ١٩٦٥ و ٢ر٠٨٩ طالبا فقط عام ١٩٤٥ •

٤ ـ ان مجموع السكان المحليين الذين تقل اعمارهم عن ١٦ ســنة يتجاوز ٥٠٪ من المجموع الكلى للسـكان المحليين حسب احصـاء ســنة ١٩٦٥ • وهذه النسبة العالية جدا تستدعى الاهتمام عند وضع خطة التنمية الاجتماعية والتعليمية وتقديم الخدمات • كما انها توضح لنا ان نصف سكان البحرين المحليين مستهلكين وغير منتجين وانهم وفي ظرف خمس ســنوات سوف تصبح نسبة كبيرة منهم قوة منتجة في البحرين مما يؤدي الى خلق مشكلة كبيرة في اقتصاد الدولة ما لم تستوعب هذه الزيادة • فاذا لم تتخذ التدابير اللازمة لتحقيق ذلك فان ذلك سيؤدى الى هبوط دخل الفرد كما ان توزيع الدخل القومى سيصبح اقل توازنا • وذلك لان الدولة ســوف

تضطر الى رصد مبالغ اضافية كبيرة من ميزانيتها لتوفير الخدمات • وهـذا يجعل زيادة السكان الطبيعيـة عبئـا ثقيـلا على عملية التخطيط والتنميـة الاقتصادية فى دولة البحرين •

٥ ـ ان عدد الاناث المحليات اللاتى تتراوح اعمارهن ما بين ١٥ـ٤٥ سنة يبلغ حوالى ٤٤٪ من المجموع الكلى للاناث مما يشير الى تزايد عـدد الاناث اللواتى فى مرحلة الزواج وما سيترتب عليها من زيادة طبيعية للسكان من ناحية وزيادة الطالبات للعمل من ناحية اخرى • وتشير هذه النسـبة ايضا الى ان الخصوبة عالية فى هذه الفئة بالرغم من انها تأخذ بالقلة كلمـا تطور المجتمع وتقدم فى مضمار الحضارة • فهى ترتفع فى الريف البحرانى عنها فى مدينة المنامة والمحرق كما انها تتباين فى مدينة المنامة ذاتها تبعـا للمستوى الثقافى والاقتصادى للسكان •

**القوى العاملة فعلا فى دولة البحرين**

ان التعدادات المتوفرة عن القوى البشرية العاملة والموارد البشريـة الاخرى فى البحرين لا تتعدى كونها ارقاما وبيانات توافرت اثر ظهـور نتائج تعداد السكان لسنة ١٩٦٥ • فقد كان عدد العاملين الفعليين بعد اجراء تعداد سنة ١٩٦٥ • حوالى ٥١ ألف عامل بعد ان كان عددهم ٤٥ر٤٧٩ الف عامل سنة ١٩٥٩ أو حوالى ٣٢٪ من مجموع السكان[٨] • وقد بلغ مجموع العاملين فى القطاع الزراعى عام ١٩٦٥ حوالى ٢٥ الف نسمة فقط او ٤٥٪ من مجموع القوى العاملة فى البلاد • وان هذه النسبة تعكس الدور الهـام الذى تلعه الزراعة فى اقتصاد البحرين مما يعنى ان التنمية الزراعية لهـا اهمية فى توفير اسباب العمل من ناحية ورفع اقتصاده من ناحية اخـرى • ويمارس مهنة التجارة الان نحو (٨) الاف تاجر وعامل يمثلون نسبة ١٥٪

---

(٨) لاحظ جدول رقم (٥) •

من مجموع القوى العاملة الفعلية • وتشير التعدادات السكانية الى ان نسبة العاملين الفعليين المحليين قد انخفضت من مجموع القوى العاملة الفعلية من ٦٦٪ لسنة ١٩٥٩ الى ٥٩٪ لسنة ١٩٦٥ • ويمكن تعليل هذا الانخفاض فى نسبة العاملين الفعليين المحليين من السكان العرب فى البحرين ـ والبالغة ٧٪ بين عامى ٩٥٩/٩٦٥ • الى زيادة عدد الايرانيين المهاجرين الى البحرين• فى حين ان الزيادة العددية للقوى العاملة بين ٩٥٩/٩٦٥ قد بلغت ٧٫٧٩٥ عامل بينهم ٧٠٠ عامل بحريني فقط وان أكثر من نصف هـذا العدد من العاطلين • وبعبارة اخرى ان حجم الهجرة من الايرانيين وغيرهم لا يتفق والحاجة الماسة الى اليد العاملة ولا سيما ان بعض ابنـاء البلاد لا يجـدون عمـلا لهم(٩) •

ويمكن اجمال اهم خصائص القوى العاملة الفعلية فـى البحـرين بالنقاط التالية :ـ

(١) يستدل من التعدادات ان نسبة العاملين الى مجموع السكان فى البحرين قد هبطت من ٣٢٪ لسنة ١٩٥٩ الى ٢٩٪ لسنة ١٩٦٥ • وكان ذلك نتيجة التغيرات التى طرأت على التركيب العمرى للسكان ما بين التعدادين فى حين نرى ان خلال الفترة نفسها ارتفعت نسبة العاملين من الاجانب من ٣٥٪ الى ٤١٪ من مجموعهم الكلى لان نسبة الفتيان منهم عالية • وكذلـك يظهر لنا تضاوؤل هذه النسبة المئوية اذا ما اخذنا بنظر الاعتبار نسبة العاملين الفعليين المحليين بصورة منفردة حيث ان النسبة الكليـة للعامـلين الفعليين المحليين لا تتعدى ٢٥٪ من المجموع الكلى للسكان المحليين • ان هـذه النسبة المئوية من مجموع السكان هى التى تقوم بتوفير جميع الحاجـات والخدمات لسائر السكان فى امارة البحرين • فبالرغم من ان العاملين من

---

(٩) حكومة البحرين دائرة المالية • مكتب الاحصاء ١٩٦٩ هذه الارقام والنسب مستقاة من جدول (٣٠ ـ ٣٤ ) •

الذكور يمثلون حوالي ٥١٪ من مجموع الذكور فى كل الاعمار الى ان عدد العاملين البحرينيين الذكور قد زادو النسبة ٥٪ خلال السنوات الست فيما بين التعدادين فى حين ان الزيادة فى عدد غير البحرينيين الذكـــور قد بلغت نسبتها ٣٦٪ خلال الفترة نفسها •

٢ ــ ان الزيادة الواقعة بين الافراد البالغين سن الرشد من السكان المحليين ما بين ٩٥٩ـ١٩٦٥ كانت اكثر من (٧) الاف نسمة • اى بزيادة سنوية قدرها ١٩٪ وبهذا نجد ان الزيادة ستبقى هامة وتؤثر على مجمـل تطور الامارة بما ينتج عنها من مشاكل متعددة وذلك ما دامت غير خاضعة للتخطيط • ويرتبط بهذه الزيادة السكانية ايضا عدم تكافؤ توزيع السكان بصورة عامة على القطاعات الاقتصادية فى الامارة • وعلى الرغم من الزراعة فى البحرين تفتقر الى الايدى العاملة الا ان هناك عملية تغيير فى طرق استغلال الاراضي الزراعية وخاصة فى المناطق المجاورة لمدينة المنامة اذ تحولت كثير من الاراضي الزراعية الى مناطق سكنية ، ممـا أدى الى تناقص ظـاهر فى الاراضي الخصبة ، وان هذا التحول فى وظيفة مساحة واسعة من الاراضي الزراعية الخصبة وخروجها من القطاع الزراعي وعملية الانتاج الزراعي • وقد أدت هذه الحقيقة الى ظاهرتين أساسيتين هما •

أ ــ تحول طبيعة الانتاج الزراعي والتأكيد على الزراعة الكثيفة التي تتطلب أيدي عاملة زراعية أكثر • الا ان مقدار التحول هذا لا يوازي مقدار الايدي العاملة التي أقعدها عن العمل تحول وظيفة الاراضي الزراعيـــة الى مناطق سكنية •

ب ــ كثرة العرض من اليد العاملة بالنسبة لحاجة الاراضي المستغلة فى الزراعة فعلا مما أدى الى البطالة من ناحية أو على العموم قلة اجـــور العاملين من ناحية اخرى تبعا لقانون العرض والطلب •

ومما لاشك ان تحول أراضي زراعية اخرى عن وظيفتها الاولى سوف

يزيد من اليد العاملة الزراعية العاطلة ويزيد من قلة اجور العاملين فيها[١٠] .

ولذا نجد فى مثل هذه الحالة ان موازنة السوق لكمية العمل العددية المتوفرة فعلا والكمية المطلوبة من القوة العاملة فى القطاع الزراعي والفرق بينهما يمثل عملا زراعيا قائضا وهذا يشير الى ان هناك بطالة مستمرة وأنخفاض فى التطور الاقتصادي والمعاشي للافراد فى هذا القطاع فى دولة البحرين .

ان هذا التطور سيؤثر على حركة القوة العاملة واسلوب استخدامها وقدرتها على رفع معدلات الانتاج بالارتباط مع التطور فى وسائل الانتاج وطرق العمل ... الخ .

٣ ـ ان الزيادة التي حدثت فى قطاع العمل والاستخدام ما بين التعدادين لا تتعدى (٨) آلاف نسمة كان نصيب العمال المحليين البحرانيين فيها لا يزيد على ٢٠٪ أي ان هذه الزيادة قد استفادت منها القوى العاملة المهاجرة من خارج الامارة .

٤ ـ ان نسبة نمو العمالة والاستخدام للقوى العاملة خلال الفقرة الواقعة ما بين التعدادين (١٩٥٩ ـ ١٩٦٥) هي ٣ر٢٪ وتنخفض هذه النسبة انخفاضا كبيرا وملموسا عندما تقتصرها على المحليين فقط ، حيث نجدها لا تتجروز ٥ر١٪ فقط فى كل سنة . أي ان الايرانيين المهاجرين الى البحرين تكون أعمارهم على الغالب ما بين ٢٠ـ٤٠ سنة . أي ان نسبة زيادة الايرانيين تكون ١٪ سنويا وان هذه الزيادة مستمرة باستمرار تدفق الايرانيين على البحرين والخليج العربي بصورة منتظمة وهذا له دلالته وآثاره الاقتصادية فى دولة البحرين وامارات الخليج العربي ايضا .

---

(١٠) الزراعة فى البحرين . دليل البحرين التجارى . العدد السابع . حكومة البحرين ١٩٦٧ ص١٦٣ ـ ١٦٨ .

٥ ـ ان نسبة القوى العاملة الفعلية من المحليين البالغين سن الرشد قد انخفضت من ٢٥٪ لسنة ١٩٦٥ الى ٢٢٪ لسنة ١٩٦٥ أي بانخفاض سنوي قدره ٠٫٠٨٠٪ وان مثل هذا الانخفاض المستمر سوف يؤدي الى زيادة نسبة العاملين الفعليين فى سن الرشد من غير السكان المحليين أي زيادة قطاع الشباب فى بعض المناطق بالنسبة لمجموع السكان مما يؤدي الى تدهور الحالة الاقتصادية والبناء الاقتصادي الوطني • وهذا يعني أن نسبة القوى العاملة الفعلية خلال السنوات الست التالية لعام ١٩٥٩ قد انخفضت وبديهي ان درجة التصنيع فى دولة البحرين تعد مسؤولة بالاساس عن مقدار نمو القوى العاملة الصناعية وتطور اعدادها بهذه الطريقة ،(١١) ، وعليه سوف تبقى هذه المسألة مهمة بقدر الحاجة الى التصنيع والقدرة على بناء صناعة متطورة بمستوى ضرورة تحقيق التوازن المطلوب فى نمو الفعاليات الاقتصادية وتجاوز ثغرات التطور الحالي • وقد أنشأ مركز للتدريب فى شركة نفط البحرين المحدودة لغرض تطور مقدرة البحرانيين الفنية ويوجد نحو ١٤٠ موظفا من المحليين فى الشركة •

فبالرغم من أن دولة البحرين لا تتمتع بحكم مواردها النفطية ووضعها الجغرافي بامكانيات كبيرة للتنمية الامر الذي يحرمها من الاستفادة من المبالغ التي ترد اليها من النفط استفادة منتجة ويصرفها اما لاستثمار جزء كبير من هذه المبالغ فى مراكز أجنبية واما لانفاقها انفاقات استهلاكية غير دائمة النفع للاقتصاد البحراني •

٦ ـ وعلى الرغم من الزيادة العددية المطلقة والنسبية التي حدثت بالنسبة الى العاملات : الا انها لا زالت منخفضة جدا حيث لم تتجاوز ٤٪ من مجموع القوى العاملة الفعلية الكلية فى البحرين أي بنسبة تقل عن ٥٠٪

---

(١١) بناء السفن فى البحرين • دليل البحرين التجارى • العدد السابع حكومة البحرين ١٩٦٧ • ص٧٩ـ٨١ •

من مجموع العاملات الكلي فى الامارة • وهنا يجدر الاشارة الى انه توجد صعوبة فى تحديد العاملات فى النظام الزراعي •

٧ ـ ان العاملين بالمعنى الاقتصادي حسب نتائج تعداد السكان لعام ٩٦٥ كان ٥٣ر٢٧٤ شخصا منهم ٣١ر٢٠٠ بحرنيين وان ٣٩ر١٧٩ شخصا لم يوفقو فى الحصول على أي تعليم نظامي اطلاقا منهم ٢٣ر١٢٨ بحرانيين وان ٦ر٨٨٢ شخصا حصلوا على مستوى تعليمي ابتدائي منهم ٥٠ر٩٤ بحرانيين وبلغ ٥ر٤٥٨ شخصا حصلوا على مستوى ثقافي أو صناعي منهم ٢ر٦٩٢ بحرانيون وان الذين حصلوا على تعليمهم الجامعي أو الدراسات العليا ١ر٧٥٥ شخصا بلغ عدد البحرانيين منهم ٢١٧ شخصا فقط • ويلاحظ ان القوى العاملة الاجنبية لا تتركز فى الاعمال التي تتطلب مهارات وخبرات عالية لا تتوفر فى الامارة فحسب كما هي الحال بالنسبة الى عدد كبير من الدول العربية الاجنبية ، بل تتجاوزها الى الاعمال اليدوية والمهنية التي لا تحتاج الى المهارات العالية مثل خدم المنازل الذي يقدر بـ ١ر٠٤٩ شخصا عمال عاميون و ٣ر٢٤٨ شخصا عمال فى صناعات البناء •

والجدول الآتي يبين مدى التحصيل للقوى العاملة الفعلية الاجنبية فى امارة البحرين[١٢] •

| | تحصيل ابتدائي | تحصيل ثانوية | |
|---|---|---|---|
| القطاع | ولا شيء | أو جامعة | المجموع الكلي |
| حكومة فقط ومواصلات | ٥ر٠٠٠ | ٢ر٦٠٠ | ٧ر٦٠٠ |
| صناعات اخرى | ١٢ر٨٠٠ | ١ر٧٠٠ | ١٤ر٥٠٠ |
| المجموع : | ١٧ر٨٠٠ | ٤ر٣٠٠ | ٢٢ر١٠٠ |

(١٢) حكومة البحرين • دائرة المالية ـ التعداد الرابع لسكان البحرين • مكتب الاحصاء ١٩٦٩ • ص٤٢ •

يلاحظ من الجدول أعلاه أن غالبية القوى العاملة الاجنبية ذات مستوى ثقافي واطىء حيث تكون نسبتهم ٥ر٨٠٪ من مجموع القوى العاملة الاجنبية وان الحاصلين على مستوى ثانوي أو أكثر لا تتجاوز نسبتهم أكثر من ٥ر١٩٪ من مجموع الاجانب العاملين فى البحرين •

ولم يكن حظ البحرانيين أسوأ من القوى العاملة الاجنبية فيما عدا المستوى الجامعي حيث كانت نسبة البحرانيين الذين لديهم هذا المستوى التعليمي ٧ر٠٪ فقط من مجموعهم الكلي فى حين ان النسبة فيما بين غير البحرانيين كانت عشرة أضعاف تلك النسبة ٧٪ ومما يلفت النظر ايضا ان هناك تسع فتيات بحرانيات حصلن على مستوى جامعي فى حين كان عدد غير البحرانيات اللاتي حصلن على دراسات عليا ٣٤٩[١٣] :

يتضح لنا مما سبق انه ما لم تراع عملية التنسيق والتوازن بين التطور السكاني والقوى العاملة والتنمية الاقتصادية والاجتماعية فى الامارة فأن خللا كبيرا لابد أن يقع فى مسيرتها على طريق التطور والتنمية • وقد يستفحل الامر مع الزمن ، ويحمل من الجهود التي تبذل بشكل مستمر يتجاوز مرحلة التخلف فى أعباء قد لا يكفيها جهود مماثلة للخلاص من وطأتها • أي ان البحرين تدور فى فلك الرأسمالية ولا تستطيع ان تنتج بمثل هذه التنمية الا تخلفا أكبر وأوسع •

ان مصادر الرأسمالية الامريكية والبريطانية التي تسيطر على أسواق البحرين الداخلية وتستنزف معظم خيراته ، تحاول بجميع الوسائل اعاقة تطوير الكوادر المؤهلة فنيا وعمليا والقضاء على الامية بين السكان • وما تحويل الطاقات المادية نحو الصراعات القومية الخارجية ( مشكلة البحرين

---

(١٣) التعليم فى البحرين • دليل البحرين التجارى • العدد السابع • حكومة البحرين • ١٩٦٧ • ص٤٣ ـ ٥١ •

وايران ) كموقت مفروض على البحرين الا لتحقيق تلك الغاية كواحدة من الاهداف التي تمنع تطور أقطار الخليج العربي •

ومن جهة اخرى تعمل الاستثمارات الاجنبية بكافة الطرق على تقليل الاعتماد الفعلي على الكادر البحراني فى حين انها بالمقابل تغري هذا الكادر الفني بمختلف المغريات من دون تشغيله فى أية أعمال تؤدي الى تطور كفاءته • وخير دليل على هذا الاتجاه مسألة توظيف الخريجين فى شركات النفط العاملة فى منطقة الخليج حيث خصصت مبالغ ضخمة لتشغيل أفراد لا يقومون بأية مهمة ولمجرد قتل كفائتهم وامتصاص أية امكانية للمساهمة فى تطوير البحرين والخليج • ومن جهة اخرى درى هذه الحقيقة تؤكد تلازم التطور الاقتصادي مع تطور الكوادر الفنية المطلوبة باعتبارها ظواهر متكاملة •

وبأمكاننا أن نضع ذلك بالعبارة التالية : انه لمن العبث وعدم الادراك أن تتوقع أو نأمل أن تؤدي العلاقات بين انكلترا وأمريكا وامارة البحرين الى تطور الامارة لان التجارة والاستثمارات والمساعدات الحكومية لن تجدي أي شيء وما هي فى الواقع الا الطرق التي تستنزف بواسطتها الدول الامبريالية خيرات منطقة الخليج وبضمنها دولة البحرين وغيرها وابقائها فى وضعها الراهن(١٤) وينتج عن هذا تحطم الانظمة الاجتماعية والروح القومية العربية الوثابة السائدة وتحويلها الى أذناب مرتبطة بها • فالحل الوحيد اذا هو خروجها من هذا الفلك أو الفخ وان تبدأ باستغلال طاقاتها لصالحها الخاص • وبذلك نستطيع أن نحرك عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية عن طريق وضع خطة التنمية الصحيحة لان الهدف الرئيسي فى المساعدات والاستثمارات الغربية والامريكية هو المحافظة على الوضع

---

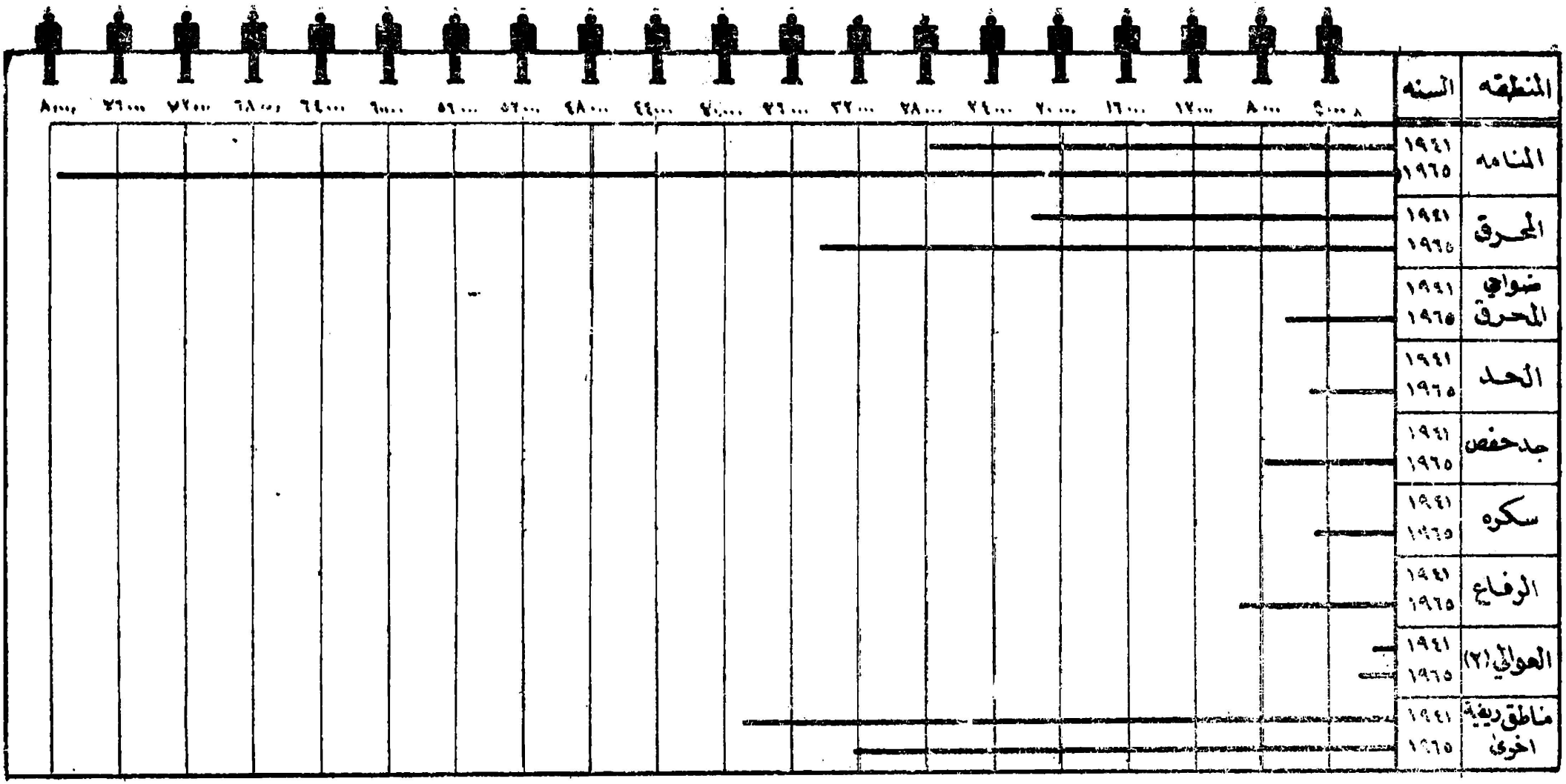
(١٤) مجلة الصياد بيروت ـ العدد ١٣٦٩ فى ١٠ـ٧ـ١٩٧٠ ص٣٤ـ٣٦ •

الاقتصادي فى الامارة ومنطقة الخليج ومستواه الراهن الذي يجمد الوضع المتردي والسيء فى الامارة بينما يدعم التحسن المستمر فى الحالة الاقتصادية والاجتماعية فى كل من بريطانيا والولايات المتحدة الامريكية • ويمكن أن نعبر عن الوضع الموجود فى البحرين والخليج بصورة عامة بالقول ( كلما زادت المساعدات والاستثمارات الاجنبية قل النمو والتطور ) •

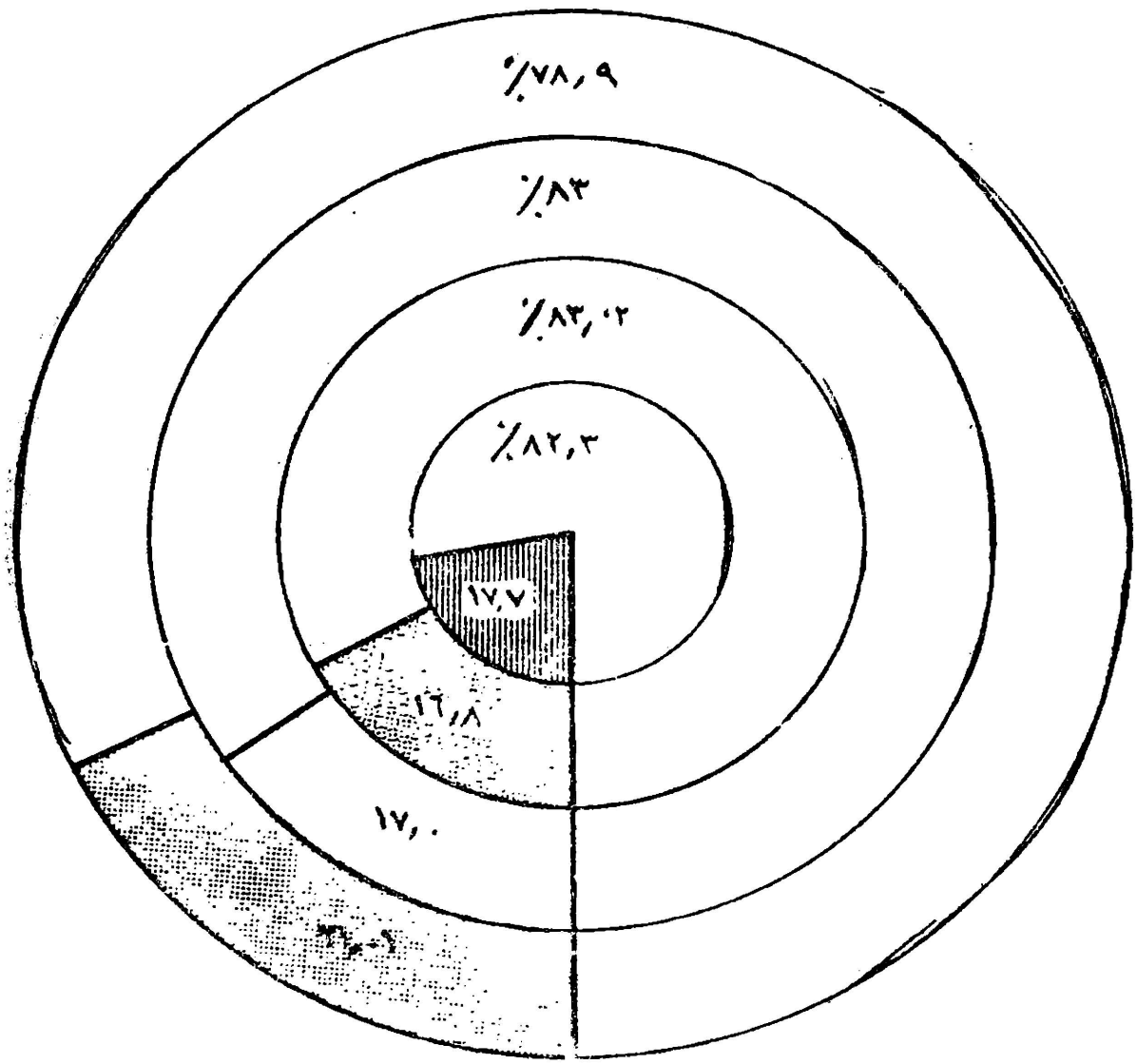
وعلى الطرف الثاني نجد ان ارتفاعا مناسبا فى الطاقة الانتاجية لم يحدث لا بل ان الطاقة المتوفرة لم تستغل استغلالا كاملا • فنجد اذا ان الزيادة الكبيرة فى معدل عدد السكان لا يرافقها نمو مناسب فى معدل التطور الاقتصادي • وعلى أية حال لا يمكن الاعتماد على الارقام المتوفرة بشكل دقيق وكامل ولكن حتى الدراسات المتفائلة لاقتصاد البحرين والصادرة عن المسؤولين فى الدولة تشير الى ان نسبة النمو لدخل الفرد منخفضة جدا • يضاف الى ذلك ان الارقام الوسطية التي يقدمها لنا الاحصاء ليس لها مدلول واقعي كبير فى البحرين لان الاكثرية الكبيرة من السكان قد تخسر بالرغم من زيادة الدخل الوسطي • كما وتدل بعض البيانات التي تم وضعها للناتج المحلي الاجماعي للفترة التي سبقت سنة ١٩٦٥ أن ثمة زيادة نسبية مطلقة كبيرة طرأت على نمو الدخل القومي فى الفترة ما بين ٩٥٩ـ٩٦٥ بلغت ٢٧ مليون دينارا بحراني ، أي ان الزيادة النسبية تتجاوز النصف بقليل • وكان النمو السنوي فى الدخل القومي خلال الفترة ذاتها حوالي ٦ر٩٪ تقابلها زيادة فى العمالة والاستخدام بنسبة تقل عن ٢٪ كل سنة وزيادة فى عدد السكان ٢ر٣٪ كل سنة • علما بأن هذه النسبة فى الزيادة لليد العاملة لا تمثل اليد العاملة المحلية فقط وانما تمثل مجمل الزيادة فى اليد العاملة بأجمعها بغض النظر عن مصدرها • أي بعبارة ثانية ان اليد العاملة المهاجرة الاجنبية الى البحرين تكون العصب الرئيسي فى انيد

العاملة الموجودة فى البحرين •

وهذا مما يدل على أن هنـاك اختـلافا فى التـوازن وفى المؤثـرات الاقتصادية المهمة وأهمية عناصر النشاط الاقتصادي وكيفية وصول بعضهـا الى درجة عالية من الكفاية فى حين ان البعض الآخر تتضـاءل أهميتـه فى التنمية الاقتصادية • ولابد من التأكيد هنا بأ مقدار النمو الحالي للسكان فى دولة البحرين لا يتناسب مع حركة الانتاج المحلية بمـا يضمن الارتفـاع بالمستوى المعاشي • ويمكننا أن نستنتج ايضا ان تخلف منطقة الخليج ودولة البحرين المصطنع قد جمد وختم الى الابد بينما وضعت كل من انكلتـرا وأمريكا فى حالة تسمح لها وبواسطة ثروات الخليج ودولة بأن تنمي نفسها باستمرار وذلك بتطبيق سياستها الاقتصادية والاستراتيجية فى المنطقة بأجمعها •




شكل (١) لِسُمُوسُكَانُ البَحْرَيْن حَسَبَ المَنَاطق المبَيِّنَة




شكل (٢) يوضح نسبة غير البحرينيين والبحرينيين من المجموع العام للسكان للتعدادات الأربعة .
( الاجزاء المظللة تمثل نسبة غير البحرينيين )

## جدول رقم (٢)

### التوزيع العمرى للسكان عام ١٩٥٩

| فئـان السن | بحريني | | | غير بحريني | | | المجموع الكلي |
|---|---|---|---|---|---|---|---|
| | ذكور | انـاث | المجموع | ذكور | انـاث | المجموع | |
| أقل من سنة | ٢٣٥١ | ٢٣٩٣ | ٤٧٤٤ | ١٨٦ | ٢٠٧ | ٣٩٣ | ٥١٣٧ |
| ١ أقل من ٥ | ٨٧٦٦ | ٩٠٧٩ | ١٧٨٤٥ | ٦٨١ | ٦٧٢ | ١٣٥٣ | ١٩١٩٨ |
| ٥ أقل من ١٠ | ٩٣٩٨ | ٩٠٥٨ | ١٨٤٥٦ | ٦٠١ | ٦٧٨ | ١٢٧٩ | ١٩٧٣٥ |
| ١٠ أقل من ١٥ | ٦٧١٨ | ٥٩٨٠ | ١٢٦٩٨ | ٤٩٨ | ٣٤٦ | ٨٤٤ | ١٣٥٤٢ |
| ١٥ أقل من ٢٠ | ٤٤١٨ | ٤٥٦٧ | ٨٩٨٥ | ٩٢٣ | ٤٢٢ | ١٣٤٥ | ١٠٣٣٠ |
| ٢٠ أقل من ٣٠ | ٨٦٨٥ | ٩٦٦٠ | ١٨٣٤٥ | ٦٠٨٢ | ١٧٦٤ | ٧٨٤٦ | ٢٦١٩١ |
| ٣٠ أقل من ٤٠ | ٧٨٧٩ | ٧٥٠٩ | ١٥٣٨٨ | ٤٩٢١ | ١٣١٤ | ٦٢٣٥ | ٢١٦٢٣ |
| ٤٠ أقل من ٥٠ | ٥٤٧٠ | ٤٥٨١ | ١٠٠٥١ | ٢٢١٠ | ٦٠٧ | ٢٨١٧ | ١٢٨٦٨ |
| ٥٠ أقل من ٦٠ | ٣٢١٢ | ٢٩٣٧ | ٦١٤٩ | ١٠١٨ | ٣٨٤ | ١٤٠٢ | ٧٥٥١ |

| | | | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|---|---|
| ٦٠ أقل من ٧٥ | ٢٦١٩ | ٢٦١١ | ٥٢٣٠ | ٥٣١ | ٢٥٤ | ٧٨٥ | ٩٠١٥ |
| ٧٥ فأكثر | ٣٩٧ | ٤٤٦ | ٨٤٣ | ٥٨ | ٤٤ | ١٠٢ | ٩٤٥ |
| المجمـوع | ٥٩٩١٣ | ٥٨٨٣١ | ١١٨٧٣٤ | ١٧٧٠٩ | ٦٦٩٢ | ٢٤٤٠١ | ١٤٣١٣٥ |

ملاحظة : (١) ان تفوق نسبة الذكور من غير البحرينيين فى حقـول فئـات العمر (٢٠ـ٥٠) يعود الى ان عدد الاجانب متغير وغير مستقر ٠
(٢) يبلغ عدد الايرانيين من غير البحرينيين ٤٢٠٣ نسمة منهم ٣١٨٨ نسمة من الذكور ٠ أي بنسبة تقـدر بحـوالي ١و١٧٪ من مجموع الاجانب الكلي ٠

## جدول رقم (٣)

## التوزيع العمرى للسكان عام ١٩٦٥

| فئات السن | بحريني | | | غير بحريني | | المجموع الكلي |
|---|---|---|---|---|---|---|
| | ذكور | انـاث | المجموع | ذكور | انـاث | المجموع | |
| أقل من سنة | ١٩٨٥ | ٢٠٢٢ | ٤٠٠٧ | ٣٧٥ | ٤١٨ | ٧٩٢ | ٤٨٠٠ |
| ١ أقل من ٥ | ١٠٧٥٠ | ١١٠٤٦ | ٢١٧٩٦ | ١٨٨٣ | ١٧٧٣ | ٣٦٥٦ | ٢٥٤٥٢ |
| ٥ أقل من ١٠ | ١٢٦٤٩ | ١٢٧٣٣ | ٢٥٣٨٢ | ١٩٠٨ | ١٨٣٩ | ٣٧٤٧ | ٢٩١٢٩ |
| ١٠ أقل من ١٦ | ١١١٤٣ | ١٠٣١٥ | ٢١٤٥٨ | ١٦٣٥ | ١١٩٣ | ٢٨٢٨ | ٢٤٢٨٦ |
| ١٦ أقل من ٢١ | ٦١٩٢ | ٦٦٥٥ | ١٢٨٤٧ | ٢٩٤٧ | ٧٨٥ | ٣٧٣٢ | ١٦٥٧٩ |
| ٢١ أقل من ٣١ | ٩٩٧٩ | ١٠٩٦٤ | ٢٠٩٤٣ | ٩٣٥٩ | ٢٥٣٧ | ١١٨٩٦ | ٣٢٨٣٩ |
| ٣١ أقل من ٤١ | ٨٣٩٧ | ٧٩٣٠ | ١٦٣٢٧ | ٥٢٨٧ | ١٥٥٧ | ٦٨٤٤ | ٣٣١٧١ |
| ٤١ أقل من ٥١ | ٥٧٠٤ | ٤٧٢٦ | ١٠٤٣٠ | ٢٣٢٦ | ٧٣٦ | ٣٠٦٢ | ١٣٤٩٢ |

| | | | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|---|---|
| ٥١ أقل من ٦١ | ٣١٥٨ | ٢٧٢١ | ٥٨٧٩ | ٨٩٤ | ٣٠٩ | ١٢٠٣ | ٧٠٨٢ |
| ٦١ أقل من ٧٥ | ١٩٣٤ | ١٧٤٢ | ٣٦٧٦ | ٣٢٧ | ١٦٣ | ٤٩٠ | ٤١٦٦ |
| ٧٥ فأكثر | ٤٧٧ | ٥٩٢ | ١٠٦٩ | ٧٥ | ٦٣ | ١٣٨ | ١٢٠٧ |
| المجموع | ٧٢٣٦٨ | ٧١٤٤٦ | ١٤٣٨١٤ | ٢٧٠١٦ | ١١٣٧٣ | ٣٨٣٨٩ | ١٨٣٢٠٣ |

**ملاحظة :ـ** (١) مما يفسر تفوق عدد الذكور من غير البحرنيين على الاناث وخاصة فى حقول فئات العمر (١٦ـ٤١) هو ان عدد الاجانب متغير وغير مستقر ٠

(٢) يبلغ عدد الايرانيين من غير البحرينيين ٧٣٢٣ نسمة منهم ٤٤٩٥ نسمة من الذكور ٠ أي بنسبة تقدر بحوالي ١٨ر٩٪ من مجموع الاجانب الكلي ٠

جدول رقم (٥)

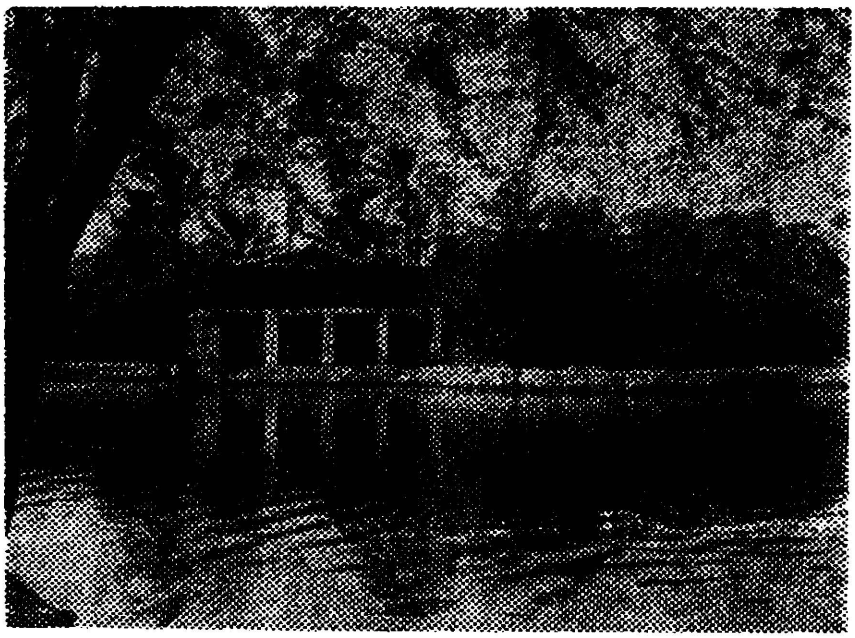
## السكان العاملون بالمعنى الاقتصادى تبعا للصناعة والجنسية للذكور والاناث

## ١٩٥٩ ـ ١٩٦٥

| القطـاعات | ١٩٥٩ | | | ١٩٦٥ | | |
|---|---|---|---|---|---|---|
| | بحريني | غير بحريني | المجمـوع | بحريني | غير بحريني | المجمـوع |
| الزراعة وصيد الاسماك | ٣٩١٨ | ٥٤٦ | ٤٤٦٤ | ٣٥٦٢ | ١٠٩٢ | ٤٦٥٤ |
| الصناعة التحويلية | ٨١٧ | ٢٠٧ | ١٠٢٤ | ٢٢٤ | ١٧٧ | ٤٠١ |
| البنـــاء | ٢٧٤٢ | ١٩٩٧ | ٤٧٣٩ | ٣٤٥٢ | ٤٨٧٦ | ٨٣٢٨ |
| التنقـل | ٦١٢٧ | ٢٧٨٤ | ٨٩١١ | ٥١٦٤ | ١٧٧٦ | ٦٩٤٠ |
| التعدين وقطع الاحجار | ١٥٤ | ٣١٦ | ٤٧٠ | ١٢٤ | ٥٣ | ١٧٧ |
| تجارة الجملة | ٢٩٩ | ٢٠٥ | ٥٠٤ | ٦٣٨ | ٨٢٨ | ١٤٦٦ |
| تجارة التجزئة | ٢٠٦١ | ١٢٠١ | ٤٢٦٢ | ٣٨٨٩ | ٢٠٣١ | ٥٩٢٠ |

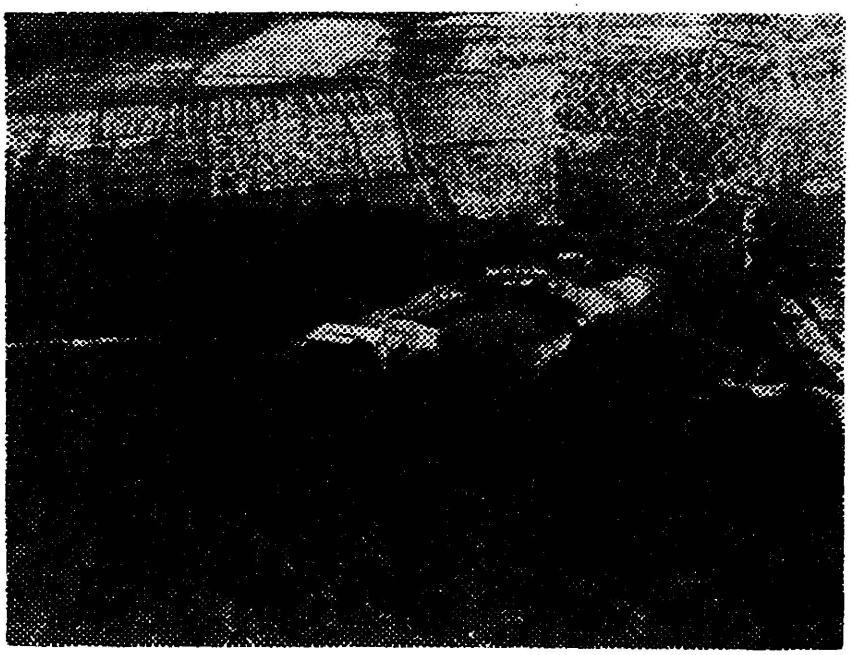
| | | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|---|
| الاعمال المصرفية | ١٤٣ | ١٣٠ | ٢٧٣ | ٢٠٢ | ١٥٢ | ٣٥٤ |
| المواصلات والاتصالات | ١١١٩ | ٥١٢ | ١٦٣١ | ٢٩٢٨ | ٢٥٦٦ | ٥٤٩٤ |
| أعمال حكومية | ٤١٢٨ | ٢٣٦٤ | ٦٤٩٢ | ٦٩٢٢ | ٣٤٧٢ | ١٠٣٩٤ |
| نطاعات اخرى | ٨٠٣١ | ٥٦١٤ | ١٣٦٤٥ | ٤١٢٦ | ٥٠٢٠ | ٩١٤٦ |
| لا عمل لهم | ٣٧١ | ١٦٩ | ٥٤٠ | — | — | — |
| لمجموع | ٣٠٩١٠ | ١٦٠٤٥ | ٤٦٩٥٥ | ٣١٣٢١ | ٢٢٠٤٣ | ٥٣٢٧٤ |

ملاحظة : لقد كان عدد الاناث العاملات البحرينيات لعام١٩٥٩ ( ١٠٣٥ ) وغير البحرينيات ( ٤١٥ ) وكان عددهن من لبحرينيات لعام ١٩٦٥ (١٠٨٥) وغير البحرينيات (١٠٢٨) .



على الرغم من ان الظروف الطبيعية وخاصة التربة والمياه الطبيعيـــة لا تتماشى وزيادة السكان من ناحية والتوسع او ادخال طرق جديـدة او تطوير الزراعة الا ان العيون الطبيعية تعد مياهها مصدرا رئيسيا للاغراض المنزلية والرى • وتعد عين قصارى التى تظهر صورتها فى اعلاه من اكبر العيون الطبيعية فى البحرين الواقعة الى جنوب مدينة المنامة •

ان البحرين تنفرد بصورة خاصة فى الخليج العربى لتكون مصدرا هاما لانتاج مختلف انواع الفواكه والخضر ومركزا ممتازا لقيام الصناعات، الا ان هناك حاجة ماسة فى الوقت الحاضر لايجاد مصادر جديدة للمياه للاغراض الانفة الذكر •



يرتبط التوسع الزراعى فى البحرين بتوفير مصادر المياه من ناحية واستصلاح الارض وتخليصها من الاملاح من ناحية اخرى • فزيادة تناقص كمية المياه المتوفرة من العيون الطبيعية والابار للرى او زيادة نسبة ملوحتها نتيجة الضغط فى طرق استعمالها استجابة لتطور طرق استغلال الاراضي واتساع مناطق التربة الملحية لعدم توفر قنوات البزل حـــدد المناطـــق الزراعية •

وتظهر هذه الحقائق بوضوح فى الصورة اعلاه • اذ تكثر بساتين النخيل والفاكهه الى الشمال الغربى من عين عذارى ـ التـى تتوســط الصورة ـ حيث تمثل الاراضى المرتفعة نسبيا المتميزة بجودة تصريف تربتها وقلة الاملاح فيها وتوفر المياه لها فى حين ادى تراكم الاملاح فى المناطق الواقعة الى الجنوب الشرقى من منطقة العين نتيجـة لانخفـــاض مستواها وانغمارها بمياه البحر فى اوقات المد والى كثرة املاح التـــربة وتردى الزراعة فيها حتى اصبحت وكأنها مساحات ملحية تحيط بهـــا المزارع من جانب او اخر •



منظر عام لمدينة المنامة العاصمة وتظهر فى مقدمة الصـــورة بعض الابنية الحديثة العالية مما يدل على توسع المدينة توسعا رئيسيا لان التوسع الافقي لها كان اما على حساب الاراضي الزراعية والبساتين والذى ادى الى قطع الكثير من اشجار الفاكهة واما على حساب المساحة المائية فى المناطق ذات الاعماق المقليلة كما يظهر فى أعلى الصورة • كما يبدو ايضا الطريق الرئيسى الممتد فى الجانب الايسر من الصورة والممتد من الجنوب حتـى الجسر الذي يربط بين جزيرتي البحرين والمحرق فى الشمال •

**المصادر العربية :**


١ ـ البراوى ـ الدكتور راشد · « حرب البترول فى الشرق الاوسط » القاهرة ١٩٥٥ ·

٢ ـ الخشاب ب ـ الدكتور احمد « دراسات ديموغرافية فى سكان العالم العربى » القاهرة ١٩٥٩ ·

٣ ـ الشلش ـ الدكتور على حسين · « دراسة تحليلة لتركيب السكان الديموغرافى فى المملكة الاردنية » · البصرة ١٩٦٨ ·

٤ ـ الصرعاوى ـ عبدالعزيز عبدالله · « دراسات فى الشؤون الاجتماعية والعمالية » الكويت ١٩٦٥ ·

٥ ـ الفيل ـ الدكتور محمد رشيد الفيل · «سكان الكويت» بيروت ١٩٦٩ ·

٦ ـ الباقي ـ الدكتور عبدالله · المجتمع العربي ومقاييس السكان» معهد الدراسات العربية العالية ١٩٦٣ ·

٧ ـ صادق ـ الدكتوره دولت احمد«الدكتور محمد عبدالرحمن الشرتوني· « الاسس الديموغرافية للسكان » · القاهرة ١٩٦٩ ·

٨ ـ عبدالحكيم ـ الدكتور محمد صبحي · الدكتور محمد السيد غلاب · « السكان ديموغرافيا وجغرافيا » القاهرة ١٩٦٧ ·

١٠ ـ فهمي فوزى رياض · « اهمية الشرق الاوسط العربي · الاقتصادية في السياسة الدولية ·

١١ـ هو سر ، فليب · « السكان والسياسات الدولية » · ترجمة الدكتور خليل حسن خليل ·

١٢ـ دائرة المالية والاقتصاد الوطني ـ حكومة البحرين · المجموعة الاحصائية السنوية مكتب الاحصاء يوليو سنة ١٩٧٠ ·

١٣ـ التعداد الرابع لسكان البحرين · مقارنة ودراسة تحليلة موجزة · مكتب الاحصاء حكومة البحرين ـ دائرة المالية ـ ١٩٦٩ ·

١٤ـ دليل البحرين التجارى · العدد السابع ـ حكومة البحرين ـ ١٩٧٠ ·

١٥ـ مجلة الصياد ـ بيروت ـ العدد ١٣٦٩ في ١٠ـ٧ـ١٩٧٠ ·

## المصادر الاجنبيـــة


ABBAS FAROUGHY, " THE BAHRAIN ISLAND. (1750-1951) " NEW YORK 1951.

BAHRAIN: YESTERDAY AND TODAY. BAHRATN TRADE DIRECTORY, 7th ed. BAHRAIN COVERNMENT 1967. pp. II-36.

BAHRAIN'S UNCERTAIN FUTURE, THE TIMES, LONDON. P. XII, MARCH, 3, 1969.

BELGRAVE, J.M.D. WELCOME TO BAHRAIN. A COMPLETE ILLUSTRATION. LONDON. Lozac 1954.

DESMON, TIGH E. BAHRAIN'S NEW TOWN. ARAB WORLD, NO. 16, PP. 3/5 WINTER, 1967.

ASHFORD, NICHOLAS, BAHRAIN INDUSTRAL-LASATION NEEDED TO COMPAT UNEMPLOY-MENT. FINANCIAL TIMES. P. 20, NOVEMBER 5, 1968.

BELING, W. A. RECENT DEVELOPMENT IN LAB-OUR RELATIONS IN BAHRAIN. MIDDLE EAST JOURNAL 13 : 156 - 169 SEPTEMBER, 1959.

LITTLEFLELD N. (THESIS MA.) 1964. AMERICAN UNIVERSITY OF BIERUT. BIERUT. "BAHRAIN AS A PERSIAN GULF STATE, WITH REFERRENCES TO THE RILATIONS WITH GREAT BRITAIN AND THE PROVINCE AL-HASA. PP. 45 - 100.

QUBAIN, FAHD I. "SOCIAL CLASSES AND TENS-TIONS IN BAHRAIN,,. MIDDLE EAST JORNL. VOL. IX SUMMER 1955. PP. 269-280.

# الصراع الروسي ـ الانجليزي حول المضايق في ١٩١١

**الدكتور هاشم التكريتي**
**مدرس في قسم التاريخ**

كانت الدولة العثمانية قد وصلت في بداية القرن العشرين الى درجة من الضعف بحيث لم تعد تشكل خطرا في المجال العسكرى على أى من الدول الاوربية ، بل بالعكس كانت تبعيتها لاوربا واستغلال الدول الاوربية لها يزدادان من سنة لاخرى ، غير ان ذلك بالذات ، ونعني اشتداد ضعف الدولة العثمانية وازدياد تبعيتها ، كان يزيد من قلق الدول الاوربية لانها وهى بهذه الحالة يمكن ان تصبح رأس جسر لاحدى هذه الدول تنطلق منه ضد خصومها من الدول الاخرى •

ولهذا فان جميع الدول الاوربية الاستعمارية كانت تسعى جاهدة لان تقوى نفوذها وترسخ مكانتها في الامبراطورية العثمانية المترامية الاطراف • وكانت روسيا القيصرية في مقدمة الدول الطامعة في الدولة العثمانية والمتكالبة على اقتسام ممتلكاتها وقد تركزت اطماعها في قضيتين رئيسيتين : احداهما الحصول على امتيازات لبناء السكك الحديدية في الانضول والثانية حل مسألة المضايق بما يتفق ومصالح الاستعمار القيصرى • لقد كانت هاتان المسألتان هما القضيتان الاكثر أهمية والاكثر الحاحا في السياسة الروسية في منطقة الشرق الادنى ، وقد أشار الى ذلك صراحة وزير الخارجية الروسية بالوكالة نيراتوف في رسالة كتبها الى زميله كوكوفتسوف وزير المالية في ٧ آب ١٩١١ حيث جاء في تلك الرسالة قوله : « ليس بناء السكك الحديدية في تركيا هو وحده الذى يهدد مصالحنا وانما يهددنا ايضا الاهتمام المتزايد الذى أخذت الحكومة التركية تبديه مؤخرا لتقوية اسطولها

الحربي • ومن وجهة النظر هذه ربما يكون من المفيد جدا ان نجعل موافقتنا على بناء السكك الحديدية في آسيا الصغرى مشروطة بموافقة الباب العالى ـ مبدئيا على الاقل ـ على فتح المضايق لنا ••• »[1] •

وعلى هذا الاساس ذأبت الحكومة الروسية منذ أواخر القرن التاسع عشر على العمل من أجل التوصل الى حل هاتين القضيتين بما يتفق ومصالحها الاستعمارية فنجحت في ٣١ آذار ١٩٠٠ في عقد اتفاقية مع الحكومة العثمانية التزمت هذه الاخيرة بموجبها بمنح الروس امتيازات لبناء السكك الحديدية على ساحل البحر الاسود من جهة الانضول بنفس الشروط التي تتمتع بها شركة الانضول الالمانية لبناء السكك الحديدية • غير ان هذه الاتفاقية لم تشمل المنطقة الممتدة من ادابازار الى هرقليا ولم تشمل ايضا مدن : انقرة وقيصرية وسيواس وخربوط وديار بكر ووان •

اما عن القضية الاخرى ونعني بها قضية المضايق فقد كانت لفترة طويلة فى مقدمة القضايا الملحة التى كان على الدبلوماسية الروسية ان تحلها ، فالحكومة الروسية كانت على الدوام تعتبر الموانىء البلقانية الواقعة على البحر الاسود قواعد طبيعية لها[2] وتعتقد بأن « من يمتلك المضايق لن تكون في يديه مفاتيح البحرين الاسود والمتوسط فحسب وانما سيمتلك ايضا امكانية السيطرة على آسيا الصغرى والسيادة في البلقان »[3] كما كتب وزير الخارجية الروسية سازوف في احد تقاريره الدورية الى القيصر نيقولا

---

(١) العلاقات الدولية فى عصر الاستعمار ، وثائق من ارشيفات الحكومتين القيصرية والمؤقتة ، سلسلة ٢ ، جزء ١٨ ، قسم ١ ، ص ٣٠٥ـ٣٠٦ ( بالروسية ) •

(٢) القسطنطينية والمضايق حسب الوثائق انسرية لوزارة الخارجية السابقة ، باشراف آ • اداموف جـ٢ ، موسكو ، ص ٣ ، حاشية ١ ( بالروسية ) •

(٣) الارشيف الاحمر ، جـ ٦ ، ١٩٢٤ ، ص ٧١ـ٧٢ ( بالروسية )•

الثاني • ومن هنا تبدو مفهومة جهود الحكومة الروسية المحمومة للتخلص من اتفاقية برلين التي منعت مرور السفن الحربية من خلال المضايق وسعيها الحثيث للحصول على منفذ حر الى البحر المتوسط وذلك لا يتأتى الا بالسيطرة على مضيقي البسفور والدردنيل او على الاقل تغيير نظام الملاحة فيهما •

وعندما قامت ثورة الاتحاد والترقي فى تركيا فى ١٩٠٨ رأت الدول الاستعمارية فيها فرصة مناسبة لتحقيق مخططاتها التوسعية على حساب الدولة العثمانية ، لذا اعتبرت الدبلوماسية الروسية بان الوضع الذى نجم عن هذه الثورة سوف يسهل لها التوصل الى الحل الذى تبتغيه لمسألة المضايق • وعلى هذا الاساس قام ازفولسكي وزير الخارجية الروسى آنذاك بجولة فى الاقطار الاوربية زار خلالها النمسا وفرنسا وبريطانيا وهدف من ورائها الى استحصال موافقة هذه الدول على تغيير نظام المضايق• غير ان ازفولسكي فشل فى تحقيق مهمته وكان السبب الاول فى هذا الفشل هو الموقف المتصلب الذى وقفته الحكومة البريطانية فى هذه القضية ، فبعد محادثات طويلة اجراها ازفولسكي مع وزير الخارجية البريطاني ادورد كرى سلمه هذا الاخير فى ١٤ تشرين الاول ١٩٠٨ مذكرة سرية عرضت فيها الحكومة البريطانية وجهة نظرها فى هذه المسألة(٤) • وقد تضمنت

---

(4) British Documents on the Origins of War 1898-1914. Edited by G. P. Gooch and Harold Temperley, vol. V, P. 424.

انظر ايضا :

القسطنطينية والمضايق ••• جـ٢ ، ص ٥ ، حاشية ١ ؛

العلاقات الدولية ١٨٧٠–١٩١٨ ، مجموعة وثائق جمعها آ • ك • كورولیوف و و • ن • فريفيلد ، باشراف • م • خفستوف ، موسكو ، ١٩٤٠ ، ص ١٩١–١٩٢ ( بالروسية ) ؛

مواد فى تاريخ العلاقات الفرنسية – الروسية فى ١٩١٠–١٩١٤ ، مجموعة وثائق دبلوماسية سرية لوزارة خارجية الامبراطورية الروسية السابقة ، موسكو ١٩٢٢ ، ص ٥٣٠ ( بالروسية ) •

المذكرة النقاط التالية :

١ ـ ان الحكومة البريطانية لا تعارض من حيث المبدأ فى فتح المضايق ولكن لا لروسيا والدول الواقعة على البحر الاسود فقط وانما على اساس المساواة التامة للجميع دون استثناء •

٢ ـ ان الحكومة البريطانية لا تعتبر الوقت مناسباً لعقد اتفاقية تمنح روسيا حقا استثنائيا فى هذه القضية •

٣ ـ من الضرورى ان توافق الدولة العثمانية على اى اقتراح يتعلق بالمضايق •

واضطرت الحكومة الروسية الى ان تستكين على مضض لوجهة النظر البريطانية وان تتخلى موقتاً عن مطالبها بشأن المضايق واخذت تنتظر فرصة اكثر ملاءمة لتحقيق تلك المطالب • وجاءت هذه الفرصة عندما قررت ايطاليا فى ٢٨ ايلول ١٩١١ احتلال ولاية طرابلس فقامت بسبب ذلك الحرب التركية ـ الايطالية ١٩١١ ـ ١٩١٢ •

لقد اظهرت هذه الحرب بشكل واضح عزلة الدولة العثمانية دبلوماسيا ذلك انها لم تستطع ان تحصل على مساعدة أى من الدول الاوربية فى كفاحها ضد اطماع الاستعمار الايطالى فى حين كانت ايطاليا قد حصلت مسبقا على موافقة الدول الاوربية الكبرى جميعها قبل ان تقرر القيام بمغامرتها فى طرابلس • وعندما قامت الحرب فعلا سارعت تلك الدول وكل منها تحدوها اسباب خاصة الى اعلان الحياد الذى كان بتأثير تلك الاسباب حيادا وديا تجاه ايطاليا • وبالنسبة لبريطانيا ارادت الدبلوماسية البريطانية استغلال قيام الحرب التركية ـ الايطالية لتحقيق واحد من ابرز الاهداف التى كان الساسة الانجليز يسعون جاهدين لتحقيقها قبل الحرب العالمية الاولى وهو ابعاد ايطاليا عن الحلف الثلاثى وجذبها الى معسكر

الوفاق الودى الذى تتزعمه بريطانيا • وبما ان كرى كان يعلم جيدا بان ايطاليا لن تترك المانيا وتنضم الى بريطانيا الا اذا استطاع ان يلوح لها بغنيمة دسمة فانه قرر ان يستغل مطامعها فى طرابلس لتحقيق هذا الهدف ، ولهذا نجده حتى قبل قيام الحرب يؤكد للايطاليين اكثر من مرة بان بريطانيا تساند مطاليبهم فى طرابلس وبانه ليس فى نية حكومته التدخل حتى لو سمحوا لانفسهم باحتلال تلك الولاية(٤) • وعندما قامت الحرب سارع فاصدر تعليماته الى الدبلوسيين الانجليز مؤكدا لهم بان « من المهم جدا ان لا نقف لا نحن ولا فرنسا ضد ايطاليا الآن »(٥) • صحيح ان الحكومة البريطانية لم تستطيع الضغط على تركيا لكونها تمتلك فيها مصالح واسعة ولخوفها من اثارة المسلمين القاطنين فى مستعمراتها الا انها كانت بالمقابل ترفض باصرار كل محاولة للضغط على ايطاليا وهى الدولة المعتدية ولم تكتف بذلك فقط بل تعدته الى اتخاذ بعض الاجراءات التى من شأنها أن تسهل للايطاليين احتلالهم لطرابلس •

ووقفت بقية الدول الاوربية الكبرى من تركيا فى محنتها موقفا مشابها من حيث الاساس لموقف بريطانيا الامر الذى هيأ لايطاليا افضليات كبيرة فى صدامها مع تركيا حتى ان وزير الحربية التركية محمود شوكت باشا قال وهو يشعر بالاسى : « ان ايطاليا تتمتع بموقف رائع وتستطيع ان تفعل ما يحلو لها »(٦) •

لقد خلقت الحرب التركية ـ الايطالية فى الشرق الادنى وضعا يدفع

---

(٤) انظر مثلا : British Documents, Vol. IX 1, minute P. 266; G. Giolitti The memoirs of my life, London and Sydiey, 1923, PP. 263-264.

(5) British Documents, Vol. IX Pt. 1, P. 274.

(6) Ibid; PP. 392-393.

روسيا باتجاه التفاوض مع الدولة العثمانية ذلك ان الاوساط الحاكمة فى روسيا القيصرية كانت تخشى من ان يوسع الاسطول الايطالى عملياته الحربية ويقصف المضايق الامر الذى يؤدى الى الاضرار بالمصالح الاقتصادية الروسية(٧) التى كانت قد تأثرت فعلا عندما عمدت الحكومة العثمانية الى اغلاق المضايق لفترة قصيرة بسبب الحرب • وعلى هذا الاساس اعتقد الدبلوماسيون الروس الذين كانوا يسعون لدرء الاخطار التى تهدد التجارة الروسية ولاستغلال الوضع الناجم عن الحرب بما يتفق ومصالح الاستعمار القيصرى بان الوقت قد حان للعمل من اجل تحقيق جملة من المطالب التى كانت القيصرية الروسية تسعى لتحقيقها وفى مقدمتها قضية بناء السكك الحديدية فى آسيا الصغرى وقضية المضايق •

ففيما يتعلق بالقضية الاولى بدأت بعد ثورة ١٩٠٨ فى تركيا وعلى الاخص اعتبارا من ١٩٠٩ تتردد بين الاوساط الحاكمة فى الدولة العثمانية بعض الآراء الداعية الى الغاء القيود التى تفرضها اتفاقية ١٩٠٠ بين روسيا والدولة العثمانية وهى الاتفاقية التى سبقت الاشارة اليها • وبدأت هذه الآراء بسبب زيادة التغلغل الالمانى والفرنسى والامريكى فى الدولة العثمانية ، تحرز انصارا كان عددهم يتزايد باستمرار ، فاضطرت الحكومة الروسية التى لم تكن ترغب آنذاك بالدخول فى نزاع سافر مع الدولة العثمانية الى الموافقة بعد مفاوضات طويلة على ان يقوم الفرنسيون ببناء السكك الحديدية فى المنطقة المحرمة • وعلى هذا الاساس عقدت اتفاقية خاصة حول هذا الموضوع بين الدولة العثمانية وفرنسا •

---

(٧) فى الفترة ١٩٠٣-١٩١٢ صدر عن طريق البسفور والدردنيل ٣٧٪ من جميع البضائع التى صدرتها روسيا بما فى ذلك من ٦٠-٧٠٪ من صادرات الحبوب الروسية - ز٠ب٠ ياخيموفتش ، الحرب التركية-الايطالية ١٩١١-١٩١٢ • ترجمة هاشم صالح التكريتى ، بيروت ١٩٧٠ ، ص٢٣٧ ، هامش ١٢٣ •

اما بالنسبة لقضيـة المضايق فقـد اعتقد الدبلوماسـيون الروس وفى مقدمتهم السفير الروسى فى اسطنبول تشاريكوف بان خطر الهجوم عـلى المضايق وقصف العاصمة العثمانية من جانب الاسطول الايطالى سـيدفـع الحكومة العثمانية الى اتخاذ موقف اكثر اعتدالا تجاه المطالب الروسية بل وربما سيدفعها الى التحالف مع روسيا بامل الحصول على مساندتهـا ضـد ايطاليا ، وقد شجعهم على هذا الاعتقاد الحملة الواسعة التى شنتها الصحف التركية آنذاك لصالح التقارب مع روسيا .

وعلى هذا الاساس ذكر تشاريكوف لحكومته فى رسالة مسهبة كتبهـا الى نيراتوف بتاريخ ٣٠ ايلول ١٩١١ بان الوضع الناجـم عـن الحـرب التركية ـ الايطالية جعل « من الممكن استغلال تصرف ايطاليا للسير خطوة جديدة على طريق تحقيق المصالح الروسية الجذرية فى حل واحدة مـن اقدم واهم مسائل سياسة روسيا الخارجية الا وهى مسألة المضايق» (٨) . وارتأى تشاريكوف فى الوقت نفسه بان من الضرورى الحصول على موافقة الدول الاوربية الاخرى على التغيير الذى تريد روسيا ان تجريه فى نظام المضايق معتقداً بان « معاهدات باريس ولندن وبرلين جعلـت مـن مسألة المضايق قضية من قضايا القانون الدولى التى يمكن حسب وجهـة النظـر الروسية ان تتغير بموافقة الدول الموقعة على تلك المعاهدات » وبأن « الاتفاق مع الدول مسبقا مفيد ايضا لان التوصل الى مثل هذا الاتفاق سـيؤدى الى عزلة تركيا قليلا او كثيرا تجاه روسيا الامـر الذى سـيجعلها اكثـر تساهلا »(٩) . لقد كان تشاريكوف واثقا من ان هذه الدول عموما ستساند روسيا فى مطلبها هذا وثقته هذه نابعة من اعتقاده بان فرنسا ستساند روسيا

---

(٨) العلاقات الدولية فى عصر الاستعمار ، سلسلة ٢ ، جزء ١٨ ، قسم ٢ ، ص ٥٠ـ٥٤ .

(٩) نفس المصدر ، ص ٥٢ .

طالما ان هذه الاخيرة ستقف الى جانبها فى النزاع الفرنسى ـ الالمانى حول مراكش وان بريطانيا التى حشدت قواتها البحرية فى بحر الشمال وتركت لفرنسا الاهتمام بالمصالح البريطانية والفرنسية فى البحر المتوسط لن تخشى امكانية ظهور السفن الحربية العائدة لروسيا ـ حليفة فرنسا ـ فى البحر المتوسط بل ربما كان ذلك عملا مرغوبا به من قبل الانجليز(١٠) . أما عن المانيا والنمسا ـ المجر فان تشاريكوف اعتقد بأنهما ستطالبان بتعويض ما مقابل الاعتراف لروسيا « بمصالحها الخاصة » فى المضايق ولهذا فأنه كان يرى بان نتيجة المفاوضات ستعتمد على مدى كون هذه التعويضات مقبولة من جانب الحكومة الروسية ومساوية من حيث القيمة للفوائد الناجمة عن حل مسألة المضايق لصالح روسيا(١١) . واما بالنسبة لايطاليا فقد نصح تشاريكوف بان تكون اول دولة تفاتحها حكومته بهذا الشأن وحجته فى ذلك ان غزوها لطرابلس لا يزال فى مرحلته الاولى الامر الذى يجعلها مهتمة بان يكون موقف روسيا منها وديا(١٢) .

وكانت بطرسبورغ تشارك سفيرها فى اسطنبول فى ان الموقف الدولى أصبح بعد قيام الحرب التركية ـ الايطالية ملائما لاجراء المفاوضات مع الدولة العثمانية . وقد عبر عن ذلك وزير الخارجية الروسية بالوكالة فى رسالته التى ارسلها الى تشاريكوف بتاريخ ٢ تشرين الاول ١٩١١ جوابا على رسالة هذا الاخير التى سبقت الاشارة اليها . لقد جاء فى رسالة نيراتوف هذه قوله : « ان الوضع السياسى العام الذى يتميز بقيام المحادثات الفرنسية ـ الالمانية حول مراكش والموقف الحازم الذى وقفته ايطاليا

---

(١٠) العلاقات الدولية فى عصر الاستعمار ، سلسلة ٢ ، جزء ١٨ قسم ٢ ص ٥٣ .

(١١) نفس المصدر ص ٥٣ .

(١٢) نفس المصدر ص ٥٣ .

فى المسألة الطرابلسية والذى ادى الى قيام الحرب هو حقا ملائم بشكل خاص للتفاوض مع تركيا حول تغيير اتفاقية ١٩٠٠ بشأن السكك الحديدية فى آسيا الصغرى وربما حول المصالح المتبادلة الاكثر عموما »[١٣] . لقد ارفق نيراتوف برسالته هذه مسودة لبيان كان عليه ان يكون اساسا للفاوضات التى سيجريها تشاريكوف مع المسؤولين الاتراك[١٤] واحتوى هذا البيان على أربعة مواد تتعلق بجملة من المسائل الخاصة بالعلاقات الروسية ـ العثمانية وفى مقدمتها قضية اعادة النظر فى اتفاقية ١٩٠٠ حول بناء السكك الحديدية فى آسيا الصغرى ومسألة المضايق .

لقد خصص بيان نيراتوف هذا لمشكلة المضايق مادته الثانية التى جاء نصها فى البيان كالآتي : « وفضلا عن ذلك تلتزم الحكومة الروسية الامبراطورية بان تبدى للحكومة التركية مساندة فعالة للمحافظة على النظام الحالى فى مضيقى البسفور والدردنيل وتعميمه ايضا على المناطق المجاورة فى حالة ما اذا تعرضت هذه المناطق لتهديد من جانب القوات المسلحة الاجنبية .

ومن اجل تسهيل تنفيذ الاجراء المذكور اعلاه تلتزم الحكومة العثمانية الامبراطورية من جانبها بعدم عرقلة مرور السفن الحربية الروسية خلال المضايق بشرط ان لا تتوقف هذه السفن فى مياه المضايق اذا لم يكن ذلك قد اشترط مسبقا »[١٥] .

ومما يجلب الانتباه فى رسالة نيراتوف هذه انه طلب من سفيره فى اسطنبول ان يقصر موضوع المفاوضات فى بداية الامر على قضية اعادة

---

(١٣) نفس المصدر ص ٥٩ .

(١٤) انظر مسودة البيان فى : العلاقات الدولية فى عصر الاستعمار ، سلسلة ٢ ، جزء ١٨ ، قسم ٢ ، ص ٦٠ـ٦١ .

(١٥) المصدر السابق ، ص ٦١ .

النظر فى اتفاقية ١٩٠٠ وان يعتبر القضايا الاخرى الواردة فى البيان بما فيها قضية المضايق مجرد ذيول ثانوية لهذه الاتفاقية واعطاه الحق فى ان يتصرف بهذه المسائل « الثانوية » حسب مقتضيات الظروف وتبعا لسير المفاوضات(١٦) • وهنا يتبادر الى الذهن للوهلة الاولى سؤال ملح هو : الا يبدو غريبا أن تقسم السياسية الخارجية الى قضايا أساسية واخرى ثانوية ، واذا كان الامر كذلك اليس من الغريب حقا ان تعتبر مسألة المضايق ، والكل يعلم مدى اهميتها لروسيا حتى ان نيراتوف نفسه اكد على هذه الاهمية اكثر من مرة ، من جملة المسائل الثانوية • الواقع ان موقف نيراتوف هذا يعكس تناقضا موقتا فى وجهات نظره فى هذه المسألة ، تناقضا يفسره لنا المؤرخ السوفيتى البارز الاستاذ كالكن بان قسما من الاوساط الحاكمة فى روسيا وفى مقدمتها وزير المالية كوكوفتسوف كان يعتقد بان من السابق لاوانه اثارة مسألة المضايق مرة اخرى بعد ان فشلت روسيا فى حلها لصالحها فى ١٩٠٨ ، ولهذا فان اعتبار نيراتوف لهذه المسألة من جملة « المسائل الثانوية » ما هو الا استجابة لآراء هذه الاوساط(١٧) •

واسرع تشاريكوف وهو واحد من ابرز دبلوماسيى القيصرية الروسية فى بداية القرن العشرين فى استخدام الصلاحية التى خوله اياها نيراتوف فى اجراء المفاوضات حسب وجهة نظره الخاصة التى كانت مغايرة لوجهة نظر نيراتوف • فتشاريكوف كان مقتنعا بان الحرب التركية ـ الايطالية قد وضعت مسألة المضايق فى المقام الاول وجعلتها فى مقدمة المسائل التى يجب بحثها مع الحكومة العثمانية ذلك ان توسيع مسرح العمليات الحربية بحيث

---

(١٦) العلاقات الدولية فى عصر الاستعمار ، سلسلة ٢ ، جزء ١٨ ، قسم ٢ ، ص ٥٩ •

(١٧) انظر : اى • س • كالكن ، « مسعى تشاريكوف الدبلوماسى فى ١٩١١ وموقف الدول الاوربية » ، **من تاريخ الحركات الاجتماعية والعلاقات الدولية ، موسكو ١٩٥٧ ، ص ٦٤٢** ( بالروسية ) •

يشمل منطقة المضايق يطرح ـ فى اعتقاده ـ امام الحكومة العثمانية مسألة ضمان امن الدولة العثمانية فى منطقة المضايق عن طريق عقد اتفاقية او حلف مع احدى الدول الكبرى ، وكانت روسيا فى رأيه هى الدولة الكبرى المؤهلة فى تلك الظروف للتحالف مع الدولة العثمانية ، على اعتبار انها كانت مستعدة لان تبدى للحكومة العثمانية مساندة فعالة للمحافظة على المضايق والمناطق المتاخمة لها فيما اذا تعرضت هذه المناطق لهجوم اجنبي مسلح(١٨) . وعلى هذا الاساس فان الخطر الذى يهدد اسطنبول والمضايق من جانب ايطاليا يمكن ان يدفع الحكومة العثمانية الى طلب المساعدة الروسية ولهذا اعتقد تشاريكوف بان الحكومة العثمانية لن تنظر فى هذه المسألة الى المطالب الروسية على انها اكراه لها من جانب روسيا وانما ستبدو لها بمثابة « الضمان المنقذ » على حد تعبيره(١٩) .

ومن الناحية الاخرى كان تشاريكوف قد لاحظ بحس الدبلوماسى البارع كيف ان الصعوبات التى كانت الدولة العثمانية تعانيها من جراء حربها مع ايطاليا قد شجعت الشعوب البلقانية على المطالبة مجددا بتحرير الاراضى البلقانية التى ما تزال خاضعة لسلطة الاتراك ولهذا فانه جهد لان يستغل ذلك باتجاه دفع الحكومة العثمانية نحو التقارب مع روسيا .

وبادر تشاريكوف بمجرد ان استلم من حكومته اشعارا بالبدء بالمفاوضات الى تسليم الصدر الاعظم فى ١٢ تشرين اول ١٩١١ اقتراحات الحكومة الروسية على شكل رسالة شخصية منه ، ووعد سعيد باشا من جانبه باعطاء الجواب خلال اسبوعين(٢٠) .

---

(١٨) العلاقات الدولية فى عصر الاستعمار ، سلسلة ٢ ، جزء ١٨ ، قسم ٢ ، ص ٦١ .

(١٩) نفس المصدر ص ١١٩ .

(20) British Documents, Vol IX, pt. 1, P. 315. 315.

لقد تضمنت رسالة تشاريكوف الشخصية هذه مطالبة روسيا بان تمنح سفنها الحربية حق المرور فى المضايق ومقابل ذلك تساند الحكومة الروسية الدولة العثمانية فى الاحتفاظ باسطنبول والمناطق المجاورة لها وتضغط على الدول البلقانية من اجل ان تقيم مع الدولة العثمانية علاقات ودية • كذلك ابدت روسيا استعدادها لاعادة النظر فى نظام الامتيازات ولاتخاذ موقف ودى من مشاريع تركيا الاقتصادية والمالية (٢١) •

واهتمت الحكومة العثمانية التى كان موقفها فى الحرب مع ايطاليا يزداد حرجا بهذه المقترحات خصوصا وانها فشلت فى ان تجد لها عونا عند بريطانيا وفرنسا فقد رفضت هاتان الدولتان التوسط فى النزاع التركى ـ الايطالى ، فكان ذلك اضافة الى احتمال قصف الاسطول الايطالى للمضايق والقسطنطينية واحتمال هجوم الدول البلقانية على الدولة العثمانية مما دفع الاوساط السياسية فى الدولة العثمانية الى ان تنظر بعين الاهتمام الى قضية التقارب مع روسيا والتحالف معها • وعلى هذا الاساس كانت الصحف التركية قد بدأت قبل ذلك بشن حملة صحفية واسعة لصالح التقارب مع روسيا واخذت الاوساط السياسية فى الدولة العثمانية تتحدث عن الفوائد التى ستجنيها الدولة العثمانية من جراء التقارب مع روسيا التى كانت فى رأى بعض هذه الاوساط الدولة الوحيدة من بين الدول الاوربية التى تستطيع ، فى الظروف السائدة فى تلك الفترة ، ان تؤثر على مجريات الامور بما يتفق وما يريده العثمانيون • فالتحالف مع روسيا سيمكن الحكومة العثمانية من استخدام نفوذها ومكانتها فى البلقان للامساك بالدول البلقانية عن الهجوم على الدولة العثمانية ، ومن هنا اخذت الحملة الصحفية الداعية الى التقرب من روسيا تشتد واشتركت فيها الصحف الرسمية والمستقلة

---

(٢١) انظر نص رسالة تشاريكوف الى الصدر الاعظم فى : العلاقات الدولية فى عصر الاستعمار سلسلة ٢ ، جزء ١٨ ، قسم ٢ ، ص ١٤٥ـ١٤٦ •

على السواء .

لقد كان تشاريكوف ميالا لتفسير هذا الميل الواضح الى روسيا على انه نتيجة لتقلص النفوذ الالمانى فى الدولة العثمانية بسبب تراجع المانيا امام فرنسا فى الاتفاقية التى عقدت بين الدولتين حول مراكش[٢٢] . غير انه قد جانب الصواب فى هذا الاستنتاج على ما يبدو . فهذا العطف المفاجىء على روسيا لم يكن فى نظر اغلبية الاوساط الحاكمة فى الدولة العثمانية الا وسيلة لتحقيق اهداف ثلاث هى اولا : الضغط على المانيا ودفعها الى التأثير على حليفتها ايطاليا من اجل ان توافق الاخيرة على عقد صلح ملائم للدولة العثمانية . وقد انتبه الى ذلك نيراتوف نفسه فكتب فى معرض حديثه عن الدعوات التى اخذت تطلقها صحيفة « تانين » الرسمية لصالح التقارب مع روسيا ، يقول : « ليس لدى ادنى وهم فيما يتعلق بسلامة نية هذه الجريدة وملهميها وانى على استعداد لان اصدق تفسيرا آخر للحملة الصحفية التى بدأت فى القسطنطينية فمن الصعب ان يكون الداهية سعيد باشا قد تخلى عن فكرة استخدام رغبة المانيا في الاحتفاظ بتركيا سائرة فى فلكها . ومما لاشك فيه بانه من اجل هذا الهدف لن يترك فرصة اخافة برلين من امكانية التقارب مع الدول الاخرى . ان مقالات « تانين » يمكن ان تكون قد اوحتها هذه الفكرة بالذات . ماذا يمكن لالمانيا ان تعطى تركيا ؟ يبدو ان القضية الجذرية التى تهم الاتراك هى عقد صلح ملائم مع ايطاليا »[٢٣] وثانيا : كسب الوقت وتأجيل الاصطدام المسلح مع الدول البلقانية التى اخذت تتحفز للانقضاض على الدولة العثمانية مستغلة تورطها فى الحرب

---

(٢٢) العلاقات الدولية فى عصر الاستعمار ، سلسلة ٢ ، جزء ١٨ ، قسم ٢ ، ص ٢٦٣ حاشية ٣ .

(٢٣) العلاقات الدولية فى عصر الاستعمار ، سلسلة ٢ ، جزء ١٨ ، قسم ٢ ، ص ٢٨٧ .

مع ايطاليا وحراجة موقفها بسبب ذلك • وثالثا : الضغط على بريطانيا ودفعها للتقرب من تركيا وذلك بالتلويح بامكانية التقارب مع روسيا وفتح المضايق لسفنها الحربية وهو امر لم تكن الاوساط الحاكمة البريطانية تقبله باى حال •

وهنا يجب ان نوكد بان فكرة التقارب مع روسيا والتحالف معها لم تكن تحظى باجماع الساسة الاتراك كلهم • فالواقع انه كان يجرى هناك صراع شديد بين انصار التقارب مع المانيا والنمسا ـ المجر وانصار التقارب مع روسيا (٢٤) • يضاف الى ذلك بان اغلبية الساسة العثمانيين من انصار التقارب مع روسيا كانوا يهتمون بالتقارب مع بريطانيا اكثر من اهتمامهم بالتقارب مع روسيا بل انهم كانوا ينظرون الى التقارب مع روسيا على انه وسيلة لتحقيق الهدف الاهم وهو التحالف مع بريطانيا لانهم كانوا يعتبرون بريطانيا دولة قوية تستطيع ان تضمن لهم اقاليم الدولة العثمانية ضد اى عدوان او تطاول من جانب الدول اخرى وكانوا يأملون فى الحصول على مساندتها فى حربهم مع ايطاليا • وقد عبر عن ذلك حيدر باشا ( ابن مدحت باشا ) حين كتب فى جريدة « تانين » مدافعا عن فكرة الاتفاق مع روسيا فقال : « ان هذا الاتفاق [ اى الاتفاق الذى يدعو الى عقده مع روسيا ] مع وجود الاتفاقية بين روسيا وانجلترا [ اى اتفاقية ١٩٠٧ ] سيومن مستقبل تركيا »(٢٥) •

وانطلاقا من هذه التقديرات فوضت الحكومة العثمانية سفيرها فى لندن توفيق باشا ان يقترح على الحكومة البريطانية التحالف مع الدولة العثمانية • ونفذ السفير هذه المهمة فى ٣١ تشرين اول ١٩١١ فصرح لكرى قائلا : « اننا على استعداد للدخول فى محادثات حول التحالف مع بريطانيا لوحدها او للدخول فى الوفاق الودى القائم الآن بين بريطانيا والدول

---

(٢٤) نفس المصدر ص ٢٨٧ •

(٢٥) نقلا عن : اى • س • كالكن ، المصدر السابق ص ٦٣٨ •

الاخـرى »[٢٦] . وفى الوقت نفسه اقترحت الدولة العثمانية على الحكومة البريطانية ان تحمل ايطاليا على الموافقة على تسوية نزاعها مع الدولة العثمانية على اساس الاعتراف بسيادة السلطان على طرابلس[٢٧] .

غير ان التقديرات العثمانية لم تكن صائبة فقد رفض كرى الاقتراح العثماني بحجة انه ـ يتعارض مع مبدأ الحياد الذى اعلنته بريطانيا فى الحرب التركية ـ الايطالية ، معلنا فى الوقت نفسه عن استعداده لان يناقش مع الحكومة العثمانية اقتراحها هذا بعد ان يعقد الصلح بين الدولتين المتحاربتين[٢٨] .

ترى كيف يتوجب تفسير موقف بريطانيا هذا ؟ ألم يكن من مصلحتها القضاء على النفوذ الالمانى الآخذ بالتزايد فى الدولة العثمانية عن طريق التحالف مع هذه الاخيرة وربطها بعجلة الاستعمار البريطانى ؟ الواقع ان وراء هذا الرفض البريطانى اسباب مهمة فأولا :ـ لم تكن الدبلوماسية البريطانية ترغب فى ان تقيد نفسها بارتباط ما مع الدولة العثمانية لان ذلك من شأنه ان يجرد الحكومة البريطانية من حرية العمل فى البلدان العربية التى كان للاستعمار البريطانى فيها مصالح واسعة ، وثانيا :ـ لابد للتقارب بين بريطانيا والدولة العثمانية فى تلك الظروف ان ينعكس بشكل سلبى على العلاقات بين بريطانيا وايطاليا ولهذا فان الحكومة البريطانية التى كانت تعمل بدأب على استمالة ايطاليا اليها وابعادها عن الحلف الثلاثي لم تكن ترغب فى ان تضحى بأيطاليا من اجل التحالف مع الدولة العثمانية .

وبعد ان رفضت بريطانيا التحالف مع الدولة العثمانية لم تعد الاغلبية

---

(26) British Documents, Vol. LX pt. Appendix IV, P. 779.

(27) Ibid. P. 780.

(28) Ibid.

الساحقة من الساسة العثمانيين تعلق اهمية كبيرة على المحادثات مع روسيا ذلك لان الاقتراحات الروسية لم تكن تؤدى الى انهاء الحرب مع ايطاليا وهو ما كان يهتم به العثمانيون آنذاك ولهذا اخذ سعيد باشا يماطل فى البدء بالمحادثات بانتظار استجلاء مواقف الدول الاخرى من الاقتراحات الروسية من جهة ورغبة منه فى الاحتفاظ بامكانية اللجوء الى مساندة روسيا فى حالة تهديد ايطاليا بقصف المضايق من جهة اخرى .

لقد كان الساسة العثمانيون يهتمون بالدرجة الاولى بموقف بريطانيا فى هذه المسألة وكانت الدبلوماسية العثمانية قد بنت حساباتها على اساس ان الحكومة البريطانية ستعارض حتماً المقترحات الروسية لان الاوساط الحاكمة فى بريطانية لايمكن ان تسمح باية حال لروسيا بان ترسخ نفوذها فى الدولة العثمانية خصوصا فى منطقة المضايق الحساسة وذلك ما سيحدث حتما لو نجحت المحادثات الروسية ـ التركية . وانطلاقا من هذه التقديرات كانت الدبلوماسية العثمانية تلمح لبريطانية باستمرار عن خطر المخططات الروسية بخصوص المضايق على المصالح البريطانية حتى ان السفير العثمانية فى لندن سأل كرى بصراحة قائلا : « الا يعتبر وزير الخارجية بان مصالح بريطانيا ستمسها تلك الافضليات التى تريد روسيا ان تحصل عليها عن طريق عقد اتفاقية جديدة بشأن نظام المضايق »[٢٩] . لقد هدفت الدولة العثمانية من وراء ذلك ان تدفع بريطانيا الى معارضة المقترحات الروسية الامر الذى سيمكنها من القاء مسؤولية فشل هذه المقترحات على عاتق الحكومة البريطانية . لقد ارادت الدبلوماسية العثمانية بذلك ان تستغل التناقضات بين روسيا وبريطانيا وتصادم المصالح الاستعمارية لكل من الدولتين فى الشرقين الادنى والاوسط وعلى الاخص فى منطقة المضايق وايران لكى تؤلب بريطانيا على

---

(29) British Documents, Vol. IX pt. 1, P. 346.

روسيا التى تريد ان تضمن لنفسها افضليات واضحة فى منطقة المضايق ، الامر الذى يمكن العثمانيين من التملص من الاستجابة للمطاليب الروسية دون ان يحملهم ذلك اية مسؤولية امام روسيا .

ولكن الدبلوماسية البريطانية الواسعة الخبرة لم تنطل عليها هذه الخدعة ، فعلى الرغم من انها كانت تراقب بدقة نشاط السفير الروسى فى اسطنبول الا انها كانت تحاول جاهدة ان لايبدو منها اى رد فعل سلبى على هذا النشاط ، ليس هذا فحسب وانما حاول البريطانيون ايضا ان يتركوا لدى الروس انطباعا مفاده انهم راضين عن نشاطهم فى العاصمة العثمانية ، فمثلا عندما اخبر كرى السفير الروسى فى لندن بنكندورف بالاقتراح العثمانى الذى طلبت فيه الحكومة العثمانية التحالف مع بريطانيا حاول ان ان يظهر المسألة كما لو ان بريطانيا تنظر بعين الرضا الى كل من روسيا وتركيا مؤكدا بان جوابه للحكومة العثمانية بالرفض قد صيغ بشكل دقيق لكي لا يلحق ضررا بآفاق تحسن العلاقات التركية ـ الروسية[٣٠] . واعتبر تشاريكوف موقف كرى هذا دليلا على استحسان الحكومة البريطانية للمشروع الروسى بشأن المضايق[٣١] ، وفاته ان دافع كرى الى ذلك هو رغبة الحكومة البريطانية فى عدم تأزيم العلاقات البريطانية ـ الروسية التى كانت آنذاك متوترة بالفعل بسبب مطامع البلدين فى ايران . لقد بلغت العلاقات بين البلدين من السوء حدا جعل بنكندورف يحذر حكومته من احتمال استقالة الوزارة البريطانية بسبب النزاع فى فارس[٣٢] . ولهذا

---

(30) British Documents, Vol IX, pt. 1, Appendix IV PP. 780-781.

(٣١) انظر : أى . س . كالكن ، المصدر السابق ص ٦٤٨ حاشية ٧٥ .

(٣٢) العلاقات الدولية فى عصر الاستعمار ، سلسلة ٢ ، جزء ١٩ ، قسم ١ ، ص ١٣٢ .

فمما ينافى الحكمة فى مثل هذه الظروف ان تقف بريطانيا صراحة ضد مطامع روسيا اذ ان ذلك من شأنه ان يوهن عرى الوفاق الودى الذى كانت بريطانيا تعلق عليه امالا كبارا فى صدامها المقبل مع المانيا • يضاف الى ذلك ان الدبلوماسية البريطانية كانت تأمل فى ان اقتراح فتح المضايق للسفن الحربية الروسية سيجابه بمعارضة شديدة من جانب المانيا والنمسا ـ المجر[٣٣] ، كما انها كانت على علم تام بان المقترحات الروسية ستجابه فى تركيا نفسها بمعارضة شديدة من جانب الاحزاب السياسية هناك[٣٤] • وكان كل ذلك كاف فى نظر الحكومة البريطانية لان يؤدي الى فشل المقترحات الروسية بشأن المضايق دون ان تضطر بريطانيا لمعارضتها بشكل مباشر • ولهذا حاول كرى ان لا يحرك ساكنا ـ فى الظاهر ـ تجاه ما يجرى فى اسطنبول • لكن الصحف البريطانية وعلى الاخص جريدة التايمس شنت من الناحية الاخرى حملة عنيفة ضد روسيا واتهمت كرى بالتهاون تجاه المطامع الروسية فى الشرق الادنى •

وعلى الرغم من محاولة الدبلوماسية البريطانية التملص من اتخاذ موقف مباشر من المقترحات الروسية الا انها اضطرت فى آخر الامر الى ان تبدى وجهة نظرها بصراحة فى هذه القضية • فالحكومة الروسية التى كانت تدرك جيدا بأن مسألة المضايق لا يمكن ان تحل دون موافقة الدول الاوربية الاخرى وعلى الاخص بريطانيا وفرنسا طلبت من الحكومتين البريطانيا والفرنسية ان تبينا تحريريا موقفهما من مسألة فتح المضايق للسفن الحربية الروسية[٣٥] • فكان جواب كرى لبنكندورف على ذلك انه

---

(33) British Documens, Vol. IX. pt. 1, minute, P. 431.

(34) Ibid. P. 340.

(٣٥) العلاقات الدولية فى عصر الاستعمار ، سلسلة ٢ ، جزء ١٨ ، قسم ٢ ، ص ٢٨٦ـ٢٨٧ •

ما يزال عند وجهة نظره التى اوضحها عام ١٩٠٨[٣٦] اى انه يوافق على فتح المضايق لجميع البلدان وليس لروسيا فقط وذلك امر لا يمكن ان تقبله الحكومة الروسية • لقد بينت الحكومة البريطانية فى جوابها الرسمى بان حالة الحرب التى توجد فيها الدولة العثمانية وعدم استقرار الحكومة العثمانية لم تكن تسمح بالبدء بمحادثات بهذا الشأن[٣٧] • وفضلا عن ذلك ابدى كرى شكه فى ملاءمة الوقت لمناقشة مثل هذه المسألة مستندا بذلك الى موقف الصحافة البريطانية التى كان قد اثارها بنفسه[٣٨] •

واضطرت الحكومة الروسية فى هذه المرة ايضا الى القبول بوجهة النظر البريطانية والتخلى مؤقتا عن اطماعها فى المضايق فبعد ان عاد وزير الخارجية الروسية سازونوف من اجازته سارع بالابراق الى تشاريكوف طالبا منه ان يخبر وزير الخارجية العثماني عاصم بيك : « باننا مضطرون لان ننهى الآن تبادل الآراء اللاحق وباننا سنكون مستعدين على الدوام لان نسمع بشكل شخصي رأى تركيا فى المسائل المطروحة »[٣٩] • وقد نفذ تشاريكوف هذه المهمة فانتهت بذلك المبادرة الروسية حول المضايق بالفشل• وكان السبب الاساسى فى هذا الفشل هو موقف الحكومة البريطانية المناهض للمطالب الروسية ، اذ أن بريطانيا هى القوة الرئيسية التى كانت تستطيع ان تؤثر على مجرى الحوادث فى الشروق الادنى وعلى الاخص فى كل ما يتعلق بالمضايق • وقد اقتنع تشاريكوف بذلك اخيرا فكتب يقول بانه بدون

---

(٣٦) العلاقات الدولية فى عصر الاستعمار ، سلسلة ٢ ، جزء ١٨ ، قسم ٢ ، ص ٣٢٥ •

(٣٧) أ • زاينجكوفسكي ، اعداد روسيا للحرب العالمية فى العلاقات الدولية ، موسكو ١٩٢٦ ، ص ٢٤٤ ( بالروسية ) •

(٣٨) انظر ، اى • س • كالكن ، المصدر السابق ص ٦٥٣–٦٥٤ •

(٣٩) العلاقات الدولية فى عصر الاستعمار ، سلسلة ٢ ، جزء ١٩ ، قسم ١ ، ص ١٩١ •

بريطانيا لا يمكن حل هذه المسألة بالصيغة التى تريدها روسيا[٤٠] ولكن بريطانيا لم تكن تريد لروسيا ان تستأثر بحل لمسألة المضايق يستجيب لمصالحها فالواقع ان وجهة نظر الحكومة البريطانية فى هذه القضية لم تتغير منذ الفترة التى كانت روسيا فيها الخصم الرئيسى لبريطانية فى الشرقين الادنى والاوسط • وظلت بريطانيا تعرقل الجهود الروسية الرامية لحل مشكلة المضايق بشكل يرضى روسيا ولم تكن تسمح حتى بالتفكير فى امكانية فتح المضايق لسفنها الحربية وقد جاء ذلك على لسان كرى صراحة حيث كتب يقول : « اننا لا نستطيع ان نوافق على ان يكون للسفن الحربية الروسية حقا استثنائيا فى المرور خلال المضايق اثناء الحرب التى تكون فيها تركيا محايدة »[٤١] • صحيح ان كرى عبر بذلك عن موقفه من محاولة روسيا تغيير نظام المضايق فى ١٩٠٨ ، ولكنه لم يغير موقفه هذا وظل ملتزما به فى ١٩١١ ايضا فقد ذكرت صحيفة « يني » ان كرى اعلن للسفير العثمانى فى لندن بان منح السفن الحربية الروسية حق المرور خلال المضايق سيكون بمثابة تهديد مستمر للسلم الاوربى وان الاتفاقيات يجب ان تحتفظ بقوتها فى كل الظروف[٤٢] •

وهكذا لم تكن الحكومة البريطانية عازمة اطلاقا على الاستجابة للمطالب الروسية لكنها كانت مضطرة بحكم الظروف الى ان تغير تكتيكها بشأن هذه المطالب فبروز المانيا كخصم رئيسى لبريطانيا على المسرح الدولى وحاجة بريطانيا تبعا لذلك للمساندة الروسية ضد هذا الخصم اجبرت الدبلوماسية البريطانيا على اخفاء معارضتها الصريحة لروسيا فى هذه القضية خلف واجهة

---

(٤٠) نفس المصدر ص ٢٠٦ •

(41) Grey of Fallodon, Twenty five years 1892-1916, Vol. 1. New York 1925, P. 172.

(٤٢) نقلا عن صحيفة « ريج » ٢٩ تشرين ثاني ( ١٢ كانون اول ) ١٩١١ •

من العبارات الدبلوماسية المنمقة والى العمل على احباط المخططات الروسية بطرق اخرى غير المعارضة المباشرة ، وهدفها من ذلك الاحتفاظ بقضية المضايق كورقة رابحة فى يدها لمساومة روسيا من اجل ابقائها فى صفوف الوفاق الودى • فالحكومة البريطانية آخذة بنظر الاعتبار اهمية وضرورة المساعدة الروسية فى الصدام المقبل مع الحلف الثلاثى كانت تستغل مسألة المضايق لضمان هذه المساعدة حيث كانت تلوح بها لروسيا كتعويض تمنحه لها فى حالة ما اذا حاربت هذه الاخيرة الى جانب بريطانيا •

وازداد فى السنوات التى سبقت الحرب العالمية الاولى مباشرة النفوذ الالمانى فى الدولة العثمانية ، ولم تحرك الحكومة البريطانية التى كانت ما تزال تملك الكثير من وسائل الضغط على الدولة العثمانية ساكنا ازاء ذلك لانها كانت تسعى لاستبدال العداء الانكليزى ـ الروسى فى قضية المضايق بالعداء الالمانى ـ الروسى فتزيد بذلك من اعتماد القيصرية الروسية على بريطانيا • ومن هنا جاء سماح الاسطول البريطانى فى البحر المتوسط للسفينتين الالمانيتين « كبن » و « برسلاو » بالوصول الى اسطنبول فى آب ١٩١٤ ، ومن هنا جاء ايضا مجمل تصرف الدبلوماسية البريطانية الذى سهل لالمانيا ولانور باشا ادخال الدولة العثمانية فى الحرب الى جانب المانيا •

وعندما دخلت الدولة العثمانية الحرب فعلا بدأ الانكليز يلمحون للقيصرية الروسية عن استعدادهم للاستجابة لمطاليبها بشأن المضايق فكان من نتيجة ذلك ان عقدت اتفاقية ١٩١٥ بين بريطانية وفرنسا وروسيا التى نصت على ضم اسطنبول والمضايق بعد انتصار الحلفاء على المانيا الى الامبراطورية الروسية • ومع ذلك فان التحفظات الكثيرة التى وردت فى هذه الاتفاقية كانت تمكن الحلفاء بسهولة نسبيا من التنصل من الوعود التى قطعوها لروسيا بهذا الخصوص •

وجاءت ثورة اكتوبر الاشتراكية فى ١٩١٧ فافتتحت مرحلة جديدة فى تاريخ المضايق ، مرحلة تختلف جذريا عن المراحل السابقة ، ففي حين تغير بشكل جذرى طابع السياسة الخارجية للدولة الاشتراكية الجديدة التى قامت على انقاض الامبراطورية الروسية بحيث تخلت الدولة الجديدة بحزم عن السياسة العدوانية التى كان الاستعمار القيصرى ينتهجها فى السابق نجد ان الدوائر الحاكمة فى بريطانيا وفرنسا ظلت كالسابق تحاول استخدام قضية المضايق لتحقيق اهدافها العدوانية وفى مقدمتها التدخل ضد الثورة الاشتراكية .

# عبدة بن الطبيب

## حياته - شعره

**الدكتور يحيى الجبورى**
**الاستاذ المساعد بقسم اللغة العربية**

**الشـــاعر :**

شاعر من تميم ، من بنى عبشمس بن كعب بن سعد بن زيد منـــاة ، ويقال لعبشمس ( قريش سعد ) لجمالهم[١] ، على ان عبدة لم يكن ممـن وسموا بالجمال كقبيلته فقد كان أسود حبشيا[٢] . وكـانت تميـم فـــى الجاهلية تسمى عبد تيم ، وتيم صنم كان لهم يعبدونه[٣] .

وعبـدة[٤] اسمه ، والطبيب ابوه واسمه يزيد[٥] بن عمـرو بـن وعلة بن أنس بن عبدالله بن عبد تيم[٦] بن جشم بن عبد شمس ، ويقال : عبشمس بن سعد بن زيد مناة بن تميـم[٧] ، وكنيته أبو زيد[٨] .

---

(١) الشعر والشعراء ٢/٧٢٧ .
(٢) ربيع الابرار ٤/٦٨ مخطوط .
(٣) الاغانى ١٨/١٦٣ ط ساسى .
(٤) باسكان الباء الا علقمة بن عبدة بفتح الباء وحده . تثقيف اللسان ص ١٢٢ .
(٥) فى شرح المفضليات ص ٢٦٨ قال : هـو يزيـد بن عمـرو ، والصواب : الطبيب هو يزيد بن عمرو .
(٦) فى شرح المفضليات ص ٢٦٨ : ( عبد نهم ) وفى الاصابة ٣/١٠٠ ، ( عبـد تميـم ) .
(٧) الاغانى ١٨/٦٣ وانظر فى نسبه شـرح المفضليـات ص ٢٦٨ وجمهرة انساب العرب ص ٢١٥ ومعاهـد التنصيص ١/١٠٢ والسـمط ١/٦٩ والاشتقاق ـ ابن دريد ص ٢٦٢ .
(٨) السمط ١/٦٩ .

ليس لدينا مادة تاريخية توضح سيرته وتكشف عن جوانب من حياته ، غير اشارات يسيرة لا تغنى شيئا ، فلا نعرف عن أسرته الا أن له ابناء كان يوصيهم حين أسن ورابه بصره[٩] ، ولا نعرف من هم أولئك الابناء ، الا واحدا منهم يسمى أثالا ذكر صاحب الخزانة له بيتين هما[١٠] :

ولما التقى الصفان واختلف القنا ... نهالا وأسباب المنايا نهالها
تبين لي أن القماءة ذلة ... وأن أعزاء الرجال طوالها

وعبدة شاعر مخضرم من شعراء تميم ، عاش أكثر حياته فى الجاهلية ، وأدرك الاسلام وأسلم وحسن اسلامه ، وهو من الشعراء المجيدين ، ولكنه مقل ليس بالمكثر[١١] .

كان فى الجاهلية مشهورا بخصلتين : اللصوصية والشاعرية ، فهو لص من لصوص الرباب[١٢] ، وهو شاعر من شعراء تميم ، يكون مع لصوصهم تارة ومع شعرائهم اخرى ، ولدينا روايات تحكى صلته بالشعراء يتنادمون ويتناشدون الاشعار ويتحاكمون الى الشعراء فى أيهم أشعر ، من ذلك ما قيل فى تحاكم الزبرقان بن بدر وعمرو بن الاهتم وعبدة بن الطبيب والمخبل السعدى ، الى ربيعة بن حذار الاسدى فى الشعر[١٣] .

وهذه الرفقة والمعاصرة والمنافسة الشعرية تتضح فى رواية ثانية رواها ابن اخى الاصمعى عن عمه قال : « اجتمع الزبرقان بن بدر والمخبل السعدى

---

(٩) الشعر والشعراء ٢/٧٢٧ وانظر ق ٧ ( ق = تعنى قصيدة وقد يراد بها قطعة او بيتا تجوزا ) .
(١٠) الخزانة ٤/١٤٦ ط بولاق .
(١١) الاغانى ١٨/١٦٣ ط ساسى .
(١٢) ربيع الابرار ٤/٦٨ ويراد بالرباب : ولد عبد مناة : تيم وعدى وعوف وثور وأشيب ، وهؤلاء هم الرباب تحالفوا مع بنى عمهم ضبة على بنى عمهم تميم بن مر ، فغمسوا أيديهم فى رب ، ثم خرجت عنهم ضبة واكتفت بعددها وبقى سائرهم . ( جمهرة أنساب العرب ص ١٦٨ ) .
(١٣) الموشح ص ١٠٧ـ١٠٨ ط البجاوى .

وعبدة بن الطبيب وعمرو بن الاهتم وعلقمة بن عبدة قبل أن يسلموا والنبى صلى الله عليه وسلم بمكة قبل أن يبعث ، فنحروا جزورا واشتروا خمرا ببعير ، وجعلوا يشوون ويأكلون ويشربون ، فقال بعضهم : لو أن قوما طاروا من جودة أشعارهم لطرتم ، فتحاكوا الى اول من يطلع عليهم ، فطلع ربيعة بن حذار اليربوعى فسروا به وحكموه »[١٤] .

لا ندرى متى أسلم عبدة بن الطبيب ، وفى أكبر الظن أنه أسلم حين أسلم قومه سنة تسع من الهجرة ، ولم نجد له ذكرا مع المرتدين فقد كان اسلامه حسنا سليما ، يظهر ذلك فى شعره العامر بالتقى والصلاح والرغبة فى النصح وعمل الصالحات ، فكأنه قد ندم فى اسلامه على ما كان من اغارته ولصوصيته فى الجاهلية .

وأول ذكر له فى الاسلام نجده فى فتوح العراق ، فقد كان فى جيش النعمان بن مقرّن الذي حارب الفرس بالمدائن سنة ١٥ ـ ١٦ هـ[١٥] ، وقد شهد مع المثنى بن حارثة قتال هرمز[١٦] . ويقال انه هاجر الى العراق لمهاجرة حليلة له حتى شهد وقعة بابل ، فلما آيسته رجع الى البادية ، وهو يذكر ذلك فى قصيدة له اولها[١٧] :

هل حبل خولة بعد الهجر موصول ... أم أنت عنها بعيد الدار مشغول
حلّت خويلة فى دار مجاورة ... أهل المدائن فيها الديك والفيل
يقارعون رؤوس العجم ضاحية ... منهم فوارس لا عزل ولا ميل

ويبدو أن عبدة كان ذا شأن وخطر فى الجيش المقاتل ، وكان مكينا

---

(١٤) الاصابة ٣/١٠٠ ترجمة رقم ٦٣٩٠ .
(١٥) الاغانى ١٨/١٦٣ ومعاهد التنصيص ١/١٠٢ والاصابة ٣/١٠٠ .
(١٦) الاصابة ٣/١٠٠ .
(١٧) الطبرى ٣/٤١٢ وانظر ق ١٠ .

لدى القادة فى القادسية وكانوا يعدونه من أهل الرأي والفضل ، فكان سعد بن أبي وقاص يوجه أهل النجدة والفضل الى الناس يحضونهم على القتال ، ويعرفونهم فضل الجهاد لملاقاة الفرس والصبر فى القتال ويعدون من هؤلاء : المغيرة وحذيفة وعاصم وأصحابهم ، ومن أهل النجدة : طليحة بن قيس الاسدى وغالب وعمرو بن معد يكرب ، ومن الشعراء : الشمّاخ والحطيئة وأوس بن مغراء وعبدة بن الطبيب ، وقد أوصاهم قبل أن يرسلهم : « انطلقوا فقوموا فى الناس بما يحق عليكم ويحق عليهم عند مواطن البأس ، فانكم من العرب بالمكان الذى أنتم به ، وأنتم شعراء العرب وخطباؤهم وذوو رأيهم ونجدتهم وسادتهم فسيروا فى الناس فذكّروهم وحرضوهم على القتال »[١٨] .

وبعد هذه المعركة التى أبلى فيها المسلمون ـ وعبدة منهم ـ أحسن البلاء وكتب لهم النصر ، عاد عبدة بن الطبيب الى قومه فى البادية ، وقد عرف عنه الفضل والنجدة والمروءة والشرف ، وكل ذلك من أثر الدين ومن حسن اسلامه ، وآية ذلك أن الشاعر كان يترفع عن الهجاء ويراه سفها وضعة ، فبعد أن كان فى جاهليته يهجو بني الاعرج ويحيى بن هزال وزيد بن مالك[١٩] ، صار فى اسلامه يترفع عن الهجاء ، ففي الأغاني : « قال رجل لخالد بن صفوان : [٢٠] كان عبدة بن الطبيب لا يحسن أن يهجو ، فقال : لا تقل ذاك ، فو الله ما أبى عن عيّ ، ولكنه كان يترفع عن الهجاء ، ويراه ضعة ، كما يرى تركه مروؤة وشرفا . وقال :

---

(١٨) الطبرى ٣/٥٣٣ .

(١٩) انظر على التوالى الشعر رقم ١ ، ٣ ، ٧ . من شعر عبدة بن الطبيب تحقيق يحيى الجبورى ـ تحت الطبع .

(٢٠) هو خالد بن صفوان بن عبدالله بن الاهتم التميمى المنقرى ، من فصحاء العرب المشهورين كان يجالس عمر بن عبدالعزيز وهشام بن عبدالملك وله معهما أخبار ، ولد ونشأ بالبصرة وتوفى سنة ١٣٣ هـ .

وأجـــرأ من رأيت بظهـر غيب  علىعيب الرجلأولو العيوب»[٢١]

ولعل أظهر ما يوضح أخلاق عبدة وشـرف نفسه ووفـاءه صلتـه بقيس بن عاصم سيد الوبر[٢٢] فقد كان بين قيس بن عاصم وعبدة بنالطبيب لحاء وجفوة أول الامر ، فهجره قيس ، ثم حمل عبدة دما فى قومه ، فخرج يسأل فيما تحمله ، فجمع ابلا ، ومر به قيس بن عاصم وهو يسأل فى تمام الدية ، فقال : فيم يسأل عبدة ؟ فأخبره ، فساق اليه الدية كاملة من ماله ، وقال : قولوا له ليستمتع بما صار اليه ، وليسق هـذه الى القـوم ، فقـال عبدة : أمـا والله لولا أن يكون صلحي اياه بعقب هـذا الفعل عـارا علىّ لصالحته ، ولكني أنصرف الى قومي ثم أعود فأصالحه ، ومضى بالابل ، ثم عاد فوجد قيسا قد مات ، فوقف على قبره وأنشأ يقول :

عليك سلام الله قيس بن عاصم  ورحمتـه ما شاء أن يترحمـا
تحيـة من ألبسته منـك نعمـة  اذا زار عن شحط بلادك سـلما
فما كان قيس هلكه هلك واحد  ولـكنه بنيـان قـوم تهدمـا »[٢٣]

ولما أسن عبدة وداهمته الشيخوخة كلّ بصـره واستشعر المـوت ، فجمع أبناءه ينصحهم ويوصيهم بقصيدة رائعة هى من خير ما خلف الأوائل من شعر الوصايا عند شعورهم باقتراب مناياهم ، فيهـا الدعـوة الى البـر

---

(٢١) الاغانى ١٦٣/١٨ ومعجم الادباء ١٦١/٤ ومعاهـد التنصيص ١٠٢/١ .

(٢٢) هو قيس بن عاصم بن سنان بن خالـد بن منقـر السـعدى التميمى ، أحد أمراء العرب وعقلائهم الموصوفين بالحلم والشـجاعة ، كـان شاعرا اشتهر وساد فى الجاهلية وهو ممن حرم على نفسه الخمـر فـى الجاهلية ، وفد على النبى صلى الله عليه وسلم فى وفد تميم بعد الفتح سنة ٩ هـ فأسلم ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم لما رآه : ( هذا سيد أهـل الوبر ) واستعمله على صدقات قومه ، كان له ثلاثة وثلاثون ولدا ، نـزل البصرة فى أخريات أيامه وتوفى بها سنة ٢٠ هـ .

(٢٣) الاغانى ٨٣/١٤ ط الدار وانظر ق ١٥ .

والصلاح والتقوى وترك النميمة والحذر من الواشى وعصيان النمام الذى يوقع بينهم ، والقصيدة من جياد شعره وهى التى يبدأها بقوله :[٢٤]

أبنى اني قد كبرت ورابني بصري وفيّ لمصلح مستمتع

ومن وصيته نعرف أنه عاش عمرا طويلا فقد شاخ وأسن وضعف بصره ، ولا نعرف عن هذا العمر الطويل الا لمحات ذكرناها ، فاذا قدرنا انه بلغ الثمانين عند وفاته فيكون قد قضى شبابه وصدرا من كهولته فى الجاهلية وبقية حياته فى الاسلام ، وقد شارك فى فتوح العراق فى القادسية وحارب فى بابل والمدائن وكان ذلك فى حدود سنة ست عشرة ، فلما كتب للمسلمين النصر فى هذه المعارك رجع عبدة الى البادية وقضى بقية عمره فى رحاب قومه بني تميم • ولم أجد من ذكر سنة لوفاته من القدامى وارجح انه توفى بعد سنة عشرين سنة وفاة قيس بن عاصم الذى رثاه عبدة بن الطبيب ، ويقدر الزركلي فى الاعلام انه توفى سنة ٢٥هـ/٦٤٥م وهو تقدير له وجاهته •

**الشعر :**

وعبدة شاعر مجيد جزل العبارة رصين الاسلوب جميل الأداء ، أعجب الادباء والنقاد والعلماء بشعره ، معنى واسلوبا ، فأثنوا عليه ومدحوا قائله ، أعجبوا بلغته فاحتفل به اللغويون وذكروا شعره فى كتبهم ، واتخذوه شواهد على الفصاحة ، ونصوا على أنه أفصح الناس[٢٥] • وربما استشهد المفسرون بشعره فى تفسير آية من القرآن الكريم ، كما روي عن سعيد بن جبير انه كان يقرأ « أكاد أخفيها » قالوا فمعنى أخفيها على هذا الوجه أظهرها ، قال عبدة بن الطبيب يصف ثورا :

---

(٢٤) المفضليات ص ١٤٥ و ق ٧ •
(٢٥) الخصائص ٣/٢٩٥ •

يخفى التراب بأظلاف ثمانية  في أربع مسهن الارض تحليل[٢٦]

وأعجبوا بجودة معناه وحسن تقسيمه فهذا عمر بن الخطاب ـ وهو من هو رأيا فى النقد وذوقا فى الشعر ـ يعجب بقوله :

والمرء ساع لأمر ليس يدركه  والعيش شح واشفاق وتأميل

ويعجّب الناس من حسن ما قسم وما فصّل . [٢٧] ويقال انه قال بعد أن سمع هذا البيت : « على هذا بنيت الدنيا »[٢٨] . ومن الادباء من يتعجب من جودة أبياته فى رثاء قيس بن عاصم فيقول : « ومن العجب أن يقول عبدة بن الطبيب فى تأبين قيس بن عاصم :

عليك سلام الله قيس بن عاصم  ورحمته ما شاء أن يترحما

... » الابيات[٢٩]

ويرى ابن الاعرابي أن بيت عبدة :

فما كان قيس هلكه هلك واحد  ولكنه بنيان قوم تهدما

« ماله ثان فى جاهلية ولا اسلام قائم بنفسه»[٣٠] وهو أشعر من غيره ممن سبقه فى معنى هذا البيت[٣١] .

أما الجاحظ فيأسره قول عبدة بن الطبيب في النميمة :

ان الذين ترونهم خلانكم  يشفي صداع رؤوسهم أن تُصرعوا

قوم اذا دمس الظلام عليهم  جذعوا قنافذ بالنميمة تمزع

ويعلق عليه بقوله : « وهذا الشعر من غرر الاشعار وهو مما

---

(٢٦) امالى المرتضى ١/٣٣٣ .
(٢٧) البيان والتبيين ١/٢٤١ وخاص الخاص ص ١٠٤ .
(٢٨) العقد الفريد ٥/٢٨١ .
(٢٩) العمدة ٢/١٥٣ .
(٣٠) نور القيس ص ٣٠٣ .
(٣١) البيان والتبيين ٢/٣٥٣ .

يحفظ »[٣٢] .

وكان شعره حديث المجالس به يسمرون وبمعانيه يتحاورون ، ويقفون عند نوادره ، فقد قال عبدالملك بن مروان يوما لجلسائه ـ وكان يتجنب غير الاباء ـ : أي المناديل أفضل ؟ فقال قائلهم : مناديل اليمن كأنها أنوار الربيع ، وقال آخر : مناديل مصر كأنها غرقىء البيض[٣٣] ، فقال عبدالملك : ما صنعتم شيئا ، أفضل المناديل منديل عبدة ، يعني عبدة بن الطبيب في قوله من قصيدة[٣٤] :

لما وردنا رفعنا ظل أردية ... وفار باللحم للقوم المراجيل
وردا وأشقر لم ينهئه طابخه ... ما غير الغلى منه فهو مأكول
ثمت قمنا الى جرد مسومة ... أعرافهن لأيدينا مناديل »[٣٥]

أما مكانة شعر عبدة وموضعه من شعراء قومه فيبينه حكم لربيعة بن حذار الاسدى ـ مر طرف منه ـ في رواية تقول : « تحاكم الزبرقان بن بدر وعمرو بن الاهتم وعبدة بن الطبيب والمخبل السعدى الى ربيعة بن حذار الاسدى في الشعر ، أيهم أشعر ، فقال للزبرقان : أما أنت فشعرك لا هو أنضج فأكل ولا ترك نيئا فينتفع به ، وأما أنت يا عمرو : فان شعرك كبرود حبر يتلألأ فيها البصر ، فكلما أعيد فيها النظر نقص البصر ، وأما أنت يا مخبل : فان شعرك قصر عن شعرهم وارتفع عن شعر غيرهم ، وأما أنت يا عبدة : فان شعرك كمزادة أحكم خرزها فليس تقطر ولا تمطر »[٣٦] . وكأنه يريد أن يقول ان شعر عبدة شعر محكم يصيب

---

(٣٢) الحيوان ٤/١٦٧ .
(٣٣) أى قشره .
(٣٤) انظر ق ١٠ الابيات ٤٩ـ٥١ .
(٣٥) الكامل ٢/٤٩٠ والاغانى ١٨/١٦٤ ط ساسى والعقد الفريد ١/١٦٤ـ١٦٥ .
(٣٦) الموشح ص ١٠٧ـ١٠٨ .

القصد لا حشو فيه ولا فضول ولعل بسبب ذلك ان صار شعره محدودا معدودا وقد فطن القدماء لذلك فقالوا : انه شاعر مقل ليس بالمنكر .[٣٧] وحكم ربيعة بن حذار هذا يوافق رأي عبدة فى شعره ، فيروى ان شعراء تميم اجتمعوا فى موضع فتناشدوا الاشعار ثم قال لهم عبدة بن الطبيب : « والله لو أن قوما طاروا من جودة الشعر لطرتم ، فأما أن تخبرونى عن أشعاركم واما أن اخبركم ، قالوا : أخبرنا ، قال : فاني أبدأ بنفسي ، أما شعري فمثل سقاء وكيع ـ وهو الشديد يصطنعه الرجل فلا يسرب عليه أي لا يقطر ـ وغيره من الاسقية أوسع منه ... »[٣٨] .

فى شعر عبدة بن الطبيب جملة فنون أجاد فيها وأبدع ، منها الرثاء والهجاء والغزل والفخر والحماسة والوصف والحكمة ، ولو اتيح له أن يكثر ويطيل لوقفنا على روائع من شعره فى هذه الفنون .

أما الرثاء ففي شعره منه قطعتان الاولى فى ذكر مقتل عبدالله ، ولا نعرف عنه شيئا ولا ندرى من هو ، ولكنه يذكر انه قد سعى اليه لينجده وقد ثل عرشه فأدركه عند جبل تيمار بنواحي البحرين قد هلك ، وكنى عن موته ببكاء الحمام المغرد فقال :[٣٩]

تداركت عبدالله قد ثل عرشه ... وقد علقت فى كفة الحابل اليد

سموت له بالركب حتى لقيته ... بتيمار يبكيه الحمام المغرد

ولكن أشهر مراثي عبدة أبيات ثلاثة فى رثاء قيس بن عاصم المنقرى سيد تميم ، قالهن حين ذهب اليه ليصالحه بعد جفوة وقعت بينهما ، فوجده

---

(٣٧) الاغانى ١٨/١٦٣ ط ساسى وفى رواية الاصابة ٣/١٠٠ خلاف وان القول قاله فى شعر علقمة بن عبدة : وأما علقمة فكمزادة أحكم خرزها فليس يسقط منها شيء .

(٣٨) الموشح ص ١٠٨ .

(٣٩) انظر ق ٢ .

قد مات ، وهذه الابيات شغلت الادباء والشعراء فقالوا فى مطلعها ( عليك سلام الله ) انها تحية الموتى[٤٠] وقالوا فى البيت الثالث انه أرثى بيت قالته العرب وهو قائم بنفسه ماله نظير فى الجاهلية ولا الاسلام[٤١] والابيات هي :[٤٢]

عليك سلام الله قيس بن عاصم ورحمته ما شاء أن يترحما
تحية من من ألبسته منك نعمة اذا زار عن شحط بلادك سلما
فما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

وقد وقعت هذه الابيات من نفوس الناس موقعا خاصا ، فهم يستشهدون بها عند المصائب ، ويتمثلون بها فى الملمات ، فلما مات عبدالملك بن مروان اجتمع ولده حوله ، فبكى هشام حتى اختلفت أضلاعه ، ثم قال : يرحمك الله يا أمير المؤمنين ، فأنت والله كما قال عبدة بن الطيب :[٤٣]

وما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

وعن أحمد بن أبي داود : « دخلت على المأمون في أول صحبتى اياه وقد توفى أخوه أبو عيسى وكان له محبا وهو يبكي ويمسح عينيه بمنديل ، فقعدت الى جنب عمرو بن مسعدة وتمثلت قول الشاعر :

نقص من الدنيا وأسبابها نقص المنايا من بني هاشم

ولم يزل على تلك الحال يبكي ساعة... ثم التفت الي فقال : هيه يا أحمد ، فتمثلت قول عبدة بن الطبيب : « عليك سلام الله قيس بن عاصم... الأبيات. فبكى ساعة »[٤٤] . ولا شك أن أبيات عبدة فى رثاء قيس بن عاصم فيها

---

(٤٠) ديوان المعانى ٢/٢١٦ .
(٤١) الاغانى ١٨/١٦٣ ط ساسى والمصون فى الادب ص ١٦ ونور القبس ص ٢٨ .
(٤٢) انظر ق ١٥ .
(٤٣) الاغانى ١٤/٨٣ ط الدار .
(٤٤) الاغانى ١٠/١٩١ ط الدار .

صدق وعاطفة واصابة معنى وحرارة وحزن وشجاعة .

وقد زاول عبدة الهجاء ، وهجاؤه قاس شديد موجع ، ولكنه يخلو من الفحش والاقذاع وقد عرف عنه انه لا يجيد الهجاء ، وذلك فى محاورة جرت بين رجل وخالد بن صفوان ، حيث قال الرجل : « كان عبـــدة بن الطبيب لا يحسن ان يهجو ، فقال : لا تقل ذاك فوالله ما أبى عن عيّ ولكنه كان يترفع عن الهجاء ويراه ضعة ، كما يرى تركه مروءة وشرفا »[٤٥] . ان عبدة كان يهجو وهجاؤه جيد ولكنه قليل وعفيف ، ولدينا من هجائـه ثلاث قطع ، الاولى فى هجاء بنى الاعرج ، وفى هجائه يشبههم بالقنافذ ، وهذه الصورة طالما أفاد منها فى تصوير أحوال المهجو سواء كان خصما أو نماما ، يقول فى بنى الاعرج[٤٦] :

شريت الامـــور وغاليتها ... فأولى لكم يا بنى الاعرج

تدبون حول ركياتكـــم ... دبيب القنافـذ فى العرفج

وفى قطعة أخرى هجا يحيى بن هزال وابنيه هجاء أوجع من سابقه وأكثر ايلاما وأجود فنا وتندرا بالمهجو ، فقد صور خصمه بصور مضحكة فهو ثرثار كثير اللغو اذا جاء يستقى ، وجسمه مشوه كبير الاطراف قمىء قعدت به همته عن عمل الرجال فصار يخدم فى الحى ويقوم بما تقـــوم به الجوارى من حلب وصر ، وهو الى كل ذلك سفيه دعى مغرور ، وهو كالضب الذى اذا أخصب وأمرع نفخ وكش وتطاول ، وهو فى حقيقة أمره بخيل جبان ضعيف لا يرجى لخير ، وجاوز هجاؤه هذا الرجل الى ابنيـه عباد وحذيمة ، فسخر منهما وشبه فم كل منهما بفم الفأرة التى شج رأسها بمحفار ، فلا خير فيها ولا خير فيهما ، وعلى هذه الشاكلة يمضى فى هجائه.

---

(٤٥) الاغانى ١٨/١٦٣ ط ساسى ومعجم الادباء ٤/١٦١ .
(٤٦) الحيوان ٦/٤٦٢ و ق ١ .

وسخريته فيقول[٤٧] :

ما مع أنك يوم الورد ذو لغـــط ضخـم الجزارة بالسلمين وكّـار
تكفى الوليدة فى النـادى مؤتزرا فأحلب فانـك حـــلاب وصـرّار
ما كنت أول ضب صاب تلعتـــه غيث فأمرع واسترخت به الدار
أنت الذى لا نرجّى نيله أبـــدا جلد النوى وغداة الروع خوّار
تدعو بنيّك عبّـــادا وحذيمـــة فا فأرة شجّها فى الجحر محفـار

وتناول فى قصيدته العينية شخصية النمّام الذى يسعى بسمومه بين الناس ، وقد شبّه كلامه بالعقارب التى اذا لسعت أثارت حربا وبعثت فتنة كما يبعث الاخدع عروقه ، وقد عرّض فى سياق تحذيره من النمام بزيد بن مالك وقومه الذين يغذون أطفالهم سموم العداوة وهم ولدان صغار ، وقد استعار لهؤلاء القوم ومشيهم بالنميمة صورة القنفذ الذى يسعى مستخفيا تحت ظلام الليل ، ويعرج بعد ذلك على ذكر زيد الذى أفسد أمر قومه وبث بينهم العداوة فشتتهم وصدع وحدتهم ، وعلى هذا النمط من التحذير والتصوير يقول[٤٨] :

واعصوا الذى يزجى النمائم بينكم متنصحـــا ذاك الســـمام المنقـــع
يزجى عقـــاربه ليبعث بينكـــم حربا كما بعث العـروق الاخدع
قـــوم اذا دمس الظـلام عليهـم حدجوا قنافـــذ بالنميمـة تمـزع
أمثال زيد حين أفســـد رهطـــه حتـى تشتت أمرهـــم فتصـدعوا
ان الـذين ترونهـــم اخوانكـــم يشفى غليل صدورهم أن تصرعوا

أما الغزل ، فللمرأة فى شعر عبدة مكان واضح ومنزلة مرموقـة ، فقد تغزل بها بشىء من الايجاز ، ذكرها فى مطلع قصائده فشبهها بالظبية التى

---

(٤٧) الحيوان ٥/٢٦٣ و ق ٣ .
(٤٨) انظر ق ٧ الابيات ١١ وما بعدها .

ترعى خذولا ، وطرقه خيالها فأرّقه ، وآلمه فراقها ونأيها وصرمها أحيانا ، ويترك العذال فى نفسه ما يتركونه فى نفوس العشاق من ألم ممض وحسرة حرّى ، ويرتبط الغزل بذكر الديار ، اذ أن الديار تذكر بالمرأة ، واذا نأت المرأة الحبيبة وارتحلت عنه تعقبها بخياله ، فيذكر المواضع التى تمر بها أو تعرج عليها ، حتى تبلغ منزلها أو مقامها .

وترد أسماء نساء فى شعره مثل : هند ابنة الزيدى ، أو هنيدة ، وخولة وهذه زوجه فيما يبدو ، وسلمى ، وأم عمرو ولعلها كنية واحدة ممن ذكرنا . وقد ذكر هندا فى مقطوعتين ، أما الاولى ففيها تفصيل وتدقيق ووصف لمحاسن حبيبته وتشبيهها بالظبية وتصوير عواطفه وما يلقاه بسببها من وجد وشوق ، يقول(٤٩) :

كأن ابنة الزيدى يوم لقيتها  هنيدة مكحول المدامع مرشق
تراعى خذولا ينفض المرد شادنا  تنوش من الضال القذاف وتعلق

وهذا الغزل يذكرنا بغزل طرفة بن العبد الذى يقول(٥٠) :

وفى الحى أحوى ينفض المرد شادن
مظاهر سمطى لؤلؤ وزبرجد
خذول تراعى ربربا بخميلة
تناول أطراف البرير وترتدى

ويقرن عبدة ذكر المرأة بذكر الديار ، فالديار تذكر بأهلها فيخاطبها الشاعر ويقف عندها يستذكر ايامه وملاعب صباه ، ثم يخرج من ذلك مخرج اليأس وقد اغرورقت عيناه بالدموع فيقول :

---

(٤٩) ق ٨ .

(٥٠) شرح المعلقات السبع ـ الزوزنى ص ٤٦ـ٤٧ ط صادر بيروت ١٩٥٨ .

وقفت بها والشمس دون مغيبها قريبا وهاج الشوق من يتشوق
قليلا فلما استعجمت عن جوابنا تعزيت عنها والدموع ترقرق
فلا الدار تدنيها لنا غير فينة ولا حبها عن شاحط النأى يخلق

ويتحدث كذلك عن هند فى قطعة أخرى ، على نمط الابيات السابقة ، ولكنه هنا يخص خيالها الذى يلح على ذهنه فيؤرقه ليلا حين يطرقه[٥١] :

تأوب من هند خيال مؤرق
اذا استيأست من ذكرها النفس يطرق

أما خولة ـ وهى زوجه ـ فيذكرها فى قصيدته اللامية الطويلة، وهى من غرر قصائده ومن عيون الشعر العربى ، قالها عند قتال الفرس فى القادسية ، حيث رحلت خولة من البادية فتابعها ثم التحق بجيش المسلمين وشارك فى الجهاد وقال يذكرها[٥٢] :

هل حبل خولة بعد الهجر موصول
أم أنت عنها بعيد الدار مشغول
حلت خويلة فى دار مجاورة
أهل المدائن فيها الديك والفيل

ثم يصور ما يلقاه من حب وهوى ، وما يجده من رسيس حبها الذى هو كرسيس المحموم فيذكرها بأيام الوداع وأيام الفراق ، والعاطفة ظاهرة فى هذه الابيات ، تجدها فى تضاعيف قوله :

فخامر القلب من ترجيع ذكرتها رسّ لطيف ورهن منك مكبول
رس كرس أخى الحمى اذا غبرت يوما تأوبه منها عقابيل
وللاحبة أيام تذكرها وللنوى قبل يوم البين تأويل

---

(٥١) ق ٩ .
(٥٢) ق ١٠ .

ويعود الى نفسه يزجرها عن التمادى فى الغواية واتباع الهوى ، وأى هوى بعد ان ملأ الشيب رأسه و « ان الصبابة بعد الشيب تضليل » .

ولا نقف عند غزله بأم عمرو أو سليمى فغزله فيهما بارد لا حياة فيه وقد ذكر الاخيرة فى بيت واحد لعله سقط من قصيدة ضاعت مع ما ضاع من شعره .

ومهما يكن من شىء فان عبدة ليس من شعراء الغزل المشهورين ، ولا من العشاق المتيمين ، وهو فى أكثر غزله يذكر الشيب ، فهو شيخ وقور مهيب ، يقدم غزله بين يدى حديثه عن الديار او الرحلة او الحرب .

لقد برع عبدة بفن الوصف ، وحفل شعره بصور شتى من الطبيعة ، وابرز ذلك الحيوان فقد وصف الثور والناقة والفرس ، وذكر الديك والقنفذ والضب ، وتناول الطبيعة الساكنة فوصف الماء والرياح والثياب وزينة البيت ومجلس الخمر ، ولعل هذا المجلس الاخير خير أوصافه .

وقد أفاد عبدة من ذكر الحيوانات فاستعار طباعها فى تصوير احوال الانسان فى مجال الحقد والنميمة والضغينة والسعى الى المكاره ، وقد مر بنا انه استعار للنمام حين يخرج بالليل يسعى بالنميمة صورة القنفذ حين يخرج بالليل مستخفيا بظلامه(٥٣) :

قوم اذا دمس الظلام عليهم  حدجوا قنافذ بالنميمة تمزع

ويستعير القنفذ للوشاية والنميمة والعقارب للاحقاد والضغائن ، فيقول(٥٤) :

يزجى عقاربه ليبعث بينكم  حربا كما بعث العروق الاخدع

---

(٥٣) الحيوان ٤/٥٥ وجمهرة الامثال ـ العسكرى ١/١٥٦ وانظر ق ٧ .

(٥٤) الحيوان ٤/١٦٦ـ١٦٧ و ق ٧ .

ما كنت أول ضب صاب تلعتـــه  غيث فأمرع واسترخت بـه الدار

ويفيد من حالة الضب حين يخصب فينفخ ويكش نحو كل شـــيء يريده ، فيهجو خصمه بهذه الصفة التى فيها بطر وكبر وخيلاء[٥٥] :

فضلت عداوتهم على أحلامهـــم  وأبت ضبـاب صدورهـم لا تنزع

واستعار الضب للحقد أيضا فى قوله[٥٦] :

واعصوا الذى يلقى القنافذ بينكم  متنصحا وهـو الســمام الانقـع

هذه الصور انتزعها من بيئته فى أحوال الحيوان ، وهى لقطات سريعة أفاد منها فى تصوير نزعات بشرية ، ونراه فى ذكر الحيوان هنا لا يطيل ، وهو كذلك فى وصف الحيوان عامة لا يطيل ، يذكر ذلك فى بيت أو ابيات ، وهو يصف جانبا جزئيا من الحيوان الذى يذكره سواء أكان ذلك الجانب ماديا أم معنويا .

وأحسن أوصافه للحيوان هو وصفه للثـور فى قصيـــدته الـــلامية الطويلة[٥٧] ، ويبدأ ذلك حين يشبه ناقته بثور مسافر مفروق القرنين أسود العينين أبيض البشرة كأنه لبس ثوبا جديدا وفى قوائمه وشوم وخطـوط كأنها سراويل وفى وجهه سفعة وهو السواد يضرب الى الحمرة ، وبعد أن يستكمل وصف جسمه ولونه وشكل قوائمه وارساغه ، يبدأ قصة صراعه مع الصائد وكلاب الصيد ، فيصف الصائد فى حال هزاله وفقره ، ويصف زوجه وفى حجرها ابنها الجائع المهزول ، وهذا الصائد يدعو كلابه المجوّعة الضاربة ، وهو بينهن كالذئب الاغبر ، وفى ذلك يقول[٥٨] :

---

(٥٥) الحيوان ٦/٦٧ـ٦٨ والمعانى الكبير ٢/٦٤٩ و ق ٣ .
(٥٦) الحيوان ٦/٧٢ و ق ٧ .
(٥٧) ق ١٠ الابيات ٢٤ـ٤٤ .
(٥٨) ق ١٠ الابيات ٢٤ـ٢٧ .

كأنها يوم ورد القـــوم خامســـة مســافر أشعب الروقين مكحـــول
مجتاب نصـــع جديد فوق نقبتـه وللقوائم من خـال ســـــراويـل
مسفّع الوجه فى أرســاغه خـدم وفوق ذاك الى الكعبين تحجيـــل
باكره قـانص يســـعى بأكلبـــه كأنـه من صـلاء الشمس مملول

وتبدأ المعركة وقبلها النظر والتحفز واستحضار العزم والجرأة ، ثم استطاع الثور ان يجد طريقا للفرار ، فعدا ولاحقته الكلاب ملازمة اياه ، ولكنه يقف وقد أنف من الفرار فهز قرنين كأنهما حربتان اعدهما ليخوض بهما غمرات الموت • ثم يقف الشاعر عند قرنى الثور يتأملهما ويصفهمـا فهما رمحان جيدان صلبا الكعبين مستقيما الطرفين فيهما ملاسة واستواء ، والقرنان سلاح الثور أعدهما ليذود عن نفسه كما يعد المقاتل سلاحه ساعة القتال ، ثم تجد الثور يطعن الكلاب بقرنيه طعنا خفيفا سريعا رشيقا ، حتى اذا ثقّب صدورها وخرّق أجوافها وصبغ قرنيه بدمائها ، ولّى هاربا كأنه ـ وهو مسرع فى عدوه ـ سيف أبيض أجيد صنعه وجلاؤه ، والثور فى عدوه يستقبل الريح ليطفىء ببردها حرارة جوفه ، وهو مجد فى ذلك قد دلع لسانه يلهث من الاعياء ، ويصور الشاعر سرعة عدو الثور فى حركـة قوائمه التى لا تكاد تمس الارض وتثير التراب ، وفى قوائمه الاربع ثمانية أظلاف ، ويقف عند أظلافه وأرساغه يصف هذه الثآليل التى تتدلى خلف القوائم • وبعد ان نظر اليه من قرب ودقق فى جزئيات قوائمه ، ينظر اليه من بعيد فيراه وسط الغبار المثار من سرعة العدو والحصى يتطاير من تحت اظلافه يكاد يسد فرجه وما بين قوائمه كأنه اكليل ، ولا أحسب ان هنـاك صورة لشدة العدو وعنفه من هذه الصورة الرائعة التى تستطيع ان تستكمل لوحتها حين تتأمل فى قوله(٥٩) :

---

(٥٩) ق ١٠ الابيات ٣٣ـ٤٤ •

فانصاع وانصعن يهفو كلها سدك ... كأنهن من الضمر المزاجيل.
فاهتز ينفض مدريين قد عتقا ... مخاوض غمرات الموت مخذول.
شروى شبيهين مكروبا كعوبهما ... فى الجنبتين وفى الاطراف تأسيل.
كلاهما يبتغى نهك القتال به ... ان السلاح غداة الروع محمول.
يخالس الطعن ايشاغا على دهش ... بسلهب سنخه فى الشأن ممطول.
حتى اذا مضّ طعنا فى جواشنها ... وروقه من دم الاجواف معلول.
ولى وصرعن فى حيث التبسن به ... مضرجات بأجراح ومقتول.
كأنه بعد ما جد النجاء به ... سيف جلا متنه الاصناع مسلول.
مستقبل الريح يهفو وهو مبترك ... لسانه عن شمال الشدق معدول.
يخفى التراب بأظلاف ثمانية ... فى أربع مسهن الارض تحليل.
مردفات على أطرافها زمع ... كأنها بالعجايات الثآليل
له جنابان من نقع يثوّره ... ففرجه من حصى المعزاء مكلول.

وتناول عبدة وصف الناقة فى هذه القصيدة فوصف قوتها ومتانة خلقها وصبرها على الاين وجدها فى السير ، ويقف عند زمامها وجديلها ثم نشاطها وسرعتها وسبقها الابل وشدة وقع منسمها فى الارض كأنه أزميل ، أى الشفرة التى تقطع الجلد(٦٠) :

عيهمة ينتحى فى الارض منسمها ... كما انتحى فى أديم الصرف ازميل.

وأحسن من الناقة وصفه الفرس ، وفرس عبدة كريم أصيل ، سار به فى الروض فأفزع الوحوش وهى ساكنة ، وهو ضامر منصلت كالذئب حسن الطول جميل القوام متين الظهر رشيق القوائم ، فى جبينه غرة صغيرة ، لونه كميت زاه وحركته خفيفة سريعة يسبق الخيل دون جهد ، لانه طويل قوى ضخم متين الخلق ، وبه يغدو أول الصباح الى مجلس لهوه وشرابه ،

---

(٦٠) ق ١٠ البيت ٢١ .

بساهم الوجه كالسرحان منصلت طرف تكامل فيه الحسن والطول
خاظى الطريقة عريان قوائمه قد شفّه من ركوب البرد تذبيل

وفى ذلك يقول(٦١) :

كأن قرحته اذ قام معتدلا شيب يلوّح بالحنّاء مغسول
اذا أبسّ به فى الالف برّزه عوج مركبة فيها براطيل
يغلو بهن ويثنى وهو مقتدر فى كفتهن اذا استرغبن تعجيل
وقد غدوت وقرن الشمس منفتق ودونه من سواد الليل تجليل

ويسلمنا البيت الاخير الى مجلس الشراب ، الذى دقق الشاعر وتأنق فى وصفه ، فحين نهض على فرسه عند أول الصباح والظلام ما زال يسحب أذياله ومنه بقية ، ويتردد فى الانحاء صياح الديك ( يدعو بعض أسرته ) ، فسعى الى تلك الحانة حيث رفاقه الصيد الكرام ، وفى الحانة ضروب من الزينة ، فالفرش مطرزة فيها صور للطير والاسود ونقوش وتماثيل ملونة زاهية ، ويتناول وصف ما فى الحانة مما يسترعى انتباهه ، فهذا مصباح يتألق بذباله المفتول ، وذاك أصيص قد هدم الزمان جانبه كأنه حوض تزاحمت عليه الابل فثلمته ، وقد أسند اليه زق الخمر ، والكوب ناصع يتلألأ ، فيه صور الوحش ، وعلى قلته رسم أكليل من الزهر والريحان ، وقد ملىء هذا الكوب أو الكأس بخمر مزجت بالماء فطفا فوقها الزبد ، وقد أعد الطعام ، وفى السفود لحم كبش يشوى على النار ، وهذا غلام يسقيهم الشراب ويخدمهم ساعيا بين ايديهم ماهرا عجلا ، وقد شربوا من الخمر الجيدة وسمعوا غناء مغنية جميلة رخيمة الصوت ، وطربوا وهزتهم الاريحية فخلعوا عليها هدايا ثمينة من الثياب والبرد .

وهذا المقطع من وصف مجلس الشراب فى قصيدة عبدة من جيد

---

(٦١) ق ١٠ الابيات ٦١-٦٦ .

الشعر ودقيق الوصف مهد له بتحديد وقت ذهابه الى هذا المجلس فقال[٦٢]:

وقد غدوت وقرن الشمس منفتق ودونه من سواد الليل تجليل

حتى اذا كان في المجلس بدأ وصفه بكل أحواله وتفصيلاته على نحو قوله :

حتى اتأنا على فرش يزينها من جيد الرقم أزواج تهاويل
فيها الدجاج وفيها الاسد مخدرة من كل شيء يرى فيها تماثيل
في كعبة شادها بان وزيّنها فيها ذبال يضيء الليل مفتول
لنا أصيص كجذم الحوض هدّمه وطء العراك لديه الزق مغلول
والكوب أزهر معصوب بقلته فوق السياع من الريحان اكليل
مبرد بمزاج الماء بينهما حبّ كجوز حمار الوحش مبزول
والكوب ملآن طاف فوقه زبد وطابق الكبش في السفّود مخلول

وتراه قد وصف المجلس والشراب والكؤوس والآنية ، ولم يغادر شيئا ذا بال في هذا المجلس لم يذكره ، ثم يعرج على الساقي والطعام والمغنية وما فعلته الخمرة في نفوسهم وما أثار الغناء فيهم فيقول :

يسعى به منصف عجلان منطلق فوق الخوان وفي الصاع التوابيل
ثم اصطبحت كميتا قرقفا أنفا من طيب الراح واللذات تعليل
صرفا مزاجا وأحيانا يعللنا شعر كمذهبة السمان محمول
تذري حواشيه جيداء آنسة في صوتها لسماع الشرب ترتيل
تغدو علينا تلهينا ونصفدها تلقى البرود عليها والسرابيل

وحين أسن عبدة وأحس بدنو أجله ، جمع أولاده وأوصاهم وصية فريدة رائعة فيها حكمة السنين ووقار الشيخوخة وايمان عميق بالله سبحانه

---

(٦٢) ق ١٠ الابيات ٦٦-٧٦ .

وبتعاليم الاسلام • ونقرأ الوصية[٦٣] فنجد ايمان المسلم الذى وعى ما فى كتاب الله وعرف ما فى الاسلام من تقوى الله وقدرة الخالق البارىء الذى يعطى من يشاء ويقدر ما يريد ، فينصح أبناءه بالتقوى والصلاح وبر الوالدين وتبجيل الشيوخ ويدعوهم الى اتباع أوامر الدين من دفن الضغائن وتجنب النميمة وعصيان من يسعى اليها ، ترى كل ذلك واضحا فى ابيات جميلة سلسة العبارة هادئة النصح حسنة فى السمع يقول :

أوصيكم بتقى الاله فانه يعطى الرغائب من يشاء ويمنع
وببر والدكم وطاعة أمره ان الابر من البنين الاطوع

••• الابيات[٦٤]

وتتجلى المسحة الاسلامية فى شعر عبدة فى توجهه الى الله سبحانه وطلبه الرزق منه وحده والايمان بما يقدر للانسان والرضا بما يعطيه ، فالانسان ذو اطماع واطماح يسعى اليها ولا يدرك ما يريد ، والمرء فى حياته حريص على الدنيا مشفق من اقدارها آمل فى متاعها وكسبها ، ترى ذلك جليا فى قوله[٦٥] :

نرجو فواضل رب سيبه حسن وكل خير لديه فهو مقبول
ربّ حبانا بأموال مخوّلة وكل شىء حباه الله تخويل
والمرء ساع لامر ليس يدركه والعيش شح واشفاق وتأميل

ولا شك ان ايمان عبدة بن الطبيب كان عميقا فى قلبه واضحا فى سلوكه متميّزا فى شعره حتى لنجد بعض مطالعه تستهل بهذا المعنى الديني، وقد مر بنا قوله فى الرثاء[٦٦] :

---

(٦٣) انظر القصيدة السابعة •
(٦٤) ق ٧ الابيات ٧ـ١٨ •
(٦٥) ق ١٠ الابيات ٥٤ـ٥٦ •
(٦٦) ق ١٥ •

عليك سلام الله قيس بن عاصم ورحمته ما شاء أن يترحما

ولعل الظاهرة المتميزة في شعر عبدة ـ نسبة الى شعراء عصره ـ ظاهرة الشعور بالمنية وذكر الموت ، وما سيؤول اليه أمره بعد الموت ، حيث يوسد في حفرة غبراء وسط مفازة تتناوح فيها الرياح تسفي عليه الترب ، ويذكر ما سيكون من أمر أهله بعده ، فقد تندبه زوجه وتبكيه بناته وينوح عليه بعض ذوي رحمه ، ثم يتفرقون بعد ذلك كل لشأنه ، ويبقى هو وحيدا في حفرته وسط هذه الصحراء الواسعة :(٦٧)

ولقد علمت بأن قبرى حفرة غبراء يحملني اليها شرجع
فبكى بناتي شجوهن وزوجتى والاقربون الي ثم تصدعوا
وتركت في غبراء يكره وردها تسفى عليّ الريح حين أودع

ويخرج من ذلك الى الحكمة في ان حوادث الزمان تأتى على الناس فتجتث حياتهم ، وعمر المرء وديعة في أهله ، والانسان يسعى دائبا جاهدا فيجمع ويثمر ، ولكن الزمان لا يمهله فلا يأكل ما يجمع ، واذا جاء أجل المرء فلا محالة من هلاكه ومصرعه ، ثم يستقر في حفرته ، حتى اذا جاء أهله وأصحابه نبذوا اليه بالسلام ، وهيهات أن يسمع أو يجيب : (٦٨)

ان الحوادث يخترمن وانما عمر الفتى في أهله مستودع
يسعى ويجمع جاهدا مستهترا جدا وليس بآكل ما يجمع
حتى اذا وافى الحمام لوقته ولكل جنب لا محالة مصرع
نبذوا اليه بالسلام فلم يجب أحدا وصم عن الدعاء الاسمع

وفي هذه الابيات نسمات وآثار من شعر لبيد في سياق الحكمة وذكر الموت والمصير ، لعل الشاعر قرأ قصيدة لبيد العينية أيضا فتأثر بها ، أو لعل

---

(٦٧) ق ٧ الابيات ٢٣ـ٢٥ .
(٦٨) ق ٧ الابيات ٢٧ـ٣٠ .

طبيعة الموضوع ساقته لان يوافق لبيدا فى قوله من قصيدة :[٦٩]

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع وتبقى الجبال بعدنا والمصانع
وما المال والأهلون الا وديعة ولابد يوما أن ترد الودائع
ويمضون أرسالا ونخلف بعدهم كما ضم اخرى التاليات المشايع

وشعر عبدة بعد كل ذلك ، شعر يجمع بين جزالة الاسلوب وجمال المعنى واصابة الغرض وتنوع الموضوعات ، وقد أجاد وأبدع فى كل موضوع طرقه بحيث ينزل من نفس القارىء المتأمل فى شعره المدقق فى معانيه منزلة فيها اعجاب بفنه وجمال صياغته وعمق معانيه .

وقد أفاد الشاعر من معانى غيره من السابقين ، كما أفاد منه غيره ممن جاء بعده وهذا لا يدخل فى باب السرقة بل يدخل فى باب الافادة من المعنى واعادة الصياغة بشكل يزيد على ما قبله ، فمن ذلك ان امرأ القيس كان يقول :[٧٠]

ثمت قمنا الى جرد مسوّمة أعرافهن لايدينا مناديل

أخذه عبدة فقال :

نمشى بأعراف الجياد أكفنا اذا نحن قمنا عن شواء مضهب

وقال امرؤ القيس :

فلو أنها نفس تموت سوية ولكنها نفس تساقط أنفسا

قال الحاتمي :[٧١] « فأخذه عبدة بن الطبيب فكشفه وأرهفه وساوى فيه من تقدمه فقال :

فما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

---

(٦٩) ديوان لبيد ص ١٦٨ وما بعدها .
(٧٠) الشعر والشعراء ٢/٧٢٨ .
(٧١) الرسالة الموضحة ص ١٥٣ .

أما قول عبدة :[٧٢]

قوم اذا دمس الظلام عليهم  حدجوا قنافذ بالنميمة تمزع

فقد أخذه جرير فقال :

يدبون حول ركياتهم  دبيب القنافذ فى العرفج

وقد أعجب الادباء والنقاد القدامى بشعر عبدة بن الطبيب وذكروا رائع معناه ووقفوا عند أبيات من شعره يحفظونها ويضربون بها الامثال لجودتها ، أو تفردها بمعناها ، ولم أجد من أخذ عليه مأخذا أو استسمج له عبارة أو معنى ، الا اسامة بن منقذ ، فقد أخذ عليه بيتا رآه مغلوط المعنى وصفه بأنه « من بارد الشعر » وذلك قوله :

يحملن أترجّة نضح العبير بها  كأن تطيابها فى الانف مشموم

وعلل رأيه بقوله : « لان الشم لا يكون بالعين وانما هو بالانف ، والتطياب أيضا من أقبح المصادر وأبردها وأغثها »[٧٣] . ولم أجد شاعرا من شعراء العربية أُرتضي شعره كله ، فلكل شاعر هنات وسقطات الى جانب روائع خالدة من شعره الذى بقى وسيبقى على مر الزمان .

---

(٧٢) ديوان المعانى ٢/١٤٤ .

(٧٣) البديع ص ١٦٠ .

## مصـادر البحث


١ ـ الاشتقاق ـ ابن دريد أبوبكر بن محمد بن الحسن الازدى (ت٣٢١هـ)
تحقيق عبدالسلام هارون ـ ط سنة ١٩٥٨ م ٠

٢ ـ الاصابة ـ ابن حجر شهاب‌الدين أحمد بن علي العسقلاني (ت٨٥٢هـ)
ط السعادة مصر ١٣٢٨ ٠

٣ ـ أبو الفرج علي بن الحسين الاصفهانى (ت٣٥٦هـ)
ط ساسي و ط دار الكتب المصرية ٠

٤ ـ أمالي المرتضى ـ الشريف علي بن الحسين العلوي (ت٤٣٦هـ)
تحقيق أبي الفضل ابراهيم ـ ط الحلبى مصر ١٩٥٤ م ٠

٥ ـ البديع الامير اسامة بن منقذ (ت٥٨٤هـ)
تحقيق عبدالمجيد وبدوى ـ ط وزارة الثقافة مصر ١٩٦٠م

٦ ـ البيان والتبيين ـ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ)
تحقيق عبدالسلام هارون ـ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ٤٨ ـ ١٩٥٠م ٠

٧ ـ تاريخ الطبري ـ أبو جعفر محمد بن جرير (ت٣١٠هـ) ٠
تحقيق أبى الفضل ابراهيم ـ ط دار المعارف مصر ١٩٦١م ٠

٨ ـ جمهرة أمثال‌العرب ـ أبوهلال الحسن بن عبدالله العسكري (ت٣٩٥هـ)
تحقيق ابى الفضل وقطامش ـ ط مصر ١٩٦٤م ٠

٩ ـ جمهرة أنساب العرب ـ ابن حزم الاندلسي (ت٤٥٦هـ)
تحقيق عبدالسلام هارون ـ ط دار المعارف مصر ١٩٦٢م ٠

١٠ـ الحيوان ـ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ)
تحقيق عبدالسلام هارون ـ ط الحلبي ٣٨ ـ ١٩٤٥ ٠

١١ـ خاص الخاص ـ عبدالملك بن محمد الثعالبي (ت٤٣٠هـ)
ط مكتبة الحياة بيروت ١٩٦٦م ٠

١٢ـ خزانة الادب ـ عبدالقادر بن عمر البغدادى (ت١٠٩٣هـ)
ط بولاق ١٢٩٩هـ ٠

١٣ ـ الخصائص ـ أبو الفتح عثمان بن جني (ت٣٩٢هـ)
تحقيق محمد علي النجار ـ ط دار الكتب المصرية ١٩٥٦م ٠

١٤ـ ديوان لبيد ـ لبيد بن ربيعة العامري (ت ٤٠هـ)
تحقيق احسان عباس ـ ط الكويت ١٩٦٢م ٠

١٥ـ ديوان المعانى ـ أبو هلال العسكرى (ت ٣٩٥ هـ)
ط القدسي ١٣٥٢هـ ٠

١٦ـ ربيع الأبرار ـ جارالله محمود بن عمر الزمخشري (ت٥٣٨هـ)
مخطوط فى مكتبة الاوقاف بغداد رقم ٣٨٦ ومكتبة الحرم بمكة المكرمة ٠

١٧ـ الرسالة الموضحة ـ محمد بن الحسن الحاتمي (ت٣٨٨هـ)
تحقيق محمد يوسف نجم ـ ط بيروت ١٩٦٥م ٠
١٨ـ سمط اللآلى ـ أبو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز البكري (ت ٤٨٧هـ)
تحقيق عبدالعزيز الميمنى ـ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٦م ٠
١٩ـ شرح المعلقات السبع ـ أبوعبدالله الحسين بن أحمد الزوزنى(ت٤٨٦هـ)
ط بيروت ١٩٥٨م ٠
٢٠ـ شرح المفضليات ـ محمد بن القاسم الانباري (ت٣٢٨هـ)
تحقيق لايل ـ ط بيروت ١٩٢٠م ٠
٢١ـ الشعر والشعراء ـ عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت٢٧٦هـ)
تحقيق أحمد شاكر ـ ط دار المعارف مصر ١٩٦٧م ٠
٢٢ـ شعر عبدة بن الطبيب ـ عبدة بن الطبيب التميمي (ت ٢٥هـ)
جمع وتحقيق يحيى الجبوري ـ مخطوط ٠
٢٣ـ العقد الفريد ـ ابن عبد ربه الاندلسي (ت ٣٢٨هـ)
تحقيق أحمد أمين وآخرين ـ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ٤٨ ـ ١٩٥٠م ٠
٢٤ـ العمدة ـ الحسن بن رشيق القيرواني (ت ٤٦٣هـ)
نشر محيي‌الدين عبدالحميد ـ ط السعادة مصر ١٩٥٥م ٠
٢٥ـ الكامل ـ محمد بن يزيد المبرد (ت ٢٨٥هـ)
تحقيق زكي مبارك وأحمد شاكر ـ ط الحلبي مصر ١٩٣٧م
٢٦ـ المصون فى الادب ـ الحسن بن عبدالله العسكري (ت ٣٨٢هـ)
تحقيق عبدالسلام هارون ـ ط الكويت ١٩٦٠م
٢٧ـ المعاني الكبير ـ عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينورى ( ت ٢٧٦هـ )
ط دائرة المعارف العثمانية ـ حيدرآباد ـ الهند ١٩٤٩ ٠
٢٨ـ معاهد التنصيص ـ عبدالرحيم بن أحمد العباسى ( ت ٩٦٣هـ)
نشر عبدالحميد ـ ط السعادة مصر ١٩٤٧م ٠
٢٩ـ معجم الادباء ـ ياقوت بن عبدالله الرومي الحموى ( ت ٦٢٦هـ )
تحقيق مرجليوث ـ ط هندية مصر ١٩٢٤ ٠
٣٠ـ المفضليات ـ المفضل بن محمد الضبي (ت ١٧٠هـ)
تحقيق أحمد شاكر وعبدالسلام هارون ـ ط دار المعارف مصر ١٩٦٤
٣١ـ الموشح ـ محمد بن عمران المرزبانى (ت ٣٨٤هـ)
تحقيق علي محمد البجاوى ـ ط نهضة مصر ١٩٦٥م ٠
٣٢ـ نور القبس ـ محمد بن عمران المرزبانى (ت ٣٨٤هـ)
تحقيق رودلف زلهايم ـ ط فسبادن ١٩٦٤م ٠

# بعض خصائص واتجاهات الهجرة من الأرياف الى المدن في العراق

**الدكتور مكي محمد عزيز**
**المدرس في قسم الجغرافية**

يميل الانسان في كل مكان الى الاستقرار ، ويظل مستقرا حتى تضطره قوة ما على الحركة . ومقابل ذلك يهاجر اما لمجرد الرغبة في التجوال ، او لتحقيق شيء جديد في حياته ، او استجابة لتغير ظروفه . الا ان هاتين الصورتين المتناقضتين ، لا يمكن ان تفسر سلوكا بشريا مختلفا . فلو كان البشر جميعهم مستقرين أو متنقلين بطبيعتهم ، فلماذا يهاجر بعضهم ولا يهاجر البعض الآخر . ولهذا يبدو من الملائم القول ، بان اية جماعة مستقرة او اية جماعة متنقلة ، تميل الى الاحتفاظ بوضعها ، الا اذا اضطرت الى تبديله . اذ ان لكل نمط من الحياة نظاما تتطور بموجبه القيم الاجتماعية التي يرتكز عليها . والمشكلة الاساسية احيانا هي ليست « لماذا يهاجر الناس ؟ » وانما « لماذا لا يهاجرون ؟ » .

ومع ذلك فالانسان مخلوق له القدرة على استقصاء المعلومات واتخاذ القرارات . وحينما يقتنع بان حاجاته ورغباته يمكن تطمينها في مكان آخر غير مسقط رأسه ، فانه لا يتردد بالانتقال اليه ، ويختار بنفسه الوسائل التي تحقق له هدفه . ان حركات البشر من مكان لآخر ليست ظاهرة جديدة ، وانما كانت مستمرة طوال تاريخ الانسان . ولا يكاد يوجد جزء من العالم في الوقت الحاضر ، لا تبدو هذه الظاهرة فيه واضحة . الا انها من الناحية الاخرى تختلف في شدتها ودوافعها من جزء فيه الى جزء آخر ، اعتمادا على مرحلة التطور الاقتصادي التي يمر بها ، وعلى خصائص السكان

الديموغرافية • فلما كانت الهجرة عملية اختيار وانتقاء نوعى ، وتتضمن بصورة عامة ، قطاعات معينة من الافراد ، فلا يمكن اغفال بعض المظاهر الديموغرافية ، كتركيب السكان حسب فئات العمر والجنس ونسبة المواليد والوفيات والكثافة ، خاصة فى المناطق الريفية والمراكز الحضرية ، فى تحديد خصائص وقوانين تحركات الانسان واتجاهاته •

ان تحركات السكان سواء ضمن الوحدات الادارية او عبر حدودها من أبرز الظواهر فى العراق • ويعتبر انتقال السكان من المناطق الريفية الى المدن ، الوجه البارز فى هذه التحركات • وقد تطورت الهجرة من ارياف العراق الى المراكز الحضرية ، بعد الحرب العالمية الثانية ، بنسبة لم تعهدها من قبل ، وقد رأت المدن الرئيسة ، القريبة والبعيدة ، على حد سواء ، زيادة فى سكانهم خلال السنوات الاخيرة • وبرغم ان النسبة الاجمالية لمجموع السكان الحضر الى مجموع السكان لم تتجاوز ٤ر٥١٪[١] عام ١٩٦٥ ، الا ان هناك اختلافات واضحة فى هذه النسبة متفاوتة بين محافظة واخرى كما فى الجدول التالي ( جدول ١ ) •

---

(١) وزارة التخطيط ، الدائرة المركزية للاحصاء ، المجموعة الاحصائية السنوية لعام ١٩٦٩ ، مطبعة الزهراء ، بغداد (١٩٧٠) ، جدول ٢٥ ، ص٤٣ •

## جدول (١)

### سكان العراق حسب اصنافهم ( بالمائة ) (١)

| المحافظة | ١٩٥٧ * | | ١٩٦٥ ** | |
|---|---|---|---|---|
| | حضر | ريف | حضر | ريف |
| نينوى | ٣٥ر٩ | ٦٤ر١ | ٤٦ر٢ | ٥٣ر٨ |
| السليمانية | ٢٦ر٧ | ٧٢ر٣ | ٣١ر٥ | ٦٨ر٥ |
| اربيل | ٢٦ر١ | ٧٣ر٩ | ٣٧ر٧ | ٦٦ر٣ |
| كركوك | ٣٩ر٩ | ٦٠ر٧ | ٥٩ر٣ | ٤٠ر٧ |
| بغداد | ٦٥ر٢ | ٣٤ر٨ | ٣٦ر٣ | ٦٣ر٧ |
| الانبار | ٢٤ر٩ | ٧٥ر١ | ٤٠ر١ | ٥٩ر٩ |
| ديالى | ٢٢ر١ | ٧٦ر٩ | ٧٨ر١ | ٢١ر٩ |
| واسط | ٢٣ر٦ | ٧٦ر٤ | ٣٠ر٩ | ٦٩ر١ |
| كربلاء | ٧٩ر٨ | ٢٠ر٢ | ٣٦ر٧ | ٦٣ر٣ |
| بابل | ٢٩ر٥ | ٧٠ر٥ | ٧٣ر٧ | ٢٦ر٣ |
| القادسية | ٢٣ر- | ٧٧ر- | ٣٣ر٥ | ٦٦ر٥ |
| ذى قار | ١٨ر٧ | ٨١ر٣ | ٣٠ر١ | ٦٩ر٩ |
| ميسان | ٢٥ر٣ | ٧٤ر٧ | ٢٦ر٧ | ٧٣ر٣ |
| البصرة | ٤٦ر٩ | ٥٣ر١ | ٢٦ر١ | ٣٧ر٩ |
| المجموع | ٣٨ر٨ | ٦١ر٢ | ٥١ر٤ | ٤٨ر٦ |

المصدر(١)* وزارة التخطيط ، الدائرة المركزية للاحصاء ، المجموعة الاحصائية لعام ١٩٦٤ ، جدول ١٢٣ ، ص ١٢٩ .

** المصدر السابق ، جدول ٢٥ ، ص ٤٣ .

وبرغم اننا لسنا هنا بصدد مناقشة دوافع الهجرة من الارياف الى المدن، ولكن ينبغى القول بان انتقال السكان يتأثر بكل من العوامل الطاردة والعوامل الجاذبة . اذ ان هناك ظروفا متنوعة فى المناطق الريفية ، تشجع الافراد فيها على الهجرة ، او ربما تجبرهم احيانا على الانتقال للتفتيش عن فرص للعيش بعيدا عن الارض ، وعن النشاط الاقتصادى التقليدى . وفى مقابل

ذلك تهيء المدن ، او كما يبدو ، كثيرا من المنافع والمزايا غير المعروفة في الارياف • وغالبا ما تظهر هذه المنافع بعد حين ، وهي لا تعدو عن كونها ظاهرية اكثر منها حقيقية • ولكن المثير في الموضوع ان التجارب القاسية التي يمر بها بعض المهاجرين لا تحول دون اتباع الآخرين نفس السبيل •

وستتم معالجة الهجرة هنا ، باعتبارها ظاهرة جغرافية ترتبط من حيث دوافعها واثارها بظواهر سطح الارض الطبيعية والبشرية ، ولان تباين هذه الظواهر في الاماكن المختلفة يؤدي الى تباين خصائص الهجرة وقوانينها من موضع لآخر ومن حين لآخر ايضا • وهذا ما ستحاول الدراسة الحاضرة توضيحه ، اذ ان فهم قوانين ظاهرة الهجرة وحجمها واتجاهاتها في اي بلد، جزء ضروري من موضوع ادراك مشكلة كبيرة تواجه معظم البلدان النامية، كما انه عنصر مهم في اتخاذ الاجراءات الكفيلة بمواجهتها ووضع الحلول المناسبة لها ، فلا يصح تعميم الحلول واقتباس التجارب في كل الاحوال ، خاصة وان الهجرة عملية غاية في التعقيد • فقد تكون في بعض البلدان وفي فترات معينة امرا مرغوبا فيه وتلقى التشجيع ، في حين لا تعتبر كذلك في فترة اخرى •

ان ان دراسة ظاهرة الهجرة في العراق ، وما يتصل بها من موضوعات ليس بالامر السهل • لان مثل هذا العمل يتطلب توفر معلومات احصائية كاملة ، تتعلق بنمو السكان والمظاهر الحيوية الاخرى ، بالاضافة الى دراسات مفصلة لتركيب السكان والعوامل المؤثرة فيه • وهي اما ليست متوفرة بصورة عامة حتى الآن ، او غير كافية بحيث لا يمكن ان يعول عليها• يضاف الى ذلك صعوبات اخرى تتضمنها عملية الهجرة ذاتها ، وما يتعلق باصنافها او انواعها وبتعريف المهاجر • فهل ان كل فرد يترك موطنه الاصلي مثلا يعتبر مهاجرا ؟ ، او هل هو الشخص الذي يجتاز حدود وحدته الادارية ويكون مسافرا ؟ ، وهل ان كل مسافر هو مهاجر في الوقت نفسه•

يضاف الى ذلك لا يعرف فيما اذا كان لطول المسافة التى يبتعد فيها المرء عن موطنه اثر فى ذلك ، او ان هناك مدة معينة ينبغى ان يقضيها بعيدا عن اهله ، حتى يمكن تسميته مهاجرا • اما بالنسبة لهذه الدراسة فسيعتبر مهاجرا كل فرد يترك محل سكناه الدائم ، وينتقل الى محل آخر بغض النظر عن طول الفترة التي يقضيها بعيدا عن عائلته سواء أكان انتقاله مؤقتا او دائميا ، او طول المسافة التى تفصل بين الموطنين •

**انماط الهجرة :**

هناك اعتبارات متعددة ومتباينة تصنف حركات السكان على اساسها تبعا لطبيعة الدراسة وغاياتها • وعلى هذا سنعتمد هنا تصنيفا يتفق والانماط الشائعة لحركات ابناء الريف فى العراق • ونستطيع ان نميز من بينها ما يأتى :

**الهجرات اليومية :**

وتحدث من الاجزاء المحيطة بالمراكز الحضرية الى المناطق التجارية والصناعية فيها • وبرغم ان مثل هذه الحركات لاتزال فى مراحلها الاولى وباشكالها البسيطة ، الا انها تسبب بعض الصعوبات منها الازدحام الشديد على وسائل النقل اثناء الانتقال الى مراكز العمل وبالعكس، فضلا عن المشاكل الاقتصادية والاجتماعية الاخرى •

وهذا النمط من الهجرة اليومية يشابه ما هو معروف فى كثير من الاقطار ، فهى ظاهرة شائعة من ريودى جانيرو فى امريكا الجنوبية الى اكرا والقاهرة فى افريقيا وبومبي وجاكارتا فى آسيا ، مع اختلاف فى اعداد المهاجرين والمسافات التى يقطعونها اعتمادا على طبيعة قوى الجذب والطرد بين المدينة وما يجاورها • فلا يتعدى تأثير حركات السكان اليومية فى العراق ان يكون محدودا بمقارنته باثار الانماط الاخرى ، ومقتصرا على المدن الكبيرة الرئيسة فى البلاد ، وخاصة بغداد والبصرة والموصل • وبرغم عدم توفر معلومات احصائية تتعلق باوجه هذه الحركات المختلفة فى الوقت

الحاضر ، الا انها واضحة وملموسة فى قطاعات عديدة للعمل فى مدينة بغداد ، خاصة فى مناطق صناعات النسيج والصناعات الانشائية .

**هجرات السكان الموسمية :**

وتتضمن بالدرجة الاولى البالغين من الذكور ، مع انهم قد يستصحبون عوائلهم فى بعض الحالات . ويحدث هذا النوع بعد الانتهاء من حصاد المحصول الشتوى ، وخلال الفترات التى تقل فيها حاجة العمل الزراعى الى ايدى عاملة ، حيث هناك طلب موسمى متزايد فى المناطق الحضرية على الايدى العاملة فى بعض مشاريع العمل الفردية وخاصة اعمال البناء . وهكذا تترك اعداد كبيرة من المزارعين قراها الى المدن الكبيرة ، القريبة منهم والبعيدة ، حيث تتقاسم هذه الاعمال الصغيرة . وهكذا يلاحظ كيف ان التبدلات الفصلية فى المناخ قد خلقت هناك انسجاما بين ظاهرة الهجرة وبين فترات النشاط الاقتصادى الموسمية ( جدول ٢ آ ، ب ) .

**جدول (٢ آ)** (٢)

**المعدل الفصلي للاشخاص المشتغلين فى القطاع الانشائي الحكومى فى بغداد لسنة ١٩٦٨**

| الفصل | عمال ماهرين ونصف ماهرين | عمال غير ماهرين | حراس وفراشين | المجموع |
|---|---|---|---|---|
| الاول | ٢٥٢٧ | ٤٣٥٤ | ٤٢٩ | ٧٣١٠ |
| الثانى | ٢٢٤٦ | ٤٢٨٤ | ٤٨٤ | ٧٠١٤ |
| الثالث | ٢٠٥٠ | ٤٣٢٨ | ٥١٩ | ٦٨٩٧ |
| الرابع | ٢٥٢١ | ٤٨٧٨ | ٦٠٧ | ٨٠٠٦ |
| المعدل | ٢٣٣٦ | ٤٤٦١ | ٥١٠ | |

(٢) وزارة التخطيط ، الجهاز المركزى للاحصاء ، دائرة الاحصاء الانشائى ، نشرة الاحصاء الانشائى لعام ١٩٦٨ ، مطبعة الزهراء ، بغداد ١٩٦٩ ، جدول ٤٩ ، ص ٤٨ .

## (جـدول ٢ ب) [1]

المشتغلين فى القطاع الانشائى الاهلى فى بغـداد حسب

**شـهور عام ١٩٦٨**

| الشهر | عمال ماهرين ونصف ماهرين | عمال غير ماهرين | حـراس | المجموع |
|---|---|---|---|---|
| كانون الثانى | ٢٥٦٣ | ١٠٧٢٧ | ١٣٣٢ | ١٤٦٢٢ |
| شـباط | ٢٨٣٣ | ١١٧٧٥ | ١٣٥٤ | ١٥٩٦٢ |
| مـارت | ٣٢٣٨ | ١٣٠٦٤ | ١٥٧٥ | ١٧٨٧٧ |
| نيسـان | ٢٥٦٦ | ١٠٧٠٦ | ١٥٤٢ | ١٤٨١٤ |
| مـايس | ٣٥٤٨ | ١٤٥٢٢ | ٢١٧٥ | ٢٠٢٤٥ |
| حـزيران | ٣٤٤٤ | ١٣٦٤٨ | ٢٢١١ | ١٩٣٠٣ |
| تمـوز | ٣٨٩٩ | ١٥٢٦٩ | ٢٣٩٣ | ٢١٥٦١ |
| آب | ٤٢٤٩ | ١٩٢١٧ | ٢٣٦٩ | ٢٣٨٣٥ |
| ايلـول | ٤٠٠٤ | ١٥٦٣٧ | ٢٣٦٦ | ٢٢٠٠٧ |
| تشرين الاول | ٤٨١٧ | ١٩٠٠٣ | ٤٨٤٦ | ٢٦٦٦٦ |
| تشرين الثانى | ٥٣٠٦ | ٢٠٥١٩ | ٣٠١٦ | ٢٨٨٤١ |
| كانون الاول | ٤٨٤٨ | ١٨٣٦٦ | ٢٥٠٤ | ٢٥٧١٨ |
| المعـدل | ٣٧٧٦ | ١٤٩٥٥ | ٢١٤٠ | ٢٠٨٧١ |

(١) جـدول ٢ آ ، جدول ١٣٨ ص ١٣١ .

يتضح من الجدول اعلاه ان هناك زيادة واضحة ومستمرة فى عـدد العاملين فى القطاع الانشائى الاهلى فى بغداد ، منذ بداية الصيف ونهايـة موسم الحصاد فى الارياف حتى بداية الشتاء التالى . ومما تجدر ملاحظته ايضا ان هذه الزيادة تتركز بصفة خاصة فى القطاع الانشائي الاهلي وبين العمال غير الماهرين والحراس ، مما يشير الى ان هذه الاعمال موسمية وغير دائمية بمقارنتها بالقطاع الحكومى من جهة والى ان نسبة كبيرة من العاملين فيها من ابناء الارياف الذين تنقصهم المهارة فى مثل هذه الاعمال .

وقد تطول مدة غياب العاملين عن اهلهم الى ستة او سبعة شهور ، وربما تصل المسافة التى تتضمنها الهجرة عدة مئات من الكيلومترات • فليس غريبا ان يجد المرء عددا من ابناء الشطرة والرفاعى مثلا يعملون فى بغداد خلال فصل الصيف ، تاركين عوائلهم وراءهم ليعودوا اليها فى بداية الموسم الزراعى الشتوى استعدادا للبدء بزراعة محصول جديد ، حاملين معهم ما استطاعوا ادخاره من عملهم فى المدينة •

الحركات القصيرة الامد :

وتحدث حينما يقضى المهاجر فى المدينة فترة قد تمتد بضع سنين • ويغلب على هذه الفئة من المهاجرين ايضا الشباب من البالغين الذين ينتقلون الى المدن ، اما عن طريق الارتباط باعمال معينة ولفترة محددة من الزمن اثناء تنفيذ بعض مشاريع المقاولات الاهلية والحكومية ، او ان هؤلاء يهدفون الى كسب مبلغ من المال هم بحاجة ملحة اليه ، وبعد ان يحققوا هدفهم يعودوا الى مواطنهم • ولا يصحبهم فى هجرتهم هذه افراد عائلاتهم الذين يظلون فى قراهم ويشكلون سببا فى عدم قطع صلة المهاجرين بقراهم • وربما يقضى مثل هؤلاء الشباب عدة فترات قصيرة من العمل فى المدن بين آونة واخرى خلال حياتهم •

الهجرة الدائمية :

يقطع الافراد بنتيجة هذا النمط من الهجرة ، كل ارتباطاتهم بالمناطق الريفية ويستوطنون المناطق الحضرية بصورة نهائية • وقد يأتي مثل هذا القرار اما آنيا لدوافع ، تطرأ فجاءة فى الموطن الاصلى ، واما بعد زيارات متكررة للمدن الرئيسية ، خاصة فى مناسبات معينة كزيارة العتبات المقدسة ، او زيارة الاقارب والاصدقاء الذين سبق لهم وان استوطنوا المدينة ، واما بسبب فترات سابقة من العمل فى المدينة يجمع المهاجر خلالها معظم مايحتاجه من معلومات عن حياته المقبلة • وربما يستصحب المهاجرون عوائلهم معه م

منذ البداية ، او انهم يبعثون فى طلبهم بعد ان يستقر بهم المقام فى موطنهم الجـــديد •

وتعتبر الهجرة الدائمية الصنف السائد فى هجرة ابناء الريف فـى العراق ، بالاضافة الى توفر بعض المعلومات عنها بمقارنتها بالانواع الاخرى• ومن ثم فانها تعتبر اساس هذه الدراسة ومحورها •

**بعض قوانين الهجرة وخصائصها :**

بالقاء نظرة على ما مر ذكره ، يمكن القول بان الهجرة من الارياف العراقية الى المدن تختلف فى بعض انواعها عما هو معروف فى كثير مـــن الاقطار وتتشابه معها فى أنواع اخرى • ويعزى هذا التشابه والتباين الى عوامل متعددة تتعلق بطبيعة قوى الطرد والجذب العاملة فى كل من الارياف والمدن وخاصة فيما يتعلق بالهجرة الدائمية • فهي تختلف عمـــا يمكـن تسميته بالهجرة البدائية التى تنجم عادة عن عوامل الطرد الخاصة بالبيئة• ويقصد بهذا النوع عدم قدرة الانسان او عجزه من التغلب عـلى القـوى الطبيعية • ولما كان رد الفعل المتوقع عن تدهور البيئة الطبيعية اما ان يكون عن طريق العمل لاصلاح مثل هذا التداعى او عن طريق الهجرة اعتمـادا على الوسائل العلمية المتوفرة لدى السكان ، فان الهجرة البدائية غالبـــا ما ترتبط بالجماعات البشرية البدائية •

ومن الناحية الاخرى ، نجد ان الهجرة فى العراق لا تعزى الى وجود خلل فى البيئة الطبيعية بصورة عامة • فالظروف المناخية السائدة فى معظم جهات القطر ، وخاصة الجنوبية منها ، وحيث تيارات الهجرة الريفية منها على اشدها كما سنرى ، قد جعلت فصل النمو يمتد طول العـام وفتـرات الانجماد نادرة • اما المياه اللازمة للرى فهى متوفرة فى معظم السنين وتكفى للانتاج الزراعى لو استثمرت بصورة حكيمة • كما ان الارض ســـهلة ومنبسطة فى مثل هذه الجهات بحيث لا تحتاج الى كثير من الجهد والمـال

لتسويتها وتهيئتها للانتاج ومتوفرة بمساحات كبيرة • بالاضافة الى ان التربة صالحة بصورة عامة لانتاج زراعي متنوع وخاصة اذا ما وجه اليها شيء من الاهتمام • صحيح ان بعض بقاع السهل الرسوبي قد ارتفعت نسبة الاملاح فيها لدرجة اخرجتها عن الانتاج الزراعي ، الا ان هناك مساحات بجانبها شاسعة وفائضة تصلح للاستثمار ، اذ يزيد معدل حصة الفرد العراقي من الاراضي الصالحة للزراعة على نظيرة في قارة آسيا كلها بمقدار سبع مرات[٣] •

هذا وقد تحدث الهجرة البدائية بين الجماعات الزراعية حينما يكون التفاوت كبيرا بين المنتوج الزراعي وعدد السكان • وقد يأتي ذلك أحيانا بصورة مفاجئة كحدوث الجفاف أو زحف الجراد ، أو بسبب الضغط البطيء لنمو السكان على الارض في منطقة محدودة في مساحتها وفي امكانياتها • ولا تجد مثل هذه الدوافع شائعة في المناطق الريفية من العراق وخاصة في السهل الرسوبي ، وحيث الاعتماد على الانهار وهو الوسيلة الرئيسة للري • كما ان تأثير الجراد والاوبئة الاخرى قليل الاهمية ونادرة الحدوث خاصة في السنوات الاخيرة التي اشتد فيها نزوح أبناء الريف عن ديارهم • اما بالنسبة للعامل الثاني ، وهو ضغط السكان على الارض ، فيلاحظ ان هناك عجزا واضحا في الايدي العاملة في الريف بالنسبة للاراضي الصالحة للزراعة • وان كثافة السكان تعتبر واطئة في معظم المحافظات خاصة محافظات الهجرة الرئيسة كما مبين في الجدول أدناه ( جدول ٣ ) •

---

(3) K. M. langley : "Iraq : some aspects of the Economic Scene," *Middle East Journal*, Spring, (1965), P. 81.

**( جدول ٣ )[٤]**

**كثافة النفوس فى بعض محافظات السهل الرسوبى ، ١٩٥٧ (نسمة/كم٢)**

| المحافظة | مجموع السكان | المساحة/كم٢ | الكثافة الفعلية | الكثافة فى المناطق الزراعية |
|---|---|---|---|---|
| ميسان | ٣٢٩ر٩٤٠ | ١٧ر٩٤٥ | ١٨ر٣ | ٨٠ |
| ذي قار | ٤٥٨ر٨٤٨ | ١٤ر٨٠٠ | ٣١ر– | ٩٥ |
| بابـل | ٣٥٤ر٧٧٩ | ٥ر٦٧١ | ٦٢ر٦ | ١٠٩ |

يتضح من الجدول المذكور ان محافظة ميسان التي تعتبر اقليم الهجرة الرئيس فى العراق ، لا تعاني من ضغط فى سكانها ، حيث تعتبر أرقام الكثافة المطلقة والكثافة الزراعية واطئة جدا بمقارنتها باجزاء البلاد الاخرى • ويمكن أن يقال الشيء نفسه عن باقي المحافظات التي تفوق نسبة سـكان الارياف فيها نسبة السكان الحضر •

ان سكان الارياف فى العراق ايضا لم يكونوا مجبرين على ترك ديارهم والانتقال الى مناطق اخرى أقل حظا ، كما كان يحدث فى بعض أجـزاء أفريقيا المدارية خلال فترة الادارة البريطانية ، حيث أجبر السكان الاصليين فى هضبة كينيا على ترك مواطنهم فيها والنزوح الى السهول الواطئة الموبوءة ، وحل المستوطنون البيض محلهم • أو كما حـدث للجماعات الهنـدية فى أمريكا اللاتينية الذين نزحوا امام ضغط الجماعات البيض القادمة ، تاركين مواطنهم فى الهضاب العالية نحو السهول الاقل ملائمة •

---

(4) M. M. Aziz : *Geographical Aspects of Rural Migration from Amara Province, Iraq,* 1955-1964. University of Durham (1968) p. 238 (Unpublished Ph. D. Thesis ).

لا تعتبر رغبة المهاجرين عاملا مهما فى الحالتين اللتين يضطر فيهما الانسان على ترك موطنه الاصلي ، تحت تأثير كل من ضغط البيئة أو القوى القسرية • اذ تعزى الحالة الاولى الى نقص فى الوسائل التي يمتلكها الانسان لتطمين حاجاته الفسيولوجية الاساسية ، وفى حالة الهجرة القسرية يكون دور المهاجرين سلبيا الى حد كبير • وعلى هذا يمكن أن نسمي الهجرة من أرياف العراق الى حواضره بالهجرة الحرة ، وفيها تعتبر رغبة المهاجر عنصرا فاصلا • ومن خصائص هذه الحركات ان يبدأ بها أفراد قليلون اول الامر ، كما هي الحال فى نواحي الحياة الاخرى ، يعتبرون روادا فى هذا المجال ويمهدون السبيل للآخرين الذين سيعقبونهم •

ان اعداد من تتضمنهم عملية الهجرة تتحول أحيانا الى تيارات جارفة • فقد بدأت الهجرة فى العراق اول الامر بانتقال أفراد قليلين كانت الخدمات فى المدن الكبيرة فى حاجة لجهودهم ، أو لانخراطهم فى صفوف الجيش العراقي بعد تأسيسه • ويمكن اعتبار هؤلاء المهاجرين الرواد الاوائل أو الطلائع للعملية التي تحولت منذ نهاية الحرب الثانية الى نزوح واسع النطاق شمل أبناء الريف ، خاصة وان اخبار نجاحهم فى حياتهم الجديدة ، بغض النظر عن مدى صحتها ، كانت تنتقل بسهولة الى من تبقى وراءهم من أهلهم وأصدقائهم • وأصبحت الهجرة نمطا واسلوبا له كيان ثابت ومستقر • وصار نمو مثل هذه الحركات بمجرد ابتدائها عملا آليا تقريبا • فطالما هناك أفراد مستعدون للهجرة فهي مستمرة ، وتلعب جميع العوامل ، عدا ضغط السكان وتزايد نموهم ، دورا مهما فى اتمام هذه العملية • وبعد ان أصبحت الهجرة عادة اجتماعية ، لم يبق للدوافع الفردية أهمية فى حدوثها ، فالفرد يكون حينئذ فى حالة من عدم الاستقرار تكفي لتحديد مساره مجرد قوة دافعة بسيطة •

ان الاتجاه السائد فى هجرة الريفيين كما ذكرنا هو الاستيطان الدائم

فى المدينة • وكمثال على ذلك ، وصلت نسبة المهاجرين من محافظة ميسان الذين يعيشون فى بغداد ولا يرغبون بالعودة الى قراهم أكثر من ٨٠٪[٥] • وهي حالة تختلف عما هو سائد فى كثير من أقطار غرب أفريقيا كنيجريا وغانا حيث يهاجر الافراد فيها من قراهم الى المدن الكبيرة لايجاد عمل أفضل لهم ، والحصول على شيء من المال لعدد من السنين يعودون بعدها الى أهلهم • وبعد عودتهم يستخدمون مدخراتهم فى شراء قطعة من الارض ، أو لتحسين الانتاج الزراعي فى أرضهم ، أو على الاقل لكسب ما يساعدهم على الزواج •

ومما تجدر ملاحظته ايضا ، ان معظم المهاجرين من الارياف فى قارتي أفريقيا وأمريكا الجنوبية هم من الشباب الذكور الذين يتركون عوائلهم وراءهم فى قراهم • فيلاحظ ان معظم المهاجرين الرجال من شمال غرب نيجيريا ، خلال الموسم الجاف ، لا يستصحبون زوجاتهم أو أفراد اسرتهم معهم • وقد يقطعون فى رحلتهم للعمل فى الاقاليم الجنوبية الغربية والجنوبية الشرقية من البلاد ، أو فى غانا مسافة تزيد على ١٠٠٠ كيلو متر • آخذين معهم الحد الادنى من الامتعة الشخصية تتحدد فى : « بساط للنوم وعصا ، وأحيانا سيف أو قوس وسهام وقنينة للماء » • والدوافع الرئيسة فى هذه الهجرة هي الامكانيات المحدودة للموارد الطبيعية ، والضغط السكاني على هذه الموارد فى مواطنهم • ومن الخطأ الاعتقاد بأن التقدم الاجتماعي وتوفر الخدمات فى بعض المراكز الحضرية المتقدمة عامل رئيس فى جذب السكان من الارياف ، رغم ان بعض الافراد ينشدون التخلص من ضغط التقاليد فى قراهم فيهجرونها •

وعلى العكس نجد ان الهجرة العراقية تتصف بكونها تشمل العائلة بكاملها أو ما يمكن أن يطلق عليه الهجرة العائلية كما فى الجدول التالي :

---

(٥) نفس المصدر ، صفحة ٣٢٤ •

( جدول ٤ )(*)

**الهجرة من محافظة ميسان حسب طبيعتها ( بالمائة )**

| حالة الهجرة | النسبة المئوية |
|---|---|
| عوائل كاملة | ٧٩ر٧ |
| عوائل هاجرت بعد هجرة أربابها | ١١ر٩ |
| ذكور بالغين غير متزوجين | ٨ر٤ |
| المجموع | ١٠٠ر- |

(*) نفس المصدر ص٢٠٩ .

يتضح من الجدول السابق ان ما يقارب ٤/٥ المهاجرين من محافظة ميسان ، تركوا مواطنهم بصورة جماعية ، ويمكن ان يرد ذلك الى تصميمهم منذ البداية على عدم رغبتهم بالعودة اليه ، والاستقرار نهائيا فى المدن . وبذا فالهجرة لا تقتصر على الشباب من الذكور ، وانما تشمل كافة الافراد بغض النظر عن فئات أعمارهم وجنسهم كما يبدو من الجدول التالي :

( جدول ٥ )(٦)

**تقديرات الهجرة الصافية من محافظة ميسان**

| فئات السن (سنة) | الهجرة عام ١٩٥٧ | | الهجرة عام ١٩٦٥ | |
|---|---|---|---|---|
| | ذكور | اناث | ذكور | اناث |
| أقل من ٥ | - ١٠٤١٢ | - ١٢٢٩٣ | - ٥٩٧٤ | - ٧٧٦١ |
| ٥ - ٩ | + ٤٠٥٧ | - ٢٢٨ | + ٦١١٩ | + ١٣٦٠ |
| ١٠ - ١٤ | - ٥١٤٧ | - ٧٨٦٢ | - ٤٩١٧ | - ٦٩٤٦ |
| ١٥ - ١٩ | - ١٤١١٦ | - ١٥٩٨٤ | - ١٣١٦٦ | - ١٠٩٤٣ |
| ٢٠ - ٢٤ | - ١٤٩٣ | - ٣١٨١ | - ٧٩٧١ | - ٥٥٦٨ |
| ٢٥ - ٢٩ | + ١٠٥٧ | - ١٠٨٧ | - ٣٦٤٨ | - ٤٣٠ |

(٦) هاشم العلوى : بعض المؤثرات الديموغرافية على القوة العاملة فى العراق ، وزارة التخطيط ، الجهاز المركزى للاحصاء ، جدول ١٢ آ و ١٢ ب ، ص ٥٤ و ٥٥ ( غير مطبوع ) .

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| ٣٠ – ٣٤ | + ٤٥٨٠ | + ٢٢١٣ | + ٢١٣٨ | + ١١٧٨ |
| ٣٥ – ٣٩ | + ٥١٦٦ | + ١٦٥٨ | + ٢٢١٧ | – ٢٦ |
| ٤٠ – ٤٤ | + ٢٣٠٦ | + ٢٠٥٥ | + ١٩٣٦ | – ١١٢٧ |
| ٤٥ – ٤٩ | – ١٥١ | – ٣٤١٧ | – ٦٩٦ | – ١٣٢١ |
| ٥٠ – ٥٤ | – ١٢٣٦ | – ١٧٠٠ | – ٤٣٩ | – ٢١٤ |
| ٥٥ – ٥٩ | – ١٤٩٤ | – ٨٧١ | – ١٣٥ | + ١٤٦ |
| ٦٠ – ٦٤ | – ٣٤٩ | – ١٥٢ | – ٦٨٥ | – ١٥١١ |
| ٦٥ – ٦٩ | – ٧٠٩ | – ٨٣٤ | – ٦٢٧ | – ١١٠٢ |
| ٧٠ – ٧٤ | + ٧٩ | – ٤١٠ | + ٩٨٨ | + ٢٨٧ |
| ٧٥ – ٧٩ | + ٢٧١ | + ٨١ | + ٤٠٣ | + ٧٨ |
| أكثر من ٨٠ | – ١٠٨٩ | – ١٢٧٤ | – ٣٩٥ | – ٦٩٩ |
| المجموع | – ١٨٦٥٠ | – ٤٧٤٣٧ | – ٢٤٨٠٧ | – ٣٤١٧٩ |

اما بالنسبة للعامل الاجتماعي ، فانه يلعب دورا واضحا فى هجـــرة القرويين العراقيين ، على عكس ما رأينا ، قبل قليل ، حيث تبدو المدينـــة بأوضاعها الاجتماعية وخدماتها المتطورة وكأنها جنـة بالنسبة لهـم ، وليسوا بحاجة للبحث عما يثبت لهم عكس ذلك .

ومن خصائص الهجرة ايضا ، ان المركز الحضري الـذي يقصـده المهاجرون فى العراق غالبا ما يتحدد قبل مغادرتهم لقراهم ، خاصة اذا كانت صلاتهم مع هذه المراكز قوية من قبل ، وكنوا يترددون عليها بصـــورة متكررة . اما الذي يحدث فى بعض الاقطار النامية أو المتطورة فهو ان يترك الافراد مواطنهم نحو مركز حضري معين ، وبعد أن يستقربهم المقام فترة من الزمن ويجدوا الفرصة غير مواتية لهم فيه ينتقلوا الى مركز اني و الث وقد لا تتوقف هجرتهم عند بلدة معينة وانما يقضوا سني حياتهم فى تجوال دائم من مركز لآخر بعيدا عن مسقط رأسهم .

وأخيرا هناك بعض المظاهر المهمة لحياة المهاجرين فى مواطنهم الحضرية ، والطرق التي ينظمون فيها أنفسهم وأوضاعهم الاجتماعية بالاضافة الى المؤثرات التي يتعرضون لها فى مجتمعات غريبة عنهم • ويبدو ان التمسك بالتقاليد والصفات التقليدية والقبلية يفوق كل اعتبار آخر • ولهذا يميل المهاجرون القادمون من محافظة معينة أو قبيلة معينة الى البقاء بالقرب من بعضهم ، سواء فى العمل أو المسكن أو حتى فى علاقاتهم الشخصية • وقد ظهر ان ما يقارب ٩٨٪ من مهاجري محافظة ميسان فى مدينة بغداد ما زالوا يحتفظون بروابطهم الاجتماعية التي الفوها فى قراهم[٧] •وبرغم ان الهجرة تعمل بالضرورة على اضعاف الروابط التقليدية للسكان بموطنهم الاصلى ، الا انها قد تؤدي الى استمرار وجود اشكال جديدة من العلاقات ، قائمة فى اساسها على الروابط التقليدية • ولو كانت اقامة المهاجرين فى المدن العراقية مؤقتة ، لاصبحت المحافظة على التقاليد القبلية أمرا طبيعيا ، كما يحدث فى كثير من مناطق القارة الافريقية • الا ان الاقامة الدائمية لهم فى بيئة اجتماعية واقتصادية مغايرة يستدعي استجابتهم للمؤثرات الجديدة التي يتعرضون لها ، وتبدو هذه الحالة الاخيرة واضحة فى هجرة سكان الارياف فى المغرب الى مدينة الدار البيضاء بصورة خاصة ، حيث يفقد الافراد كثيرا من صفاتهم الريفية وينقطعون كليا عن المؤثرات والقيم التقليدية السائدة فى مواطنهم السابقة[٨] • ويصل اندماجهم فى بيئتهم الجديدة لدرجة ان الفرد منهم يطلق على نفسه لقب بيضاوي ( نسبة الى الدار البيضاء ) بعد فترة لا تتجاوز ستة أشهر من اقامته فى المدينة •

---

(7) M.M. Aziz : *op. cit.*, p. 283.

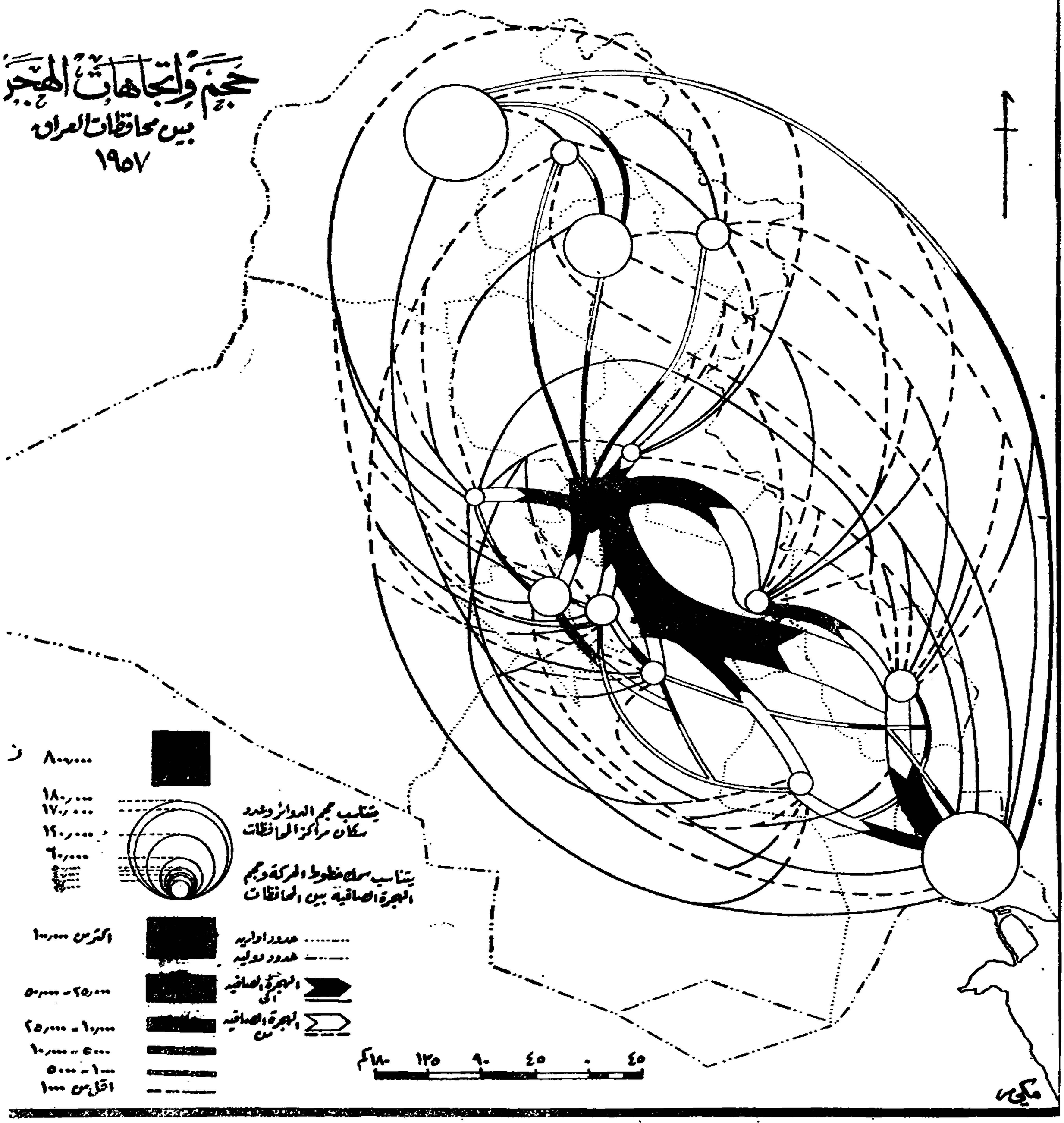
(8) R. M. Prothero : ***Migrants and Malaria,*** Longmans (1965), p. 127.

ومن المحتمل ان صفة المحافظة والالتزام الشديدتين السائدة بين المهاجرين فى مدن العراق ، ترجع لاسباب متعددة أهمها حالات التخلف الاجتماعي والثقافي ، والعزلة الشديدة التي يعاني منها معظمهم قبل هجرتهم • وكذلك الى الاهمال وعدم الرعاية لدى وصولهم الى محلاتهم الجديدة • فانعدام أو نقص المؤسسات الثقافية والصحية والاجتماعية فى المناطق الريفية أدى الى أن يقع سكانها تحت تأثير كل أشكال العادات والقيم التقليدية • كما ان الاوضاع السيئة التي يعاني منها جمهور المهاجرين قد قللت من امكانياتهم فى مجابهة صعاب الحياة الجديدة التي تعتبر أكثر تطورا وتعقيدا ، بالقياس الى حياتهم السابقة • اذ مما لاشك فيه ان صعوبات تكيف المهاجرين فى بيئتهم الجديدة تزداد باتساع التباين بين الموطنين الريفي والحضري • وهكذا اضطروا الى التكتل ، والمحافظة على ما ألفوه فى قراهم كرد فعل لوقاية أنفسهم تجاه الحياة الديناميكية السريعة التغير فى قيمها ومظاهرها فى المدينة •

**حجم الهجرة واتجاهاتها :**

تتباين الهجرة فى حجمها واتجاهاتها فى جزء من العراق الى جزء آخر • ولكن يظهر ان معظم المحافظات تساهم بشكل أو بآخر فى هذه العملية على أساس كونها أما كمصادر لخروج المهاجرين ، أو كمواطن لاستقبالهم • وبين هذه وتلك مجموعة ثالثة من المحافظات لا تزال تيارات الهجرة فيها متعادلة ولم تظهر عليها آثارها بصورة واضحة بعد ( الخارطة شكل ١ ) • ولكن حتى مثل هذا التقسيم لا يبدو مرضيا وسهلا • لان الهجرة من أية محافظة أو اليها ليست مستقرة باتجاه معين ولفترة طويلة من الزمن ، وانما تعتبر بعض المحافظات كمراكز للهجرة فى وقت ما ، ومناطق لاستقبالهم فى اوقات اخرى او كمناطق مستقرة فى فترة ثالثة ، وذلك اعتمادا على مدى استقرار او تغير قوى الطرد والجذب العاملة فيها من جهة ، وعلى طبيعة الاحصاءات السكانية ودقتها من جهة اخرى ( جدول ٦ ) •

# حجم واتجاهات الهجرة
## بين محافظات العراق
## ١٩٥٧



( جدول ٦ )[٩]

## تقديرات الهجرة الصافية في محافظات العراق

| المحافظة | الهجرة عام ١٩٥٧ | | | الهجرة عام ١٩٦٥ | | |
|---|---|---|---|---|---|---|
| | ذكور | اناث | المجموع | ذكور | اناث | المجموع |
| ميسان | - ١٨٦٥٠ | - ٤٧٤٣٧ | - ٦٦٠٨٧ | - ٢٤٨٠٧ | - ٣٤١٧٩ | - ٥٨٩٨٦ |
| واسط | + ٤١٣٧ | - ٤٧٩٧ | - ٦٦٠ | - ١٣٢٧٥ | - ٢٢٢٨٣ | - ٣٥٥٥٨ |
| القادسية | + ٣٩٠٦٥ | - ٢٩٩٣ | + ٣٦٠٧٢ | - ٣٩٦٨٦ | - ٥٠١٠٠ | - ٨٩٧٨٦ |
| الانبار | + ٢٥١٥٠ | - ٨٦٩ | + ٢٤٢٨١ | - ٤٤٢٩ | - ٨٣٣٨ | - ١٢٧٦٧ |
| كربلاء | - ٤٥٠٩٧ | - ٥٦٦٩٤ | - ١٠١٧٩١ | + ٣٧٠٥٤ | + ٣١٤٨١ | + ٦٨٥٣٥ |
| بغداد | + ١٦٣٣٦٧ | + ١١٦٤١٩ | + ٢٧٩٧٨٦ | + ٢٧٠٧٨٩ | + ٢٣٧٦٥٩ | + ٤٠٨٤٤٨ |
| البصرة | - ٣٣١٩٩ | + ٢٥٩٣٣ | + ٥٩١٣٢ | + ٣٢٤١٦ | + ١٩٠٦١ | + ٤١٤٧٧ |

(٩) ملخص من : هاشم العلوى ، المصدر السابق ، جداول ١ـ١٤ ،ص ٣٢ـ٥٩ .

| | | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|---|
| السليمانية | - ٢٢٨٨٥ | + ٢٠٧٠١ | - ٢١٨٤ | + ٤٠٥٦ | + ٤٨٨٠ | + ٨٩٣٦ |
| نينـوى | - ٤٤٤٣ | - ٣١٦٢٦ | - ٧٦٠٦٩ | - ٤١٠٢ | - ١٠٢٨٧ | - ٥١٣٨٩ |
| أربيل | - ٤٤٣٣ | + ٢٦٩٣٨ | + ٢٢٥٠٥ | + ٥٢٢٤ | + ٤٢١٦ | + ١٠٠٨ |
| كركوك | + ٢٨٨٨٥ | - ١٤٤٧٢ | + ١٤٤١٣ | - ٢٤١٢١ | - ٢٠٨٢٢ | - ٤٤٩٤٣ |
| ديـالى | - ٧٥٦٦ | - ١٣٧٨٧ | - ٢١٣٥٣ | - ١١٩٨٩ | - ٩٨٦٦ | - ٢١٨٥٥ |
| المثـنى | + ١٣٥٦٥ | + ٥٦١٣ | + ١٩١٧٨ | - ٣٨٧ | - ٧٢١٣ | - ١٠٦٠٠ |
| ذي قار | + ١٥٣٨٣ | - ٤١٥٨٤ | - ٢٦٢٠١ | - ١٥٣٣٥ | - ٤٢١٣١ | - ٥٧٤٦٦ |

يتضح من الخارطة والجدول السابقين بأن المحافظات التي تعتبر مناطق لطرد سكانها هي ميسان وواسط ونينوى والقادسية وكربلاء ، وذلك اما لشدة دوافع الهجرة فيها بمقارنتها بالمحافظات الاخرى ، واما لقوة عوامل الجذب فى المراكز الحضرية القريبة منها وخاصة بغداد والبصرة • وتأتي محافظة ميسان فى طليعة هذه المحافظات نظرا للظروف الشاذة التي عاشتها المنطقة ، وعلى كافة المستويات لفترة طويلة من الزمن • حتى أصبحت الهجرة منها ما يشبه العادة لدى أبنائها • الا انه لا تتوفر لدينا من الناحية الاخرى معلومات دقيقة عن حجم الهجرة منها فى أطوارها الاولى ، والمعلومات والتخمينات المتوفرة عن الفترة المتأخرة تبين رغم تضاربها ، ان ميسان هي الموطن الاول لهجرة أبناء الريف فى البلاد • وقد قدر عدد الذين غادروها ما بين عامي ١٩٤٧ و ١٩٥٧ بحوالي ٦٦ر٠٠٠ نسمة ، وما بين تعدادي نفوس ١٩٥٧ و ١٩٦٥ بحوالي ٦٠ر٠٠٠ نسمة ( جدول ٦ ) • ولكن استنادا الى سجلات مديرية الاحوال المدنية العامة ، قدر عدد المهاجرين من هذه المحافظة ما بين ١٩٥٥ و ١٩٦٥ بحوالي ٥٠ر٠٠٠ نسمة[١٠] • ووصل عددهم فى تخمينات اخرى ما بين تعداد ١٩٥٧ وتعداد ١٩٦٥ الى حوالي ٩٠ر٠٠٠ نسمة[١١] •

وتأتي محافظة واسط بعد ميسان فيما يتعلق بحجم الهجرة منها واستمرارها لفترة طويلة • بلغ عدد من تركوا هذه المحافظة ما بين عامي ١٩٥٧ و ١٩٦٥ حوالي ٣٦ر٠٠٠ نسمة ( جدول ٦ ) • ولكن يجدر التنبيه هنا الى ان نسبة كبيرة من هؤلاء المهاجرين هم فى الواقع من أبناء المحافظة

---

(١٠) وزارة الداخلية ، مديرية الاحوال المدنية العامة ، السجل الاحصائى الشهرى للواء العمارة رقم ١٤ ، للفترة ١٩٥٥-١٩٦٤ • ( غير منشور ) •

(11) M. M. Aziz : *op. cit.*, p. 194.

السابقة • اذ لا يتوجه قسم من مهاجري محافظة ميسان الى بغداد رأسا ، وخاصة اولئك الذين تتميز أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية بتخلفها ، او يكونوا قد جاءوا من مناطق نائية أو منعزلة ولا تتوفر لديهم معلومات كافية عن بغداد • يقضي هؤلاء فترة من الزمن فى مدينة الكوت قد تمتد بضع سنين يستكملون خلالها معلوماتهم ثم يتوجهون بعدها الى غايتهم الاصلية •

وتشابه بعض محافظات الطرد الاخرى محافظة ميسان فى دوافع الهجرة منها الى حد ما ، وخاصة محافظة القادسية ، الا ان بعضها الآخر قد يختلف معها كمحافظة نينوى ، حيث ان معظم المهاجرين منها اما موظفون أو كسبة ، قدم معظمهم من مدينة الموصل ذاتها • ويمكن ان تلاحظ الحالة نفسها بالنسبة لمحافظات كربلاء والانبار ، وذلك لقربها من مراكز حضرية كبيرة تتمتع بفرص أكبر للاعمال • اما الهجرة اليها فى بعض السنين فتعزى الى قيام نشاطات اقتصادية معينة فيها اجتذبت الايدي العاملة • اما ارتفاع عدد المهاجرين من الاناث ، فمن المحتمل ان يعزى اما الى طبيعة الهجرة الجماعية من الارياف حيث يستصحب رب الاسرة كافة من يعولهم معه ، واما الى عدم دقة المعلومات الاحصائية •

ان محافظتي بغداد والبصرة ، تؤلفان فى العراق ، طليعة محافظات جذب السكان ( الخارطة ) • وتعتبر مدينة بغداد كبر قطب للجذب فى البلاد • وكما هي الحال مع محافظات الهجرة ، فان تخمينات الهجرة الى بغداد تتباين من مصدر لآخر • فقد بلغ عدد الذين قدموا الى بغداد من باقي المحافظات ومن أجزاء المحافظة ذاتها ما بين تعداد ١٩٤٧ وتعداد ١٩٥٧ ما يزيد على ٦٠٠ر٠٠٠ نسمة ( جدول ٦ ) • فى حين بلغت تقديرات الهجرة حوالي ٥٤٠ر٠٠٠ نسمة فى الفترة ما بين عام ١٩٥٧ و ١٩٦٥[١٢] •

---

(12) *Ibid* : p. 194.

ومن البديهي ان الغالبية العظمى من هؤلاء قدموا الى مدينة بغداد • وقد كانت هذه المدينة وحتى فترة متأخرة مجرد مدينة متوسطة الحجم ، الا انها تطورت بسرعة سواء فى مساحتها أو فى مجموع سكانها ، بنتيجة تحسن الاوضاع الصحية والمعاشية فيها من جهة ونتيجة الهجرة الواسعة النطاق من أرياف الجنوب من جهة اخرى •

ان احصا ات دقيقة عن نفوس بغداد قبل عام ١٩٤٧ لم تتوفر ، لكن التخمينات تشير الى ان نفوسها بلغت عام ١٩٣٠حوالى ٢٢٠ر٠٠٠نسمة(١٣)• ثم قفز الرقم من ٣٠٠ر٠٠٠ نسمة عام ١٩٤١ الى اكثر من نصف مليون عام ١٩٤٧(١٤) • وبعد الحرب العالمية الثانية وصل سكان بغداد الى حوالى ٨٠٠ر٠٠٠ نسمة عام ١٩٥٧(١٥) • وتجاوز ١ر٦٥٠ر٠٠٠ نسمة عام ١٩٦٥(١٦) •

وتأتي البصرة بعد بغداد كمركز كبير لجذب السكان فى اقصى جنوب العراق من المحافظات المجاورة ، وخاصة ميسان ( الخارطة وجدول ٦ ) • وقد توفرت فى مدينة البصرة مجموعة من العوامل منحتها هذه الصفة من اهمها وجود فرص العمل الكثيرة ، الدائمية منها والمؤقتة ، حيث يهيء

---

(13) E. Dowson; *An Inquiry into land tenure and related questions*, Baghdad (1930), p. 15. (Mimeograped).

(14) J. H. G. Lebon; " The Site and Modern Development of Baghdad", *Bulletin De la Societe De Geographie D'Egypt*, XXIX (1956), p. 30.

(١٥) وزارة الداخلية ، مديرية النفوس العامة ؛ المجموعة الاحصائية لتعداد عام ١٩٥٧ ، لواء بغداد ، مطبعة دار التمدن ، بغداد ( ١٩٦٢ ) ص ١٦ – ٣٨ •

(١٦) وزارة التخطيط ، الدائرة المركزية للاحصاء ، المجموعة الاحصائية السنوية لعام ١٩٦٩ ، مطبعة الزهراء ، بغداد (١٩٧٠) جدول ٢٦ ، ص ٥٢ •

وجود مصالح الموانيء والسكك الحديد ، وصناعات التمور ، والزيت ، فرصا للعمل متعددة وطويلة الامد • الا ان بعض مراحل صناعة التمور تتطلب ايدى عاملة اضافية خلال موسم الصيف ، تشجع اعدادا كبيرة من ابنـــاء الارياف لاغتنامها والعودة بعد ذلك الى قراهم •

وتبين ( الخارطة ) ايضا ان محافظات القطر الاخرى تتصف باستقرار وتوازن عملية الهجرة فيها • وتتوقف تيارات الهجرة فى كلا الاتجاهين على طبيعة عوامل الطرد والجذب فيها وفى المناطق الاخرى من البلاد • ويظهر انها ليست قوية على اية حال ، او بعبارة اخرى لم تصبح بعد تقليدا يمارسه ابناؤها فى الاحوال الاعتيادية ، وانما ظاهرة عارضة تشتد وتضعف بين حين وآخر وليس لها اسسا او جذورا عميقة فى كيانها • ولكن ينبغي القول ان خطر الهجرة منها سيكون قائما على الدوام ، اذا لم تشخص اســـباب ودوافع الهجرة مهما كانت ضعيفة الآن ، وتعالج فى الوقت المناسب لمنـــع انجراف سكان هذه المناطق فى تيار الهجرة القوى المستمر من محافظات مجاورة •

## مراجـــع عامـــة


1. **Abu-Lughod, J.: "Migrant adjustment to City Life: The Egyptian Villager in Cairo". *Ekistics*, 12 (1961), pp. 192-202.**
2. **Bowles, G.K.: "Migration Patterns of the Rural Fram Population, Thirteen Regions of the U.S. 1940-1950". *Rural Sociology*, XXII (1957), pp. 1-11.**
3. **Bowley, A.L.: "Rural Population in England and Wales. A study of the changes of Density, Occupations and Ages, "*Journal of Royal Statistical Society*", 77 (1914), pp. 597-652.**
4. **Cairncross, A.K.: "Internal Migration in Victorian England," *The Manchesten School*, 17 (149), pp. 67-87.**

5. Crist, R.E. : *Land for Fellahin, Land Tenure and Land Use in the N.E.* Rocker Scholkenback Foundation, N.Y. (1962).

6. Dewey, R. : "The Rural-Urban Continuam-Real but Relatively Unimportant," *American Journal of Sociology,* 66 (1966), pp. 60-66.

7. Engman, E.V. : "Population Movement in Ghana : A Study of Internal Migration and its Implications For the Planner".*Bulletin of Ghana Geographical Association,* 10 (1956), pp. 41-65.

8. Hamilton, C.H. : "Population Pressure and Other Factors Affecting Net Rural-Urban Migration", in j.j. Spengler and O.D. Duncan (ed.): *Demographic Analysis,* Free Press, Glencoe (1956), pp. 418-424.

9. Lawton, R. : "Rural Depopulation in Nineteenth-Century England". in R.W. Steel and R Lawton (ed.): *Liverpool Essays in Geography,* Longmans (1967), pp. 225-227.

10. Mendras, H. : "The Rural Exodus and Industrialization, *"Diogens,* 30 (1960), pp. 104-119.

11. Holler, J.E. : *Population Growth and Social Change in the M.E., George* Washington University, Washington, (1964).

12. Price, D.O. : "Some Socio-Economic Factors in Internal Migration", *Social Forces,* XXIX (1951), pp. 409-415.

13. Zachariah, K.C. : A *Historical Study of Internal Migration in the Indian Sub-Continent,* 1901-1931 Asian Publishing House, Bombay (1964).

14. Zachariah, K.C. : "Bombay Migration Study: A Pilot Analysis of Migration to An Asian Metropolis", *Demography"* 3 (1966), pp. 378-392.

15. Zelinsky, W. : *A Prologue to Population Georgraphy, Prentice-Hall,* N.J. (1966).

# دراسة مقارنة للنواحي الصوتية

## في كتاب العين والنظرية الحديثة في علم الصوت

**الدكتور خليل ابراهيم الحماش**

**استاذ مساعد في قسم اللغات الاوربية**

**اولا : المقدمـــة :**

تنحصر مهمة بحثنا هذا في بيان مدى التشابه والاختلاف بين النظرية الحديثة في علم الصوت ، والنواحي الصوتية التي عرض لها الخليل بن احمد الفراهيدي « ١٠٠-١٧٥هـ » في « العين » وبعبارة اخرى سنحاول ان نستقصي الافكار اللغوية والنواحي التكنيكية والعلمية لدراسة الاصوات التي توصل اليها الخليل في كتاب العين في القرن الثامن للميلاد ، والتي بقيت معمولا بها الى الان ، والنواحي التي استحدثت بعده .

ونأمل من هذا ان نلقي بعض الضوء على عبقرية الخليل ، كما نأمل من ناحية اخرى ان نبدد الاوهام ( ان وجدت ) التي يحيط بها البعض كتاب العين ، ونتاج الخليل بصورة عامة .

سنتولى في الخطوة التالية تحديد المعالم الاساسية « النظرية والعملية » للنظرية اللغوية الحديثة المسماة بـ « النظرية التركيبية » والتي تدعى في الانكليزية (Structural Linguistics) كما سنتولى شرح تطبيقاتهـــا

---

(١) يتقدم كاتب هذا البحث بالشكر والعرفان للاستاذ الدكتور مهدي المخزومي اللغوي العراقي المعروف لتشجيعه وملاحظاته القيمة التي لولاهـا لما تحقق انجاز هذا البحث . كما يتقدم بجزيل الشكر للدكتورة عاتكـة الخزرجي والدكتور ابراهيم السامرائي والسيد عبـدالكـــريم توفيـــق للملاحظات القيمة التي دونوها على مسودة البحث .

فى النواحى الصوتية على اللغة العربية الفصحى •

وفى الوقت نفسه سنناقش النظرية اللغوية « الصوتية » للعين • وتطبيقاتها على اللغة العربية الفصحى • كما سنتولى مقارنة النظريتين فى الاطار العام وفى النواحى التفصيلية لهما •

من هذا يبدو واضحا اننا سوف لن نتعرض لبحث اصل كتاب العين ، ولا لسيرة الخليل ولا للنواحى الادبية الواردة فيه ، ولا لبحث موضوع العروض الذى ساهم الخليل فى تطويره بشهادة الكثيرين ، حتى ولا لنتاج الخليل فيما عدا العين ، بل سنقصر البحث على النواحى الصوتية والنواحى اللغوية المتعلقة بها كما وردت فى العين ، او فى بعض الكتب التى تنقل نصوصا عن العين •

**ثانيا : النظرية اللغوية العامة :**

آ ـ تتميز طريقة البحث اللغوية الحديثة بكونها تتبع اسلوب استنباط الحقائق اللغوية من الملاحظات الحية والدراسة الميدانية لعينات من لفظ متكلمى اللغة المراد تحليلها ووصفها ولا يجوز فى هذه الحالة تطبيق قواعد لغة ما على قواعد لغة اخرى • ولهذا يعتبر الناطق باللغة المراد تحليلها (native informant) مصدر الحقائق والقواعد النحوية التى يتوصل اليها الباحث اللغوى ، وهذا يعنى ان الالفاظ التى ترد على لسان الناطق بتلك اللغة هى الالفاظ الصحيحة فى عصر تسجيلها بغض النظر عن اصولها التاريخية ، وهذا يحتم الفصل بين طريقة البحث الوصفية وبين طريقة البحث التاريخية ( راجع Halliday, pp. 15-17) ولا يجوز الخلط بينهما • فان أردت أن تصف لغة ما ، فعليك أن تصفها كما ترد على السنة المتكلمين بها فى هذا العصر ، وعليك الا تعود الى الاصول التاريخية للالفاظ لان للاصول التاريخية طريقة اخرى للبحث والتقصى ، ودارسين مختصين آخرين أيضا • يناقش الخليل فى كتاب العين استعمال الحروف الذلق والشفوية ، ويتوصل الى ان الاسم الرباعي لا يخلو من الحروف الذلق

والشفوية او من احد حرفي الطلاقة او من كليهما او من السين والدال او من كليهما ، ويقول انه اذا « ورد عليك شيء من ذلك ، فانظر ما هو تأليف العرب ، وما ليس من تأليفهم ... ولا ينسب الى العربية ولو جاء عن ثقة لم ينكر » ( العين ص ٦٠ ) وهذا يعني ان الثقة من متكلمي اللغة ليس هو القياس وان القاعدة التي يضعها اللغوي تعلو على متكلمي اللغة ، وهذا امر لا يقبل في البحوث اللغوية الحديثة .

اذ ان الطريقة تدخل ضمن كلام العرب كل ما هو جار على السنتهم في وقت تحليل اللغة بغض النظر عن اصوله التاريخية ، وبغض النظر عن كونه دخيلا او اصيلا ، فالاستعمال لا القاعدة هو الحكم في الفصل بين ما هو من كلام العرب عن غيره في طريقة البحث المعاصرة .

وتفسيرنا لموقف الخليل هذا هو انه كتب في عصر انفتحت فيه الحضارة العربية على الشعوب الاخرى ، وكثر اختلاط متكلميها بأقوام تتكلم لغات اخرى ، مما ادى الى تطور مفردات اللغة العربية وفي بعض تراكيبها . وافضى هذا الى الاحساس بضرورة وضع قواعد للغة العربية تصونها من التيار الدخيل . وهذا يتمثل بالمدرسة اللغوية البصرية بصورة عامة . الا ان الخليل رغم هذا توصل الى قواعد اللغة التي وضعها عن طريق الاستقراء وهذا بحد ذاته اسلوب لا يزال متبعا في الدراسات اللغوية الحديثة .

ب ـ في النظرية اللغوية الحديثة تعتبر الدراسات الصوتية (phonetics, phonemics) اساس الدراسات اللغوية الاخرى ، فلن يكون بالامكان دراسة الاشتقاق والصرف وبقية قضايا النحو لاية لغة قبل تحديد نظامها الصوتي بشكل دقيق واكيد وينطلق هذا من مبدأ الاهتمام بالشكل دون المعنى لان الشكل واضح بيّن يمكن تحليله ودراسته دراسة

كمية مفصلة على حين يعترى المعنى كثير من الغموض والعناصر الذاتيـــة والخضوع للظروف والمواقف المتباينة •

فمن وجهة النظر اللغوية الحديثة تعتبر الدراســات اللغويــة التــى تستند الى المعنى دراسات لا توصل الباحث ومتعلم اللغة الى الهدف المنشود علاوة على انه يسهل تفنيدها ومهاجمتها نظريا وعمليا •

من الواضح ان كتاب العين ياخذ بهذا المبدأ بشكل لا يقبل الشــك ، فبعد ان حدد العين الوحدات الصوتية التى عددها تسع وعشرون وحـــدة ( اسماها حروفا ) وقسّمها الى سواكن وحروف علة واعتمد السواكن على انها عناصر ثابتة فى أصل البناء ( الجذر ) واعتبر حروف العلة (vowels) عناصر التبدل التى تدخل فى عملية الصرف والاشتقاق وبطريقة حسابيــة فذة استطاع أن يكوّن الصورة الاساسية للتراكيب العربية متخذا النظــام الصوتى اساسا لمنطلقاته تلك • فقد اعتمد تتابع السواكن اساسا للتراكيب من الناحية النأرية معتمدا على الرياضيات فى هذا كما يظهر فى الجــدول التـــالى :

## جدول رقــم (١)

## تصريف التراكيب العربيــة

| عدد السواكن | ٢ | ٣ | ٤ | ٥ |
|---|---|---|---|---|
| اوجه الصرف | ٢ | ٦ | ٢٤ | ١٢٠ |

أي ان الثنائي يتصرف على وجهين حسب الكانيات التتابع والثــلاثي على ستة اوجه والرباعى على اربعة وعشرين وجها والخماسى على مائـــة وعشرين وجها ( العين ص ٦٦ ) •

ثم يعود الخليل فيتفحص ذخيرته اللغوية ليجد امثلة على الاحتمالات

النظرية التى وضعها فيحدد ما هو موجود فعلا وما هو غير موجود وبعد هذا يسرد الامثلة ويتطوع بشرح معانيها بسبب مهمته فى اعداد المعجم • فدراسة المعنى اذا امر عرضى لدى الخليل وهو نتاج عرضى للطريقة الرياضية الموضوعية التى توصل اليها وليس اساسا لها •

ج ـ يفرق اللغويون فى عصرنا هذا بين الحرف والصوت ، فالحرف وحدة من وحدات النظام الخطي والصوت وحدة من وحدات اللغة والكتابة الهجائية المستعملة حالياً فى كثير اللغات لا تمثل أصوات تلك اللغات بشكل دقيق فقد يمثل صوت بعدد من الحروف وقد يستعمل حرف واحد لتمثيل عدد من الاصوات لذا اصبح من الضرورى التميز بين الحرف والصوت ولأجل تمثيل الاصوات بشكل دقيق ابتدعت حروف جديدة سميت بالرموز الصوتية أهمها تلك التي وضعتها جمعية علم الصوت العالمية (IPA) وهذه الرموز فى الحقيقة مستقاة من لغات اوربية متعددة اعدت لتمثل الاصوات المختلفة فى لغات العالم ويشار الى الصوت بالرمز أو الحرف العالمي وليس بأي حرف من حروف اللغات المعنية •

من الواضح ان كتاب العين يستعمل تعبير « الحرف » للدلالة على الصوت اذ انه ورد فى بداية كتاب العين ان « هذا ما ألفه الخليل ••• من حروف ••• فكان مدار كلام العرب والفاظهم ••• »( العين ص ٥٢ ) فالحروف تمثل الكلام والالفاظ وليس الكتابة واجزاء النظام الخطى العربي • ومرد ذلك فى تقديرنا الى ان الحروف فى الكتابة العربية تمثل أصوات العربية الفصحى بشكل دقيق نسبيا فكما تمثل الرموز الدولية (IPA) اصوات اللغات المختلفة فى الوقت الحاضر كانت حروف الهجاء العربية تمثل اصوات اللغة العربية على الاقل فيما يتعلق بالسواكن ولقد افردت الضمه والفتحه والكسره للحركات القصيرة والواو والالف والياء للحركات الطويلة • نستخلص من هذا ان تعبير « الحرف » فى كتاب

العين يوازى تعبير « الرمز الصوتى "IPA symbol" وتعبير "letter" بمعناهما الحديث •

**ثالثا : النظرية العامة لعلم الصوت وتطبيقاتها على اللغة العربية :**

آ ـ تصنيف الوحدات الصوتية :

يقسم اللغويون فى عصرنا هذا الوحدات الصوتية ( نشير اليها احيانا بالاصوات ) الى قسمين اساسيين هما الوحدات التقطيعية **(segments)** والوحدات التنغيمية **(super-segments)** والوحدات التقطيعية تضم السواكن والحركات ، اما الوحدات التنغيمية فتضم الشدة **(stress)** والوقف **(juncture)** والتنغيم (intonation).

وفى اللغة العربية توجد وحدات تقطيعية واخرى تنغيمية والاولى تشمل السواكن والحركات والثانية تشمل النواحى الثلاث التى سبق ذكرها فى اعلاه •

فالسواكن العربية هى :

ف ث س ش ص خ ح هـ و ذ ظ ز ل ( خفيفة « رخوة » وشديدة ) ر ن غ ع ت ط ك ق ء ب د ض ج ى

اى ان عددها ثمان وعشرون ساكنا اذا اعتبرنا اللام ساكنا واحدا فى الفصحى (Gairdner, pp. 12-16).

اما الحركات فى اللغة العربية فيعتبرها اللغويون فى عصرنا اصواتا قصيرة وهى تشكل عنصرا رئيسا من عناصر النظام الصوتى العربى بالرغم من ان اللغات السامية تميل عادة الى اغفالها وعدم افراد حروف لها لتبدلها وعدم استقرارها • على ان هناك حركات طويلة ايضا فى اللغة العربية وتمثل الحركات القصيرة فى الكتابة العربية بالضمة والفتحة والكسرة وتمثل الحركات الطويلة بالواو والالف والياء وعلى هذا توجد فى العربية حركات

قصيرة وطويلة والطويلة تعتبر امتدادا للحركات القصيرة وعلى هذا الاساس يعتقد اللغويون المعاصرون أن للعربية ثلاث حركات أساسية فقط (Gairdner, p. 34)

اذ ان الواو ضعف الضمة والالف ضعف الفتحة والياء ضعف الكسرة •

نلاحظ ان الواو والياء ذكرتا مرتين : مرة مع السواكن ومرة مع الحركات ، وفي الحقيقة يعتبر الواو ساكنا سواء تلته حركة طويلة ام قصيرة كما في **وعد وواحد** ويعتبر الواو حركة طويلة ( ضعف الضمة ) اذا سبقه ساكن كما في **عود** • وكذا الياء يخضع لنفس القاعدة فهو ساكن في **يذهب** وهو حركة طويلة في **عيد** •

اما الشدة فيقال عنها انها ميكانيكية في اللغة العربية اذا انها تتبع التضعيف او التقاء السواكن (consonant clusters) او الحركات الطويلة • فيقال ان الشدة في الكلمة المتعددة المقاطع تقع على آخر مقطع فيه صوت ساكن مضاعف كما في **عَمَّر** Eammara وان لم يوجد مثل هذا فعلى آخر مقطع يوجد فيه حركة طويلة كما في **انتما** antumaa وفيما عدا هذا تقع الشدة على المقطع الاول للكلمة

(Van Wagoner, p. 24)

اما الوقف والتنغيم في العربية فلم يلقيا حتى الان نفس المستوى من الاهتمام والتمحيص كالذي لقيته النواحي المماثلة لهما في اللغات الاوربية الاخرى • الا انه من الثابت ان الوقف له قيمته اللغوية في اللغة العربية بدرجة لا تقل عن قيمته في اية لغة اخرى • ففي الجملة التالية مثلا ( محمد علي الامين المساعد للجمعية ) يختلف المعنى اذا وقفت قبل كلمة **الامين** عنه اذا وقفت بعدها • فان توقفت بعدها أصبحت الكلمة جزءا من اسم الشخص وكان الشخص مساعدا للجمعية او من اعوانها وان توقفت قبل كلمة **الامين** أصبحت الكلمة جزءا من لقب الشخص وأصبحت وظيفته امينا مساعدا للجمعية وليس من اعوانها •

اما التنغيم (intonation) فيخضع لدرجات اربع من صعود الصوت ونزوله وكل درجة تسمى نبره (pitch) بحيث يتميز تنغيم السؤال عن تنغيم الأمر وعن تنغيم الجملة الخبرية او عن تنغيم جمل التعجب وغير ذلك • فالجملة **تذهب معي** تقال وكأنها جملة خبرية أو كأنها أمر مشدد او كانها سؤال او كانها تدل على التعجب وفى كل حاله يرتفع الصوت وينخفض فى نبرات معينة تدل على المعنى المقصود •

لا يتعرض العين للتنغيم ولا للوقف اطلاقا الا انه يتعرض بالتفصيل لبحث السواكن والحركات ويلمح باشارة عابرة الى الشدة • فيرد فى العين انه « في العربية تسعة وعشرون حرفا منها خمسة وعشرون حرفا صحاح لها احياز ومدارج واربعة هوائية وهى الواو والياء والالف اللينه والهمزة • » ( العين ص ٦٤ ) والحروف الصحاح (اى الاصوات السواكن) هي : ع ح هـ خ غ ق ك ج ش ض س ص ز ط د ت ظ ذ ث ر ل ن ف ب م ( العين ص ٦٥ ) •

فاذا ما قورنت هذه السواكن بالسواكن التي يذكرها اللغويون المعاصرون نجد ان كتاب العين قد اعتبر الواو والياء صوتين معتلين ( اى حركتين ) فى كافة مواقعهما كما ان كتاب العين اعتبر الهمزة احدى الحركات وهى فى الحقيقة صوت ساكن لا تختلف عن بقية السواكن فى سلوكها العام كما ان العين لم يميز بين اللام الخفيفة واللام الثقيلة وقد يكون مرد ذلك قلة ورود اللام الثقيلة فى كلام العرب •

اما الشدة فقد ورد ذكرها فى كتاب العين لدى بحث بناء الكلمات حيث ذكر ان « الراء فى اقشعرّ واسبكرّ هما راءان ادغمت احداهما فى الاخرى والتشديد علامة الادغام » ( العين ص ٥٤–٥٥ ) • ويتفق تصور الحديثة عن اللغة العربية فى كون الشدة تقترن بتضعيف السواكن • الا الخليل للشدة جزئيا على الاقل مع ما توصلت اليه الدراسات اللغوية

أنه يحتاج بحث الشدة فى العين الى توسع أكثر واستقصاء اوسع للمواقع التى ترد فيها الشدة كورودها مقترنه بالحركات الطويلة او مقترنه بالتقاء السواكن فى بعض الحالات •

**ب ـ وصف الاصوات :**

**١ ـ وصف السواكن**

يتفق علماء اللغة فى عصرنا هذا على وصف السواكن بمعايير ثلاثة ، اولها اهتزاز الاوتار الصوتية (voicing) وانعدام هذا الاهتزاز • ويعطينا هذا المعيار نوعين من السواكن : المجهورة وهى التى تهتز الاوتار الصوتية لدى نطقها والمهموسة وهى التى لا تهتز الاوتار الصوتية لدى نطقها • والمعيار الثانى هو وصف السواكن حسب مخارجها وقد درج علماء اللغة على البدء بالاصوات التى تنطلق من الفم والانتهاء بالاصوات التى تنطلق من الحنجرة • اما المعيار الثالث فهو وصف السواكن حسب طريقة لفظها اى طبقا للكيفية التى نعامل بها النفس الصاعد من الرئتين لدى وصوله الى نقاط الارتكاز فى اجهزة النطق •

فبالنسبة للمعيار الاول تقسم السواكن العربية الى مجهورة هى : ب م و د ل ذ ز ض ظ ن ر ج ى غ ع والى مهموسة هى : ف ت ث س ط ص ش ك خ ق ح ء هـ •

اما مخارج السواكن فيختلف علماء اللغة فى تحديدها وذلك طبقا لاختلاف اللهجات التى تجرى دراستها وكذلك بتأثير عوامل اخرى كثيرة الا انه يوجد ما يشبه الاجماع على تحديدها كما يلي :ـ

**الشفوية :** ب م و
**الشفوية الاسنانية :** ف
**الاسنانية :** د ث ذ س ز ت
**اللثوية المفخمة :** ط ظ ض ص

**اللثوية غير المفخمة : ش ن ر ل**
**السقفية : ج ى**
**اللهوية : ك غ خ ق**
**الحلقية : ح ع**
**الحنجرية : هـ ء**

لا يتعرض كتاب العين بشكل واضح لوصف السواكن من حيث الهمس والجهر ولا من حيث طريقة اللفظ وقد تتعرض كتابات الخليل فى غير العين أو كتب النحو التي تستند الى كتابات الخليل ( انظر مثلا جمهرة اللغة ص ٨ ) لهذه النواحي بالتفصيل الا ان العين يغفلها ويركز على مخارج السواكن ويحددها كما يلى :

آ ـ العين والحاء والهاء والخاء والغين حلقية

ب ـ القاف والكاف لهويتان •

ج ـ الجيم والشين والضاد شجريه •

د ـ الصاد والسين والزاء اسلية لان مبدأها من اسلة اللسان •

هـ ـ الطاء والتاء والدال نطعية •

و ـ والظاء والذال والثاء لثوية •

ز ـ الراء واللام والنون ذلقيه •

ح ـ الفاء والباء والميم شفوية •

ط ـ الالف والواو والياء والهمزة هوائية ( العين ص ٦٥ ) •

---

(٢) ورد فى ملاحظة للدكتور مهدى المخزومى انه ينبغى اخراج ( الضاد ) من هذه المجموعة لان مخرجها من اول حافة اللسان وما يليه من الاضراس وقد مات هذا الصوت الذى نسبت اليه العربية فقيل : لغة الضاد ولم يبق له اثر فى لهجاتنا • اما الضاد فى لهجة اهل العراق واهل نجد فهى ظاء واما الضاد فى لهجة اهل مصر ولبنان وسورية فهى دال مفخمة او دال منطبقة •

## جدول رقم (٢)

## السواكن العربية فى الدراسات الحديثة وفى كتاب العين

| الدراسة الحديثة | | العين | |
|---|---|---|---|
| شفوية | ب م و | شفوية | ب م ف |
| شفوية اسنانية | ف | | |
| اسنانية | ت ذ ث | ذلقية | ر ل ن |
| | د س ز | | |
| لثوية مفخمة | ط ظ ض ص | | |
| لثوية غير مفخمة | ش ن ر ل | لثوية | ظ ذ ث |
| سقفية | ج ي | نطعية | ط ت د |
| | | اسلية | ص س ز |
| لهوية | ك خ غ ق | لهوية | ق ك |
| حلقية | ح ع | شجرية | ج ش ض |
| حنجرية | ء هـ | حلقية | ع ح هـ خ غ |

يتبين من جدول رقم (٢) التشابه الكبير بين ما توصل اليه الخليل فى القرن الثامن وما هو متبع فى القرن العشرين ، فالسواكن الشفوية والسقفية ( النطعية ) واللهوية والحلقية أقسام توصل اليها الخليل وبقيت الى يومنا هذا ثابته علميا ومفيدة فى الدراسات الصوتية المتقدمة .

والاختلافات بين ما هو متبع حالياً من تقسيمات وبين تقسيمات الخليل تنحصر فى الامور التالية :

أ ـ اغفل الخليل التميز بين السواكن الشفوية والسواكن الشفوية الاسنانية ( الفاء مثلا ) .

ب ـ اغفل الخليل ان يفرد قسما خاصا بالسواكن الاسنانية وهى

السواكن التى تلفظ عند الاسنان العليا وتشمل فى الدراسات الحديثة : ت ذ ل ث د س ز واستعاض عنها بالاصوات الذلقية ( ر ل ن ) ويعتبر هذا شذوذا عن قاعدة المخارج التى اعتمد عليها الخليل ( اى الاعتماد على الاماكن التى تلفظ فيها السواكن ) اذ ان الذلقية تلفظ بطرف اللسان وليس اللسان مكانا ثابتا للفظ ذلك لانه متحرك لا ثبوت له •

ج ـ لم يميز العين بين السواكن اللثوية المفخمة وبين اللثوية الاعتيادية غير المفخمة ، فالمفخمة ( ط ظ ض ص ) تقارب نظيراتها غير المفخمة فى مخارجها الا انها تختلف عنها اختلافاً أساسياً بصيغة التفخيم• ويعود الاهتمام بهذه الاصوات فى عصرنا هذا الى اختلافها عن نظيراتها فى اللغات الاخرى ولذا اهتم بها اللغويون المعاصرون اهتماماً خاصاً وأفردوا لها باباً مستقلا •

والسواكن المفخمة يختلف فى تحديدها اللغويون فى وقتنا هذا فمنهم من يدخل القاف والعين والحاء ضمن الاصوات المفخمة • فاذا أخذنا بوجهة النظر هذه يكون العين قد اشار الى هذه الصفة عندما وصف القاف والعين بأنها « اطلق الحروف واضخمها جرسا » ( العين ص ٦٠ ) اى ان العين اعتبر الصوتين ع ق من الاصوات المفخمة والتى تتميز بفخامة جرسها •

د ـ اعتبر العين الهمزة والهاء ضمن السواكن الحلقية وفى الحقيقة هما ساكنان حنجريان يلفظان فى الفجوة بين الاوتار الصوتية (glottis) وقد توصل علماء اللغة المعاصرون الى هذا نتيجة الفحوص الدقيقة التى لم تتوفر وسائلها للخليل لدى تصنيفه اصوات اللغة العربية •

هـ ـ هناك اختلاف بسيط بين الاسلوب الحديث واسلوب العين فى تصنيف مخارج السواكن وذلك ان الدراسات الحديثة تبدأ بالفم وتنتهى بالحنجرة على حين بدأ الخليل بالعين وهو ادخل الاصوات فى الحلق وانتهى بالباء والميم والفاء وهى الاصوات الشفوية •

و ـ لم يدخل الخليل الواو والياء ضمن السواكن العربية وجعلها

حركتين دائماً وكذلك يبدو ان التمييز بين الهمزة والالف لم يكن واضحاً في تصور الخليل وبذا اختلط الامر عليه •

على ان الخليل اعتمد اساسا اخر غير ما ذكر لتصنيف اصوات العربية اذ انه قسمها الى أصوات ( حروف ) الذلاقة وعددها ستة واخرى صتم أو مصمته وهي باقي الاصوات البالغ عددها ثلاثة وعشرين والصتم تقسم بدورها الى مصمته صحاح والى المعتلة والاخيرة تشمل الهمزة والالف والواو والياء • وهناك من يعتبر هذا الاساس هو السهولة فى اللفظ ( راجع المخزومى ص ٣٨ ) •

**٢ ـ وصف الحركات ( الاصوات المعتلة ) :**

يجمع علماء اللغة فى عصرنا هذا على وصف الحركات باستعمال الاسس التالية :

أ ـ شكل الشفتين ( الاستدارة او الانبساط ) عند لفظ الحركة بحيث تصنف الحركات الى مستديرة ومنبسطة طبقا لشكل الشفتين لدى اللفظ •

ب ـ درجة ارتفاع اللسان لدى اللفظ بحيث يكون لدينا حركات عالية ووسطى وواطئة حسب ارتفاع اللسان •

جـ ـ درجة انسحاب اللسان لدى لفظ الحركة بحيث يكون لدينا حركات امامية ووسطى وخلفية •

د ـ وضعية الفك الاسفل لدى نطق الحركة •

يتفق معظم الباحثين فى عصرنا هذا على اعتبار الحركات العربية ثلاثية التركيب : الضمة u والفتحة a والكسرة i اما الالف فتعتبر فتحة مضاعفة ويشار لها عادة بـ uu • والواو والياء تعدان صوتين ساكنين اذا تلتهما حركة ويعتبران حركتين طويلتين اذا جاءتا بعد صوت ساكن وفى الحالة الثانية يعتبر الواو ضعف الضمة uu وتعتبر الياء ضعف الكسرة ii . •

لم يشر العين الى أي من هذه النواحي فيما يتعلق بالحركات واكتفى بالقول ان الالف والواو والياء يقال لها من حروف العلل ( العين ص ٦٧ )•

**ج ـ مجاميع الاصـوات :**

**١ ـ اجتمـاع السواكن**

يهتم علماء اللغة فى عصرنا هذا بعدد السواكن التى يسمح النظـام الصوتى لاية لغة بالتقائها دون ان تتدخل فيها اية حركة طويلة ام قصيرة ودون ان يكون بالامكان الوقوف فى وسطها •

ويجمع علماء اللغة على ان اللغة العربية بكافة لهجاتهـا لا تسـمح بالتقاء اكثر من ساكنين اثنين ( راجع (Lehn and Slager, p. 115 سواء كان ذلك فى اول الكلمة او في وسطها او فى نهايتها ومن دراستنا للعين لاحظنا ان اجتماع ساكنين لدى الخليل لا يتعارض مع وجود حركة بينهما ويضرب على ذلك مثالا كلمة ( ضك ) على انها مثال يلتقى فيه الضاد بالكاف ( العين ص ٦٢ ) وفى الحقيقة لا يعتبر هذا مثالا على التقاء السواكن فى الدراسات اللغوية الحديثة ، وذلك لورود الفتحة وهى حركة قصيرة بين الضاد والكاف •

**٢ ـ الادغـام ( مضاعفة السواكن )**

من المواضيع التى يهتم بها لغويو هذا العصر هى امكانية اللغة فـى اطالة سـواكنها لحـد الضعف ويسـمى هـذا (Gemination) ففى الانكليزية مثلا لا تحصل هذه الحالة الا عندما تركب كلمـة مـن كلمتين تنتهى اولاهما بساكن تبدأ به الكلمة التالية ، اما فى اللغة العربيـة فتتوفر أمثلة كثيرة تفوق فى عددها أمثلة اللغة الانكليزية ، وقد اجمـع علماء اللغة المعاصرون على ان تكرار السواكن يرتبط ارتباطا اكيدا بالشدة التى تقع على مقطع الكلمة وقد لاحظ الخليل هذه الظاهرة فاشار الى ان

الراء في اقشعر واسبكر هما راءان ادغمت احدهما بالاخرى ( العين ص ٥٤ـ٥٥) كما قال : ان التشديد علامة الادغال وهذه ملاحظة دقيقة ما تزال مطبقة ومتبعة الى وقتنا هذا .

**٣ ـ اجتماع الحركات وامتدادها :**

يختلف علماء اللغة في عصرنا هذا في تفسير الحركات الطويلة . اكثر مما يختلفون في اى مجال آخر فمنهم من يعتبر الحركة الطويلة حركتين قصيرتين ملتصقتين في تتابع محكم ومنهم من يعتبرها حركة قصيرة يليها صوت ساكن يشبه الحركة يسمى نصف حركة (Semivowel) ينطلق منها ( راجع Bloch and Trager, p. 18) ففي العربية كما لاحظنا وجود ثلاث حركات لكل منها شكلان طويل وقصير والطويلة ضعف للقصيرة أي ان الطويلة لا يختلف جزؤها الاول عن جزئها الثاني من حيث النوعية بخلاف الحركات الطويلة في الانكليزية مثلا حيث تختلف الحركات الطويلة من حيث النوعية عما يقابلها من الحركات القصيرة .

اما تتابع الحركات فيميل علماء اللغة المعاصرون الى اعتبار الواو والياء من انصاف السواكن اذا تلتهما وسبقتهما حركة قصيرة او طويلة ومثال ذلك .

| | | | |
|---|---|---|---|
| ولد | **walad** والد | **waalid** وعِد | wneida |
| وراثة | wiraaΘa عويل | Eawiil او | **aw** |
| عاود | **Eaawada** عوض | Eiwad يذهب | yathab |
| يا | **yaa** يقدّر | **yuqaddir** يورث | yuuriΘ |

لا يتعرض العين الى كل هذا بالتفصيل الا ان الازهري ينقل من العين في وصف هذه الحالة ويقول « والواو والياء اذا جاءتا بعد فتحة قويتا وكذا اذا تحركتا كانتا اقوى » ( تهذيب اللغة ص ٤٩ ) ولعل تفسير هذا ان الواو والياء تتبدل صفتهما المعتلة الضعيفة ويصبحان اقرب الى

السواكن اذا سبقتهما حركة ( فتحة ) او تلتهما حركة ( تحركتا ) وفيما عدا ذلك فهما حركتان طويلتان ( معلولتان ) كما فى عود Euud وكبير kabiir.

**د ـ تجانس الاصوات assimilation وترابطها linking**

يهتم علماء اللغة فى عصرنا هذا بدراسة تأثر الاصوات بعضها ببعض وتبدل صفات بعضها بحيث تتلائم وتتناسق مع الاصوات المجاورة لها • فمن الملاحظ مثلا فى بعض اللهجات العربية تبدل الدال الى تاء اذا جاورت الهاء بحيث يقال ( منها ) بدلا من ( مدها ) وذلك لان التاء مهموس والهاء مهموس وهما متناسقان على حين ان الدال مجهور والهاء مهموس وبذا يكونان مختلفين وثقيلين فى النطق •

اما ترابط الاصوات فيلقى اهتماما متزايدا من علماء اللغة ويلاحظ مثلا انه فى اللغة الانكليزية يضاف صوت يشبه الراء اذا انتهت كلمة ما بحركة وتلتها اخرى تبدأ بحركة • فيقال مثلا Drama (r) is good عند التقاء /i/,/ə/ يعالج الخليل هاتين الناحيتين بشكل يختلف عن الدراسات الحديثة فى احداها ويطابقها فى الثانية فيقول ان « سائر الحروف صحاح لا تتغير عن حالها ابدا غير الهاء المؤنثة فانها تصير فى الاتصال تاء » ( تهذيب اللغة ص ٥٠ ) • يدل هذا على أن الخليل لايعترف بوجود الميل الى التجانس بين أصوات اللغة ولكنه يلاحظ وجود الترابط وذلك من خلال تبدل الهاء الى تاء كما فى مدرسة التى تنتهى بهاء التأنيث والتى تصبح تاء فى مدرسة الاولاد والتاء هنا اداة الربط التى توازى الراء فى الانكليزية •

**هـ ـ تردد الاصوات :**

تختلف الاصوات فى أية لغة بعضها عن بعض من حيث كثرة ترددها ومقدار استعمالها ويعتبر التردد دليل قيمتها ووزنها فى النظام الصوتي لتلك اللغة ويسمى هذا (functional value) ولقد لقيت هذه الناحية اهتماما

كبيرا فى كتاب العين فى اماكن متعددة فيقول الخليل مثلا عن السواكن الشفوية والذلقية « فلما ذلقت الحروف الستة ومذل بهن اللسان وسهلت عليه فى النطق كثرت فى أبنية الكلام فليس شيء من بناء الخماسى التام يعرى منها أو من بعضها » • ( العين ص ٥٨ ) وكذلك ان البناء الرباعى المنبسط فان الجمهور الاعظم منه لا يعرى من الحروف الذلق او من بعضها الا كلمات نحوا من عشر جئن شواذّ » ( العين ص ٥٩ ) وهنا يميز الخليل الاصوات المترددة كثيرا من غيرها وينعتها بأحسن النعوت دليلا على قيمتها الكبرى فى النظام الصوتى العربى وتمييزا لها عن الاصوات القليلة التردد فى اللغة العربية •

**و ـ تحديد الوحدات الصوتية :**

يتولى الباحث الحديث جرد أصوات اللغة التي ينوي تحليلها على اساس الاختلافات الدقيقة فيما بينها واستنادا الى المادة اللغوية التى استطاع جمعها وتسجيلها من متكلمى تلك اللغة وفى الغالب ينهى هذا الجرد بقائمة طويلة من الاصوات المختلفة بعضها عن بعض قليلا او كثيرا وبما ان مثل هذه القائمة غير مجدية لتعلم اللغة يضطر المحلل اللغوى الى اختزال الكثير منها وتجميع بعضها فى وحدات اقل عددا تسمى (phonemes) وعلى هذا الاساس تصنف الاختلافات بين صوت وآخر فى القائمة الطويلة الاولى الى نوعين : نوع طارىء وناتج عن اختلاف مكان الصوت ومحيطه ونوع آخر مهم ذي مغزى يسمى (distinctive) وتستعمل عادة قاعدة التضاد (contrast) بين صوت وآخر للحكم على كون الاختلاف بين صوتين مهم او غير مهم • ففى العربية مثلا يختلف الباء فى أب عن نظيره فى بؤرة الا ان البائين لا يمكن ان يميزا كلمتين وليس بينهما تضاد وبهذا يكون الاختلاف بينهما ناتجا عن اختلاف مكانهما فى الكلمة اما اذا

قورنت الهمزة فى أب مع الراء فى رب فالاختلاف بينهما مهـــم • لان الاختلاف هذا ادى الى خلق كلمتين مختلفتين •

ليس فى كتاب العين شيء من هذا وليس واضحا كيف توصل الخليل الى تحديد الوحدات الصوتية العربية الا ان فكرة التضاد واضحة فـــى تفكيره حيث قال فى وصف الدال بانها « لانت عن صلابة التاء وكزازتها وارتفعت عن خفوت التاء » • ففى تفكيره ان الدال تتميز عن التاء بلينهـا واللين صفة المجهور والدال مجهورة والصلابة صفة المهموس وفىالانكليزية تسمى الصفة الاولى (lenis) والثانية (الصلابة ) (fortis) هذا ما يميـز الدال عن التاء • اما التضاد بين الدال والهاء فهو واضح فى نصاعة الدال وخفوت التـاء الذي يعتبـر حتى فى عصرنا هذا صوتاً يشبه الهمس فى طريقة تكوينه •

**رابعا ـ الخلاصـــة :**

من الدراسة التفصيلية السابقة يمكن تبيان ان العـين قـــد سـبق الدراسات اللغوية الحديثة بالف ومائتى سنة فى التوصل الى افكار اساسية فى الاستناد الى الشكل وليس المعنى فى التحليل اللغوى وفى اســـتعمال الرمز اللغوى بديلا عن الصوت وفى تصنيف الاصوات خصوصـا فـــى التمييز بين السواكن والحركات ( المعتلة ) وفى تحديد طبيعة الشدة فـى العربية وفى وصف الاصوات واتخاذ المخارج اساسـا مـن اسس وصف السواكن وفى وصف تضعيف السواكن وربطها بالشدة وفى مد الحركات وفى الترابط بين اصوات اللغة وابراز اهمية ترددها واخيرا فى التلميح الى التضاد كأساس للفصل بين الوحدات الصوتية •

لقد كان العين نقطة انطلاق لحركة كبرى فى دراســة الاصـوات العربية وقد انطلق تلامذة الخليل كسيبويه ومن نقلوا عن الخليل والعين

الى دراسة النواحي الصوتية بشكل أعمق فميزوا بين المهموس والمجهور كما توصلوا الى دراسة كثير من النواحي التي ذكرنا في دراستنا التفصيلية أن العين قد أغفلها .

فالعين اذا مفخرة علمية من نتاج الفكر العربي يحق لنا جميعا ان نفخر بها وان نصونها ونوليها ما تستحقه من عناية عسى ان يكون هذا حافزا لاساتذة اللغة عندنا لتمحيص النواحى اللغوية الاخرى فى العين وفى نتاج المخليل وتلامذته .

## خامسا ـ المراجـع

### المراجع العربية :


(١) الخليل بن احمد الفراهيدى • كتاب العين : اول معجم فى اللغةالعربية ( الجزء الاول ) تحقيق الدكتور عبدالله درويش • مطبعة العانى : بغداد ١٩٦٧ •

(٢) ابن دريد ابو بكر محمد بن الحسن الازرى البصرى • كتاب جمهرة اللغة • اعادت طبعه بالاوفسيت مطبعة المثنى • بغداد •

(٣) ابو منصور محمد بن احمد الازهرى •
تهذيب اللغة • الجزء الاول • حققه وقدم له عبدالسلام محمد هارون • مراجعة محمد علي النجار • المؤسسة المصرية العامـة للتاليف والانبـاء والنشر • الدار القومية العربية للطباعة • ١٩٦٤ •

(٤) الدكتور مهدى المخزومى • عبقرى من البصرة • منشـورات وزارة الاعلام • ١٩٧٢ •

(٥) كتاب العين • تحقيق الاب انستاس الكرملى ، طبعة بغداد ، ١٩١٣ •


### المراجع الانكليزية :


(1) Bloch, B. and Trager L. *Outline of Linguistic Analysis.* The Linguistic Society of America, 1942.

(2) Erwin, Wallace M. *A Short Reference Grammar of Iraqi Arabic.* Washington : Georgetown University Press, 1963.

(3) Gairdner, W. H. T. *The Phonetics of Arabic.* London : Oxford University Press. 1925.

(4) Halliday, MAK *et. al. The Linguistic Science and Language Teaching.* London : Longmans. 1964.

(5) Lehn, Walter and Slager William R. "A Contrastive Study of Egyptian Arabic and American English," *Selected Articles from Language Learning.* No. 2. 1964.

(6) Van Wagoner, Merrill Y. *Spoken Iraqi Arabic.* New York : Henry, Holt and Co. 1949.

# اسماعيل صبري
## الشاعر الظريف المحدث

**الدكتور عاتكة الخزرجي**

**استاذة مساعدة في قسم اللغة العربية**

**بعض رأي النقد الادبي الحديث فيه :**

يقول فيه مصطفى صادق الرافعي :

« واخص احوال صبري انه لم يرد ان يكون شاعرا فجاء اكبر من شاعر .. » .

« وكان صبري دائم الحب .. وكانت النظرة والابتسامة تتمثل له حيث شاء وتعترضه حيث اراد .. فيجد في كل شيء روحا من الشعر ...

« وكان يعيش في ذات نفسه ... كان معنى في قصيدة هو أمير ابياتها » .

« وشاعرنا هذا اخرجه اثنان : الظرف والجمال ... » .

« ويمتاز نسيبه بانه يكاد يكون في طهارته وعفته ضوءا من جمال الشمس والقمر وهو عندي أنسب من العباس بن الاحنف ... ولو ان عصره كان عصر أدب صحيح لاخمل كل شعراء هذا الباب من ابن ابي ربيعة الى طبقة عشاق العرب الى أئمة الطريقة الغرامية لآخر القرن .. » .

والرافعي يعلق على بعض شعر صبري ( قصيدة الدواة ) فيقول :

« هذا والله هو الشعر وما وفق الى مثله احد كائنا من كان في هذا العصر .. » .

---

(١) انظر المقتطف ٦٢ : ٤٥١ ـ ٤٦٠ (١٩٣٣) مقالة لمصطفى صادق الرافعي .

ويقول فيه احمد امين :

« لقد كان صبرى نايا ظريفا يسمع ولا يصدع ويلهب ولايرهب ...

«يذكره المحب ولا يذكره المحارب فبحق تغنى بشعره المغنون وتمثل به العاشقون ... »[٢] .

ويقول فيه احمد الزين الاديب النقادة الشاعر :

« كان شاعر العاطفة والوجدان فى عصره ونفخ فى الشعر روح الحياة بعد هموده فكان حقيقا ان يسمى باعث الشعر الحديث من خموده ... »[٣] .

ويقول فيه الدكتور طه حسين :

« لم يكن صبرى يتخذ الشعر صناعة انما كان يتخذه لونا من الوان الترف ...

وقد استسلم صبرى للشعر ولكن فى قصد واعتدال فلم يتخذه صناعة يتوسل به الى الرقى ولم يتوسل به الى الكسب .

« وانى لا اعرف شاعرا من شعراء العصر الحديث حبب الى نفسى وأثر فى قلبى وارضى ذوقى المصرى الخاص مثل هذا الشاعر فى شعره الغنائي .. »[٤] .

من يكون اذن هذا الشاعر الذى قيل فيه كل هذا ونرى فيه من بعد الشاعر الظريف المحدث ؟

ارى انه من الانسب قبل ان اخوض فى الكلام عن الشاعر ان اقف واياكم عند معنى الظرف ، والحق ان علماء اللغة حملوا هذه اللفظة الكثير

---

(٢) انظر مقدمة ديوان صبرى لاحمد أمين ص١٧ . ـ طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ ١٩٣٨ .

(٣) انظر مقدمة ديوان صبرى لاحمد الزين ص٣٨ .

(٤) انظر مقدمة ديوان صبرى لطه حسين ص١٤ .

والكثير من المعانى ولعلهم وقفوا امامها حائرين ووقفتهم منها وقفة علماء النفس من الشخصية اذ حاولوا حصرها وكأنهم لم يفعلوا ..

نرى اللغويين يقولون لنا تارة ان الظرف يكون فى صباحة الوجه ورشاقة القد ونظافة الثوب ، وأخرى يرونه فى بلاغة اللسان وعذوبة النطق[٥] وقوة الذهن وملاحة الفكاهة ، وثالثة يقولون ان فى طيب الرائحة والتقزز من الاقذار والافعال المستهجنة ، واخرى يرونه فى حميد المآثر وكريم السجايا ، وقد يكون الظرف فى اللباس كأن يتخير المستحسن اللائق باللابس .

قال محمد بن يزيد : الظريف مشتق من الظرف وهو الوعاء كأنه جعل الظريف وعاء للادب ومكارم الاخلاق ، او كأنه وعاء لكل لطيف كما يقول ابن الجوزى :

والظرفاء طبقة مترفة ذات مذهب تسير على نهج ، وترفها المعنوى لا يقل فى شىء عن ترفها المادى ، فهى الى عنايتها باسباب الجسد كانت تعنى أية عناية بأسباب الفكر والروح ، وهذه الطبقة كانت قد ظهرت فى العصر العباسى فى بغداد منذ خلافة المهدى ( ١٥٨ هـ ) وبلغت ذروة الكمال فى القرن الرابع وعاشت مدى قرنين ونصف من الزمان .

ولك ان تعلم ان ظرفاء بغداد هؤلاء كانوا يختلفون فى الجوهر عن ظرفاء الحجاز لانهم كانوا يسيرون على نهج وقواعد وقيود لم يسر عليها ظرفاء الحجاز ، وفى الحقيقة ان ظرف الحجاز لم يكن يعدو غير رقة فى الطبع وخفة فى الروح[٦] .

---

(٥) ابن الاعرابى : الظرف فى جودة الكلام وبلاغته .
الكسائى : الظريف هو الحسن الوجه واللسان .

(٦) صلاح الدين المنجد : الظرفاء والشحاذون هامش ص١٣ .

لقد كانت هذه الطبقة من ظرفاء بغداد تسرف فى العناية بأزيائها فتتخذ « الغلائل الرقاق والقمص الناعمة النقية الالوان من جيّد الكتان وربما ارتدت الغلائل المسكة والقمص المعنبرة والاردية والازر المعصفرة » اوقات الشراب والخلوات أو استعملوها لفرشهم ولبسوها وقت قصفهم وتظرفوا بها فى مجالسهم ولهم أذواق خاصة فى لبس الخفاف فربما اتخذوا منها « الخفاف الهاشمية بالجوارب الخز والمرعزي والقز واتخذوا من التكك الابريسمية والخزية وأجازوا لانفسهم التختم بالعقيق الاحمر والفيروزج الاخضر والفضة المحرقة والياقوتية الصفر » ، ولم يجيزوا لانفسهم التختم بالذهب لانه عندهم « لبس النساء والصبايا والاماء » ، وترفهم لم يقف عند حد المنظور انما تعداه الى المشموم فتطيبوا بالمسك والمحلول بماء الورد وربما استعملوا « العود المعنبر بماء القرنفل والند السلطاني والعنبر البحراني وربما استعملوا الكافور موضوعا على الجمر مخلوطا بعبير المسك وزعفران الشعر » ، ويقال انه بهذه الصفة أطيب البخور .

وكان للظريفات من النساء أزياء مخالفة لازياء الظرفاء ، أما طيبهن فليس للرجال فيه نصيب وان كان لهن استعمال جميع طيب الظرفاء .

وقد تفنن ظريفات بغداد فى اللباس واسرفن فى الحلى « فتقلدن بقلائد القرنفل المخمر والبلور النقى وحب اللؤلؤ السرى وسائر صنوف الياقوت والجوهر ونقشن عصائبهن بالابريسم والذهب وتختمن بخواتم من العقيق الاحمر والفيروزج الاخضر »[٧] .

ولم يقف تأنق الظرفاء عند حد الملبس والمظهر انما تعداه الى المخبر والمعشر فمن ذلك آدابهم على الطعام وفى مجالس الشراب ولا ارانى

---

(٧) تعمدنا نقل بعض الاوصاف نصا عن الموشى لتكون أدل على موصوفاتها . انظر الموشى ( مصر ١٩٥٣ ) ص١٦٢ .

مبالغة ان لو قلت لك ان تأنق ظرفاء بغداد فى ذلك العهد يضاهي تأنق الباريسيين اليوم .

وجلّ ما يمكن ان يقال فى وصف هؤلاء انهم قوم كانوا يولعون بالجمال ولعا يأخذ عليهم كل شيء فكأنى بهم انما كانوا يحيون له وبه ولا يريدون ان يتنفسوا الا من روحه ووحيه .. فقد احبوا الجمال فى النفس والجسد والطبيعة .. فعشقوا الورد وهاموا به وجعلوه رسلا ورسائل بينهم وبين حبائبهم فتهادوا بطاقات الورد والبنفسج وتغنوا بها فى اشعارهم حتى قال قائلهم فى البنفسج :

أهدت اليه بنفسجيا يُسليه تُنبيه أنّ بنفسها تَفديه
فارتاح بعد صبابةٍ وكآبةٍ ورجا لِحُسْن الظّنِ أنْ تُنيه

وقال الآخر فى الورد :

عَشيّةَ حَيّاني بوردٍ كأنه خدودٌ أُضيفتْ بعضُهن الى بَعْضِ
وولّى وفعل الخمر فى حركاته فعال نسيم الريح بالغصن الغَضّ

ولعلك تخرج معي بعد ذلك ان الظريف انسان منتخل او صورة لاعلى مثل او هو ممن جمع بين الحسنين : الباطن والظاهر .

وشاعرنا واحد من هؤلاء او قل انه خير من يمثل الظرف فى عصرنا الحديث فقد تجسدت فيه كل معانى الظرف اذ تهيأت له اسبابه كاملة غير منقوصة فقد نشأ رحمه الله فى حضن النعيم وتقلب فى اجواء الترف ونعم بالجاه والرتب ، فقد كانت ولادته رحمه الله بالقاهرة فى ١٨ شعبان ١٢٧٠هـ/١٦ شباط ١٨٥٤ م وبعد ان اتم دراسته بمصر التحق بالبعثة المصرية الى فرنسا ونال شهادة الليسانس فى الحقوق هناك سنة ١٨٧٨ .

وحين عودته الى مصر شغل فيها مناصب قضائية هامة وكان مقدما مقربا من الدولة انعم عليه غير مرة بالنياشين وكانت محافظة الاسكندرية

آخر منصب شغله وانتقل الى رحمة الله فى ٢١ آذار سنة ١٩٢٣ بالقاهرة ودفن بمدفنه بالامام الشافعي •

اما خلقه فالمرؤة مجسدة : دماثة ولين وسماحة ورجاحة ونبل واريحية وحياء وعفة ووفاء وابقاء على الود واباء شديد يترجمه لنا فى مثل قوله :

لكسرة من رغيف خبز تؤدم بالملح والكرامة
أشهى الى الحرّ من طعام يؤدم بالشهد والملامة

وجميل بنا ونحن نتحدث فى إباء الشاعر ان ننقل ما يرويه لنا فى هذا المجال صديقه الاديب الشاعر احمد الزين اذ يقول :

« وكان من اثر كرامة نفسه عليه انه ما كان يقبل مدحا فيه يعلم كذب قائله ، زاره مرة احد الكتاب وقرأ عليه مقالا طويلا فى مدحه والثناء عليه فألح عليه صبري ألا ينشره ومنحه مبلغا من المال ليبلغ رجاءه فسألته عن ذلك فقال : انى اذا رخصت لهؤلاء فى المدح الكاذب فى حالة الرضا فقد رخصت لهم فى الذم الكاذب فى حالة الغضب •

اما وفاؤه لاصدقائه فحدث عنه ولا حرج فقد كان رحمه الله شديد الاحتمال مبقيا على الود يلتمس العذر للصديق ان اساء وهو صاحب البيتين المأثورين :

اذا خانني خلّ قديم وعقني وفوّقتُ يوما فى مقاتله سهمي
تعرض طيف الود بيني وبينه فكسرت سهمي فاثنيت ولم أرم

هذا الى وطنية حقة فيها عرامة وشدة : وما عساك تقول فى وطنية امرىء عاش حياته لم يزر انجليزيا قط وطالما استماله اللورد كرومر الى زيارته فلم يفعل ؟! •

وهو بهذه الخلة يذكرنا بشاعرنا الشريف الرضى فقد رسم نهجا

للصداقة عاليا واظنك تذكر معى ميمية الشريف فى اخ له غادر يحبه يؤثره بالود رغم ما يعرف فيه من هنات اسمعه يقول لصاحبه :

وكم صاحب كالرمح زاغت كعوبه ... أبى بعد طول الغمز ان يتقوما
تقبلت منه ظاهراً متبلجاً ... وأدمج دوني باطنا متجهما
ولو انني كشفته عن ضميره ... اقمت على ما بيننا اليوم مأتما
كعضو رمت فيه الليالي بفادح ... ومن حمل العضو الاليم تألما
هي الكف مَضّ تركها بعد دائها
وإنْ قُطِعَت شانَتْ ذِراعاً ومِعصَما(٨)

أراك على قلبي وان كنت عاصيا ... أعزّ من القلب المطيع وأكرما
حملتك حمل العين لجّ بها القذى ... فلا تنجلي يوما ولا تدرك العمى

وقد احسن حافظ ابراهيم فى رسم صورة قريبة للشاعر فى قوله :

يزين تواضعه نفسه ... كما زان حسن الملاح الخفر
زكي المشاعر عفّ الهوى ... شهي الاحاديث حلو السمر
زهدت على شهرة طبقت ... وجاه أظل وفضل بهر
رحمت فقد كنت حلو اللسان ... حلي البيان صَدوق الخبر
قليل التعجب جمّ الاناة ... حكيم الورود حكيم الصدر
ولم تَسْتَبِقْ نزوة فى الصبا ... ولم تستبح هفوة فى الكبر
شمائلك الغر هن الرياض ... روى عن شذاها نسيم السحر
لها مثل روح الدعاء استجيب ... فعافى وآوى وأغنى وسرّ
اذا ما وردت لها منهلا ... وردت نميرا لذيذ الخصر
وفكرك فى خصبه ثروة ... لفكر الاديب اذا ما افتقر

---

(٨) ديوان الشريف ـ طبعة بيروت ١٣٠٩ ) ص٧٦٩ ـ ٧٧٠ .
(٩) ديوان حافظ ـ طبعة دار الكتب : ١٩٣٧ ـ ٢١١ .

وديوان الرجل خفيف الحجم ذلك لان شاعرنا كان مقلا من جهة ومهملا لشعره من جهة اخرى فقد جمع ديوانه بعد موته وبذلت فى سبيل ذلك جهود مخلصة من أقربائه ومحبيه لولاها لما كان لصبري ديوان ولا شك فى ان بعض هذا الشعر قد اضيع وفقد الى الابد .

ومهما يكن من شيء فليست العبرة بالكم كما يقولون والشعر العالى الرفيع كالحجر الكريم لا يوزن الا بالقراريط وكذلك شعر صبرى :

يقول فيرخص در النحور ... ويغلي جمان بنات الفكر
يسوق القصار فيأبى العثار ... وكم من مطيل ممل عثر
قصار وحسب النهى انها ... لها معجزات قصار السور(١٠)

وشاعرنا نقادة ذواقة من طراز رفيع ، ومن يدري ، فقد يكون هو نفسه قد اسقط من شعره الكثير وما ابقى لنا الا على القليل .. وما ظنك بشاعر كان استاذا لشوقى وحافظ يعرضان عليه شعرهما ينقح ويهذب ويضيف ويشطب ، وما اخالك الا ذاكرا معى قول احمد شوقى مشيدا بتلمذته على شيخ القريض واستاذ الشعر :

هذا هو الريحان الا انه ... نفحات تلك الروضة المئناف
والدرُّ إلاَّ أنَّ مَهْدَ يتيمه ... بالأمس لُجَّةُ بحرك القَذَّاف
أيام أمرح فى غبارك ناشئا ... نهج المهار على غبار خصاف(١١)
اتعلم الغايات كيف ترام فى ... مضمار فضل أو مجال قواف(١٢)

وهذا حافظ ابراهيم يقول مشيدا بتلمذته على الرئيس :

لقد كنت أغشاه فى داره ... وناديه فيها زها وازدهر

---

(١٠) ديوان حافظ : ٢١١ .
(١١) فرس مشهور فى العرب .
(١٢) انظر ديوان شوقي ( مطبعة الاستقامة بالقاهرة ) حـ٣ ص١٠٨ .

وأعرض شعري على مسمع ... لطيف يحسّ نبوّ الوتر
على سمع باقعة حاضر ... يميز القديم من المبتكر
فيصقل لفظي صقل الجمان ... ويكسوه رقة أهل الحضر
فكنا الجداول نروي الظماء ... ظماء العقول وكان النهر

ولك ان تعلم بعد ذلك ان شاعرنا كان من المطبوعين فشعره يجرى على لسانه حين يشاء له طبعه ان يجرى فلا يمتلك الا ان يرسله رائقا عذبا كانه نغم من عبقر او تسبيحة من ملك •• ولم يكن شاعرنا ممن اتخذ من شعره سلما للمجد او سبيلا للشهرة او سببا يتسبب به الى جاه او سلطان حاش لله فقد كان شاعرنا زاهدا بالشهرة زرياً بها عارفاً قدر نفسه واضعاً اياها حيث ينبغى لها ان تكون •••

هذا على ان شعر الرجل اول عهده حفل بقصائد فى مديح بعض الامراء والسلاطين وعذره فى ذلك انه كان لما يزل بعد اول الطريق يقتفى آثار سابقيه لا يكاد يتبين موضع قدميه •• وشعر مثل هذا لا يقيم شاعراً لانه تجارب اولى لا تمثله على حقيقته انما يكون الشاعر فيها اصداء سواه ممن تتلمذ عليهم وحاول ان يسير على نهجهم ••

اننا اذا صدقنا القول المأثور ان الرجل هو الاسلوب والاسلوب هو الرجل فان ذلك اجلى ما يكون فى صبرى وشعره فكل ما أثر عن الرجل من رهافة ودماثة ورقة ووداعة ظهر واضحا جليا فى شعره فالميزة الاولى لهذا الشعر هى العذوبة والصفاء والسلاسة والسماحة ، فكأنك منه امام سيمفونية هادئة او رنة ناى عذبة او سقسقة عصفور غرد او همسة نسيم مسحور •• وبعد فما عسانى اقول فى هذا الشعر ، أأقول ان سمات الشعر الاصيل كلها مجسدة فيه ؟ أأقول انه الشعر الشعر بكل ما تحتويه هذه الكلمة من شفوف والوان ؟ أقوال انه هذا الخفى الذى يفعل فينا فعل

السحر وينتقل بنا من جو الى جو ويجعل لنا منا اجنحة تخفق بنا فى قصى العوالم؟

أجل انه هو الشعر الاصيل باعلى معانيه وأبهى شفوفه وانضر الوانه .

ولا اخالنى مبالغة ان لو قلت لك ان مثل هذا الشعر الرائع النفيس من الندرة بمكان فى دنيا الادب ذلك لأن قائله لم يصطنعه ولم يسع اليه ولم يتكلفه انما جاءه الشعر من تلقائه طيّعا ذلولا مسلما اليه الزمام .. ومن اجل ذلك كان هذا الشعر الى النفس سهلا ما يلبث ان يطرق الاسماع حتى يأخذ باسباب النفوس .. انه شعر الروح ولا مكان له اذن غير الارواح ..

ان اسماعيل صبرى نسيج وحده فى ادبنا الحديث وهو صاحب مدرسة تخرج عليها تلامذة نابهون اولهم شوقى امير شعرنا المعاصر ومن اجل ذلك كانوا يسمون شاعرنا تارة بالرئيس واخرى بشيخ القريض .

ويرى الرافعى انه لولا صبرى لما نبغ شوقى[١٣] .

ان صبرى عالم قائم بذاته فى شعرنا المعاصر .. فهو شاعر غنائى من الطراز الاول اغلب شعره مقطعات ، سائر موضوعاتها روحانى تأملى ، يكاد ينحصر فى تسبيح الله ، وعبادة الجمال ، وفلسفة الفناء .

واهم ما يبهرنا من هذا الشعر روعة موسيقاه ، وحلاوة جرسه ، ودفء عواطفه ، وشرف معانيه ، فانت اذا قرأت الهياته سبحت فى عوالم قدسية ونقلت من جوك المادى الارضى الى جو تكاد تسمع فيه حفيف اجنحة الملائك فانت ابدا منه بين خشوع متصل وايمان ثابت يذكرك بالمتصوفة الاوائل من السلف الصالح وتكاد تسمع فى نبراته الجنيد والحلاج ورابعة ...

---

(١٣) انظر ـ مقالة الرافعي فى صبري ( المقتطف ) .

انـا يا آلهي عنـد بابـك واقف ... لا أبتغي عنه الزمـان عـــدولا
ما جئت أطلب اجـــر ما قدمتـه ... حاشـا لجودك أن يكون قليـــلا
اني ليعجبني وقـــوفي ســـائلا ... ان كنت انت الســـيد المسئولا

او يقـول :

يا رب اين ترى تقـام جهنـم ... للظـالمين غـــدا وللاشـــرار ؟
لم يبق عفـــوك فى السموات العلى ... والارض شـبرا خاليـــا للنـــار
يا رب أهّلني لعطفـك واكفنـي ... شـطط العقـول وفتنـــة الافـــكار
ومر الوجود يشف عنك لكي أرى ... غضب اللطيف ورحمـــة الجبـار
يا عالم الإسـرار حسبي محنـــة ... علمي بأنك عالـــم الاســـرار

ونرى الله يلازم الشاعر حيث كان من ديوانه فهو لا ينى يذكره فى جميع اغراضه على السواء لان الايمان متغلغل فى عمق اعمـاق الشاعـر ولا ادرى فيم يتمثل لى لامرتين كلما قرأت اسماعيل صبرى؟ أ لأنّ كـلا الشاعرين رومانسي النزعة روحانى السمة يغلب عليهما التأمـل فى ذات الله والوجود والتسبيح بحمده والتكبير لجماله والخضوع لجبروتـه فـى الطبيعة والمرأة ؟ (١٤)

ان بين لامرتين وصبرى وجوه شبه كثيرة ان فى الشخصية وان فى الشاعرية ولئن اخطأنا لصبرى من شبيه بين ادباء العرب المعاصرين فمـــا ارانى اخطأته بين الشعراء الفرنسيين .

---

(١٤) اقرأ لامرتين فى مجموعته الشعرية Les Harmonies ولاسـيما قصيدته : Poésie ou Paysage dans le Golfe de Gênes

والتى يعلق عليها لامرتين بقوله :

"Ce sont des discriptins splendides de ces leaux lienx parlesquels mon âme finit par s'élever à Dien" Harmonies P. 27.

وترجمتها : « انها اوصاف رائعة لهذه الاماكن الجميلة التى انتهت فيها روحي الى الارتقاء الى الله » .

ولعل العباس بن الاحنف اشبه شاعر عربى من القدامى باسماعيل صبرى فكلاهما شاعر مطبوع ، وكلاهما شاعر ظريف ، وكلاهما شاعر غنائي صاحب مقطعات وكلاهما قرض الشعر للشعر ولم يسخره لرغبة ولا لرهبة ، واوجه الشبه بين الشاعرين كثيرة ليس هنا مجال حصرها حتى لكأنما جاء صبرى امتدادا لمدرسة ابن الاحنف التى تمخضت فيما بعد عن امير الشعر العربى المعاصر ( شوقى ) .

ان اسماعيل صبرى خير من عبد الجمال بروحانية مطلقة مبرءة من اوضار الجسد فاذا المرأة ملاك فى عينى الشاعر تحيط بها هالة من القدسية تنزهها عن شهوات الآدميين وترفعها عن نوازع الجسد وجموح الغرائز ولا عجب فاستاذه الاول ، اعني العباس بن الاحنف ، كان قد سبقه الى مثل هذه المعانى فى عبادة المرأة وتقديسها او ليس هو القائل يصف صاحبته « فوز » :

يا أيها السائل عن وصفها ... لقد وصفنا لو بلغناها
انك لو أبصرتها مرة ... أجللتها أن تتمناها[١٥]

وروحانية صبرى هذه جعلته غير أثر بهذا الحب انما هو يريد لهذا الجمال ان يسفر ولهذا العبير ان يضوع .. اسمعه يقول لصاحبته بملء فيه :

ان هذا الحسن كالماء الذي ... فيه للانفس رِيٌّ وشفاء
لا تذودي بعضنا عن ورده ... دون بعض واعدلي بين الظّماء[١٦]

او انه لا يتحرج أن يقول لها :

ساعفي آمال انضاء الهوى ... بقبول من سجايك رخاء

---

(١٥) انظر ديوان العباس بن الاحنف ( تحقيق عاتكة الخزرجى ) .
(١٦ و ١٧ ) انظر ديوان صبرى ص ١٠٧ ـ ١٠٨ .

وتجلّي واجعلي قـــوم الهـوى تحت عرش الشمس في الحكم سواء
واسفري تلك حُلىً ما خُلِقَتْ يتُوارى بلثـام او خبـاء (١٧)

وانت ترى معى ان هذا امر لم نعهده فى دنيا المحبين من قبل فالعاشق بطبعه أثر شديد الاثرة غيور اعنف الغيرة يريد المعشوقة لنفسه وحدهـا ويكاد يغار عليها حتى من الوحش والجماد ، والشعر العربى يعكس لنـا شتى الصور من امثال هذه الغيرة او الاستئثار بالمعشوق :

فهذا ابو صخر الهذلى يقول لنا فى رائيته :

تمنيت مـــن حُبِّي عُلَّية اننـــا على رَمَثٍ فى البحر ليس لنا وفر
على دائم لا يعبـر الفلك موجـــه على دائم لا يعبر الفلك موجه (١٨)

وهذا ابن الاحنف يقول :

الا ليت نعمى اذا حيـــل بيننـــا وتُجلى لنا أبصارنا حين نلتقي (١٩)

وجميل بثينة يقول :

ألا ليتني أعمى أصـــم تقـــودني بثينـة لا يَخفى عليّ كلامها (٢٠)

ولعل روحانية صبرى تفصح عن نفسها اروع ما تكون فى همزيتـه آنفـة الذكر فهو عف حيي ذو نخوة ومرؤة لا يخشى حتى على قداسـة من نزعاته وهواجسه ...

لا تخـافي شـــططا مـــن انفس تعثـر الصبـوة فيهـا بالحيـــاء
راضت النخـــوة من أخلاقنـــا وارتضى آدابنـــا صدق الـــولاء
فلـــو امتـــدت امانينـــا الى مَلَكٍ ما كدّرت ذاك الصفـــاء

---

(١٨) اقرأ رائية ابى صخر الامالى ١ : ١٤٧ .
(١٩) ديوان العباس بتحقيقنا ( قطعة ٣٩٣ : ٢) .
(٢٠) انظر ديوان جميل بثينة : ١٩٣ .

انـت روحانيّـــة لا تدّعـــي ان هذا الحسن من طين وماء![٢١]

وديوان صبرى يزخر بروائع المقطوعات فى وصف الحسن وصفا بارعا جميلا يذكرك بالبحترى فى حلاوة جرسه ونمنمة وشيه والا ماتراك تقول فى مثل قوله ؟

تمسي تذكرنـا الشـباب وعهـده هيفـاء مرهفـة القـوام فنذكـــر
تثب القلوب الى الرؤوس اذا بدت وتطلّ من حـدق العيون فتنظـر
وتبيـت تكفـر بالنحـــور قـلائد فاذا دنت مـن نحـــرها تستغفر
وتزيد فى فمهـا اللآلي قيمـــــة حتى يسـود كبيرهن الاصغر[٢١]

او فى مثل قوله :

يا من أقـام فؤادي اذ تملكـــه ما بين نارين من شوق ومن شجن
تفـديك اعين قوم حولك ازدحمت عطشى الى نهلة من وجهك الحسن
وتســـتعيذ اذا الفتـــك مبتسمـا عن لؤلؤ بالنهى حرزا من الفـتن
جردّت كل مليح من ملاحتـــه لـم تتق الله فى ظبي ولا غصـن
فاسـتبق للبدر بين الشهب رتبته تملكه فى أوجه عبدا بلا ثمن[٢٢]

ولئن اذكرتنا مقطوعاته الوصفية بديباجتها وجمال وشيها البحتـرى فمقطوعاته الوجدانية تذكرنا بشبيهه العباس بن الاحـنف لمـا بهـا من صدق اللوعة ودفء الوجد وشرف الغاية ومن هنا صلحت مقطوعات صبرى للغناء كما صلحت مقطوعات العباس من قبل ، فجرت فى لهـوات مشاهير المغنين نغما صافيا عذبا .. ومن منكم بالله لا يروى لصبرى هـذه الابيـات :

يا آسي الحي هل فتشت فى كبدي وهـل تبينت داء فى زواياهـــا
اواه من حـرق اودت بمعظمهـا ولـم تـــزل تتمشى فى بقـــاياها

---

(٢١) و (٢٢) ديوان صبري ص ١٠٩ ، ١١١ ، ١٢٤ .

يا شـوق رفقا باضلاع عصفت بها فالقلب يخفق ذعرا فى حناياهـا

او هـذه :

أقصر فؤادي فما الذكرى بنافعـة ولا بشـافعة فى ردّ مـا كـانا
سلا الفؤاد الذي شـاطرته زمنـا حمل الصبابة فاخفق وحدك الآنا
هلاّ أخذت لهـذا اليـوم اهبتـه من قبل ان تصبح الاشواق أشجانا ؟
لهفي عليك قضيت العمر مقتحمـا فى الوصل نارا وفى الهجران نيرانا

ولعل من اروع ما قرأت من شعر الوجدان اطلاقا قول صبرى يصف ساعة الوداع وصفا تخال فيه ان قلب الشاعر يتمزق اشلاء بين السطور .. اسمعه يخاطب قلبه بمثل هذا :

صفرت راحتاك الا من الـذكرى و ذكـرى ما مـرّ زاد الفقـير
اترى انت خـاذلني ساعة التوديع يا قلب فى غـد ام نصـيري ؟
ويك قـل لي متى أراك بجنبـي راضيا عن مـكانك المهجـور
ساعة البين قطعـة أنت قُـدّت للمحبـين من عـذاب السعير
لا تحينـي روحـي الفـداء لماحيـك غـدا مـن صحيفـة المقـدور

ويعرض صبرى لهذا المعنى نفسه فى قطعة ثانية تحس فيها بـرح الوجد ولذع اللوعـة :

تزود من الاقمار قبـل افولهـا لظلمة أيام الفـراق وطولهـا
فَرُبَّ وداع ينفع المـرءَ بعضُه اذا رضيتْ نفسُ امرىء بقليلها
غـدا تفعل الاشجان بالركب فعلها وتجتث هاتيك المنى من اصولهـا
ويدري أخو الاشواق سرّ هلوعه لذكر النوى والخوف قبل نزولها
لقـد بوغتت تلك المنى فتصرمت ولم تقض منها النفس ايسر سولها
أأنتَ رزينٌ أيها القلب فى غـد كعهدك ام سارٍ وراء حمولهـا ؟

اخالُ أنّ هذه الشواهد آيات بينات تشهد لصبرى بروحانيته وصفاء

وجدانه وتحجز له مكان الصدارة بين شعراء الوجدان فى ادبنا العربى كله على توالى العصور ..

ارجو الا يغيب انه الى جوار هذا الشعر الوجدانى الرائع والذى هو غرة ديوان الشاعر ابواب اخرى ثلاثة هى الاجتماعيات وشكوى الحياة والمراثى وأهم ما فى هذه الابواب الثلاثة جميعا هو شعر الرجل التأملى فى الناس والوجود والفناء وفلسفته المستخلصة من وراء ذلك .. ويبدو لك الشاعر ساخطا على الحياة والاحياء جميعا يشكو منهما شكوى مرة وينظر اليهما نظرة المتشكك المستريب .

ولصبرى فى هذا المجال غرر وعيون ولو لم يكن له غير قصائده الاربع :

اخلاق الناس

الدواة

الساعة

النونية على لسان فرعون

لكان حسبه ولكان فى هذه الاربع وحدها ما يرفعه الى القمة بين الشعراء التأمليين ، وانت واجد فى هذه القصائد جميعا تحليلا دقيقا لاخلاق الناس ونفاقهم ولؤمهم وجشعهم وتكالبهم وانت واجد فيها كذلك تفاهة الحياة وبرقها الخلب وسرابها الكذوب وانت واجد فيها ايضا انسانية الشاعر ونزعته الاكيدة الى الخير وانت واجد فيها اخيرا طموح الشاعر واستنهاضه نيام الهمم يترجمه بيته السائر :

لا تقربوا النيل ان لم تعملوا عملا  فماؤه العذب لم يخلق لكسلان

ومن شعره البالغ فى الحسن والجودة الغاية ، القصيدة التى يصف بها نفاق الناس بمثل هذه السخرية المرة :

غاض ماء الحياء من كل وجه فغدا كالح الجوانب قفرا
وتفشّى العقوق في الناس حتى كاد رَدّ السلام يحسب بِرّا
أوجه مثلما نشرت على الاجداث ورداً إنْ هُنّ ابدين بشرا
وشفاه يقلن أهلا ولو أدّيْن ما في الحشا لَمَا قُلْنَ خيرا
عَمْرَك الله هل سلام واد ذاك ام حاول المُسلّم امرا ؟
تعب الفيلسوف في الناس عصرا وتولّى السرائر الدين عصرا
والورى طارد ازاء طريد وعقاب تمسي تطارد صقرا
وجيوش يغلُّ من بعضها البعض وهضب كبرى تناطح صغرى
عبر كلها الحياة ولكن أين من يفتح الكتاب ويقرا ؟

ويبلغ الغضب بالشاعر غايته فيملى عليه قوله :

ان يكن في يمينك الموت فاقذفه شواظا على الخلائق طرا
هل تلقيت من لدن خاذل الباغي وحامي الضعيف يا نجم سرا
اغداً تستوي الانوف فلا ينظر قوم قوماً على الارض شزرا ؟
اغدا كلنا تراب ولا ملك خلاف التراب برا وبحرا ؟
اغدا يصبح الصراع عناقا في الهيولى ويصبح العبد حرا ؟

اما نزعة الشاعر الخيرة فهى اجلى ما تكون فى قصيدة الدواة اذ يناشدها الشاعر ان تكون رسول خير ومحبة للابرار الآمنين ونذير شؤم ونقمة للاشرار الآثمين ، وكأنى به يلخص فى هذه القصيدة رسالة القلم وتبعة الادب ، ولله ما أكرمها رسالة وما اجلّها تبعة ..

يا دواة اجلي مدادك ورْدا لوفود الاقلام حينا فحينا
وليكن كالزمان حالا فحالا تارة آسنا واخرى معينا
اكرمي العلم وامنحي خادميه ماءك الغاليَ النفيس الثمينا
وابذلي الصافيَ المُطَهَّرَ منه لهُداةِ السرائر المرشدينا

واذا كان فيك نقطة سوء ... كونت من خبائه تكوينا
فاجعليها قسط الذين استباحوا ... في السياسات حرمة الاضعفينا
واذا خفت ان يكون من اللفظ ... جلاميدَ ترجم السامعينا
فابخلي بالمداد بُخلاً وان أعطيتِ ... فيه المثِينَ ثم المئينا
فاذا اعوز المدادُ طبيبا ... يصف الداء دائبا مستعينا
فلمنحيه المداد مَنّاً وعرفا ... واستطيبي معونة المحسنينا
واذا مهجة الحمائم أسدت ... نقطة سرّها الزكي المصونا
فاجعليها على المودات وقفا ... وهبيها رسائل الشيّنا
فاذا لم يكن بقلبك الا ... ما أعدّ الاخلاص للخلصينا
فاجعليه حظي لا كتب منه ... شرح حالي لسيد المرسلينا

اظنكم سادتي تشاركونني الإعجاب البالغ بهذه القطعة وما تنطوي عليه من شرف المعنى ونبل الغاية وجميل الاداء .

ولتكن ابيات صبري في الساعة مسك ما اختاره لكم من بدائع شعره التأملي لقد كتب الشاعر هذه الابيات وكان قد دخل كنيسة رمس المشهورة بفرنسا فرأى مكتوبا على عقرب احدى ساعاتها ما ترجمته : كلهن جارحات والاخيرة القاتلة .. فاوحت هذه العبارة اليه بهذه القصيدة :

كم ساعة آلمني مَسُّها ... وأزعجتني يدها القاسية
فتشت فيها جاهدا لم أجد ... هنيهة واحدة صافية
وكم سقتني المُرَّ اخت لها ... فرحت اشكوها الى التالية
فاسلمتني هذه عَنوةً ... لساعة اخرى وبي ما به
ويحك يا مسكين هل تشتكي ... جارحة الظفر الى ضاريه
حاذِرْ من الساعات ويل لمن ... يأمن تلك الفئة الطاغيه
وان تجد من بينها ساعة ... جُعبتُها من غصص خالية
فآله بها لَهْوَ الحكيم الذي ... لم يُنْسِهِ حاضرُه ماضيه

ولعل العجب كل العجب ان يصدر شعر مثل هذا من شاعر مترف كصبرى ولد فى احضان النعمة وتقلب فى اعطاف العز وسعى اليه الجاه يأكل فى صحاف الذهب ويمشى على ارض من الخز ويظله قصر ..

قد تبدو لك نظرة صبرى قاتمة الى الحياة والاحياء رغم ما يحف به من مظاهر البهجة ؟ وهنا تكمن عظمة الشاعر اذ يرى الاشياء لا بما هى عليه بل بما ستؤول اليه ولا يراها بظاهرها المموه انما تبدو له بباطنها الحق .. فلا عجب من بعد ان رأى برق الحياة خلبا كذوبا ولمح من وراء ابتسامها تكشيرة كاسر يهم ان ينقض على الفريسة ..

لا عجب من ثم ان نرى الشاعر يهيب بعزيز له مات بمثل هذا القول وكيانه يعتصر اسى ويقطر مرارة :

هنيئاً لدار يتميتها ... لقد زارها المَلَكُ الاطيبُ
تنعت فيها وخلفتني ... لدى منزل برْقُهُ خُلَّبُ
وداد الصديق به حُوَّلُ ... وقَلْبُ الصديق به قُلَّبُ
وصَعْبٌ على الحُرِّ فيها المقام ... ولكنَّ هِجرانَه أصعب

عساي وقد بلغت هذا المبلغ من حديثى عن الشاعر قد وُفِّقت ولو الى حد لرسم الخطوط التى ارجو ان تكون واضحة عن الشاعر الروحانى الغنائى المحدث الظريف اسماعيل صبرى بما تحدثت به اليكم مستعينة بالعذب المختار من شعره وقد تعمدت ان تكون هذه المختارات وافية لتعطيكم صورة قريبة واضحة من الشاعر الذى اردت له ان يكون ملء الاسماع والقلوب فعساني وفقت والا فلي من صدوركم السمحة متسع ورجائى فى عفوكم كبير .

## بعض المصادر

### (١) الدواوين العربية


| | |
|---|---|
| احمد شوقى | ديوان احمد شوقى |
| اسماعيل صبرى | ديوان اسماعيل صبرى |
| حافظ ابراهيم | ديوان حافظ ابراهيم |
| العباس بن الاحنف | ديوان العباس بن الاحنف |


### (٢) الدواين الفرنسية


| | |
|---|---|
| Lamartine | Harmonies<br>Classiqies Larousse<br>Poe'sies |
| Alfred de Musset | Ouvies Completes<br>Tome I Paris 1866 |


### (٣) الكتب


| | |
|---|---|
| احمد حسن الزيات | تاريخ الادب العربي |
| حنا فاخورى | تاريخ الادب العربي |
| الزركلي | الاعـلام |
| احمد الاسكندرى | المنتخب من ادب العرب |
| يوسف اسعد داغر | مصادر الدراسة الادبية ج٢ |
| بدوى طبانة | التيارات المعاصرة فى النقد الادبى |
| صلاح الدين المنجد | الظرفاء و الشحاذون |
| العقاد | شعراء مصر وبيئاتهم |
| عمر الدسوقى | فى الادب الحديث |
| محمد صبرى | ادب و تاريخ |
| الوشاى | الموشى |

## (٤) المجلات


١ ـ مجلة ابولو سبيمتر ١٩٣٤ ، ١٠٠ ـ ٢٠٨
( مقالة طويلة لاحمد محرم )

٢ ـ مجلة الكشاف ٤ : ٩ ـ ١٤ مقالة لبدر الدين حامد عنوانهـــا
لمحة عن اسماعيل صبرى

٣ ـ مجلة المقتطف ٦٢ : ٤٥١ ـ ٤٦٠ (١٩٣٣)
مقالة لمصطفى صادق الرافعى

٤ ـ الرسالة عدد ٩ (١٩٣٣) ٢٤١
مقالة لعبدالحميد عبدالغني

٥ ـ المجمع العلمي العربي ٥ : ١٣٠ ، ٨ : ٣٠٥
مقالة لمحمد كرد علي ـ الانشاء والمنشئون ٠